

لِجَيِّدٍ وَعَدِّ الْكَامِلِينَ

الْإِمَامُ

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

عَبْدُ الْفَتْاحِ عَبْدُ الْقُصُودِ



مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعِرْفَانِ - بَيْرُوتَ



www.haydarya.com

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الثالث

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

هدية الشهيد السيد
المسيد من الدون بحر العلوم
لمكتبة الروضة البهية

٢٩٢٩



لم يكن خافياً عليه ما بيتوا ، بل كان أمامه كما في كتاب مفتوح . . إن له عينا بكل مكان حسبوا أنهم يأمنون فيه الرقيب ، وله في أرضهم رجال لم تقدمهم الشدة عن الولاء له ، ونسوة وددن لو افتدينه وجنبته المصير الذي راح يعده أولئك الخصوم . ولئن كانت مكة لذلك العهد حصن عدوه وموئله ، فإن حركات أهلها كانت لديه محصاة لا يغيب عنها تفصيل . وكانت الكتب ترد منها عليه وهو بظاهر المدينة في النفر القليل من رجاله الذين خرج بهم يبتغي — في البدء — أرض الشام . وإنها لتحمل له صوراً واضحة من مأساة الفتنة ، وتكشف عن كثير من الخطوط التي رسمها المتآمرون عليه من أجل السلطان . فما أغفلت الرقاع الآتية من البلدة الحرام حركات الجند المتأهب ، ولا تدبير الحزب المفتون باحتلاب السيادة ، ولا الموارد التي غدت جيش عدوه بالعتاد . . وحتى حديث الحمس والمسارة بين كبار مناوئيه لم يقف به دون علمه أن كان في خلوة بين الجدران الصماء !

فلعله أسف إذ استعرض هذه الصورة وجال بعين ذهنه فيها تومئ إليه . إنها نذر الانحلال ، وبوادر التدهور الخلقى تتجمع في أفق الإسلام كما تتجمع علامم العاصفة ولما يكديغ عن عيون الناس طيف الرسول . فما هي « الدنيا » تنتصر ثائرة أو توشك على الانتصار كأنها قد تمجلت النار . . . وما هي « المادة » ترفع ألويتها على أنقاض الروح وما جف بعد اللداد الذي سطوروا به تعاليم الدين . إن حب الحياة الذي أورد الغابرين مهاوى الهلكة قد هم يطرح أمته الناشئة في الغابرين ، وأهواء الأتقى التي ألهبها سياط الأطماع راحت ترين على صفاء القلوب . ولو أن الخلاف الناشب كان مناجزة حرة بين فكرة وفكرة لوسعه أن يقدم باسم الثغر كفارس يلقى كفؤاً له في ميدان نزال . ولكنها كانت أشبه بإغارة قطاع طريق استبيحت فيها البادية النلى وجيشت قوى الهدم والظلام

مكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية

تريد أن تطغى على البناء والنور . وهل غاب يا ترى من حقه جانب عن أولئك الذين قاموا يناصبونه العداء ؟ . . .

ليس هذا عليه بجديد : ليس هذا كله نبت ساعته بل هو قديم ممتد في غور الماضي بكذور دوحة موغلة في الأرض حتى الصخر أو نبع الماء . فقد كان دائماً فريسة بغضاء مجنونة ، وضحية اختارتها شياطين الحسد لتكون قربانا يتقدم به قومه على مذبحها البغيض . وإنه لصورة أخرى مما أريد برسول الله لولا أن عصمه ربه فأتقذه من بين مخالب الغل الفوار في الصدور . فاسمعه كيف يجيب عقيلاً أخاه حين أتاه منه ما ينبئ عن تجهيز القوم لحربه بعد نكثهم بيعته وخلعهم ما كان في رقابهم له من ولاء مفروض .

« . . . دع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال ، وتجوالم في الشقاق ، وجماحهم في التيه . فإنهم قد أجمعوا على حربى كإجماعهم على حرب رسول الله قبلى . . . جزت قريشاً عنى الجوازي . . . لقد جهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، وقطعوا رحمى . وسلبونى سلطان ابن أمى ، وجدوا فى إطفاء نور الله . . . » .

كان يعلم هذا كله من البدء ، ويوطن النفس على الاصطلاء بنيرانه . وما أغفل قط من حسابه أن الزمن سوف يتكشف له يوماً عن حرب تشنها عليه النفوس المقروحة وتتقدم فيها بكل سلاح وبأى سلاح تستطيع أن تشهره . فلم يعجب قط حين جاءت الأخبار بائتلاف النقاض عليه ممثلة فى الوائر وفى الموتور . . . نعم ، فقد اجتمع أولياء السم المهرق بمن عملوا جهد طاقتهم على إراقته وسفكه . . . اجتمع بنو أمية وأولياء عثمان الشهيد بأولئك الذين فرشوا الأرض تحت قدمى الخليفة الشيخ بالقتاد ووضعوا الحجر المسموم فى أيدي قاتليه ، وتآلفت من النقيضين قوة موحدة الغرض هدفها الأول هو القضاء على مظلوم جديد !

ولكنه تقبل هذا منهم بنفس راضية ، ألهمها حقها الثقة ، فلم تستشعر الخوف من المجهول القادم ، ولا أشفت مما عسى أن تنجاب عنه الأيام من مصير

مظلم أو مرهوب . أليس طريق الصواب واضح المعالم وإن اعترضه الصخر وتناثرت فيه الأشواك ؟ . . . وهل الحق إلا أولى بالبذل وإن مدت سبله المشاق والصعاب ؟ . إنه لكاف دائماً باستهداف غايته ، وإنها لأمثل الغايات ، ولن يقعه عنها حائل أو يموت . فليدع إذن أولئك المناجزين وما وطنوا عزهم عليه ، فما أهونهم عنده إذ اصطنعوا باطلا والتفوا به ينصرونه ، كأنهم عابد الوثن يصنعه بيده من حجر الأرض ثم تعنوا جبهته بالسجود له ! وما أكثر مزالقهم بعد ، لأن الخطأ الأول سوف يقود حتماً إلى سلسلة أخرى من الأخطاء والضلالات — تماماً كطليعة الإبل في القافلة يجر خلفه قطاراً طويلاً من الجمال ! وحسبه الآن ، مصداقاً لشعوره ، هذه البوادر التي أخذت تبدو له خلال أعمالهم حين حاولوا التماس المنعة بتأليب القوى عليه وساروا في الطريق الملتوية معصوبي الأعين . . . فقد تنادوا بدعوة ظالمة ، وأغروا باتباعهم كل مفتون ، وشطروا وحدة الأمة . فلما تبينوا أنفسهم في ساحة كفاح يجب أن يوفرؤا عتاده وعدته ، أقبلوا في لفة يمدون أيديهم إلى مال حرام فاحتجزوه ، واستباحوه ، ثم قدموه وقوداً لهذا الكفاح الحرام !

هكذا فعل القوم ، وإلى مثل هذا المنحدر انزالت أقدامهم . . . فقد أباحهم ابن عامر ما جلبه من أموال البصرة بعد خروجه منها ، ووهبهم يعلى بن منية ما حملة من أموال صنعاء . وما كان لأى الرجلين حق فيما وهب وأباح إلا كما لرسول من رسالة مولاه . فقد كانت العادة السنوية أن يجتمع عمال الأمصار في موسم الحج بالخليفة كل عام ومعه ما وسعهم جمعه من خراج ليسلموه إياه كي يضمه إلى بيت المال ويعدده للإتفاق في الأوجة التي يراها تعود بالخير على مجموع الأمة . فهم أمناء حفاظ على ما جلبوه وليسوا يملكون توليه بالبذل ولا بالعطاء . ولكن هذين استهوتهما الدعوة التي تنادت بها عائشة في أرجاء مكة عقيب مصرع عثمان فانحازا إليها ، وأقرنهما هي وصاحبها على احتجاز أموال المسلمين لخدمة مأرب خاص ، ولتكون عدة الحرب الأهلية التي لن تلبث أن تستشري وتفكك عرى الإسلام .

لكم آلم عليا أن يرى صفوة قومه فريسة للهوى المغرض ، هم الذين كانوا
أكرم على نفسه من أن ينزلقوا في مثل هذا الهوى الذي احتفرت له الأطماع ،
وأولى الناس عنده بمجانبة الباطل ، وأجدرهم بمدانة التنزه والسمو على مآثم
الحياة ... ولكنهم اختاروا لأنفسهم ، وسلكوا الطريق الذي شاءوا دون تردد
كثير . ولعل منهم طائفة استشعروا الندم على ما اقترفوا ، واستجابت لهم ضمائرهم
بالوخز ، ولكنها يقظة مداعة ثم راحت القلوب بعدها في سبات ! إنه دون ريب
ندم موقوف ، ووخز كأنه مس كف حنون ! فلقد ساروا أشواطاً تعذر بعدها
النكوص ، وبدا الهدف البراق يلتصع لهم من قريب على قيد ذراع ! . . .

لات حين ارتداد ! . . . النكوص على العقب الآن عسير وإن كان في نصرة
واجب ، والإقدام هين يسير وإن كان في نصرة فتنة ، وما إلى وجهة الحق الذي
خلفوه دبر الظهور منفذ بعد أن وقفت نزغات الأنفس وأحلام النصر تسد
المسالك كمردة الظلام ! . . . ولكنك مع هذا لا تعدم عذرا لكل مفتون ضال
يضيفه إلى صحيفته ، ويحرص أن تنعكس أخطاؤه من خلاله كالآثر ، لأن الإقرار
بالذنب على النفس ثقل . . . وهذه عائشة تزعم أنها ما دعت دعوتها تلك
إلا وهي تبتغي من ورائها توحيد الكلمة ، وما نهضت إلا لتعاجز بين أتباع
على وبين الذين تواروا خلف الطلب بدم عثمان . . . تزعم هذا هي التي صاحت
صيحة البسوس — غب المصرع — تستنهض الناس للثأر ، ثم سارت على رأسهم
تحدوهم للحرب وتشحن عزائمهم ليشيروا فتنة شعواء على البلاد التي كانت تدين
للإمام بالولاء . . . فما كان أصدق نظرة ضررتها أم سلمة وأبلغ كلماتها حين أرسلت
إليها تقول :

« . . . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على
قعود من الإبل من منهل إلى منهل ؟ . . . ما كنت قائلة وقد هتكت حجاب
الذي ضرب الله عليك ؟ . . . ألا لو أنني أتيت الذي تريد ثم قيل لي : ادخلي
الجنة ، لاستحييت أن ألقى الله ! . . . »

ولكن ابنة أبي بكر مضت لطيتها ، ولم تقعد لها هذه النصيحة الخالصة عما انتوته . لقد كانت تشعر أن الأقدار نصبتها لأمر خطير ، وأن فرصة العمر جاءت لها أخيراً دون تدبير . . . ولئن قامت أم سلمة تثبط همتها ، وتحاول بالحجة ومنطق اللسان أن تحول بينها وما تبتغيه فهذا من السيدة الناصحة معلوم مفهوم ولكنه غير مقبول . فتمت أقرتها عائشة على أمر . وكيف تنتظر أن تحظى منها بالرضا والإقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التنافر والازورار ؟ . . . إنها لم تكن قط لها صاحبة تروح إليها النفس ، ولم يجمعهما أبداً فكر وإن جمعهما رجل ، وما زاد ما بينهما — وما نقص — عما يكون عادة بين الضرائر من تباعد المشاعر . وها هو الماضي يطل عليها فلا ترى في ذكرياته إلا صوراً من التنافس بين الضرة التي جعلها الحسن والضرة التي جعلها الصبا والشباب ، تنهافت كلاهما على حب الزوج المحبوب . . . وأما الأمومة فقد كانا في ميدانها سيان ، حرمتها الطبيعة نعمتها إذ ضنت عليهما معاً بنسل طاهر من صلب سيد الناس . ولكن إحداها ذاقها من قبل فلما أن احتواها بيت محمد ووسع قلبه الكبير أبناءها الذين أصابهم ذل اليتيم ، كان قلبها ما زال نابضا بعاطفة الأم فراحت تفيض من ذخرها على الزهراء المحرومة من حنان الأم . واستطاعت برقتها أن تعوض عليها بعض عواطف خديجة حتى تجاذبت روح المرأة وروح الفتاة . أما الأخرى فكانت طفلة — طفلة في حساب الزمن وفي حساب المشاعر الناضجة . . . كان قلبها الصغير أضيق من أن تسع رقعة حبا آخر إلى جوار حبها الزوج ، فبقيت عمرها كله مفتونة برجلها دون سواه ، حريصة على ألا يشركها غيرها فيه وإن كان ابنته الزهراء . . .

ولقد كان طبعياً أن تعترض أم سلمة سبيل عائشة اليوم ، وتجهد لتحولها عنه . فما هي إلا أم لفاطمة بالعاطفة والتآلف ، تحرص ما وسعها على إسعاد ابنتها ثم على إسعاد زوجها بعد أن غاب جدتها في التراب . وإنها لخليقة الآن إذن بأن تحفظ ذكرى الطاهرة التي ارتحلت ، وتجدد ولاءها لها بالولاء لزوجها الإمام . بل الأليق بها في الحنة الحاضرة أن تشهر — لو استطاعت — سيفاً

في وجوه خصومه ومبغضيه وتقود جحشاً ضحاً من الموالين لتقطع على ضررتها وصحبها درب الفتنة الذي ارتادوه وتدفعهم عنه بقوة الحديد ! ولكنها كانت امرأة تعرف ما خلقت له فلم تقم نفسها في غير ما هيأتها له الطبيعة ، وآثرت النصح — في البدء — تزجيته عسى أن يصلح الله به نفوس من جانبوا الروية والحكمة ومالوا مع الهوى الدآى حيث مال . . . كانت تأمل في بقية من رشاد بعقول القوم العادين كفيلة بردهم إلى الصواب فعلقت أملها المخدوع بسراب .

٢

عاد ثانية إلى الحياة ذلك الصراع الحفى الذى طوته الأعوام . . . برز من الماضى بما فيه من مرارة وذكريات تهيج التنافر القديم ، واستوى قائماً على قدميه ليأخذ مكانه في قيادة الأحداث . فما نعة صفحة حب ولا صفحة حرب إلا سطرها مداد العوامل النفسية التى تتناوب القلوب الإنسانية . ولا مصير لأمة أو لفرد إلا استوحت الأقدار عواطف النفوس قبل إبرامه . عائشة تعلم هذا تمام العلم لأنها في الفتنة القائمة أمثولة الحية . . . فما بالها أغفلته من حسابها اليوم ؟ . أم ترى آثرت أن تنساه لحظة من زمان وهي تحسب أن فسحة الوقت التى مضت راكدة بعد وفاة الرسول قد سلت بذرة النفور من قلب ضررتها ؟ . . إن الزمن لم يفعل شيئاً ، ولم يشفها هى أيضاً من شعورها العابر ، وما استطاع فيما نرى إلا أن يغيب إحساسهما المتبادل تحت متر رقيق من أعوامه . فلعلها أسيت بعد أن تقدمت إلى أم سلمة تستنصرها على الإمام وأخفقت فيما ترجوه . ولعلها قد استشعرت طعم الندم بعد هذا الرد الذى جاءها ناطقاً باللام . فما كان أغناها عنه وعما طوى من ترفع واستعلاء . أفاشت حتى ترى تلك تزجيها النصح وتبصرها بمواطن النعى والرشاد ؟ . أما زالت في عين السيدة نفس الطفلة الصغيرة الغريرة التى يلزمها التدبر ويعوزها حسن الإدراك ؟ .

في الحق أبداها النصح — في عين نفسها أيضاً — صغيرة ، هى السيدة

الأولى في الإسلام التي يتلقف الناس الحكمة من طرف لسانها وينهلون من علمها كما يفعل الظالمى* بنبع الماء ، يقبل وهو صاد ويصدر وهو ريان . . . ولكن ضررتها المتمرسة بالحياة عرفت كيف تلعب أمامها دور المؤدب، وراحت بين وقت وآخر ترسم لها طريق السداد . . . فلم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي تقدمت فيها إليها بالنصح ، ولم ينته عندها دورها الكبير ! وكم طالما بذلت لها الحكمة في رفق ، ، وبصرتها بعاقبة ما تسير فيه غير مدخرة وسعاً في الكشف لها عن الحقائق التي سترها هوى النفوس . بل قد عمدت في أحاديثها إلى صفحات من حياة الرسول قلبها أمام ناظرها لتريها آيات من إعزازه وتقديره للإمام ، ولتبدي لها صوراً واضحة المعالم بليغة الدلالات قال فيها الإلهام النبوي كلمته العليا في قدر هذا المظلوم وما سوف يترتب له به أعداؤه البغاة . . . وإن قصة واحدة مما روته لها أم سلمة كانت حرية وحدها بتنكيس السيوف المشرعة وتفريق الجند المتأهب لهذا النضال الحرام . ولكن القدر كان قد أبرم قضاءه فلم يهد النصح المبذول . وكانت القلوب الشائنة قد امتلأت إلى حاقها بأحقاد الماضي ولا بد لها أن تفيض . وعميت العيون التي عصبتها الأغراض فراح أصحابها يتخبطون في الظلمات المتراكبة حولهم ولا يشعرون أنهم يقتحمون درب الضلال .

على أي حال وضعت عائشة نصيح السيدة دبر أذنيها فلم تع منه إلا أنه أتاها على لسان ضرة . . . ومضت في سبيلها تستعدى على غريمها من توسمت فيهم الاستجابة لدعوتها مبادرين . وما كان أكثر من جمعتهما وأياهم وحدة الفكر واتساق الشعور . . . فلتول إذن وجهها إلى معسكرها . . . إلى الذين يدينون لها بالولاء وتنفى ذواتهم في شخصيتها القوية الطاغية . وإذا أريد لدعوة أن تبلغ الأسماع وتهفو النفوس لها بالانصياع فليلتف بها أولاً صاحب هيبة أو اسم رنان . وكان هذا ميسوراً اليوم بعد أن انحاز الزبير وطلحة إلى الدعوة فضمنت بهما نصرة الكثير من رجالهم بالكوفة والبصرة . ولكنها شاءت أيضاً لحركتها أن تبدو لغير غرض دنيوى خاص ، وفي سبيل شيء آخر سوى التناحر على الخلافة وجاء السلطان . ولم يكن خافياً عليها أن صاحبها هذين قد أغرقتهما الأطماع

السياسية حق الأذنين ، وأن وجودها - دون سواها من ذوى الماضى البراق - إلى جوارها قد يدمغ الدعوة بسمة التطلع إلى زخرف المنصب . فراحت تجد لتضم إليها نوعاً آخر من العلية الذين لم تعلق بأذيالهم أمثال هذه الشبهات .

ولم يكن هذا عليها بعزير - هكذا لاح لها الأمر فى بدئه ومكة إذ ذاك تموج فى موسم الحج بنخبة من الرجال والنساء توفى سمعهم على مراتب القداسة ، ولأسمائهم رنة فى الأسماء تغزو لها قلوب عامة القوم بالإكبار . وهل ثمة أثر عند الناس من أزواج الرسول ؟ . . . إنهم يتنسعون من ثيابهن روح الهداية ويتبعونهن كما يتبعون مشاعل نور . وإن كانت أم سلمة قد أبت الانحياز لحسب عائشة سواها كثيرات . بل كفاها من بينهن أن تضم ابنة عمر الجبار .

وكرة ثانية وحدث العاطفة بين السيدتين ابنتى أول خليفتين فى الإسلام . فكأنما عاد الحزب القرشى المناهض للخلافة الطبيعية إلى الحياة . وكأنما بعث أبوبكر وعمر إلى هذه الدنيا يعيدان ما أبرماه فى البدء ويحولان بين على وبين حقه فى ولاية الأمر كما فعلا غب موت الرسول . ولم يكن عجيباً أن تنهاز حفصة إلى جانب عائشة وتشد أزرها فى إشعال نار الفتنة المقبلة ، بل العجب لو ترددت أياً ترددت هى التى كانت ذيلها طول حياتهما الزوجية تعمل برأيها ، وتسير على السنن الذى رسمه حتى فى الشئون البيتية ، وترجح كفتها على الدوام لو وقع بينها وبين غيرها من الزوجات أدنى خلاف إن ابنة عمر الجبار لم تنحلها الأقدار شيئاً من شخصية أبيها العاتية فرضيت من قبل أن تعيش فى ظلال عائشة ، وهى اليوم تلعب دورها السابق بنفس الإتيقان ، سواء أكان مرد هذا إلى اعتيادها عليه أم إلى بقية من شعورها القديم بالنفور من الرجل الذى نافس أباه ذات يوم على سلطان الإسلام أما بقية من كن بمكة من أزواج محمد فأمرهن على عائشة هين ، فقد ألفوا الاتقياد لها وهى بعد طفله حين كان لها فى بيوت الرسول ما يشبه العرش والصولجان وهاهن أولاء فى ركابها ثانية ، أشارت فتبعنها مسلمات الوجوه ، تماماً كما كن فى الماضى لا يصدرن عن عمل قد يغضب سيدة الزوجات

فلعل عائشة حسبت أنها قد كسبت بهن قوة ، وخرجت بالدعوة من دائرة الشبهة في خضوعها لشرعة السياسة إلى نطاق العمل في سبيل مطلب سام يتطلب الفداء ونكران الذات . ولكنها في الواقع ظلت بعيدة عن الرضا بما فازت به ، وظل أصحابها أيضاً كذلك . وهل فات الناس أن يتبينوا الحقائق الخفية من وراء هذا الستار الرقيق ؟ . . هل يستطيع انضمام زوجات رسول الله إلى دعوتها أن يجعلها في عيوسهم خالصة لوجه الحق بعيدة عن المطامع والآراب ؟ . . هل يستر انحيازهن إلى صفها ما كان معروفاً من تكالب كل من عداهن في ذلك الحزب على أبهة الحكم ! إن طلائع نفسه استشعر في حركتهم ثغرة وجب أن يسدوها حتى يستقيم لهم الأمر باطمئنان الناس إلى خلوص الدعوة من الأطماع الذاتية وبعدها عن أن تكون مطية لخدمة غرض خاص . وكاشف بهذا صاحبه الزير ذات يوم :

« . . . ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر . . . »

فأسرع يستجيب له . وانطلقا سوياً إلى الرجل الذي لا يشك امرؤ مطلقاً في أنه قد باعد ما بينه وبين الدنيا واشترى دينه بزخرف الحياة . . . فلو أن مثله انضم إلى الحزب لكان عنواننا براقاً أمام الشعب . . .

قلنا له يبسطان الأمر بالطريقة التي يحسبانها تغريه :

« يا أبا عبد الرحمن . . . إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس . فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة . . . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها . » فما أبهظ الثمن الذي يعدانه لو أنهما صدقاه القول ! . . ولكنه في حساب النفوس النقية هين تافه ، وإن كان جاء للنصب ، وإن كان عز الدنيا ، وإن كان عرشاً يضم ما بين قرني الشمس . . .

وتبسم لهما ضاحكا ، ثم قال بهدوء :

« ... أتريدان أن تخرجاني من بيتي ثم تلقياني بين مخالب ابن أبي طالب ؟ »

أيها الشيخان ، إن الناس إنما يخذعون بالدينار والدرهم ، وقد تركت هذا الأمر ،
فانصرفا عنى . . . »

فخرجا من لدنه وقد خبا في صدريهما أمل وهاج . ومع ذلك فلا بد للقافلة
أن تسير . . . لقد قطعنا من الشوط مراحل طويلة وجب بعدها أن يتأخر الرحلة .
أما إلى أين المسير فهذا لعائشة وحدها تبنت فيه ، وما عليهما إلا الاثثار بما تراه
لأنها تضفي بشخصيتها على حركتهما نوعا من القداسة في أعين الكثيرين وهو
أمر له حسابه في نجاح المشروع . .

كانت ابنة أبي بكر منذ البدء ترى تسديد الضربة أولا إلى القلب فتداعى
بعده سائر الأعضاء ، وتحنف ، لو نجحت ، بقية الأمصار في الدولة الإسلامية
إلى الخضوع . وكانت الخطة في ظاهرها معقولة ، تتفق وما قامت فيه من وجوب
القضاء على رجال الثورة التي قضت على عثمان . وإذا رأت أولئك الغوغاء قد لاذوا
بالمدينة ، وانتف بهم الأعراب والمبيد فيها ، فقد بان لها أن السير إليهم هو العمل
الوحيد الذي يخلص منهم حاضرة الإسلام ويستأصل شأفتهم من بقية البلاد . .
ولم يكن رأى الزبير وطلحة يعارض هذا التدبير — أو هكذا فهم الناس مما ردداه .
ولكنهما اليوم يستشعران رهبة ، ويتوقعان فشلا ساحقاً لهذه الحملة العسكرية
المعدة يقضى إلى أبد الدهر على حلمهما المنشود . فما لرجالهم طاقة بأولئك التأثيرين
التأهيبين لرد القصاص المنتظر غاية التأهب . ولن يدع ابن أبي طالب أيضا عاصمته
نهياً مستباحا للقوى المقتتلة تفعل بها ما تشاء وهو جالس يقلب ناظريه في سكون.
إنه صاحب الرأى الأخير ، وله حق الدفاع عن دولته أمام أى الناس تحدته
نفسه بحمل السلاح ، وليس يملك سواه إقرار النظام فيها سواء بالقضاء على
عناصر الشغب أو بالضرب على أيدي غيرهم ممن يحاولون الانفراد دونه بالعمل
كأنهم قوامون عليه . ولقد أوضح لهم رأيه من قبل ، ودعاهم إلى الحذر والترث
حق تسكن الفتنة ، ويتبين كل موقفه منها ، وتحف قبضة الثوار عن عنق الدولة
وهو اليوم كمثل بالأمس ، لن يدع هيئته ملهاة في يدي عابث يسترعبه بالنار
لظلم . وهبه خلى بينهم وبين ما يريدون ثم أظهرهم الله على الثارين .

أفئمة نتيجة سينجاب عنها النصر إلا استتباب الأمر لابن أبي طالب وتوطيد دعائم نظامه ؟ . . .

لغير هذه الحاجة جيشوا الجيوش ! . . . ولو قد كانوا حقاً مخلصين لما ادعوه من وجوب القضاء على عوامل الشعب وتخليص الأمة الإسلامية من شرورها ، إذن لو سمعهم أن يتلاقوا والإمام في نقطة يبدأون العمل منها سوياً . وما كان أهون عليهم لو أبدوا له الرغبة في الائتلاف للقضاء على العدو المشترك وأبلغوه أنهم يملكون بمكة قوى تأخر بأمره إن أشار وتنتظر كلمة منه فتقبل مدداً . ولكن قصة عملهم على محق الثوار لم تكن غاية يجدون في سبيلها لذاتها بغية إعلاء كلمة الحق أو تطهير الدولة من فساد محقق ، بل هي وسيلة أريد بها اضطراب أمره ، وذريعة للقضاء على سلطانه قبل أي شيء سواه .

فليس الصاحبان إذاً رأياً . وليجمعنا الأنصار والأتباع يعرضان عليهم خلاصة هذا التفكير عسى أن يفوزوا برأي جديد كفيل بما يرومان . وما أيسر إقناع عائشة بالتخلي عن خطتها ، إذا أجمعوا هم الرأي ، ورسوموا النهج الذي به يقضون أولاً على دولة الإمام ! . . .

٣

جمعتهم دار عائشة ، ندوة أصحاب الفتنة المتآمرين إذ ذاك . وغلقت أبوابها عليهم أعوانا وأولياء وكانوا بالأمس خصوما وأعداء . . . ولكنها شرعة المطامع والأهواء تستذل النفوس حتى لتعرضها في السوق سلعة رخيصة ، تقوم بجاء منصب أو يريق دينار !

مامن رجل فيهم إلا استبق به مأربه إلى هذا الاجتماع . . . لوحت لهم الدنيا فتبعوها ، وما كانت لتقودهم إلى صواب ! . . . إن منهم من خدعته مظاهر الأمور فلم يرسل عينه لتكشف الحقائق الراسبة في الأعماق . ومنهم من أضله هواء فسار كالمفتون كأنه طائر استهوته حية رقطاع فزحف إلى جحرها وهو مبصر

وليس يفظان ! . . . ومنهم من لعله علم وقدر ثم آثر أن ينضى قدما على أشلاء صميره الملقاة في الطريق ! . . . ولكنهم كلهم جمعهم هدف ووحدهم فكرة ، وهم اليوم يجهدون لتحقيق رغباتهم وبلوغ آراهم من أيسر سبل .

وحين بدأوا الحديث لم يكن ثمة امرؤ بمكة يجهل أنهم قد تجهزوا لغزو المدينة ، فهذا تحدث عائشة بعد المصرع ، وإليه دعت الناس . ولعلها اليوم وهي تشهد اجتماع صحبها من خلف ستار لم يطف بخلدائها أن خطتها تلك سوف يتناولها التعديل . وإنما اجتمعت بهم لتشاورهم في الأمر ، وتعرف ماسوف ينجاب عنه النقاش بعد أن أعدت العدة ، وتزودت لحمة « التطهير » بما تستطيع .

ومن البدء ظهر جليا أن غزو المدينة ، واقتحام العرين على أسده ليس عيسور . ذهبت الآن عنهم حدة الحماس . وأفسعت المواطن الصاخبة الطريق أمام العقل والتدبر . إنهم في كفاح تتأرجح فيه مصائرهم ، ويتجاذبهم الموت والحياة من طرفين . فأولى بهم إذن أن يدرسوا الموقف بهدوء ، ويتبينوا مواقع الخطأ قبل الإقدام . وهل يجديهم أن ينفذوا إلى هدفهم من أضيق باب ؟ .

لأول مرة منذ رفعوا راية العصيان يقرون راغمين بحكمة على ، ولا ينكرون — في ضمائرهم — بعد نظره وإدراكه السليم للحقائق التي كانت خافية عليهم من قبل أو التي أضلهم عنها هواهم . إن شعورهم ليهيب بهم أن يسددوا أولى الضربات لقلب المدينة عسى أن يقضوا بهذه على غريمهم المسك بأعنة السلطة . ولكن عقولهم تأبى عليهم الانسياق مع العاطفة الهرجاء ، وتقبض على خناق هاتفيها الملحاح . فإذا بهم يرتدون إلى ما ارتآه الإمام في البدء ، وما نصح به لصاحبيهما الزبير وطلحة من وجوب التريث وإرجاء مقاتلة الثوار حتى يمد عدته وها هي الكثرة منهم — وفيها الزعميان — ذلك اليوم بدار عائشة في البلدة الحرام ، تردد رأى على ، وتتوخى الأمانة في نقله بروحه ومعناه ، فنسمعها تقول دون حرج وبغير إخفاء .

« المدينة ؟ ... ليس لنا بأهلها طاقة ، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء . . . »

فأعظم بها كلمة حق من لسان باطل ! . . . وأين منها ادعاؤهم السالف أنهم ما خرجوا على سلطة الإمام إلا لأنه أبى عليهم رغبتهم في المبادرة بالقضاء على رجال الثورة الذين اغتالوا عثمان ؟ . . . إنهم اليوم قد جمعوا الجند والسلاح فلم أحجموا عن المسير إلى وكر الفتنة ! . . . وكيف يؤثرون — وهم في قوتهم المتأهبة — نفس التريث الذي نصحبهم به أمير المؤمنين حين كان في وهن لا يسده عتاد وجنود ؟ . . . إن لسان العقول الذي نطقوا به اليوم قد أنصف — يرغمهم — عليا ، وغسل ما أعلقوه بثوبه من ادعائهم القديم ، ثم هلهل عنهم مسوح الرياء التي طالما خطرُوا بها أمام السذج من الجماهير . فما كانت رغبتهم في الثأر لعثمان ، ولا حرصهم على تخليص الأمة من طغيان الثوار ، ولا أى من الأسباب التي اعتسفوها هي الدافع لهم على العصيان . . .

وتداولوا فيما بينهم الآراء وعائشة من وراء سترها تنصت ولا يغيب عنها حرف . وبدأت الشام لهم ملاذاً أميناً ، وبؤرة تنتشر منها جيوشهم الغازية فتغطي بقية أمصار الدولة وتقضى على الحكم السكروه . وتلقف الزير الرأي بحماس ، ثم راح يقول :

« نعم إلى الشام ، فيها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتي نجتمع يولنا معاوية . . . » .

ثم ألقى عينه على طلحة ليرى أثر هذا الحديث فيه بما احتواه من أمل معسول . ولكن يعلى بن منية كان أقدر من زعيمه على استشفاف الحقائق فصاح وفي صوته رنة تحذير :

« أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا . . . » .

« ققل . . . » .

« إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا في فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم . . . أفرايتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ، أتقاتلونه ؟ . . . أم تجمعونها شورى فتخرجوا منها ؟ . . . » .

فلم يدريا ما يقولان . ما زال الخطر الذي يهدد حلمهما جاثماً بالشمال ! . .

وما كانا ليغفلا عن هذا ، اليوم ، وما أغفلاه من قبل ، ولكنها السياسة اللينة تعرف كيف تهدن بين الأعداء المتنافسين حتى حين ، وتدفع الأكف إلى المصافحة إبداء للأمن والطمأنينة وإن انطوت القلوب على توجس مدفون . ولقد صدقهما اليوم ابن منية وأخلص لها النية . فما عبرت كلماته إلا عما انطوى ذهنهما عليه . فثمة بدمشق قد ربض الغول الأموى يتحفز للوثوب بغية اقتناص الفريسة من الغاصب المرتقب بعد المغصوب

وسار الحديث ثانية في فنون فلم يعنيا بالجدل الذى أسفر عنه . بل راحا من أفكارهما فى غمار . . . وكانت عائشة ما زالت تصغى للقوم من وراء حجابها والقلق ينهب قلبها خشية أن ينتهى بهم نقاشهم إلى خلاف يجر التخاذل . وكان مروان بن الحكم قد زم شفثيه واكتفى ببسمة صفراء تلون ثغره وتبدى من سخريته ما أراد ألا تكشفه الكلمات : فهو مؤمن بالنتيجة المقدورة ، عالم بها قبل أن تنحسر عنها أسجاف الغيب المجهول . . . وهل راوده الشك لحظة واحدة فى أنهم الأداة الطيبة التى سيلتقط بها بنو أمية شرائح الشواء الشهية من فوق النار؟ . . . وكان ابن عامر وسعيد بن العاص يتلاحيان ، ويرمى ثانيهما الأول بنقيصة الجبن إذ فر من البصرة ولم يكفكف فتنتها عليه فيكفيهم مصرا آخر يدين اليوم بطاعة الإمام كما كفاهم معاوية الشام . . .

على أن مروان لا ينى خبثه يلح عليه ، ولا تنى رغبته فى العبث بالصاحبين تراود نفسه حتى يستجيب لها ، ويقذف الشيخين بنصيحة هى فى حقيقتها أحبولة صائد أعداء لصيد غرير . . . يقول كأنه يخلص المشورة ويمحصهما النصيح الذى يرمى بكل ما عداه :

« ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة على ؟ . . . لأن أجاوبكما فقد عارضتاه ببيعه كييعته . وإن لم فقد عرفتاه ما لسكما فى نفوس الناس . . . » .
فلو أجاباه لهتكا إذن الستر الذى يبقى عليهما بعض الهيبة والتقدير فى أعين الكثيرين من الأتباع . فقد حرصا دائماً على إخفاء العرض الحقيقى لهذه الحركة ونأيا جهدهما عن الظهور بمظهر الطامع فى الحكم ، المشغوف بابتزازه ولو على

حساب المبادىء . فأحر بهما لو طلبا البيعة أن يبدوا على تقيض ما يرجوان
فينفض عنهما من أحسنوا بهما الظن فضلا عن وقوفهما من أمير المؤمنين موقف
عداء سافر صريح .

فلعلمهما انتبها لأحبولة مروان وما تسوقهما إليه من خطر قبل أن يؤلفا
حولهما بقية الأمصار . . أو لعلمهما حسابها آية من آيات غفلته وليس العهد بحمقه
وضعف رأيه عليهما ببعيد . . أو لعلمهما أرادا الإبقاء على المظاهر المضللة حتى
يثين الكشف عن الأغراض المستورة . وكيفما كان ما فهماه من مرامي هذه
النصيحة فإنهما رفضاها دون تردد ، فقال طلحة بحذر السياسى ولباقته :

« إن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم نقضها ؟ »

وعقب الزبير ، الرجل الصريح الذى يثب قلبه دائماً إلى طرف لسانه :

« ويعننا أيضا ثناقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة على ! » .

فهز مروان كتفيه بلا مبالاة وهو يقلب بصره فى الوجوه . إنه على أى
حال لن يعدم فرصة أخرى يستطيع أن ينصب فيها شراكه ويوقع الصيد ،
وموعدها فى حساباته قريب . وران الصمت قليلا على القوم ، لحظات أوشك فيها
تخاذلهم أن يتجسم حقيقة ماثلة بعد أن فشلوا حتى الآن فى الإجماع على قرار . . .
ولكن ابن عامر أناهم فى اللحظة الأخيرة برأى يكشف الأزمة ، دبت به
فى أذهانهم الحياة . . . قال وهو يوجه الخطاب إلى زعيمى الجمع :

« اذهبوا إلى البصرة ، فإن لى بها صنائع » .

البصرة ؟ . . . كيف فاتهما أن يفطنا إليها من قبل ؟ . . . أو الكوفة فهما
سيان ؟ . . . وهل كشعبيهما فى الدولة الإسلامية شعوب تنضم قلوب أهلها على
مثل ما يحسه نحوها أهل المصرين ؟ . . . ومن أولى باحتضان دعوتهما ونصرتها
منها ، ولها هوى فى طلحة معروف ؟

أحسن إذن عبد الله ! . . . إنه قد لمح الإعجاب برأيه تلتهم به عيون الشيخين .
ورأى أيضاً المواقفة تكاد تلعب على شفاه أكثر المجتمعين ، فسارع يعزز اقتراحه ،
ويلقى بما يؤيده أمام القوم :

« اذهبوا إلى البصرة أيها الشيخان : فإن غلبتم علينا فلكم الشام ، وإن غلبكم على كان معاوية لكم جنة . . . وهذه كتب أهل البصرة إلى . . . »

هذه حقا هي الخطوة المثلى ، وما أجدرها بالتزامها ما دامت توفر لهما نصراً يعز في سواها . ثم هي قبل هذا كفيلة بأن تبقى هيتهما عند معاوية ، وتدنيه من الولاء لهما دون أن تقسرها على الولاء له . فيها سيصبحان في منعة ، ولن يكونا كلا على ابن أبي سفيان ينزلان عند أمره ويتبعانه كالظل . بل ستكون لهما الكلمة ، ويكون الرجل في أيديهما أداة . . .

وتدبر مروان الرأي في دخيلته . لتكاد هذه الخطوة أن تبعتها عن كف سيد بيته وعن العمل كهواه ومستطلق أيديهما ولو إلى حين . ومع ذلك فليس ثمة من حرج عليه أن يظهر الموافقة ويتبعهما أينما يسيران . فأيان ذهباً سيستطيع أن ينصب شراكه ؛ وما أهونه من حمى يقودها إليه ابن عامر الرجل الذي هان شأنه على أهل إقليمه وهو أمير مزود بالنفوذ فقام يدعى الآن القدرة على امتلاك ناصية البصرة وهو الهارب الطريد . . .

ونادى هاتف القوم عائشة من وراء الحجاب :

« يا أم المؤمنين . دعي المدينة ، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصي معنا إلى البصرة ، فإننا نأتي بلدا مضيقا ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة . . . »

٤

أبرموا الأمر . . . حسبهم أن أقرتهم عليه عائشة وتركت عزمها القديم على اقتحام المدينة ، فما كان شأنهم ليستقيم لو أنها خالفتهم ولها كل هذا النفوذ الروحي عند عامة الناس . ووافقهم أيضاً مروان ، عميد الأمويين بالحجاز ، والحليف الذي لا بد سينقاد له أهل بيته ، وكل مغلوب على أطماعه من حاشية عثمان ، وكل عامل في دولته النهارية يحسب أن نفوذه لا بقاء له في ظلال حكم الإمام .

وسوف يأمن أصحاب الفتنة بهذا كله معاوية ، ويؤلفون وإياه حلفا عاطفياً ينتهى
حتماً لحلف سياسى تباركه وحدة الهدف واتساق العمل الجاهد لبلوغ غايتهم
المشتركة . فهل ينتقض من عنفوانه حركة المقاومة التى دبروها ألا يتعمس لها
سعيد بن العاص أو ينأى بجانبه كما بدا منه قبيل ختام الاجتماع ؟ .

كلا ١ . ففي غيره من زملائه غناء . بل هو أدنى إلى النزول على عزمهم
ومتابعهم لرجد الجذ وأخذ ركبهم فى المسير . فلقد كانوا أعلم به من نفسه وأعلم
بأمثاله من عباد الجاه حسبوا هذا حتى ركنوا إليه كأنه يقين ، وباتوا على
ثقة من معونة أصحاب المآرب والغايات . إن الأحلام غذاء شهى لبعض الأذهان
ولهم منها ذخى لا ينفد معينه . . . وهذا طلحة قبلهم يبسم الأمل فى خاطره
وتهاوى عليه المنى السواطع . فلم يعد يرى طريق البصرة خطوته الأولى بعد
كفاح مرير بقدر ما كان يراه مجازاً إلى النصر . . . وإنه ليكاد أن يحده
مفروشاً بالرهور ، ممتداً حتى يلتقى الأفق دون أن تعترضه العقبات والصعاب .
وهل يسمعه أن يغفل بها حزبه القوى والدور الذى لا ريب سيلعبه فيستميل
أهلها إلى جانبه ويخنج بهم إلى الطاعة لدولته المنتظرة ؟ . أما الكوفة فأمرها
وأمر أختها سواء ، وحين يطلق أولى علائم الفتنة القريبة متعنو هى الأخرى له
وبها حزب الزبير صاحبه يعرف كيف يجذبها إلى الخضوع أو تنعذر عن أطرافها
سيول جيشهما اللجب من البصرة فتحمل قومها على احترام منطق السيف ؟ ...
وما أضعف حيلة ابن أبى طالب بعد هذا وما أقل خطره أمام قوة هذين الإقليمين
وبأس حليفتهما الأموية بالشمال ١ .

ومع ذلك فقد آثر الصاحبان ألا يغفلا أثر العوامل المادية فى تدبيرهما المقرر .
ولم ينسيا الحذر فى غمرة الحلم الجميل تمام الفسيان . فأولى بهما أن يعدا كل عدة ،
ويضربا فى سبيل غايتهم بالظفر وبالناي . . وما دامت لابن عامر صنائع بالبصرة
فلتكن لها مددا . وليجندا منها دعاة يشدون الأزر ويعملون وأولياءها فى نفس
الميدان . أليس على قدر قوة الضربة المسددة إلى صدر على يكون تداعى بنيانه ؟ .
وهل تكتيل القوى وتجميعها سوى العامل الكفيل بتعجل ساعة النصر الرقوب ؟

ومتى كان للزمن حسابه انذى يتقدم على كل حساب إن لم يكن ذلك فى أوقات الكفاح والصراع ؟ .

لهذا قادها التفكير ، وبه أغرتهم الكتب التى حدثهما ابن عامر أنها جاءت به تحمل فى طواياها رغبة صفوة البصريين فى خلع طاعة الإمام . فلم يكن عجباً أن يشاوراه ويلتمسا عنده ما يحقق الخروج بالنوايا المكتوبة إلى مجال العمل الحاسم السريع . . سأله الزبير :

« ومن رجال البصرة يا عبد الله ؟ . »

فقال :

« ثلاثة كلهم سيد مطاع . . كعب بن سور فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة . »

فما بارحوا مكانهم حتى كتبوا لهم يستنهضوهم ويستنهضون بهم أقوامهم للغضب من أجل عثمان ، وللقيام فى ثأره ، وللتأهب لاستقبال جيشهم السائر نحو البصرة الاستقبال المرجو منهم ، والحقيق بسادة مثلهم أن يبادروا إليه . . . وإنك لتلمح فى الكتب ما يثير النخوة ، ويتعلق حتى مفخر الجاهلية القديمة . . اسمعهم كيف أهابوا بهذه الأجداد التى تقدر الثأر فى كلماتهم المبعوثة إلى ابن ربيعة : « . . . إن أبالك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام . . . وإنك من أهلك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . . . ولقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك . . . »

ومع ذلك فما أغنت عنهم كتبهم فتىلاً . . . لم تؤجج حمية النفوس ، ولم تشعل نار الفتنة المنتظرة . . . ولعل أبلغ رد جاءهم هو ما بعث به إليهم ابن ذلك الرئيس الجاهلى المجيد ! . . فقد كتب لهم فى إيجاز :

« إنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس وقد كان بين أظهركم نخلتموه . . . »

فأصدق بها من كلمة صورت لهم حقيقة ما وعته عنهم القلوب . . . وهل ظنوا ، هم الذين استعدوا لهم شيعة من البصرة على عثمان وهو فى عقر داره حتى حانت ساعة مصيره ، أن الشعب بها قد فاته ما كانوا دبروه لعثمان بالأمس . . .

لو أن طلحة أنصف لما قام في الأمر بنفسه ، ولكن ومعه أن يعمل فيه من خلف قفاز يخفي كفه التي جنت على الشيخ المقتول . ولكن الأهواء لا ترى الحقائق وإن تجلت سافرة كشمس الصيف . ورجل بني تيم يستطيع النسيان حين يريد ، ويستطيع أيضاً أن يغرى غيره على النسيان . فليس كصاحبه الزبير الذي يستبق الحق على لسانه فيقر بالذنب ويعلم الندم عليه . . بل هو ماهر في مداورة الناس ومداورة نفسه على السواء ! . .

لم تلق إذن دعوتهم بالبصرة أذنا سمیة ، ولم يسارع أهلها إلى طاعتهم وعونهم كما حسبوا ، وكما صور لهم حديث ابن عامر عن صنائمه . . . بان لهم الآن أن سعيد بن العاص لم يكن متجنبا على زميله كل التجنى حين لاحاه خلال اجتماعهم بدار عائشة ، ونصحهم ألا يركنوا إلى كلامه المعسول . . . وراحت كلمات سعيد تفرع ثانية آذانهم ، أعلى جرما منها من قبل ، وأحد نبرة كأنها صوت نذير : « . . . يدعوكم إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم في طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم علماً وهم في طاعة علي ! » .

إن السخرية لتقطر منها فياضة ثم يكون لها في قلبی الصاحبين مثل طعم العلم المرير . أما الحيلة فقد ولى زمنها الآن ، والنصح الذي رغبا عنه ذهب مع الماضي ولم يعد في مقدورها العودة إلى الانتفاع به . فقد جاءت مشورة ابن عامر بنقيض المرجو من ورائها . وبعد أن كانت لها بالبصرة كلمة مسموعة لعلها كانت كفيلة بلف قومها حولها لو أحسنا استغلال الظروف ، أصبحا اليوم والبلدة تكاد تجمع على استنكار الدعوة التي بثاها فيها بعد أن نهبت كتبهما أذهان كثير من أهلها — وفيهم صنائع ابن عامر نفسه ! — إلى ضعف الحجة التي توسل بها لترير العصيان . وكفاها أن كتبهما تلك قد استقبلت بالبصرة أسوأ استقبال حين ورودها عليها . فما هو أن تلقفها أولئك السادة وأظهروا عليها الناس حتى أقبلت وقودهم من كل مكان يعلنون رأيهم في الفتنة وفي مشيرها . ووقف فيهم من خطبهم فقال :

« مالنا ولهذا الحى من قريش ! . . يريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد

أن دخلنا فيه ، ويدخلونا في الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ . . . لقد قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . . » .

هذه هي السياسة التي حددها لنفسهم أهل البصرة ، ورسوموا بها موقفهم من الفتنة المقبلة . إنها سياسة حياد صريح ، لا يتعيف ملتزموه على فريق من أجل فريق ، ولا يبادرون بالنفخ في نار لم يشعلوها هم جذوتها الأولى . فالرأى عندهم هو أن الأمر أمر العاصمة الإسلامية قبل غيرها من البلاد ، وأمر أهلها من المهاجرين والأنصار قبل غيرهم من المواطنين . . . فهم قتلوا وهم ولوا ، وعليهم التبعة من قبل ومن بعد ، وليس لسواهم أن يقحم نفسه فيما لم يكن له فيه رأى ولا مشورة . وهي ذات السياسة التي التزمها عثمان ابن حنيف عامل الإمام بالبصرة حين أقبلت عليها جيوش عائشة وكان بها معبرا عن الرأى العام في ولايته أصدق التعبير . فلم يبادر الرجل بقتال جحافل المتمردين ، ولا هز في وجوههم قناة إذ ذاك . بل صبر عليهم . وترك لشعبه أن ينضم إليهم منه من شاء دون إكراه . وأمهل لهم حتى آذوه ، وتقضوا عهده ، وجازوه شر الجزاء على هذا التسامح الكريم . . .

وعاود أصحاب الفتنة مرة ثانية شعورهم بالنقص ، وبحاجتهم إلى الشخصية التي تضي على حركتهم قوة معنوية في أعين الناس بعد هذا الخذلان الذي نهم عنه موقف البصرة . . . كرة أخرى وجب أن يقنعوا الشعب بتجرد هذه الحركة عن المطامع الذاتية وبعدها عن خدمة أغراض خاصة لا مرمى أو لسواء ، فما يتحقق النجاح لأمر لم يستهدف غاية مثلى تستجيب لها العواطف النبيلة . . . وهل أبلغ في استمالة أهواء النفوس من رجل نقي الصفحة لم تشب ماضيه شائبة ، ولم يدمع من قبل بسمة التطلع إلى زخرف الحياة ؟ . . .

وكأنما عجموا الأعواد فلم يروا فيها أقوم من ابن عمر في ذلك الوقت الذي أخذت فيه النفوس تنحرف عن الجادة وراحت الدنيا تجذب وراءها البقية الباقية من صفوة صحب رسول الله . عبد الله له وحده في قلوب أمته مكانة إذ هو وحيد رجال الشورى الذين لم يطمعوا قط في الخلافة ، ولم تجرفه تيارات السياسة

المهوجاء من قبل ، ولم يأخذ من الدنيا أبداً بنصيب لفرط ورعه وعزوفه عنها ، بل كان فيها يعيش كالغريب منطويا على نفسه ، قد اتخذها لحسب حجازا إلى آخرته ومع أنهم أخفقوا من قبل في جذبهم إلى جانبهم ، فقد رأوا الحاجة تدفعهم ثانية إليه عسى أن ينجحوا اليوم فيتخذوه علما للدعوة يلتفت به الكثير من العارفين بنقائه . فإن هو أن تحدث مروان في شأنه إلى الزبير وطلحة حتي أسرع إليه الشيخان

ولسكنهما في هذه المرة أبعدا عنهما ظنون معيها إلى ابتزاز السلطان من ابن أبي طالب ، وحاولا أن يرصما صورة جديدة أنيقة تبدى رغبتهما في جمع كلمة الأمة الإسلامية ، وتجنبيها الفرقة الوشيكة أن تقع في صفوفها بسبب اختلاف البلاد على الإمام ، وقيام بعضها بالدعوة لسواه

قالا له وهما يخلطان الذنب بالتوبة ، ويلقيان على غيرها أمر الخلاف ، ثم يبديان الرأي الذي يريانه يحسم الأمور :

« يا أبا عبد الرحمن . . . إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضيناه بالحق فيه . . . إن عليا يرى إتقاذ بيعته ، ومعاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نردها شوري . فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهي الهلكة . . . »

فتمهل الزاهد برهة قبل أن يجيب بنبرة اعتذار :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ا » ثم ارتفع فجأة صوته ، ورمى إليهما بنظرة نقاذة ، وأردف يقول في صراحة مريفة :

« أيها الشيخان . . . اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنها المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف . . . لن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه . . . أما الشوري فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفياي أتنسكا . . . »

فغادراه دون أن يقدر على جواب . . . فلما أن قابلا مروان راح يوسوس لهما ثانية ، ويدفعهما إلى طريق جديد ظن أنهما يستطيعان من خلاله الفوز برضاء عبد الله . . . دفعهما إلى أم المؤمنين حفصة ورضاؤها عن خطتهم معروف ، ورأيها لرأى عائشة تبع من قبل ومن بعد في كل أمر من الأمور ، لعلها تعرف كيف تحمل أخاها على القبول .

ولكنها كانت أعلم به منهم ، وأعرف بعناده ، فردتهم عنه . وقالت تحجب الصاحبين :

« لو أطاعنى أطاع عائشة . . . دعاه . . . »

وبهذا فشل جهدهما فى التستر وراء امرئ نقى الصفحة من المطامع السياسية التى وسمهما بها القوم ووسمتهما جهودهما الدائبة من قبل على الظفر بالسيادة من كل سبيل . ولم يبق إلا أن يوجها الركب للمسير ، وحسبهما أن يكون فيه ابن عامر ، وابن عقبة ، ومروان وأضرابهم من الموغرة صدورهم ، المفتونين بالناصب وجاء السلطان . . .



دق طبل الحرب حين هتف منادى القوم فى أرجاء مكة :

« أيها الناس . . . إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . . . »

فتمافت الناس من كل صوب ، قد استهوتهم الدعوة المغشاة بالجهاد كما يجتذب الضوء اللائع فراشات رقيقة . وأقبلوا يحملون رءوسهم على أكفهم ، ويلتحقون بكتائب أم المؤمنين .

وتم جهاز الجند ، وزودوا بالطايا والسلاح مما أعد ابن منيه وابن عامر بأموال اليمن والبصرة . والتأمت الصفوف ، وتهيأت قافلة القتال للمسير . . .

فإذا « عسكر » قد خلف مريضة ، وخطر أمام هذا الحشد الزاخر متلع الجيد في الفضاء ، ثم راح يدب مزهوا بين غيره من الإبل والنياق . ألعنه استيقن قدره من هذه الأنعام وعزته عليها براكبته المهيبة التي היאو لها مطية ؟ . . . إنه ليتهادى والعيون ترمقه ، والقلوب تهفو نحوه ثم يستقر لمجها وخفقتها جميعا على هذا الهودج الفاخر المرتكز على سنامه . فها هنا سيدة الموقف ، الصارخة الأولى في هذا الوادي وكل هذه الجموع أصداء . . . إنها تخلف اليوم الحذر إلى مهوى الأسنة والسهم المريشة . . . تترك رقة المرأة في بيتها وتخرج مع القوم فياضة القلب بحمية القتال . . . تسير بهذه الحشود إلى وديان الموت . . . حتى الهودج الذي احتواها فقد هو الآخر دلالة وبدا كحصن منيع يحمل نفوس من التفوا به على ارتقاب صراع خطير .

البلدة يتعذر أهلوها في دروبها كالسل ، رجالا ونسوة ، كأن هذه الدروب غدت أنهاراً من الناس ! فما من بيت أغلق بابه إذ ذاك على إنسان وما من أحد آثر القعود إلا القليل . بل خرحت جموعهم تسير في ظلال زوج الرسول . . . بعضهم قد التعف زرده ليكون درعا يدرأ عن السيدة قبل أن يدرأ عن نفسه ، وحمل سلاحه ليضرب في سبيلها به وإن اقتضاه الصراع أن يبل مواطئ قدميها بدمه المهرق . . . وبعضهم سار خلفها على هدى دمه ، لأن لساعة الوداع في القلوب وقعا تستجيب له العيون البوادر ، ولذا كألسنة النار هو نتاج الحشية على هذه الأمة من المصير الكامن وراء الفتنة المشبوبة . وحين انتهى بهم الموكب إلى « ذات عرق » وآن لركب القتال أن ينفصل عن مودعيه ، غامت الأعين المتطلعة ، وشرقت الحلوقة بالدموع المثالة ، وسجل القدر في كتابه ميلاد « يوم النعيب » ! . . . فلقد تجاوزت كشبان الرمل المبتوثة على الأديم بصوت بكاء القوم برج الأرض والسماء في آن . واهتزت الصحراء بأنة جامعة صدرت منهم فكأنها ندت من الفضاء الرحيب . . . لم يكن من قبل حزن كهذا ، وما أتيح للشمس أن تبرز من برجها على يوم كان أكثر منه باكياً للإسلام وباكياً عليه . ذلك اليوم من ربيع الثاني ، الذي فتح الباب على مصراعيه أمام

الحرب الأهلية لتدلف منه أداتها الرهيبة تمزق وحدة الأمة الإسلامية وتدمر وشائج الصلات القائمة بين أولئك وهؤلاء من الإخوة في الوطن والله
والتف زوجات محمد بصاحبتهن يذرفن الدمع أسى ولوعة ، ويبدن معه الأسف لهذا الفراق الذي لم يكن في الحسبان كن جميعا قد عاهدنها على المسير ، وأظهرن العزم ليكن في الركاب . ولكن اليوم ليس كالأمس ، والمقصد غير المقصد . وما يسمعن أن يسرن الآن وإياها على درب البصرة وقد كانت الوجهة المتفق عليها هي المدينة دون غيرها من البلدان . أما وقد اختلف المقصد فقد لدن بالعودة ، والأسى وحده يشيع السيدة الأولى عنهن ويسير خلفها حيثما تسير . والحسرة أيضاً لا تبرحها وقد رأت نفسها تنطلق في زحمة الحوادث وحيدة إلا برجال — وإن سميت بهم شجاعتهم — ليسوا ممن تطمئن القلوب التي لم تشبها الأغراض إلى نواياهم المكنونة وحتى حفصة تخلت هي الأخرى عنها . حفصة صفيتها وظلها الذي لا يغيب أم تخلفت برغمها حقاً كما أبلغوها إذ حال أخوها بينها وبين الخروج ؟ ويغفر الله لابن عمر إنه أبي أن يعد الحركة بقوة معنوية هي في أشد الحاجة إليها الآن ، فلم يقرن بها اسمه اللامع الرائق الصفاء ، ولا اسم أخته فياترى هل كان إباؤه هو الأسوة التي اتبعها أمهات المؤمنين ؟

لكم أضناها الفكر وهي قلب الأمر وتستعيد في ذهنها كل هذه القصة ، هذه الفصول الجريئة التي استهلتها بالتخذيل عن علي كتحذيلها عن عثمان إلى أن تصل بها الحاجة إلى اليوم الغيب القريب عندما تنطق الأسنة ويفتح الموت صدره مرحباً بالرجال إنها لا تعلم على أية هيئة سيكون ، ولكنها في دخيلتها تستشعر الرهبة حين تفكر فيه . فها هي تسير على أرض ميادة لا يستقر فوقها شيء ، خطوها المضطرب سوف يقودها دون ريب إلى مجاز رهيب ، كقطاع غاب يدلج بلبل تتخطه مرايض الوحش ومسارب الأرقام كلما حرك قدميه الأفكار في خاطرها تتلاحق وتزدخر كموج اللجة في يوم عاصف مجنون الريح تختلط فيه لمحات الضوء الخاطف الرقيق بقتامة الظلال الكثيفة السود إنها تشعر أين

هي ولكنها لا ترى موقعها برأى الذهن المدرك المستنير — لا تستطيع أن تهتك كل هذه الظلمات المتراكبة طبقات فوق طبقات ، ويعسر عليها أن تفعل إذا أرادت وإن التمت في خاطرها أقباس من الضياء الضئيل بين حين وحين غيظ الشعاع الحجابى الذى يرسم على صفحة الأفق الدكناء معلنا ولادة الفجر لا يكشف أحناء متاهة ملتوية الدروب أمام حيران ضال . . وهذا قبس أوقدته لها أم سلمة فما لبث أن ابتلعه الاعتداد ، وآخر جاء به ابن عمر فغاب فى ظلمة العناد فلعلها الآن تحس أنها منطلقة إلى طريق ليس فيه نور ، أما اللائلاء الباهر خلف ظهرها خلفته هناك قبل أن تصرخ صرختها وقبل أن يخطر بها « عسكر » التياه الرشيق ، وتركت كل من نكصوا عنها يسبحون فيه

ومع ذلك فلا معدى لها عن التقدم . . إن الهائم فى بحار الرمال يرى الموت فى المسكت ويجدد السير أمله ، ثم قد يقوده إلى راحة الأمان . . وقد سارت هي . عاودت المسير عسى أن تلمح عند حد الأفق شجرا يانع الحضرة تنعكس ظلالة على الأرض الصفراء . . فماذا يا ترى يخفى لها الزمن فى جمبته ؟ . . النبع والدوح أم السراب الخداع ؟ . .

ولكن نبع الرجاء لم يحف كله فى قلبى الصاحبين . . طلحة قبل زميله كان متفتح النفس ، يستقبل معالم الطريق مشوقا به حين ، فهو إلى منازل حزبه يسير . . . وإنه ليحس القدر ذاته فى ركابه ، يؤيده ويعمل له . وهل كان يحسب من قبل أن يتبعه من الناس كل هؤلاء ؟ . . وإذا كانت نسوة النبي قد قعدن عنه بعد اتفاق فحسبه عائشة تلتف بها الجماهير كأنها العلم والجنود . ثم ها هنا أيضاً سعيد بن العاص ، قد راجع عقله فيما يلوح ورأى الخير فى الانضمام إلى الحركة بعد أن تأبى عنها يوم الاجتماع . . وها هنا المغيرة بن شعبة سيد ثقيف ، وداهية العرب فى الجاهلية وفى الإسلام . . أقبلأ معا وهما يجهدان ليستطيعا اللحاق بالركب قبل أن يغيب .

وخف إليهما الزير وطلحة ، فإذا سعيد ينتحى بالصاحبين ناحية ، ويهمس لهما بسؤال :

« إن ظفرتما أيها الشيخان لمن تجعلان الأمر ؟ . . أصدقاني . . »
فتوجسا شرا منه ، ولكنهما آثرا أن يجياه :
« لأحدنا أينما اختاره الناس »

« بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه . »
« ولد عثمان ! . ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ »
فلما وضع له أنهما يتخذان من دم الخليفة الصريح أداة تقتضى لهما السيادة ،
هز رأسه أسفا وقال :

« لا أراني إذن أسعى لأخرجها من بني عبد مناف ! »
وامتدار ومعه المغيرة . ولكنهما لم يعودا في التو ، بل انطلقا إلى صاحبة
الهودج . وتقدم سعيد فسألها هي الأخرى :
« أين تريدان يا أم المؤمنين ؟ »

« البصرة . »

« وما تصنعين بها ؟ »

« أطلب بدم عثمان . »

فاستضحك ساخرا وقال :

« فهؤلاء قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين ؟ . . »

ومضى فالتقى بعروان بن الحكم في نفر من صحبه وأوليائه ، فيهم أبان والوليد
ابنا عثمان ، قد انطلقوا جميعاً في ركاب طلحة والزبير ، يدعون بدعوتهما ،
ويعملون حيث يرغبان . . فإذا سعيد يصيح فيهم وقد بدوا له مطايا إلى غايات
الشيخين ، ويوجه أعنف حديثه إلى ابن الحكم عميد هذا الفريق :

« وأنت أيضاً تريد البصرة ؟ »

« نعم ، أطلب قتلة عثمان . . »

« فهؤلاء هم . . . »

وأشار إلى حيث كان الصحبان ، ثم أردف يقول :

« إن هذين الرجلين قتلنا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ،
قالا تغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة . . . »

فهل تجنى عليهما سعيد ونسب إليهما ما لم يقولا ه ؟ . . . أبدا . . . بل ليكاد
ينقل إلينا نفس الكلمات التي بدرت من أحدهما من قبل ، حين ذهب إليهما
عبد الله بن خلف وقد علم بعزمهما السير إلى البصرة يريد لو أقعدهما عنه . . . قال
ابن خلف إذ ذاك :

« إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه في عثمان شيء إلا وقد بلغ أهل
العراق . وقد كان منكما في عثمان من التخليب والتأليب ما لا يدفعه عنكما جحود
ولا ينفعكما فيه عذر . وأحسن الناس فيكما قولاً من أزال عنكما القتل والزمكما
الحذل . . . وقد بايع الناس علياً بيعة عامة . . . فإذا لاموكم غداً ، فماذا
تقولان ؟ . . . »

فكان الجواب الذي أتاه من طلحة :

« نكر القتل ونهر بالحذل . . . ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم
عليه ، وقد ندمنا على ما كان منا . . . »

وهو الجواب الذي نقلته كلمات سعيد بأمانة تمر عند الرواة . . .

وهتف سعيد ثانية بروان ومن معه :

« تذهبون وتؤركم على أعجاز الإبل . . . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم

يا قوم ! »

ونادى الغيرة بعده بصوت جهير :

« أيها الناس . . . من كان ها هنا من ثقيف فليرجع . . . »

ثم امتطى كل راحلته ، وتبعهما كثيرون تبيينوا من الأمر ما كان خافياً

عليهم من قبل ، وتركوا بقية الركب تسير إلى مصيرها المجهول . . .

٦

أذن مروان للصلاة . . ابن الحكم دون غيره من أتباع الجمل قام يدعو بدعوة السماء في الناس ! . . فلعلة فعل الرجل ، وسارع قبل سواه بهذا النداء . وهل كان — فيما عودنا من قبل ومن بعد — إلا مفتوناً بالتدبير ونسج خيوط الأحاييل ! . إنه نفس مروان القديم صانع الدسيسة ، وهو اليوم يعد عدته لنصب شرك جديد ؟ . .

واستجاب القوم للداعى وللدعوة . وتهيأوا لأداء شريعة الإسلام الأولى فأقبلت حشود الجيش تنتظمها الصفوف ، وتنجه منها العيون والقلوب وجهة واحدة شطر المسجد الحرام — نحو البلد الذى خلفوه منذ قليل وشهد مولد الرسالة السماوية التى رفع محمد مشاعلها تبدد غياهب الظلام . . وران عليهم الخشوع وهم يوشكون أن يلقوا الله فى الصلاة . كل قد اتخذ مكانه فى هدوء ، ساجى البصر ، خاشع الفؤاد ، فلا حركة ولا نأمة إلا ما تهمس به الشفاه من دعاء وتسبيح . . . ولكن إمامهم وحده لم يقف موقفه — بل من هو ياترى كان ذلك الإمام ؟ . . طلحة أم الزبير ؟ . . الرجل الذى حالفته عائشة من البدء ودعت له بالإمرة حتى فى أيام عثمان ، أم الزميل الجديد الذى ربطته به حوادث الخلاف الجديد ؟ . من ذا يدرى من القوم الحاشد أى الصاحبين سيرز أمام الصفوف ليؤمهم فى الصلاة ؟ . .

لا أحد يدرى على التحقيق وإن توزعت عواطفهم بين هذا وذاك . فلكل فى الجيش حزب وأعوان . وقد أرهف التساؤل حذر الفريقين معا وخشية الواحد من تقدم زعيم الآخرين إلى الاضطلاع بالإمامة فى هذه اللحظة الحقيقة بأن ترسم المصير السياسى للصاحب ولل فريق الذى يناصره . فالإمامة عندهم زعامة على الصلاة ، وزعامة بعدها فى كل ميدان للدنيا وللدن . وأحرع من يتقلدها الآن أن يعتقد له لواء الخلافة من بعد . .

ولكنهم كبحوا عاطفتهم إلى حين . . ادخروها حتى يأتى لهم أن يروا رأى العين من سيكون صاحب الأمر ، وأى الرجلين منهما سيخطو أولى خطواته إلى السيادة إذ يتقدم الصفوف المنتظرة ويرفع صوته بتكبيرة الإحرام . . . حبسوا الشعور في الصدور ، فما يحسن أن يدعوا ربح الخلاف تعصف بهم ولما يتبينوا بعد نصيبهم من النصر أو الخذلان ، وأولى بهم وأجل أن يترثوا فقد آن وقت الأداء . . .

هكذا حرك مروان رماد الغيرة بين الفريقين عسى أن يكشف نخبته عن جمر التحاسد والخلاف ، وأوقع في قلوب كل فريق التوجس من الآخر . فكلاهما الآن على حذر ، وكلاهما أيقن أنها هدية موقوتة لم تكتب لها حياة طويلة ، لأن ظلها وشيك أن يتقلص غداً إن لم يتقلص اليوم ، ثم يتجاذبون بينهم السيادة كما يحاول الصاحبان جذبها من أمير المؤمنين . أما ابن الحكم فلم يكشف شيئاً مما أضمر قلبه ، بل سار إلى طلحة والزبير وعلى وجهه من سلامة الطوية قناع كثيف . . وإذا به يسألها في هدوء :

« على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ؟ »

على أيهما ؟ . . ذات السؤال الذى يراود الآن ذهن كل إنسان . . . ودون الجواب عليه بغضاء ودماء ! . . .

فكأنه ألقى عليهما ناراً تتسع . . . للحظة ثبتت عيونهما على وجهه نظرة ذاهلة تفصح عن عجبهما تمام الإفصاح . . هذا أمر لم يدر لهما ببال ، أو قد دار ثم أرجأ الجواب عنه حتى حين — حتى اليوم الذى يتدخل فيه القدر على نحو من الأنحاء فيخلى الميدان لأحدهما دون صاحبه ويأتيه بالإمرة له وحده دون شريك . . لقد شغلها على عن التفكير في كل ما عدا . . وشغلها ابتزازها إياه أريكة الحكم عن التفكير فيمن سيعقبه عليها منهما الاثنين . فالوقت لم يتسع لتدبير كل هذا ، ولا الذهن اتسع لتدبره وإعداد العدة لأى احتمال قريب وبعيد . أما الآن — هذه اللحظة التى أثار فيها ابن الحكم ما كانا يتناولانه بالمطل والتسويق فراراً من الواقع الذى يخشيان . . الآن وقد فاجأها الرجل بسؤاله العارى عن الكياسة ، أو قل عن المواربة والتمويه —

وصاح به عبد الله بن الزبير في حنق وفي اعتداد :

« على أبي عبد الله ! » .

« بل على أبي محمد ! » .

فلم تختلج لمروان جارحة . بل نقل بصره وهو ساكن بين ابن الزبير وابن طلحة ، ثم راح برمق الشيخين بثبات كأنه يستحثهما على الجواب .

ولكن طلحة كان قد حزم أمره . . العمل الحاسم السريع أجدى عليه في هذا المقام من ألف جواب . فما أسرع أن هم يريد أن ينطلق إلى مكان الإمامة ويتقدم الصفوف . فإذا الزبير بهم كذلك ، كأنما قد استجابا معاً لتوجيه ذهن واحد . وتدافع الرجلان كل يبغى أن يكون له وحده هذا الشرف المأمول ويجهد في دفع صاحبه عنه ! . وكان لابد أن يثير تدافعهما جدالاً كريهاً كانا فيه كطفلين يتجاذبان بينهما دمية ! . . . ولغط لسانها بإعلاحة ، وتلاحي أيضاً عبد الله ومحمد ، ومروان لا تفي البسمة الساخرة الخبيثة تلعب على شفثيه . . . فما كان أعمقها من هوة حفرها لهما بتدبيره ، وما كان أجداها من أحبولة ، ما نصبها حتى تخط فيها الصيد لا يدري كيف يكون الخلاص ! . . .

وهمس معاذ بن عبيد الله لنفسه وقد شهد هذا السباق العجيب بين زعيميه على إمامة الصلاة :

« والله لو ظفرنا لافتتنا ، ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر ! . . » .

فلعل هذا المشهد كان شعاعاً جديداً أرسله القدر عسى عائشة أن تستضيء به ، وترى مستقبل الحركة التي احتضنتها على هديه . ولكنه لمع هو الآخر في خاطرها كلمة البرق ثم غيبته الظلمة ، فلم تتبين شيئاً على سناه . أو هي قد آثرت أن تغضى أيضاً عنه ، كما أغضت من قبل عن سواء . وكما تفعل الأم التي تشهد الخطر يكاد أن يدهم وليدها فملت هي إذ استشعرت الخطر على حركتها من فتنة مروان التي ألبسها براءة المظهر وسلامة الطوية . . فسرعان ما أرسلت إلى الرجل الخبيث تقول :

« ويحك ! . . أتريد أن تفرق أمرنا . . »

ثم أصدرت أمرها :

« فليصل ابن أخى . »

بهذا استطاعت أن تجتاز الأزمة العارضة وتسكن الفتنة التي كاد يوقظها مروان . وسعها أن تحسم خلاف الشيخين على السيادة ثم تفف برأيها حائلا بين أعرانها وبين الافتتان بتهديته نفوسهم المتعفزة للتناحر . . . ولكن رأيها في الواقع لم يكن حكمة كله ولا دواء ناجعا للداء . ولو قد أتيح لها النصر لتحقق قول معاذ . كذلك هي جنعت به عن موقف الحياد السليم بين صاحبها المتنافسين حتى أوشك الناس أن يعلموا إلى أين تميل وأى الرجاين تختصه بالتقديم على صاحبه ومستخصه حتما بالاجتباء لمقعد الحكم لوخلى بينها فيما بعد وبين الاختيار . أو ليس عبد الله هو ابن الزبير من أختها أسماء ؟ . إن حفيد أبي بكر قد بدأ الآن أولى خطواته نحو تحقيق الآمال الضخمة التي تملأ قلبه . مهدت له خالته صاحبة الهودج سبيل الطموح فأخذ يسير قدما فيه ، ولن يتأخر كثيرا ذلك اليوم الذي سنراه فيه قابض على ناصية الأمور ببلاد الإسلام بيد حديدية ، يناجز دولة الأمويين ويقض مضاجع ولائها ثم يشيع الهزيمة المرة في صفوف جندها حتى ليوشك أن يهدم بنيانها كله في بضعة أعوام .

كادت عائشة برأيها ذلك أن تقدم لأنصار الجمل عنوانا واضحا على موقفها القابل من الصاحبين . وهل كان يغيب عنهم المعنى الذي يضمرة اختيار عبد الله للصلاة ؟ . . أئن كان الولد جديرا بالزعامة السياسية فأبره منه أجدر . ولأولى بالزبير أن يتسلدها منه ثم يفوز أيضا بالزعامة السياسية بعد حين قريب .

هذه الخواطر كانت خليفة بأن تجول بأذهان الناس إذ ذاك ، وتأرجح بهم بين الرجاء والخوف حسبما كانت مشاعرهم وكان اتجاهها نحو الشيخين . ولم تكن كلها رجاء بالغيب ، ولا أوهاما جسمتها أخيلتهم السباقة إلى اكتناء الخواتيم . فها هي المقدمات أمامهم جليلة ، تنبئ عما سيفر عنه حجاب المستقبل ، وتوحى إلى أميرهم المنتظر كأنه قد تسم عرشه ودان له شعبه بالولاء . . فالزبير الذي ظفر ابنه بالإمامة قد صارت له هو أيضا إمرة الجنود كأنما الأقدار تحرص على تجميع

كل مظاهر السلطان وأدواته في يديه . . انعقد له لواء الجيش السائر إلى الظفر
المرجوف من ذا ياترى يقوى على سلبه ثمرة النصر حين يأتي قطافها وقد اجتمعت
له قوة الجند والسلاح ؟ . هل يجرؤ أحد حينئذ على مجاهرته بالعداء ؟ . . لعل
طلحة غدا يرى من الحكمة أن يؤثر طريق السلامة فيهادن رفيق اليوم ، ويتبع
ركاب جبروته مشيراً أو وزيراً أو في أيما ثوب يختاره له الأمير المرقوب ١ .
من يدري ؟ . لعله سيؤثر هذا لو جرت على سننها البادية مراكب الأحداث .
وقد جنح منذ البدء إلى المهادنة فاستجاب لأمر عائشة ، وارتضى فتي الزبير إماماً
يصلى خلفه ويأتم به . قمع من كل أطماعه العريضة بدور الشريك المغلوب على
نصيه ، يملك دون أن يكون له حق التصرف فيما يملك . . حتى مظهر هذه الشركة
بدوا كأن قد أرادوا أن يسلبوه إياه . فكان الناس يتجهون للزبير بتحية
الإمارة ويدعونه « أيها الأمير » ١ . أم ترى هذه دلالة على إمرته الجند فحسب ؟
على أى حال لقد كان اللقب يقترن باسمه هو أيضاً في قليل من الأحيان كلما طاب
لبعض أعوانه أن يشعروا أنفسهم أنهم وأعوان رفيقه بمنزلة سواء ١ .

ويبدو أن عائشة أحست أنها تحيقت أكثر مما ينبغي لها على حق مرشحها
القديم للخلافة ، لأننا لا نلبث أن نرى مشهداً آخر في التاريخ تنجاب أنصافه
عن أمير للصلاة سوى عبد الله . . . فقد أنبأنا بعض روايات الرواة أنها قدمت
أيضاً عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليصلى بالناس . فلعلها أرادت بهذا أن ترد
على طلحة بعض اعتباره ، وتوحي إليه أنها ما اختارت ابن الزبير وهي ترمي إلى
أمر . ولعل عبد الرحمن وعبد الله كانا يتناوبان بالإمامة في فترات حسبما سمحت
بهذا السوانح ، أو اجتزأ أحدهما بفريق واجتزأ الآخر بفريق من أولئك الأتباع
الكثيرين . ومع ذلك فما لهذا كله من دلالة سوى تناحر الفريقين على السيادة ،
وجريهما أبدا وراء موكبها الفاخر ١ . . ولقد كانت السمة البارزة لهذه الحقبة
من الزمان الافتتان بيلوغ السلطان حتى أوشكت الخلافة أن تكون صيداً يطعم
فيه كل من استشعر في نفسه قدرة على هز رمح ، أو اجتلاب أعوان ، أو انتحال
قصة قد ترفع من قدره في أعين الناس . دع عنك طلحة فقراجه بها قديم مشهور .

ودع الزبير الذى استهواه صاحبه فأوشك أن يكون فارسها المجلى كما رأيتاه . ثم انصرف أيضاً عن عاهل الشام فله وحده حساب وكتاب ! . . . ومل بنا إلى نفر من ركب الفتنة نجد أشخاصاً قد استذلهم شهوة الحكم أيعا استذلال أو استطاع حب السيادة أن يدنى منهم العروش المؤثثة ولو فى يقظة الحيات . . . فلعلنا لا نحرّم ابنى عثمان : الوليد وأباناً ، من لذة الحكم بعد أن علما حديث سعيد بن العاص . ومن يدري ، فقد تجرى لهم ريحهما رخاء . . . وهذا أيضاً مروان بن الحكم كيف لا يأمل أن يجتمع له إمرة الإسلام والمسلمين ذات يوم قريب وهو الذى تفخ فى نيران هذه الفتنة لتفىء عليه المغنم المطلوب ؟ . . . لقد كان الرجل هو الخليفة الفعلى ردحاً من عهد عثمان ، بغيره لا تبرم الأمور ولا تناس البلاد ، فهلا يكون حقاً له الآن أن يستأنف سيادته ، يعظها وجوهرها كليهما ، حين تنضج ثمار تدييره ؟ . . . إنه لم يتخل فط عن مطمحها حتى بعد أن ذهبت ريح فتنته وفشل تدييره مع خصوم الإمام . وعندما خاتته الأيام ، وسبقه ابن أبى سفيان إلى السطوة بقى وفيّاً لحلمه يغذوه ويرعاه وهو مستيقن أنه التالى بعده على عرش الأمويين . فلما أن أكره معاوية الناس على البيعة لابنه المفسود يزيد ، كاد مروان يشيرها حرباً شعواء على سيد بيته لولا أن توصل إليه هذا بالمداينة والدهاء . . . كذلك نجد عبد الله بن الزبير بين هذا الفريق المفتون بالسيادة وإن حدثت منه . ولكنه لم يعدم اتساع أفق الآمال ولانشاط الخيال . والأمل والخيال الوثاب حليفا الشاب وها هو اليوم قد استعان بعدته منهما فطلع على الناس بقصة عجيبة ، زعم فيها أنه الخليفة الشرعى لعثمان عن وصية منه قبيل مصرعه يوم الدار . فهو إذن أولى بالأمرة من سواء وأجدر وإن كان الساعى إليها أباه .

كانوا بالركب عصبة أربها معا استلاب خلافة ابن أبى طالب ، وأرب كل فرد منها وحده احتجاجها لنفسه دون غيره . . . فأعجب به من هدف جمعهم وفرقهم فى آن ! . . . وما أضلها كتيبة تتنازع الأسلاب ولما تبدأ الحركة . ولكنهم حازوا بأخيلتهم النصر ، وأغفلوا حكم الواقع الذى لن يلبث حتى يرفع عن عيونهم غشاونها . ثم لا يكادون يتبينون مواقفهم حتى يتبدد حلمهم ، ويرقد أكثرهم صرعى على ترى البصرة . . .

٧

توالت الرقاع على الإمام تحمل له أنباء الفتنة ، والخطبة التي رسم القوم العصاة لأتقسيم كي يناوئوه . وما زالت الرسل مقبلة عليه بالأخبار ، محصية حركات حزب عائشة بين يوم ويوم ، من مكة أولا ، ثم من الطريق التي سلكوها وهم يقصدون البصرة بعد أن عقدوا العزم على السير في عصيانهم إلى مداه . وامل أكثر هذه الكتب وقعا في نفسه كان كتاب أم سلمة . إن هذه السيدة الفضلى بقيت على ولائها له لم يبدلها الزمن ، ولم تقطع وفاة فاطمة ما كان موصولا بينه وبينها من إكبار وعطف متبادلين منذ دخولها منازل رسول الله . . . فلما عادت من البلدة الحرام بعد أن أعياها رد عائشة عما أبرمته ، سارعت تلتقي الإمام فتحدثه وفي عينيها دموع :

« يا أمير المؤمنين . . . لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنت لا تقبله مني لخرجت معك . . . فهذا ابني عمر ، وإنه والله لأعز علي من نفسي ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فاستوص به خيرا يا أمير المؤمنين . . . »

فهى وما ملكت . . . نضحت عنه بمنطقها ، ثم بهذه البضعة الحية منها تذود عنه . . . وكانت بهذا صورة ناطقة للوفاء ، وللوفاء في سبيل ما تؤمن به . . . وإنك لترى أشباها منها كثيرين زخرت بهم هذه الحقبة التي غلبت الأهواء فيها على نبالة النفوس . ولكن الحق أبدا لا يعدم النصير .

ونفض على شأنه . للواجب الذي ألقته الأقدار على عاتقه ، فإذا هو أشق واجب وأكرهه لقلب سليم ، إن صبر وسالم أكلوه ، وإن قام يقابلهم عدة بعدة وسلاحاً بسلام لم يأمن أن تتفرق الأمة شيعاً بينهم وبينه ، يضرب بعضها بعضاً ، وتأتى على عنفوانها أداة الحرب . . . وها هو الخبر اليقين يأتيه من قثم بن عباس ، وكان قد بعثه إلى مكة يستنجد له سير الأحداث ، بأن التآمرين قد اختاروا الطريق الوعر ، لم يقدم عنه حمله ولا تريثه بهم عسى أن ينجسوا إلى الهداية . . . أرادوها فتنة وأضرموها ، وانطلق الاله في آثارهم صوب البصرة .

فكم غمه ما بلغه ، وأثقل قلبه ، وألقى سترآ من الظلمة أمام عينيه . . . لو كانت له أزمة النفوس البشرية لمال بهم عن النى . ولو كانت بلاغته مغنية في هذا الوطن لأوسمهم النصح حتى لا يبرح المنبر . . . ولكن الحنة أينعت وأوشكت أن تثمر أشلاء . . . وها هي رائحة الحرب تعلأ الجو وتزكم الأنوف ، فما بقى غير حديث واحد يصغون إليه : حديث السبوف للسيوف . . .

ومع ذلك فتحة أمل لا يزال يبرق في خاطره ويكاد يلهمه الطمأنينة . ولعل القدر يسعفه بتحقيقه فتملو كلمة العقل الراشد على صخب الهوى الغرير . . . إن المصرة تدين لسلطان عامله فهي أميل إلى الولاء له ، ومسيرهم إليها كفيل بأن يحد من غلوائهم عندما يرون أهلها لا يسارعون بالانحياز إلى فتنهم . فإذا بان للخواطر أن غالبية سكانها ليست من أصل عربي أوشك استمساكها بدولة الإمام أن يكون حقيقة واقعة بعد أن عرفوه رجلاً جمل المساواة التامة بين العناصر جميعها عماد سياسته . هذا ما قر في ذهن على وزوده بالأمل حينما علم أن العصاة لم يقصدوا الكوفة مباءة العرب الذين تسودهم شريعة المصبيات . . . وبه تحدث مظهر ارتياحه فقال لابن عباس .

« لأن يأتوا البصرة لأحب إلى من أن يأتوا الكوفة . »

« وكيف يا أمير المؤمنين ؟ »

« إن الكوفة فيها رجال العرب ويوتاتهم ؟ »

فلعل ابن عباس حسب أن رجالات العرب بالكوفة أقدر على الوقوف في وجه الفتنة وأحرص على كبحها من سواهم لو سار جيشها إليهم ، أو رأى في افتتان زعمائهم بالسيادة وتناحرهم المرتقب فيما بينهم عليها ما يفسد اتحادهم في عدااء الإمام ، فقال :

« إن الذي يسرك من ذلك ليسوءني يا أمير المؤمنين . . . الكوفة فسطاط

فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله ، فإذا كان كذلك شغب على الذي قد نال فيفسد بعضهم على بعض . »

وكان رأى قيس بن سعد بن عبادة جامعاً لما أجمله أصحابه ، وكاشفاً عما ينطوى عليه قلبه نحو أصحاب الفتنة وهو يقول :

« . . والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأنهما عندنا حلالا الدم
لكنهما بعد البيعة ، ولأنها من علمت مقامها في الإسلام ، ومكانها من رسول
الله ، وفضلها ، ودينها ، وأمومتها منا ومنك . . »

وهز رأسه أسفاً ، ثم أردف يشير بما يراه :
« يا أمير المؤمنين . . إنهما يقدمان البصرة وليس كل أهلها لها ، وتقدم
الكوفة وكل أهلها لك ، وتسير بحمك إلى باطلهم . . لقد كنا نخاف أن يسيرا
إلى الشام فيقال صاحب رسول الله وأم المؤمنين فيشتد البلاء وتعظم الفتنة . . فأما
إذ أتيا البصرة وقد سبقت إليها طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليها
عاملك — فسر فإن الله معك »

وأى وجهة انتهى إليها عزمهم فقد بقي على كدهمه جانحاً إلى السلام ، يود
لو استجاب خصومه له بالحسنى فجنبوا الأمة شر الانقسام والفرقة . لقد كان المسير
إلى الكوفة رأياً صواباً كما قد يحمل عربها على الالتفاف حوله قبل أن تستهويهم
مظاهر المروءة التي لبستها الدعوة العائشية ، وقبل أن يفتنهم التشيع للعصبية
العربية ، التي يكلفون بها غاية السكف لاستعلائهم بجنسهم على بقية الأجناس ،
والتي لا ريب كانت حرية بأن تعميل بهم إلى جوار طلحة والزبير وأضرابهما من
رجال العصيان إذ كانوا المعبرين عن خواطر السواد من قريش الفتونة بخلاف
المهاشميين . وكانت أيضاً موقفاً وسطاً بين الحجاز والشام ، يستطيع منه صد الفتنة
لو غالت البصرة وانطلقت إلى الشمال لتصل بمعاوية ورجاله ، أو شاء ابن أبي
سفيان أن يعدها بمعونه لتنتزع بقية البلاد الإسلامية من يد الإمام . . ومع ذلك
فلم يتخل طي قط عن أمله في معالجة الأمر بالهودة ، لعل الله أن يصلح النفوس
فتقى إلى السلم . لم يقمده عن غايته تلك حماسة أصحابه ، ولا إيمانهم بيقه وجور
مناجزه عليه . وإنك لتسمع منهم آيات من الوفاء كانت حقيقة بأن تبطر غيره
في مثل هذا الوطن ، وتسحرف به عن هدفه السلمي إلى سل الحسام وهز القناة
تعبلاً لنصر مسلح . . وإنك لترى أضراباً من أبي قتادة كثيرين ، يحملهم إليه
الولاء وتدعوهم الرغبة الخالصة في الفناء من أجله ، يهيئون به أن يدفعهم إلى

القتال ، وأن يرمى بهم في غمرة الوغى كيف شاء ، فإذا به هادىء ساكن .
لا يفتنه كل هذا الوفاء عما عزم عليه من الإعداد قبل تسديد ضربته ، ومن
تقديم الهوادة والنصح على التحدث إلى أخصامه بمنطق الحرب .
يقول له أبو قتادة وقد استغرقه حماسه وقاضت به حميته ؛ وهو يهز في يده
حساماً مغموداً :

« يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله قلدى هذا السيف ، فشتمه فطال شيعه .
وقد أنى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا ! .. فإن
أحببت أن تقدمنى . . . » .

فلا يكون لهذا القول ولأمثاله بضعة من أثر نحوه عما اعتزم عليه . . . إن
الحرب التى تنتظره ليست حرباً تنهاوى فى حقلها الرءوس وتتمزق الأجسام . .
ليست صراعاً صاخباً بين الرماح والأسنة . . . ليست كقحاح يقاس فيه النصر
بمقدار الأرض التى يحتلها فريق وتنحسر عنها جيوش الآخر ؛ بل هى فتنه
هوجاء ويل فيها للغالب والمغلوب ، الأمة كلها حقلها ومساحتها وحين تحقيق الهزيمة
يأخذى الطائفتين فستلقى فى قلوب أفرادها بذور حقد تنمو على الزمن دوحاً
شامخاً يظل أبداً ظامئاً للدم ! . . أما النصر فلن يكون فى يد الأخرى غير ثمرة
فاسدة مريرة المذاق . . . ولكن الإمام يعزف عن نصر مسلح يجر فى أعقابهِ
حقداً يرسخ بأفئدة غريعه ولا يزول أو يزول الدهر الداهر . إنما غايته أن ينتصر
على النفوس الضالة والقلوب التى ضرب الهوى عليها أكمة . أثر أن يسمو
بالمواطن الإنسانية إلى ذروتها الطاهرة فتستجيب للنبل والحق المطلق . ويوم
يستطيع التغلب بسلاح رفقه على عدوه فستدوى الدوحة الخبيثة فى منبتها قبل
أن تبدو لها ساق ، وتعفى كلمة الثأر من سجل العلاقات بين أبناء أمته . . وإنه
إذن ليوم النصر المرجى الذى تعقبه وحدة وثيقة تؤلف قومه ، ويرفرف فيه على
الرءوس لواء واحد ، ويسجل القدر فى لوحه مجداً للإسلام ليس بعده مجد .

هذا هو الأمل الذى جاش بصدره فعمل جاهداً على تحقيقه ، وبه استهدى
وهو يسرع إلى طريق نجد بتلك النواة لجيشه الذى كان قد بدأ يعده لغزو الشام

ولما يتم اكتماله . وكانت خطته ان يسبق أصحاب الجمل ببعض الطريق ثم يردم بالحصى عن البصرة قبل ان يبلغوها ويفتنوا الناس . ولم تكن له فسحة من الوقت ليتأهب بما يكفيه من عتاد ورجال تحوطا لما عسى أن يسفر عنه عدوه من لجاج قد يشير حرباً لا تتعادل فيها القوتان . ومع ذلك فإنه لم يتردد كأنما كان موقناً بنصره السلى عند اللقاء ، وخرج بفشته القليلة دون أن يتعباً تعبته حرب تامة ، بلا كفاية من زاد ولا سلاح ، متخفين ما وسعهم كأنهم يسرون إلى مرتاد نزهة . . .

ولقيهم بالطريق عبد الله بن سلام . . . الصحابي الجليل كشفت له نفسه الصافية عن أمر فسارع يرد القوم عن مهوى القضاء المنتظر . وإنه ليندفع إلى الإمام وليأخذ بعنان دابته فيلويه كأنما أراد أن يدفعها عن السير . وكانت الدموع تلتهم في عينيه ، وكيانه كله يهتز بما انطوى عليه صدره من مشاعر كما تهز الزلزلة الأرض . . . ثم هتف وصوته للمهاج تفيض منه برة التوسل :

« لا تخرج ! . . لا تخرج منها يا أمير المؤمنين . . . فوالله لئن خرجت منها . . لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين . . . أبداً . . »

فبادرت إلى الشيخ طائفة تصده . وزجرته طائفة . . . وهمت به أخرى تؤذيه بالقول الحشن وتكاد أن تنال منه . . . فإذا على يصيح بالجمع :

« دعوه فقم الرجل ! . . . »

أفلس ياترى الصدق في كلمات هذا صاحب الكريم ؟ . . لا ريب . فذاك رأى للإمام قديم . وإن قلبه لما زال يردد — حتى في هذه اللحظة التي يستهدى فيها بأمله — نفس هذه الطيرة التي ردها إمامه عبد الله . . إنه منذ قليل طالع صعبه بذات الرأي وهم يوشكون أن يبرحوا المدينة . . . ألم يقل لهم حينذاك :

« . . . إن في سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها . . والله انقلبن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً . . . »

ومن له الآن بمن يضمن اعتصامهم بأمر الله في هذا الزمن الذي حكته الأهواء ؟ . . .

.. ثم سرى رجال الكتيبة والليل ، يشتدون في مشيهم قدما . . . وكان يسير على رأسهم وشعوره يعصف به ، ومع ذلك فقد دفع عنه يأسه وراح يضرب مع القوم . . . وإنهم ليتوثبون لغايتهم أينما توثب ، ويسرعون الخطا حتى ليكاد يحملهم من نشاطهم جناح : أفسكتوا والقدر أفراس رهان فجهدوا ليغلبوه في ساحة الزمن ويسبقوا تصريفه المغيب . لقد تزودوا بالرجاء في رحلتهم النبيلة فلم يأبهوا فيها بعشقة . وسلوا عزمهم مرهقا كما تسل السيوف البواتر . ومضوا مبادرين نحو ما أرادوه . . . ولكن القدر سبقهم ، وبسط الصحراء الفسيحة أمامهم كسجل مفتوح ، أقدامهم عليها أقلامه التي راحت تخط دراكا سطور المأساة القرية كلما تقدمت بهم على أنقاء الرمال ! . . .

٨

كانت ليلة من ليالى الخريف ، وسنانة الريح ، شف جوها دفء رقيق لعله بقية الصيف الراحل . . . ساجية كحلم هانىء ، نديه كنسمة البحر ، قد أشاع فيها السحر الطلول أنفاساً ريانة حملت لها بشار الشقاء . وكانت صافية الأفق كصقال مرآة ، برامق نجمها الساهر الرمل بلمحه فيتألق كذهب سيال . . . نقية السا لا يشوبها ظل . الصحراء الفضاء تحت صفوها بدت كلوحة الدهن الداكر ، تلاقى عليها ضياء السماء بلائلاء الأرض كالتقاء الماضى الغابر بالحاضر الغض في خيال مدكرا الكتيبة الآن تدرج على هدى النجم ، يتراءى رجالها في خفقات ضوئه كأشباح . لانتكاد السرعة البالغة تتيح لأقدامهم لمس الأرض . . . إنهم يتحدرون بين الرمال ولهم مثل صوت اللجة في بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعتهم أمامها الريح حين إعصار . كلهم انطوى على الرجا . وإن أحس يد الرهبة تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى فراغ وقراغ . وأينما وجهوا العيون طالعهم الرمال الجديية ، صامته خرساء لا تكشف لهم عن سر القوم الذين ركبوا المشقة ليدركوهم . . . لا أترهنا لجيش ، ولا لمدج بليل . . . وحتى مواعيق الأقدام التي

لعلها قطعت قباهم هذا المجاز لم يحفظها الرمل بل انطوت في خضمه ، ولم يبق لهم سوى أماتهم يتأرجح بخيط .

ولكنهم مضوا يغالبون الصحراء ، ويقتطعون الشقة بعد الشقة من رقعتها للبسوة لعلها تشرف بهم على الغاية الموجودة في نهاية الطواف . . . انطلقوا على أديمها المياد صامتين إلا ديبيا مكتوما ينجاب عن وطء الأرجل ، وأنقاساً لاهثة ترددها الصدور ويبددها حفيف النسيم أما الشاعر فلها في القلوب اصطفاق بتدافع وتراجع ، وقد أثارها الكون الذي لف الكون . فما أكثر ما يهيج الهدوء ذكريات النفس فتذبح خواطرها الدفينـة فواره كماء الينبوع . وما أسرع ما يلهم الصفاء التأمل ! .

كان ينطلق في طليعة الكنيـة ، خفيفاً مبادراً ينتهب الأرض . ولكنه لم تغمره ضوضاء جيشه ولا ضجيج . . في حساب إحساسه كان نائياً عن رجاله بوادٍ سحيق بعيداً عن دنيا الناس ، وقد احجزته لنفسها الذكري واحتواه التأمل إنه في ركاب قافلة الفكر . . ولئن ضربت به راحلته مهاد الأرض فليس لوقع أرجلها صوت . . ولا كل هذه الجلبة النبيـة من سير جنوده تطرق سمعه . وحين ألقت عينه بصفحة هذا المكان السابح في ضوء النجم ، انبثق أمامه الماضي كأنبثاق ألوان الطيف عن وجه النسيم في يوم ماطر . . . فها هو الفضاء الرحب يزخر بمشاهد من حياته قديمة . وها هي الصحراء قد انقلبت نكـاية نحل تتر بأصوات عادت له من الغابر الغائر في أعماق ذاكرته كأنها نبت اللحظة الوليدة . . . التقى أمسه على صفحة ذهنه بيومه ، وذابت حدود الزمن وأحيازه فلا سلطان له على الذكريات . وازدحم حوله السكون بالأصداء والصور ، وكلها جلى غض . . وإته ليتبين منها صورة قريبة إلى قلبه ، فيها صاحب جليل له وللرسول راح يدرج على بساط الرمال وقد براه الهزال وآده ضعفه ، وفيها صدى من الماضي يهتف رءوفاً حانياً وراءه : « عشي وحده . . » . ثم تبدو له أخرى تهز مشاعره وتجعل نفسه تسيل من الأسى والتفجع . انطبع عليها ذلك الهزيل الضعيف وهو مسجى ساكن الجوارح على جلد شاة وقد نزت من أوصاله الحياة . . . فلا يلبث الصدى الرحيم أن يهمس : يموت وحده . . . »

وقد مشى صاحب وحده ، ومات وحده مصداقا لحكمة الغيب التي أنطق الله بها لسان رسوله وأعادتها الذكرى ثانية صدى في أسماع الإمام . وذهب مثلا خالداً في الأعصر لإنكار الذات والفناء في سبيل غاية نبيلة ، ولم يبق الزمن منه إلا لمحة في الخواطر المستعيدة ...

ويهتف الدليل الذي أم الفرقة في مسراها ، بصوت يشق السكون :
« الربذة . . »

الربذة المني الذي انتجعه أبو ذر حين ضاق به عثمان فسيره نأيا به عن أصحاب الثروات . . . المثنوى الذي ضم رفاته فظهر به . . . روى الله ثرى الشهيد المرحوب ! وأصدق بمحمد إذ قرأ له مصيره هذا وهو بعد في لوح الغيب : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض . . » وها هي الفلاة . . ها هنا في ثراها انطوى الشيخ الذي فهر الدنيا لأنها نادته فأدبر ، وراودته فاستمص منها بإيمانه بالجواهر دون المظهر . . عليها كان محياه ، وفيها رقد جثمانه ، ومنها مجازاه من زيف الحياة الرخيصة إلى العيش الأبدي في عالم ليس يكدره سلطان الناس . . .

وألقاها على نظرة عجلي على وادي الرمل تروده إلى ناحية فيها اطلال وفيها آثار . . فاذا عينه تانمع بدمعة ، وإذا قلبه تملؤه رهبة ، وإذا كيانه كله يحتوى الخشوع وهو يكاد أن يسمع من جانب المثنوى الساكن ذات الكلمات القوية التي ردها صاحبه الثاوي منذ أعوام :

« رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيته يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله . . »

أما الآن فقد مضى محمد ، ومضى أبو ذر ، ومضى في أعقابهما كثيرون منتظلي أحيازهم في الدنيا فارغة لا يستطيع أن يعلوها إنسان . . فكأنما الخيول بعدهم على الأثر ، وفارق حتى هذه النفوس التي كان يرتجى منها الخير . فللدنيا اليوم سطوة على الخلق تفتتهم بزخرفها وان انطوى على ضلالة . وتسير بهم كيف تشاء فيتبعونها كأنهم ظلال . . .

وما عثم أن التوى عن الذكرى ذهنه ، وخلف قافلة الفكر ليتابع مركب الحاضر . . . فإن هي إلا لحظة حتى انفرج الأفق الأشهب عن راكب يطير نحوه مع خيوط الفجر . أهذا بعض طلائمه التي بعثها ترود السبل قد جاءه بنأ عن القوم ؟ . . .

وهذا سر الركب . وتعلقت أنظار من فيه بالفارس الذي أطلعت جوارب الظلمة الرقيقة . إن عليه لوعناء مرثحل نشر من البوادي وطوى مراحل صبغت أردانه . وهذه أذياله انبسطت على جانبيه كالجناحين . وفي وجهه وجمة محاذر ، وعلى آثاره انطلقت كتاب القلق تهم أن تغزو القلوب التي لعبت بها أكف التوجس . . . وعندما طالعهام كان أملهم لا يزال معلقاً بخيطه ، ولكنه إذ قاربهم زحف إلى صدورهم خوف غامض هو طليعة ذلك القضاء المرهوب الذي يوشك أن تنفرج عنه شفتاه . . . أفآن يا ترى لهذا الأمل أن يذوى عوده ثم تسقط عمرته فتضيع بين رمال هذه التاهة كما تفيض قطرة الماء ؟ . . .

على لمح النجم تبينوه وهو يسمى مبادراً إلى مكان الإمام . وحين ترجل كانت أنفاسهم تلاحقه . فلما أن فتح بالحديث فاه سكنت تلك الأنفاس . . . تعلقت بالهواء الذي حفرهم لا تذهب ولا تروح . . . وأرهقوا حواسهم كلها في جوارحهم كلها آذان . . .

وهتف عطاء بن رثاب وفي كلامه مثل رنة النذير :

« لقد آمنوا يا أمير المؤمنين . . . » .

لما أسرع ما حملت لهم هذه اللحظة كل ما صادفهم من المشاق في الطريق الذي قطعوه واستشعرت أوصالهم إعياء كان يخفيه عنها شعورهم السالف بقرب النجاح . أما وقد غاض أملهم فإن نشاطهم ذاب في دفعة واحدة . . . رسب إلى القاع وطففت فوقه المتاعب التي كانوا ينفضونها عن كواهلهم من بدء الرحلة . إنك لتنسى أوصابك ولا تحس بها وأنت تستبق الأخطار إلى هدفك المنشود ، حتى إذا كبوت دونه وانقطع بينه وبينك الطريق حضرك من آلامك ما كان هوته أملك . . . فالأمل دائماً خفيف مفراح ، وعلى النفس اليائسة من قنوطها مثل أوثاق الصخر :

ومع ذلك فليس الشعور الذى امتلك الكتبية الصغيرة كان من خشية عدوها السباق ، ولا إشفاقاً من لقاء الأُسنة التى أعدتها لها جيوشه . . . بل هو وليد الأسف على مصير الأمة التى حلت فى جوها هامة الحرب تنادى بظلمها للدماء ! إن أصابع القدر لتكاد كلها تشير إلى صراع دموى عنيف ينتظر قوى الإسلام فيفرق بين الإقليم والإقليم ، وبين البلدة والبلدة ، وبين المرء وأخيه ، وما لى الآن يد بإدراك العصاة قبل أن يشعلوا نار هذا الخلاف الرهيب ، وليس له سلطان على عقولهم يهديها كما يرجو إلى مسالك السلام . . .

أمعنوا ؟ . . . مضوا إذن لطيتهم ضاربين فى الطريق إلى وجهتهم وعمما قليل يشارفون أسوار البصرة ثم يدقونها للدخول أفيستجيب لهم أهلها ويلحقون بركب الفتنة أم يصدونهم عما جاءوا فيه ؟ . . لا معدى عن التعام الأملحة فى الحالين ، وعن ضرب الهام وتمزيق الأجسام ، وإذا تكلم السيف ساعة تحدث بعده العداوات ، وضربت معاول الفرقة فى بيان الوحدة الإسلامية ، فلن يستكين لهم عامل على هناك : عثمان بن حنيف ، على الأقل لن يدعهم يتزنون منه سلطان مولاه وهو ساكن ينظر دون أن يهز رجا أو يحاول رفع حيفهم ولو بإشارة بنان ، وحينئذ لا محيص عن اقتتال الفريقين : أحدها يضرب ليفوز ، والآخر يدنع ليزود عن كيانه وعن الولاء المفروض عليه حياى صاحب الأمر الشرعى فى البلاد .

وخفض أمير المؤمنين رأسه وهو يطوى على الرثاء جنبيه . . . ما لهذا القدر الذى سبق بالتدبير فأبرم ما شاء . . . على أنه مع ذلك لم ينفص يديه من رجائه فتحة بقية فيه لعلها تزعزع إن ظل بالنفوس الفسالة فضل إدراك . . . ومن يدري ما عسى أن يسفر عنه القدر ؟ . . أما اليوم فواجبه أن يضن على الإعياء بقوى الرجال . لزام عليه التأهب للصراع المنتظر إن طالته الظروف بالصراع . وهل كان يفوته وجوب الحيلة وأخذ حذره لكل احتمال ودون بلوغه البصرة مراحل تأكل جهد الجيوش المعبأة للحرب بخير عتاد وخير زاد مع عنك كتيبة الصغيرة هذه التى خرجت وليس فى حساباتها خوض غمرة القتال ؟ . .

على هذا حزم أمره فأثر المكث بالريذة حتى يأتيه المدد من الجند والسلاح
واللؤونة ، ثم يزحف بأداة قتال مكتملة التعبئة إلى مواقع عدوه . . . ذلك أدنى
إلى إرهاب العصاة ، وأدعى أن يفيثوا إلى السلم المنشود أو يقوموا صرعى إن
ركبوا طيشهم وقتلوه . . . وكما ترك لقثم بن عباس أن يشرف على التعبئة بالحجاز
فكذلك بعث برسله إلى بقية الأمصار الموالية يستمددها العون ، ويدعو الناس
فيها أن ينفروا إليه غير مكرهين . . . كتب لأهل الكوفة يقول :

« أما بعد . . . فإني خرجت من حيي هذا إما ظالماً وإما مظلوماً ، وإما باغياً
وإما مبيغياً عليه . وإني أذكر الله من بلغه كُنابى هذا لما نقر إلى . فإن كنت
محسناً أعاننى ، وإن كنت مسيئاً استعبتى . . . » .

وإذا عزم على البقاء حط رجاله الرحال . وغار النجم تلك الليلة والريذة
تبع بالقلوب التي عمرها الولاء للرجل الذي ائتلف على هضمه الزمن والنفوس .
ولكنه كان راسخ الإيمان بحقه ، عظيم الثقة في أنه يسير على النهج الواضح
المستقيم . وهل عمل قط لدنياه أو انقاد لرخارف الأباطيل التي طالما استهوت من
الناس أشدهم أخذاً بأسلوب التوقي من إغراء الحياة ؟ . . . إن تحت الثرى قلباً
يعلم هذا فيه — وعيه عنه منذ أعوام ، ويود لو هتف به الآن على الملاء الحاشد
لو كان بجانب قبره لسان . . . ها هنا ذاك القلب ، في هذا الركام الذي لعبت
به أيدي الريح وسفت عليه رمال الصحراء . . . ولو قد تستطيع أعظم الثاوى
أن تجمع ثم تلتئم بشراً قادراً كما كان أبو ذر لبيت من رقدة العدم تنضج عن
الإمام وتسير في ركابه أينما سار . فما علم هذا صاحب الذهاب امرءاً يستمسك
بالحق كمثل على ويمتدبه ، ولا أحداً أكلف منه بالتزام الجادة السواء . . .
لا أحد مطلقاً بعد رسول الله سواه . . . وليس أصدق صورة لنفس ابن أبي طالب
من تلك التي رسمتها كلماته المزجاة للشهيد الراقد بهذه الفلاة يوم شيعه حين
أخرجه عثمان . إنها سكة قلب ملهم مستنير قل بنا إلى قبر الزاهد نسبحها منه
أو لعلنا نجد منها على رفاقته بقية آثار . . .

« يا أباذر . . . إنك غضبت لله فارح من غضبت له . إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فانرك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعهم وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الراج غداً والأكثر حسداً . . . يا أباذر ، لو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً . . . يا أباذر ، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك . »

فهل من كلمة أبلغ دلالة على الأنفس البشرية بلونها من هذه التي نطق بها الإمام ؟ . . . إنها لترسم لنا صورة من قلبه النقي كيف كلف بالمثل الأعلى حتى رمى دبر ظهره كل فتنة الحياة ، وتصف السادر في غمرة الدنيا حتى لينسى أن نعمة نهاية لدنياء . . . ولسوف ينطلق الزمن في بروجيه بالجميع ، وتنطوي صحائف الرجال فلا ينشرها بعد على الأجيال إلا ذكر يرفع صاحبه أو يهوى به إلى قرار . فإذا ذهب العمر وبقي الذكر فستنشر من أمجاد على أسفار وأسفار تجعله في الموت أقرب إلى حسد عدوه منه في حياته . ذلك أنه اشترى الحق بهذه الدنيا فراجت سلعته ، وتفتت بضاعته ، وضلوا هم عن سوائه فأقبلوا على تجارة مآلها عند الأحقاب المتعاقبة ثم عند ربهم بعدهم ، خسران وبوار . . .

٩

بهت الليل . . . شحب ظلامه كأن يد السحر راحت ترفع أسجافه واحداً بعد واحد عن وجه الكون حتى بقي منها وشاح رقيق شفاف . وأخذت نضرة الضوء تترقق في صفحة الأفق ، على طرف الصعراء البعيد ، وتتكرر موجاتها الصغيرة خاية اللون ، مخافة إذ تهمس بالبشرى عن النهار الوليد . . . وحين جرى اسم الله على وادي الرمل شاعت فيه صخرة الحياة . فني أركانه رنت دعوة النجر ، وانطلق داعي السماء يردد نداءه في الفضاء الرحيب فتخشع له الكائنات ، حتى الحصى والندى وسمة الريح . . . وما أسرع ما استجاب رجال الإمام للنداء ،

كأنه الصوت وهم صده . خفافا قاموا للصلاة نانضين عنهم مشقة السير واستظمتهم في عقدها الصفوف . وخفافا ألقوا قلوبهم إلى رب الكون ، متجردة إلا من خفتها الرتيب الوئيد

وسرت على خيط الضوء قافلة تسير ، في خطوها الرفيق وسن وهي تدرج فوق بساط الرمل كأنها تنشى على ماء إبلها المكدودة قد أعياها طول السرى حتى أوشكت أخفاقها أن تلتصق بالأرض ، ويدت لبظتها لا تقبل ولا تريم . وركبها لفهم برد النوم ونأى بهم عن دنيا الوعي . ولكن نداء الفجر شق عنهم الغطاء ، فأيقظ هاجعهم ، وأسرى الحمية في أوصال البهم فمضت تستبق إلى ذلك الحشد المتهيب لاستقبال بيت الله ، المتولى صوبه بالأفئدة وبالوجوه عندما كان أصحاب الركب على مبعدة حبوا الحشد قطعة من الليل لم تلمسها يد البكور الوضىء ، ولكنه الآن في مجال عيونهم رجال أصحاب وغى كما يلوحون ، فهذه أذراعهم حولهم غطت جانباً من المكان إذ خلعوها وهم يهيمون للصلاة . وتلك أنعامهم على كثر رابضة في سكون وتهويم ولو انجاب آخر وشاح من الظلمة لتبينهم الركب ، إلا أن غبشة السحر كانت ترد الأنظار .

مالت القافلة الصغيرة إلى النداء وغمرها مع أضواء الفجر غامر الزحام فاندست فيه تلك الطائفة من أهل الكوفة التي خرجت تروم العمرة قد استقبلت بالطريق أفواجا مناط آمالهم رجال الكوفة ، علقوا بقصة السواد لأم الصدع الذي يوشك أن يصيب الإسلام فها هنا الإمام ، وها هنا صحبه الذين مضوا يتبعونه اتباع الظل ثم تريثوا معه حتى يأتيه المدد الذي بعث يستمده — اقتدع القافلة أمير المؤمنين وتمضى لشأنها صوب مكة ؟ أم تلحق به لكفاح أعدائه الذين ركبوا السرعة فجاوزوا بها يده المددودة للصالح والسلام ؟ أم الخير يا ترى في الخروج على سلطانه انحيازاً إلى الصاحبين وأم المؤمنين ؟ إن طرفاً من أنباء الفتنة التي أشعلها حزب الجمل لاريب قد بلغ الركب على ظهور الرواحل التي كانت تجوب الصحراء ، وتتفامنها قد تجمعت في أخلادهم مرة من هنا ومرة من هناك . ولكنهم لم يستشعروا حقيقة الخطر الذي توشك

الأمة أن تكون هدفه إلا في هذه اللحظة ، حين رأوا العزيمة التي بدت في عيون هذا الجيش الصغير . . . سينطلق الرجال إذن ، قدما سينقلون ، إلى مكان سوف يخضبه الدم . وهذا القتال الوشيك يهز كيان الأنفس المخلصة للوطن ويزلزل القلوب . إنه يقدها قدأ وإن لم تندلع شرارته بعد ، وإن لم يشهر سلاحه ! . . . فللمشاعر عيون . والأفئدة النقية تستطيع أن ترى الأحداث قبل أن تنجاب عنها الغيوب . . .

وغشت الوجوه وجة مباغثة ، وخالط لونها الأسر مشحوب الحيرة . . . إن الشفاء لتنضم وتنفرج ثم لا يند عنها كلام ، والعيون تتذبذب قلقة في محاجرها ، والصدور تضطرب بأنفاسها المحبوسة . وحينما قامت النفوس إلى أمنها مض الفؤاد ، تردد الهمس مخافتاً بين أصحاب الركب :

« . . . إنا لله وإنا إليه راجعون . »

نعم فهذه كلمة من أعبته الحيلة ، وغلب على باله الاضطراب . . . وكم من أداس في العالم الإسلامي إذ ذاك كان شأنهم كشأن رجال هذه القافلة الحيرى بين مسلك فريق عائشة وفريق الإمام ، يتجاذبهم شعورهم آونة إلى أولئك وأخرى إلى هؤلاء ، وقد غم عليهم الحق فما عرفوا أى جانب يحتويه . وما أكثر من ظلوا حيارى مضيعين في ميدان هذا الصراع الأهلى ، لا يقطعون برأى حاسم ، بل يظنون يهمسون لأنفسهم ما همس به لنفسه طارق بن شهاب وقد أوفت به قافلته على أصحاب أمير المؤمنين بالربذة ، تلك الساعة الباكرة من ذلك الصباح :

« . . . آتى عليا فأقاتل معه الرجلين وأم المؤمنين ؟ أم أخالفه وإن هذا لشديد ؟ . . . »

ولكنها حيرة تفسر لنا الأمور أجلى تفسير . فهي مرد توائى الكثيرين من عامة الناس عن نصرة الإمام ، وعن الخروج في جيشه الناهض لرد العصاة . وهى كذلك نار صهرت القوم فلم يثبت منهم لشدة حرها إلا الخلاء الذين آمنوا بحق على أثبت الإيعان . فما لحق به إلا عيوف عن الهوى ، زاهد في المرض ونشأ دنياه . وما انضم لركب أخصامه إلا كل سادر في غيه ، حريص على إشباع

نهم نفسه من مفاتن الحياة . وهذه الظاهرة النفسية لم تغفل عنها نظرة الإمام . فظالما رد الكثيرين عن السير معه . وكم من قبائل أته تعرض عليه أن تحارب تحت لوائه فأبى عليها أن تنتصر له ، وآثر أن تكف وتقعده عنه . . . كان يعلم أن ثمة — سوى الإيمان بقضيته — دوافع من الكسب والغنم في القتال هي التي استقدمتهم له ، فكان يرفض عونهم ويقول :

« . . الزموا قراركم أيها الناس . في المهاجرين كفاية ! . . »

وهذه دون شك ، من وجهيها الآخر ، خطة رجل يؤثر السلام ، ويكاد أن تسبق رغبته فيه وحرصه عليه ما نعلمه من تكالب بناء الدول على توفير كل أسباب القوة حولهم ليؤيدوا بها ملكهم ويدعموه . . . ولكنه كان صاحب رأى قبل أن يكون صاحب سلطان — صاحب مبدأ سام يعنى بشمره وإقامة دعائمه في نفوس الناس عناية الهداة من أصحاب الرسالات . فما فرح قط بما في يديه ، ولا استهواه زخرف السطوة الذي أفاءته الخلافة وتقطعت دون بلوغه أعناق سواء . إنما كان خير أمته هو شاغله والغاية التي يسعى لها ، والإمرة وسيلته . وكل دفاعه عن الإمامة كان دفاعا عن الأمة التي علمها لن تنال في ظل غيره ما تناله في ظلال سلطانه القويم . . . دخل عليه ابن عباس ، ذات يوم قابل وهو بذى قار ، وكان جالسا يخفض نعله ، فما استقر حتى رفع على إليه عينه وقال :

« يا ابن عباس . . ما قيمة هذا النعل ؟ . . »

« لا قيمة له يا أمير المؤمنين . »

فتبسم يتم الحديث :

« والله لى أحب إلى من إمرتك ، إلا أن أقيم حقا أو أدع باطلا ! »

على أن هذه السماحة وهذا الزهد لم يقعدا به عن التزام جانبنا الحزم حين تأزف الأمور . فليس بخوار . ولا رهبة تسكن قلبه من مخلوق . وعندما وجب عليه أن يختار بين الصبر على المهانة ، التي لحقته كذاكم شرعى لما خلع طلعة وأصحابه عنهم الولاء له ، وبين السير لهم حتى البصرة لردمهم ولودعت الحال بقوة السلاح . . . حين بدا ألا معدى عن المفاضلة بين العنف والتخاذل ، لم يتوان لحظة واحدة

في طروق السبيل الذي يؤتم رجولته ، ويودى به إلى قضاء الواجب المفروض عليه حيال سلامة الدولة الإسلامية وحفظ وحدتها غير مصدوعة ...
ووقف عقيب أداء فريضة الفجر بهم أن يخطب الجميع مفضيا لهم بما قد رآه .
فاذا ابنه الحسن ينهض له ، ويقبل نحوه على تردد واستحياء وإن حذانه وإشفاقه على أيه ليغلبانه حتى أصابه الحسر وذاب في دموعه الكلام . وتلبث على به هنيهة ، وقطع من الحديث ما كان يتدافع على لسانه منذ لحظات . فلما رأى الفتي ممعنا في بكائه صاح :

« جئت تحن حنين الجارية ! ... » .

فاغضى الحسن حتى فاءت إليه نفسه الحزينة ، ثم أجاب :

« أمرتك فمصيتني ، فأنت اليوم تقتل بمضيعة ، لا ناصر لك ... » .

فكان بهذه الإشارة منبها عما طوى عليه نفسه من رأى قديم ... إن خواطر هذا الابن الرقيق الفؤاد لا تشغل من بال الإمام أكثر مما يشغل هذا الجمع الصغير من رقعة الصحراء ، وليست عنده بذات خطر لأنها وليدة عاطفة جياشة حساسة تجسم توافه الأوهام ... إنها رؤى أبدعتها عاطفته ولم ينجبها عقله ، وما بالقلوب تساس عظام الأمور .

ومع ذلك فقد أثر على أن يدع الحسن وما يراه ، وأن يعلل له في الكشف للناس عن خاطره المكنون حتى يتبين لهم أين الخطأ وأين الصواب ، ثم يدع الحجة وحدها تأتي بفصل الخطاب ...

قال يستعثم الفتي أن يفصح عما أراد :

« حدث القوم بما أمرتني به ... »

« أمرتك يوم أحيط عثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل واستبها ، وأمرتك يوم قتل ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب وتأتيك وفود أهل الأمصار وبيعة كل مصر ... وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم دارك حتى يسطلحوا ، فإن كان الفساد على يدي غيرك ... فمصيتني في ذلك كله ... »

وهذا حديث معاد مردود ! . . . وهل كان على يملك أن يدع عثمان محصوراً ثم يكف يده عن الدفاع عنه وتحذيل المتآمرين كلما استطاع ؟ . ألو فعل لأعفاء اعتزاله من عدل أعدائه الذين لم يعوزهم عدله حتى بعد دفعه عن الشيخ المهيش ؟ أم كان ذلك يرفع عنه التبعة أمام التاريخ ؟ . . . لقد طالما خرج لئاله بينبع حين كانت تميمه الحيل في إصلاح عثمان والتوفيق بينه وبين الثوار فكان الخليفة إذا تأزمت عليه الأحداث يبعث إليه فيدعوه . فلما جرى القدر بالقضاء في القليل فر على من البيعة ، وراح يطاول الناس ويتأبى عليهم لعلمهم بختارون للإمرة سواء . ولكن تأييه لم يغن شيئاً ، ولم ينزع من قلوبهم افتتانهم به فحملوه حملاً من داره إلى المسجد فبايعوه . إنه ليرسم صورة حية من حرص الناس عليه يوم البيعة تكاد تنقلنا إلى الجماهير التي أحاطت به حينذاك ، وتحبي بنا في الجو الذي تم فيه السلطان له إذ يقول :

« ... ! ظم دى فكفتها ، ومددعوها فقبضتها ، ثم تدا ككم على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقطت الرداء ، ووطى الضعيف . وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب ... »

فما بال الحسن يقول ما قال ؟ ... وهل أنسى أن البيعة كانت من حق أهل المدينة وحدهم . وأنهم اختاروا من قبل أبا بكر ، وأقروا عمر ، وأبرموا بيعة عثمان ، فلم تأت بيعة الأمصار لكل هؤلاء إلا بعد أن تربعوا عرش الخلافة ؟ .. أم كان يرى أن يدع أبوه الأمر فوضى في يد الأقاليم الإسلامية — وليس يخلو واحد منها من طامع في السيادة — فيتفرق أمر الناس بين طائفة من نهازي الفرص والأدعاء ؟ . . . ذلك إذن رأى مردود ! . . . وأضعف منه أن يصبر الإمام على عباد المنصب فيدعهم يحتلبون الإمرة التي أولاه الشعب ولا يد يده لإقرار الأمن والنظام . . .

ونفض على فاستقبل الجمع . ونقض آراء ولده بما شاء ، حتى إذا انتهى إلى

ذكر حركة العصيان كان لا بد له أن يختار بين مذلة الجبن والتخاذل وبين العنف والاحتكام إلى السيف فصاح :

« . . . والله لا أكون كالضبع تنام على طول الدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها . . . ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه ، وبالسامع للطبع العاصي المريب أبدا ، حتى يأتي على بومى . . . »

١٠

وصل مدد المدينة ، وأخذت الربذة تعوج بالرجال . ولكن الكوفة لم ترسل مددها بعد . . . الكوفة التي قدمها على الأمصار وآثر أهلها على غيرهم حتى كتب لهم يقول :

« . . . إني اخترتكم والتزول بين أظهركم . . . وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا . . . »

أفقمعدوا عنه أم أريدوا على القعود ؟ . . . لا خبر . لم يأتيه من محمد بن أبي بكر نبأ عن القوم ، ولا كيف استقبلوا رسالته إليهم ومحمد آ سفيره . الظن وحده لا يشفع عنده للقطع برأى وإن كانت بنفسه شكوك من واليه أبي موسى الأشعري الذي تملك طبيعة التردد . . .

بوسعه الآن أن يبدأ الزحف ، وثيدا وثيدا ، ثم يصله رجال الكوفة وهو يبعث الطريق . إن الزمن يمر مسرعا كالغيمة وقت العاصفة التي تزار في أجوائها هوج الريح . . . وحزب الجمل لا بد قد بلغ البصرة ، وطرق أبوابها أو اغتصبها عنوة . هو لا يخشى أن يفوز طلحة دونه بالخلافة ، أو يفوز الزبير ، ولكنه يود لو استطاع أن يحمد الفتنة قبل أن يملق شررها ببقية البلاد . الصاحبان ليسا عنده بذوى خطر مرهوب لأنه بقدريهما لدى شعبه عليم ، ويمكنون تقسيمهما على بينة . الأيام كفيلة بهما وبما اتوياه ، تكشفه اليوم أو غدا أو بعد عام . حتى

لو أتيح لها الظفر لما أمهل القدر لها في الفرح به ، لأن التناحر على السيادة سيقطع ما بينهما في نهاية الأمر ، ويردها عدوين يتخاضمان . . . وما كان على بالذى تشكل عليه خبيثة الأنفس التي يشى بها الفعل وتم عن مكنونها مقدمات من الهوى والشهوات . . . وهذا حديثه عنهما يصورها كحقيقة الحال ، بما فيها من الأضواء والظلال . . . وصفهما مرة فقال :

« . . . كل واحد منهما يرجو الأمر له ، ويمطفه عليه دون صاحبه . . . لا يبتان إلى الله بحبل ، ولا يعدان إليه بسبب . . . كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعمّا قليل يكشف قناعه ، والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا ، وليأتين هذا على هذا ! . . . » .

وقر رايه على المسير فنادى مناديه فى الناس ، ورتب للأهبة جيشه الصغير . الراية لابنه محمد بن الحنفية ، وعلى المقدمة أبو ليلى ، وعلى الميمنة ابن عباس ، يقابله على ميسرة القوم عمر بن أبى سلمة الذى خرج يدرأ عن الإمام فى المقام الذى طالما تمت أمه زوج رسول الله أن تقوم فيه . . . وعندما أوشكت القوة أن تبارح الربذة نهض ابن رفاعه يستنبي السياسة التى انتهى إليها عزم أميره ، فقال يسأله :

« أى شىء تريد ، وإلى أين تسير بنا يا أمير المؤمنين . . . » .
فأجابه دون تردد :

« إن أريد إلا الإصلاح ، إن قبلوا منا ، وأجابونا إليه . » .

« فإن لم يجيبونا ؟ . . . » .

« ندعهم بعذرهم ، ونصبر . . . » .

« فإن لم يرضوا ؟ . » .

« ندعهم ما تركونا . . . » .

« فإن لم يتركونا ؟ . » .

« امتنعنا منهم . » .

وكذلك وضع أنه ما زال يستمسك بالسلم ويحرص عليه حتى اللحظة الأخيرة وإن خالفه أعداؤه وأقاموا على العناد . وسيصبر عليهم جهده ، ويركن للحسنى

فلا ييادئهم بعدوان ، بل قد عزم أن يتمتع عنهم ما وسعه الامتناع عسى أن يكون في هذه المقاومة السلبية ما يفل من حدة افئساثهم عليه فيرتدوا إلى حجة الصواب . . .

وهتف ابن غزيرة الأنصارى مثيلاً على هذه السباحة التي تميز في الدعاة دع عنك رجال الحرب والقتال :

« والله لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، ولأنصرن الله كما سمانا أنصاراً ! . . . » .

وانطلق الجيش ، يؤمه على على ناقة حمراء ، والراجز أمامه يهزج للجنود التي أفعم قلوبها الإيمان :

« سيروا أبابيل وحثوا السيرا إذ عزم السير وقولوا خيراً . . . »

إلى ذى قار كان ينو طرفه فيها يستطيع أن ينتظر مدد الكوفة وهو منها ومن البصرة قريب ، أو ينتظر من ابن أبي بكر أنباء الأشعري ومدى اهتمامه بالدعوة إلى النهوض بالجند والسلاح . . . مضى برجاله يقطع الصحراء ، في تريت ومهل ، يكاد يستنبيء الأرض نفسها خفي الأخبار . ولم يكن طريقه موحشاً كله . بين كل مرحلة وأختها كان يطلع له الناس ، من أهل القبائل الضاربة في البيد ، يعرضون أن يستلحقهم بجيشه ليكون لهم أجر الكفاح من أجل مثله ، وتحت رايته . . . ولكنه استمسك بعزمه الأول فردهم . كان يتحرج أن يشرك معه أحداً من الأعراب خشية أن يكونوا ممن أعان على عثمان فيكون فيهم لأعدائه حجة عليه . . . أتته أسد إذ نزل بفيد يعرضون أنفسهم فأباهم ، وأتته بعدهم بكر بن وائل فلم يفوزوا في كتابته . . . وعندما بلغ من طريقه بعض مراحله ، استقبل رجلاً من أهل الكوفة فاستنبأه خبر بلدته ، لعل لديه من أمر الأشعري نبأ قال يسأله :

« من الرجل ؟ . . . » .

« عامر بن مطر » .

« فما وراءك ؟ . . . » .

فأجاب بعد أن تحدث بطرف من أخبار المصر :
« إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فما هو
بصاحبه . . . » .

فمئذ أعلم الوالى المتخاذل أن الإمام كان يضرر لأعدائه غير ما كان يتحدث
الناس أنه يديه . . . أم هي وسيلة الأشعري إلى القمود وتبسيط همه أهل إقليمه
عن النهوض استجابة لأمر الأمير ؟ . . . وكيف أحل نفسه أن يتصرف في
الأمر من دون ولى أمره فيسمع حين يشاء وبالشرط الذى يرضاه ، ويرفض
إذا شاء . . .

ولكن الأخبار ما برحت تأنيه دراكا كلما اتسع خطوه في الفلاة واقترب
من ذى قار . . . فيفيد علم طرفا من سياسة أبي موسى يتم عن انخيازه إلى
التخاذل والتبسيط . وفي الثعلبية بلغه نبأ المهانة التى لحقت بعمان بن حنيف ،
عامله على البصرة ، من رجال عائشة الذين دخلوا البلدة في ثياب الغزاة . . . وفي
الآساد عرف بما أصاب حكيم بن جبلة ، وبالمقتلة التى أشاعها حزب الجمل في
جماعة كبيرة ألصقت بها تهمة اغتيال ابن عفان . . . الله وحده يحزى الطغاة
الباغين ! . . . وهل يملك على في هذه الآونة إلا أن يسترجع ويردد أسفه :
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب . . . » . . .

ولكنه ظل يطوى نفسه على أساء فما يستطيع أن يرد الأقدار . ومضى
بجنده عبر الصحراء . فإن هو إلا قليل حتى بداله راكب يسرع السير ، على
وجهه وعناء رحلة طويلة ، وتكاد أن تستروح النفس المهمة من أردانه رجحاً
تشى بسر يطويه . . . ولم تحب فراسة الإمام ولم يضلله حدمه ، فالراكب كان حقاً
على بينة من كثير وكثير . . .

وهتف على به يدعو :
« أيها الراكب ! »

فأقبل .

« أين أتيت الظعينة ؟ . . . »

فغلبت الدهشة على سبناه . من أين لأمر المؤمنين علم ما كان ؟ . . . ولكن الرجل أحس أنه حيال امرئ بصير ، كأن الأنبياء تصل إليه على متن الريح ! . . . وحدث بمأشاهد ، لم يضمن شيئاً . . . كل تلك الرحلة التي كان هو دليلها منذ بارح ركب أم المؤمنين مكة حدثهم عنها . . . وكان حديثه قصة ضمنت الأعاجيب ! . . .

ثم أردف من بعد يتم الكلام :

« وهذه معي ناقمتها ، بعثتم بها جملي الأحمر يا أمير المؤمنين . . . »

« فهل لك دلالة بذى قار ؟ . . . »

« لعل أدل الناس . . . »

ثماني ليل مضين عليه وهو بالطريق منذ غادر المدينة ولم يعد بعد محمد ابن أبي بكر من سفارته لأهل الكوفة . إن آفة الأمر هي هذا الأشعري دون ريب ، الذي أباح نفسه ما لا يجوز من عامل مأمور بالطاعة ، وراح يبتث العقبات في سبيل الإمام . ولو أنه استجاب للدعوة فبعث من لديه يندون جيش على الصغير لبلغت كتابته البصرة قبل أن يستطيع أصحاب عائشة أن ينالوها بشيء ولو سع علياً أن ينفذ خطة الإصلاح التي انتواها ساعة الخروج . . . ولكن الوالي الماصي سدر في تردده ، وفي تقاعده ، حتى تجذمت كل أسباب الخلاف وافتتن الناس ولب العصاة في الطغيان بعد أن أغراهم النصر الرخيص الذي نالوه بالبصرة على واليها الذي صبر عليهم وجنح للسلام حتى خدعوه . . . آفة الخطة كلها هذا الأشعري المتخاذل ، وإنه عن الأحداث اللاحقة لأول مسئول . . . وها هو الإمام وقد نزل بذى قار يأتيه عنه ما يشير غضبه ، ويعلاً بالحزن والأسف قلبه . إن الشيخ المقتون يعمن في عاده إلى غير حدود . . . وهل أدل على خطئ رأيه وروز العداء من موقفه من هذه الرسالة الموجزة التي بعث بها هاشم بن عتبة إلى علي وكان قد أرسله للكوفة ليسبر غور ذلك العامل الخارج على طاعة مولاه ؟ . . . « قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الفصل والشنآن ! . . . »

١١

هذا حديث العرنى ، صاحب عسكر ، الذى تحدث به حين صادف الإمام
قبيل ذى قار :

« . . بينا أنا أسير على جبل ، إذ عرض لى راكب فقال :

« يا صاحب الجبل ، أتبيع جملك ؟ »

« نعم »

« بكم ؟ »

« بألف درهم »

« ويحك ! . . . أجنون أنت ؟ . . . جمل يباع بألف ؟ . . . »

« نعم . . . جملى هذا . . . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى

وأنا عليه أحد قط إلا فته . . . »

على أى حال قد أروضوه فى نهاية الأمر ، ومنعوه مالا وناقة فى نظير عسكر
الجميل . . . وسار أمام رواحلهم يدهم على الطريق . . . كلما نزل بأرض أعلن لهم
منزله ، أو مر ببناء صاح باصمه مهونا عليهم بقية المراحل . . . إنه لم يكن رجلاً يعيل
للتنازع الذى غمر القوم ، ولا كان يعنى مثلهم بالنشاط السياسى الذى مارسوه .
كل همهم أن يقطع الأرض ، ويطوى دنى الصحراء الوسيعة ، ويعد بأنفه المرهف
فيعرف الفجاج والدروب كأنه يشم ريح فريسة . . . فهذه هى حياته ، وذلك عمله
منذ عرف الحياة ، وعندما أشرف على تلك البقعة أحس أنه قد وصلها وإن لم ترشده
إليها المعالم ، وإن لها الظلام فى وشاح . كان شعوره هو الذى يهديه ، وكان يسبق
نظرات عينيه فيعلن السكان قبل أن يتبين للحظة . . . وقبل أن يصل إلى مسامعه
رغاء بعير أو ثغاء شاة أو حفيف غصن ينم عن الحياة فى جانب هذا البلقع المديد ،
رفع العرنى صوته فأعلن السكان :

« الحوآب ! . . . »

ولكن الكلمة تاهت في دوى النباح الذى أطلقته كلاب الدائرة الساهرة ، فلم يصل جرسها إلى ساكنة الهودج صافيا يحمل لها دلالة . . . آلوأب يا ترى قال ؟ . . . سمعها ولم يسمعها ، ولم يعدها الرجل ثانية . . . للحظة قضت عائشة ترفهف السمع ، وتكاد أن تمسك الأنفاس . ودت لو أرسلت أذنها عبر هواء الأمسية لتلتقط الكلمة قبل أن تبددها الريح ! ولكن حروفها توارت عنها في ثنايا النباح . . . الكلاب الساهرة تلتفتها قبلها بأفواه منهومة ا وراحت حلوقتها تقبارى بهرير وعواء وزئير . . .

ومدت السيدة أصابعها في قلق فحسرت بمض الستر الذى كان يغشى الهودج ، وألقت نظرة على ما حولها فإذا ابن طلحة منها قريب . . .
« أى ماء هذا يا محمد ؟ . . . »

« ماء الحوأب يا أم المؤمنين . »

فكأنما انقضت على فؤادها صخرة . . . وهتفت وهى تلهث حتى لأوشك صوتها أن يبدو قادمة من أعماق سحيفة الأغوار :
« ما أراى إلا راجعة ! . . . »

« راجعة ؟ . . . ولم ؟ تقدمى يرحمك الله ! »

فلم تصغ إليه ، إنها لم تعد هى . مضت المرأة الراسخة القاب الثابتة الجنان وجاءت على أثرها أخرى قد ملكها هلع مجنون ! . . . كفها التى حسرت بعض الستر انطلقت تضرب عضد عسكر ، راجعة مضطربة ، بغير وعى ولا إرادة ، وصوتها الهامسى اللاهث استحال صرخة مدوية شقت هدأة الفلاة :
« إنى لهيه . . . ردونى ردونى ! . . . »

فيم هذه الثورة وهذا الصراخ ؟ . . . العربى لا يدرى شيئا ، ولم يدرك أن كلمة من بضعة أحرف تعلن موقع مكان لها مثل هذا الأثر المفزع فى نفس أم المؤمنين . لعل الركب كله كان مثله ، ليس على بينة من الدلالة التى عليها دل ماء الحوأب ، فقد تلقفوا الصرخة واجمين ، وراحت الألسنة تتجاوب بالهمس والنساءل . وقع الاضطراب فى الجيش للدل يجبرونه كأنما لقيه عدو عنيد

سوال ، وتناوبته سيوفه من كل جانب . . وأقبل الناس صوبها في دهشة غامرة ،
فأناخوا مطيهم حيث أناخت بعيرها وما زالت تبكي . . . ودلف بينهم فوق أشم
فارع ، صلب العود ، يتوثب في مسيره كأنه ذئب ، أطلس بونه ، على وجهة الهضم
لمح العزم وإن حدثت به السن ، وفي عينيه ومضات رجولة وإن بدا أمره ،
لا لحية له ولا شعر يحف وجنتيه . فما أسرع ما أسمعوا له حين تبيينوا فيه عبد الله
ابن الزبير ، ربيب عائشة ، وحفيد الصديق . . .

« يا أمه ؟ . . »

فساحت ثانية ولما تبرحها غاشية خوفها الجياح :

« أنا والله صاحبة كلاب الحوآب ! . . ردوني . ردوني ! . . »

وكانت صاحبها حقاً ! . فلو أصفت من قبل لنصح أم سمة لما رأت نفسها
بهذا الموقف العسير ، ولعالبت قدرها وتجنبت هذا المصير . ولكنها كلمة حق
نطق بها رسول الله ذات يوم وهو يلقي بعينه في غمرة العيب فيرى زوجه بهذا
المكان ، ناهضة في فتنة شاء لو ارتدت عنها . . ذلك يوم منقوش بذهن عائشة ،
لم يبدد ذكره الزمن ، ولم يغشها النسيان . منذ أيام قلائل أعادتها لذهنها ثانية
ضرتها أم سمة وهي تحاول أن تثنيها عن عزمها في السير على رأس جيش العصاة .
ولكنها لم تسمع منها ، ركبتها عنادها أو اعتدادها حتى أغفلت ذلك الحديث . .
أما الآن فهو يدوي في سمعها دوى الطبول . ويعيدها بخيالها إلى ذات المشهد الذي
مرت عليه الأعوام . . إنها ترى نفسها جالسة وأمامها إناء تأخذ من مائه فتغسل
رأس زوجها العظيم ، وإلى جوارها أم سمة تخطط تمرأ بلبن وتمعد منه طعاما . .
فأى خاطر إذ ذاك قفز بذهن رسول الله حتى جاوز السنين وأشرفت عينه على
الوقوف الذي تقفه عائشة اليوم ؟ . . أو مضى إلهام ؟ . . أفرجة في ستر العيب
انجابت أمام بصيرته الملاحظة ؟ . . لقد حرر رأسه من كنفها ، وألقى نظرة
عجلى تنقلت بين البرأتين وهو يهتف بهما في صوته الهادئ الرزين قولاً تذكر
من معناه أنه كان يضم مثل هذه الكلمات :

« يا ليت شعري . أيتكن صاحبة الجمل الأذن ، تنبئها كلاب الحواب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ »

فرفعت أم سلمة يدها من الطعام مذعورة ، وسارعت تجيب :

« أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ! »

« كأنى بإحدا كن قد نبئتها كلاب الحواب . . . »

وضرب بكفه على ظهر عائشة وهو يتم الحديث :

« إياك أن تكونيها يا حميراء . »

فكاتها . . . كاتها ولم ينفعها التحذير . . . لودت لو أصغت لنصح أم سلمة

فقد وضع كيف أخلصت لها النصح منذ أيام . أكتب عليها أن تكون حقاً صاحبة ذلك القدر المقدور ؟ . . أما يسعها أن تهرب منه ؟ . . لترجمن ! ولتهربن إذن فرار الريم . . .

أفستطيع ؟ . . لولا ابن اختها لفعلت ، ولارتدت على عقبيها إلى مكة محلفة

ركب الفتنة بمن فيه . . ولكن عبد الله كان يدرك الخطر الذي سينجم من فرار عائشة — الخطر على الدعوة الباغية وعلى حزب أبيه ! . . لقد كانت أم المؤمنين لواء جيشهم ، من أجلها تبعهم الناس ، وبها اقتدت العامة المفتونون بالأسماء البراقة . ولو خلى بينها وبين العودة فأحر بأكثر جندهم أن ينفضوا عنهم ، فتفشل خطتهم ، وتذهب ريحهم ، وتفقوض أركان نظامهم القوي وضعوا أسسها على مناهضة سلطة الإمام .

فليتخذ القوي إذن قرباناً يضعى به على هيكل غرضه ، وليكن قربانه العرني

للمسكين . . . ما كان أهون أن ينسب الغفلة إلى الدليل . ويلصق به خطأ هو منه براء عسى أن يبقى على أم المؤمنين بين الصفوف . . في لحظات قلائل وسعه أن يدبر ، وأن يحكم تدبيره ، وأن ينزع بذرة الخوف من قلب خالته الخزعة . . فلقد أقسم لها وأنها بشهود من الأعراب أقسموا أمامها أنها واهمة ، وأن الماء ليس بالحواب الذي كانت تخشاه ، فكانت أول شهادة زور سجلت في الإسلام ! . .

ولكن عائشة ظلت حيرى بين الشك واليقين . لم يقنعها تماماً قسم عبد الله ، ولا شهادة أعرابه الذين وضع في أفواههم حيلته الكذابة . وأوشك التردد الذى ملك السيدة أن يفسد على الفتى تديره ، وبردها ثانية ميالة إلى الرجوع حرصاً منها على التزام الصراط ، واستجابة لحديث زوجها وتحذيره . . . فإن هى إلا لحظات أخرى حتى فتح جمعته على حيلة جديدة ، نجحت حيث أخفقت سابقها وكانت أجدى عليه .

رد طرفه عن الأفق المتراعى ، ثم أقبل وهو يصيح بصوت مدوى الرنين :
« النجاء النجاء ! . . . لقد أدرككم والله على بن أبى طالب . . . »

فركبت الناس فزعة جعلتهم يستبقون إلى مطيهم ، يضربون آباطها للفرار . . . وكانت عائشة أول الناجين ! . . . حملها عسكر ، ومضى بها فى هودجها على رأس الركب .

أما العرنى فقد خلفوه ولم يكذ ينجو من سبابهم المقذع ، لأنه تكلم بما عرف وهو لا يعرف أنهم كانوا يؤثرون له السكوت ! . . . ومضى الرجل حائراً ، وحيداً فى البيد ، حتى لقيه الإمام ، فروى له حديثه المعجيب .

وسار الركب . وجلست أم المؤمنين فى ملاذها تستعيد الأحداث ! . . . لنوشك أن نراها فريسة للظنون ، يراودها الشك فيما أكده لها عبد الله . يا ترى أصدقها القول ؟ . . . محمد بن طلحة ليس عندها بمتهم ، وقد قرر أنه ذلك الماء . والدليل نفسه كذلك . وقلبا أيضاً ! . . . قلبها ما زال يأكله الريب . كما اهتز بها الهودج نقت ذهنها من ذكرياته شيئاً يزيد فى بناء قلقها لبنة . إنها تكاد توقن الآن أن عدوها هى غيرتها ، فلولاها لأبصرت طريقها لا يغشيه ضباب الأغراض ، ولتيينت الحقيقة ، ولرأت الحق فى جانب الإمام ثم لم تتعيف عليه إن لم تعنه وتدعوه . ولكنها نظرة المرأة . . . طبيعتها الغلابية هى التى أوقفتها هذا الموقف المسير . وكم من قبل أوقت بها على مثله لم تصنع لصوت العقل . . . حتى وزوجها بهذه الحياة كانت عاطفتها تركب بها الشطط ، أم إفراطها فى حب ذلك الزوج هو الذى

جنبها الحكمة ؟ . . . بل هو هذا الحب الذى جرفها تياره فلم تملك معه لقلبها قياداً ولا لعقلها عقلاً يسكنه أن ينصرف إلى المغالاة . . إنها لتذكر يوماً حدث هذا فيه ، ولم يجد من غلوائها ولا اندفاعها عنها فى العاطفة أن كان رسول الله منها قريباً يشهد ما تورطت فيه . أم سلمة أيضاً شهدت ، وذكرتها بخبره قبيل سير مواكب الفتنة ، فلم يغن عنها التذكير . . أما الآن وقد خلت بنفسها غيالتها بهم فى الماضى حتى يلم بالحادث الذى أورثها حياء يضرج لونها لهذه الساعة . . كان رسول الله قد هبط إذ ذاك من قديد ذات الشمال ، ومعه بعض نسائه ، فهن عائشة وفيهن أم سلمة ، فخلاً بعلى ناحية يناجيه . وأسرف — فيما بدا لابنة أبى بكر — فى الحديث والناجاة . ولعبت بقلبها الغيرة فكبتها . . . ، ثم جدت ، ثم زارت ، ثم عصفت حتى غلبتها على نهاها وحكمتها . . وتوسمت أم سلمة فى صاحبها أمرا نهم أن تبرمه فردتها عنه . ولكن عائشة لم تصبر ، ولم تسمع للصاحبة الناصحة الأريية . بل انطلقت غضبي إلى الرجلين لتنفث ما اعتمل بصدرها من غل الغيرة . .

هجمت على على وصاحت به وهى لا تدرى أى خطئ تأتيه :

« . . . ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ، ألما تدعى يا ابن

أبى طالب ويومى ! . . . »

فلم يفه بكلمة . بل أغضى عنها فى هدوء وحلم . . .

ولكن محمداً لم يصبر ، حلمه الواسع ضاق هذه اللحظة عن غيرة زوجه ، فإذا وجهه يندفع إليه الدم ، وإذا بصره يشتعل بالغضب ، فينهرها بمجدة غير مألوفة منه :

« ارجعى وراءك ! . . . »

فوقفت باهتة حيرى . . الآن فقط عرفت أنها ركبت الشطط . .

وأتى رسول الله حديثه وهو ما زال غضبان :

« . . . والله لا ينفذه أحد من أهل بيتى ، ولا من غيرهم إلا وهو خازج

عن الإيمان ! . . . »

فاساقت الندم في قلبها كمثل الدمع الذي ابتدرت عيناها به ، وجرت قدميها ،
وعادت على خزي .

أفكانت هي تبغض عليا كما تعنى كلمة البغض ؟ . . . كلا ، قطعا ! . . . وإن هي
إلا نزوة نفسية ، أيا ما كانت وكان باعثها ، فقد كانت توقعها منه دائماً موقف
المنافر . وحتى حين جاءها بمكة نبأ إمرأته وأبت عليه أن يؤول إليه سلطان الإسلام .
لم تكن تبغضه . هي لا تستطيع سبيلا إلى بغضه وتحرص أبداً أن تنأى بنفسها
عن هذه الخطيئة . فما نسيت أنه كان أدنى قومه إلى قلب محمد ، وآثرهم وأحبهم
إليه . وهو لليوم أبقاهم معدنا وأطهرهم طبيعة . . . إنها تعلم هذا ولا يتخالجهما فيه
شك ولكنها مغلوقة على علمها بذلك الشعور المنافر . وهل غاب عنها كيف
أوشك زوجها ذات يوم أن يوصى له بالأمر بعده وصاة سافرة لا تحتدل التأويل
لولا خشيته أن يتفرق عنه الناس لهذا السبب أو لذلك . . . لم تنس . لا يسمها
إلا أن تذكر . كرة أخرى يرن في سمعها حديث أم سلمة كأن السيدة معها الآن
بالمهودج تحدثها به . فالحادث وقع في سفر أيضاً . كسفرها هذا ، وإن طوح
به الزمن في غور الغابر . . . وشهدته معها أم سلمة كالأخر . كانتا ذلك اليوم
ورسول الله في خلوة عندما طرق أبو بكر وعمر الباب ، فقامت السيدتان إلى
الحجاب . . .

وأقبل الشيخان وقد أذن لهما فسلما على محمد ، حتى إذا استقر بهما المجلس
راحا يتحدثانه فيما جاء فيه . . . قالوا له :

« يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر ما تصعبنا . . . فلو أعلمتنا من يستخلف
علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا . . . » .

فرمى بصره إلى بعيد ، كأنما ينظر إلى ناحية ليس تصل إليها عينا سواه ،
ثم قال بهدوء :

« أما إني قد أرى مكانه . . . » .

وعندما توقعا أن يدهما عنه ، باغتهما بهزة من رأسه وقال فيما يشبه صوت
الأسف الحزين :

« . . . لو فعلت لتفرقم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون
ابن عمران ! . . . » .

فضا الطرف . وخرجا بعد قليل من لدنه لا يلويان . . .
أى الناس يا ترى كان رسول الله يعنيه ؟ . . . السيدتان خلف الحجاب
يا كلاهما الفضول . لو انساقتا مع الترجيع لوصلتا معا بذهنيهما إلى رجل واحد ..
فرد من الصعابة المجتنبين يكاد أن يوفى إليه هذا الحديث . إن نعمة دلالة أخرى
تشير إليه . . . حلقة ها هنا تربط بين حديثه هذا وبين آخر سلف به لسان محمد
ذات يوم إلى التصريح ووجه خطابه فيه إذ ذاك إلى ابن عمه فقال :
« . . . أنت منى بمنزلة هارون من موسى . . . » .

ذات الكلمات ، وذات التشبيه . . . أعليا كان يعنى وقد قال فيه من قبل
نفس ما أعاد ؟ . . . لا تعلمان . لا تجبان أن تركنا في مثل هذه الأمور إلى اتباع
الظن الذى قد يخطئ كما يصيب . وإن نهم المرأة إلى الثروة ثم إلى إشباع الفضول
الغلاب ليدفعهما معا إلى الاستقصاء . ما عليهما من حرج لو فعلتا الآن . وهما هي
عائشة تهيج بها قبل صاحبها الرغبة إلى المعرفة واستكناه المجهول ، فتبارح
الستر ، وتندفع متسائلة إلى زوجها الكريم :

« يا رسول الله . . . من كنت مستخلفا عليهم ؟ . . . » .

« خاصف النعل ! . . » .

ولم يزد . وتركها لنفسها تحدى كما نشاء . . .

ولكن الظن لم يطل بها مداه . في لحظات قصار أصبح يقينا لا يغشيه من
الشك نقاب . عرفت هذا في وجه محمد ، ومن لسانه أيضاً بعد قليل ، وقد
خرجوا جميعاً ييارحون المكان . . . فعلى مقربة ، وفي ظل سمررة رأت بعينها
خاصف النعل المنشود يرتق نعلا لزوجها بين يديه . وعندما ألقت على وجهه نظرة
مستطلعة عرفته أى الرجال كان . . . لقد صدق الحدس ، وثبتت الدلالة ،
ووضع لديها أن الحلقة بين الحديثين قائمة بلا انقصام .

وهتفت وصوتها هذه المرة به من العجب أكثر مما فيه من الفضول :
« . . . ما أرى إلا عليا يا رسول الله ! » .

« هو ذاك . . . » .

ثم ها هي الآن . . . في هذا المودج على ظهر عسكر ، وبين هذا الحشد
المحشود من الجند الشاكي السلاح ، وعلى هذا الطريق المؤدى إلى أسوار البصرة
قد خرجت لغاية لا تعلم أى مصير سوف تجره على أمنها ، وعلى الرجل الذى
اجتمعت عليه كلمة الشعب قبل كل الرجال . . . وأى خروج ؟ وأى رجل ؟ . .
إنه نظير هارون الذى تفرقت عنه بنو إسرائيل !

فرسان حکیم

ألقت نظرة من خلل الستر إلى الوراء ، فإذا الصحراء مديدة ، فارغة «
تغرق في فضاءها الرحيب العين . لا أثر لجملة جيش على ، لا إلى اليمين ولا إلى
اليسار . ولا ما ينبئ عن اقترابه . كانت إذن صرخة ابن الزبير حيلة لجلها
على المسير

ثم ردت الطرف فطالعت وجهة الركب . بدت الحفير لها على قيد عين . أما
البصرة فإن هي إلا مسيرة يوم وبعضه ثم تشارفها . . . وأهلها أمنة لا يدرون
على أى حال سوف يصبحهم أو يسيهم هذا الجيش الزاحف من البلدة الحرام . . .
لو ترك الأمر للسيدة لتنادت تطلب من رجالها أن يلووا أعنة المطايا عابدين .
ولكن أتستطيع ؟ . . أيسمعون ؟ . . إن كل نقلة خف تدنى جملها من الهدف
تحس هي كأنها على فؤادها المتقل . ليست تدري كيف تبدل شعورها هكذا من
التقيض للتقيض . وليست تدرك لم الإقدام ، والإحجام كان أولى وأمثل .
الدلالات على خطتها قائمة لها أعلام ، والطريق إلى الحق معلم مرسوم ، يتجه إلى
وراء لا إلى أمام ، ومع ذلك فهي تنطلق قدما على كره كأنما شدوها إلى الركب
الزاحف ؟ . . كلما عاودتها الذكرى ورن في سمعها هاتف الرجوع دوت أصوات
سواء فأغرقت في ضوضائها الرفيعة وراحت تزين لها دعوة الإصلاح . كلاب
الحواب ذاتها عني على نباها الدوى الرفيع . . . وخاصف النعل ذابت صورته
في ضباب الأبنية التي تراقصت أمامها الآن كالأشباح . . . في غمرة قلقها تشبثت
بظنها في أن تكون ذات بركة على الناس . تؤلف بينهم ، وتردم كرة أخرى
إخوانا على صفاء . أما كيف سيكون هذا التوفيق ، وأنى لأداة حربها هذه أن
تكون أداة سلام ، فهذا ما لم تكن تدريه . حسبا أن تضم نية نية ثم تفيد
من مر الأحداث ا

على أن نعمة أمراً آخر كان يدفعها إلى المسير . ليس هو بالحق على أمير المؤمنين ، ولا بالرغبة في استنزاف ملكة من يديه . بل تلك الهامة التي تبدو في الخيال قائمة بناحية من حش كوكب ، على قبر تائه في اللحد احتوى جثمان الخليفة القليل . . . لتكاد المشاعر أن تعود إلى خرافة الجاهلية فتسمع روح عثمان على طرف قبره تصيح : « اسقوني » وهي ظمأى إلى الدماء ؟ . الكلف بالنار كان هو الذي يقود خطاً أم المؤمنين . إنها تنهض للقصاص . . . موقورة تسعى إلى رى الهامة الظمآن . . . فذلك وحده عذرها في المسير .

كانت تعلم أن القتلة قد خلفتهم خلفها بإمكان غير هذا المكان . وفي الحاضرة خلفتهم ، يملكونها بقواهم المزودة بالعديد والسلاح . وكأن أولى بها أن تضم قواها المجيشة هذه إلى صاحب الأمر الشرعى فتكون عوناً له على الخصوم . ولكنها مضت واتبته الأحرى ، قطعت الشوط كله فليس نعمة مجال إلى النكوس . على أى حال ها هنا جانب من أهل الفتنة يجدر أن ترتوي الظبا منهم فجيئها إذن لا ينقصه التبرير . . . ولو وسعها لثارت ثم رجعت خليفة الضمير ، لا يعلق بها ندم على ما سلف منها في حق الشيخ الذى ألبت عليه إنكار الناس في كل الأقاليم وكان قذفها فيه أول سلاح ماض أشهر عليه . . . ستأخذ له اليوم بقدر ما أخذت منه ثم تستريح . . .

ذلك كان ظنها أو ما عقدت النية عليه . ولكن النوايا مرايا لا تطابق دائماً بين الأصل والخيال . لطالما خالف الفعل النية وقضت الأحداث بغير ما تضرر الطوية عائشة الآن توشك أن تضلها الرآة فلا تمكس من فعالها ما لعلها حسبته نتيجة محتومة لئيتها الخالصة . ستبدي لها بعد قليل صورة قبيحة شوهاه حتى لتكرها أشد الإنكار ثم تندم أشد الندم ما عاشت في هذه الحياة . ولكن أنى لها أن تقتنع الغيب وتبين سره حتى تجنبه قبل أن تجرى به القادير ؟ ... لا حيلة لها فيما لا حيلة فيه . . . أما اليوم فصرخة الهامة يلاأت عليها الآفاق ، وأبدية البصرة قربت ما بينها وبين القصاص . . . أقتنع البلدة ؟ ... أتسير إلى ثأرها على طريق تبعده الأشلاء ؟ . كيف لها برضاء ابن حنيف

عما جاءت فيه لتجنب مقتلة قد يصلها كثير من الأبرياء ممن لا يد لهم في مصرع عثمان ؟ . . .

هذا عمير التميمي قد أقبل عليها بالجواب المطلوب . فما أسرع أن رأت نفسها قد بارحتها الحيرة حين سمعته يقول :

« يا أم المؤمنين . . . أشدك بالله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحدا فيكفيكم . . . » .

فهمت مبسوطه الأسارير :

« إنك لامرؤ صالح . . . جئتني بالرأى . . . »

« فعجلى ابن عامر فليدخل ، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمي فيسمعوا ما جئتم فيه . . . » .

فعلت . لولا ما هي فيه من ضيق ما ألقت بدعوتها بين يدي هذا الذي تعلم أنه طريد أهل البصرة منذ وقت قصير . ولكنه على أى حال أداة . بل الأداة الوحيدة التي تملكها اليوم ولا بد لها من الضرب بها عسى أن تنجى بعض اللأمول ، فلن يعدم الرجل أن يكون له بين جدران البلدة أنصار وإن كانوا من بطانة التفت به أيام إمرته لتصيد الآراب . . . ظهوره لا ريب سيحيي الأمل في نفوس أعواته القدامى ويدفعهم إلى العمل بجانبه ومن أجل حربه لعل عهد مجدهم يعود . . .

وقد نجحت هذه الفكرة بعض النجاح ، بل كان لها أثر في تحويل جانب من الرأي العام بالبصرة لناحية عائشة ، وجانب آخر أشاعت في نفوس أصحابه التردد فما يعلمون بأى فريق من الفريقين يلحقون ، وبقيت طائفة على ولائها للإمام لا تحيد . ولم يخف هذا عن الوالى وإن ظلت بنفسه بقية من شك لا يملك معها القطع برأى فى مدى تبليل الأفكار ، فلما أراد أن يسبر غور النفوس ، دس بالمسجد رجلا قام يتحدث فى الملاء الحاشد ويقول :

« . . . أيها الناس . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من للكان الذى يأمن فيه الطير . . . وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . . . أطيعوني فيهم فردوهم . . . »
فما بلغ من كلامه هذا الموضع حتى صاح به آخر معارضا في استنكار :
أو زعموا أنا قتلة عثمان . . . إنا فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتله ، منا
ومن غيرنا . وإن كان القوم أخرجوا من ديارهم ، فمن يمنعهم ؟ . الرجال
أم البلدان ؟ . »

عندئذ أيقن ابن حنيف أن للزاحفين ناصراً بدار إمرته . . . نوعاً من
جيش سرى يتأهب دونهم في الحفاء . . .

بمشت عائشة إذن بابن عامر إلى البصرة ليتألف صنائمه ويتخذ منهم دعاة
يضمنون لحزبها بعض التأييد . وبمشت أيضاً يكتب منها إلى وجوه البصرة
تناشدهم أن يلتفوا حولها وينصروها . . . بذرت بذرها ثم قرت في انتظار
ساعة الحصاد . . .

أما الوالى فقد اضطرب عليه حرمه ، والتوت مسالك البت في الأمور .
الظواهر كلها تفرعه ، وتشير إلى فتنة هوجاء تسندها الأسنة ويسمى إليها
القوم ، وإلى عصيان سافر بغير نقاب ينتقص أولاً من هبة مولاه ثم لا يلبث
أن يصير له عقي واحدة جد معلومة هي هدم السلطان القائم على الشعب وبالشعب
ولكنه مع ذلك كان يشفق من إطلاق يده في التصرف حسبما توحى إليه هذه
الظواهر . فما يعلم لو ضرب ضربته ودفع بقواه المسلحة لزد العصاة إن كان
سوف يرضى الإمام . وما يعلم أيضاً لو صبر عليهم وكف عنهم سلاحه أنهم
لا يثبون عليه ولا يعاجلونه بالعدوان قبل أن يصله من طى أمره الذى يحذيه .
وبين هذين الرأيين تأرجح فكره وحارت نظرتة . ولكنه لم يستطع أن
يسكن إلى التردد ، بل رأى لزما عليه أن يستطلع غاية أصحاب عائشة من هذا
المسير الذى يوشك أن يحدث في الإسلام حدثاً خطيراً للغاية . فلما انتهى به هده
إلى هذا الحد سارع فأرسل رسولين من لده تخير أن يمثل الوعى الأهلى أقرب
تمثيل : عمران بن حصين ، رجل عامة ، له عاطفتها ، وفيه خفة الفكر التى
تستهويها الأعراض قبل الجواهر ، وأبا الأسود الدؤلى ، وجل خاصة ، له عمق

التفكير وعناية بالغوص إلى العوامل الخفية حتى ليحسن استخلاص الرأى من بين غمرة العواطف ، ولا يفوته أن يحكم التدبر قبل اعتناق فكرة من الأفكار وقبل تمحيصها أشد التمحيص

وبلغ الرجال الحفير فقصدا إلى عائشة ، فلما أذنت لها تحدثا إليها في هدوء :
« . . . يا أم المؤمنين ، إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ . . . » .

فأجابتهما :

« والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . . . » .
ثم راحت تسرد عليهما رأيها الجديد في تقاوة صحيفة عثمان وما كان من قاتليه من استحلال دمه بغير عذر عليه نعم رأيها الجديد الذى لم يجمل بخلفها إلا بعد ولاية الإمام فلما أطنبت في حديثها بما شاءت انثنت تدعو بدعوة الثأر في لباس من رقيق الألفاظ :

« . . . إنما خرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا . . . لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » .

« فهل معك عهد من رسول الله في هذا المسير ؟ . . . »

فردت وهى تكتم ما هم أن يشتعل بنفسها من الحق :

« غضبنا لكم من السوط والعصا ولا تغضب لعثمان من القتل ؟ . . . » .

إن ريحا من الأمانة يهب لا ريب من كلام السيدة حتى ليقرأها السامع على ما جاء فيه ، فالتقصاص كان غايتها وما لها من غاية سواء ، ولكن أعلى هذا يا ترى كان صاحبها ؟

ويم الرسولان شطر العسكر ليعلموا رأى الرئيسين المسيطرين على مصائر هذا الجيش وناديا ، فلما أن برز لها طلحة سألاه :

« ما أقدمك علينا ؟ . . . » .

« الطلب بدم عثمان . » .

فانبرى له أبو الأسود يقول :

« يا أبا محمد ، قتلتم عثمان غير مؤمرين لنا في قتله ، وبايعتم عليا غير مؤمرين لنا في بيعته ، فلم تغضب لعثمان إذ قتل ولم تغضب لعلي إذ بويع ... ثم بدا لكم فأردتم خلع علي ، ونحن على الأمر الأول . فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ! ... »
وقال عمران :

« يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ، ولم تغضب له إذ لم تغضبوا ! ... ثم بايعتم عليا وبايعنا من بايعتم ... فإن كان قتل عثمان صوابا فسيركم لماذا ؟ ... وإن كان خطأ فظنكم منه الأوفر ! ... »
هنا استطاع طلحة أن يقول :

« يا هذان ! .. إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره ، وليس علي هذا بايعناه ! ... » .

فنهضا عنه . وضحت لهما طويته حتى قال أبو الأسود لصاحبه وهما في الطريق :

« أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب لذلك يا عمران ! ... » .
وأتيا الزبير .. فإذا هو أكثر صراحة ، وإذا نفسه الشفافة لا تخفي عنهما شيئا مما يطويه ، وإذا قلبه يسبق لسانه بالحديث وهو يقول :

« ... إن طلحة وإياد كروح في جسدين . وقد كانت منا في عثمان فلتات

احتجبنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ... » .

وكانت لهما حجة أخرى إلى جوار ما أخبرا به الرسولين ، قوامها أنهما بايعا الإمام وعنقاهما تحت شفرة السيف ! .. الله وحده يعلم إن كان هذا قد حدث ، ومتى ، وهل ليد علي فيه تدير ! .. ولكنها حجة على أي حال ساقاها تخلصا من عار النكث الذي وقعا فيه ، ما أهون شأنها ، وما أوهى بناءها كأنها نسيج عنكبوت ! .. فلقد غاب عن البيعة كثير ، وأباها كثير فلم يسر إليهم على قط ، ولم يفرضها على أحدهم كرها ، بل خلى بينهم وما اختاروه ..
وهل موقف ابن عمر وموقف ابن أبي وقاص وموقف أسامة بن زيد غفلت عنها الأذهان ؟ ..

ولكنها كما أسلفنا حجة على أى حال ، وتبرير لنقض البيعة هو اعتذار عن الذنب بالذنب المعن في الخطيئة وفي البطلان . . عذر يخفى وراءه تبييت القوم لم يخف عن ذهن الدولى . حين مضى إلى أميره لم يزد في رواية خبرهم ورأيه على أن قال :

« يا بن حنيف قد أتيت فائتراً وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلثماً وشمر . . . »

تلك كانت نصيحته وما هداه إليه إدراكه حقائق الأمور المستورة . دواء الداء عنده قبل استفحاله هو الكى ، ولا إمهال قبل هذا ولا تردد . وبنفس هذا رأى طاع عائشة أثناء عودته من مجادلة صاحبها ، لم يخف عنها ولم يداور . سأله إذ ذاك مستطلعة :

« بلغنى أن ابن حنيف يريد قتالى . . . »

فسارع يجابها بما يراه ، وبما ظن أن الوالى لا ريب سيأخذ به :

« نعم والله . . . قتالا أهونه تنذر منه الرءوس . . . »

ولكن ابن حنيف كان لا يزال فى غمرة من الحيرة ، فما سمع دعوة صاحبه له إلى امتشاق الحسام حتى هز رأسه كالأسيف المضيغ وهتف :

« إنا لله وإنا إليه راجعون : دارت رضى الإسلام ورب الكعبة . . »
وقال عمران :

« . . . والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لا يساوى ما بقى منكم كثير شيء »
« فأشر على . . »

هنا جاء الرجل بالرأى الذى تميله العاطفة المندفعة ولا تميله الحكمة والسياسة التى تحسب قبل كل شيء حساب العواقب والمغبات . . . قال كاشفا عن فكره :

« أقعد ؟ . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين . . »

« بل يحكم الله ما يريد . . . »

وخرج فلقق بداره وقد أشفق أن يشهر السيف فى وجوه إخوانه فى الإسلام ، ولو تبصر لعلها حربا واجبة . . حربا مقدسة تمسك على الإسلام وحدته وترد عوادي

الشقاق عنه . ومن يدري إن كان قد عولج الأمر بالحزم قبل استفعاله أكان لا يجنب البلاد ويلات الحروب والخلافات اللاحقة الناتجة عن فتنة عائشة وطلحة والزبير . ولكن هكذا كانت نظرتة وليس على المواطف رقيب حساب ! ...
وجمع عثمان بن حنيف صحبه من ذوى رأى يشاورهم فى الأمر . وقام فخطبهم مبينا لهم ما يراه :

« يا أيها الناس ... إنا بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . . . والله لو علم على أن أحدا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لباع وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، فلقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ! .
وطلبا ثواب الله من العباد ... » .

كان مؤمناً بدوائنهما على حق مولاه وبمحبدهما إياه ، يعلم أن نكثهما البيعة له ما وراءه من الأهواء والمطامع الذاتية وإن ألبسوه ثوباً من التمويه . ولكنه مع ذلك لم يرد أن يركب العنف ، ولعله فى هذا كان مشفقاً من الشقاق الذى لاح أنه يوشك أن يعم أهل إقليمه ويقسمهم فريقين بين الحزبين ... فلقد شهد كيف كان موقف عمران يمارض موقف الدؤلى ، وإتتهما لثلاثان لبقية الناس ... بل قد كاد يركن قليلا إلى التزام واجبه فى إطفاء الفتنة بقوة السلاح ، حتى قال له هشام بن عامر :

« يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره . . . إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فساعهم حتى يأتى أمر على ، ولا تحادهم » .
وتفكر ملياً ودفعت الحمية حكيم بن جبلة فنهف به :

« إن دخلا علينا قاتلناها ، وإن وقفنا تلقيناها ... والله ما أبالى أن أقاتلها وحدى ! أيها الأمير ، هذه دعوة قتلها شهيد وحيا فائز ، فهل ! وهذه ربيعة معك ! ... » .

ولكنه آثر الأولى وجنح للسلام . . .

٢

تحركت قوات عائشة ، وزايلت مواقفها بالخير . لعل صبر ابن حنيف قد أطعمهم فيه . أولعلمهم رأوا أن المرید خير مكاناً من موقفهم الأول فسعوا إليه . وربما لم يكونوا قد أزمعوا بعد أخذ أخصامهم بحد السيوف وإنما ساروا ليخبروا عزم القوم . . إن في بالهم أن طائفة من البصريين حجة العديد سوف تنصرهم وإن كان الوالى قد أخذ الحيلة وتواقف جنده مدججين . . .

وتواقف عليهم أهل البلدة ، فيهم المبغض الزارى وفيهم الولى الحمى . ولم ينم عنهم عثمان بن حنيف ، بل خرج فى رجاله حتى غص المكان بأولئك وهؤلاء . أفكان أصحاب الجمل قد جاءتهم الأخبار من عيونهم بأن صنائع ابن عامر فعلوا فعلتهم وأغروا النفوس حتى خلعت أو كادت تخلع طاعة الإمام ؟ . أوشك هذا أن يكون ما عمر أخلادهم وبات إلى حسابهم أقرب من جند عتاة يملكون عليهم السالك ويدفعونهم دفعا عن استهواء الناس وتجييشهم فى صف الفتنة . . وكان حذسهم صوابا أو قريبا من الصواب إذ بدت الطريق أمامهم مكشوفة لا يعترضها حمة . وحتى حين التقوا فى نواحيها يبعض قوات الوالى لم تلقهم مقاومة ، بل أوسعت لهم دون قتال . .

على الملاينة عقد ابن حنيف العزم ، فالسلم رام . كان رأيه بعد أن شاور صحبه أن يكف عن هذه الجيوش النازحة إليه من الجنوب ما كفت عنه ، حتى يأتيه من أمير المؤمنين أمر . كبح عنها سلاحه ، ورد جماع الكثيرين من رجاله الذين كانوا يرون الخير فى المبادرة إلى قط الهام . . وبالمرید اجتمع الفريقان ، كل إلى ناحية منه : جيوش عائشة فى الميمنة ، وبالميسرة الوالى وأهل الإقليم . لا موقف سلام كان أدنى للحرب من مقامهم ذاك ، ولا أسنة كأستهم أقرب إلى صدور مشرعيها . . لو طارت شيرة واحدة فى الجو حينئذ لكانت كفيله بأن ترتد حريقا يؤجج سحر النار ، فالنفوس فى أعماقها ثورة كالبركان قبل أن يدفع حمه ، والحواس متحفزة ، والأعصاب توترت كمثل القوس عند إعدادها للتصويب .

وكان طلحة هو الذى أثار الشررة . . حينما مد بصره بين الجموع المزدخرة لم يرعة ميدانا خيراً من هذا يخرج منه ملء الكفين بالأسلاب . . . غايته وطائفته من هذه الرحلة كسب الأنصار والأولياء ، وما أقربهم الآن إليه . فقريباً كان للبصرة هوى فيه ، قريباً قبل ما دون العام ، من شهور ، خلال الأحداث التى جرت بمصرع عثمان . فيها له حزب قوى لاريب يسارع إلى نصرته إذا أشار . وفيها أيضاً صنائع ابن عامر ومن عسى أن يكونوا قد اجتذبوا لإناحيتهم من أناس استهوتهم الدعوة أو غرتهم الأمانى المبذولة بغير حساب . أما بقية الأهلين ففرقتان واحدة لن ينزع نازع من قلوبها الولاء للإمام ، وثانية حرية بأن تميل مع الهوى ومع الإغراء كل تميل ، وما الأولى عليه بذات خطر بعد أن علم أن ابن حنيف يحد من غلوائها ويكبح حميتها ليبقى على السلام .

فى هذه الحشود الزاخرة وقف طلحة بجانب المربد الأيمن يزجى الكلام رقيقاً معسولاً يدغدغ به عواطف الناس . فكأنه نسى ما سلف من عيبه على عثمان وشدته فى التأليب عليه ولم يذكر سوى أنه كان باراً ، فاضلاً ، مظلوماً جوزى من مناجزيه أسوأ الجزاء . . . أیطل دمه ياترى ويضيع ؟ . بل القصاص أولى وأقوم وأدعى إلى احترام أوامر الله واجتناب نواهيه :

« . . . أما الطلب بدم الخليفة المظلوم فحد من حدود الله ، فيه إعزاز دين الله وسلطانة وإنكم أيها الناس إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقم نظام . . . » .

وتكلم بعده الزبير بمثل كلامه والجموع حولها تنهاتف وتصيح بين المعارضة والتأييد . ليوشك الأمر أن يصل حد الاقتتان ، فإذا قامت عائشة تتحدث بين الناس فأحر بها أن تكسب لحزبها أولياء ، وأن تضع عن نفسها هذه المرة التى لحقتها إذ تركت ما كان أولى بها أن تلتزمه من الحجاب والتستر خلف الجدران . فما زال الناس يلعونها لهذا الخروج ، وما فتوا ينكرون منها إذ هى قدوة للنساء المؤمنات . . .

وقامت ، وخاطبت الجموع بصوت جهير :

« أيها الناس . . . »

فقطي هتافها على الشعب المشبوب ، وألقوا إليها الأسماع .

كرة أخرى جردت عثمان من كل ما سبق أن أعلفته بثوبه حتى أعادت الثوب
تقيا ناصع البياض . . . إن عذرها في تغيرها هذا معلوم وإن أخذت خصومه
أن يسموا لها حتى قتلوه . . . أما الآن فالرجل مظلوم ، ودمه المطلول لا بد أن
يرده القصاص .

وقالت للقوم :

« . . . كان الناس يتجنون على عثمان ، ويرزون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة
فيستشيروننا . . فننظر في ذلك فنجد برياً تقياً وفياً ، ونجدهم جرة كذبة غدرة . . »
فلو قالت هذا قبل بضعة أشهر فلعلها كانت تؤخر نهاية الصريع الشيخ .
ولكن عائشة اليوم غيرها بالأمس . فقد اجتثت من فؤادها دوحة الغضب
واستتبنت على أثرها دوحة رحمة وإشفاق وتشيع لعثمان . . . من حقها دون
ريب أن تحزن للقتيل ، وأن تدعو للثأر ممن بغوا عليه لأن القتل جريمة نكراء
لها قصاص مفروض ، وليس يجدر أن يخلى بين قاتل وبين الحياة يستمرى فيها
المبث بالرقاب . وإذا كان تطرفها في الغضب بالأمس قد أنساها الحكمة حتى
أهابت بالمسلمين أن يأخذوا على يد ابن عفان بالعنف ولو قتلوه ، فذلك لم يكن في
حسباننا إقراراً منها لشرعية الجريمة ولادعوة إليها جادة . . كان تأليبها على الخليفة
بصورته القاسية تلك خطأ منها بغير شك ، استشمرت له الندم فيما بعد فقامت
بحركتها لتكفر عنه . ولكنها الآن تهم أن تعالج نتائجه بخطأ أخش منه ينصف
الظلم بظلم برىء سواه . . ألا تراها كيف راحت تدعو الناس ، إلى جوار
حماهم على الثأر للقتيل ، بدعوة جائرة تعيف على حتى الإمام أبلغ التعيف وتوشك
أن توجج عليه نيران الفتنة في كل الأقطار . . كانت تقول :

« . . . ألا إن ما ينبغي ولا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة

كتاب الله . . . من رأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به . . ثم يرد هذا
الأمر شورى على ما جملة ابن الخطاب . . »

فيالها من دعوة ! وياله من منطق ساقته السيدة عجيب ! . . .
وتصايح الناس . وساد الشغب والمهرج جوانب الفريقين حتى لقد تقاذفوا
بأقذع التهم ثم تحاثوا فيما بينهم بالحصاء . وأوشكت الفتنة أن تشيع في الصفوف
والأكف تشتد على مقابض السيوف ثم تهم أن تهزها للنضال . ولكن عائشة
على أي حال قد بلغت بعض شأوها أو شأو حزبها في الصحيح ؛ رجمت الجولة
الأولى من معركة البصرة ، ووسعها أن تعدو على الصقر الهاشمي وهو بعيد قتال
من طرف جناحه بعض ريشات ! . فما انجباب خطابها إلا عن خلاف بين رجال
البلدة التي كانت تدين حتى ساعة بطاعة الإمام . وتفرق النفر الأكبر من أصحاب
الوالي عنه بعد أن فتنهم السيدة عما كانوا عليه ، ثم انطوى تحت لوائها منهم
فريق عظيم . . .

كادت الأسلحة أن تتحدث بين رجال ابن حنيف : الباقيين في أمره ومن
انشقوا عليه وخالفوه . ولولا بقية حكمة تذرع بها الناس لشاعت فيهم المقتلة
بأسنتهم . أما عائشة فقد انحدرت برجالها ومن تبعها من مفتونى البصريين إلى
المربد في موضع الدباغين ، وإنها لتشهد كيف أثار وجودها هذا الشقاق بين
الإخوة الآمنين ، ولسوف تشهد له آثارا دامية عما قريب .

وخرج جارية بن قدامة وقد بلغه نبأ هذا النزاع فلهق بالقوم . فحين وسعه
أن يصل إلى مقام السيدة تقدم إليها وقد ران الحزن على قسما وجهه وغلفها
أسفه ، ثم قال لها في إنكار :

« يا أم المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان كان أهون علينا من خروجك
من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . قد كان لك من الله ستر وحرمة
فهتكت سترك وأباحت حرمتك . . . أما والله إنه من رأى قتالك فقد
رأى قتلك ! . »

فكأنما فك حديثه عقالا كان يمسك الستة الناس ! . . . سرت فيهم الجراءة
بعد التهييب ، وغدوا أدنى إلى معارضة أشباع السيدة وجدالم مما كانوا من قبل . .
فاذا رجل ينفلت من بينهم يهتف باسم طلحة ، حتى إذا جاءه صاح به على ملائمن
القوم وهو يهز كتابا في يده أمام عين الزعيم :

« يا طلحة بن عبيد الله . . . أتعرف هذا الكتاب ؟ . . . »
فترث برهة ، والقوم حوله يرهقون الأسماع ، ثم أجاب :
« نعم » .

« فما ردك على ما كنت عليه ؟ . . . »

فلما لم يأت به جواب نزع إلى الإيضاح في غير إبهام وهو يستأنف الحديث :
« . . . كنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى
الطلب بدمه ! . . . زعمنا أن عليا دعاك إلى أن تكون البيعة لكما قبله . . .
فأبيناه إلا أن تقدماء وبايعناه . . . فكيف تنكثان ؟ . . . »

« إنه دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلنا حين عرض
علينا أنه غير فاعل . . . ولو فعل لأبى ذلك المهاجرون والأنصار . . . وخفنا أن
نرد بيعته فنقتل فبايعناه كارهين ! . . . »

« فما بدا لكما في عثمان ؟ . . . »

« ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إياه فلم نجد من ذلك مخرجا
إلا الطلب بدمه ! . . . »

« فخرجكما إذن تدم على ما سلف وتكفيرا ! . . . »

« فما تأمراني به ؟ . . . »

« بايعنا على قتال علي ونقض بيعته »

« أرايتما أن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه ، ما نصنع ؟ . . . »
« لا تبايعه ! » ،

فارتسمت على شفثيه بسمة ساخرة وأجاب :

« ما أنصفنا ! . . . أتأمراني أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهي في أعناقكما ،

وتنهاني عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ . . . »

ثم استطرد وفي صوته نبرة تهكم واستنكار :

« أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئنا ، بايعنا كما . . . يبسار أيدينا ! . . . »

وتوالت بعد هذا مشهد شق تؤذى أعين الرجلين وأسماعهما ثم يكون

لها في فؤاديهما مثل وخز النصال . . . أقبل عليهما فتى من بنى سعد كان سمع حديث ابن قدامة لأم المؤمنين منذ قليل ، فبادرها بهذا السؤال :

« أرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » .

« لا » .

فهز كتفيه دون اكتراث ، ثم لوى عنهما وجهه وهو يقول :

« ما أنا إذن منكما في شيء . . . »

ومضى يتهانف بشعر يصور سخريته ويذري بهما أشد الإذراء . . .

إن تلك الفترة من الزمن التي قضياها بالمربد ، والتي حسابها في البدء أطلعت عليهما أول خيوط شمس النصر ، قد حملت لهما من شكوك الناس ومن لحيمهم ونهكمهم أنواعا لم تجر لهم في حسابان . ولكن ثمة نوع آخر كان أقسى عليهما من سوابقه ، إذ جاءها على لسان ولي لا ينكر إخلاصة لكليهما أو لأبيه منهما في القليل . . . فلقد صك سمع طلحة إذا ذاك حديث لولده محمد جثم على صدره وأصاب من براءته ومن كبريائه حتى لأوشك أن يوقع الخلاف بينه وبين فتاه . . . كان ذلك حين أقبل شاب من جهينة ، على محمد بن طلحة ، فقال له :

« . . . أخبرني يا محمد عن قتلة عثمان . . . »

فتفكر ملياً ، ثم أجابه بالرأى الذي يرتأيه وإن عينه لتقع على البعير الأحمر الذي كان يمتطيه أبوه :

« دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة اليهودج ، وثلث على صاحب الجمل

الأحمر الذي كان يمتطيه أبوه ، وثلث على بن أبي طالب . . . »

فتضاحك الفتى الجهنى وقال :

« ألا أراى على ضلال ؟ . . . »

واقطب بروم عسكر الإمام ليلحق به وإنه ليهتف وهو ييارح ابن طلحة :

« . . . صدقت على الأولين ، وأخطأت في الثالث . . . » .

وإذ بلغ نبأ هذا الحديث طلحة سارع إلى ابنه يلحاه .

« أنزع عنا قولك إني قاتل عثمان وكذلك تشهد على أيك ؟ . . . »

فلما لم يأت منه إلا الصمت . صاح مغضباً به :
« كن كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه .
وكف عن قولك أوفارح ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فساد عامة . »
فلم يكتف الشاب حينئذ رأيه ، وقال دون مبالاة :
« ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود . . . »

٣

ساد البصرة الاضطراب الذي يجيء عادة في أعقاب الانقسام . لا يتلاقى
رجلان من أهلها إلا كان ثالثهما جدالاً أو ملاحاة وخصومة أو صراعاً قد يوفي
على إراقة الدماء . ولا يبيت فيها انضم بعد ذلك اليوم على هدوء أو ذاق طعم
السلام . ولا قبيلة بقيت لها عروتها وثيقة فأجمعت كلها الرأي على نصرة فريق
من المتناجرين دون سواء . . . أولئك الذين فتنهم عائشة بدعوتها رأوا حقاً عليهم
الطلب بدم عثمان المظلوم وإن جرت دونه أنهار من الدماء وأنهار . وأولئك
الذين حالفوا الإمام ثبتوا حيث أوجب الوفاء عليهم الثبات . ولكنهم في حقيقة
الأمر لم يصدروا في ثباتهم هذا عن الرغبة وحدها في استمساكهم بالولاء للأمير
الذي بايعوه ، بل عن حافز أقوى وأشد هو عندهم جماع هذه الحياة . . .
إنه التقيد بالمبدأ الذي اختطوه لأنفسهم وناخوا عنه ، والتزام محجة المثل الأعلا الذي
كافوا طويلاً حتى أوشكت أن تبزغ في سمائهم شمس . أما اليوم فتحة غيم في
الأفق كثيف يكاد أن يحجب الضياء . النذر تتجمع حولهم في كل مكان مشيرة إلى
طلوع عهد جديد ، بغيض ، ثور فيه العواصف وتجمع الأعاصير . . . أم هوياترى
عود إلى الماضي المظلم ؟ . . . أينما وجهوا العين في صفوف هذا الجيش الذي جاء
ليغلبهم على ما كسبوه طاعتهم الوجوه البغيضة . . . بدت أشباح ذلك الماضي الذي
انقرط ، وما كاد ، على سحن كثيرين ممن احتوتهم الصفوف . فما هو ابن عامر ،
عاملهم القديم الذي قشروه عن البلدة ، يعود . . . وهذا ابن عقبة الفاسق

الخليج هو الآخر يعود ا . . . وها هنا أيضاً يرون مروان ابن طريد الرسول . .
مروان الطاغية الذي أشعل النار في الديار وأودى حقه بحياة عثمان ا . . . نعمة
هؤلاء كلهم ومن أشباههم كثر كلما تطلعت إليهم الأبصار أصابت الحلق غصة
ورجفت القلوب مشفقة على مصائر الأمة التي نكبت بهم في العهد الخالي ونكبت
الشعب حتى ساموه الحسف وسلبوه كرامة الحياة . . . أفما وجدت عائشة خيراً
من أولئك ظهيراً يسندون دعوتها ويسرون حولها في الركاب ؟ .

ليس الأمر أمر أشخاص ، يؤخر فيه هذا ثم يقدم ذاك . . . ليس قصة خليفة
يعزل وآخر على أنقاض عرشه يقوم . بل هو أخطر من هذا وأجل . فما يفيد
الناس أن يذهب على ويأتيهم من هو خير منه ، إن استطاعوا إليه السبيل ،
أو مثله ، في القليل ، يقوم على أحوالهم فيحسن القيام . وهل لهم في الإمام
هوى غير هواهم بعثله وأهدافه الكفيلة بأن تهبهم الحرية والعدل والمساواة ؟ .
ولكن النفر القادمين من الجنوب زاحفين على صليل السيوف وقعقة السلاح
هم عنوان الكتاب الذي تهمة السيدة أن تضمه أمام أهل الإسلام وتقول هاؤم
اقرأوه ا . ويا شره من عنوان وأتمس به من كتاب . . .

هذا لا ريب عود إلى ظلام الماضي ، بما فيه من إحجاف بحق الشعوب
الإسلامية في الحياة الأبية التي لا يسيطر عليها طغيان طائفة من الخاصة والأشراف .
ليست دعوة الثأر لعثمان إلا غطاء يستر جشع السادة الذين غلبهم الشعب على
مآربهم وتحرو من ربقتهم ونأى برقابه أن تطأها أقدامهم الثقيلة . . . إنها غشاء
لأنهم إلى السلطان والتملك والتحكم كيفما يوحى لأفرادها الاستعلاء . ولو قد أتيح
ثانية لهذه الطعمة أن تعود سيرتها الأولى لعرفت كيف تسوس من أبوا أن يقرأوا
لها بذلة العبيد .

ما من رجل بين الذين أوجسوا من حركة عائشة إلا كان يرادو خاطره
من هذا التفكير نصيب ، كلهم لا ينكرون عليها دعوة القصاص ، ولكنهم
يعدونه قصاصاً ظاهراً عدل وباطنه هدم . . هو هدم للأسس التي جاهد الشعب

جهاده حتى أقامها بعد مشقة وجلاد وطول كفاح . وهو هدم للمبادئ التي أريد بها لم الأمة بطبقاتها جميعاً في وحدة تسودها العدالة الاجتماعية وتنمى منها فوارق الجنس وفوارق الطبقات . وهو هدم للرجل الفرد الذي يستطيع أن يحقق وحده هذه المثل الكريمة لكل من جمع بينهم الإسلام ثم ينافح عنها ما أنسحت له في رحابها الحياة . . . وإذا كان الأسى قد أخذ بقلوب فريق من أهل البصرة إذ ذاك إذ يشهدون كيف فرقت دعوة أم المؤمنين بينهم وبين إخوانهم . فإن أشد الأسى وآلمه لدعاً أنها باعدت بينهم جميعاً وبين تحقيق المبادئ التي صبوا إليها لأن دونها اليوم ميادين وسعة من الخلاف والمناجزات . . .

نعم فقد هبت الريح ، وأوشكت النذر المتجمعة أن تشير إلى جو عاصف ونوء قاصف تودى بسفينة الإصلاح . فعنوان الكتاب معروف . . . والمستقبل الذي تحدث عنه صفحاته صورة من الأمس الراحل الذي حسبه قد ذهب وانطوى ولن يعود . . . ثم ها هم الآن ، فكيف الخلاص ؟ . . .

من استطاع من أهل البصرة صبراً قهر نفسه على الصبر المر ، وقليل استطاع ؛ ومن دان لأمره ابن حنيف بالطاعة سكن كمثل مؤثراً الإبقاء على السلام أن يتمزق إهابه وتتقطع أسبابه ؛ هؤلاء انحرفوا عن جيش عائشة ، ومن لاذوا به ، ووقفوا على فم السكة فاحية المسجد عن عيين الدباغين يمنعون الناس ويأخذون عليهم الطريق . ولكن ثمة طائفة أثارته خيانة ذلك الفريق من مواطنهم الذي تنكر لمبدئه وانحاز لعسكر الغزاة ، فلم يملكهم الصبر ، وآدم الصمت والقفود . . أولئك نفذت أبصارهم إلى ما خلف المظاهر البادية ، وما وراء السلم الذي يلبسهم ثوب تخاذل ثم قد تكون له مغبة تضيق فيها المبادئ التي ناضلوا عليها من قبل ، ويأتيهم غدهم بشر مما كانوا فيه بالأمس في عهد عثمان الذي كان مروان وأضرابه يتربعون عرشه . . لم يستطيعوا صبراً على ما يشهدون ، وهذه أعمار جهادهم توشك أن يتزها حزب عائشة ، وتلك الطغمة من مواطنهم الحائنين ، وتلك الشرذمة من الولاة النبوذيين . فحين تسامعوا بالأنباء كان يعمل في صدورهم مثل إحساس الأسد يتأهب لحماية عرينه ، ويدفع عنه العاديات بالظفر والناب . وكانت الأتفة

في دمائهم تضطرم كنار . فليس لعل غضبتهم بقدر ما هي لكيانهم القوي وكرامتهم
كشعب له منزلته الواجبة في نفوس حكامهم وإن كانوا عرباً خلصاً من ذلك العنصر
الذي حسب لنفسه السيادة على بقية الأجناس . فما عادت العنصرية شيئاً يؤمنون به ،
بل الإسلام . فلقد علمهم كيف يكون الناس كلهم سواسية ، إخواناً على سواء ،
فلا سادة بعد ولا دهاء

بهذا دارت الأمور في الحواطر ذلك اليوم عند المربد وأصحاب الحمية يرون
تلك الطغمة من الحونة ومن الولاة القدامى أهل الطغيان ومنه استشعروا
قوة غامرة تدفعهم دفعاً إلى النضال ، حماية لحريتهم وقوميتهم أن تطأها أقدام
الأشراف وإنك لتكاد أن تشهد كيف يتوثب بهم حماسهم فلا يستقرون ،
ولتسمع أصواتهم اللاغطة تبدأ همساً مخافتاً ثم تسرى قليلاً قليلاً ، وتشتد قليلاً قليلاً ،
حتى تعلو فتشبه الصياح . فإذا انزاح عن صدورهم وقر الصبر الذي اصطنعوه ،
تبدلت بهم الحال غير الحال ، فلم يصغوا لنصح ناصح ، ولا لردع رادع وإن كان
عاملهم وصاحب الأمر فيهم بعد الإمام . بل يتهافتون مغضبين ، وتلعب بهم نائرة
الثورة ، وترتجف في أكفهم رماحهم ثم يكرون كالسيل الدافق على عسكر
عائشة ليس يردهم ولا يرهبهم أنهم قلة أمام كثرة حسنة العناد

ويصيح حكيم بن جبلة ، الرجل الذي ود لو قاتل وحده جموع الجمل الغزاة ،
فيهتف بمن تبعوه من الفرسان :

« إنها قریش ! إنها قریش ! . . . ليردينها جنبها والطيش ! . . »

فما أسرع ما يستجيبون لندائه فتتحدر بهم خيلهم حتى ركب زمر الملتحقين
بعائشة وجندها حتى لتذهلهم المفاجأة فيقفوا كأنهم حيارى مضيعين . ويشد
عليهم حكيم ، وتنزاح قدامهم رويداً رويداً عن الأرض التي كانوا قد اتخذوها
لمنزلهم . فعمل فريقاً منهم حسب لولقي المهاجرين بالأناة وكف عنهم اتشوا
عنه . ولكنها كانت دفعة ليس يسكها صبر ، فإذا الأمسة بعد قليل تعتق
وتتشابك في العمرة الفريقان . ثم يلك الحساس طائفة أخرى ممن شهد
هذا القتال من أهل البصرة ، أولئك الذين كانت دورهم تشرف على ميدانه ،

فيحصبون بالحجارة وهم بأعلى بيوتهم من كان على قيد مرماها من هذا الفريق أو من ذاك . هنالك سالت السماء على قم السكة عند المريد حتى أوشك لونها أن يغلب الناس على حكمتهم وكادت الفتنة أن تتم فياً كلهم القتال . ولقد كان أقرب إلى الحدوث أن يتقهقر الفرسان بعد قليل أمام عدوهم حين يرتد إليه جنانه الذي طاشت به المفاجأة في البدء ، ولكن ما حدث كان القيص . فإذا برجال عائشة الكثر ينجحون للانسحاب وما تزال الحيل تشد عليهم وتضغط أبما ضغط ، ولولا أن وقعت عليهم ظلمة الليل ما تجاوزوا ولا اثنى عنهم فرسان حكيم . أمرت عائشة إذن رجالها بالتقهقر إبقاء على هيبته أمام الناس أن تنال منها مثل هذه القلة ، أو رغبة في الظهور كمن يحرص على السلام . فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن يلقفون أنفاسهم مليا ويستريحون . وكان الليل قد غشاهم هالك بستر وجدوا فيه الأمن والطمأنينة . وبدت لهم من بعيد أشباح خصومهم تنحسر رويدا رويدا عن الساحة التي خلفوها ، وتثوب راجعة إلى البلدة تنفض عنها وعثاء القتال . وإذا حسبوا أنهم الآن قد باتوا بمعتصم يعسر على عدوهم أن يفاجئهم فيه ، فقد أوشكوا أن يجعلوه مثابا . غير أن رجلا من عجم عليا بمواقع الأرض في أرجاء البصرة ، جاءهم فدعاهم إلى مكان سواء أمثل وأحصن ، فتابعوا رأيه . ومضوا خلفه في وادي الموت ، خلال القبور ، تحت ستر المساء حتى انتهوا إلى دار الرزق فضربوا في ساحها معسكرهم ، ثم أقبلوا في همة وجلد يعدون العدة ويتأهبون لمركة الغد . لقد عزموا أمرهم على الأخذ بالنار حين يسفر النهار .

فأى مشاعر كانت تتناوب الوالى تلك الليلة وقد تاب إلى دار الإمارة ؟ . إنه يرى بعينه كيف اشتبكت عليه الأمور وغدت هواته شراً لن يسلم معه هو أو امرؤ ممن بايعه على السلام . فعددهم جميعاً قليل ، وعدوهم في منعة بمن أجلب معه ومن حالقوه من رجال الإقليم . لقد حقق حقاً حكيم إذ ركب حزب الجمل بفرسانه وإن أوشك أن تظهره عليهم شجاعته وكادت تدنيه من النصر . ولكنها كانت دفعة ، وكانت غمرة حقيق يجندهم الضخم أن يشوب من غشيتها فيعود

أقوى على معاودة الصراع بعد قليل . وها هم لا ريب قد ملكوا أعصابهم ،
وراحوا يتأهبون . أفهجمون ؟ . أيسرون إليه في جمافلهم عند إشراقة الصبح
ليقهروه ؟ . ومن له بقتالهم لو عقدوا العزم حقاً على القتال ؟ ...

نعة أمل واحد كان ما زال يداعب قلب ابن حنيف : أن يثبتوا عند عهدهم
له فيصبروا عليه حتى يأتيه رد من الإمام . فقد كان ذلك عهدهم قبل أن يفجأهم
حكيم ... لفهم الوالى غب قدومهم فسألهم :

« ما تقمتم على صاحبكم ؟ ... » .

فقال له الصاحبان :

« لم نره أولى بها منا . وقد صنع ما صنع ... » .

فلم يحاجهما فى شىء ، وإنما أجاب وهو يبغي أن يسود بينه وبينهما
الأمن والصفاء :

« ... فإن الرجل أمرنى . فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى
بالناس حتى يأتينا كتابه ... » .

فأظهرا الرضا ووافقاه ، وكتب بهذا إلى أمير المؤمنين ...

ولكنه الآن لا يأمن أن يظلا على ذلك العهد بعد ما كان من ثورة حكيم .
بل هو لم يأمنه كذلك من قبل وفى حزبهما كل أولئك الرجال أصحاب الخدع
المفتونين بالغدر وتدمير المؤامرات أم يصبر يا ترى مروان . ويخرج للسلم أشياعه
من صنائع العهد البائد ولن يأتي من على إلا ما يفضح تبييتهم ويكشفهم أمام الناس
عرايا لا يستر غاياتهم تمويه ؟ ... قلبه يقول لا ، وماضيهم أيضا ، وميرى كيف
يفقدون ...

وغدا الرجل فسار والشمس ، كلما قطع من الطريق شوطا تكاثرت عليه
الأنباء عن تأهب القوم للقتال . ولكنه رأى لزما عليه أن يلقاهم عسى أن يؤيدوا
له عهدهم بالسكون . وسار فوجدهم يساحة دار الرزق على رجل ، مدججين شاكين .
وما نحسبه قد مشى إليهم يبغي قتالا وهو أعلم بما صار إليه من فقر فى السلاح
والنصير بعد أن فتتوا عنه كل أولئك الجموع من أهل الإقليم . لقد كان كل أربه

أن يقفوا موافقهم ، بسلام ، حتى يأتيه جواب أمير المؤمنين وما نحسب أيضاً أن
ثمة طائفة من أهل البصرة كانوا يطمعون أن يفوزوا على خصومهم بحد السيوف .
ولكن ابن جبلة كان لا يقر هذه السياسة ومن تابعه من عبد القيس ، وإنهم
لهة . غير أنه كان أتقى من صاحبه بصرأ وأجلى بصيرة ولو أطاعه ابن حنيف
منذ البدء فاقى جموع عائشة بالعنف لما وسعها أن تقص هكذا جناحيه ، وتجعل
لها اليد العليا في مصائر الأمور

وفي لحظة عين تبدل الجو ، وذاعت في ثنايا رائحة الحرب . . . فما بدا حكيم
ورجاله أمام أصحاب الجمل حتى طارت الشررة التي أجمت النار . . . لم يصبر هو
أن يدع أعوان الباطل وأمنهم ، ولم يصبروا أن يدعوه ولا ينالوا منه ثأر ليلة
الأمس . وكان شديد الإيمان بما يقوم فيه وإن أوردته هلكه . وكان مشبوب الحدة
فوار الغضبة فما يطيق أن يعترض سبيله شيء . وإنه ليضئ إلى القوم وهو يزجر
كالكليث ، ويندفع سخطه من فيه كسم الرقطاء ينوش عائشة التي يراها أصل كل
هذا البلاء . . . وعندما يلحاه رجل من الناس على نيله من السيدة بلسانه الهدار
بالزراية يسرع فيلقمه الرمح جواباً على هذا اللوم . . . نعم قد فعل ، ثم عاود
أيضاً فطمعن امرأة قدحت فيه كما قدح ذاك وصاحت به في إنكار :
« يا ابن الحبيثة . . . الأم المؤمنين تقول هذا ؟ . . . »

على أي حال ، ملاح حكيم ورجال له لأشيع الجمل حتى شب القتال . الله يدرى
أيهم أنشبه ، وإن كان لصعب عائشة دم عند عبد القيس قد يتأديهم للثأر ، وكانت
لابن جبلة دفعة قد لا يطيق معها الصبر على قناتة أن تظل نظيفة لا يلوئها دم . . .
وقعت الواقعة . وحى فيها الصراع والشمس تخطو أولى الخطا نحو الضحوة
وتأور لهبه وهي تنجح للغرب . قضوا النهار كله يتقاتلون ، ولا يصغون لغير صليل
السلاح . لم يصح منهم واحد لصوت العقل كأنما همهم أن يحيلوا مواقع الأقدام
تحتهم بركة قانية . . . وحين بلغ من جزع عائشة أن دفعت مناديا يدعوهم للكف
غرق صوته في هدير المركة . ويقوا على حالهم مفتونين عن التبصر حتى كثر
القتلى فيهم وشاعت الجراحة . . .

ثم تداعوا إلى الصلح حين لم يعد منه محيص بعد أن نالت الوغى منهم أيعا منال ثابت نفوسهم أخيراً إلى قرار ، فأوقفوا عجلة الموت . . . شدوا على رحاها الدائرة وقد كادت أن تردهم إلى مهل و تراب . . . وتواقفوا على أشلاء صرعاهم متعاجزين ، منكسى القنا والرماح . . .

كذلك جاءت هدتهم غب محنة ولأواء ، فكتبوا عهداً بينهم وأبرموه أن يقيم كل فريق منهما حيث أدركه الصلح على ما في يده لا يضار في مسجد ولا سوق ولا طريق ، على أن يبعثوا أمينا إلى المدينة يأتيهم بمحققة مبايعة الزبير وطلحة أمير المؤمنين ، فإن كانت عن رضا دخلا فيما دخل فيه الناس أو غادرا البصرة ، وإن كانت كرها فلهما الأمر في البلدة وخرج منها عثمان بن حنيف .
وعلى هذه الهدنة جفت الصحف ورفعت الأقلام . . .

{

أقرت السيوف في أغمادها بعد الهدنة ؟ . . أبقيت صفحة الماء هادئة لا يحرکہا شيء ؟ . . لم يتح ذلك ، وجاء الأمر على نقيض ما كان الناس يرجون كأنما إذ أنسوا للسلم من وراء ذلك العهد المكتوب إنما كانوا في حلم سوف تبدده يقظة مباغنة يذوب بها في أضواء النهار .

وكان أولى القوم بعلم زيف عهدهم أولئك الذين جاءوا في ذيل عسكري يقطعون القلاة لأمرهم وخدمهم مبيتوه . فهذا الحزب من قريش رسم خطاه قبل أن يسير ورتب مواطىء أقدامه بحيث تقوده في نهاية الشوط إلى الهدف المأمول . ما كان لهم من غاية إلا نقض بيعة الإمام واحتلاب سلطنة تحت ستر موهوه بدم الخليفة القتل . استباحوا في البدء ذلك الدم ثم قاموا من بعد ينوحون عليه كالثواكل وذوو الغايات ، في سبيل مآربهم ، لا يأتفون من ركوب كل محذور أرسلوا إذن أمينهم عقب الهدنة إلى المدينة ليأتى لهم من لدن أهلها بمحققة مبايعة الصاحبين أمير المؤمنين . . . فكان هذين قد غابت عنهما الحقيقة

أو البست بشبهة . . . ولو قد آثرا تجنب الانحياز إلى هواها لطالما الناس بالصدق الذى لا يغشاه زيف ولا تمويه ، ولصار حاهم بما يعلمان أو بما يكتمان . . . إن فى جعبتهما كتاباً يجيد رسم هذه الحقيقة ، ولكنهما ليسا من الإحلاص لههدئدنة فى درجة تدفعهما للنشر ذلك الكتاب . . . من خطل الرأى — فيما يظنان — أن ينشراه ، ومن الإدراك السياسى — الذى لا يتكلم بغير لغة التوصل إلى الغايات بأىما سبيل — بحيث يقدمان الكتمان ويطويان على مسطوره الوفاض . . . وإذا أتبع لا مرىء أن يقرأ ما فيه لرآه جاءهما من أمير المؤمنين ، يلزمهما به الحجة ويلزمهما البيعة التى أرادها بالنكث إذ كانت كاعأهما من غير رضا واقتناع . . كتب لهما على يدحض زعمهما ويقيم الأمور حيث يجب أن تقام :

« . . . قد علمتا — وإن كتمتا — أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى . . وإنكما ممن أرادنى وبايعنى . . . فإن كتمتا بايعتاني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب . وإن كتمتا بايعتانا كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية . . . ولعمرى ما كتمتا بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . . . »

ثم عرج على قصة مصرع سلفه ، فأ نصف غاية الإنصاف إذ أراد أن يجعل الحكم بينه وبينهما فيها كل رجل من المدينة آثر أن ينأى بجانبه عن التشيع له والانحياز لصفهما ، لعاهما بهذا التحكيم بأمان أن يتعيف عليهما الناس بالاتهام . قال بنذيل ذلك الخطاب ولم يغفل أن يسديهما النصح خالصا لوجه الله : « . . . وقد زعمتا أنى قتلت عثمان . فبيئى وبينكما من تخف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتعل . . . فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار . . . »

ولكنهما آثرا أن يطويا الكتاب عن الأنظار كما طويا من قبل حقيقة ما كان من بيعتهما التى كانت عن رضا واختيار . . . أفأما ياترى الناس أن يعلموا ما أخفياه .

بل الحق معلم له نور يهتك دائماً حجب الظلمات . وإذا كانت البصرة ، موثلهما الآن ، بعيدة عن يد الإمام . فما هي بعيدة عن الأخبار تسرى إليها مع الركبان من كل إقليم ، ومن جارتها الكوفة قبل غيرها من البلدان . فإلى هذه كتب على يروي نبأ صاحبيه ، وموقفهما وموقفه من عثمان بن عفان ، لم يستر شيئاً إلا رواه في هواة وترفق وإن وسعه أن يعنف ولا يجاوز بالعنف حد الإنصاف :

« إني محبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه . إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلاً من المهاجرين . أكثر استعتابه ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرها فيه الوجيف ، وأرفق حدأهما العنيف . وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتبج له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . . . » .

بمثل هذا تناقلت الألسنة حقيقة القضية التي أخفوا خلفها المطامع والآراب . وبأعنف منه وأقرب إلى الصراحة التي ترسم مكان الصاحبين في مأساة المصراع فلا تغفل أدق الخطوط ، كان الأمام يتحدث فتطير أحاديثه إلى كل مكان . . . وصلهما طرف من كلامه هذا بغير شك ، ووصل أيضاً حليفتهما فجعلهم جميعاً أدنى إلى مجالس الانهام . . . ولقد ألقاه ذات مرة حديثاً مدوياً زلزل تحتهم أركان الأرض ، وجاوز فيه الهوادة إلى الصراحة الريبة ، فهل ارعوا وسالموه ؟ .

كلا ، بل لجوا في اتني . . . ومضوا في طريقهم — وهم الفئة الباغية كما طبعهم بلفظه — يطلبون حقاً هم تركوه ، ودماهم سفكوه . . . فلعلمهم — إذ فتنوا أهل البصرة — قد حسبوا أن قد ملكوا في أيمانهم الشمس ، لو شاءوا أطلعوها أو شاءوا طمسوها . . . فكذلك كان شأنهم من البيعة ، قالوا قلدناه إياها كرها وعلى الناس أن يؤمنوا بما يقولون ، على الأمة جمعاء أن تخلعها من أعناقها لأنهم أرادوا النكث وحنث اليمين . . . أما الهدنة فإنها نظرة إلى خلاص أو تلبث إلى خلاص أو تلبث إلى حين . وهل كانت إلا عهداً كييعتهم تلك يجوز عليها نفس ما جاز على سابقتها منذ قليل ؟ .

إنك لن تحسب أن الحال قرت بالبصرة تلو ذلك العهد المكتوب ، وساد
في جنبات البلدة الهدوء . . . عشا تضع الخطب بين السنة النار ثم تكف عنه
الاشتعال . . . عشا تسكت زمزمة الريح . . . عشا تقف محازرا في مسيل
الطوفان . . .

لم يهدأ الخلاف بالبلدة وإن خفت حدته بين الحزبين . ففي النفوس نزع
ليس للعقول عليه سلطان . وقد بقي من فريق الولاء ابن جبلة وفرسانه ، وأهله
وشيعة من عبد القيس ، لا يزالون يضطربون غيظا وموجدة أن يروا دولة الحق
هكذا تدول تحت أبصارهم وتعدم الولي والنصير . وبقي الفريق الثاني على ما كان
عليه من خططه المرسومة ، يرتب ويبيت وينتظر ساعة التنفيذ . كل طائفة كانت
تتوجس شراً من غريقتها ، وتتوقع منها العدر في كل حركة . فإذا اقترب بعض
الموالين عفواً من منازل الغزاة كانوا في حسابان هؤلاء قادمين في شر ، أو مرت
بضعة من أصحاب الجمل دانية من رجال عامل الاقليم استقبلوها بالتحفز إذ يحسبونها
تحمل العدر . واقد حدث يوماً أن أقبل محمد بن طلحة فقام مقاما قريباً من عثمان
ابن حنيف ، فأسرع نحوه الحرس فنحوه خشية أن يكون قد أقبل ينتزع حياة
واليهم غيلة . ولو شهد هذا الحديث فريق مسلح من أعوان محمد لما انجاب
إلا عن معركة خطيرة

على هذا التوتر كانت الحال بين الحزبين ، لم تهدأ ثأرتها الهدوء الذي كان
تحتمه الهدنة . بل بقي الناس يتوشهم قلق خفي كأنما تشيع في الجو أنفاس
الفتنة ، ويمتلىء الهواء حولهم برائحة الدم . وما كانوا في شعورهم هذا إلا صادقين
لأن الزمن كان يشب بهم وثباً إلى محنة مجتاحة . فإن هي إلا ليلة ذات ظلام ورياح
حتى زار قصف الأحداث .

كانت العاصفة تدوى زمزمتها بين دروب البلدة حتى بدت معها البصرة
كغاب ملأته إيوث هائجة وأسود غضاب . والليل في بكوره ذاعت فيه وحشة
السعر المتأخر . وكانت أعين السماء وسنانه ، رانت عليها كسف من الغيم حتى
طمست النجوم . وأسبل الظلام أستاره على الطرقات ، كشيقة لا تنم عن شيء ،

فلا أضواء ولا ظلال . ولولا حركة الريح وهى تذرع المكان فى خطوات نشوان لا يعرف إلى أين يتجه به السير ، لكان أشبه بقبرة ثقيلة الصمت ، ساعة هجوع الأحياء ، لا تسودها إلا هدأة الموت . . .

وكان المسجد بادی الفراغ ، يوشك أن يخلو من الناس إلا نقرأ تفرقوا فى جنباته ، لفوا أردانهم حولهم اتقاء قررة الليلة ، والتصقت لحام بركبهم وهم منكشون فى جلسة القرفصاء . . . ولكن شئمة أيضا أشياء غير الجسوم المرتجفة أحتوتها الثياب — شئمة سيوفا ونصالا مخبوءة ، أعدت للحظة الطعان .

إنك لو كنت معهم يومذاك ، لشهدت من مجلسك فى عيون هذا الفريق من المنكشين لمة تمحز ، ولأوشكت أن تقرأ لغتها فلا يفوتك أن تراها حروفا . إذا التأمت لكونت لفظة الغدرا . . . كيف استباحوا هذا ؟ . . . وفى وقت هدنة ؟ . . . وفى بيت الله ؟ . . . ولكنها شريعة السياسة تستهين حين نشاء بكل الشرائع ، ولا يقعدنها عن تحقيق آراها وازع أو دافع . . .

اجتمعت تلك الطائفة من رجال الجمل بمسجد البصرة ، تلك الأمسية المظلمة من أماسى الشتاء ، لا يعلم عنهم غيرهم إلا أنهم جاءوا يصلون . وكان موعد العشاء لم يحن ، فأهل البلدة درجوا على تأخيرها منذ دخلهم الإسلام . والليل ما زال فى بكوره وإن تقدمت الظلمة السابعة بغمره . . . ولم يكن كثيرون من أهل الولاء للإمام قد حضروا بعد ، فبالوقت فسحة ممدودة ، والرياح الهوجاء ترود طرقات البلدة وتعوقهم بعض التعويق . ولم يكن الوالى نفسه قد حضر لإمامة المصلين ، وإنما انتشر نفر من حرمه خارج المسجد وبمقربة منه يسهرون على سلامته حين يحى . . . وها قد أوشك أن يبدو لهم خلال ساعة أو بعضها ليقوم بفريضة الله ، ويؤدى بالناس الصلاة . . .

ولكنها صلاة لم يكتب لها الأداء فى موعدها المفروض . لأمر أو لآخر حسب النفر من أصحاب الجمل أن ابن حنيف قد أبطأ فدفعوا ولياً لهم هو عبد الرحمن ابن عتاب ، ليأخذ مكانه أمام صفوف المصلين . . . أكان ذلك حرصاً منهم ألا يؤخروا الصلاة أم لغاية عزموا عزمهم عليها من قبل ؟ . . . على أى حال كان

فعلهم نكثاً لما عاهدوا عليه الوالى من قيامه وحده بالإمامة . فإذا أضفنا إلى هذا ما تواضع الناس عليه بالبصرة من تأخير العشاء ، لتوقنا كيف يستقبل حرس ابن حنيف هذا الخرق للهدنة بين أميرهم وهؤلاء الخصوم . نعم قد استقبلوه بالغضبة الواجبة منهم لحق ولى أمرهم أن يضيع ويسلبه أعداؤه تحت مكر الصلاة ، فما أن رأوا عبد الرحمن يتقدم نحو المحراب حتى أشهروا السلاح فى الوجوه لعل أصحابها يفيثون إلى العهد ويرتدعون عما أوشكوا أن يقترفوه .

فإذا المسجد فى الحال ينقلب إلى ساحة قتال . . . فى لحظة عين ظهر السلاح الحبيب تحت الأتواب ليعمل فى الصدور والرقاب ، وفى لحظة ضاق المسجد الواسع بمن كانوا فيه ، وانقلب القلة من أصحاب الجمل المتفرقين بجناباته إلى كثرة غالبية عملاً رحابه حتى يضيق بها ، كأما أطلعتها الأرض أو أمطرتها السماء . . . وهل يسع الحرس أن يردوا كل هذه الجموع المبتوثة حولهم فى كل مكان تنوشهم من كل جانب ، وما يعدون أربعين رجلاً أمام قوة مناجزة تستطيع لو شاءت أن تقتلع حصناً باذخاً ذا معادل وأسوار ؟ .

ولكنهم مع ذلك جالدوا القوم جلاداً شديداً ، وصبروا لهم ما أمكنتهم أمستهم وما بقيت أقدامهم تمس بطونها صفحة الأرض . فلم يلقوا السلاح من أكفهم قط ، ولا نبت بهم مواقفهم أو ترحزحوا قيد شبر ، بل ظلوا حيث كانوا لا يريعون حتى تخطفهم الموت ، واحداً إثر واحد ، كراماً ، ووقعوا صرعى بأحناء المسجد ، تروى دماؤهم رحابه . . .

فلعل رجال عائشة قد ازدهام هذا النصر الذى أحرزوه وإن جاءهم على حساب هية بيت الله والمفروض من توقيره . إنهم لا ريب كانوا يدفعون عن حياتهم أن يسترخصها حرص ابن حنيف ، أو هكذا بدوا فى عيون أنفسهم وهم يغفلون أنه لولا عدواهم على حق الوالى فى إمامة الصلاة لم يكن ذلك الدفاع . . . ولكنه نصر حازوه كيفما كانت المقدمات والأسباب ، وسواء أكانوا قد بيتوا من قبل عزمهم عليه أو جاءهم عفواً بغير تبذير ، فإنهم راحوا يفيدون منه ، ويتبعونه الخطوات الباقية التى توفى بهم على تمام الانتصار .

نسوا وشيكاً فريضة العشاء ، ونسوا هذه الإمامة التي خاضوا من أجلها
نهرآ من دم ، وذكروا عامل الإقليم . في هذه الآونة التي قضوا فيها على
فرقة حرسه ذكروه . ولم يشاءوا أن يصبروا هنية حتى يأتهم فينبثوه لو كانوا
قد عدى عليهم وهم براء لوسعهم الصبر والانتظار لأن العنف ليس شيعة البريء
المتصر بل التعذير . ولو ساروا إلى ابن حنيف - إذ استبطأوه - يشكون
إليه ما كان من حرسه الملقى برحبة المسجد لا تسع لهم تبرير سفك تلك الدماء . .
ولكنهم لغير هذا مشوا إليه ، تحت خمة الليل . . . إنما ليتبعوا الضربة الضربة ،
أقوى هذه المرة وأشد ، عسى أن يفرغوا من أمر هذه البلدة ، ووالها ، وما بقي
في أحنائها من قوى ما زالت تصدم عن السلطان المطلوب . . .

إلى قصر الإمرة مضوا في غاشية المساء والريح حولهم تدرى وتعصف ،
لا يترثون ولا يعهلون . وكان ابن حنيف لم يبرحها بعد لأداء العشاء ، وبضعة
من جنوده على حوافها تسهر عليه أن يناله بعد تأزم الأحداث مكروه . . . ولم يكن
الرجل يعلم شيئاً عن وقعة المسجد ، ولا ما أصاب حرسه ، فهو بهذه الغفلة في
طمأنينة وأمان ، وكانت فرقته الساهرة برحبة الدار قد لاذت بمواضع منها تمتنع
فيها من قصف الريح ، والسماء تمطر غيثاً كأنه الطوفان . كل ما حول القصر
لا يشي بمحنة وشيكة ولا ينبئ عن اقتراب خطر الهدوء في جنباته ، والسلام في
قلوب ساكنيه .

ولكن ظلالاً ، تحركت في أطراف الرحبة ، خافية في ثنايا الظلام السابغ
عن العيون ، مضت تزدلف كالأشباح ، ليس لسيورها على الأرض وقع مسموع ،
ضلت عنها أسماع فرقة الحراسة وأبصارها الحديدية ، بين زجاجة العاصفة وجهامة
المساء الضرير . كذلك تسلل رجال عائشة إلى دار الإمرة ، وكذلك باغتوا
الجنود . . . وعندما أوشكت حركاتهم أن تنبه إليهم الحرس ، كانت أسياقهم قد
سبقت إلى الرقاب تطيح بها ولما يكد فرد من جند الوالى يبعث من صدره
صيحة استغاثة . . .

وعلى الأثر عصف الهاجمون بالدار ، على رأسهم قائدهم رائد القدر مروان

ومن خلفه طلعة ورديفة الزير . . . من عجب أن يخرج الشيخان مخرجا كهذا لا محمد عند أضرابهما من ذوى القلوب التى تدين بشرعة الفروسية وهى مروءة وإيثار ولكنهما الآن حقيقان بأن ينسبا ما هو أمثل بهما فى غمرة النصر . حريان بأن يركبا فى سبيل هدفهما كل صعب ومحذور . . .

ألقوا قياد رحلتها إذن إلى ابن الحكم يفعل كما على عليه طبعه فلما أمكنهم الحظ من حرس القصر وتركوهم صرعى برحبته بعد أن أضافوا إلى سجل القتلى من ضحاياهم تلك الليلة أربعين جثة جديدة ، وجهوا نحو ابن حنيف وهو وحيد مهيض النصر . . .

ولكن كرامة الوالى أوقفته أمامهم على قدميه ، يذود كريعا عن نفسه ويدفعهم حسبا يستطيع . . . ونال منهم ونالوا منه ، وتكاثر عليه أعوانهم حتى ضيقوا الحلقة عليه ، فوقع أسيرا فى يد مروان .

واستقبله الطاغية ببسمة حاقدة ، وبنظرة أفعى رقطاع . ما لأعزل عند ابن الحكم حرمة تمنعه منه ، ولغير الرفق بهذا الضعيف يتسع قلبه ، فالرحمة على أموى مثله حرام . . . وإنك لترى كيف يخلص الرجل لطبعه فيفعل كوحش الفلاة إذ يلغ فى دماء فريسته وإن لم تهمد بهد فى قبضة الموت . . . يقبل فيأخذ بمخانق الأمير . ويدفع به إلى بضعة من رجاله كزبانية النار يقيدونه ويشلون حراكه . فإذا رآه قد فقد القدرة على مقاومته أخذ سوطه وراح يجلده حتى كلت يدها فلعل مروءة الفروسية قد استيقظت هذه الآونة بجنبى طلعة والزير وهما يشهدان المنظر الأليم . ولكنها كانت يقظة موقوتة لم تغن شيئا عن ابن حنيف ولم تنقذه من قسوة جلاده . بل ومضت لحظة بأعين الصاحبين فى نظرة إنكار ثم توارت نكطفة البرق . . . الوحش الأموى كان إذ ذاك أجدى على قضيتهما من الوالى المغلوب . . .

وعند ما حسب الناس أن خطوط الدم التى رسمها السوط على جسد الأسير قد روى غليل مروان ، كانوا لا يدركون نزوات طبعه الكلف بالنكال . . . قد أكب على الوالى ، المهيض كأنه حطام ، وراح يتم رسالة التعذيب . . . مضى

وأنيابه منفرجة عن بسمة شامة ، يشد شعر الرجل ، ويسله شعرة شعرة ، من رأسه ، ومن لحيته ، ومن حاجبيه ، وحتى من أهداب عينيه . وإنه ليستعذب أن يشهد كيف يتجسم الألم الصارخ في ملامح الوجه الذي خضبته الدموع والدماء ، ويحس في تعذيب غريعه لذة ساذجة ، ومسلاة أى مسلاة
ويستقبل ابن حنيف قدره وهو يجاهد ليحكم وجهه ، ثم يرفع إلى معذبه عينين تبديان الجلد والتصبر من وراء ضباب الدمع ، ويهتف بصوت خافت كالأنين :
« أما أنك إن فتني بها في الدنيا يامروان ، لم تفتني بها في الآخرة . . . » .
ولكنها شكاية لا تحد من طغيان الجبار ، يعضى لشأنه ، يعذب فريسته وإن راحت في غشية ، ليم ما لم يؤده بعد من رسالة النكال . . .

٥

أضحت البصرة لقي مستباحا لحزب عائشة بعد أسر ابن حنيف ، فقد عملوا وفق خطتهم ، وأخذوا القصر ، وسيطروا على جند الوالى ، وأمكنهم الليل من إنفاذ بقية المؤامرة فلم يصبح الصباح إلا وفي أيديهم أيضاً بيت المال
وغشيت البلدة غشية من القلق والتردد ، ثم لم يلبث أكثر سكانها المسالين أن عرفوا إلى أى جانب يميلون . وهل يسعهم اليوم خلاف قد شهدوا مغيبته ، وأمثولته البادية عاملهم المسكين ؟ . . اليد العليا الآن لأصحاب عسكر ، ومال للناس بساحة غيرهم ملاذ

ووقف طلحة وقد تملك السلطة بين أصابعه كالحبوط ، نخطب الجموع التي التأمت بدافع من الخوف وبدافع من الفضول ، فقال :

« أيها الناس . . . يا أهل البصرة . . . توبة بحوبة . . . » .

فدعاهم إذن أن يتوبوا عما اقترفوه ، أم كان يرى أن الخليفة القليل قد أثم ثم تاب فلا عليه من بأس ؟ . . هذا رأى لعائشة قديم ، يردده الشيخ التيمى بألفاظ أبدتها أم المؤمنين في رسم آخر يوم قالت : « استنابوه ثم قتلوه . . . » .

وسرت همهمة مخافة من أفواه الحشد ، ولكنها لم تقطع على الخطيب الكلام :
« .. إنما أردنا أن يستعقب أمير المؤمنين عثمان ، ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء
الناس الحلاء حتى قتلوه . . . » .

فلم يصبر بعض السامعين على هذه المغالطة الصارخة وموقف طلحة من ابن
عفان معروف . فصاح أحدهم به مجاهراً بكلمة الحق التي لا ينبغي أن تضيع بين
زخرف الأحاديث :

« يا أبا محمد ! .. قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! ... »

فأرتج على الشيخ وأصابه الحسر ! .. ورأى الزبير أن أمرها يوشك بهذه
الفتنة القديمة من صاحبه أن ينقلب وبالا ساعة النصر الحاسم ، فسارع يتبوأ مكان
زميله ، وقال لذلك المجادل العنيد :

« فهل جاءكم منى كتاب ؟ . . » .

واستطاع بهذه اللفتة أن ينأى بأفكار القوم عما أوشكوا أن يلجوا فيه .
ولكنها أيضاً كانت بادرة الاختلاف ، أو نقطة التحول في ذلك الوفاق الظاهر
بينه وبين صاحبه لو أتيح للزمن أن يمتد بهما وهما على الحلف الذي أملتته وحدة
الهدف . فالزبير لا ريب أنقى صحيفة من صاحبه لو كانت النقاوة عنواناً لموقفهما
من عثمان . وهو بهذا ادعى أن يلتف به الناس دونه وأدنى أن يتبموه . ومن
قبل آثره معاوية بالتقدم ، لنفس السبب فيما حسب ، فدعاء بلقب الإمارة ، وآثرته
أيضاً عائشة قدمت ابنه للصلاة بالناس ! ...

ولكنه مع ذلك لم يكن موقفاً تمام التوفيق في خطابه . . . ازدهاه نصره
المفاجيء فأنساه كيف يجب عليه في هذه الآونة الفاصلة أن يمسخ على رؤوس
الجاهير المفتونين ببطولة الأبطال فيحدثهم الحديث الذي لا يسىء إلى مشاعرهم ،
وكلهم دون ريب منضم على هوى للإمام وتقدير وإن خشوا القوة الظافرة
فكتموا عواطفهم . نعم ، فقد زلق لسان الزبير ، ومضى به في غمرة زهوه
بظفره ينال من على — من بطلهم ويلجأه ، والقوم يشدون على صدورهم أن
تنفث في وجهه حقيقة ما يشعرون . حتى إذا بلغ من ذمه ولحيه مبلغاً ترخص فيه

الحشية على الحياة ، انتفض امرؤ قائماً من بين الجمع ، يصيح مغضبا بلا مبالاة :
« أيها الرجل ! .. أنصت حتى تسكلم ... » .

فاضطرب على الأثر حبل الهدوء . كل من في الحشد ألقى عيناً على هذا الجريء
من عبد القيس أتبعها كلمة إعجاب أو نفثة عجب ، فقد وضع الرجل في هذه اللحظة
رأسه على كفه .

وكان عبد الله بن الزبير في الحاضرين ، فبداه أن ترك العبدى وشأنه كفيف
بأن يفسد عليهم الأمر ويطمع فيهم الجوع ... هذا « ابن جبلة » جديد ... من
نفس القبيلة التي ما فتئت تربع عليهم علم العصيان ، فليرده إذن عما يروم ...
وهتف به عبد الله :

« ومالك أنت ولل كلام ! .. »

فلم يأبه له . بل مضى وما أراد ، يجبههم باستشارهم وخدمهم باختيار الخلفاء —
وقتلهم أيضاً ! — دون مشورة من البصريين ، فكيف بهم اليوم يسألون البصرة
في أمر لم تكن لها يد فيه ؟ .

وأصغى الناس للعبدى وهو يتم حجته :

« ... ثم اخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم أنكرتم منه
شيئاً فقتلتموه ، عن غير مشورة منا ! .. ثم بايعتم علياً ، عن غير مشورة منا ،
فما الذي نفعنا عليه فقتلناه ؟ .. هل امتأثر بفيء ؟ .. أو عمل بغير الحق ؟ ..
أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ .. »

فاستمعى عليهم الجواب ! .. ولكن للقوى لغة أخرى غير منطق الحجة
هي حديث السيف . وهل كانت القوة المادية إلا ضعفا يستتر دائماً خلف مظاهره
التي تشيع الرهبة ولا تشيع قط الرضا والافتناع ؟ ..

لذلك ملك أصحاب الجمل ما يملك أشباههم من الأقوياء الضعفاء في مثل هذا
الموطن الذي يزرى بالمتاد والسلاح ، فقاموا إلى الرجل يهيمون أن يقتلوه عسى
أن يخرسوا لسانه عن كلمة حق يستطيع أن يقف بها رافع الرأس وهو يهزأ بأعني
الأسلحة والجيوش ! .. أفبعد الله بن الزبير ياترى قد أغراهم به ليأمن أن تهدر
أمام الناس هيبة حزبه الكبير ؟ ..

ولكنهم على أى حال لم يقدرُوا على النيل من العبدى ذلك النهار، فقد وقفت لهم عشيرته تحميه ، وتغنيه أن يصديه عدوان العادين . وعندما بدا لأخصامه أن انسياقهم لدفعتهم قد يؤجج عليهم النار فى وقتهم فيه أحوج إلى اكتساب رضوان الناس ، كفروا أيديهم عن الرجل ، سكنوا عنه وهم يضمرون فى نفوسهم أن يؤخروا ضربتهم المسددة إلى قلبه حتى حين ...

ولم يطل بهم الإضمار ولا الانتظار ، فما أن جاء الغد حتى نالوا منه وطرحهم فقتلوه . لم تغن عنه عشيرته شيئاً هذه المرة ولم تحاجز دونه ، شهدتهم الشمس فى شروقها صرعى على الثرى مجندين ، سبعين رجلاً ، حول جثة صاحبهم الشجاع . ليست هذه قصة الغدر الأولى بصحائف البصرة فى تلك الحقبة القصيرة من أحقاب التاريخ ، لا ولا الأخيرة فمثلاً حدث كثير ، وأمل العذر الذى يقف بجانب الشيخين فى أمثال هذا العدوان أنهما كانا يبنيان ملكاً جديداً فليس يضير إن قام البناء على جثث وأشلاء ، وأنهما أيضاً كانا أمام سيل عرم من أعوان لهما انضمّت نفوسهم على حب الغدر وأفعمها الكلف بالدس والتآمر . . . وهل من عجب أن تصدر هذه الأفعال من رجال كان فيهم مروان وأشباه له كثيرون ؟ . . . إنما العجب أن تمر الصفحات التى سطرناها تية لا يدونها قلم غمسه فى مداد من دم . .

ثم ها هم الآن . . . البصرة اليوم قد غدت تحت الأقدام وإن هى إلا فترة من الزمن وجيزة ثم تدين لهم بالطاعة . كل ما كان يعنيه فى البدء أن يملكوا مواردها . وقد فعلوا الآن سيطروا على تواها المادية جميعاً فغدت فى أيديهم مصائر الأمور . استولوا على السلاح ، وأخضعوا الحرس ، وملكوا ثروة الإقليم بعد أن استولوا على بيت المال . ولم تعد ثمة حيالهم غير نفوس يسير عليهم ابتزاز ولائها أو حياتها لو عرفوا كيف يذرون الذهب أو يهزون السيف . . . فعلى الشدة والمال تقوى دعائم الملك العضود المنشود . .

ومضوا إلى بيت المال خفاً على أجنحة النصر وقد عزموا أن يشتروا الولاء بالسخاء ويذلوا لأعوانهم من أهل البصرة ممن الطاعة أرزاقاً وأعطية .

ولكن ابن الزبير وحده ليس يرى ما يرون . أبى عليه شحه وغل كفيه أن يرتضى
سياستهم المرسومة ، فراح يحاج أباه :

« إن ارتزق الناس تفرقوا . . »

فلم يأبه له . وأقبل وصحبه يفرقون الأموال ويغدقون منها على صنائعهم
وأوليائهم وقد قر في أخلادهم أن البصرة كلها رهينة بهذه الدنانير ، آتية على
رئيتها ولمعها لتلقى لديهم السمع والخضوع . وهل من رجل فيها يجسر الآن على
مجاهرتهم بخلاف ؟ . . لقد تقاص منها اليوم ظل الإمام ، وغدا واليه في أيديهم
لا يملك من نفسه غير ما يشاءون . وسوف ينال منهم كفاء عنته جزاء آ يستنزفه
ما بقي فيه من دماء . .

تركوه لقية في يد عائشة تختار له المصير الذي تراه حقيقاً بأمثاله من العصاة ،
لعله يكون أمثلة تردع عنهم من تحدثه نفسه بعده بمناجزة حزبهم الظافر . وكانت
السيدة اليوم غيرها بالأمس ، أولتها الحرب قسوة العنف ، بعد رقة الضعف ، فلم
ترفق بأسيرها المخدول ، ولم ترع فيه الأمن الذي يفيثه الأسر ولا الرحمة الواجبة
من القوى القاهر على المهيض المقهور ، بل اصطنعت شدة الطغاة وهتفت بابان
ابن عثمان إذ جاءها يستلهمها رأيها في ابن حنيف :

« اقتلوه ! . »

فأسرع الفتى يتعجل في الرجل قضاء الله ، بل قضاء السيدة التي لبست ثوب
الخصم وثوب الحكم في آن ، وأوشك أن يتلون سيفه بدم الضحية . ولكن امرأة
أخرى — امرأة لم تأكل الأحداث من قلبها رقة الأنوثة ولم يحف فيها نبع الرحمة ،
هالها الحكم فصاحت منكرة ، ومتوسلة ، في رنة بها ضراعة وبها تأنيب :

« نشدتك بالله يأم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله . . نشدتك بالله ! . »

فأغضت عائشة ، ثم تحدثت هامسة بعد قليل :

« ردوا أباناً . . . »

فردوه . وألقت إليه بأمرها الجديد . هذه المرة بدت قمات وجهها

البن وأرق :

« احبسوه ولا تقتلوه . »

فأحنى لها الفتى رأسه موافقا ، ومضى عنها كارهاً لأمرها وإن لم يسمعه العريان ، حتى لقد قال قبل أن يبرح :

« لو علمت أنك تدعينى لهذا لم أرجع . . . »

على أن العذرة التي نزلت برجل عبد القيس وعشيرته السبعين ، والمؤامرة التي قضت على الحرس ساعة المساء وعصفت بقصر الإمارة ومن فيه ، والجزاء الباغي الذي أصاب الوالى المخذول لم تذهب كلها هباء في ربع خال ، بل كان لها صدى له دوى شديد . ابن جبلة ساهر لم تنم عينه ، ولم يطر جناحه ، ولم تذهب الأمثلة القاسية التي رسموها على صفحة وجه أميره بشجاعة قلبه الثابت الركين . فما جاءت أخبار البغي حتى هب كالليث وقد أثاره من أولئك القوم انحذارهم مع الطغيان ، ونقضهم الهدنة التي عاهدوا عليها ابن حنيف . ووقف غاضبا يزأر في أعوانه وفرسانه :

« لست أخاف الله إن لم أنصره . . . »

وتأهب للمسير نحو مجتمع القوم وهو يهدر هديره . وعلمت عائشة نبأه فتأشها القلق خشية أن تستشرى فتنته ويتألب على حزبها الناس . ورأت من الحكمة أن تسكن الثورة قبل أن تضطرم وتتسع فأرسلت إلى صاحبها تقول :

« إن حكما في الجمع . لا تحبسا عثمان ودعاه ... »

وتناقلت الألسن رسالة أم المؤمنين وما احتوت من رفق على الوالى الأسير . ففعل السيدة رأت أن تحرير هذا الذى نكلوا به كان كفيلا أن يهدى ، ثورة من غضبوا له ، ويفرق الناس عن حكيم . . .

على أنها ضربة سياسية — لو كانت السيدة قد عنتها حقاً — لم تأخذ من تدبير ابن جبلة ، ولم تصبه على غرة منه ، فقد كان أسعن في المكر وأقدر على إحسان التدبير . نظر الرجل فيما حوله فهاله أن يسير هكذا إلى قوم كثر كمالى التعبئة وهو في نفر من فرسانه قليل ، فهدهاه دهاؤه أن يستغل نزوة النفس البشرية وكلفها بعرض الحياة . فإذا به يذيع على الطوائف المضمرة بقية من غضب على

المتصرين أن هؤلاء قد زووا عنهم ما يستحقونه من عطاء وأباحوه أولياءهم فحسب . . . فمن أراد رزقا فليسر خلفه إذن إلى بيت المال ؟ . . .

فهذه حرب تكافأ فيها سلاح الفريقين . . . تألفوا الناس بالمال فأغراهم هو أيضاً بالطمع فيه . وكذلك زاد عديده ، وانطلق على رأس كوكبة فرسانه الأجلاد ، وسائفة من أفناء ربيعة ، ورجال عبد القيس الموتورين ، وجموع أخرى من بكر بن وائل ، سار أكثرهم حباً في الثروة قبل مسيرهم في حق أو بغية الانتصاف لمظلوم . . .

وكرة ثانية غلبت الدفعة على ما في نفس حكيم من الحذر والتبصر . تماماً كما حدث بالأمس . . . إنه ليهدر هديره ويخوض بتقذع سبابه في أم المؤمنين إذ يراها خالقة الفتنة المشبوبة ، فتقف له امرأة فتلجأ . فإذا سيفه يسبق إليها لسانه فيردها صريعة . . . عندئذ يملك الغضب قومها من أوليائه فيثورون به :

« فعلت بالأمس وتعود لثلاثها اليوم ؟ .. والله لندعنك حتى يقيدك الله . . . » .
ويتخلفون عن صفوفه راجعين ، فلعلمهم إذ عادوا قد حالفوا القدر عليه ، وقربوا هلاكه الوشيك . ومن يدرى كيف تكون مغبة الصراع المنتظر بينه وبين أصحاب الجمل لو لم يتدخل عنه كل أولئك الأعوان في لحظة كان فيها أشد حاجة إلى تألف النصير . . .

ومع ذلك فلم يفل هذا من عزمه ، ولم يردده عما أراد . وإنما سار في الفلول الباقية له وهو أمضى عزيمته منه قبل ، لا يخيفه وهن قواته ولا ترهبه كثرة الخصوم . وسار بنفره القليل حتى بلغ بهم مدينة الرزق منزل الأعداء . . . هناك لقيتهم جنود عائشة وأداتها الحربية الرهيبة . وبدأ لهم من بعيد عبد الله بن الزبير يسعى إليهم ، فلما وقفوا بالرجبة ، مثل أمامهم مدلاً في خيلاء واعتداد ، وقال غاضباً مخاطباً قائد الثوار :

« مالك يا حكيم ؟ . . . »

فتخابت هذا وأجاب في هدوء .

« تريد أن نرتزق من هذا المال . »

أفلم يكن يعلم ياترى أن هذا الأطلس البغيل حقيق بأن يرفض طلبه ويتنكر له
وقد أوشك منذ قليل أن يزوى الأرزاق عن أوليائه لولا أن منعه أبوه ؟
وجاءه الجواب الذى لا جواب سواه عند ابن الزبير حين يسأل العطاء
وبذل الأموال :

« لا نرزقكم شيئاً . . . »

فلعل ابن جيلة قد سره هذا الكلام ، واستشعر له صدى بقلبه فرحة غامرة
أن زوده خصمه بالوقود الذى يشعل نار الغضب فى نفوس من ساروا كل هذه
الأشواط من أجل الأرزاق . . .

واستطرد يتحدث بتخافته إلى ابن الزبير فى السبب الأصيل الذى قدم فيه :
« . . . وأن تخلوا عثمان بن حنيف ، فيقيم فى دار الإمارة على ما كتبتم بينكم
حتى يقدم الإمام . . . »

فكان رد عدوه أن شخ بأنفه استعلاء وكبراً ، وقال له دون مبالاة ،
بلهجة من استيقن أنه بموقف يستطيع فيه الإملاء :

« لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى . . . يخلع طاعة على . . . »
هكذا . . . ؟ برج إذن الخلفاء ، وكشف الحزب عن مراميه ؟ وما حديث
إطلاقه الأسير إلا حيلة أريد بها تشييط الناس ؟ . . . وما هو أيضاً بمغادر قيده
إلا أن يشتري حريته بخيانة مولاه ؟ . . . وكذلك كانت غايتهم من خروجهم
ابتزاز سلطان ابن أبي طالب وإن طالما ستروه بدعوة الثأر لعثمان ؟ . . .

وصاح حكيم ، عند هذا ، محنقا غاية الحنق وهو يراهم ينحدرون بأهل بلده
من خيانة إلى خيانة ، ويغرونهم أن ينكثوا مواعيقهم ويبيعهم ، آونة بالمال وآونة
بتجنيبهم ذل الأسر وسياط النكال :

« والله لو أجد أعواناً عليكم أخطبكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى
أقتلكم . . . »

ثم ألقاها نظرة استفزاز إلى الجموع التى سعت معه لهذا المكان كأنه يشعل
دماء رجولتها ويستثير نخوتها أن تقول : « ها نحن أولاء . . . » فلما رآهم

تلهبوا بغضبهم واستجابوا لحيته المشبوبة ، رد عينه ثانية متأورة بكجرة إلى وجه عبد الله ، وعاود حديث التحدى والاستنكار :

« . . . والله لقد أصبحت وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا !
أما تخافون الله ؟ . . . بهم تستحلون سفك الدماء ؟ . . . »
« بدم عثمان بن عفان ! »

« فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ . . . »

فكانت الحجة الدامغة التي تخرس السنة المكابرة والجدال . . . أم يسع ابن-الزبير أن يزعم أن مذبحه المسجد ، وصرعى القصر ، وقتلى عبد القيس ، كل أولئك كان ثأر عثمان ؟ . . . إن أباه ، وطلحة ، وعائشة وأعوانهم أجمعين راموا قاتلا فرموا بنصالحم ماث لم يكن بينهم ذلك القاتل الذي وقعت على رأسه دماء الخليفة الصريح . . . أفهذه عندهم عدالة القصاص ؟ . . .

ورفع ابن جبلة بصره إلى السماء يشهد الله :

« اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ! . . . »

والتفت إلى زمر رجاله خلفه ، وقال :

« أيها الناس . . . إني لست في شك من قتال هؤلاء ، فمن كان منكم في شك

فليرجع ! . . . »

وكانت كلماته هذه نفخة البوق التي آذنت بالقتال . . .

٦

شجاعة ابن جبلة وحدها هي التي أدارت المعركة ، وشبتها نارا تلتظى على عدوه . من بدء دخول عائشة وأصحابها البصرة كان الرجل يتعرق شوقا إلى لقائهم في ساحة وغى يحتكون فيها إلى منطلق الأسنة . لم يبال قط بأن يكاثروه بحافل عجيشة تبدو قواته أمامها كبقايا الطلل أو كظلال الدارة بين متاهة الفلاة . الموازنة بينهم وبينه لم تدرك بخلافه ، ومراجعة الأرقام لم تطف يباله وهو يعشق حسامه

ليضرب في صفوف مرصوفة متكثلة كأنها كسف الغيم . عاطفته هي التي كانت تعمل ، وعقل وراءها عقله . وعندما أشهر سيفه في وجوه أصحاب الجمل ذلك اليوم برحبة مدينة الرزق ، لم يقدم في خاطره إلا أنه يهز منجل حصاد . . . نعم فقد وجب عليه أن يقطف هذه الرؤوس التي خرجت لفتنة ، ومضت على وجوهها كل هذه المراحل الطويلة من بطاح مكة لسواد البصرة ، وهي تروم أن تنكث وتنقض وتقوض دعامة الخلافة التي شادها الإمام . أليس الدفع عن دولة على في الله وما بايعوا إذ بايعوه سوى الله ؟ . . .

لم يعن حكيم قط بأن يتفكر في أنه بحيال آلاف وآلاف من الرجال المزودين بخير العتاد والسلاح ، وهو في ثلثمائة من الأعوان فحسب . ولكنه كان قائماً في حق ، فيحسبه أن يسنده إيمانه . وليدع لهم كتابهم للمبأة تفرقه لو شاءت في خضمها العجاج ، فلعله يستطيع أن يغالب سطوة اللجة ويشق جبال هذا الطوفان .

والتحمت الأسمنة . كل فرد من أعوان الجمل خرج يهز رمحاً في وجوه هذه الطائفة الصغيرة ، ويضرب ويجول . حتى طلحة خرج ، وحتى الزبير أيضاً ، كأنهما يقومان لجيش عات عديده الألوف . بل قد رتباً لها الفرق ، وقدماً عليها القواد : أربعة زحفوا جادين إلى تلك الفئة المستضعفة بعددها ، القوية بعزمها ، كان طلحة أحدهم ، يقود كتيبة في وجه حكيم . ولكن هذا لم تهله الكثرة المتدفقة ، ولم ينخلع لها فؤاده ، بل قابلاً ثابتاً مالكا جأشه وسيفه ، شعاره أن يهزج فيقول :

« أضربهم باليابس ضرب غلام عابس

من الحياة آيس ! »

فلقد قدم الوفاء على الدماء . ورمى بحياته رخيصة على مذبح إيمانه . . .

كان من البدء يعلم أنه لن يقوم لكل هذه الجموع الزاخرة من جند المنتصرين ، ولن يستطيع دفعاً لأداتهم الحربية الرهيبة أن تطأه وتدهس أعوانه القلائل وكان أيضاً عارفاً بخنجات أنفاس أولئك الخصوم ، علياً أن لواءهم الأكبر الذي التفوا به وما يزالون هو عائشة بنت الصديق ، فلو سقط ذلك اللواء — لو فقدوه وهم في عنفوان المعركة إذن لأخذتهم الرهبة وتبددت شجاعتهم وقد غدوا وليس

أمامهم ما ينضحون عنه إن تقديس السيدة كان وحده يمسك عليهم وحدثهم ،
ويشير في دمائهم الحمية ، ويحبب إليهم القتال . . . الله يعلم إن كان حكيم قد أراد
في هذه الآونة أن ينال عائشة بسوء ، أو أزمع معيه إلها ليأخذها رهينة ثمينة
يستطيع أن يبادل بها قومها صلحا مشرفا يرد للإمام شوكرته بالبصرة . ويعيد
سلطانه المسلوب . . .

ما إن نشبت المعركة حتي اندفعت طائفة من أصحابه إلى دار أم المؤمنين عند
رحبة مدينة الرزق لتفتحهما على صاحبتهما الآمنة بعض الأمان . إنها بغير ريب
مجاز أولئك القلائل إلى النصر ، وأملهم الباقي لإفلاء الهدوء على بلدتهم وعلى أمتهم
على السواء . ولكن بابها كان أمنع من أن تعصف به تلك الحفنة المهاجمة وتقض
رتاجه ، فدونه كانت صفوف من الأولياء من قيس والأزد والرباب ، كلهم وقفوا
يردون عنه العوادي ، ويتمثلون في دفاعهم عن الدار أن وراء جدرانها الصامته
امرأة لها قداسة أن لاذت أعواما بكف رسول الله .

وأخذت المعركة بعد قليل تميل جذوتها إلى الخمود عن التأور والاحتدام .
وشهد باب عائشة حينذاك أجساما يقربها الطعن ، وراءها تتبعثر على الثرى في
جواره ، تحت ضربات سيوف أولئك الحراس الشداد . لم يغن إقدام هذا النفر
القليل عنهم شيئا ، ولم يؤخر قدرهم المحتوم . بات واضحا أن شجاعة ابن جبلة ،
وإن أبلغته مكانة الأبطال في الأساطير ، لم تعد مستطاعة أن تحمله على متن النصر
المأمول . وإنما تناولته الأسنة من كل صوب ، وتماورت صجبة ألوف من الأيدي
والوف ، تعتد إليهم بسلاح سطعت شفراته كومض البروق وحملت أطرافه الموت
الناقع . . لو كان أعداؤه جميعا عزلا لوسعهم أن ينالوه . ولو حصوه وصحبه
بدقئ الحصى والتراب لباغوا منهم الوطر . . . ولكنه مع ذلك لم يتقهقر قط ،
ولم يدر ظهره ، ولم تزل له الحنة ، بل ثبت بموطئه لا يرحه كأعما بنى فيه على قدميه .
وظل سيفه بكفه لا يكفه لحظة عن الحركة . . .

ثم آنت أخيراً اللحظة التي بدأت تحسم النزاع . . . ازدلف امرؤ من أصحاب
الجلل إلى حكيم ، قبالقضاء عليه تسكن نائرة اللظى الشبوبة . . . وعند غرة منه ،

أناه من خلفه ، وضرب بحسامه إحدى رجليه . فما أن مرق الحسام ثم ارتد حتى طارت الساق . أفرأى الضارب يا ترى أن حكما بنيان راسخ القواعد لا ينقض إلا إذا قوض تحته أساسه ؟ . . . كذلك حسب ، وكذلك أيقن يقينه واثلج فؤاده وهو يشهده كيف اهتز للضربة الصيبة حتى اختلجت كفه ، فسقط سيفه بين أشلاء الصرعى وساقه المبتورة ! . . .

في هذه الفترة الحازبة التي تذهل المرء من نفسه فتحيله كيانا من الألم الصارخ لم يهن جلد الجريح ، ولم تتخل عنه شجاعته المثلى التي يميز شبيها في بطولة الأساطير . . . لوى عنقه في التو إلى غريمه ، وألقى عليه نظرة صارمة استوعبت حقه المرير . قلعلها استقبلت في نظيرها أخرى سودتها الشماتة وبسمة سخرية وآراء طافت هنية بشفق حليف الجمل إذ رأى موتوره أعزل لا يملك أن يرد عليه ضربته . بل عساه استشعر أيضاً الرثاء حتف رغبته ، هذا الضارب الصحيح المنتصر ، وقد شهد حكما يعل كمن مادت به الأرض فيوشك أن يهوى من تخاذل وإعياء . . . أمن إعياء . . . أحقا أوشك الجبار أن يتخذ له مرقداً بين الأشلاء إذ هو حطام ؟ . . . إن لمح الطرف لأوسع فسحة من أن يضيق عن الحركة المباغطة التي آتى بها الجريح ، ففي أقصر منها كان قد مال ، ثم رفع ساقه المبتورة ، ثم استوى كما استطاع الاستواء على ساق ، ثم رمى عدوه برجله البتراء فصرعه حيث كان . وقبل أن ينتبه الصريع كان الموتور قد وثب عليه ، وبالسلاح الذي لم يعد يملك سواه — بأصابعه ، راح يجهز عليه حتى اعتصر من بدنه الحياة ! . . .

وتريث حكيم هنية يلقف أنفاسه المبهورة ، وإن الرضا ليشيع على قسبات وجهه فيستر ألمه ويخفيه . بين الرءوس الطائرة والأشلاء المتناثرة ، وفوق أديم المعركة التي لم يكف فيها الصراع ، اتخذ على جثمان عدوه مجلساً له لم يقتعد أوثر منه قبل اليوم ؟ . . . وكانت نهكة الجهد قد نالت منه ، ودمه النازف من جرحه الكبير يجرى به ويبدأ ويبدأ إلى غشية قريبة ، بجرى الفلك بمن أضناه طول الإبحار إلى شاطئ ظليل فيه راحة واستقرار . ولكنه حتى في هذه العمرة

التي تشبه الوسن لم يذهل عن طبعه ، أو لعله كان يحلم بسجية الشجاعة وهو يهيم
أن يقيه في نعاس الموت . . . فراح يردد بصوته الضعيف ، ويرتجز نفسه
يزدهيها الفخار :

« ليس على أن أموت عار فالعار في الناس هو الفرار
والمجد لا يفدحه الدمار . . . »

وكانت به يقية من حياة عندما مر فارس من أعوانه وهو يمرقده ذاك ،
هتف به إذ رآه .

« حكيم ! . . . مالك يا حكيم ؟ . . . »

« قتلت . . . »

« ومن قتلك ؟ . . . »

فلم تغب عنه قوة جنانه ، وهو بموقفه الضنك ، ولم يتخل عنه مرحة فأجاب
وهو يتسم :

« وسادتي ! . . . »

فسارع الرجل يحمله إلى مكان آمن عليه مما هو فيه . والتف به بقية صحبه
الذين أخطأتهم الأسنة حتى الآن . فلما شهدهم حوله ، انتحل من حياتهم حياة ،
ومن قوتهم قوة ، وأمرهم فسندوه حتى وقف بينهم على رجل واحدة . . .
إن النصر قد فرحقاً منه ، ولكن النفوس تستطيع أن تحتزن الحقد أجيالا
طويلة ، وتتوارثه ، وتنقله إلى سواها كما تنتقل العدوى ، فما له لا يؤلب قومه
مرة أخرى على هؤلاء الغزاة العادين قبل أن يموت ، فتكون لكلماته الأخيرة
قداسة وصية واجبة الإنفاذ ؟ .

وأنصت له نفر الملتفون به ، وإن السيوف لتأخذهم فلا يتهيأ ولا يرمعون . . .
ومضى هو يقول :

« أيها الناس . . . إن خلفنا هذين ، وقد بايعا عليا ، وأعطاها الطاعة . . . »

ثم أقبل ، مخالفين ، محاربين ، يطلبان يدم عثمان بن عفان ، ففرقا بيننا ، ونحن
أهل دار وجوار . . . اللهم إنهما لم يريدا عثمان »

ولم يطل به الحديث ، فقد جمدت أنفاسه وحالت بين كلماته الباقية أن تبلغ الأسماع ، الموت أطبق بأصابعه الباردة على شفثيه وإن بقية حديثه ليلحقه ، فماتت ألفاظه قبل أن تولد . وعندما انجباب غبار المعركة ، وسكن صليل السيوف والسلاح ، كان الرجل اقي على التراب الذي رواء الدم ، إلى جوار أشلاء ولده الأشرف ، وأخيه الرعل ، وبين جثث أولئك النفر من فرسانه ، الذين ظلوا يصفون إليه حق اللحظة الأخيرة ثم تبعوه مسارعين في مجاز الموت كما قادم من قبل في دروب الحياة . . .

ومهما اختلفت الآراء فيه ، وتباينت نظرات من يفحصون فعاله تحت أضواء شق يشعها تغاير النزعات . . ومهما أنكر المنكرون عليه إزراءه بمائشة ، وقذفه إياها بهجر القول ، وسعيه أن يقتحم عليها بيتها — وهي امرأة لها من أنوثتها سياج ، دع ما يجب لها من توقير عند الناس . . . مهما يكن من أخطاء الرجل أو ما يبدو أمام خصومه كأه أخطاء ، فليس من ريب في أنه مضى مثلاً قذا لإنكار الذات ، والدود عن رأيه وإيمانه حتى ليعز أن يكون له شبيه في الرجولة بين الرجال ، وفي البطولة بين الأبطال . وكفاه أن آثر اعتناق الموت على أن يعيش مستذلاً ، ومستظلاً أفياء الدعة والتخاذل . فمضى لربه وما عزم عليه ، راضياً بموقفه : قريراً أن ناضل عن حرية شعب أبي له أن يركبه عدوه بالطغيان ويقهره ليدين بما ليس يؤمن به كل الإيمان . . . إن حكماً كان يرى في رجال عائشة جيشاً غازياً ، عادياً ، يهم أن يسود البصرة بقوة السلاح ، ويبدل شعبها بعهد النور والتحرر ، الذي يزغت شمسها وما كادت ، عهداً كله عسف وظلام . لهذا هب هبته وقام يدرأ النكبة بلسانه وقلبه ودمه . وما هي كلماته تحمل عقيدته وترسم نفسه التي لم تقر الخضوع والإذعان . . . دوت هنية في الآذان فصارت لواء التف به أعوانه ومن رأى رأيه ، وناضلوا عنه حتى نضال حتى غاض منهم معين الحياة . . . ولسوف تدوى مثيلاتها أبداً ما كان للحرية في هذا العالم صوت مسموع وما بقي لها على أديمه ناصر . . كان قد قدم قبيل المعركة يستثير هم ذويه ونخوتهم أن يظاهروه في كفاحه ودفعه الغزاة عن بلده الأبي الأمين ، فراح يهيب بهم ويقول :

« يا معشر عبد القيس . . اشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو . . فإما أن تموتوا كراما ، وإما أن تعيشوا أحرارا . . . »

فاستجابوا للنداء وماتوا وهم كرام . . . ذهبوا في سبيل الحرية ، صرعى ، ضحايا وقرابين . . .

ولكنهم كانوا ثغماً أرخص لمطلب ثمين ! فكم للحرية من شهداء ، وما أكثر ما يبذل من أجلها من فداء ! . . لم تكن دماؤه وصحبه آخر ما أريق ذلك اليوم على مذبحها المرموق . النصر الباغي لا يشبع نهمة ولا تكف أنيابه عن النهش ولا بلعومه عن البلع والازدراد ! . . فما أن أيقن أصحاب الجمل أن وسن الموت قد غشى ميدان الصراع وأنى فيه على كل خصومهم سوى قليل ، حتى تنادوا في أرجاء البلدة بين القبائل التي أفرعتها أنباء المذبحة :

« من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة ، فليأتنا بهم . . . »

فمن غزا المدينة ؟ . . لأن مصير سوف يساق هؤلاء يا ترى وهم مئات ؟ . . وبأى جريرة يساقون ؟ . . وهل غابت عن الزبير وطلحة أنه كان لهما فيهم أنصار طالما استعدوهم إذ ذاك على عثمان ؟ . . إن عائشة نفسها كانت ترى أيام ابن عفان للقوم — أولئك الذين قصدوا المدينة — لأنهم كانوا في عينها مظلومين ييغون رفع ظلاماتهم عند الخليفة ، ويجب لهم عليه الإنصاف ، فكيف تدعهم اليوم وتتخلي عنهم ؟ .

الهوى يبدل أسباباً بأسباب ويخلق ما يشاء من المماذير ! . . وها هو الرثاء ينقلب نقمة على مستضعفي الأمس المظلومين فتتنكر لهم نقوس من اتخذوهم لهم أنصاراً وأولياء من قبل . بغير هذه النقمة وهذا التنكر لا تستقيم الدعوة العائشية المنادية بالانتقام لعثمان . . وما أهون على طلحة وصاحبه من اصطناع ضحايا يكفرون عن خطاياهما في حق الشيخ حين يجب عليهما التفكير . . . أم حسبها الناس سيؤمنون أنها بريثان وقد شهدوا غيرها يناله القصاص ؟ . . كلا والله ، وقد أخطأ لو حسباه . . بل طلحة يغلم بأى شيء تلونت كفه في محنة عثمان وهو القائل :

« . . . كان منى فى عثمان شىء ليس توبقى إلا أن يسفك دى فى طلب دمة . . . »

ومع ذلك فقد آثر أن يسفك دم سواه ! . . . سوجىء له ولحزبه بأولئك القوم « بمن غزا المدينة ١١ » من أهل البصرة ، كما يجاء بالكلاب فقتلوا جميعاً أمام أعينهم ، لم يتسع لأحد منهم عذر ولا تبرير . . . الله وحده يعلم كم من مظلوم قتلوا وكم من برىء ، ويعلم أيضاً إن كانت نفعة أعوانهم عند هذا القصاص لم تتسع لكثير « بمن لم يغزوا المدينة » وإنما ألصق بهم قسراً ذلك الاتهام . . . إن السياسة على أى حال لها أسلوبها الخاص ، وليست بذات قلب وضمير ! . . . كفى بها أن أنالتهم ما ييغون فيها هى البصرة دانت لهم بعد طول تمنع وازورار ، وخضعت ولو تحت سيف الإرهاب . . . وهام أهلها يبايعون الصاحبين على الطاعة والخضوع . النصر الأكبر منهما الآن جد قريب ، يوم تدين بقية الأنصار . . .

وعلى ذلك بادرا وعائشة يرسلون الرقاع إلى الأقاليم تحمل نبأ ظفرهم وتدعو بدعوتهم ، التى تؤلب على الإمام ، أو تهيب بالناس أن يقعدوا من نصرته . . . كتبوا بهذا إلى الشام ، وإلى الحامة ، وإلى المدينة ، ثم إلى أهل الكوفة وهم يأملون أن يأتهم من كل أولئك نصير يشد أزهم ويعينهم على ما يريدون . . . ولكنهم كانوا يبدون بكتهم غير ما يخفون . حرصوا أن يظهروا أمام الناس كمن لا يبغي أرباً من سيادة أو سلطان ، بل هى نهضة لله تقتص للقتيل المظلوم . « . . . إنا ننشادكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرتنا ، وقضينا الذى علينا . . . »

فما كان أرقه من ستار يشف عما خلفه ! . . . فهذا الزبير ، لا يكاد يرفع يده عن كتبه هذه ، حتى يعضى بين أهل البصرة — أعوانه الجدد — يحفز ولاءهم أن يستجيبوا له فلا يكون كلامه إلا دعوة سافرة تكشف عن مبلغ طمعه فى السلطان . . . ينادى فى الناس :

« ألا ألف فارس ، أسير بهم إلى على ، فإما بيته وإما صبعته ، لعل أقتله قبل أن يصل إلينا ! . . . »

فتذهب دعوته الظلمة بدداً في الريح ، وبذهب معها اعتزازه بما أصاب
من نصر لم تخلق جدته الأيام

وما أسرع ما ينتاب الرجل الضيق والتردد . وإنه ليحس ، في ساعة تأمل
وقد خلا بنفسه ، أن سحابة من الشك تغشى بصيرته فلا يجيد تبين الأمور . .
اشتبه عليه موقفه وملاً قلبه التوجس مما هو فيه وما صيرته إليه الأحداث ،
حق ليهمس محدثاً نفسه :

« إن هذه لمي الفتنة التي كنا نحدث عنها . . . » .

فإذا أذن أخرى قد لقت همسه ، فيرتد عما كان فيه من شروذ الذهن على
صوت مولاه :

« أنسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ . . »

« ويحك ! . . إنا نبصر ولا نبصر . . . »

ثم هز رأسه في أسف وأردف يقول :

« . . ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر ، فإني

لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! » .

عزلة

بعد الصبر عن القصد . . .

في علاج الأنفس المنحرفة عن الجادة يستطب بالرفق فتستقيم ، وبالعظة الحسنة فتتقوى إلى الحق إذ تراها مشعلا يضيء أمامها فيكشف المفترق بين الضلال والهداية . . بين عماية الباطل ويقظة الصواب المنير ، ولكن الذين أغواهم هواهم ليس يهديهم من غي راشد ، ولا يميّط عن قلوبهم أكنثها . . الأرب الذاتى وحده غايتهم ، إليه يسمعون ، على الصعب والدلول ، بأى وسيلة وظهر ، ومن أى سبيل ، إن الطريق تزين لهم في غلالة من الضوء رقيقة هي أشبه بلعة الفجر الكاذب في جانب السماء وإن حسبوها بشير الإصباح . المنى الآن حياهم بارقة ، لها سنى بانت تحته الدارة المنشودة فيها مياه وظل ظليل . والمرحلة الباقية قصيرة ، خطوات ثم يبلغون ما يشتهون . أفيلقون ثمة جنى وغصونا وارفة فينانة أم هي يا ترى خفقة السراب ؟ . . .

إن هذا لوهم المخدوع عن بصره وعن بصيرته ، فقد جمعت بهم مطايا الغايات وهاموا في فلاة يختلط فيها انعكاس السراب بفراغ كأنه التيه . جاوزت بهم أمانهم القصد ، نأت عنه كما نأت الصبر بالإمام . عندما ترفق بهم ونزع إلى الحسى كان صبره عليهم في الله ، وللوطن الذى شاء من أجله أن يهل لدعاة الانقسام عسى أن يكون في إمهاله إيائهم علاج ما بنفوسهم من انحراف . أما اليوم فقد عرف أن داءهم عزيز على دوائه فليس له أن يدعهم إذن عدوى تصيب الباقين . نصرهم بالبصرة — وإن جاءهم على متن القدر — حرى أن يفتن ضعاف النفوس بغيرها من البلدان وما أكثر ما يحسب الخلق الحق في جانب الظاهر . وإذا كان قد أمهلهم بالأمس فقد وجب الآن أن يعالجهم حتى لا تسير الأقاليم الأخرى على آثارهم في درب الفتنة . فكم بها من متربص يهزه جشعه للسيادة أن يغامر بالانتفاض على إمرته وهو لا يهدف ، إذ يفعل ، إلا إلى إرضاء شهوة خاصة ، أما خير وطنه ودينه فتلو مشتاه . . .

على الإمام الشخصوس إلى مباءة العصاة ليثد هناك فتنهم . وليلحد في حلبة نصرهم قبرا يضم مطامعهم . إن لهم في جمبته لدواء ناجعاً يشفي من أدوائهم العvisة ما عز على الموعظة والترفق — لهم عنده العنف ولهم السيف ! ... ومع ذلك فلم تبرح الرحمة قلبه قط ، بل كان دائماً أقرب إلى الرئاء لهم من هذا الغى الذى سدروا فيه ، وظل يرجو أن يتغلب التبصر فى نفوسهم على الطيش فيبقى السلام ويلتئم صدع الإسلام . وما كان عدوانهم على البصرة ، ولا سومهم أهلها الحسف بذلك الإرهاب الذى اختطوه ، لينزع من قلبه الرجاء فى عطفهم إليه باللين والهوادة . وحين جاءه ابن حنيف وبوجهه آثار مثلتهم كتم فورة غضبه قدر وسعه حتى لا يثير لواءج الألم فى نفس الوالى المغلوب ، وتلقاه قائلاً فى دعابة :

« انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب . . . »

ثم ربت ظهره مواسياً وقال :

« ... أصبت أجراً وخيراً يا عثمان . . . »

ومع ما بدا من تهوينه شأن هذا العدوان فلم يغفل عما قد يحىء فى أعقابها من أخطار لو ظل مستمسكاً بصبره . ولكنه كان من أمره كالضلع ، يرى الخطر تحت قدميه ولا يملك رده . فما زال ينقصه مزيد من الرجال والعتاد ولو أن امراً آخر كان مكانه لما أبى نصرة القبائل التى أتته دراكا تعرض نفسها عليه أن يقبلها فى جيشه ، أما هو فقد بقى وفيال رأيه الأول لا يحيد عنه حتى يظل نقى الصفحة أبداً ، نائياً عن اقتحام الشبهات . ولكم غل يديه استمساكه بهذا المبدأ وتركه رهينة رأى أبى موسى الأشعري والى الكوفة الذى لم يكفه القعود عن نصرته بل راح يحض أهل إقليمه ألا يلحقوا به ولا يعدوه بالرجال والسلاح . فما كان أعجب موقف الأشعري للتخاذل ، وأتمس به من نصير ووال . . .

كم حز فى نفسه أن تثبط همة الكوفة عنه ، هى التى آثرها بحبه على بقية البلاد وشاء أن يتخذها رداءً له وللوطن يدفع عنهما غائلة العصاة . وكما عانى إذ ذاك من قلق الانتظار . لقد أرسل يستمدها مرة ، ثم ثانية ، ثم أخرى فما بالها لم تلب دعوته ؟ . آفتها دون ريب واليه ، فهل من عجب أن تحوم حول الأشعري

الشكوك حق ليحسبه الناس ضالعا مع الأعداء ؟ . . لم تجد الرسل ، ولم يغير العامل العاصي موقفه . وهذا محمد بن أبي بكر يعود من الكوفة ولا جند وراءه ، ويخبر الإمام كيف خبر بنفسه حقيقة دخيلة أبي موسى فاستيقن أنه تكرر لأدنى واجبات الولاء . . . كان محمد قد مضى بكتاب من علي إلى الوالي يستنفره فيه وأهل إقليمه أن يوافقوا جيش التأديب بذي قار ، فلم يلق عند الأشعري أذنا سميعا ، وعندما بلغ الناس قدوم رسول الإمام ذهب وجوههم إلى عاملهم يطلبون منه الشورة :

« ما ترى في الخروج ؟ . . . »

فقال دون مبالاة :

« كان الرأي بالأمس ليس باليوم . إن الذي تهاوتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون . . . »

ثم أردف يبت فيهم التخاذل فقال :

« . . . إنما هم أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا أيها الناس ! . . . »

فكان من الطبيعي أن يثاقلوا عن دعوة الإمام بعد هذا الرأي الذي ساقه واليهم الحصيف ! . . .

وعلم محمد بما كان من الرجل فأسرع يجادله في الأمر . ولعله ذكره بما عساه قد غفل عنه أو أغفله من وجوب امتسাকে بالولاء لأمر المؤمنين في هذه المحنة التي أوشكت أن تنزل صرح الإسلام . ولكن أبا موسى تشبث بعناده . وبدأ كأن قد حزم حزمه على القعود ، وعلى تثبيط الناس ، وعلى عمل كل ما هو كفيل بفعل يد الإمام عن قمع الثوار . لم يصغ للنصح ولم يلبن أمام غضب رسول مولاه . بل ظل بموقفه المعجيب لا يتزعزع عنه . . . وكأنه أراد أن يبدو في عيني ابن أبي بكر كمن يخشى على الحق أن يضيع ، ويحرص على العدالة لتسير في نهجها ، فقال بعد قليل يبرر مسلك العناد الذي التزمه :

« والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبك . فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . »

فهذا ترديد لقول قديم نطق به طلحة والزبير عقب بيعتهما للإمام ! . . فبأى عدة ياترى يستطيع الفراغ من قتلة عثمان وئمة أحزاب شتى كلها يدعى لنفسه الحق في القصاص ولا يدفع إلى يد الحاكم الشرعى للدولة بمجندي واحد يستعين به في إنفاذ العدالة في أولئك القتلة المطلوبين ؟ . ومن كانوا الجناة المخضبة أكفهم بدماء الخليفة القتل ؟ . . وكيف يساغ أن يطلب من الإمام الثأر لعثمان وقد تفرق دمه بين القبائل وأهل الأمصار بل الطائفة التي نهضت تدعى لنفسها ولاية الدم ؟ . . إن العجب كل العجب أن يسألوه الاقتصاص من كل أولئك الجماهير ثم يضمنون عليه بالسلاح الذي يقابلها به ، وبالجند الذي هو عدة من يريد إقامة حق ودحض باطل ليس إليهما من سبيل إلا بقوة السواعد وشد السيوف .

لقد أوشك الأشعري بمسلكه أن ينحاز لأهل الفتنة المنتفضين على الإمام . وهل كانت فتنهم سوى عصيان يكاد الرجل أن يقرم عليه ؟ . وعلى لهم فيه ؟ . . ويغري غيرهم بتأثر خطاهم المريية ؟ . . فتقاعده عن نصرة مولاة مكن لهم في البصرة ، وهو كفيل بعد أن ينيلهم أربهم في البلدان الأخرى مادام على لا يملك ردهم عما يريدون . لا ريب كان مفتاح الموقف كله في يد أبي موسى تلك الأيام لو شاء خذل أو شاء نصر . وكان فيما يبدو يستشعر هذه القوة التي جاء بها زمانه وأصبح من طريقها قواماً على مصير الدولة ، فظل طويلاً يستمتع بما أضفته عليه من اعتزاز بنفسه ومقداره ، وغلا في عناده ما وسعه الغلو والتيه فراح يلوى جيده عن رسل الإمام الذين ما فتئوا يقصدونه تباعاً ليستجيب لدعوة أمير المؤمنين . . قصده ابن أبي بكر وابن جعفر ، ثم من بعدهما عمار بن ياسر ، والأشتر ، وابن عباس ، والحسن سبط رسول الله . وكانوا جميعاً نخبة من خيرة الناس تفتتح أعصى المغاليق والأبواب لكلمة تند منهم إلا باب قلب الأشعري المفتون بالعناد . فما زال الرجل ممعناً في غلوائه ، أو في عدائه ، حتى ضاق عنه صدر على الذي لا يضيق ، وكتب له يقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولي عليك قارفع ذيلك ، واشدد مئزرك ، واخرج من حجرك ، واندب من معك . فإن حققت فأنفذ وإن فشلت فابعد . . . وأيم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخثارك ، وذائبك بجمامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذر من خلفك . . . وما هي بالهويني التي ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى ، يركب جملها ، ويذل صعبها ، ويسهل جبلها ؛ فاعقل عقلك ، واملك أمرك ، وخذ نصيحتك وحظك . . . فإن كرهت فتتح إلى غير رحب ولا في نجاة . . . والله إنه لحق مع محق ، وما نبأ بالما صنع الملحدون . »

أفكان التفشل أو الجبن هو وحده باعث تقاعد الأشعري عن نصره الإمام . . ؟ على ترفق غاية الترفق بواليه العاصي ، الذي خذله وخذله عنه فلم ير في خطابه أن يرميه بالخيانة ، واكتفى بأن رسمه خواراً ضعيف الرأي قصير النظرة بالغ التردد ، يتشابه عليه أمره حتى لا يدرى أين يجب عليه أن يضع قدميه . ولقد تجتمع الآراء في نظرتها لهذا الرسم وتتفق غاية اتفاق ، ولكن منها بغير شك ما لا يحرم الوالي صفة أخرى هي التنكر لطاعة الإمام وبعده عن الولاء له . هذه الصفة كانت ثوباً لنفس أبي موسى لم تخلعه في أخرج المواطن وأدعاها إلى الاستجابة للوفاء والنصرة ، بدت جليلة خلال محنة البصرة ، وستبدو من بعد أجلى وأظهر حين يسخر القدر سخريته المرة فيجعل من الأشعري ، الذي لم يؤمن قط بحق مولاه ، صاحب الكلمة الفاصلة في هذا الحق عند التحكيم . . .

على أنها كانت محنة اختيرت فيها نفوس الرجال فنضج إناء أبي موسى بما فيه . . . وقد آثر الرجال أن يبقى بموقفه ، تماماً كالأتان الحرون ، وإن ألحبت ظهره من ألقاظ أميره سياط لساعة . . . وإن تناوبه الرسل بالحث واللحى والوعيد . فلا أمر كتبه كان مسلكه ، أو كان من غفلة لا يصلح معها أن يؤتمن على ولايته ولا ثقة مولاه . . . وعندما يبين الوقت فسوف نراه ، ليس بحسب ذلك العامل العاصي الغافل ، بل الأداة القاطعة التي سدد القدر حدها لدولة الإمام .

العزلة . . .

هذه هي السياسة التي شاء أبو موسى الأشعري أن يحمل عليها أهل إقليمه ، وإنها للفظ هين رقيق يرسم صورة لنواياه لو استطعنا إحسان الظن بما يطوى عليه خاطره وأغفلنا مابدا من تنكره لواجب الولاء لأميره وفي عنقه بيعة توجب عليه هذا الولاء . ولكن الرجل رأى رأيه ، وحط سبيله ومار قدما فيه . وهو بهذا يوشك أن يكرر مرة أخرى نفس المأساة التي وقعت في العام السالف بمحاضرة الإسلام ويلعب دور ذلك الفريق من الصعابة ، الذين تقاعدوا خلال محنة عثمان في وقت دعوتهم الدواعي فيه إلى عمل إيجابى حاسم ، وآثروا التأني بأنفسهم عن تناول الأمور حتى أبرم القدر قضاءه في الخليفة الشيخ . . . فلو أدلوا بدلوهما إذ ذاك ، ومضوا وما تفرضه عليهم مكاتبتهم بحساباتهم ردوس الناس ، وواجبهم من نصر الحق أو كبح الباطل فربما وسعهم يومها أن يكتبوا صفحة أخرى في التاريخ أنقى وأظهر ، لا يلوث أديعها مداد الدم ، ولا مستطاعوا أن يدفعوا عن عثمان عادية الفتنة ، أو يحملوه على التزام السبيل السوى فيجنبوه مصرعه . وها اليوم يعيد الأشعري قصتهم ، ويرد ما كان من تواكلهم ثانية إلى الحياة وهو ينأى بنفسه وبأهل إقليمه عن أميره كما ينأى الناس عن راع استصرخهم على ذئاب جياع . . .

وكان رأى أبي موسى أن يدع الراعي ويدع الذئب ، لا يعدو من أجل فريق منهما على فريق . . . جماع سياسته كان هذا القعود وأمر العادي والمستصرخ كليهما للأقدار . فتنه الاعتزال شر افتتان لا نحسبه يحىء إلا عن غفلة تجاوز كل الغفلات ، أو عن مكر سيء يراد من ورائه أن يشتبك الأمر وينتقض على أمير المؤمنين . ولقد كاد الخطب يدهم ، وأوشك أن يطلع عواقب وخيمه ؛ فما هز هذا شمرة في لحيته ، وما دفعه قط عن سياسته السلبية ، بل ظل ودأبه ، يحض أهل بلده أن يقعدوا مثل قعدته كأن الأمر ليس بغيره . وكأن كل ما في

جعبته من علاج للداء الموشك على الأخذ بخناق أمته من وراء الحلاف المشبوب هو ما تحمله هذه الكلمات :

« . . . أغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار حتى تنجلي هذه الفتنة . . . » .

فالدولة إذن والأقدار إن شاءت مالت بها إلى يمين أو طوحت بها إلى يسار . . . مصير الأمة الإسلامية كلها كان لا يساوى عنده خطوة يخطوها في توفيق أو سيفاً يسله في دفاع ونصرة . . . لا عمل سوى ألا يعمل ! . . .

فما أعجب أن تكون هذه هي الخطة التي ظنها تودى لخير . . . أم كانت عزلة حقيقية لا ترجح كفة جانب من الفريقين ؟ . . . الأشعري هكذا آثرها ، وقام يبشر بها بين الناس كأنها حيدة صريحة أمينة لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من الطائفتين اللتين ثارت أو كادت أن تثور بينهما الحرب الأهلية . وحين تحسن الظن بالرجل قد تراها برأى عينه ، والكنك لو فكرت قليلاً لكنت تنكر على المصادقة وحدها أن تضع في فيه لسان يفاء يردد نفس كلمات عائشة أو يكاد . . .

نعم وإنك لحق في هذا الإنكار ، أو متردد — في القليل — يجتذبك الشك وتلعب بك الريية ، فما تستطيع أن تنسى أن بمثل دعوته دعت عائشة من قبل وبشت بكتبها إلى أهل الكوفة عقب انصياح البصرة لطاعتها عنوة بعد ما لفها جيشها في وشاح إرهاب . . . كتبت إذا ذاك إلى بلدة هذا الأمير تقول في خطاب لها طويل !

« . . . فبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، وجلسوا في بيوتكم . . . » .

وبمثلها أيضاً بعثت إلى طائفة من رجالات هذا المصر ، تحضهم على القعود ، وجرت هكذا رسالتها إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبي بكر . أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد ، فإذا أتاك كتابي فأقدم فأنصرتنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي » .

فلصالح من كان هذا التخذيل ؟ . . وإذا كانت السيدة لم تجد في زيد لساناً ناطقاً بدعوتها فها هو الأشعري يرفع بها عقيرته ولا يكف لحظة واحدة عن ترديدتها وصيها في الآذان . كان دأبه الدائب أن يثبط الناس عن مولاه استجابة منه — على أهون افتراض — لخطته التي سماها سياسة الاعتزال .

ويعر الوقت . وتستطير الفتنة فلا تنحني مغبتها الخطرة عن ذي عيني ، منذرة بشر مآل ينتظر دولة الإسلام ، وآخذة بين يوم ويوم من هية الرجل الذي أقسم له عين الولاء ، ومع ذلك فما ينفي أبو موسى يسدر في غيه ، ويعمن فيه أيعا إمعان . بل هو يكلف بالحرص على هذا الإصرار فلا يزحزحه عنه شيء ، ولا يردده إنسان . وكلما جاءه رسول من الإمام يهيب به أن يندب الناس ، بدا كأعما في الإهابة ما يغريه بالالج في عناده . ولا يكاد يعصى عنه ابن أبي بكر يائساً من استمالته ومن هدايته ، ويقبل ابن عباس مبعوثاً جديداً من قبل الإمام ، حتى يعاوده كلفه بالتثييط هذه المرة أعمق وأشد ، فيردد ما كان قد سلف منه لاجموع وإنه ليصطنع لنفسه في خطابه الجديد مقاما يجعل لحديثه عذوبة في الأسماع اسعده كيف قام يقول :

« يا أيها الناس . . إن أصحاب النبي الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ! . . وإن لكم علينا حقاً ، فأنا مؤديه إليكم . . . »
فهو إذن أبصر بالموقف ، أعرف منهم بالحقائق الخفية إذ كانت له بالنبي صحبة وله إذن عليهم السمع ، ولقوله فصل الخطاب والقطع ! . .

وكرة ثانية يلم بحق عثمان على الناس إقامة يغلفها التلميح دون التصريح ، ويشير بها هوناً لما اجتريحه الشعب في ولايته التي ما كان لامرئ أن يخلعها أو يخذلها وهي منحة من عند الله آثره بها دون سواء . ثم يعصى وحديثه المعاد للمهود . فإذا به الآن لا ينسى أن يضمه دعوة أخرى إلى جوار دعوته السالفة إلى التخاذل والتمرد . . . يقول وهو يستأنف الكلام :

« . . . كان رأى ألا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا على الله . . . وكان
الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم
أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ! . . . »

ويحار الذهن أشد حيرة وأبلغها حين يحاول أن يستقصى المعنى المستر وراء
هذه الكلمات . إنها لتتضم على بنى سافر على حق أمير المؤمنين وتكاد تجأر
بوجوب نقض بيعته التى تمت عن رضا من وجوه المسلمين واختيار حجة الأشعرى
فى هذا أن ثمة طائفة لم تجتمع بعد على على ولم تدن له بالطاعة وإن علمها العامل
المشاق قد نكثت عهدا السالف وحثت بيمين الولاء . وإنه ليسدر فى بغيه حتى
الغاية ، ويعضى ودعوة تخذيله وانتفاضه إلى حد أن يشترط ثمة لاستجابته لأوامر
الإمام — أى إمام كما يلوح ! — أن يتفق على تأييده كل الناس ولا يتردد أحد
منهم فى الادلاء بالبيعة له . فما أعجب أن تكون هذه هى نظرة الرجل إلى إمرة
أميره ، وما أدلها كلمات فضحت نواياه . . . أم يعوز المرء أن يتلمس أبلغ منها
دلالة على رأى الأشعرى فى ولاية على ، وهى ترسمه لنا مستهيناً بها ، لا على احتفال ،
يرى نفسه فى حل منها لو شاء ، وخاصة وما غفل قط عن الإعلان بأن بيعة عثمان
ما زالت فى عنقه ! . . .

من العبث أن نصطنع العذر المقبول الذى يكون تبريراً لما قال . فما يستطيع
أحد قط أن يكون مخلصاً ظاهر الولاء لمهد ثم يخلص فى ذات الوقت لمهد آخر
قام على أنقاض الأول . وقد يصح هذا لو لم تنتثر ثمة ثغرة بين المهدين تباعد أحدهما
عن سابقه وتضرب بين أنصار كليهما بالعداء والخلاف . فلائى الحزبين كان
أبو موسى يعيل ! . . . ولدولة من من الخليفين يهب تأييده ! . . .

الجواب الصريح نضحت عنه ذات الخطبة التى ألقاها والى الكوفة ، ذلك
اليوم بمسجدها ، فى حضرة ابن عباس . إن الدعوة الأخرى التى راققت دعوة
القيود ونادى بها بين سامعيه . إنه رأى الثانى الذى قوامه : أن يأخذوا من
قدم عليهم من المدينة فيردوهم إليها . . .

من قدم من المدينة ؟ . . لو قد جرت الأنباء بأن طائفة من خصوم الإمام همت أن تنزح إلى الكوفة أو تزحف إليها بجيش لوسعنا فهم دعوة الأشعري . ولكن هؤلاء الخصوم ، وكلهم لعائشة شيعة حتى الآن ، أتوا من مكة لم يخرجوا من المدينة ، وساروا صوب البصرة دون غيرها من البلدان ، فليسوا إذن من عناهم الرجل . ولو مشيت فرق من الحزبين المصطرعين تؤم أرض إمرته لاستطعنا أن نسيخ دعوته على ضوء افتتانه بالوقوف منهما معا موقف حيدة واعتزال ، ولكننا أيضاً لم نسمع قط بنهر جاهر علماً بالعصيان أو شك أن يتخذ من الكوفة ملاذا ودار هجرة أو تأليب . فمن كان إذن أولئك القادمون ؟ . .

ما كان ليكفي الأشعري أن يحذل الناس عن علي جريا على السياسة السلبية التي اختطها لنفسه لأنه بات لا يرى الجدوى إلا من وراء عمل إيجابى حاسم يقوم به ، ويحض أهل إقليمه على مظاهرتة فيه . وكان هذا العمل وقوفه حجبا حاجزاً بين « من قدم من المدينة » وبين الكوفة يردهم عنها إلى دار خروجهم حتى يجمعوا أمرهم على إمام ! أى إمام ! فليكشف لنا إذن نواياه ، وليبد لنا من سياسته سوائها البغيضة فيدفع عن بلدته أنصار مولاة الدين قدموا وخدم من المدينة ويردhem أن يلوذوا بحماه . أم يا ترى نعمة غير على قد تنادى بالأياذ بالكوفة وقد كتب إلى أهلها عقب خروجه من حاضرة الإسلام كتابه الذي قال فيه : « إني اخترتكم والنزول بين أظهركم » ؟ . .

فهى إذا سياسة عدا متصلة الحلقات دبرها هذا الوالى العاصى ليصاoul بها أمير المؤمنين . بدأت بالدعوة إلى الاعتزال الظاهر الذى يخفى خلفه العصيان ثم سارت حتى بلغت منه ذروة الجحود والتسكر ، فطوعت له نفسه أن يصد مولاة عن بعض أرض ولاياته ، ويحرم عليه دخولها كأنه طريد . . . فهل ترى أراد الأشعري بدعوته ، وبث سمومهما بين أهل إقليمه ، أن يهيب أذهانهم بعد تشييطهم عن الإمام إلى شنها حربا شعواء عليه ، حين تتوافر لدى الداعية الأسباب وتسبح فرص الأيام ؟ . .

دخيلة قلب هذا الباغي يعلمها الله . . . ولكنك تعجب غاية العجب لو كنت تصفى إلى خطبته حتى لتكاد أن تنكر على أذنك ما سمعته . . . أما هو فقد سار وشأنه ، هادئاً في غير استحياء ، ينفث سمه الناقع ، وينفخ في رماد نار سوف نشب عما قليل ، وإن دخانها ليكاد أن يتخلل شعيرات لحيته فيصبغها بالسواد ، لو أنك أوتيت من رأى العين مثل حدة الخيال .

٣

في بدء المحنة ، ظل شعب الكوفة مبقياً على هبة أميره . لم يجاهره رجل فيها باستنكار السياسة التي جهد الوالي جهده لإنفاذها حتى الغاية . ولكنه كان إبقاء لا يستجيب لدافع غير ولع الناس بالدعة وإيثارها على الحرب بما هي حقيقة أن تجره من دماء ودموع . أما الولاء فما نحسب امراً بالبلدة كان يضر سواء للإمام . بل ثبتوا على عهدهم منه ، وعلى نظرة الإكبار التي كان يقتضيهم إياها ماضى على ، ومقامه من محمد ، وحسن بلائه في الإسلام ، ومزاياه الخلقية التي يكاد أن يتفرد بها وتؤهله لإعزاز الدولة . والدين ولو أتبع لهم من البدء من يهز عواطفهم الكامنة بالقلوب إذن لاندلعت لهباً وفاضت حكم البركان في ثورته تجتاح أمامها كل ما يعترض سبيلها من دعوات التخذيل وصيحات المشبطين .

ولكن سحرهم من أميرهم دعوته الخلافة ، فما ينكر أحد ولا يكره نداء السلام وقد كاد أبو موسى أن يدخل أذهان الناس داعية سلام ، يبشر بمحقن الدماء وإحلال الأخوة والصفاء في مكان العداء والخصام . وأقبل القوم في البدء يصغون إليه ، وتخدر عقولهم بحديثه الناعم . ولكن الزمن كان من عداته يتربص له ، ويؤخر أيامه ولياليه لسحق خطته ، وردّها في نهاية الأمر شراً عليه ، ففي كل لحظة كانت الحقيقة الخافية وراء معسول اللفظ تتبلج لدهن من الأذهان وتلتهم كرمضة شعاع . وبكل ومضة كان الوالي المتمرد يفقد أذناً كانت من قبل مصيخة لتناديه . ولئن بقى القوم زماناً مبقين على هبة الرجل بينهم لا يردعونه

جهره عما افتتن بالقيام فيه فلا أن مشاعرهم الزارية عليه لم يتح لها المحرك المثير . .
على أن يوم النكس لم يغب طويلا . طلعت شمس وأبو موسى قد أمن إشراقها
على أرضه لفرط ما آمن بجذوى دعوته . لم يظن قط أن عصاه السحرية لن تعود
أفعى حية . . .

كان سلاحه الذى ضرب فى الميدان هو الإعادة ، يتحدث برأيه ، ثم يتحدث ،
ثم يعيد التحدث ما وسعه أن يعيد . وكان فى هذا عزيز الضريب فلم يكف لسانه
قط عن التخذيل ، ولم يعل تثبيط الناس . بدا كأن قد وكل بهيبة الإمام ينتقص
منها ويغرى شعبه بالانتقاص . فلملك لا تلحق الرجل كل اللحن وقد علمت مدى
إيمانه ببيعة على وبحقه عليه من الولاء والوفاء . غير أن القوم لم يظلموا عند ظنه بهم
ولم يظل أمامهم صاحب النصح الذى يبصرهم بمواطن السلام ليلتزموها فيحققن
دمهم أن يهراق . بطل اليوم سحر دعوته . وأخذت غشاوة البصائر تنجاب عنها
قليلا قليلا حتى راحت الشكوك فى نواياه تنتهب الأنفس . وبدلا من أن يصغى
الناس إلى دعوته الحبيثة فى سكون ويلقفوها إذ هى من لسان صاحب لرسول الله
أعلم منهم بالحقائق المغيبة ، راح همس الحيرة يتنقل بينهم من فم إلى أذن ، ثم يتبعه
حديث إنكار ، ثم ثورة الغضب تضطرم فيم تبادلوه من كلام .

وأينع إنكارهم عليه بعد قليل . نفست الصدور الجياشة عن غضبها المكتوم .
كان لا بد أن يلحق الرجل عاقبة هذا التمويه الذى به غرر بأهل إقليمه لأن جبل
الزيف مآله إلى انقطاع . وحين وقف ذلك اليوم يردد نفس أنشودته ، لم يكن
يحسب أن قليلا من الناس ، بل واحدا منهم ، سوف ينأى بسمعه عن شذوه .
فإذا بثفته تنهار فجأة عندما قام عبد خير الحيوانى يقطع عليه الحديث . آن وقت
مناقشة هذا الأشمرى الحساب

قال عبد خير وهو يعنى ما كان من فتنة طلعة والوزير اللذين لا شك كانا
صاحبى الغنم من وراء دعوة واليه :

« يا أبا موسى . . . هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليا ؟ . . . »

قلم ير سبيلا إلى الإنكار ، وأجاب :

« نعم » .

« هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ ... »

« لا أرى » .

فصاح به في حنق ولم يتهيب :

« لا دريت . . . وإنا تاركوك حتى تدري ... »

ولكنه لم يشأ أن يبرح مكانه حتى يسد على العامل المتمرد مسالك المعاذير ،
فأنشأ يبين موقف كل طائفة من المسلمين من هذه المحنة النازلة بالبلاد ، وإنها
جميعا لتد إليها بسبب من الأسباب ، ولكل دور في غمارها معلوم :

« يا أبا موسى . . هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التي تزعم أنها هي

الفتنة ؟ ... »

فاستغلق الرد على الأشعري ، ومضى عبد خير يتم الحديث :

« يا أبا موسى . . إنما بقي أربعة قرون : على بظهر الكوفة ، وصلحة والزبير

بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجي بها فيء ولا يقاتل عدو . . »

« أولئك خير الناس . . . »

« بل غلب عليك غشك ! . . »

وكان حقاً للبلدة أن تعجب لواليتها كيف يدعو هكذا بدعوة لا معنى لها غير
الإملاء للعصاة في العصيان ، ولذا كثين في النكت . فقد تبين أن انتقاض زعيمى
الثوار على الإمام لم يكن وليد غيرتهما على صالح الرعية ، ولا نتيجة لازمة لحدث
أحدثه فحل به خلع طاعته من أعناق الناس ، بل هو ناشئ عن حب التسلط
الذى سيطر على أنفسهما وعلى بضعة نفر معهما فتنهم الأطماع والمآرب الخاصة . .
وكانت طائفة من أهل الكوفة تميد بهم مواطنهم ، ولا يستطيعون ثبوتاً على
ولائهم لأمر المؤمنين بعد هذا التبليل في الآراء ، ولا انحيازاً إلى أخصامه
المنافقين وإن كانت دعوة الثار التي نادى بها أولئك الخصوم ظلت تخاطب في
نفوسهم النخوة التي تستجيب مسارعة لنصرة المظلوم . . . هذه الطائفة لم تقدم

مبادرة إلى اختيار جانب من الجانبين ، وإنما بقيت ردحاً بفترق الطريق تصطرع في نفوسها نزعاتها المختلفة . حتى إذا استبدت بهم في النهايه حيرتهم رأوا واجبا عليهم نحو الحق أن يعيشوا من لدنهم فريقا إلى حاضرة الدولة يستقصي لهم ما أحاط بصرع عثمان وأدى إليه في موطنه ، عسى أن يروا بعد هذا إلى أين ينتهى خط ذلك الدم الحرام المسفوح . . .

ولكنهم ما كادوا يشرعون في إنفاذ عزمهم حتى جاءهم الحسن بكتاب الإمام ذلك الذى رسم لهم قصة المقتل ودور كل من دعاة الانتقام فيه ، ونقل به إلى أذهان أهل الكوفة صورة حقيقية لأمر عثمان جعلت « سامعه كمن عاينه » . . . عندئذ هدأت خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذى يجدر بهم أن يلتزموه ، فوقف بينهم شريح بن هانئ يقول :

« لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به في بيوتنا . . .

ثم ألم بدعوة أمير المؤمنين إياهم أن يناصروه ، فأردف يكمل الخطاب :

« ... لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه .. » وكذلك راح التيار يتجه بالكوفة على خلاف ما أراد أبو موسى له من اتجاه وخرج الرجل من داره ، وقد علم بحضر سبط رسول الله ، ينحى إلى المسجد . التلبية نداء إمامه كان ذلك الخروج ؟ . . بل قد بقى عند موقفه ، لا يحيد ولا يتزحزح عنه . وسوف يرينا ألوانا أخرى من عناده وتشبته بقصده المرسوم . . ووصل أخيراً منتجع القوم ، مسجد الكوفة ، وقد التأم الناس زمرا حول الحسن بن على وعمار بن ياسر . إن عياه ليفيض بالبشر ، وإن قدميه لتسرعان به صوب حفيد محمد ، وإن ذراعيه لتنبسطان ثم تضمان ابن ذلك الرجل الذى طالما دعا أهل إقليمه للاتقاض عن رسالته ... من عجب أن يجد أبو موسى بقية من عاطفة بقلبه تكفى أن يبدى للحسن كل هذا الترحيب .

على أن لحظة الجمالة ولت سريعة ، فأقبل الأشعري يحدث ابن ياسر في لهجة لم تخل من تهكم وهو يطوف بأمر عثمان :

« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحلت نفسك مع الفجار ؟ ... »

فغضب عمار وأجاب :

« لم أفعل . لم تسوءني ؟ ... »

فآثر الحسن عندئذ أن يقطع جبل الجـدال بين الرجلين . وأقبل برقته المعلومة ، على الأشعري ، وبرقيق لفظه يحدّثه بنبوة هادئة لطيفة :

« يا أبا موسى ، لم تثبط عنا الناس ؟ ... »

وتعمل به برهة ، ثم استلّى يقول :

« يا أبا موسى . . والله ما أردنا إلا الإصلاح . وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ... »

فضاقت بالرجل مكابرتة أو مداورته ، ولم يسمعه إلا أن يخفض رأسه مؤمناً على ما سمع ، وإن وسعه في ذات اللحظة ألا يغفل تذييل جوانبه باستدراك كأنما أبت نفسه عليه أن يسوق رداً خالصاً كله امتثال . . . قال :

« صدقت ، بأبي أنت وأمي . . ولكن — المستشار مؤتمن ... » .

« نعم » .

« سمعت رسول الله يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب . . . »
فهتف به عمار :

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم . وهذه يدي بما قلت » .

« إنا قال لك رسول الله هذا خاصة ، فقال أنت فيها قاعداً خير منك قائماً . . . »

فزلزلت سخريته من عزة الوالي المتعرد . وانبعث رجل بالمسجد من أنصار الأشعري يسب عماراً ويصيح :

« اسكت أيها العبد ! ... أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا ؟ ... »
وكأنما استنشر أبو موسى شجاعته ترتد ثانية إلى صدره بعد مظهره هذا
النصير ، فعاود الخطاب :

« . . . لقد جعلنا الله إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا فقال : يا أيها
الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان
بكم رحيمًا » . وقال جل وعز : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم . . . »
وإنها لدعوة حق أريد بها باطل ما في ذلك مرأ . وإلا فما عسى كان يعنيه
الأشعري من وراء هذا الحديث ؟ . ومن ذا قتل أميره السابق الذي ما زال يدين
له بالولاء من بين رجال أميره الجديد الذي يدعو اليوم أن يندب الناس ؟ . .
وهلا يعلم الرجل هذا الكلام المتكرر المعاد عن التخذيل والعودة ؟ . . إن عمارا
ليتوثب به الآن غضبه ، وليثور دمه ناراً حامية في سرايينه وهو يلقي السمع إلى
ما يزجيه صاحب الكوفة للناس من تمويه . ولو أفسح له وقته إذن لقام مثل
مقامه السالف في وجه هذا المتمرد ، ولصاح به كصيحته بأمس القريب :

« . . . إن أبا موسى ينهاكم ، أيها الناس ، عن الشخصوص إلى هاتين
الجماعتين . ولعمري ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . .
قال عز وجل : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت
إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله . . وقال : وقاتلوه
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . »

هذا هو حكم الإسلام حين تفرق فتنة بين أبنائه ، وبه تكلم عمار ورد على
إرجاف وإلى الكوفة منذ أيام . ولقد هم عمار أن يعيد تلاوة النص السهاوي
على أسمع الناس في اجتماعهم ذاك بالمسجد دحضا لزعم واليه ، لولا أن أتيح لهم
من بينهم من كفاء مؤونة سوق الاحتجاج ، وتناول منه السلاح الذي يحسن
تصويبه إلى الأشعري للفتون بالحداع . .

أجل ، فقد أقبل في هذه الآونة الحرجة زيد بن صوحان ، الرجل الذي
سمته عائشة ابنها الخالص ودعته لنصرتها أو للتثييط عن الإمام . أقبل وفي يده
كتابها ذاك وكتابها الآخر الذي بعثت به إلى أهل الكوفة تخذلم ، وإتياها

معاً لحجة قائمة على أن الشيطان على ليس اعتزالاً للفتنة بل انتصاراً وتشجيعاً
للدعوة الخصوم العصاة . . .

وقام زيد بين الناس فتلا خطاب عائشة إلى شعب بلده ، ثم أتبعه بتلاوة
كتابها الخاص إليه ، وقال بعد فراغه من التلاوة .

« رحم الله أم المؤمنين ! . . أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر في
بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت
ما أمرتنا به ! . . »

فساد الشعب جوانب المسجد ، وتداول اللفظ بين موافقة وبين إنكار .
من ها هنا صاح رجل بالمتحدث : « يا عماني ، سرقت بجولاء فقطعك الله ،
وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! » . . ومن هناك ثارت فتنة في وجه الوالي
وناصريه حتى أوشك أن يقتل الناس . وكان أبو موسى بينهم كالضيق ، لا يعرف
كيف يثبت بمكانه ، ولا كيف يؤدي الرسالة العجيبة التي اضطلع بها . . جاهد
مراراً ، وكفكفهم مرات ، وما زال صوته يحاول أن يشق له طريقاً بين
الضوضاء إلى الأسماع :

« أيها الناس . . . أطيعوني . أطيعوني تكونوا جراثومة من جراثيم العرب ،
ياؤى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . . . »

ومضى يتابع خطابه وإن أوشكت الألفاظ أن تفرق في غمرة النزاع
الشبوب :

« . . . إنا أصحاب محمد أعلم بما سمعنا . . إن الفتنة إذا اقبلت شبهت ، وإذا
أدبرت بينت . وهذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجري بها الشمال والجنوب ،
والصبا والدبور . تسكن أحياناً فلا يدري من أين تأتي ، وتذر الحليم حيران .
كأن أمس . . . »

ثم اشتد ، وعلا صوته بدعوة التفريق :

« . . أيها الناس ، الزموا بيوتكم ! . . خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج

من دار الهجرة — ترقق فنتقها ، وتشعب صدعها ! . . فإن فعلت فلا نفسها ، وإن أبت فعلى أنفسها ! . . . » .

قريش ؟ . . هذا نوع من الدعوة جديد . كأنى بالعامّة حينذاك أمسكوا الأنفاس ، وأرهفوا آذانهم وهم يتدبرون ما يقول . فهي فتنة إذن شبتها قريش ، عليها وحدها أن تصلاها . . الحى المستعلى على العرب وعلى بقية شعوب الأمة الإسلامية بأحسابه وأنسابه آنت اليوم ساعة محنته ، فليقطف العوسج ، وليهو وحده إلى أسحق قرار . . .

{

أكانت هذه قضية قريش وحدها أم قضية الإسلام ؟ . . .
أبو موسى طالع شعبه برأى يقف حائلا بينه وبين السياسة العامة للدولة ، ويتنكر للأمن الجماعى فيها . خاطب فى الجماهير عاطفتها نحو طبقة الأشراف وقد لا قوا منها ترفعا وصالفا خلال السنوات العشر الأخيرة ملاء قلوب الناس عليها تقمة وموجدة . فلعله استحضر بذهنه هذه العاطفة وهو يسوق لأهل الكوفة رأيه الجديد ، وظن أنه بها كفى أن يبلغ هدفه . . . كفاه أن يبدى للشعب أنها قضية غرماء ، يتطاحنون فيما بينهم ثم ييؤون فى نهاية الأمر بمغنم أو بغرم لهم وحدهم ، وعليهم آثاره . فما للكوفة من وراء هذا النزاع مأرب . وليس يفيدها إن أكلت المتناجزين جميعاً شرة الحرب الأهلية وقضت عليهم معا أو على أحد فريقهم قضاء لا يبقى منه على شيء . .

بهذا اللون رسم الرجل صورة التناحر ، فألى أى مدى كان رسمه يطابق الأصل ؟ .
لو أنه كان خلافا بين طائفتين من جمهور الأمة وعرضها لأنكرت عليه الأصول الرعية فى سياسة الشعوب ومبادئ فن الحكم هذه النظرة السكيلة ، فكيف وهو تمرد صريح أعلنه فريق من العصاة على صاحب الأمر الشرعى فى البلاد ؟ . .
ولكنه خاطب — كما بدا — فى نفوس العامة عاطفتها المتكررة لقريش ،

الزارية عليها ، ليستطيع من وراء هذا الخطاب أن يحنى ثمرة غرسه الذى تعهده .
طويلاً — ذلك الغرس الذى كانت سياسة الشبيط نواته . فإذا أدبر الناس عن
قريش بحزبها القاعين في الخلاف الآن ، فتمة حافزله سحر على نفوسهم وسلطان
تدفعانهم لهذا الإدبار . وثمة من بعد نتيجة لازمة هي قعودهم عن نصرة الإمام ؟ .

إن هذا الأسلوب من التفكير ليكاد أن يرينا في الأشمرى رجلاً انتهزاً
مداوراً يتوسل إلى غايته بأية وسيلة على تقيض ما قر في أذهان المسلمين من
مذاجته ، أم قد كان ياترى عن غير تدبير كأنه خبط عشواء ؟
تكون الغفلة وحدها باعثه أو أن تعمض العين عما سلف من خطوات الوالى
في هذا السبيل فكلما تقصى الباحث دعوة الرجل اقرب رويداً رويداً
من الإيمان بأنها خطة محكمة متصلة الحلقات وكلما تراكت في صدره مكونات
هذا الإيمان بدا الأشمرى تحت أضواء تقصيه عدوياً لعلى وإن حاول جاهداً أن
يضمم العداء خلف نقاب من الخشية على دم الشعب أن يهراق ، أو النأى بالعمامة
عن البذل من أجل سادتهم الأشراف ، أو تفرده دون سواء بالعلم بالحقائق
الغيبية التى أطلعه عليها حديث للرسول مزعوم ! أيعا حجة ساقها لتأييد دعوته
كانت تلقى من يحسن الإصغاء إليها بين سامعيه . وأيعا رأى نشره كان حقيقاً
منهم بالتدبر ثم بالقبول وخاصة إذا داهن به عواطف الجماهير . ولكن الأنفس
المستريية في نواياه كانت حرية أيضاً أن تتقبل قوله وهي على حذر منه أبلغ الحذر ،
حقيقة أن ترده وتأباه وهي ترى له مغبة واحدة — لو سار عليه الناس — هي
انتشار حبلهم ، وإشاعة الفوضى في الدولة الوسيعة البعيدة الأطراف .

على أنه مضى وخطابه ، يكاد أن يحمل القوم حملاً على ما يراه بهذه الدعوة
الجديدة التى بثها لضرب الفرق بين صفوف الأمة . وراح يعاود تناديه أمام الجموع :
« . . . استنصحنى ولا تستغشونى . وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ،

ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها . . . »

فما بلغ من حديثه مبلغه وأوشك أن يبرح مكانه من المنبر حتى صاح به زيد

ابن صوحان :

« يا عبد الله بن قيس . . . رد الفرات عن دراجه ! . . . اردده من حيث يحىء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ! . . . »
فبانت البغته في وجه الأمير . وتلفتت الزمر المحتشدة نحو زيد وهو يتم خطابه ،
ويده المقطوعة قد ارتفعت تشير إلى أبي موسى في إيماءة وعيد .

« . . . آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون *
ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * » .

وكانت هذه الآيات التي نطق بها لسان التنزيل أبلغ وصف وأصدق لحالة من
اختاروا القعود والتخاذل ، وآثروا النأي بأنفسهم عن دفع الفتنة ومنعها أن
تذيع ، مرتضين من إيمانهم أن يبوئهم مقعد المشاهد دون الانخراط في الجهاد من
أجل إنقاذ العالم التي سنها الكتاب القدسي ، ومن غير القيام بالدور الإيجابي
الذي حتمته النصوص السماوية وأوجبته على كل قادر ، التجاريب والحن وحدها
حك إيمانه .

وبقى الحسن خلال ذلك بمجلسه . الله جنبه حتى اللحظة منازعة الرجل المتمرد
وكفاه مشقة أن يقهر غلواءه وإصراره ويعفر جبهته المستعلية وخذه المصغر في
الرغام ! . ولو قد شرع سبط الرسول منذ البدء فيما جاء فيه وبطش بطشه بالوالي
المشاق لما لame على الشدة أحد ، ولكنه كان امراً رقيقاً كله وداعة ، يتعرج أن
يركب العنف ويتوصل به . وما زال يؤثر الترفق ويقدمه على غيره من الأساليب
حتى في الصق أمر بدولة أبيه وأمه بحفظ حكمه الذي راحت تنوشه أطماع المنافسين .
فلقد خرج من ذي قار وإنه ليعلم أن هذه آخر سفارة يوفدها أمير المؤمنين إلى
الكوفة لاستئثار الناس ، ويعلم أيضاً أن إمرة الأشعري لم تعد لها في العمر إلا
ساعات ثم ينطوى عليها سجل التاريخ ! . . . نعم ، فهذا قرظة بن كعب الأنصاري
أوشك أن يصبح صاحب الأمر في البلدة من قبل الإمام بعد أن ضاقت الحيل عن
رد أميرها المتمرد إلى الجادة . وقد بعث على مع الحلف كتاباً يثبت به السلف
عن ولايته يقول فيه :

« . . . قد كنت أرى أن تغرب عن هذا الأمر ، الذي لم يجعل الله عز وجل

لاك منه نصيبا ، سيمنعك من رد أمرى . وقد بعث الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعث قرظة بن كعب واليا على مصر . فاعتزل عملنا مذموما مدحورا . . . فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن يباذلك . . . »

فهل من ريب فى أن الحسن كان يعلم من أمر هذا الكتاب ما يعلم قرظة ، ثم رأى أن يقدم الحسى فى معاملة الأشعرى ثم فى حملة فى النهاية على الاعتزال . . . حقيق بطبع سبط الرسول أن يكون هكذا ترفقه ولو بعث هذا العامل المعن فى العصيان وفى الإساءة إلى أمير المؤمنين ، وحقيق أيضا به ألا يشتد فى طلب نصرة أهل الكوفة بحق ما يخوله تمثله الحاكم الأول للدولة وقيامه بتدبير الأمور باسمه . ولكنه فيما يبدو جنح للهوادة ، ورأى أن يترك للناس تدبر الأمر وهو يؤمن أنهم سوف ينهضون رويداً رويداً لتأييده عن اقتناع وإيمان ليس عن خشية وإذعان .

وكذلك انكشفت خبيثة الأشمرى . فلم يغن عنه شيئا تعلقه عواطف الجماهير بل انتكث عليه خيط تدبيره . وإذا صوت ابن صوحان يشق طريقه إلى الآذان ، رافعا ينادى فيهم الواجب والحق وحمية الرجال :

« سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين ! . . . انقروا إليه جميعا تصيخوا الحق . . . » .

وقام على أثره القعقاع بن عمرو ، هادى النفس يحدشهم بصوت العقل دون صوت الحماس :

« أيها الناس . إنى لكم ناصح ، ولأقولن قولاً هو الحق . . . إنه لا بد من إمارة تنتظم الناس ، وتزع الظالم ، وتمز المظلوم . وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء فإنما يدعو إلى الإصلاح . . . »

وتحدث بعث قولهُ أيضاً سيجان ، ثم أردف يقول :

« . . . هذا أمير المؤمنين يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه . وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين . فمن نهض إليه فإننا سائرُونَ خلفه . . . »

ثم تكلم من بعدهم كثير حق كاد رأى أن يجتمع على النصرة والنهوض

في تأييد الإمام . وأولئك الذين لم يكونوا من أمرهم على بينة ، متأرجحين بين القعود والتلبث حتى تنقشع غيمة هذا التبلبل في الآراء ، ما عتموا أن استجابوا للدعوة ، وساروا من كل صوب ، ينهأون للخروج . . قيل لعدي بن حاتم : « ماذا ترى ، وماذا تأمر ؟ . . »

فأجاب :

« ننتظر ما يصنع الناس . »

فلما أخبره قومه نبأ الحسن وما دار بمسجد الكوفة مما تحدث به أولئك الرجال ، لم يتردد في المسارعة إلى التلبية وقال : « نحن سائرون ! . . »

على أى حال لم يعد ثمة شك في تحول التيار إلى غير ما اشتبه الأشعري . وما موقف عدي إلا صورة من موقف غيره كثيرين . ولكن أبا موسى كان — فيما يبدو — شديد الثقة في انتصار تثبيطه ، شديد الإصرار على ما هو عليه ، بالغ العناد . خفي عنه أن تخذيله إلى زوال ، وأن توسله إلى هدفه بشتى المعاذير لم يعد يجد له طريقا إلى أذهان الناس ولا إلى قلوبهم على السواء . وإذا كانت كل هذه النذر البادية خلال أحاديث أصحاب الرأي في الكوفة لم ترده إلى الصواب ، فهو إذن حقا مشاق ، بادي الغل ، كما نعته هاشم بن عتبة يوم أبلغ نبأ سياسته إلى الإمام ! . . .

ونهض الرجل لا يبالي الآن بعاطفة الجمهور ، ولا بهذا الإجماع الذي وحد بينهم جميعاً صفا واحداً خلف على وعلى وفق ما أراده من شعبه . . نهض ثانية يعاود حديث التخذيل كما نما لسانه ليس يحسن من الألفاظ سواء . . فأى شيطان ياترى تلبسه وقاد خطوه ؟ . . . وأى معاملة حقيقة بأن تهديه خيرا من ترفق الحسن وطول صبره عليه ؟ . . غير أن من النفوس البشرية ما يزيد الحسن شموسا وشكاسة . وكان أبو موسى من هذه الشاكلة التي لا تستجيب للين ولا تسلس قيادها لغير الشدة والقهر . ولو صدقت نظرة في امرئ لكانت نظرة الإمام لهذا الوالي هي أصدق النظرات . فقد كان يرى الخير في أن يخلع عنه إمرة الكوفة

فتستقيم له بها الأمور لولا أن رده الأشر النخعي عن عزمه وهو مخدوع في ولاء الرجل وإخلاصه . ولو قد عزله الإمام منذ البدء لتجنب كل هذه المناورات ، ولبقى أمامه وقته ممدودا يصالح فيه شأن مناوئيه أو يدفعهم بسيفه قبل أن تستفحل فتنتهم ، وبدلا من ضياعه في استصلاح نفس الأشعري الشارد الحرون . . .
ولكن أوان الترويض فات ، وبقيت لحظة القهر والعنف معلقة كالسيف المرهف فوق رأس المتعرد . فمن عجب أن يكون شفيعه في البدء هو محاصمه الآن وجلاده الذي لا يلين . . . إنه الأشر ، وسيعلمن الأشعري نبأه بعد حين . . .

٥

الأشر تقاسم نفسه الندم والحجل والغضب المهتاج . فالأنبياء ما تنى تأتبه من الكوفة فتعد في رقعة أسفه ، ويرفع بصره متردداً إلى عيني الإمام فيقرأ فيهما من اللوم ما يزيد شعوره بالحجل حتى ايسارع بالإغضاء ورد نظراته عنه . وهل كفت الأخبار لحظة عن حمل تقاعد الأشعري وما أخذ به جنانه ومنطقه من خذل علي وحض أهل إقليمه على هذا الخذلان ؟ . . . كلما مضت الرسل ثم آبت من البلدة بغير أنصار ولا عتاد كانت أوبتها هكذا تحز في قلب الأشر وتكاد أن تغريه . وكان دائماً يستشعر غب عودتها خاوية الوفاض مما ذهبت فيه ، بمثل طعنة النصل تمزق فؤاده ، ومرارة العلقم على شفتيه . فلقد خانتته نظراته في دخيلة الأشعري كأنما ضلت في منعرجاته الملتوية فغاب عنها غشها المستور الكامن في غورها السحيق . وأخطأه أيضاً توفيقه حين أحسن الظن بصاحب هذه الدخيلة فأمن له ووهبه ثقته . تبدت له حقيقة هذا الرجل على صفحة الغيب لما استشفع له لدى علي ، ولما أبقى عليه إمرته ، بل لعله كان يبوئه مصيراً يجعله أمثلة بين الخونة وناكثي العهود والمتنكرين للجميل . ولكن القدر سبق على لسانه كما شاء إلى ما شاء ، فظلت الكوفة ، بشفاعه الأشر وحدها ، تحت إمرة الأشعري ، ترد دعوة الإمام وتلوى عليه أمره الكرة بعد الكرة ، وتوفي بالدولة على التمزق . . .

ما أشق على نفسك أن ترى موثلاً ثقثك يتنمر لك ، ويستجيب لنقيض ما آمنت أنها مستوجبة عليه . لكأنك في هذه الحال حاضن ثعبان كادت تغوله قرّة الزمهرير فلما استشعر الدفء بين رديك ذكر طبيعته الخوانة فدنا به يحزيك عن حسنك بنهشة الهلاك

يمثل هذا كان الأشر يحس ، وبأفدح منه وأبلغ كانت تتعذب نفسه . ليألم وليشقى كل لحظة ليل وكل ساعة نهار . ولئن كان بعض شقوته مرده انتكاث حدسه وخية ظنه بذلك الأمير الجاحد المتمرد ، فبقيتها من أجل على ، صاحب الطاعة على المؤمنين ، الذى عز عنه فى الكوفة النصير ، ولقى العصيان والخيانة على يد واليها العالى فى المشاقة والشنآن حتى أبعد الحدود إن الندم والحجل والغضب العاصف لتعاور كلها نفس الشفيع وتفسد حياته عليه . وإنه ليقضى الثوانى واللحظات متقلّباً من شعوره على مثل الجمر ، يوجمه أن تعجز الوسائل عن هداية العاصى إلى محجة الصواب ، فما عاد يصغى لغير صوت هواه وإن زارت حوله نذر الأحداث . الأشر يرى نفسه عن هذا الموقف الذى التزمه الأشمري أول مشول . وإنه حقاً لكذاك . وكم جهد ليتحرر من تبعته تلك بإصلاح الأمور لمولاه فلم تجده محاولاته . حتى إذا رأى الوقت يتسرب من بين يدي سيده وأوليائه كتسرب الماء ، وخشى أن تزيد الأحداث اضطراباً فيعسر استنباط دواء لدائها العياء ، بادر فاستلهم عزمه ، وتدبر أمراً وأبرمه ثم طوى عليه نفسه ، ومضى إلى الأمام يتحدث إليه :

« يا أمير المؤمنين إني قد بعثت إلى الكوفة رجلاً قبل هذين ، فلم أرمه أحكم شيئاً ولا قدر عليه . وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدري ما يكون »
وتأمل يرى كيف يكون جواب مولاه حتى سمعه يقول وإن فى نبراته لرنّة عتب وملامة :

« يا أشر ، أنت صاحبنا فى أبى موسى »
« نعم . فإن رأيت ، أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، أن تبعثنى ، فإن أهل

الكوفة أحسن شيء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفني منهم أحد ... » .

« الحق بهم » .

فتحقق له ما أراد . الآن سوف يستطيع أن يصلح ما أفسد ، ويجرد الأشعري من الثقة التي لم يكن لها أهلا تم يجرحه غصة خذله وعصيانه .
وكان الناس ، إذ دخل البلدة ، مجتمعين بالمسجد ، يصغون تارة إلى دعوة واليهم ، وأخرى إلى أقوال الوجوه والسادة ورجال الشعب الذين راحوا يتناوبون الكلام . وكان الحسن جالسا بينهم ملقيا سمه ، واسع الحلم كمهده .
وعمار قد غالب طبعه الثأر ومزاجه الحاد فاستسلم صابرا لما يدور حوله وقد بدت بشائر التفاف الناس حول علي وانفضاضهم عن الأشعري . .

وازدلف الأشتر فاتخذ ، قماما له بين الناس ، يبين لهم من الأحداث السالفة ما خفي عنهم وغمت عليهم دوافعه ومثيراته . وكان من الطبيعي أن يبدأ بسوأة الجاهلية يهتكها ، ومآثر الإسلام ومحامده يسرد منها وينتظم آلاء في مثل عقود الزهور ذات الريحان وكان من الطبيعي أيضاً أن يطوف آونة بخصومه مناوئي الإمام ، وأخرى بأخطاء عثمان ، ولكنه حين بلغ هذا الشوط من حديثه لم يعدم بين الجموع صوتا ينبى له فيزجره ويصيح :

« قبحك الله ! ... لأنت كلب خلى والنباح ! ... »

فتقبلها وسكت ، لا لأنه خشى على نفسه مغبة ما قد يثير زاجره الغاضب ، بل لأن القوم أعفوه من مشقة الجواب . فقد ثاروا بالصائح ، وهما أن يعصفوا به .

عندئذ تسلل الأشتر ، وترك الناس وما كانوا فيه . إن أمامه خطة لا يحتمل إتخاذها المكث والتريث ، وما للتراشق بالألفاظ والمهاترات جاء ! ...

وغادر المسجد وكان له بالبلدة مكانة مرموقة ، وبنفوس كثيرين من أهلها نفوذ . فما التقى بطائفة من الناس في ناحية إلا راح يحدثهم حديثه فلا يلبثون أن يميلوا إليه . كلما مر بجماعة استهوى منها نفرا ، أو بقبيلة استلحق بضعة

من رجالها بموكبه ، أو بحشد دعاهم أن يتبعوه . إن له سلطاناً قهاراً على أبناء الشعب جعلهم يسلسون القياد . . .

وعندما كان أبو موسى يماود تخطيطه وهو على المبر ، وتشور به آونة فئمة من سامعيه أو تؤيده فئمة ، كان الأشمر يزحف بكتيسته الشعبية على دار الإمارة ، وهو يهتف بمن خلفه :

« اتبعوني أيها الناس . إلى القصر ! . . . »

لن تجد أقرب إلى نفس الدهماء والعامّة من دعوة تاديهم للفض من هية رجل يعلوهم قدراً في النظام الاجتماعي الذي يكونون قاعدته . فانبرم بحالهم حافز للتمرد على الأوضاع ، دافع إلى استباحة الفوارق . وكفى بهم أن يجدوا فرصة تملو بهم فوق « العالي » وتجعلهم مالكي مصيره . فهذا نصر قلما يتاح مثله ، ولن يتاح ، إلا بهدم الحواجز بين الطبقات وإنها لعصية إلا على معول ثورة أو شغب أو اضطراب بل هو ثأر من التميز الذي رسب بهم في قاع الدنيا ، وطفا إلى الحافة بمواطنيهم من الأشراف والسادة . أو هو في حقيقته تنسكر لحكم الأقدار ، انتقام منها إذ أقرت هذا التميز وجعلته سنة بين الناس . . . ولن تجد قط امراً في هذه الحياة راضياً بقسمه ما دام يرفع عينه فيرى غيره يتبوأ دونه مكانة عليّة من العلم أو من الجاه أو من السلطان .

فلعل هذه العاطفة كانت بعض عون الأشتر عند الجماهير يؤيدها ما كان من ولائها للإمام . ذلك أن الشعب الذي بقي هادئاً طويلاً ، يسمع بدعوة عاملة التكرار فلا يحرك أصبعاً أمام وجهه ، أقبل مسرعاً يلوذ بدعوة الأشتر ويتعذر خلفه صوب القصر كما يتعذر السيل . . . عز من قبل محرك العاطفة الناعمة والبول الحبيسة وها قد جاء المحرك المثير !

ولم تستعص عليهم الدار ، ولا استطاع أن يردم عنها جند أبي موسى وغلثاته وما أسرع أن أضحي القصر لقي مستباحاً تحت أقدام الغيرين وتفتحت أمامهم مغاليقه ، وأصبحت الكلمة العليا فيه للأشتر من خلال الجماهير . . . وأسرع بعض الحرس إلى المسجد يحملون إلى سيدهم نبأ نكته . .

قد كان إذ ذاك يحسب نفسه سيد الموقف ، له الحول والطول وما يظاھرہ أن يأمر فيطاع . نداء الإمام ، وحديث الحسن ، وخطب الخطباء وضعها كلها دبر أذنيه وسد عنها سمعه . أما دعوته فهي الدعوة ، وأما قوله فهو الفصل وليس لأحد أن يعترضه من قبل ومن بعد . وحين دخل غلمانہ كان متسماً المبر ، يكرر كلامه الميثبط ، ويسرد سياسته عوداً على بدء . بلغ به غيه مداه ، ولج في العناد والمكابرة ، حتى أعي الحسن الحليم الرقيق أن يستمسك بصبره فمضى يصيح به في ثورة وهدير :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنج عن منبرنا لا أم لك . . . »
ولكن الحرس حسم النزاع . فقد أسرع منهم رجل إلى الخطيب ، مال على أذنه وهمس فيها بشيء جعله يبرح مكانه في التوكلن أصابه مس لا يلوى ولا يتريث ، ويغادر المسجد وإن بخطوه لمثل نزع النشوان . . .
وعجب القوم ، وساد بينهم لفظ الحدس والتخمين . فما عسى قد أصاب الأشعري قبل خاطره ، وأزعجه كل هذا الإزعاج ؟ . لا أحد يدرى ، ولا يستطيع أمرؤ منهم أن يمتد به فكرة فيتنبأ بحقيقة الأمر . ولكن القصر ليس يبعد . وصوت المهرج فيه قد أخذ يتسلل قليلاً قليلاً إلى أسماع الناس بمنتهجهم في المسجد . . . وراح الخبر يتكون في قلبه الأخير حرفاً بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، ويحمل فرحة طروباً إلى القلوب الحمية ، لقي إذن هذا المنايد جزاءه فقشر عنه سلطانه . . . وعاد كما بدأ — إلى حين — فرداً مغموراً بدون خطر ، يمر به التاريخ فلا يلتقي عليه عينه ، ولا يتلكأ — إن رآه — لحظة عن المسير . . .
وهز عمار بن ياسر رأسه ، كأنما يتدبر حكمة الله التي أبرمت نهاية الطاغية ، وقوضت قلعة اعتداده ، ودكت دكا جبروته . . . هز رأسه وقد انزاح عن صدره ذلك الكابوس ، وقال في هدوء وإيمان :

« . . . غلب الله من غلبه . . . » .

٦

بقيت له الذلة ! . . . الرجل الذي كان جباراً مريداً لا يصغي لصوت خيار
مواطنيه وأرجحهم رأياً غدا تعزو جبهته ويستذل للغواء . في دقائق قليلة
بات قصره مرتاداً لمرض شبيه ، وراحت هيئته في أكفهم ملهاة عندما تبع
غلمانته إلى البيت ، حسبها فلتته غضب ندت بها نفوس الدهماء ، ولن يلبث ظهوره
بينهم أن يبتعث في قلوبهم الخشية منه ورهبة سلطانته . ولكن ظنه خانه لما توسط
القصر ، ورأى كيف همت الجموع أن تعصف به ، بعد أن حكها قانون الثورة ،
ولم تعد تخضع لشرعية سواه . وحين نجا من عبث الغيرين ، واستطاع أن ينفذ
من بينهم إلى مأمن ، بدا له الأشر النخمي ، شفيع الأمس وديان اليوم ، يفيض
وجهه بعفته ، وتتقد من غضب عيناه . وفي انكسار تقدم الأشعري ، على سباه
من خزيه ومن هزيمته آثار ، وإن بنفسه للاعجا يوشك أن ينطق بمسكته
لو أوتي اللسان . ولكنه قرأ العزم في قسبات مالك مصيره ، ورأى العنف الذي
يزلزل القلب

وصاح به الأشر ، في نبرة كصوت القدر ، تقطر حقدا ومرارة :

« اخرج من قصرنا لا أم لك ! » .

فتردد برهة . يا ترى ألا يستجيب هذا الرجل تارة أخرى لداعي المروءة
كما استجاب بالأمس ، فيمفو ويشفع ؟ . . .

غير أن الأشر لم يدعه وأحلامه ، بل عاود ثانية زئيره :

« . . اخرج ، أخرج الله نفسك ! . . فوالله إنك لمن المناقين ! . . »

فبارحته على الأثر كل سجاياه ، وبقيت له الذلة ! . . . وأغضى الطرف وهو
يجهد ليجد مخرجا من موقفه الضنك ، ثم نطق بصوت واهن ضعيف :

« فأجلني هذه العشية . . . »

« هي لك ، ولا تبيتن في القصر الليلة . »

وكان هذا غاية ما يطمع فيه ، فما يسمه البقاء بين ظهرائي « رعيته » بعد هذا الهوان الذي أصابه منها . وليس يأمن — إن بقي — أن يكون فريسة للسخرية والتهكم . . . بل هو لم يلبث ، ولما تلتته بعد مهلة الأشر القصيرة ، أن أضحي نهباً لما هو شر من السخرية وأفدح . فقد اجتاحت قصره زمر من العامة ، كأمواج البحر هدفها مال واليها المغلوب ومتاعه . جاءت تستبيح ما يملك وتهم أن تحتلبه كأنه غنيمة حرب ! . . .

ولكن الأشر لم يتنكر لعدوه المهزوم لم ينسه غضبه المروءة ونخوة الرجال ، فوقف في وجوه الجموع الهائجة يردم عن القصر ، ويحول بينهم وبين ما ابتغوه : « إني قد أخرجته أيها الناس ، فكفوا عنه » .

فارتضوا من نصيبهم في أسلاب الأشعري بالنصر عليه ، وبقض سياسته النكراء . وكفاهم الآن غنيمة أن قد هزموه في نهاية الشوط بعد طول اضطبار ، وحرروا رقباه من سلطانه . . .

وهدأت حمدة الأمر بعد قليل ، وبدأ العقل يسيطر ثانية على نفوس الجمهور . . . وكان اجتماع المسجد ما زال منعقداً ، والحديث فيه هذه الآونة يؤيد علياً أتم تأييد ، ويدعو الناس بدعوة سفيريه . . .

عندئذ قام الحسن يتحدث إلى الناس ، وقد شهد إجماعهم على نصرة أبيه : « أيها الناس ، إني غاد . فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء . . . »

فما أصبح الغد حتى التأمت الجموع ، وعجت الكوفة بالنفار آلافا كثيرة ، يستبقون الطريق صوب ذي قار ، على مطيهم فريق وفي السفائن فريق . قد تأمر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولائهم أثناء تشييط أبي موسى ، واستمسكهم بعهد أمير المؤمنين . وكان فيهم غير الأشر ، القعقاع بن عمرو ، وزيد بن صوحان ، والهيثم بن شهاب ، وحجر بن عدي ، وسعد بن مالك ، وعدي بن حاتم وغير أولئك ومن أشباههم كثير . . . وحين غدت جموعهم على ذي قار تلقاهم الإمام في طائفة من خلائه منها ابن عباس ، فرحب بهم وأحسن اللقاء . . .

وكان لا بد أن يبين لهم سياسته ، ليكونوا على بينة مما سينهضون فيه .
إن قصة الزبير وطلحة وعائشة بالبصرة قد انتهى لا ريب نبأها إليهم وعلموها
كما خطها مداد الحقيقة ، من كتبه مرة ، ومن رسله أخرى ، ومن السنة الرواة
مرات ... ولكننا لا نحسب أحداً رسمها فأجاد الرسم لم يغفل منها هنة يسيرة
كمثل ما رسمها الإمام في قول له :

« ... نخرجوا ينجرون حرمة رسول الله كما تخر الأمة عند شرائها ...
متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما ، وأبرزوا حبيس رسول الله
لها ولغيرها ، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة
طائعاً غير مكره . فقدموا على عاملي بها ، وخزان بيت مال المسلمين ، وغيرهم
من أهلها ، فقتلوا طائفة صبراً ، وطائفة غدرآ ... فوالله لو لم يصيبوا
من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرء لحل لي قتل ذلك
الجيش كله ... »

ومع ذلك فقد كانت نفسه الصافية تميل إلى الصفح والغفران ، وتود
لو استطاعت أن تمنح بعدوه إلى صلح يحجب الإسلام وأهله مصارع السوء ، ويميد
الأمة كتلة موحدة ... وكما تحدث في صحبه قبل خروجه من الربذة إذ سأله
ابن رفاعه عن موقفه من العصاة ، فكذلك تحدث لأهل الكوفة عندما تلقاهم
بذي قار ، بنفس المعنى ونفس السامحة التي تأبى عليه أن يحتجن غلا بقلبه على
متنرد أو عدو مبين . وقف يخاطب جموعهم ولما يستقر بها المقام ، فقال :

« يا أهل الكوفة ... أتم ولتم شوكة المعجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم
حتى صارت إليكم مواريتهم ... وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل
البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وبإيناهم
حتى يبدؤنا بظلم . ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه إن شاء الله ... » .

فهذه شيمة رجل حريص على الوحدة حريص على السلام . ولو قد صفت
نفوس شائبة لأقبلوا سراعاً يفيثون إلى طاعة أنكروها وبيعة تقضوها ، إبقاء
على دينهم ودنياهم . فما كان لينفس عليهم شيئاً قط . ولكنهم شاءوا أن يشغبوا

عليه أمره فحقت عليهم شريعته المثلى : « إن شغب شاغب استعتب فإن أبي قوتل ! » . . . وجرحوا إمامته ما استطاعوا سبيلا إلى التجريح وهم يصطنعون من الحجج والمعاذير ما لا يستقيم والواقع المشاهد . زعموا تارة أنهم أقروا بها كرها ودون اختيار فألزمهم الحجة بفيض من بيان البرهان أغضوا عنه عيون الأذهان ! . . . وطورا زعموا أنها بيعة غابت العامة عنها وما عنوا إلا الأمصار بل — أغلب الظن — قد عنوا الشام . ولكن برهانه في هذا حاضر ، وليس يعتسفه اعتسافا ، إنما يسوقه المنطق السليم الذي لا يلتبس بهوى ولا غاية : « فلئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل . ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد أن يرجع ، ولا للغائب أن يختار . . . » .

إن أولئك الذين قاموا يناجزونه لم يتسلحوا قط في نزاهم بكلمة حق تؤيد قضيتهم وإن تسلحوا بعدة من حديد . . . وكانت قضيته من قبل ومن بعد ، بادية الرجحان بينة اليسر ، ليس فيها ظل من شبهة . أمامهم فقد تخبطتهم الغايات ، وتنازعته الأغراض والمطامع ، فركبوا إلى تحقيقها الصعب والعسير . ولو أريد لهم نعمت يطابق حاكم فلا يخطئه ، لكان النعت كلمات الإمام حين أراد أن يبين للناس أى الناس حربهم ودفعهم عنه بالعنف حلال :

« . . . ألا وإني أقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذي عليه ! . . . »

وقد ادعوا ومنعوا في آن . وأسرفوا طويلا في المنع وفي الادعاء . ومع ذلك فلم يبادروهم بأداة حربه قبل الاستعتاب وإفساح المدى أمامهم ليرجعوا عن القى . وعندما تهيأت له أسباب القمع والردع وتجهشت الجيوش تحت ألويته ، استمسك أيضاً بصبره ، وبعث إلى القعقاع بن عمرو — إذ هو صاحب لرسول الله أولى بأن يلين له العصاة — ليستسفره إليهم قبل أن تعصف بهم كتابته . . .

قال له يأمره أن يرد البصرة فيجهد وسعه أن يتألف بها العصاة عسى أن ينشب الله به الأمر وتجتمع الأمة وحدة منيعة بعد طول تفرق واختلاف :

« الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة » .

فمضى الرجل يتأهب لهذه السفارة التي ليس أكثر منها بركة على الإسلام لو أنت بما رجاه الإمام . وحين أوشك أن يبرح ، وكاد أن يقطع أولى خطوات المرحلة صوب هدفه ، أقبل على عليه يسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ . . . » .
فأجاب :

« تلقاهم بالذي أمرت به . فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأي ، وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . . . »
فسره جوابه ، وطاب نفسا بحكمته وأثنى عليه :

« أنت لها . . . »

وانطلق القمقاع . . .

غير أنها لم تكن أولى السفارات التي بعثها لذلك الحزب ولا آخرها . بل زحرت الروايات بأشياء لها كثيرة ، منها رسل ومنها رسائل ، راح أمير المؤمنين يسوقها إلى الصاحبين وأم المؤمنين ، يرجو بها وجه الله وصالح الأمة التي ضربت بين صفوفها معاول الهوى الهدامة . كم من مرة لوح لهم براية الأمان فلم يقبلوا منه ، وأمعنوا في المشاقة واللجاج غاية الإمعان كأنما أغرتهم سياحته بالعناد . وحين حسب أنه ملاق عند عائشه ما أخطأه في نفسى صاحبها من التبصر ، ودعاها أن تعود عما جاءت فيه ، وتلزم حجابها وبيتها ، لم يكن يظنها تكابر كمثلها حتى أتاه خطابها الذي لم تزد فيه عن قولها العجيب :

« جل الأمر عن العتاب . . . »

فلو أن رجلا غيره قام مقامه لما تريت بهم كل هذا التريث ، ولما صبر عليهم صبره ، ولقضى فيهم قضاءه الواجب منه في غلاة العصاة . ولكنه بقي يتلسس الفرص والسوانح ولا يتبين مظنة للتفاهم إلا نهزها عسى أن يتجنب أداء ذلك الواجب الكريه . وكان يعلم أن في صفهم طائفة لن تستجيب قط لدعوته السمعة

بل قد تثير بقية الحزب على صم آذانهم والمغالاة في العناد والغى — تلك من
آمنت أن سيخطئها النفع الدائى لو التزمت الجماعة وأقلمت عما غدت فيه من
خلاف . ذلك أن أفرادها قد استيقنوا أن الآراب لا تسير فى ركاب الإمام ،
وأن من ألقى إليه بالزمام حقيق أن يتجرد من أطماعه وما لئله هذا قاموا يشبون
نار الانقسام ...

ومع ذلك فهو على بينة منهم ، ليس يحسن بهم الظن على الإطلاق . وإنما
ود لو بلغت دعوته آذان الفئة التى تلوذ بالحكمة لعلها تستطيع أن تقهر هؤلاء
على تقبل الصلح ، وعندما بدا له ذات يوم أن يستسفر ابن عباس ، تخير له من
يبث دعوة الوفاق فيه إذ هى أخرى أن تلقى عنده مالا تلقى لدن سواه . . .
قال له إذ ذاك :

« يا ابن عباس . . لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالشوار ، عاقصاً
قرنه ! يركب الصعب ويقول هو الذلول . . ولكن الق الزير ، فإنه ألين
عريكة ، فقل له : ثم يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ،
فما عدا بما بدا ؟ . . » .

تلك كانت نظرتة إلى الأمور ، وغبرته على صلاح شأن الإسلام وأهله ،
ما توسم فى ناحية خيراً إلا بادر يلتمسه حيث كان . . . وهذه فراسته ،
صدقت دائماً فى الرجال ، ولنا على صدقها فى الزبير ، من قبل ومن بعد ، أكثر
من برهان . . .

دعوة إلى السلام

إنه حديث ليل ، مضت عليه الليالي . . . همست به رؤيا عابرة . حين غفوة ، إلى خاطره فصورته له بعض المستقبل . وعندما فتح عينيه ، واستقبل بها ضياء النهار ، تواردت الحيرة على ذهنه مع الشروق . فمن ياترى ذلك العليل النائم الذى أطلعه الحلم ؟ . . . ومن هذه المرأة التى اقتعدت عند رأسه مكاناً تستطيع فيه أن تحميه ثم لم تفعل ؟ .. ومن كل أولئك الناس المتدافعين نحو المريض وفى عيونهم علام الغدر والشر السافر ؟ . . .

ليس يدرى « كليب » . لم يكن ذا علم بتأويل همس الليالى فى ضمائر الغفلة . ولو كان لعلم ، ولراى الأحداث — قبل وقوعها — تجرى من بعد فى واقع الحياة بمصداق ما جرت به فى الحلم الغامض . . .

ومضى من حيرة يقص رؤياه ، ويلتمس لها الفتيا الكاشفة عند أصحاب المعرفة والبصائر . ولكنه لم ييؤ بغير عجبهم منها ، وبقيت له حيرته . وراح طويلاً يستنبي من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، حضرم وباديهم ، فى حله وترحاله ، فى سفره واستقراره ، فما أجدى عليه السؤال ولا الاستنباء . . . حتى إذا هم أن يجعل الحلم دبر تفكيره ، وبدأت تنأى به الشواغل ، بادر القدر فجاء بفتياه . . . عندئذ قال له الناس :

« رؤياك يا كليب . . . »

وكان ذلك حينما صرع عثمان ، فهذا هو المريض العليل ، ومن غاله وأورده حقه فأولئك ذوو الشر السافر الذين أبدتهم الرؤيا يتدافعون بغدرهم إليه ولا تردم عنه — وإن ملكت — صاحبه . . . أما المرأة فظلت بعيدة عن عين كليب وعن رأى خاطره ، بنجوى كالسر . تلوح صورتها دائماً فى خياله ولا يدرى من هى ولا ما هو « شخصها » فى النساء .

وسارت به الأيام . وأمعنت مواكبها سيراً فى درب الأحداث . وانقضى عهد وجاء آخر على آثاره . وتبدلت بحال حال والمرأة خفية عنه .

ثم انتشرت عند حد الأفق غيمة تكاد أن تحجب وجه الشمس ، مدت
منفذ البصرة . فلما تبينها الناس رأوها كتائب مجيشة ، أقبلت من البلدة الحرام
يسوقها الزبير وطلحة وأم المؤمنين . وليس بجيئها إلا لخلاف رفعت لواءه على
الإمام ، ومقدمات غارة تهم أن تشنها على سلطانه .

وقع من الأحداث بالبصرة ما وقع . وناشتها نكبة تجر نكبة نظم أمرها
العصاة . . ثم تكلموا بمنطقهم فلم يشفوا عجب كثيرين من أهلها بذلك المنطق
وما احتوى من تبرير . بل اشتبكت على سامعهم الأمور ، واختلطت خيوطها
أنكاثا تاه بينها خيط الحقيقة وضلت عنه النهى والعقول .

كان الحسد وحده سبيل القوم إلى التعرف على الأسباب الخفية وراء هذا
الغزو وهذا الخروج ، وطالما قادهم إلى ظلام . وكانت النفوس القلقة تلعب بها
الحيرة آونة والريبة آونات ثم لا تأمن إلى قرار . فما يسمها الاطمئنان إلى ذرائع
الغزاة ، وليس تستطيع الركون إلى حججهم وقد أبدوا وجها من الأمور لعل
غريهم أن يبدى سواء فلا يخالف به صورة الصواب . فكل حجة حجة ،
ولكل بيان بيان .

وكذلك قد عزم الناس بالبصرة أن يوفدوا من لدنهم سفيراً إلى مقام الإمام ،
يعلم منه رده على منطق الخصوم ثم يسير عليهم من بعد أن يزونا القول والقول ،
ويقرعوا الرأي بالرأي فيظهر لأيهما الرجحان .

وقالوا إذ ذاك لكليب الجرمي :

« إن هذا الأمر اختلط علينا يا كليب ، فامض إلي على وأصحابه فسلهم عنه . . »

فانطلق وصاحبين له .

لم تكن الشقة عليهم بعيدة ، وليست قط على ناشد حقيقة وإن طالت بها
المراحل والمسافات . فما لأشهى من حق وأقرب منه على النفس الصافية تسير قدم
أو يركب ظهر . ولا كمثل يهون الصعاب والمشقات . وقد كلف الرجال الثلاثة
بنشدتهم فنسوا من أجلها النصب وركبوا إليها جناح العزم ، وإن بقلوبهم لشغفا
يجب عن جسومهم متاعها ويدهش فيها نشاطاً متجدداً ، يفيض ولا يفيض ينبوعه .

وبدا لهم أخيراً عسكر الإمام شاعت الحركة في كل نواحيه . فقد راح الجند يتأهبون أهبتهم لمرحلة أخرى من سيرهم تقرب ما بينهم وبين البصرة . وأخذت رنة السلاح ترحم السكون والأكف تتلقفها للامتشاق أو لتثبيتها في المناطق . وصهيل الخيل وهدير الجمال يتردد كأنما هي تدعو الفرسان وكانت الظلمة الخافية تلف الأخية والحيام ولكنها لا تسترها عن العين ، فما زالت بالغروب خفقة تضيء بعض ضياء وحينما دنا الرسل أقرب الدنو من هذه الساحة ، طالعهم فارس في وجهه إشراقة ، وعلى ملاعجه من الحسن رواء يكسوه جلالاً وينعله رجولة . فما وقعت عليه أبصار الغرباء حتى همس كليب لصاحبيه :

« هي والله ! . . . »

فأعدى الرجلين تعجبه ، وهتفا به :

« من يا كليب ؟ . . . »

« أرايتم إلى المرأة التي كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس العليل

في رؤياي ؟ . . . »

« نعم . »

« إنها بهذا الرجل أشبه الناس . . . »

ومضوا وفي أخلاصهم تسبح الدهشة . ولكن طرفاً من مسارتهم كان قد طرق أذنى الفارس وخال به أنهم عنوه . أو لعله استراب فيهم إذ أنس في خطاهم ترددهم الغريب ، فما هموا أن يتبعوا الخطوة الخطوة حتى صاح :

« قفوا ! . . »

فثبتوا لا يثنون . وألحق هو أمره بسؤال :

« ما الذي قاتم وقد رأيتموني ؟ . . . »

« لم نقه بقول . »

« فلن تيرحوا إذن أو تقولوا لي ! »

فدخلتهم منه هبة هتكت حجب الكتمان التي نشاءوا لو ظلت مسدلة على

خافية السر . . . وأقبل الجرمي محدثه برؤياه ، لا يكتف شيئا ؛ حتى فرغ .

حينئذ انتقلت الدهشة منهم إليه ، وهمس ، كأنما لنفسه ، وهو يدعهم ويمضي لما كان فيه :

« والله إن ما رأيت لعجيب . . . »

وغاب عنهم في ظلال العسق المدودة .

إذ ذاك اثنى كليب إلى أدنى أهل العسكر منه ، قال يسأله في خفوت :

« من هذا الفارس . . . ؟ »

« محمد بن أبي بكر »

فعلقت الحيرة هنيئة السن الصحاب . وجاءت إثرها كراهية غلبة لأمر أولئك القوم الذين خرجوا على طاعة الإمام ، وعصفوا بالبصرة ، وغلبوا عليها بحجة أنهم قاموا في الثأر لعثمان . أم بقيت نعمة من الرؤيا بقية لم تحققها الأيام ؟ . . . بل انكشف عن حله العطاء ، وأنت الحوادث دراكا بتأويله . وإن الجرمي ليضي لغايته صوب على ليمرف من لسانه حقيقة حال أولئك الغزاة العادين وليس به حاجة إلى ماضيه ، ولا إلى استنبائه منطقاً يدحض منطقهم ، أو حجة تفرع حجبتهم المعتسقة . . . فلقد أنبأته الآن رؤياه :

« هي عائشة بنت أبي بكر . . . »

ولكنه مع ذلك مار مسيره يتبعه رفيقاه ، وما يفي حله يعاود خاطره كمن قبل — في اليقظة هذه المرة . . . فذلك عثمان ، واهن الحول مهبط الجناح ، قد تكأ كأ الصدر عليه في صور أناس . وهذه عائشة عند رأسه لو شاءت دفعت غائلة الشر وكفتها عنه . . . فلا أمر رآته لم تعد يداً مكفكة ، ولم ترد كوسمها عن الأمير المنكوب . إنما خلته ومصيره اللوجع ، وقضاءه الفاجع . اكتفت من دور الرؤيا بأن تقعد وتشهد حتى مضى القوم إلى الغافي النائم فسلبوه الحياة ، واستلوا عصارتها من هيكله الجاف ! واكتفت من دورها في حقيقة الحياة بمثل ما كان في دنيا الحلم بل هي ها هنا أشد قسوة إذ أعانت على المريض . . .

واستأذن رسل البصرة على أمير المؤمنين . وأقبلوا عليه يستخبرونه فما أخفى عنهم هنة مما سلف من أبناء مصرع عثمان والأسباب التي هيأته والحوافز

التي ساعدت عليه . لسكانه بهذا السر كان يفق الجرمي عن تأويل رؤياه ! . . .
وحين أشرف على نبأ معارضيه ، طفق يتحدث عن عمرة طلحة والزبير التي غدت
غدرة ! . . . وعن غيرة عائشة بنت الصديق التي أثمرت دعوة تتواري خلف
عدالة القصاص . . . وما زال يصف من خصومه ما كتموا عن الناس حتى أوفى
على أمر الفتنة التي شبوها عليه يريدون بها اجتياح كيانه وهدم بنيانه ، ولو دروا
لعلوها حجة حازبة تهم أن تحتاح الإسلام . .

« فبعتنهما ، لكيلا يفتقروا في الإسلام فتقاً ، ولا يشقوا جماعة . . »
ثم سكت عن بيانه .

وقلب كليب بصره هنية على صاحبيه ، وأخرى على الفريق الذي شهد
مجلسهم هذا من أولياء الإمام ، وثالثة على محيا هذا الأمير المحسود المظلوم . .
إن إشراقه الحق لتبليج على قسماته وتضيء حوله للنفوس الحيرى سبيلها للهداية . .
ما من حاجة الآن لكليب أن يزن حجة بحجة ولا لقومه ، وقد جاء على بفصل
الخطاب . .

وهتف بهم بعض الأعوان ، في همس خافت ، كأن الألسنة تهاب
حضر الامام :

« والله ما يريدون قتالهم إلا أن يقاتلوا . وما خرجنا إلا لإصلاح . . . »
وهمس آخرون :

« فقدموا فبايعوا ، رحمكم الله . . . »

فلم يتلكأ الرجلان لحظة عن التلبية ، بعد ما عرفا الحق أين مأتاه ومع من
يسير . . أما الجرمي فقد تريت ، وبات حائراً أيتابع صاحبيه على ما عقده أم أولى
به الصبر حتى ينقل لقومه نبأ ما رآه ليروا رأيهم فيه .

وفي غمرة حيرته ، سرى إليه صوت الإمام ثابتاً ، هادئ الجرس ،
خافض الرنين :

« ألا تباع ؟ . »

فبغت الرجل وعالج الاضطراب الذي ساد كيانه حتى استطاع سانه أن
يجيب على استعيا : .

« أصلحك الله !.. ولكنى رسول قوم ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم .. »
فابتسم له أمير المؤمنين بسمة هونت من اضطرابه وأفادت على نفسه
السكينة ، وقال :

« رأيت لو أن الدين وراءك بعثوك رائداً تبتغى لهم مساقط الغيث . فرجعت
إليهم ، وأخبرتهم عن الكلاً والماء خالفوا إلى المعاطش والمجاذب . . .
ما كنت صانعاً ؟ »

« كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلاً والماء » .

« فامدد إذن يدك ! »

ففعل على الأثر ، لم يستطع أن يعتنع بعد وضوح الحق ، أبلغ كضحوه النهار ..
وحين آب الثلاثة ، وشارفوا بلدتهم ، وكانوا جميعهم لسان حال للإمام ،
ينطقون بمنطقه ، ويسوقون حججه ، واحدة تظاهر أختها ، على أنفس الناس
وما كان فيها من تردد وشبهة . فهو امرؤ يحارب الانقسام وينشد السلام ، ظلمه
أصحاب الجمل إذ باينوه ، ونكثوا عهد ربهم عندما خالفوه .

وراحت الوفود بعدهم تترى ، وقد بلغت الدعوة التي نهض بها على ، ونفذت
إلى قلوبها سماعته . . . كلما مرت بأرض فيما بين البصرة وبين ذى قار بدوا
جموعاً تستبطن المطى ، وتود لو حملتها الريح إلى الرجل الذى نقض عنه غضبته
على شائئيه . وقدم العفو والصلح ابتغاء وحدة الوطن الذى كادت أن تغوله عوادي
الفتنة ، وتنخر في بنيانه الشامخ أهواء بنييه . . .

٢

كانت خطة على دهاء ... سفارة القمعاع أدنت أصحاب الجمل من حتف معنى
أشد قضاء عليهم من وقدة القتال . فقد بانت الحقائق بها للناس في ضياء جديد ،
واستنارت لهم مناهج التفكير والتدبر . . . ها هو الإمام ليس يسعى لتثبيت
حكمه ، ولا للقصاص من خصومه إذ غالبوه وظلموه ، بل سارع بمد نحوهم كفهم ،
فيها صلح وفيها عفو وفيها سلام ، ويهيب بهم من أجل وطنهم جميعاً أن يتلقوها .

ويقبلوا دعوة الصفاء ... إنه ليؤمن خائفهم ، ويحقن دمهم ، ويغضى عما أسلفوه في حقه من إساءة . إنه لينسى انتفاضهم عليه ، وعيبتهم بعهد ، واستهاتتهم بهيبته إذ هو أمير نافذ الأمر فيهم ، واجب الطاعة عليهم لقد تجرد من نزعاته النفسية كل التجرد ، ومن مشاعره نحوهم التي طالما جرحوها بالفعل أو بسقطات الألسن الزارية العيابة . فما لهدف خاص قد هدر وغضب . ولا لما أرب ذاتي كان إليهم مسيره ، وحين تدبر الناس موقفه في روية وحكمة ، وجدوه كمهدم به قبل الإمرة ، ومن يوم عرفوه وله في الحياة العامة دور يضطلع به ، نفس ذلك الذي قال ذات يوم غابر :

« . . . لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا على خاصة . . . »
فكذلك كان أبدا مبدأه وكان شعاره . وهو الآن يمد من تجرده إلى الأذهان الغافلة ما غفلت عنه . ولو أنه أراد تأديب العصاة ما أعوزته الوسائل ولا أقعدته عنهم . فليس عن خشية إذن دخلت قلبه منهم كان هذا التريث ، وهذه السباحة التي تعز في النظائر . لا ولا رهبة القتال ردت . إنما قد آثر هذا حرصا على سلامة المجموعة الإسلامية أن يودى بها التناحر ، وإشفاقا على خصومه أن تأكلهم غائلة الحرب ، وليس يضيره قط أن يمهل لهم ليجتنبوا الهلكة . ولقد قال من موطن كهذا سوف يأتي نبأه بعد حين :

« ... والله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهدى بي ، وتمشو إلى ضوئي . فذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها . . . » .

فالصلح إذن كان خطة منه خير ، وعلى دهاء وحكمة . ولو قد رفضه أصحاب الجمل لبدا في أعين الرأي العام ساعين لفتته ، مليون دواعي الهوى والأطماع الشخصية ، دون داعي الصالح الجماعي ، دع تنكرهم لنداء المروءة ودعوة التسامح . ولو سارعوا إليه يتلقون كفه المبسوطة بالصفاء ، فهي مسارعة إلى لأم الصدع وتوثيق وحدة الأمة ، وهي في ذات اللحظة مسارعة إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتراف صريح بخطأ نظرتهم القديعة التي نفضتهم عنه ، وإقرار

أبنا إقراراً بأنهم أساءوا أبلغ الإساءة إلى من وجبت له عليهم الطاعة ، وجانبوا الحق حين نقضوا البيعة وتنكروا للولاء

ولكننا مع هذا لسنا نستطيع أن نفهم كيف يبادر أولئك القوم لاعتناق دعوة القمع ، وإن بين صفوفهم لكثيرين يهضم الصلح ويقضى على كيانهم الذي لا يتسم أنقاس الحياة إلا في كهوف التنابد . وحين نعيد إلى الدهن أسماء مروان وابن عامر وأضرابهما من النهازين يسعنا أن نرى كيف سيقوم الصلح على أنقاض آراهم ومطامعهم . وحين نستعرض هذه الآراب نوقن أنه عسير غاية العسر أن يقرروا — مختارين — دولة لن يكون لهم في توجيه سياستها مثل أئمة ، بل هي قاعة على طلل سيادتهم القديمة ، مؤذنة بانقضاء آمالهم حتى آخر الزمان . فلعننا إذ نلم بطرف من برم أولئك بالصلح الذي يسد عليهم منافذ الأهداف الخاصة لا نكون قد تجنبنا ولا جانبنا منهج الحقيقة ، ولعلنا أيضاً حين نذكرهم إنا نورد هم كئنا ، فليسوا وحدهم أصحاب ذلك النحو من التفكير . وعندما نتحرر من ترددنا بعض التحرر ، ونسوق القول ميسوراً ، عارياً عن التقيد بأقدار الزعماء ، لا نلبث أن نلحق بطلعة بعض مظنة وهنة شبهة ، وهل كان قط إلا مفتوناً بالإمرة يركب إليها كل صعب وعسير ؟ . . . إنك لن تغفل أبداً ماضيه في هذه الناحية ، ولا حتى حاضره الحاضر . ولك أن تستقصى معنى كيف غلب عليه ذلك الماضي وساق له الآن فكره في ذات الطريق القديمة ، فلم يرض له الخضوع للإمام ، بل أبداه أمعن في مشاقته وخلافه منه من قبل . . . كان هذا في يوم غير بعيد ، من بضعة أيام ، حين بعث على إليه وإلى صاحبه بكتاب يستفيئهما إلى طاعته ، والتزام جماعة المسلمين ، فردا بجواب يقولان فيه :

« .. إنك سرت مسيراً له ما بعده ، ولست راضياً دون دخولنا في طاعتك .

فلسنا بداخلين أبداً ، واقض ما أنت قاض »

فهذا رد قاطع ، لا يدع سبيلاً إلى التفاهم ولا يحتمل من التأويل إلا الإصرار على ملاقات الإمام بالقتال بعد العصيان . فإذا أبدى الاستجابة من بعد للصلح والرغبة في الوثام ولما تنقض على كتابهما إلا أيام ، فإنه إبداء حري بأن تحوم حوله

الشكوك ، أو قد ند عن تحول أفكار الناس إلى العطف على وتقدير نظرتهم ،
وخضوع منهما — دون اقتناع تحت ضغط الرأي العام .

على أننا ندع هذا كله إلى حين عندما تحركه الأحداث ، ثم نسير وئيدا
في ركاب القمع صوب البصرة وقد بات أهلها فرقا مختلفة الهوى ؛ بعضهم مع
على ، ممن والوه وظلوا على الوفاء له ، وممن وترهم الغزاة فرأوا الثأر لقتلهم
لا يكون في غير انحيازهم إلى خصوم العادين وبعضهم على على قد استهوتهم
دعوة أصحاب الجمل الطلب بدم عثمان ومدهم بالإيمان بها أن نهضت فيها بنت
الصديق وبعضهم بين أولئك وهؤلاء أخفت عنهم سبيلهم الشبهات ، وغشى
التردد نفوسهم فتركهم حيارى أينعازون إلى هنا أم إلى هناك . هذه الطائفة
التي اختلط عليها الأمر أخذ النهج الواضح يبين أمامها قليلا قليلا ، كما ينجاب
الضباب في الضحى ، بعد أن آثرت تلس الحق في مواطنه فخرجت ، أفرادا
— في البدء — ثم جماعات ، إلى مقر الإمام تعلم منه ثم تذيع بين قومها ما علمته .
وكان فيها من الجرمي أشباه . ومن بعده كثير تحدثوا بمثل منطقهم وأغروا غيرهم
بالتحدث فليس من عجب لو شهدت الجموع تنعذر من البصرة لتلحق
بعسكر الرجل الذي كشف للناس قلبه ، وأعلن على ملأهم أنه يبتغي السلام .

كانت الأذهان متهيئة بالبلدة للوفيق ، والنفوس في عمومها راغبة فيه . فليس
أحب إلى القلوب من عيش وادع رضى في ظلال الأمن ، ولا أبغض من محنة
تمز الرقاب وتخضب الأرض بالدماء . ولم يكن هذا الشعور ليخفى عن القمع ،
بل لعله استيقنه وأحس أيضاً نظيره . وحين اتخذ سبيله إلى دار عائشة قبل مسيره
إلى صاحبين كان يخط أول حرف من وثيقة الوفاق وإن لم يمتشق قلما أو يهـيـ
صحيفة ذلك أن النساء أدنى إلى اجتناب المذابح التي تنصبها الحرب ، أخشى
الناس للقتال ، أولاهم بامثال الدعة والرفق والسلامة

هو لا ريب كان يوطن نفسه لكسب نصير في مقر قيادة الخصوم — أقوى
نصير ولم يخنه تقديرة حينذاك . فقد استقبلته السيدة خير استقبال ، وأقبلت
في اهتمام تصفى إليه

وقال لها بعد قليل :

« أى أمه ! . . . »

« أى بنى ! »

« ما أشخصك وما أقدمك هذه البهة ؟ »

« إصلاح بين الناس »

فاطمأن إلى جريان الحديث بالمجرى الذى يشتهي ، وهتف يدعوها أن تجمع

لديها صاحبها لبحث الأمر :

« فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعنى منى ومنهما . . . »

فعلت فى التو . وجاء الصاحبان وما من أحد منهما يدرى فيم دعوة

أم المؤمنين .

وخاطبهما القمقاع :

« إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس . خبرانى

ما تقولان ، أمتابعان أنتم أم مخالفان ؟ . . . »

« متابعان . »

« فما وجه هذا الإصلاح ؟ . . . والله لئن عرفناه لنصلحن . . . »

« قتلة عثمان »

« قتلة عثمان ؟ . . . »

« نعم ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء

للقرآن . . . »

من البدء تلك حجة الخصوم وشعارهم فى عصيانهم أمير المؤمنين . أفكانوا

يا ترى أولياء دم القتل ؟ . . . ألهم إلى هذا الطلب سبيل وله من دونهم أسرة

وأبناء ؟ . . . ومن كانوا العادين على عثمان بين الناس ؟ . . . »

ذات يوم كتب إليهما على يقول :

« . . . ما أنتما وعثمان ! هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا فى طاعتى ثم يخاصموا

إلى قتلة أبيهم . . . »

ولكن الوائر — إن عرف ١ — والموتور كلاهما ظل خارجاً على الدولة التي تملك أن تدين وتقتص ، فبقيا جميعا — بهذا الخروج — حقيقين بالتأديب والقصاص ! .

وقال القمقاع يرد حجة الصاحبين ، ويضربها بمنطقه :
« قد قتلتا (قتلة عثمان من أهل البصرة ١) وأتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذي أفلت فتمعه ستة آلاف فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم — »

فهمت به عائشة وقد غمها أن ترى نفسها بين أمرين أهونها شر :
« فتقول أنت ماذا ؟ . . »

« أقول هذا أمر دواؤه التسكين »
وترث هنية ثم عاد يتم حديثه :

« إنكم أحيتم مضر وريعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء القوم الذين أغضبتم ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم . فإذا سكن الأمر احتلجوا . . . »

فلم يعقب منهم أحد على حديثه ، بل راحوا يتفكرون ، ويقلبون رأيه في روية وإعمال ذهن . لكنما كلماته جديدة لم تطلعها من قبل حكمة ولم يفه بها لسان ! . . . إنها لتحسن وصف المأزق الذي وقعوا فيه ، وتضف أيضاً دواء دائه . . . ليت الأيام عادت سيرتها الأولى إلى يوم كانوا بالمدينة لم ينقضوا بعد بيعة على ، إذن لسمعوا الحكمة من لسان ذلك الأمير — الذي آثروا عصيانه — حين قال :

« . . . اصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمعة . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منه ، وتورث وهنا وذلة . . »

ولكنهم لم يصبروا حينذاك . وضاقوا بحكمة الحكيم — أم ترى ضاقوا
بإمرته فانتقصوا عليه ؟ — ثم فعلوا الفعلة التي حذرهم ، فماذا — غير الوهن
الذي حدثهم عنه ؟ . . .

إن الأحداث الآن بصرتهم بصدق نظرتهم ونفاذ عينه إلى أغوار المستقبل .
ولو صدقوه إذ ذاك وصبروا كما أشار لجنبوا الأمة هذه الفتنة التي لم تلهم شيئاً
مما طلبوه أو . . . ادعوه على مسمع من الناس ! . . . قدم عثمان كان وحده
حجتهم في اختلافهم على علي ، وعذرهم الظاهر لذلك الخلاف ، ثم ها هم قد أطلوا
ذلك الدم ولم يأخذوا من مريقه ثأره ! إنا جنوا بحسب انقسام جماعة المسلمين
وقيام بعضهم يقاتلون بعضهم الآخر ، بينما غاضت قطرات ذلك الدم في غبار
الصراع . . . ها هم بعد أن كان القتلة يحميمهم بالمدينة بعض طوائف من العبدان
والأعراب ، قد غدا أحدهم تحميه ألوف ، يغضب لهم ألوف ، ثم قبائل شتى تجمعها
العصية لتظاهر أولئك الحماة . . . فلقد أثلت حرقوص بن زهير — وهو أحد
أهل البصرة الذين خرجوا فيمن خرج من أهل الأمصار إلى عثمان يطلبون منه
الحق وينكرون الجور — ولحق بيني سعد بعد الواقعة بين أصحاب الجمل رفرسان
حكيم فكان وحده الناجي من المذبحة ممن شهد حصار عثمان . وطلبه رجال
طلحة فمنعه بنو سعد ، وغضبت له عبد قيس ، وبقي من طالبيه في أمان . . .

وأردف القعقاع يبين لسامعيه أين يجدون الخير والسلامة :

« . . . إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بئار الرجل ،
وعافية لهذه الأمة . وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر ،
وذهاب الثأر . فآثروا العافية يا قوم ترزقوها ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له
فيصرعنا وإياكم . . . »

وتلبث يرى ما ينطقون به إثر منطقته ، فما عتموا أن بادروه يصوبون نظرتهم :

« نعم القول ، فقد أحسنت وأصبت . . . ارجع يا قعقاع ، فإن قدم علي وهو

على مثل رأيك صلح الأمر . . . »

وكذلك بدت علائم الصلح في الجو إذ أفر الصحبان وعائشة عرض الإمام .
وأوشكت الأمة أن تسير إلى عهد وئام يضم فرقها المختلفة ، ويوثق عروتها ،
ويبدلها طمأنينة وأمناً بالحرب الأهلية التي همت أن تأتى على كيانها الموحد —
لو صفت الأنفس وخلصت النيات

٣

كانوا ثلاثة . قبلوا الهدنة واستجابوا لدعوة الوفاق . ولكنهم ليسوا وخدام
حزب الجمل بطبيعة الحال . كلما رميت بصرك وراء عكر طالعتك وجوه غيرهم
كثيرين ، لهم في إنشابه الخلاف إصع ، وفي السلح المرجو رأى لا يوافق رأى
الزعماء ، تحدث عنهم الميول القديعة ، ونضحت بما في النفوس . وحين لبي رءوسهم
نداء الإمام لم يشاوروا ولياً منهم ، ولم يصدروا في التلبية عن جماعة العصاة . . .
أيستقيم لهم نهج الصلح ويسعهم أن يحملوا أروياءهم عليه ؟

من البدء لاحت الهدنة خدعة كبيرة ، لا لأن الثلاثة إذ قبلوا أضمرُوا الرفض
وأبدوا غير ما يريدون ، بل قد خدعهم عن حقيقة ميول أتباعهم نبأها الساحر
وما رجوا وراءها من سلامة وخير فما زالت نفوس الكثرة من رجالهم تميل
للقتال ، وتدين بشريعته . وما نشبت دعوة الطلب بدم عثمان تريحهم أنها لن تتم
إلا بدم . وقد غلب على أذهان أولئك الأعوان ما ظلت أفعال عائشة وصاحبها
تثبت فيهم من « تخاذل » على عن النار وترفقه بالقتلة حتى لظنوه ضالماً في المصراع
يشيم مطمئناً فيه ! بل قد سلب منهما ومنها في حقه زعم يلحق به تهمة القتل بعد
الحدل أيسع أمحاجهم بعد هذا أن يؤمنوا حقاً ببراءة الإمام ؟

دون هذا ويلتوى الأمر وهام أولاء يهرعون إلى الرجلين حين
بلعهم ما مشت به الشائعات من نبأ الصلح ، وكلهم موثق أن الحرب هي الدواء .
وأجل منهم رأس الأرد صبرة بن شيان يقول :

« . . . انتهزنا بنا هذا الرجل فإن الرأي في الحرب خير من الشدة . . . »

وقال أبو الجرباء للزبير :

« إن رأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل أو يصبحوه قبل أن يوافي أعوانه ! . . . »

وصاح كعب بن سور :

« وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم ؟ . . . اقطعوا هذا العنق من هؤلاء ! . . . »

ويعجب المرء لهذا الصائح كيف امتلأ قلبه هكذا حماساً لنصرة طلحة والزبير حتى ليدعوها دعوته الملحة لقطع « عنق هؤلاء » وما عني حين قال إلا علياً يهيج قمتها عليه . . . أفأنسى كعب يا ترى موقفه الأول ، وكتابه إليهما يوم أراد الاستعانة به في النهوض معهما للنثار لعثمان فأبى عليهما ورد يقول يومذاك :

« إن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ؟ . . . وإن يك قتل مظلوماً فغير كما أولى به ! . . . وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل ! . . » قد نسي هذا فيما يلوح . والأيام دائماً كفيلة بالنفوس ، تعمّل بأكثرها فلا يثبت منها على منهاجه سوى قليل . ولقد مال ابن سور إليه ، وغدا الآن على قضية صاحبين أشد منهما غيره ، وأحرص على إبلاغها أبعد ممّا يرجوان لها من نجاح ! . . .

وكيفما كانت رغبة صاحبين في الصلح وكان الأساس الرتكزة عليه فإنها رغبة لم يكتماها إذ ذاك ، ولقيت عندهما هوى غير منكور . ولكنها كانت دعوة حرية بأن يعوزها في منطقتي الحرارة التي تبعث في قلوب رجالها الحماس لها ، وفي أذهانهم الاقتناع بها والمبادرة إلى اعتناقها بغير إهمال . فما بهذه السرعة يمكن حمل الناس على نسيان مزاعمهما السالفة وكل تلك الاتهامات التي جهدا طويلاً ليلطخا بها صفحة الإمام . وليس يسيراً على أعوانهما الآن أن يؤمنوا بأن الوفاق هو وحده الخطة المثلى والرأى الذي تهون أمامه بقية الآراء . . .

على أن نعمة عامله حسابه في جنوح طلحة والزبير إلى إثارة السلام على الحرب ، والمخاصمة هو ما أخذت الأيام تبديه من نعر موارد على في العدة وفي الرجال .

قد لبته الكوفة ، وبعثت من لدنها كتائب تلتحق بجيشه ، آلافاً من الجند يسعون
الحصر ولكنهم بين كل عشية وضحوه يزيد عددهم وتتبعهم زمر وجوع . وكان
أيضاً هناك رجال القبائل المنبثة في البيد على تخوم البصرة وفيما حولها من أصقاع
أولئك هواهم في الإمام معلوم . وهم أدنى إلى مظاهرتهم وشد أزره . وحين تتطلع
العين إلى الطريق بين البلدة وبين ذي قار لا تعدم أن ترى الوفود تترى لتلحق
به ، وتكون مدداً لقواته . ولقد يغلب على الظن آونة أنهم لم يسروا سيرهم إليه
إلا وقد جذبهم دعوة الصلح ، وعرفوا أن حديث الحرب أوشك أن تصمت عنه
الأمواه . ولكنهم عندما تحقق الدعوة ، ويصبح لاسمعى عن اشتباك السيوف
فإنهم إذن ، ودون ريب ، سيختارون جانبه ، إذ هو المدفوع عن السلم بعنت
الخصوم .

وكذلك ليس يسع المرء أن يغفل شأن فريق كبير من أهل البصرة غلبهم
على ميولهم الإرهاب الذي سادها في الأيام القليلة التي شهدت بها غلبة أصحاب عسكر
وحكمهم القصير . فهذا فريق يتربص دون ريب بالغزاة وينتظر الدوائر أن تنفتح
في بناء الأحداث فرجة ينفذ منها إلى تقويض دولتهم ، والثأر لكل هذا الدم
الذي أراقوه . وهل نسي عدوهم على العبدى وعشيرته ، وركوبهم ابن حنيف
بانعد والمهانة ، والمذبحة التي أشاعوها في الأمانة ممن ألقوا بهم تهمة قتل عثمان
بعد وقعة حكيم ؟ . . . إن هذا الفريق لحقا شوكة تدمي جنب حزب عائشة ، إذ
يؤلف نوعاً من جيش سرى لا تؤمن منه الغرة والمفاجأة حين يستعر القتال بين
جندهم وجند الإمام . ولقد صدقت في هذا الشأن قطعاً نظرة أبو الجرباء ، وكان
تحذيره الصالحين تحذيراً أملاً حسن التقدير .

إن هذه العوامل ، لو كانت وحدها ما حمل الرجلين على المهادنة وقبول
الصلح ، لكان في رضوخهما لدعوة الإمام ، وتقبلهما إياها ، خير ما يسعهما
أن يقرأه مما توجب الحكمة وتفرض السياسة الرشيدة . ولسكننا لا نجردها أيضاً
من نزعة إلى الصلح ابتغتها الرغبة في لأم صدع الجماعة الإسلامية بعد أن خذلتهما
الظروف — أو أوشكت — ووضح لها صدق رأى الإمام في القصاص لعثمان

وعلاجه أمر قتله بما كان يوائم حالة الأمن إذ ذاك وحالة الثوار . فالتريث كان وحده الخطة المثلى حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن النفوس ، ويتفرق عن المدينة أهل الأنصار . ويجدوا الآن اعترف الصاحبان ، واعترفا معه بخطئهما حين ألباه . . . فقد قال لمن جاءها من دعاة الحرب يحضونهما على المبادرة إلى قتال على رداً على ما أسلفناه من حديث :

« ... قد زعم قوم أنه حدث لا ينبغي تحريكه ، هم على ومن معه ، وقتلنا نحن : لا ينبغي أن نتركه ولا تؤخره ، فقال على : إن هذا الذي أدعركم إليه شر ، ولكنه خير من شر منه . . . وقد كاد أن يبين لنا أنه الرأي » .

فلعل بعض مادفعهما أيضاً إلى اعتناق دعوة الصلح هو الندم على ما فرط منهما في حق أمير المؤمنين من اختلافهما عليه في شأن وضع اليوم أنه كان فيه أبعد نظرة وأصدق فراسة .

ونستطيع بعد هذا أن ندع حديث الجوانح وما ضمت من نوايا خفية فلسنا موكلين بالضمائر . . . فما لهذا الحديث آخر . وليس الناس إلا نزوة تحركهم إلى هنا ثم أخرى تردهم إلى هناك . . . وحسبنا لتم جوانب الصورة التي تنقل لنا تلك الحقبة من تاريخ الإسلام أن نسير قدما إلى عسكر الإمام .

من البدء كان على ينبغي الإصلاح ، ويروم نجيب الأمة شر الفرقة التي كانت لا ريب نتيجة لازمة لدعوة الخصوم المستترة خلف الثأر للقتيل . وحينما سارع بتلك الحفنة القليلة من أعوانه يرود طريق نجد ليقطع السبيل على أصحاب الجمل قبل بلوغهم البصرة ، لم يكن قط يعني ردهم عن نشدتهم بقوة السلاح ، وإنما بالبيان والحجة الدامغة والبرهان الذي لا ينهض له برهان . وعندما أرسل يستمد أهل الكوفة ، كانت كتبه إليهم لا تكاد أن تستمدهم جنداً بقدر ما تريدهم حكما يقضون برأيهم فيما شجر بينه وبين الخارجين من طاعته . ولقد ظل وظل رسله يتحدثون بأمر الإصلاح ودعوة الوثام والآفة ، لم يتنكروا لمبدئهم قط ولا حادت بهم عنه حمية النزاع المشبوب .

ومع ذلك فليس مما يشين دعوته أن نجد في صفوفه قوما كانوا يؤثرون القتال ويودون بجدع أنوفهم لو استطاعوا إليه السبيل ، فما من جماعة في الدنيا يمكن أن يسودها رأى واحد ، أو تمنحى من رؤوسها العقول التي تميزها عن الأنعام والعجاوات . وما من أمر يعرض لأناس إلا رأيهم ينظرون إليه من جوانب شتى ، فتفترق آراؤهم فيه ، أو تتلاقى بقدر اختلاف هذه الجوانب أو اتفاق النظرات . ومن العيب أن نسمي هذه الفرقة السكفة بالحرب بين أعوان على بالرغبة في مناوأة سلطانه ورد طاعته ، بل أدنى إلى الحق أن نراها ساعية إلى تدعيم قرائعه وتثبيتته والتمكين له أقوى تمكين . ذلك أنها لم تكن تطيق أن تغفر لمناجز مناجزته ، ولا لخالف خلافه على صاحبها الذي أنزلته من قلوبها منزلة تقارب القداسة ، وكانت ترى في التسامح ما قد يغري آخرين كثيرين بمعاودة العصيان ، فالشدة إذن أولى من اللين وأجدى على الدولة من الغفران .

وكان نعمة إلى هؤلاء طائفة يشق عليها الصلح أيعا مشقة ، وتكاد أن تستروح منه نذراً تؤذنها بمصير مرهوب . . . أولئك من شهدوا حصر عثمان من المدينة وأهل الأمصار ؛ فظل يحبس عنهم عدالته حتى أنشب القدر فيه غائلته . بالأمس كانوا أصحاب حق ، جاءوه — كقول عائشة — « يطلبون العدل وينكرون الظلم » ، فما للنظرة إليهم الآن قد تبدلت بنظرة كأها إلى نقيض ، وللمعطف عليهم من قلب السيدة يغضب ؛ ثم بخلفه على الأثر اتهام كفيل بأن يحققهم ويسلم أعمارهم إلى يد الموت ؟ . . ثوار الأمس لم يعودوا بعد الفاجعة طلاب نصف ، بل غدوا قتلة وإن لم يشهراً أكثرهم عصا في وجه الشيخ — وإن لم يشهروا جميعاً ، إلا واحداً أو بضعة . . ومع ذلك فقد باءوا من عائشة وحزبها بالسخط الذي اتسع حتى ضم في جنباته كل مناهض لعثمان ، زار عليه ، متبرم بعهده المثير للبرم في قلوب كافة الناس . بقي الاتهام الذي ساقه حزب الجمل مصلتاً على الأعناق يجتز منها ما شاء حين يسعه أن ينتهز سانحة أو غرة تيسر الثأر من عشرات ومئين . وما المذبحة التي أودت بحجم غفير من أهل البصرة إلا ناقلة إلينا رأى عائشة وجوابها الجديد على هذا السؤال الذي ما زال يحير الأذهان : « من هم ، وكم هم قتلة عثمان ؟ . . » .

لا ريب أن الصلح المأمول بين الإمام وبين أصحاب الدم ومن زعموا أنهم أولياؤه لن يكون إلا على حساب الطائفة التي شهدت الحصار . فهذا شهدت المقدمات ، وعنه نوشك أن تنجاب الخواتيم . فإذا خشي هذا الفريق دعوة الصلح أن تنجح فقد حقت له الخشية ، وحق له أن يخاف النذر المؤذنة بالمصير المخوف .

واقعد كان على يتوقى أشد التوقى أن يدع لأصحاب الجمل شبهة من حجة عليه ، فأبى منذ البدء أن يلوذ بجيشه أحد من رجال القبائل والأعراب والعبدان ممن لعلمهم شهدوا الحصر أو أعانوا عليه ، ومع ذلك فثمة ثمة منهم قد لحقت به حين تداعى وأخصامه إلى الصلح ، مهما كانت فقيراً قليلاً ؛ فلها مشاعر الخاصة ، ولها رأى كتتمته في السلم المنشود .

أما الإمام فقد سره أن لبي الصاحبان دعوته ، لأن التلبية خطوة إلى دخولها جماعة الأمة ولأم للانقسام . وبأدر يحض أصحابه على التزام الصبر والتريث وامتلاك ناصية الأنفس عن إثارة الشحناء ، فما زال رأيه الكف عن خصومه ، ومدافعتهم بالحسنى والسكون عليهم وهم على حرب ، فكيف وقد أبدوا الرغبة اليوم في الوفاق ؟ . . . وحين قام منهم رجل يسأله عن خطته بعد حديث الصلح ، أجاب : « الإصلاح ، وإطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ، ويضع حربيهم . وقد أجابوني . . . »

وسأله آخر :

« أنرى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله

عز وجل ؟ »

فقال :

« نعم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل »

« . . . وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ »

« نعم ، فالشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه »

وقام فخطب رجاله :

« يا أيها الناس . . . املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن القوم ،

فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن الخصوم غدا

من خصم اليوم . . . »

{

تحركت كتائب الإمام هذا الجيش الذى خرج من المدينة فى عديد من العشرات ليس يعدو بضع مئين ، قد مضى الآن ترجيح له الأرض ، ويدوى الفضاء حوله بصدى خطوه ، متوالى الجرس مرتب النغمة ، كأنما يهتف : « النصر ! النصر ! . . »

ولن يكون نصراً على عتاد وجند ، الأداة الحربية وسيلته . ولكنه ظفر بأهواء الأنفس المنحرفة بمحقتها ، ويرد أصحابها إلى الجادة . . . أوشك الحق أن يظفر بعدوه ، وتكون له العقى وحده . وما السير الآن إلا لتقويض بنيان الانقسام ، وهدم حصنه بعد أن كاد يرفع على أبراجه رايات التسليم !

وكان على بادية البشر كدأبه لم يطف بقلبه التطير . الرجاء الذى استشعره من قبل فى جمع الكلمة ما زال ساكناً بنفسه ، يستبق به الخطا إلى أسوار البصرة ، وبهم أن يرسم له دنيا أخرى يسودها الأمن والوحدة والمساواة . والمبادئ التى اعتنقها منذ صباه توشك أن تثمر طلوعها المبارك . غاية الغايات من رسالة الإسلام تبدى لعينه قريبة ، لألاءة السنا كهذا الضوء الذى راحت الشمس تشعه أمامه وهو يؤم جيشه فتحيل به الصحراء وادياً بسيطاً من نور . . . فلهذه الساعة الغراء كان يرتو دائماً خياله ويهدف أمله ، ليستقيم من بعد شأن وطنه على السنين الذى خطه محمد بوحى التنزيل .

إن الجنى الآن لدانى القطوف ، قريب من الأنفس النقية لولا أن تعبت به أيدي الشر . أفيحفظه القوم يا ترى نصراً ناضجاً حتى يشين الحصاد أم يسبقهم إليه الشيطان ؟ .

هو من موطن الخطر على حذر ، لا تغفل عينه ولا تنام ، وإنه ليعلم أن للشر دعاة والسنة أينما كان أناس وكانت حياة . . . حتى فى صفوفه ليس يأمن أن تتسلل بضعة من حزب الشيطان لتقطع طريق السلام . فلو كان له علم بخافية الأنفس لوسعة القمع ، ولما أعياه أخذها بالعنف فتهلك أو تنفى إلى هدى الحق .

وإنه ليعلم أن في خصومه فريقا مثلهم كهؤلاء يتربصون بالصلح ويتحفزون للردة عليه . وعندما يقفون هنة فهي ذريعتهم إلى نقض عهد الهدنة الذي لم يبرم ، ووسيلتهم للسعى بالفساد بين الراغبين في السلام .

ولكنه لا يملك أن يكبح خفي الأهواء . ولا يستطيع أن يعرف بين رجاله أناسا بعينهم يؤودهم الوفاق المنشود ، وإن عرف أن خصومه قد يتعللون للخلاف بأوهى الأعذار . . . فالنفس المغلوبة على الأمر من الأمور تبدى الرغبة فيه وهي تبطن الرغبة عنه فهي حرية بأن تعتسف الفرص لنقضه والخروج منه ، ما شاءت إلى تصيد مبررات نكسها من الشبه والمظنات . . .

مع ذلك فقد فعل ما يسعه للقضاء على تلك الهنات التي قد يتخذها بعض خصومه ذرائع لإفساد الصلح ، ووقف يحذر أعوانه ، ويتوعد من عساه منهم يكتم في دخيلته ما يسىء إلى دعوة الوفاق . وكان أولئك الذين خشيم على السلم أشد خشية ، هم من شركوا في فتنة عثمان وأعانوا عليه ، فراح يحذرهم نفسه ويقول : « . . . أيها الناس ، إني راحل غداً فارتحلوا . ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء . . . وليغن السفهاء عن أنفسهم . . . »

وقد راح الأُمس وجاء الغد المرقوب . ومضى الإمام مع الصبح على رأس جيشه نحو غايته حتى بدت لهم البصرة على قيد النظرة . ونزل بهم الزاوية يتلبث وقتنا يعلم فيه : آلقوم مقيمون على عهدهم وما فارقههم عليه القمعاق ؟ . . . وعندما شارف البلدة ، وتسامع الناس فيها بنبئه ، لم يعد عديد أنصاره كما جاء بهم من ذي قار ، بل انقلت من أسوار البصرة أقوام يلحقون به مبادرين يدعمون قواته ويشدون أزره بعد أن وسعهم الآن أن يظهروا بعض ما يحسونه من ولاء غلبهم عليه الإرهاب . . .

وشاعت الحركة في الناس ، وجرت بأرجلهم الحية . . . وتأهبت بكر ابن وائل ، وتأهبت معها عبد القيس تأهب غيرهم ممن عجز بهم مكان التقاء الجيشين . وهم رجالها أن يعضوا إلى غايتهم تحت الألوية المرفوعة ويتخذوا مواقفهم في الصفوف ، فما هو أن خطت بهم قدم حتى بعث شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى يقول :

« . . . إذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على . . . »

فكأنما كانت كلماته صدى لما بنفس عمرو ، ماسمها حتى استجاب لها لم يتحمل ،
وقاد الجموع الزاخرة كراى رفيقه وجهتها ، منحدرآ بها صوب عسكر الإمام
ينحاز إلى جانبه ، ويمهد بها قواته .

وشهد الناس إذ ذاك مشهدآ لعل الأيام لم تطاع عليهم بمثله منذ عهد الرسول . . .
فهذا « زيد بن حارثة » جديد يحمل راية القوم ويكون له فيهم مكان الصدارة
كما كانت لزيد راية أصحاب محمد وجنده في مؤتة . . . أو « أسامة » آخر كذلك
الذى نصبه الرسول قائداً لجيشه إلى الشام وحاملاً للوائه المظفر . . . فقد مشى
على رأس بكر وعبد القيس امرؤ لصيق مرقوق ليس بذى حسب ، ولا ماض
يتصل بشرف لأجداده رفيع . . هو « رشراشة » مولى ثور يحمل راية القبيلتين . . .
حيث أخذ حمى الغضب بنفس وعلة بن محدوج الدهلى ، قائد بكر الكوفة ،
أن شهد شرف بقية قومه ينتهى إلى عبد مجهول الغضب تائه الأصل فى الأصول ،
وأن تدفع إليهم رايتهم دون السادة والفتية الأجداد ، فنار حانقا بابن ثور :

« ضاعت الأحساب ! . ويحك ، أتدفع بمكرمة قومك إلى رشراشة ؟ »

لقد كان وعلة فيما يبدو يعيش فى الماضى — فى ضباب العصبية الجاهلية ، التى
تقيس أقدار الناس بمقياس ثراء الآباء وأحاد الأجداد — فغم عليه أن يرى شمس
الإسلام تسطع خارج فكره القديم ، ذات سنا وهاج ، لا يلقى ظلا من تمايز بين
أخوين جمعهما الدين . . . المساواة الآن هى الشرعة ، وهى النهج الذى سنه الله
للشمر ينطلقون فيها جميعآ ، سادة ودهماء ، أشرافاً ذوى أصول وأحساب وعبيداً
أرقاء . . . رثت اليوم مفاخر الجاهلية وطأطأت رأسها لناموس العدل الاجتماعى
فلا فوارق ولا طبقات . ونصب للناس ميزان آخر ، ترجع فيه أقدارهم بغير
ما ألفوه من قبل وورثوه . . . فما صدارة إلا لكفاية ، ولا جاء إلا بعمل .
ولا حسب إلا بمجد يقدمه القلب واليد واللسان . . .

وتلك بادرة بدرت ذلك اليوم فكانت ناضجة بتهيؤ الأنفس لاعتناق المثل
العليا التى منها التنزيل . جاء أوان تطبيق هذه المبادئ السامية بالفعل بعد بثها

بالدعوة ورسمها بالحروف والقول وإنها لعنوان لكتاب العهد الجديد الذى يفتحه الإمام ، ويود بكل قطرات دمه وخفقات فؤاده أن يكون تنمة عصر الرسول لو أمهلت له الأيام .

فلعل ابن ثور حين جاءه تأنيب وعلة واعتراضه قد ذكر ما كان من غضب أصحاب محمد حين قدم عليهم زيدا مرة ، وأخرى ابنه أسامة . ولعله ذكر أيضا كيف استقبل محمد غضبتهم القى لم تؤججها إلا عصبية للجاهلية بقيت بغضبة أشد منها وقال :

« . . . لقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة . ولعمري لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة . وإنه لخليق لها »

وإن رשרاشة لخليق وإن توطأت به منازل الجدود ، وتاه حسبه فى غمار الجاهيل

وكذلك لم تحرك حمية المصيبة ، التى ود وعلة أن يثيرها فى قلب صاحبه ، شيئا من نفس ابن ثور ، ولا لقيت كلمانه سميعا لديه ، بل وجدده ييمث إليه بجواب يقطع عليه السبيل :

« أغن شأنك فإننا نغنى شأننا يا ابن محدوج »

ومضى بالرجال ، ومولاه على الراية ، إلى عسكر الإمام

وتهااتف الناس وهم يرون خروج هذا الفريق الذى تنطق فى وجوههم الشجاعة ، ويرتسم العزم ، وتبدو علائم الجلد والصلابة :

« الغالب من كان معه هؤلاء »

على أن علياً لم تكن به حاجة لجند يشد أزره ، ويرجع كفته على كفة خصومه فما رنا لغير الصلح ، وليس يسعى قط لإنشابه قتال إنه ليود مخلصاً كل الإخلاص لو انثنت الطائفتان جميعاً عن الحرب ، وأصغوا لصوت الحكمة عسى الله يلائم الصدع ، ويجمع الكلمة ويم الصقوف ولقد أبى فى هذا الوطن الذى رأى فيه جند عدوه عديداً يفوق جنده أن يستمد الناس ، عاماً كما

كان من قبل . . . وها هو يرد عون الأحنف بن قيس ، ويأبى عليه أن يأتيه
بقومه مدداً ، فكفاه الآن ما لديه ، فما يروم إلا الإصلاح . . .
أقبل الأحنف حين رأى جعافل الإمام تشارف البصرة ، فقابل أمير المؤمنين ،
ثم قال :

« يا أبا الحسن . . . إن قوما بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً
تقتل رجالهم ، وتسي نساءهم . . . »

فمجبب الإمام . . . أهى دعوى يا ترى بثها خصومه لتخذيل الناس عنه ، بل
لجمعهم في صفوف مناوئيه حتى يتعقبوا مصيراً فاجعاً لن يتجنبوه إن هو انتصر على
أولئك الخصوم ؟ . . . وهل لها وأمثالها في النفوس إلا إثارة الخصومة والمنازعة
وإضرار نار الحرب التي عمل جاهداً على تسكين ثأرتها ، وهدم كل ما بناه
في أساس السلم المنشود ؟ . . .

والتفت إلى الأحنف بحبيبه في توكيد تشوبه الزرابة بهذه الأباطيل :
« ألم تسمع قول الله عز وجل : لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ؟ .
يا أحنف . . . إنهم قوم مسلمون ، وما مثلى يخاف هذا منه ! . . . »

فهدأت نفس الرجل ، واطمأن باله . وود في هذه الآونة أن يمد يداً بالنصرة
لهذا الذي لا ينضح قلبه بغير الصفاء وخشية الله ، فقال :

« أصلحك الله ! . . . أما لئن شئت أتيتك — »

وراح يعرض عليه عونه .

ولكن الإمام كره منه أن ينقض لأجله عهداً قطعه على نفسه للزير وطلحة
بعد دخولها البصرة ، باعتزال القتال هو ومن تابعه من قبيلته والانحياز دون
الرمي فيه بسهم إذا نشب بين الحزبين . . . كره نقض العهد وإن كانت له من
ورائه قوة وشدة أزر ، وقال له :

« وكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ . . . »

فأجابه الرجل في حماس :

« إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم . . . »

فلم يلق على جوابه بالقبول . . . إنه ليأبى عوناً يأتيه من نكث وهو المفتون
بالمثل العليا ، المجاهد في انتصار مكارم الأخلاق . . .

وقال يسأله بعد قليل :

« فهل أنت مغن عن قومك يا أحنف ؟ »

« نعم . »

« فكف من قدرت على كفه . . »

وحسبه هذا منه إذ هو وفاء بالعهد . . .

وهكذا ظلت غيرة أمير المؤمنين على الصلح ، وحرصه الدائب على تدعيم
أسبابه بغير انتهاز للفرص لدعم قواته ، ولا عدوان على المبادئ الأخلاقية من
أجل إضمار خصومه ، وإن كان الموطن يوشك أن يكون موطن حرب ترخص
فيه المبادئ ، وتصبح الكلمة فيه للسلاح والجنود . . . أما هو فالحلق القويم
جنده ، والحلق سلاحه — الحق الأمثل الذي لا تشوبه الشبه ، ولا يتغير اتجاه
وجهه مع الريح . .

٥

قال على :

« الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه . . . »
هذه حكمة بالغة ، بقيت علماً على وفائه بالوعد ، ونهجا واضحا ألزم الناس
هدية ، وحملهم عليه ما وسعه . وليس عهدنا بحديثه مع الأحنف بن قيس يبعد .
وكانت شعاره منذ راود الصلح خاطره ، ومن البدء راوده — من اليوم
الأول الذي أتاه فيه نبأ انقلاب عائشة وصاحبها عليه . فظل أبداً مستمسكا
بكلمته ، لا يعل الصبر ، محاجزا دونها أن تفسدها وقعة . يبلغها خصومه على
أحرف الكتب ، وفي حديث الرواة ممن سمعوه ، وبالسنة من استفسرهم وهو
منها في وثاق شديد . . . ولقد بلغ من حرصه على أداء دعوة الوفاق غير ملتبسة
بشبهة إلى الشعب وإلى المنتفضين ، أن كان يتخير رسله ذوى قدمة في الدين ،

وصحبة رسول الله ، ورأى تتلقاه الأذن بحسن الإصغاء . . . كان من دعائه لها عمار ، والحسن ، وابن أبي بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر أخيه . . . وكان سفراؤه لأصحاب الجمل القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وحكيم بن سلامه ، ومالك ابن حبيب . وإنهم جميعا لخيرة . . .

وذاث يوم استعان أيضا بصاحب آخر من أصحاب الرسول ، له في الإسلام شأن وماض معلوم ، ولديه من نبيه بيعة قد تهدي القوم . ذلك أنس بن مالك . قالو ذكر الصاحبين لذكرا ، ولو عاد بذهنيهما المهقري إلى عصر النبي فلربما سما من بين غواشي الذكرى صوت محمد يحىء من القابر ، محذرا إياها هذه الفتنة الواقعة وما تكشفت عنه من حرب هما أن يشناها على ابن عمه وهما ظالمان له . . . إنه حديث مضى اسمعهما الرسول ، وشهدهما أنس يسمعه من فم الإلهام . ولكنه إذ بعثه إليهما الإمام التوى به عنانه دون القصد . . . ذهب وعاد ولم يقم بما ذهب فيه . لم يذكرها الحديث وعندما سأله على عن نتيجة سفارته قال : « إني أنسيت ذلك الأمر . . . »

أنسيه . . . أخفا أنسيه ؟ أم أغفله ؟ . . . أم ركن إليهما ثم آثر أن يحتج بالنسيان ؟ . . .

ورماه الإمام بنظرة فاحصة يسر دخيلته . . . ورد عليه في هدوء رهيب : « إن كنت كاذبا فضربك الله بها بيضاء لامعة ، لا توارىها العمامة . . . » . . . وندع ابن مالك ومصيره ، ينبئنا التاريخ نبأه بعد حين . . . فقد حقت الدعوة عليه ، وأمضى حياته من بعد ملثم الوجه يخفى البرص الذي شاع فيه . . . وكذلك لم تفقد الإمام الوسائل عن استفتاء الصاحبين إلى السلم ، ولم تعوزه الرسل ولا الرسائل . وظل مقبلا على وفائه بوعدده . وحين نزل البصرة برجاله كانت لهفته على الصالح أشد . فما نحسب إلا أن بعض النفوس بها لم تخل من توجس ، ولم تمنح منها آثار ريبة وأصحابها يشهدون إقبال جنوده المجيشين في حشود حافلة صوب بلدتهم التي راودها الأمل فترة في السلام . . . وهل شيء أبعد عن أذهانها من الرجاء في وفاق يحىء في ظلال الأسنة المشرعة والسهام

المريشة ؟ . . . فلكل كتاب عنوان . . . وها هي الجحافل تنطلق إليهما كالسيول وفي خطوها تنطق الحرب . . . وها هي أداة القتال الرهيبة تشارفهم فنشارف معهم أداة مثلها ذات بأس شديد . أفئن ندت هنة عن رجل من فريق في حق خصومه أليست تسكفي أن تؤجج اظي الحرب . في هذا الوقت الذي توترت فيه الأعصاب ، قبل أن يسع الحكمة تدارك الأمر وكبح التحفيزين للصراع ؟ وهل تؤمن من كل أولئك شررة تطير فتسمر النار ولما يستقر بعد في قلوبهم الإخلاص للصلح المنشود ؟ .

فلعل علماً لم يغفل هذه النزعة التي انطوت عليها جوانح كثيرة وهو يقارب أصحاب الجمل ذلك اليوم بقواته . . . ولم يغفل معها أيضاً ما يبثه دعاة الوقيعة بين الناس لتوسيع الخرق كي يمز على الرثق ويهي الراتق . فما أن استقر به مكاته حتى رأى أن يبادر إلى العمل قبل أن تثير النفوس رؤية العدو عدوه يخطر آمناً على قيد ذراعه ومرمى رمحه ، فتلك تجربة شاقة على البشر يعسر أن يطبقها كل الناس ، ومحنة للقلوب التي أعمتها البغضاء والعداوة ، وإغراء لا يثبت له إلا من كان ذا سلطان غالب على مشاعره وقدرة قهارة تملك نزعاته .

. كان يعلم أن السلم أضحى بعض رأى الصاحبين ، فكذلك نقل إليه القمعاق ، ولما كنه من خلجات صعبهم على غير بيته . . . وكان يعلم أيضاً أن الصلح جرى كلمة على لسانيهما ثم علم القلبين عند الله ، فقد عا بذلا له وعدا ونقضاه . . . وإذا كانا اليوم يعنيان حقاً السلام فيا ترى كيف إليه السبيل ؟ . . . على أي أساس يريدان إقامة صرحه ؟ . . . ما هي التفاصيل التي تبرم عهده فتحيله حقيقة واقعة بعد إذ هو مشيئة تحتاج في الصدور ؟ . . .

ذلك ما لم يتبد له بعد في ضوء يكشف الغياهب عن النيات . . . نعمة حاجة به لاستنبائهما بقية شرح بعد الإجمال فلئن كانا أفرا للقمعاق بمجدوى « التسكين » — الذي لا بد جاء في أعقاب السلم — على الأمر الذي قاما فيه لأنه كفيل بتهدئة الأنفس ، عون على قتلة عثمان . . . وقبل أيضاً أن « يبايعا » ، فما أحد يدري على التحقيق إن كانا يعنيان البيعة على صلح مشروط أم على إمرة الإمام ؟ . . .

اللقاء إذن خير ما يحسم الأمر . ويكشف عما تكن الصدور . . . وهو
أدعى إلى ترقيق الأنفس وميلها إلى اللين ، لما قد يشير من ذكريات قديمة
عزيزة على المتلاقيين تنقشع بها غيوم الخصومة . . .

وكان الزبير قد بدا على رأس جيشه ، تخطر فرسه به أمام الصفوف وهو
دارع في الزرد والحديد ، متقلداً سلاحه ، تياها بياض له في الحرب عريق ، فما
أن بصر به الإمام حتى لانت له أساريره ، وقال لمن حوله من رجاله :

« أما إنه أخرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ! . . »

ومضى إليه من لحظته حاسرا ، بغير درقة ولا درع ، غير ملق بالا لتحذير
أعوانه ، وإهابتهم به أن يعد العدة لهذا الفارس الشاكي السلاح . . . مضى
مزوداً بالإيمان وحده نحو خصمه الشجاع ، فإذا طلحة أيضاً هناك ، كامل التأهب
كصاحبه ، تام العدة . . . ودنا منهما أمس دنو وأقربه حتى اختلفت أعناق مطاياهم ،
وظن كثيرون أن قد جاء للنزال لولا أن رأوه أعزل . . . ثم راح يحدثهما في
هدوء وعينه تتأجج نظراتها على جندهما المحشود :

« لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، فهل أعددتما عدوا عند

الله ؟ . . . »

وأردف وإن بصوته رنة نذير :

« . . . اتقيا الله ! . . ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة

أنكاثا ! . . » .

فراحا معا يتثرانه النظر برهة من النظر قصيرة تحدثت في عيونهما خلالها
الحيرة . . إنه نفس الرجل ، كأن الأمس لم يذهب عنه ولم يطلع عليه يوم
جديد . ذات القلب الراسخ ، والجبان الثبت ، والسكيان الوطيد الذي لا تنال
منه عواصف الأحداث إنه أعزل . . . حاسر ولكن هيبته غطت هيكله كله
بالدروع حتى حوافر المطية ! . . .

والتفت هو إلى الزبير فدعاه إليه ، وانحاز به ناحية بعيدة عن رفيقه يناجيه :

« ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت ؟ . . . »

« أنت ! »

فمجب :

« أنا ؟ . . »

ولكنه عجب كان يشوبه بعض الإعجاب ، فقد كان يكبر فيه الصراحة التي تضع دائماً خفق قلبه على طرف لسانه . . .

وأنت هادئاً لرأى الزبير وهو يتابع الكلام :

« نعم أنت . ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ، ولا أولى به منا ! . . »

« لست أهلاً له بعد عثمان ؟ . . »

« نعم . »

فلاح الأسف على وجهه على وقال :

« قد كنا نمدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك — ابن السوء ! —

ففرق بيننا وبينك . . . »

عندئذ صاد بينهما الصمت . . لكان الزبير شام الحق في كلمات غريته فسكن يتدبر . . إن الحديث هاج ادكاره ، وردّه إلى عهد غابر كان الصبا فيه غضا ، وكان الشباب ريان كبوا كير الزهر ! . . ذاك عهد جمعت فيه بينهما القربى وعظفت القلب على القلب ، ومضت بعده الأيام فوثقت الوشائج وزادتهما ألفة ، إذ وصل الإسلام بين الروحين في حب الله . . . وطافت به الذكري في ماضيه ، وبذلك المحنة التي شهدته ينحاز لابن خاله بعد موت الرسول ويقوم مناضلاً عنه ، مدافعاً عن حقه في تراث النبي وإن باء في سبيله بغضب الصديق ، وإن عصف بهما معا حنق ابن الخطاب فجمع الخطب حول دارهما ليجعلهما طعمة للحريق . . كم للذكريات من يد آسية تمسح حزازات الأنفس حتى لتوشك أن تطهرها تطهيراً من أدران الأهواء . . وكم لها على القلوب الذاكرة من سلطان يردها سيرتها الأولى كأنها وليدة لا تعرف الضغينة — لم تطعم لبان الحقد ، ولم تلقم ثدى البغضاء . . .

وبدا الصفاء هنية على أساريه . . . فلولا أن نعمة حجة لا تكف تعرض له
ويمكن أن تثبت في مجال الجدال للآنت عريكته وألس قياده إلى ابن خاله . . .
أما الآن فإنها تقطع عليه خيط ذكرياته ، وتنفى به ثانية إلى اللجاج فيقول :
« . . . وأطلب بدم عثمان ! . . »

فهز الغضب العاصف نفس على لهذا الادعاء ، وقال بجفاء :
« دم عثمان ؟ . . بل أنت وطلحة وليتاه ، وإنا توبتك منه أن تقيد نفسك
وتسلمها لورثة الشيخ . . . »

أفيسعه يا ترى أن ينكر هذا الاتهام الذي ساقه إليه الإمام في غير لبس
ولا خفاء فينكر معه ما وقع منه — وشهد به الناس — في حق الخليفة القليل
من التآليب والتحريض وإثارة أعوانه عليه حتى نزل به القضاء ؟ . . دون هذا
بغير شك ويصبيه الحسر ويستعصى عليه الكلام !

وأصرع على يتم حديثه ، لين اللفظ ، بادی الرقة هذه المرة :
« يا أبا عبد الله . . . »

فانتبه الرجل من غمرة جزعه ، وألقى السمع .

« . . . نشدتك الله ، أنذكر يوم مررت بي ورسول الله متكئا على يدك
وهو جاء من بني غنم ، فسلم على وضحك ، وضحكت إليه لم أزد ، فقلت أنت :
لا يدع ابن أبي طالب زهوه ؟ فقال لك : صه ! . . إنه ليس بذى زهو ، ولتقاتله
وأنت له ظالم ؟ . . »

فأغضى الزبير حتى لأوشك جبينه أن يعس صدره ، وغاض لونه ، ومشى
بقلبه الندم كزحف الرقطاء وهو يجيب :

« اللهم نعم . . »

« فماذا تقول ؟ . . »

« لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه . . . والله لأصرفن عنك ! . . »
وغادره ، لم يرد إليه طرفه والأسى يغشى عينيه بدمع التوبة . . .

. . . أما طلحة فكان منتفخ النحر ، عاقصاً قرنه كما وصفه الإمام ؟ . . .

إن ربوة من الطموح ساقطة تحت قدميه ، تكاد أن تناطح به صفحة السماء .
الأعوام الماضية كلها لم تذهب عبثاً . ولم تغب شمسها قط عن رجائه . . . إنما الأمل
كان يسير بين يديه ، على وقع خطاه ، ويمهد له الطريق . وكان المجد السياسى
شاغل قلبه وعينه . هو فى الليل رؤيا حالم ، وفى النهار حلم يقظان ! . . .

وكانت عشرين بل أكثر . أربت عدداً حتى أوشكت أن تصبح نصف أيام
حياته فى هذه الأرض . . . سنوات من الطموح الدائب كانت عمر آماله ، وكانت
الربوة التى اعتلاها إلى هدف غدا الآن فى نطاق العيان وقيد البنان . فكيف
يسعه أن يدع هذا البناء الشامخ وينزل — دفعة واحدة — من عليائه ؟ . . .
كيف يهدم يديه ما غالب عليه الحدثان حتى استطاع أن يقيمه صرحاً باذخاً ذاهباً
فى السحاب ؟ . . . أفهى هكذا من حالق بلفظة لوم عابرة يأتيه بها ابن أبى طالب
أو بكلمة عتاب ؟ . . .

منذ وضع أبو بكر قدمه على حافة قبره حلم الرجل بالمجد ، وتهاياً أن يتسربل
بطيلسانه . فقد كان أحد قلائل من صحب محمد المختارين ، وفرداً فذاً بمن قامت
على أكتافهم رسالته . وكان أيضاً سيداً فى قريش ذا حول ، لا تطول قدره من
بينها إلا قلة ، وذا قربى بالخليفة الأول وثيقة العروة . ولكن الموت لم يأت به بدهفه
إذ أوصى قريبه لغيره بإمرة المسلمين ففاز بها ابن الخطاب . فلو كان أفضى بها إليه
لاستقامت ، ولبغت شأوها وبلغ شأوه . غير أن نعمة شيئاً احتجز عنه هذا المجد
فكان امرءاً فى غمار الناس أو يكاد ، لا ميزة له إلا سابقته . . . وكلا راح يتدبر
كيف أغفله الصديق من حسابه عند الوصية وقدم عليه سواء ، امتشعر الهم ومررت
نفسه . فتلک أعوام طويلة من الدأب لإعلاء شأن أمته ورفع كلمة الله كانت أمامه ،
غير أنها مضت به فارغة إلا من المنى والأحلام . . .

وهو الآن يعيش أيضاً في الحلم . ولكنه حلم نحله حماسه بعض حرارة الحياة ثم آتته الأيام ببعضها الآخر . . كم طالما عابوا عليه شيئا يراه فضلا ويرونه نقیصة وكنظرتهم كانت نظرة الشيخين إليه . . فهو عندها واسع رحبة الأمانی ، إن أحسن اختيار التعبير وأريد الترفق ، يرى نفسه بغير أعین الناس ، وبغير أعینهما هما على الخصوص . وما زال حتى الآن يذكر كيف جبهه أبو بكر بصراحة تؤذیه ، لم تعرف الترفق ولا المداجاة في الخطاب ، عندما وجده يعترض وينسکر اختياره عمر أميراً للإسلام . . . قال له خليفة الرسول حينذاك :

« . . . والله لو وليتك لجعلت أُنْفَك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها . »

كأنما الاعتداد بالنفس كان شيئا يعاب . . .

وحق ابن الخطاب كذلك لم يكن أرفق من سلفه ، ولا خيراً له منه . كان يتحدث له بلسان صاحبه ، وبالمنى الذي تنقله ألفاظه القديمة . ما من رجل فيهما وجد في اعتزار طلحه فضيلة تعزز جانبه ، وترفع قدره على أقدار غيره من أصحاب الرسول . كانت العزة في معجمهما كبرا وعلوا ، وكان الاعتداد صلفا وزهوا . بل قد أوشكا أن يدعوا صفته غرورا يؤخذ به ويلام عليه . . . وما كان به غرور إلا أن يرمى رجل ، يستشعر في نفسه قدرة على الاضطلاع بالأمور ذات الخطر ، بمثل هذه النقيصة . . .

وها هو اليوم يرى عليا يؤازر الآخرين . . . ولو أنصفوا ثلاثتهم لكان حماسه شفيها له لأنه حافز قوى يدفعه إلى إحكام تدبير شئون الدولة لو أفضت أمورها إليه . فبقدر الرغبة يكون العمل ويكون الدأب فيه . ولو أنصف الثالث لراة حقيقة بالمكان الثاني بعده في الدولة — على الأقل — إذ كان وحده مقبوض عهد عثمان . . . إن هذه الخواطر التي تتوج في ذهنه ، وهو يشهد الإمام يسير نحوه بعد أن فرغ من حديثه والزيير ، كانت تعدد ببعض ما يصلح حجة له في الجدل القريب . ولم يكن يغفل أن ثمة ثغرة في براهينه قد تغلبها عوننا عليه لا عوننا له . ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يؤمن أنه مختص في طلبه بدم الخليفة القتييل

فقد رام عزله ، لم يرم قتله لولا أن غلب السفهاء ومضت بهم الثورة في غير سبيلها المرسوم من قبل ؛ لأن الثورات كالسيل ، إذا تحدر لم تعد بأحد طاقة على اعتراضه . . .

وبقى بعد هذا أنه شهد الأمة منقسمة على نفسها — أمته التي حلم طويلاً بأن يقودها في مطالع المجد قد فرقت بينها دعوته جيشين عدوين يتصاولان بالسلاح بعد المجادلة والنقاش . . . إنه لا ينكر أن بضعة من تبعه هذا الصراع تقع على كاهليه ، فلو أخذ برأى على من البدء وتلبث معه حتى يتفرق الناس وتنفى إليهم نفوسهم بعد مصرع عثمان لكان خيراً لهم أجمعين ، ولبقى للدولة تماسكها وظلت وحدتها وثيقة ، ثم بلغ من الجناة وطره . . . ولكنه لا يملك إلا أن يرى في هذه الفرقة ذاتها حجة له إذ كشفت عن جانب كبير من الشعب لا يدين لعل بالطاعة . هذا الجانب الذي يرى المبادرة إلى القصاص كان لا شك برما بسياسة الإمام ، برما كذلك بإمرته ، فما يعصيه وهو يواله . . . وهو أيضاً قوة لها خطرها ، لا يجدر أن يغفل شأنها ، ولا يستهان برأيها أو ينكر حقها في اختيار من تراه حقيقاً بتوسد أريكة الحكم من بين أولئك الذين تشمر نحوهم بالرضاء ولا تمنع عنهم الولاء . . .

وعندما أقبل على عليه ، وهم أن يحادثه ، كان الرجل قد أخذ الأهبة حتى لا تشغله الهيبة ، التي يحسها تقع بقلبه حين يرى ابن أبي طالب ، عما يريد مصارعة عليه ومجادلته فيه . . . وقف يتحفز ، ثابتاً في مكانه يروض نفسه على رباطة الجأش . . .

وسأله الإمام :

« يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟ . . . »

فبادر من فوره يجيب :

« دم عثمان » .

« قتل الله من قتله . . . »

أتعريض ؟ . . . أعنى على أنه يلصق التهمة به كما رماه بها غيره كثيرون ؟ يكاد

هذا أن يكون . فذات يوم قال الإمام فيه :

« . . . والله ما استعجل متجردا للطلب بدم عثمان إلا خوفا من أن يطالب بدمه لأنه مظته . ولم يكن في القوم أحرم عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلبس الأمر ، ويقع الشك ! . . . »

ومع ذلك فتلك الحرارة التي أحسها طلحة في دعوة خصمه ، والتي استشعر معها رجفة بفؤاده إذ صاحفت لفظانها القليلات سمعه ، لم تستطع رده عما عزم عليه ، بل مضى يقول :

« إنك ألبت الناس على عثمان . . . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وعلى قد طوفت بثغره بسمة إشفاق ، وغطى الهدوء قسبات وجهه وعيناه ترنوان للسماء :

« يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . . »
عندئذ صمت الرجل . لقد كان أولى به أن يسير قدماً إلى بغيته دون التوصل بكل هذه المناعم التي تبعده عن هدفه ولا تدنيه ، وتضيف وقرأ آخر على ضميره الذي أثقله الندم على ما فرط منه في حق عثمان وحين سمعه أن يلوذ ثانية بالهدوء الذي أوشك أن يعصف به هدوء هذا المظلوم البريء ، راح يقول بغير تلثم وفي إصرار عجيب :

« فاعتزل هذا الأمر ! . . . »

« أعتزل ؟ . . . »

« نعم . ونجعله شورى بين المسلمين . فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك . . . »

فهذه هي القضية ؟ . . . هذه هي النية الخفية وراء قصة القصاص ؟ . . .
وقال على ولما تختلج فيه جارحة :

« أو لم تبايعني طائفاً غير مكره ؟ . . . »

« بايعتك والسيف على عنقي . . . »

فصابر لم يدع هدوءه ، وقال له :

« ما كنت لأكره أحداً على البيعة لي . . . ولو كنت مكرها أحداً

لأ رهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة ، أبوا البيعة واعتزلوا فتركهم . . . »

ولم يكن طلحة بحاجة لمن يذكره قصة البيعة ، وماتم فيها ، ومبادرته إلى كف
على يسبق إليها الناس بالولاء . لم يكن به حاجة إلى من ينقل له صورة صادقة
لذلك اليوم القريب إلى الأخلاق وقد كان هو بمن رسموه وسطروا أحداثه في سفر
التاريخ . . . ولكنه الآن غيره بالأمس . تبدلت به الحال غير الحال . ومالت
المشاعر فقال . هذا الصرح الباذخ من المني والأحلام عزيز عليه هدمه . فلقد
أخذ من حياته أعواما توشك أن تكون نصف عمره ، وأوفى به على الغاية
اليوم . . . الحلم القديم هم أن يشرق وتسقط شمس ، وما أعسر على النفس أن
تنفض الأكف من أحلام المجد ! . . .

في لحظة غدا الرجل كما وصفه ابن عمه خليفة رسول الله . يجعل ألقه
في قفاه . . . الزهو والكبر والاستعلاء سدت دونه مسالك التفكير ، فلم ير
أحداً أحق منه بالأمر ، ولا هذا الذي عاهدته علانية على الولاء . أم لا فكيف
إذن نقض البيعة وحنث في اليمين ؟ إنما له حجة تؤازر النكت وتقوم ذريعة
تبرره ، ونبش الماضي حتى عثر بها في أطلاله ، ثم نهض يرمى بها وجه غريمه في
اعتداد وخيلاء :

« يا على . . . كنا في الشورى ستة ، فمات اثنان . . . وقد كرهناك نحن

الثلاثة ؟ . . . »

شورى عمر عادت ثانية إلى الحياة ؟ . . . لوح بها طلحة كما يلوح بسيف ،
وقد حسبها البرهان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! . . .
لقد يعجب المرء كيف يراها الرجل حجة له تؤيد دعواه اليوم بعد أن دالت في
الغابر ، ولكن عجبه يخف هونا بغير شك إذا تدبر الحال النفسية التي كان عليها
طلحة في هذه الآونة التي حاج فيها الإمام . . . إنه ليتحدث بمنطق من يتصيد
الأدلة ولا دليل ، فكانت حجته تلك قشة العريق ! . . .

ومع ذلك فلنر إلام سوف تسوقنا ذريعته ، وإلى أي مدى تستطيع أن تظاهره
وتسند ادعاءه . . . فقد جاء عمر غب الطعنة بشوراه وهو يتعرج أن يوصى
بالأمر لأمريء بعينه ، أو يدع الناس يختارون لأنفسهم فتقع بينهم فتنة تؤدي إلى

الاتقسام . وكان يخشى كلا السبيلين ، فاختار نهجا وسطا لأمة . وحدد نفرا من خيرة صحب الرسول حبس فيهم خلافته ، ومنحهم وحدهم الحق في اختيار الخليفة . فكان نهجه هذا ترشيعا وانتخابا في آن

فمن كان أولئك الناخبون المرشحون ؟ .. ومن بقى منهم في الحياة اليوم ؟ .. رأيهم أقرب أن يعهد إليه زملاؤه بالأمر ؟ ..

هم الآن ثلاثة سوى الإمام : طلحة ، والزبير ، وابن أبي وقاص . بايع اثنان ونكثا ، واعتزل الثالث . ومن كلا النكث والاعتزال استخلص طلحة حجة لازعومة ! . . .

وأول ما ينقض هذا الزعم الممتسف أن شورى عمر كانت وصية تفد الغرض منها بعد أن تمت البيعة لعثمان . فما يسع عاقلا أن يراها خالدة على الزمن تلزم الناس بعد انقطاع عهدهم بصاحبها ، وبعد انتقال العهد منه إلى غيره ، لأن الحق في الإيضاء غدا خلفه دون سواء ، ولم يوص الخلف الأمة بشئ . فهي وصية واجبة النفاذ ما بقيت بغير نفاذ ثم تذهب ريحها بذهاب الظرف الذي أوصيت فيه والسبب الذي شرعت له . . . فمن عجب أن يبيع طلحة لنفسه تحميلها غير ما تطيق !

وثاني ما يدحض تلك الحجة ، لو ترققنا بها وسرنا وزعم طلحة ، أن اثنين بايعا واعتزل ثالث ، فصحت إذن بيعة الإمام بثلاثة أصوات . ولا عذر عليه في نكث الناكثين ، بل الإثم يلزم من نقض العهد وحنث باليمين !

ولكنها — كما أسلفنا — حجة من يعتسف الحجة ويتصيد الأدلة ولا دليل ، والقشة التي يحسب الغريق أنها عاصمته من الغرق ! فما زال طلحة يحلم بالمجد ويجهد لبوغيه من أى سبيل ، وإنه ليمد بصره فيراء دانياً منه لولا هذا الذي يسد عليه المنافذ ويفسد الوسائل . أفما يحق له أن يعمل على تنحيته من طريقه لعل نفحة من الحظ تواتيه فيختاره الناس أو يحتلب هو النفوذ حين سانحة تعن له أو تسوقها إليه الأقدار ؟ . . .

وهز على رأسه أسفاً لهذا اللجاج الذي آثره الرجل على الحاجة بالدليل والاحتكام إلى البرهان دون التزليل . وهم يغادر المسكان عائداً إلى صفوفه وإن نفسه لحزينة على رفيق ماضيه . فما كان شئ أحب إليه من هدايته وتألف فحماسه . . . وما سار مسيره هذا إلا ليستقيته إلى موطن الحق والوفاء . . . على أنه مع ذلك رأى أن يرد عليه زعمه قبل أن يبرح ، فلعل الله أن يبيء له رشاده . . .

قال له مصابراً ، في رفيق وهوادة :

« يا أبا محمد . . إنما كان ألا ترضى قبل الرضا وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لك غير ما رضيت به ، إلا أن تخرج عما بويعت عليه بمحدث . فإن كنت أحدثت حدثاً فسمعه لي . . . »

فلم يجب بشئ . وهل كان بمقدوره أن يجيب ؟

وعاد الإمام — وقد شهد حسره — يعاتبه ، عسى أن يمينه العتاب على نقاشه فالاعتناع من بعد . . وكان عتاباً كله مرارة وامتنكار :

« . . أليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم ؟ . . أكان رضا لرسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا سترأ ضربه عليها وتخرجوها منه ؟ . . »

« إنما جاءت للاصلاح . . »

فابتسم الإمام بسمة فيها عجب وفيها زراية :

« يا أبا محمد . . هي لأمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج . . . »

وبعد عنه . . .

وحين بلغ صفوفه ، وسأله صحبه عما انتهى إليه الحديث قال :

« أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحه فسأته عن الحق وأجابني بالباطل . ولقيته باليقين ولقيني بالشك فوالله ما نفعه حق ولا ضرنى باطله . . »

ثم رمى بعينه إلى بعيد . . إلى المجهول الغائب عن رأى الميون والضائر ، واثنتي بعين تجول فيها دمة ، وهو يهمس — كأنما لنفسه — بصوت خفيض :

« أما إنه لاقتول . . غدا . في الرعيل الأول . . »

٧

أعن رهبة وضعف وانهار عزم ؟

كثيرون حسبوا هكذا الأمر . ظنوا حرصه على السلم كان وليد خشية تملكه كلما جال ذهنه فيما حشدوا له من رجال وعدة قتال . . فلعلهم إذن نسوا ماضيه ، وذلك التاريخ الحافل الذي انقضى به وفي كل صحيفة منه سطور خطتها شجاعته ، ورسمت بها صورة له فريدة بين الأبطال ، غاب عنهم ذلك الفارس القديم المقدم ، الذي شهد الزمن في مطالع الإسلام معلماً مجلى لم يبلغ شأوه من قبل ضريب ولا من بعد قرين . أنفذتهم الأعوام عن حقيقته فاخفت عنهم وراء ستر النسيان ؟ . . أم قرنوا الظن بتقديم عمره وقد خاض السن التي يلين فيها العزم وتهافت الصلابة ؟ . أم لافأثر الدعة والسلامة تأنياته في نعومة الحياة ؟ . . بلى قد رأوه بأعين حدسهم عدا عليه هرمه ، وركن للتخاذل ، ودبت الشيخوخة إلى عزيمته ديبها في ملامحه حتى أصبح وليس له من فروسيته الأولى غير ذكرى تراود الذاكرات . .

وكانوا في حسابهم مخدوعين ! . . لو استطاعوا نصفاً لأنصفوه . ولكن ظنهم دفعهم عن الحق ، ومشى بهم عن الغاية . فلم يكن فحسب خطرة من الخواطر العابرة تجول في الخلد ثم تفر كأن لم يكن لها من قبل كيان ولم يعد بقاء ، بل مضت حديثاً تلوكه الأفواه ولغطاً تبعته الألسن زراية وسخرية ، في السر والعلانية . فكم أرجفوا بوهنه ، وبجبنه . . . وكم عيروه وعابوه حتى لقد طال ما كان يدفع ويقول :

« . . ومن العجب بعنهم إلى أن أبرز للطعان ، وأن أصبر للجلاد . . هببتهم المبول ؟ لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . وإني لعلى يقين من أمر ربي ، وغير شبهة من ديني . . »

ولكنهم رأوه قولاً لا ينضح بغير المباهاة بماضيه ، والاعتزاز بهمة له غربت في الغابر . . أما أمسه فذهب إلقبساً خافئاً كأنه لمح النجم خلف

الغيوم . . . وأما الحاضر فشمسه مشرقة على آفاق عالم من آمالمهم فسيح . إنهم على ثقة منه ، فيما يتصل بهم من دلالاته وأحداثه وما يتصل به . . . وأما الغد فهذه أمامهم بشأره ، كطلع الزهر وبواكيره ، كلما رنوا بالميون إليها ازدادوا إيماناً بنصر قريب .

لقد كانت الأنبياء تأتيهم بخبر رجال يظاهرونه ، شدوا إليه المطى وانتظمتهم صفوفه ، ولكنها جاءتهم أيضاً بنبأ كثيرين تخلفوا عن ركابه وكثيرين خيخوا أمله فيهم فنقضوا عهدهم له باعتزال القتال مؤثرين الانحياز إلى جانب أعدائه عوناً لهم وحرباً عليه . . . فما كان شئ أبعد عن وهم أصحاب الجمل من أن تواليهم طائفة من رجال الأحنف بن قيس . أما اليوم فقد غدا ما عز على الوهم والتصور حقيقة واقعة . وبعد أن كانوا يرهبون عشيرة الأحنف حتى تألفوه وسعهم ليعتزل بها عن النزاع بوادي السباع ، أصبح الرجل عاجزاً عن امتلاك عنان أعوانه ، وانشق عليه منهم فريق كبير التحق بخصوم الإمام . . . هذا أمر لم تخف عنهم أخباره ، بل قد بلغتهم بشراه . فما أن نادى الأحنف قومه إلى الاعتزال حتى نهض المنجاب ابن راشد يهيب بفريقه منهم :

« . . يا آل الرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر . . . »

وهتف بعده أبو الجرباء :

« يا آل عمرو لا تعتزلوا . . . » .

وصاح هلال بن وكيع :

« يا آل حنظلة لا تعتزلوا . . . » .

وكذلك اختلط على الأحنف رأيه ، وجرت الأمور بغير ما شاء ، وبتقيض

ما وعد به الإمام .

وقال الرجل يعاتب هلالاً :

« أفلا ترى الاعتزال ؟ . . . »

« بل مكاتفة أم المؤمنين . . . »

فصمت لم يعقب . وأهاب حزينا بمن أطاعه أن يتبعه إلى معتزله فلعل خاطرا

راود ذهن هلال إذ ذاك دفعه أن يغرى شيخه بالعدول عن عزمه ، فقال
في مصانعة وكبرياء :

« أفتدعنا وأنت شيخنا وسيدنا ؟ . . . »

فرماه الأحنف بنظرة ، وأجاب وصوته يقطر المر مع الكلام :
« إنا أكون سيدكم غدا ، إذا قتلت وبقيت ، فأنا الشيخ المعصى وأنت
الشاب الطاع . . . ! »

ومضى عنه بمن أطاعه من بني سعد إلى وادي السباع . . .
كان هذا نصرا بغير شك ، حازه أصحاب الجمل قبيل القتال . فتلك فرقة
لها حسابها في المعركة المقبلة ، كانوا يخشونها على أنفسهم ، ثم زادوا بها الآن
نصيرا ومنعه . . . أما البصرة فعدت اليوم دار أمان ، يسعهم أن يسندوا ظهورهم
إليها وهم مطمئنون بعد أن غادرها أولئك الذين كانوا ذوى هوى مع الإمام .
وإذا كان للوفرة أثرها في ترجيح الميزان فلسوف إذن ترجح كفتهم ، وتشيل
كلمة العدو لقلة معينه . ولن تشهد الواقعة القادمة غريمهم إلا واهنا بنفره ،
يرقون عنه كما يرق الثوب الشفاف . . . أما هم فجندهم كثير ، وأما عديدهم
فوفور ! . . .

نعم قد بدت الغلبة الآن إلى أين تميل ، وفيمن منهما تكون . ولو صدقت
الأنباء لكان ابن أبي طالب في عشرة آلاف من الأولياء ينضحون عنه أمام
ثلاثين ألفاً أعز وأوفر . فقد خرج من المدينة في سبعمائة ، ثم تلبث بذى قار حتى
صاروا سبعة آلاف ، ثم انطلق بهم صوب ميدان الصراع فزادوا ألفاً أخرى
أو ألفين ممن لحق بهم من القبائل الضاربة حول المكان . وأسخى الأنباء قد زعم
له جنداً لا يبلغ غير نصف جندهم ، أو أكثر من النصف بقليل . فهلا كان هذا
بشيراً لشمسهم بالإشراق ، نذيراً لشمسه بالأفول ؟ . . .

غاب عنهم الصواب فأخطأوا الحساب . أم كان ابن أبي طالب بتقديرهم بأنه
لنصر وحده ويسمى إليه ؟ . . لو مشوا معه بدرب عمره خطوة بعد خطوة
للقنهم حياته درسا حقيقيا على الدوام بالتذكر ، كفيلا بأن يديه لهم كما جبله طبعه .

فما هو بالفتون بالغلبة هباب الهزيمة إن جرعت كأسها دنياه . ولكنه رجل حب الحق بضعة من طبيعته ، وكلفه بنشدانه يأخذ عليه كل مسالك تفكيره . كذلك انقضى به صباه ، وتصرم شبابه ، ومضت عهود الكهولة والشيب . وأولى بهم إذ صاحبوه أزمانا أن يذكروا له هذه السجية التي لم يتنكر لها قط حين فعل أناه . أم كان يقدم في باله النصر ، ويتهاى ليستقبل الفخر يوم الخندق لما وقف يصاول عمرو بن عبد ود وكانوا في الجاهلية يقومونه بنحو ألف من الفرسان . أم شام الغيب فرآه ينطوى على ظفر ينتظره عندما انقص على حصن ناعم من خير وقد ترس عن نفسه يباب حتى أصاب الفتح الذي استعصى قبله على أبي بكر وابن الخطاب ؟ .. أم حسب الموت لا بد سيعدوه وقد رقد برقد رسول الله ليلة الهجرة وكل قريش تظنه محمداً وما منها إلا رجل قد شحذ سيفه وتهاى أن يرويه بدم هذا النائم في لفائف الفراش ؟ ..

فيما سلف من سنيه كان يومه صورة ماضية ... صورة لا تقي تتكرر كل مطلع صباح فلا تختلف في الدقائق التواقه عنها في سابقاتها قبلها فضلا عن الخطوط البارزة والشكل العام ... ذات المادة ، وذات الألوان ، وذات الأضواء والظلال . كان آنس بالموت من الطفل بشدى أمه ، يسعى مشوقاً إلى غواشيه لا يرهب مأتاه . ويسير تحت ظله أو هجيريه ، في رحابه أو دروبه ما رأى الحق غاية للسير . فلم تكن الشجاعة ثوبا اكتساه إنما بضعة من أعصابه . . .

ولكنها قريش القديعة عادت تفترى عليه الأكاذيب ، وتجهد لتنتقص منه وتنكر عليه سبحانه . كشأنها بالأمس مع رسول الله ودت أن تخدع عنه الناس . وهي اليوم تريد أن تخدعهم عن الإمام فما خدعت إلا أنفسها حتى لبستبد بها الغرور فتراه على تقيض ما سوف تراه . وليس موعد اللقاء بينها وبينه بعيد . . .
أما هو فكان راضى البال إذ سلك نهجه المستتير وإن خالفوه ، فقد أوفى ما عليه الله إذ دعاهم إلى الكلمة السواء . إنه لا يطلب النصر بل ينشد الحق ، ولينقبن عنه خاصرة باطلهم حتى يخلص إليه بسن الحسام بعد أن وهن صبره دون حماهم بالحسنى على التزام الجادة :

« . . . والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلتهم مفتونين . وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ! . . . »
كم فيهم ممن تفتت إلى قلوبهم دعوته السمحاء ؟ . . . بضعة لا تغنى عن البقية ، غير ذات خطر لا تملك شيئاً ولا تقوى على إبرام شيء . . . حتى طلحة نأى بجانبه وآثر أن يسير وهواه ، وامله يتشرع للحرب تشرع أولئك المفتونين الذين ضمهم ركابه ، ومضى يتهاى للوقعة الكبرى يحسبها ورجاله سوف تحسم الأمر وفق ما يشتهون . . .

فلعل الله أن يهدي الرجل كما هدى رفيقه منذ قليل . إن الأمل في الوفاق لم يغب قط عن قلب على ، ولم ييارح تصوره . حتى في هذه اللحظة التي أشرعت فيها الأسنة الحديدية وسلت السيوف الظمأى كان ما زال يطمع أن يكون الله قد ادخر للشيخ مخرجاً قريباً من الخلاف الذي نفخ في سعيره . فما أضيق المدى بين الهدى والضلال ، وما أرقه من فاصل ، كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار . . . وإن هي إلى خطوة إلى عين أو إلى يسار تكتب المصير ! . . .
وكان الإمام يأمل أن تجحج نفس طلحة إلى اليمين ! . . . كلما كر بذهنه إلى ماضى الرجل : وتلك الأيام الأولى من عمر الإسلام التي شهدته يبلو في الله أحسن البلاء ، رآه أكرم على الله من أن يفرق به شمل الأمة التي كان له بعض الفضل في تشييد بنيانها الركين ، وزاد إيمانا بأنها محنة موقوتة لن تلبث شدتها أن تزول . . . كان الرجاء في على يكاد يسبق الحقائق البغيضة ويود لو يحجبها عنه . وكان اهتمام الزبير إلى الجادة يوشك أن يعلا قابه إيمانا بقرب اهتمام صاحبه وميله عن هواه . أم الزبير كان أهدي بصيرة وآثر من رفيقه عند الله ؟ . . .

تأبى الرغبة إلا أن ترسم للمرء صورة المستقبل الذي يشتهي ، وكذلك فعلت رغبة الإمام . حبه السلام أفعمه ثقة في نجاح دعوته إليه ، ويقيناً بتلبية خصومه ندائه الذي سيوثق عرى الوحدة بين فريق الإسلام . ولم يكن شعوره هذا وهما كله ينبعث من الأصداء التي ترددها نفسه النقية ، بل الواقع أيضاً أمدّه ببعض الثقة وبعض الاطمئنان فلقد شهد كيف أسلس الزبير ، في اللحظة الأخيرة ،

مقاده ونزع عما كان فيه . غدا رجلا غير ما كان ، وفعلت كلمة واحدة بنفسه ما لم تفعل عشرات من الكتب والرسائل طالما حملت له العظة والعتب واللام ، وبضعة من الرسل والسفراء عجزوا عن تألفه ، في شهور وأيام

وكانت كلمة كأنها السحر . . . ليست تلك التي أنبأته بما أنسيه من حديث رسول الله ، بل أخرى فتحت قلبه ونقته حتى أحسن استقبال ذلك الحديث . . . وكان هذا قبيل التقاء الجمعين ، ذلك اليوم انشهود من جهادى الآخرة بساحة القتال إذ ذاك كانت طلائع الزبير لا تني تروود له الطريق ثم تعود إليه بأنباء تحرك جيوش الإمام . وكم من رائد أتاه ، وكم من نبأ بلغه حتى بدت أجناد على قيد النظرة من البصرة فجاءه النبأ الذى حول تيار أفكاره إلى غير مجراه . . .

أقبل عليه أحد طلائعه يقص ما استقصاه ، ثم قال :

« . . . ثم لقيت عمار بن ياسر ، فقلت له . . . »

فما تركه يتم بقية الحديث ، بل صاح به كالمفزع :

« ابن ياسر ؟ . . . إنه ليس فيهم ! . . . »

« بلى والله أيها الأمير . . . »

« والله ما جعله الله فيهم ! . . . »

واعجب أنت مع الشاهد الذى يكذبه غائب عن موطن مشاهداته

وزد عجبا من الزبير وهو ينعن فى التكذيب والإنكار كلما أكد الرجل صدق نيته . . . أما الرسول فقد امتلأ حيرة ودهشه من موقف أميره منه وهذا القلق الذى رآه يغشى وجهه لخبر كهذا من عرض الأخبار . وأما الزبير فلم يجد معه التوكيد ، ولم ترحزحه الأيمان ، بل مضى وإنسكاره وإن كيانه ليهتز من فرط خوف خفي ملكه فصيره مثل ريشة فى مهب إعصار . . .

وكأنما شاء أخيرا أن يخرج مما أوقعه فيه ذلك الخبر المزعج المخوف فهم يقطع الشك باليقين . . . وهتف ببعض أهله ، وصوته تعتريه رجفة تسكاد أن تنثر بها حروف الكلمات :

« اركب وانظر أحقا ما يقول . . . »

ووقف في غمرة من فزعة غامرة ينتظر فصل الخطاب . . .
ولكن الذى خشيه هو الذى كان . فما رأى مبعوثه يعود حتى سأله كالمهوف
« ما عندك ؟ . . »

« صدق الرجل »

فبغتة الجواب . ونال منه أشد منال حتى صاح ، ثم هاض ، ثم تماسك جهده
ومضى يفر في زحمة الناس . . .

وكان جون بن قتادة واقفا ينظر ، لم يخف عنه شيء من القصة منذ بدأها
الرائد ، فقال هامسا لنفسه وهو مشدوه :

« هذا الذى كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه ؟ . . ثكلتنى أمى !
والذى نفسى بيده ما أخذ هذا ما أرى إلا لشيء قد سمعه أو رآه من رسول
الله . . . »

ولقد سمع الزبير حقاً من رسول الله ما خلع قواده ، إذ ذكر ، ورده إلى
الصواب . سمع بنياً الفئة الباغية التى ستقتل ابن ياسر فأشفق أن يكون الأجل
سوف يوافي في هذه اللحمة نفس عمار . . وسمع أيضاً كلمات محمد عن قتاله عليا
هو ظالم وهذا مظلوم ، فرضى من أمره بالفرار . . .

وكذلك تفتحت نفسه للحق ، وفعلت كلمة عابرة فعلها فيه . . . كلمة واحدة
كان لها ما لومضة البرق الخافظ إذ تنير لمدج بليل فيتبين على سناها معالم طريقة
بعد طول تخبط في الظلام . . . أفما آن أن يصغى طلحة لمثيلة لها ترده عن غيه
وتنوء به إلى جماعة المسلمين فيتحقق الوفاق ؟ . . .

ليس هذا على الله ببعيد . فما أقرب المدى بين الهدى والضلالة ، وما أرقه
فاصلا كأنه شجرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار ، تحدد المصير فيه خطورة
إلى يمين أو أخرى إلى يسار ! . . .

الجمال

جو ساج ، وليل داج ، قرت الريح فيه بعد ثورة ، وصمت ما كان من عزيفها
الذى شابه عواء الذئب وزئير الليوث الغضاب . . . الطبيعة الشكلى رقات دمعها
ولاذت بالسكون الحزين ، تكاد تكتم الشهقة والزفرة . وأسدت على وجهها
نقاباً كثيفاً من الظلام يخفى عن العيون الوجيب المكنون . . . والضوء الباهت
الذى تخاف عن القمر الغارب كان كالطيف يلون جوانب السماء بخيوط شاحبة
من نور كلا نور ، تنشر الظلال كأنها أعلام سبقت موكب الظلام . .

ولكنه هدوء مرسوم موهوم . بدت سماته في الأراضى الوسطى ، ولاحت
آياته على رقعة الأفق النعسان . إنه طلاء . أو هو الجلد الناعم المرقش اكتسته
رقطاء . . أما الحبيء فنار حامية في جوف بركان ، تتعين لحظة اندفاع للانفلاق .
لا خباء في العسكرين كان باطنه كظاهره يشيع فيه الهدوء ، بل كانت قشرة
من السلام تغشيه وفيه حم وضرام . . بل العيون المسلمة جفونها لهدأة النوم
قد غمضت أيضاً على توجس . بل النفوس الحاملة بالدعة تهيئها في أعقاب الفجر
قد تنازعت في أحنائها ملائكة السلم ومردة القتال . . .

وكان الرجل من القوم إن خلا بنفسه يتفصل اثنين لها كيانات : في أحدها
قسوة المحارب ، وفي الآخر رقة المواطن الوديع . . وكانت الحيرة هي التي تشطره ،
تارة مع الرجاء ، وتارة مع الطيرة . فإذا تقاسمه الهم الذي يحالف الحيران ،
أسلم عينه للنوم لو أنه استطاع ، أو همام خياله في وادي حدس تملؤه أشباح من
الروى والأوهام ، أو مال إلى رفيق يبادل فكره بفكرة ، ونظرة بنظرة ،
ثم تسلمهما معاً يد الوسن إلى الغامض المجهول الذي ستبرز عليه شمس الصباح . .
لا أحد فيهم حاد به الليل عن التخمين إلى اليقين . كلهم كان من حيرته
في بحر لجى عجاج الأمواج لا يدرى على أى شاطئه سيكون مرساه . . .

حق الإمام المفتون بالسلام كان موزعا بين القلق وبين الرجاء ، يود لو ترفقت به
وبقومه رحمة الله فأزلت السكينة عليهم أجمعين : أولياء وأعداء ... وحق طلحة
اللائذ بمحمد الحسام ، السافر اللدد والحصام ، قد اشتهت عليه التائب ، أصبح
وفي يده سيف النسلخ من إهابه أو قر في قرابه ؟ . . . آية الوفاق التي استجابت
لها نفس رفيقه قد زعزعت إيمانه بشبوب نار القتال ، واحتدام الضرام ، تليه
لدعوة الانتقام . . . بل الزبير أيضاً لم يكن من موقفه على بصيرة . استبان له
الهدى في المهادنة والتزام الجماعة والنفى إلى الطاعة ، ولكنه كان كالسائر على
شوك من آراء أعوانه يعوق وصوله إلى مبتغاه الرشيد . . . وعندما حسب أنه
سيجد نصيراً له في أم المؤمنين كان مجاوزاً حدود الواقع الذي تنتهى عنده الثقة
في التفاؤل . فما أقرته السيدة على نظرتها الجديدة التي هي توبة بعد حوبة ،
بل رده رداً زلزل فيه الفرحة بنشدان الحق ووجدانه وكادت أن تدفعه إلى
جانب الباطل الذي أوشك أن يتحرر من إساره وما كاد . . .

أقبل الرجل عليها في حياء ، يتخير من الكلام ما يحسن التعبير عن الراحة
التي يحسها بعد إذ قابل وحادث الإمام ، فقال صافي النفس خفيف الضمير من
وقر ما اجترح وأصاب :

« يا أم المؤمنين . . . إني والله ما وقفت موقفاً قط إلا عرفت أني أضع
قدمي فيه إلا هذا الموقف ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر . . . »
فإن هي إلا نظرة أرسلتها إليه حتى عرمت خبيثته . . . لأمر ما توصل الرجل
بهذا الحديث الناعم الذي يتبطن بالتوبة . . . ولغاية يكتمها كان يسوق كلماته
لينة ، عسى أن يلقي منها ما يعينه على الكشف عما يحثيه . . .
ولسكنها لم تترفق به ، ولم تل له في الإفاضة بالاعتراف ، بل هتفت وثيدة
اللفظ تقطع سبيل الكلام :

« يا أبا عبد الله . . . أظنك فرقت سيوف ابن أبي طالب . . . »
فصمت كالبهوت . آده هذا الهجوم المفاجئ الذي شنته عليه ، وهذه
السخرية المرة البادية من خلال كلماتها الرقيقة وبسمتها التي تفيض بالهكم .

ولم ينبس بشيء ، بل وقف صامتاً وقد عاجلته سراحا بما جمد اعتذاره فوق شفثيه :

« . . . إنها والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد . . . ولئن فرقتها فقد فرقها رجال قبلك يا أبا عبد الله . . . » .

غير أنه كان أمراً بعيداً عن الجبن والخشية ذلك الذى دفع الزبير إلى اختيار الموقف الجديد وإن لاقى من ابنة أبى بكر الزراية . فكم تنكر للعق الناس ، وكم استقبلوه بالميون العشواء لا ترى فيه النور لأنها انطوت على ظلام وقام . . . وندع الرجل وما أصبح فيه ، قلقاً قد لعبت بقلبه التوبة المطهرة وعبثت بنفسه الريب المحيرة ، يطوى ليله ساهر الجفن تذود الكرى عنه أفكاره ثم لا يفقد الرجاء قط فى أن يأتية الصبح القريب بما قد يضى على ضميره الهدوء وللصمائية . أولم يعلم أن المستمسك بالحق أثناء فتنة كمثل القابض على جمرات النار ؟ . . .

بلى قد علم فبقى على رأيه ما وسعه البقاء ، وكمثته كانت طائفة رأت الحق حيث كان فى جانب الإمام ولكنها لا تعلم أن ترد نوازي الشر أن تعبت به وتفوض أركانه فأسلمت الأمر إلى يد القدر تنسج مصيره كما تشاء : سلماً مجزية أو جرباً عادية باغية . . . وكان نمة طائفة أخرى دانت بالباطل وانساق له وهى موقنة أنها إنما تطاهر الصواب وتنضح جاهدة عنه ، تلك ساء ما تراه . . . أما الثالثة فأصحاب البهتان تلبسوا بالوزير والضلالة ، وضع أمامها النور اللائع فأثرت اللياد بالظلمة العمياء . وإنك لسمع طرفاً من أنبائها بعد حين ، عندما ينجاب الغبار عن حلبة القتال مخلفاً على أديمها جرحى وشهداء . ولكنك قبل الواقعة المقبلة لن تسمع لها نامة ولن يسرى إلى أذنيك منها صوت لأنها رجال ليل ، يعملون فى الخفاء مستترين بسجف الظلام وغفلة النيام ، رواق المساء مسبخهم كأنهم خفافيش . . .

أولئك كانوا أعداء على وأعداء أعدائه على السواء . بل هم عدو الأمة والدين . الحفنة التى ليس لها من حياة إلا فى الفرقة ، بين مسيل الدم ومهوى الأشلاء .

غايتهم الذات يروون غلتها من أى سبيل . وهدفهم أشخاصهم الى استهوتها الدنيا
يسعون إلى إشباع نهمها من المخطوط والمآرب ، وما كانوا قليلين حينذاك . . .

ما كانوا قليلين لو حسبنا كل ذى هوى فى إنشأب القتال كى ينال طعمة عاجلة ،
أو يحقق مطمحاً قديماً عز عليه من قبل تحقيقه ، أو يسترد جاهاً فقدّه إذ دالت
دولة عثمان فعلم أن لا مكان له فى دولة الإمام التى لا تعرف التحيز ولا تستهدف
خير أفرادها إلا وهم كيان وثيق العرى ولا تراهم فرادى مفرقين . كل أولئك
كانوا دعاة القتال والتفرق ، ود الواحد منهم لو استطاع أن يشب نار الحرب كما
يشبها فى هشيم . وغبرهم أيضاً فرقة موتورة وأخرى وائرة ، هذه شركت فى
الثورة التى أودت بحياة الخليفة القليل نخشيت إن كان صلح أن تقوم دعائمه على
رقابهم التى سيحتزها القصاص ، ولك ونزها الإسلام إذ غرا قلوبها وأراضها
فأسلمت على ضغن ، وراحت تصانعه وتصانع سلطانه عسى أن تجيئها لحظة النار
المرقوبة ، ذات يوم قريب ، فى ركاب فتنة كهذه يختلط فيها الهدى بالضلالة ،
وتشتبه على الناس الدروب والطرائق ، ويغم عليهم اكتناه عقبي الأمور . . .

هنا يهمس التاريخ كرة أخرى باسم ابن السوداء ، يهودى اليمن الذى أبدى
الإسلام واندس بين أهله ليفسد عليهم عقائدهم السمحاء ، ويفرق جمعهم شيعاً
تسود فيها شريعة الخصام . وكما هى الحال المألوفة فى أمثاله من بنى جنسه وملته
تحمل إلينا الصحف التى رددت ذكره أبناء ما طوى عليه صدره من عداوة
للدين الناشئ وللأمة الفتية هى صورة مما طواه اليهود كلهم من قديم من الغل
والضعينة لكل شعب عاشروه منذ وصم وجودهم على الدنيا جبين البشرية . . .
فلم تكن الأمة الإسلامية وحدها مستقر بفضائهم بل جرى الحسد والحقد فى
شرايينهم مع الدماء ينوشون بهما جميعاً الشعوب والأفراد . وعداوتهم الآن حلقة
من سلسلة طويلة طول الدهر ، ممتدة مع الزمن حتى تظهر منهم الأرض . . .

فى تلك الليلة تحرك ركاب الشيطان ، وامتدت يده الشائكة تقلب مهد
الفتنة وتكشف جمراته . وكيفما كان الدور الذى لعبه اليهودى الآثم فقد اندلعت
النار وعلا لهيبها يصيب وجه السماء . انطلقت من قربها السيوف وتطايرت الأسيهم

المريشة تروى الأرض الظامئة من سيل الدم . . . أما التاريخ فقد وقف وقفته
يمرض موكب الحوادث ولا يعنى بأن يحدث الأجيال من أين كان مبدأ مسيره .
إنه لا يشير إلى ابن سبأ إلا بايعة كأنه خالق الخطر الناشب ، أو كأنه بعض
خالقيه ، أو كأنه خط من خطوط تكتمل به الصورة . فهاهنا لا تتفق الروايات
المنقولة بل تختلف هونا حينا وتباین أحياناً أشد التباین . تارة ترى الصحائف غفلا
من اسم اليهودى الحاقدة قد تطهرت من حروفه حتى لتحسب ذكره مضى في قبر
الغابر ، وأخرى تجده باديا من وراء السطور والكلمات . فإذا ركنت إلى
التوفيق جهدك بين هذه الروايات المختلفة لم يستعص عليك أن تقر للرجل بنصيب
من الفتنة القرية لا ينكره عليه ما ألفناه من ماضيه الموسوم . . .

نعم قد أدلى ذلك الهدام بدلوه مع غيره من الدلاء حتى نشبت الحرب التي
شاءت لو تجنبتها أحلام العاملين للسلام ، وكان ذلك وراء متر كفيف من ظلمة
المساء ، تلك الليلة الشاتية في جمادى الآخرة قرب مسجد الحدان . عندئذ جرت
خواطر اليهودى حتى ظن أن الوفاق سيلاّم الفريقين من أصحاب طى وأصحاب
عائشة لأما يجمع الشمل ويرتق الفتق فلا ييسر عليه أن يكيد كيداً للإسلام الذي
قرح قلبه . فإن هو أن ظن ظنه وخشى خشيته حتى قام يؤلب ويحرض وينفث
في أسماع من أصغروا إليه سم الرقطاء .

تخير له فرقة ممن غلبت عليهم الوسوس وراوا فيما سلف منهم خلال محنة
عثمان شبهات قد تبدى أكفهم أمام الناس ملطخة بدم الشيخ المقتول . . أولئك
الذين شركوا في الثورة الدامية وآذن الصلح المرجو أن يجعلهم أكبش القصاص .
أفيسر عليه أن يحسم مخاوفهم حتى يثيروها حرباً طاحنة تقضى على الوفاق قبل
أن يقضى عليهم الوفاق ؟ ...

وكذلك أسروا القدر والناس نيام . وما علم أمرؤ قط سوام بما بيتوه ،
ولا وضحت نياتهم الخفية حتى تحت صحوة الشمس والمركة محتدمة الأوار ،
ولكن التاريخ حدثنا عنهم وأبلغنا نبأهم بعد حين بعيد ، عندما سكن النقع
وتوالت الأجيال تباعاً جيلاً في إثر جيل ، فلم يخل حديثه من قصد في دقة الرواية
وإسراف في شطحة الخيال . . .

٢

أغرق الرواة في الخيال أيعا إغراق عندما أضفوا على ابن سبأ روعة الأساطير...
الرجل كان حقاً ذا كيد ، غرق النفس في بغضائه ، يضرر للإسلام عداوة ليست
تخفى تحت أثواب ورعه . ولكننا لا نستطيع أن نرى أصابعه وراء كل فتنة ،
تنسجها خبوطا ثم تحيكها ملاءة من نار تلف الأرض والسما . . .

لنكاد أن نحمله فوق ما تقوى عليه طاقته لو أصغينا لكل ما سطر الرواة
عنه . ولنوشك أن نلمحه مارداً جباراً يعلأ الفضاء الرحيب بهيكله الضخم إن
ألقينا العين على الصورة العجيبة التي تبدت لنا من بعض صحف التاريخ . أما
الهدم فكان ديدنه ، يحاول أن يتولى به الكيان الإسلامي بغية تقض بنيانه . وأما
الحقد فكان مركبه إلى غايته الملبسة بإثم الآثام . غير أنه لم يكن بقادر على خلق
الحوادث أو ابتكار المناسبات التي تؤلف لجة يسبح عليها شراعه . إيعا كان
يتربص بها ، وينتظر تدبير القدر أن يعينه ، فإذا وقع حادث نفخ في رماده
المتهب حتى تستشرى النار . . .

كذلك كان دوره أيام عثمان ، وكذلك هو الآن ، ينتهر الثغرة التي ينفذ منها
بتدبيره اللثيم . وهو إذ رأى بوادر الانقسام بين الأمة ، ودخان الحرب الأهلية
يكاد ينبئ عن كارثة عامة ، لاحت على شفثيه بسمة شيطان . . . فلما أن حسب
الصالح سيؤلف بين جميعها سارع بصوغ أحابيله . . .

ومن العيب أن نظنه وحده عدو الوفاق . بل كان فرداً بين طوائف
وجاعات قادتها الأهواء العمياء إلى اختيار طريق التفرق . فلو قد خلصت
النيات حينذاك وأجمع الشعب رأيه على الألفة ولأم الصدع لما كان وسعه أن يضار
الوحدة المنشودة . ولذهب كيد حصة في محيط . . . ولكن التاريخ ألبس الرجل
غير طيلسانه حتى بدا من خلال السطور كأنه السبب الأول ، بل الأوحد ،
لإنشاب القتال بين أحلاف الجمل وبين على وما كان غير عامل واحد بين كثير
غيره من العوامل والمسببات . . .

وحين يعرض الرء سيرة اليهودى على ضوء الحوادث المتعاقبة منذ جأر بفتنته الدينية حتى وقعت الواقعة ، يكاد يحزم أنه لم يتبد في الميدان سافراً صريحاً إنما شرك في دواعى الفتنة الجديدة من خلف ستار ، متخفياً بالظلمات في مسامح الحفافيش ! . . . وهل كانت قصة الرجعة التى تأولها على التنزيل السماوى لا تموق تقدمه ولا تحد شيئاً من اجترائه على الدنو من صفوف الإمام ؟ . . .

بل قد كانت حرية بأن تقتضيه ذماء روحه وخفقة أنفاسه فى هذه الحياة لو أنه أقدم غير هيب للانضواء تحت لواء ابن عم الرسول . وعندما نخاله غريباً واهى التبصر وقد سمى إلى اللحاق بمسكر على والسير فى ركابه فإنما نحرمة مكره ونراه قد مشى مختاراً إلى حتفه ووضع رأسه بين فكي الليث ! . . . وليس الرجل بالساذج الغرير . وليس على بالذى يغفر له قط تأويله الأثيم ويشتري منه نصرته بما سلف من افترائه على الله . بل قد كان أولى بمن هو مثل الإمام الذى لا يساوى فى حق الناس ، ويعالج بالسيف تحيف بعضهم على بعض ، أن يعالج هذا اليهودى الصابى على تنزيل السماء بنفس تلك الأداة . وما نحسب إلا أن صفحة من التاريخ كانت حرية بأن تبدو لنا اليوم ، دامية مروعة ، تنقل لنا نبأ ما أصاب ابن سبأ من عقاب رادع على يد الإمام جزاء وفاقاً لافترائه على الله . . .

نعم كان هذا أدنى إلى الحدوث لو أن الرجل وقع بين أصابع على فى ذلك الحين ، ليكون أمثلة لسواه من أصحاب الرجس ، الداعين إلى الفتنة ، البائين الخرافات فى ثنايا العقيدة ، ولكن بعده عن الإمام فى هذه الفترة أولاً ، ثم فيما تبعها من الأيام بعد ذلك حتى نهاية عهد على قد جنبه — فيما نعتقد — جزاءه الرهيب . فإذا تركنا جانباً غلواء التاريخ إذ أرانا الرجل عاملاً فى صفوف على ، متصراً له عند البصرة قبيل الواقعة . فقد يبسر أن نراه خلف الصفوف ، متربصاً بالفريقين الدوائر حتى تحين فرصة يضرب فيها ضربته وهو قابع فى الظلال . . . فما سوى الحفاء ميدانه ، وما الظلمات إلا مسارب خطاه .

غير أن هذا الافتراض نفسه حقيق بالتدبر لو أننا أخذنا بما بقى من رواية الرواة . فقد حدثنا التاريخ فى شطحته أن ابن سبأ استمال إليه رجالا بمن شرك

في دم عثمان راح يحضهم على إنشأ القتال خلصة والناس نيام حتى يأمنوا أن ينال
نهم القصاص الذي لا بد واقع بهم عندما يرم الصلح ويتم الوفاق . ولنا ننكر
على اليهودى ترتيب مثل هذا التدبير ، ولا البعث بيضعة من العقول الواهنة
التي تستجيب لنزغها ووسوسته ، فما هو إلا شيطان ، ولكن قصة المؤامرة البيته
في الظلام تجاوز الحقيقة في بعض سطورها وتبدي لنا أسطورة نسجها الخيال
ولفقتها الأغراض عندما نلقى العين على أسماء أبطالها المتآمرين فيطالعنا من بينها
اسم الأشتر : مالك بن الحارث النخعي أخلص رجال الإمام . وهل يسع المرء
إلا أن يحزم بأن هذا الاسم النبيل قد أقحم إقحاما في هذه الرواية في عصر لاحق
بغية النيل من براءة صاحبه ، وإلقاء ظل من الشبهة عليه يوهن موقف على
إذ يديه ضالما مع قتلة عثمان ؟ . .

إن التاريخ نفسه يحار بأن اشتراك الأشتر في مؤامرة ابن سبأ كان
أ كذوبة ، ودليلنا على هذا سيرة النخعي وخلق على . فما شرك الأشتر قط في
اغتيال عثمان ولا علق به من دمه رشاش . وإنما كان رجلا بمن أساء الخليفة
القتيل إلى مواطنهم ، فاستشعر إنكاراً كان به يعبر عن الشعور العام الذي شمل
بقية الأقطار ، وهب هبته كغيره من دعاة الإصلاح ينغى إفاءة العدن والطمانينة
على البلاد . ولم يكن أيضاً رجل خفاء ، يحسن تدبير المؤامرات ، بل كان شجاع
القلب يجاهر برأيه ولا يكتمه وإن أضرت به الصراحة وتركته هدفا سهلا
لنقمة الخليفة ورجال عهده الذي لاحق أصحاب الشكايات بالتشريد والعسف
والنكال . . . انظره كيف نقد تصرف عثمان وعاب سياسته في كتاب إليه خاص
حين كان غيره لا يجاوز بشكواه دائرة الهمس والإسرار . . . كتب إلى عثمان
إذ ذاك يقول :

« من مالك بن الحارث إلى الخليفة البتلى الخاطى » ، الحائد عن سنة نبيه

الناشد لحكم القرآن وراء ظهره

أما بعد : فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسير
الصالحين نسمح لك بطاعتنا . . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذي

أرداك فأراك الجوو عدلا والباطل حقا . . . وما محبتنا فأن تنزع وتوب ،
وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا . وتسيرك صلحاءنا ، وإخراجك إيانا من
ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى
الأشعري وحذيفة ، فقد رضيناها . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك
إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله ، والسلام . . .

ولسنا نعرف أن امراً يبطن غدرآ ويبيت النآمر للخلاص من خصمه
يسدى لهذا الخصم النصيح الذي يرفع من قدره ، ويصلح أمره ، ويرده مرضيا
عنه من كل الناس لو أنه احتذاه ، إنا الغريم الذي يتها لتسديد الضربة القاضية
هو من يكتم خطواته ويملى لغيره في الغي والفساد . وما كان الأشتر من هذه
الشاكلة ، بل قد شاء لو صلح إمامه فصلحت الرعية بصلاحه ، وقام من لدنه
يهديه إلى محجة الصواب

فإذا استقصينا بعد هذا الأسباب التي أحقت الأشتر على عثمان وأثارت فيه
كوامن الخصومة ، رأيناها في جماعها تكاد أن تكون مطلبا « إقليمياً »
لا يعدو إبدال حاكم بحاكم وأمير بأمير يسوس أمور بلدته الكوفة خيراً مما
ماسها سلفه المكروه . وعثمان في نهاية الأمر قد استجاب لهذا المطلب ونصب
أبا موسى بعد سعيد ، عاملاً برأى ناصحه ، فلم تعد إذن شمة حاجة بالاشتراك
إلى الإقامة على خصومته دع عنك تبييت القدر وتدير المؤامرات . ولعل أبرز
ما يظهرنا على صفاء ما بين الرجلين أن عثمان ، حين اشتبكت عليه الأمور
وضاقت حلقة الحصار ، بعث إلى الأشتر يستنصحه ويطلب منه المشورة التي
تكشف عنه البلاء وتفرض جموع الثوار . . . قال له :

« يا أشتر ، ما يريد الناس مني ؟ . . . » .

فأجاب دون إخفاء :

« ثلاثا ليس من إحداهن بد . » .

« ما هن ؟ . . . » .

« يخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاخاروا له من شتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك » .
« أما من إحداهن بد ؟ . . »

« ما من إحداهن بد » .

فلو كان استغشه لما استشاره ، ولو كان المشير يضرر الغدر ويرجو الإيقاع بالمستشير لخدعه عن شأن عدوه ، ولأخفى عنه حقيقة موقفهم منه . غير أن الأشر كان تقيا أميناً يبتغي رضوان الله وصلاح الشعب والخليفة عندما قام يناهض عثمان . وكان كذلك جديراً بسيرته التي لم تتلبس بالشبه والمظنات ، وبالثقة التي أودعه على إياها فيما أقبل من الأيام لأن طبائع النفوس لم تكن لتستغرق على فراسة الإمام وهل كان صفي محمد وأطيب الناس بعده خلافاً وخلاتق بالذي يستصفي غادرا وهو الذي قد وصف مالكا بعد انقضاء أجله فقال : مجمل الوصف في خير مقال :

« كان الأشر لي كما كنت لرسول الله . . »

وكذلك يظهر أن ظلال الاتهام التي شادت أن تلتصقها بالرجل رواية الرواة لم تكن غير نسيج وهم متدائب ، أو عقل كلف بالافتراء وصياغة الأباطيل أراد أن ينتقص من قدر على خلال التخمى وليس هذا على طبيعة الأمريين يعيد .

وندع جانبا هذه الأسطورة الباغية التي ود ملفقوها أن تنال من قدر الأشر ومن نقاوة صحيفته ثم نردد ما بقي لنا من سطور التاريخ التي لم تدمغها شطحة الخيال ولم تشبها الأهواء والأباطيل فكيف نرى الرجل إذ ذاك ؟ نراه رزينا لا ينطلق كغيره مع المغالاة وإن منهم لكثرة بالغة من أعداء الإمام كانوا بالأمس حربا مشبوبة اللظى على عثمان غدوا بعد مصرعه يدعون لأنفسهم ولاية دمه والتصاص له وما تعالى إذ تقرر أن الأشر قد أنكر اندفاع الثوار وركوبهم بالعنف خليفتهم حتى قتلوه . . . بل قد اعتزلم ولم يدل في فتنتهم بمنطق لسان دع اشتراكه بسيف وسان . بل قد كره عدوانهم على الشيخ وإهراقهم

دماء الحرام حتى ظن الناس أنه لن يفتر عن اللحاق بعن دعوا بدعوة الثأر ...
قال علقمة ، وقد عجب إذ رآه لا يؤازر طلحة وأعوانه ، على خلاف ما كان
يتوقع منه :

« قد كنت كارها لقتل عثمان ، فما أخرجك بالبصرة ؟ » . . .

فأجاب معبرا عن طبعه الذي يأبى القدر ويكره نقض العهد والمواثيق وهو
يعنى ما كان من خلع طلحة والزبير طاعة الإمام من بعد ولأ :
« إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا ! . . . »

فلغير هذا العف الطاهر يساغ سوق الاتهام . وما كان مثله بالفرير الذي
تستهويه بدعة أو تفتته ضلالة وإن أزجيت إليه بلفظ معسول على ألف لسان
ولسان تندلع بكلمات يهودى اليمن من شدة الشيطان ! . . .

٣

من أخرج الجمر من رماده ؟ . . من نافخ البوق للقتال ؟ . . من أشعل
النار في الهشم ؟ . . .

سليل إسرائيل ؟ . أم رجل في القوم سواء ؟ . أم أفراد أنطوا على مثل
غدره وتبييته ؟ . ليس هذا بذى أثر ، ولا كان محولا تيار الصراع عن مجراه .
ولو قد سكن الرجل لوقعت الواقعة ، وإن تأخر الزمن بها قليلا إلى ساعة من
نهار ، بعد بضع ساعات . . .

أما الآن فداهمة الأمر دهمت الناس حين غفوة وهم رقود ما زالت تنادم
الأكثرين منهم في الكرى أحلام السلم . . . كان كل من في العسكريين آمنا ،
ظن هدأة الليل جنة وقته شرة القدر القادر فأسلم مصيره إلى طلحة الصبح . غير
أن الغسق أتى باللمة ، فلما بزغت الشمس بعد قليل على أرض البصرة ، كان
شعاعها الدامح كأنه خيال الثرى المصبوغ !

وهب اليهودى سكنت نفسه تلك الليلة ونام عنه شيطانه ، أليس نعمة أنفس أخرى كانت تأكلها اللهفة على إثارة القتال ؟ . . . بلى وكثيرا . . . وعندما ننشرها للإحصاء قد يعيننا الحصر . وإذا وسعنا أن نستقصيها فلن نراها جميعها كذات ابن سبأ سوداء ضليلة . بل في أصحابها أناسى على إيمان . أم ابن الزبير يملكنا الشك في حسن إسلامه ؟ . . .

إنه لا ريب واحد ممن شغلهم القتال حتى ودوا لو أنهم تعجلوه . ولم يكن يخفى شغفه ، ولا احتجازه لنفسه دون أن يعدى به سواء . إنما قد راح حينذاك يبسطه كبسط البنود ، وعندما آثر أبوه أن يقعد عن الحرب ، وينفى إلى الحق والطاعة ، ثار به حتى آذاه . . .

قال له الزبير ، وكان حديث الامام قد ألان شكاسته وعطفه إلى التزام السلام :

« ... ما لى فى هذه الحرب بصيرة .. »

فصاح به عبيد الله :

« إنك قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب ، وعرفت أن تحتها الموت فجئت ا . . . »
« ويحك ا . . . »

ولم يشفع له عند ابنه أن يعتذر بقسم أقسمه ألا يقاتل الإمام ، بل قال له القى العنيد المشغوف بالقتال :

« كفر عن عيذك بعق غلامك . . . »

تلك صورة من صور تظهر لنا مشاعر طائفة من القوم ، كثيرة العديد ، لم يأبهوا للسلم ولا ارتضوه وإن لم يسيطر على قلوبهم ما يملك فؤاد ابن سبأ من الزيف والإلحاد ، وإن لم يبطنوا مضرة للإسلام . فلو غاب اليهودى عن الميدان ولم يقدم خديعته فى أطواء الظلمة ، لقاموا عنه بإشعال الحرب فى واضحة النهار . . .

ومع ذلك فالقطرة الأولى من الدماء المسفوحة لم تكن بنت الليل ، كم من راو أتباتنا أخباره أن طلائع الصراع بدت مبكرة ، قبل أن يوغل الليل فى مسيره ،

وقبل تهيؤ مواكب الظلام لاستقبال باكورة الفجر . . . ثمة ضحايا لقوا مصارعهم تحت سرادق النور ولما يولد المساء — رجل ، ثم بضعة ، من سحب على ، أصابتهم الأسنة الغدارة وما التقى الجمعان في ساحة وغام .

ولكن الإمام تحاجز دونهم بصبره . مكثت عن العادين وفي نفسه بقية من أمل أن تسترقهم سماحته فتفتح قلوبهم للوفاق . قد كان يطمع أن يصنعوا أخيرا لمنطق العقول الرشيدة والحكمة المنجية الهادية وإن لجوا بدءاً في غيهم وسايروا هوامهم إلى مداه . فعندما نزل البصرة أول نزوله قنت لربه مخاضاً أن يهدي غاويهم ويؤلف عاصيهم عسى دماؤهم ألا تهراق . ولما اصطفوا أمامه ، جموعاً في سلاحهم شاكين ، قد باتت سورة الوغى في مآقيهم ، دعا جنده أن يصابروهم ولا يبدأوهم يعدوان وطعان :

« . . . لا تقاتلوا اقوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة . وكفكم عنهم حتى يبدأوكم حجة أخرى » .

غير أن الذي تبطره الكثرة وتعلـكه السورة وتقوده الغدرة ليس يهديه رفق ولا تسامح . وكذلك كان أحلاف الجمل ذلك النهار أو كان سوادهم الكبير كثرة غادرة مهتاجة . فما هو أن بدت لعيونهم أجناد على ، عند الحافة الأخرى من خندقهم ، حتى بدأوا العدوان .

وسقط امرؤ علوى أول ساقط في الساحة ، وقد أصمى سهم خرق إلى صدره خباء الهواء . . . لم يكن آخر ضحية طل دمها وذهب مهدراً دون ثأر ذلك اليوم قبل إعلان بدء الوقعة ، فما هر الاعتداء من على هدوءه ولا أخرجه عن الترفق بالعدو المقتال . . . ولم يكن أيضاً الضحية الوحيدة بل أتبعها السهام العادية ضحايا تترى ، كأنما حسب أصحاب عائشة أنهم إذ يرمون أخصامهم يتلهون بصيد سانحات من الطير ! . . .

وغضبت لهذا التحدى طائفة من رجال على ، أقبلوا يحملون صاحباً لهم بمن دهمهم إحدى تلك الرميات وحملت إليهم المنون . فلما أصنى إليهم الإمام هتفوا به يقولون :

« يا أمير المؤمنين هذا أخونا قد قتل . . . »

ولبثوا ينتظرون أمره . أفتألمهم بغير ماردده عليهم من قبل كلما حملوا ضحية منهم اقتنصتها سهام الخصوم ؟ بل قال كما اعتاد أن يقول :
« أعدروا إلى القوم » .

فلم يتسع حلمهم هذه المرة اتساع حلمه . وقال ابن أبي بكر له وقد أخرجه عن طوره ما قابل على به بغى القوم وتحديهم من هوادة لغير أهل ورفق نظير قتل :

« إلى متى ؟ . قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار . والله لتأذن لنا في لقاء القوم أو لنصرفن . . . »

وكأنما أحس الفتى أنه جاوز حده فأردف وفي صوته رنة من الندم يشوبها أسى عميق :

« . . . يا أمير المؤمنين ، إلى متى نستهدف نحورنا للسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ . . . »

فلعل هذا الحادث وأشباهه كان آية الأمل الذى ظل يراود بضعة من النفوس فى أن ينتصر السلم . العدوان المتواتر من جانب عسكر الجمل فت فى عضد على ، وأثقل قلبه ، وطمس آية الوفاق التى تبدت فى أفاق أسكاره كنجم غائر فى جوف الظلمات . ولم يبق من رجاله أحد إلا أقام على خشية ، لا يستريب قط فى أن عدوه سيدهمه حين لحظة تحين . . .

ومع ذلك فجمعهم قر تلك الليلة . ولانت له المراقدة فأسلم العيون للنوم إسلامه مصيره إلى الصباح القريب . ما حسبوا قط أن ليلهم خادعهم وحامل إليهم فى أطوائه الوغى القتالة . . . وكيفما كان الدور الذى لعبه ابن سبأ فهو دور كان حقيقا أيضا به سواء من خصوم الإمام الذين تلبست نفوسهم بالنهم إلى الدم . فما يدرى امرؤ من أين أنت أول طمئة ، وأى صدر من الفريقين استقبلها والغلس ينشر ظلامه كثيفا على المضارب والأخبية التى ملأها الجنود . وعند ما نصفى قليلا إلى رواية التاريخ نسمع كيف وصفوا لنا اضطراب العسكرين فى عماية الظلمة

والسلاح يشق صدورهم ونواصيهم وفي حسابان كل فريق منهما أن عدوه قد بدأه بالعدوان . وبين ظن الظنون ورحم التخمين يتيه أول عاد ركب الناس بصدوره في مراقدهم ، وتضل الحقيقة حتى يعسر أن يهتدى المرء منها إلى رأى قاطع وحكم حاسم صريح . . .

فليكن إذن ابن سبأ مشعل النار ونافع البوق للقتال . ليكون هو قبل سواء — لا دون سواء فكثير غيره إلى الفرقة ساع وإلى الدماء منهوم ! . أما الواقعة ف وقعت منذ انطلق أول سهم في جوف الليل ، ضريراً يندفع عن غير بصيرة ولا إحكام تصويب حتى استقر بصدر أو نحر . . . وقعت ، ودهمت دأمتها الناس وهم رقود ، فاءوا إلى المضاجع في أحضان حلمهم بالسلام . . .

واندلعت ألسنة الحرب . واختلط القوم من الفريقين شر اختلاط وأبغضه ، يضرب بعضهم وجوه بعض وما يدرى الرجل أ يقتل رفقائه أم يقتل أعداءه . فمن عجب أن تختار سهام الرماة ورماح الكماة أقرب أناس إلى قلوب أصحابها وأحبهم إليها . . . كانت تختار لها أهدافاً من الأهل والمشيخة . ذلك أن رجال طي عندما نزلوا البصرة رأوا أن يسكروا تجاه أبناء قبائلهم من جند عائشة ، فنزلت عن الكوفة إلى عن البصرة ومضر إلى مضر وريعة إلى ربيعة وكلهم يظنون أن صلحهم قريب . . .

وانطلق على إلى الغمار وقد فجأته الضجة التي علت على غير توقع يهيب بالجموع التي ملكتها حمى القتال .

« أيها الناس ، كفوا . . . كفوا فلا شيء . . . »

فكان صوته يخرق في الضوضاء كما غاب هيكله عن العيون في الظلمة الكثيفة ، لا يكاد امرؤ أن يراه أو يسمع دعواه . . .

ومال إلى رجل دان يسأله عما دهى الناس ، فأجاب :

« ما فجأنا إلا وقوم منهم يبيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم

على رجل . . . »

عندئذ قال ونفسه تسيل أسى وموجدة على ما انتهت إليه حال رعاياه من

تفرق وانتشار :

« لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ،
وأنهما لن يطاوعانا . . . »
فكأنما صبرا بأحرفها في فمى غريميه تنطلق كلاما عبر عما ظناه ، مألأ
أصحابهما عن الداهمة ، فلما قالوا :
« طرقتا أهل الكوفة . . . »
أجابا وهما يسترجعان ، بنفس ما قاله فيهما الإمام :
« قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ! . . . »
وكذلك أخذت الريبة على كل فريق مسلكه إلى التفاهم والمصافاة مع الفريق
الآخر ، وسدت دونه الطريق . . . فإذا الحكمة تتوارى ، وإذا العقل يهبط ،
وإذا المنطق الرشيد يخلى المنبر ليخلفه السيف البتار . . . »

٤

أنتم على طوافه ثلاثة بين رجاله ، ثم رفع المصحف أمام عيونهم في عناه ونادى
وما زالت بقلبه أمل أن تتدارك الناس رحمة الله :
« أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه . . . وهو مقتول ؟ »
فنهض له الفتى الكوفي الصغير — نفس ذلك الحدث الذي أجابه إلى دعوته
مرتين من قبل وإن نفسه لتفيض حماساً ولهفة ، وإن لمح عينيه ليتلهب من
عزيرة وتصميم :
« أنا يا أمير المؤمنين . »
فأشاح برهة عنه . ودلو الغلام تأخر عن هذه المهمة لمن هو أقوى منه
وأشد لحاد عن المنون بشبابه . . .
وقال الإمام وعينه ترقب الشاب :
« . . . فإن قطعت يمينه أخذه بيساره ، وإن قطعت يساره ، أخذه
بأسنانه . . . »

فلم يحتاج في انقلام جارحة من خوف . بل زاده التلويح بالخطر الذي ينتظره .
تمسكا بعزمه .

ودفع على إليه أخيراً بالمصحف .

« اعرض هذا عليهم ، وقل هو بيننا وبينكم . . . والله في دمائنا ودمائكم » .
فانطلق الفتى به في الغمار مزهواً ، ينطق تطلق أساريره ، وتلك البسمة التي
شاع نورها في حياه بمقدار فرحه ، كأنه يسير إلى عروس مجلوة ساعة زفاف
وإن قباه الأبيض ليعلمه ويزيده رواء على روائه . . .

ووقف جند الكوفة في صفوفهم يرقبونه تكاد قلوبهم أن تسير حوله وهو
يشق لنفسه طريقاً بين أسنة الأعداء . لو نجح إذن لاحتقن الدم ، ولو استجاب
رجال الجمل لدعوته القدسية التي يتحدث بطهرها كتاب السماء لعاد الناس كلهم
إخوة على صفاء : فما بال هؤلاء يتنكرون له ، وييطرون بالنعمة التي تقدم يزجها
في دعوته السمحة الرضية ؟ . . . قد أكلتهم شريرة العداوة فانقلبت إنسانيتهم
ضراوة ، واختفت فيهم طبيعة البشر خلف تنمر الوحوش وسكان الغاب .
وإن أسنتهم لتلعب إذ ذاك دور الخلب والباب فتعاور الغلام وتضرب فيه ،
لا تكبحها حرمة المصحف المرفوع في يماه . ولا تردّها عنه ما يرد العداة عن
خصومهم إذ يسرون نحوهم حاسرين ، بغير سلاح ، يعلنون وهم عزل غير شاكين ،
أنهم في أكناف الأمان . . .

تعاور أصحاب الجمل هذا الفتى الأعزل إلا من كتاب الله غير متلومين ، تقد
منه أسنتهم الباغية وتفريه . ولكنه صبر أمام العدوان ، ومضى وما عزم عليه
يناديه إلى الكرامة السواء وإن خائنه يمينه وتخلقت عنه في مضيه شلوا مبتوراً
رقد على الثرى وقد أغرقه الدم ! . . . فما زالت نعمة يسراه تستطيع حمل الرسالة
المقدسة ، وما زالت قدماه تحملانه إلى حيث لعله يستطيع الأداء . . . وما زالت
أيضاً له أسنان تمسك بكتاب الله عند ما تأتيه ضربة أخرى عادية فترسل يده
الثانية لقي على الأرض . . . أفلا يسهه أن يحتضن المصحف بين صدره ونحره
ويجاهد طاقته ليسمع القوم دعوة السلام :

« كتاب الله بيننا وبينكم . . . الله الله في دمائنا ودمائكم . . . » ؟
ولكنها صيحة لم يتح لها التردد إلى كثير . صمت عنها في البدء الآذان
ثم خرس عنها صاحبها الآن . . الخلب والخاب ووحشية الغاب قضت منها الوطر ،
ورمت بالفق الصغير ، أو يبقاياها ، ساكنا على الأديم قد راح قباؤه الناصع
البياض مزقا حمراء . . .

أنة للصبر بقاء ؟ . . أفيه ذماء ؟ أم تفرى إهابه وتقطعت به عن الوجود
أسبابه ؟ . . ود على لو قدم على مذبح السلم ضحايا آخر وقرابين تصل بينه وبين
خصومه ، فتلين له عاصيمهم ، وتؤلف عليه شاردهم ، وتمسك وحدة أمته أن تتهار .
ولكن بوادى الصراع أيقظت الفتنة ، ورائحة الدم المسفوح انسابت من الحياشيم
إلى الأوردة والشرابين تحرض الدم الحبيس على الفران والتحرر . فى كلا
العسكرين حميت نخوة القتال وبان فى العيون التئمر . وعندما رد الإمام طرفه
عن الفتى الصريع ، الذى مزقته الأسنة ، إلى صحبه وأجناده طالته منهم غضبة
ليث جريح مزير ، قتل صفاره ، وديس غاره .

ما لعلى بعد هذا سبيل إلى الإعذار ، إنه قد أعذر حتى ظن أنه خوار وصبر حتى
حسبوا الصبر منه مجبته . بل لعل عدوانهم على جنده ، وملاحقتهم رجاله — وإن
كانوا كافرين — يغبى السيف ونار الحتف لم يكن لولا حمله الذى أطمعهم فيه
وأملى لهم فى الطغيان . أما وقد كف وصابر حتى كاد أن يصبح عوناً لعدوه على
أوليائه ، فلم يعد له معدى عن ترك الحلم إلى الحزم والكف إلى السيف ؟ . . .
وهتف وما زال يلوح لعين خياله الفتى الحدث فى قبائه الناصع البياض كما
تلوح بقية رؤيا ورق عنها الوسن :

« حل قتالهم . الآن طاب الضراب ! . . . »

ودعا قواده فأقامهم على أماكنهم فى الميمنة والقلب واليسرة من جيشه .
وكان كعب بن سور فى صفوف الجمل واقفا ينظر ، فما رأى تأهب الإمام حتى
أخذته خشية أن تستمر الحرب بين الجمعين . . . إن هاتفا فى أعماقه يحذره ،
ويكاد أن يندره بشر قاصم سوف يلقاه فريقه غب الالتحام . .

وانتفض الرجل فبرح المكان مسرعا صوب عائشة ليخبرها الخبر ، ويهيب بها أن تبعد وسمها لتكف عن أصحابها المصير المخوف الذي سيجنونه كفاء الطغيان : « يا أم المؤمنين .. أدركي فقد أבי القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك ... » فبرزت من حيث سترتها الدار ، مضطربة واجفة ، فقد أعداها ما أحسه ابن سور وعاناه .. وجاءوا إليها بعسكر على الأثر ، ألبسوه الجلود وشدوا عليه هودجا درعوه بالحديد حتى بدا كأنه القلعة الحصينة . الله يعلم أي أمر طوته وهي تحت مطيتها الدارعة إلى الميدان . . . ولكنها حين شارفت الساحة ، ورأت الجموع في التقائهم تمتد ثم تنحسر كالأمواج ، وسمعت السلاح يصطفق والسيوف تعتق أخذتها رهبة غلبت ما كان من قبل في نفسها من صرامة ، حتى همست أسبابة إذ التقطت سمها تلك الجليلة المدوية من جانب جيشها الذي ملكه المهرج وشاع فيه الضجيج :

« أي الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون ! . . . »

ونأت بعينها رائية . . . ولوت جيدها نحو كعب بن سور تهيب به بلهجة فيها حدة الأمر وفيها رقة الضراعة :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه . . . » . ودفعت إلى كفه بمصحف كما فعل على قبلها مع الفقى الكوفى صاحب القباء ولكن رسولها لقي مصرعا كصرع سلفه . استنزف منه دم الحياة وما استجاب امرؤ إلى ندائه ... عندئذ صاحت وقد أشفقت أن تأكل شرة الحرب الناس . . . عادت بها رهبة الموقف الضنك وشبح الموت الذى خلق على الرؤوس إلى ما هو مألوف فى هذه الموطن من طباع النساء ، فراحت تصيح :

« . . . يا بنى البقية البقية ! . . . الله الله ! . . . اذكروا الله عز وجل والحساب . . . » .

فلم يلق أحد منهم بالا إلى دعوتها ، ولا بدوا كأن قد سمعوا صوتها الرفيع الجهير . بل مضت الوغى سبيلها فى سورة مجتاحة ، تأكل من عرض لآظها أو تأخذ منه . والساحة بعد هذا تغطيها رويداً رويداً الدماء ، ثم الأشلاء ، ثم

الحمام بعد الأقدام...! فما ارتضى امرؤ توقفا عن الطعان ولا أثر التريث ، يستوى
في هذا أولئك وهؤلاء .

ومع ذلك فثم قلة ودت لو أصفى الناس إلى دعوة السلم المرتفعة من بين
العمقة والصليل ، عسى الله أن يهدي إلى سبيله ويحقق دماء المحاربين . وإذا
كان الغلام الكوفي قد لقي من أهل الجمل شر جزاء على خير دعاء ، فليس
مصيره بعمد سواء عن القيام مقامه والتنادى تناديه . . . وما هو رجل من
صحب على من عبد القيس ، يزدلف خفيفاً نحو عائشة إلى أعوانها المضربين ،
فيحدثهم هادئاً غير هباب :

« أيها الناس ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله . . . »

فصاحوا به محققين :

« وكيف يدعونا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله ، ومن قتل كعب

ابن سور داعى الله . . . »

ذكروا صاحبهم ونسوا صاحبه كأنما ليس لغير صريعهم حساب . . .

ثم وشت بهم نواظرهم بعد قليل ، فإذا لمح النعمة يتأجج في مآقيها تأجج
النار ، وإذا جمعهم يلتف بالداعى المتفرد يسد عليه منافذ النجاة ، ثم يرمونه بنبلهم
كأنما عن قوس واحدة حق غدا جسده ، من ما فرط رشق به من سهامهم كأنه
جسد قنفذ غطته الأشواك . . .

وضاعت الحكمة في حلبة التزال المجنون . وانقلب الناس كالوحوش لا يدينون
بغير شريعة الغاب ، ولا يصغون لغير حديث السيوف والحراب . . . وعندما أسفر
النهار ، وألقت الشمس وشاحاً من ضيائها البراق على جوانب الكون ، كان النور
علاً الأرض ولكن الظلمة كانت عملاً العقول . . . ولم يعد أحد يشهد إلى أكثر
من مرمى عينيه ، فالبصر سليم والبصيرة كليله . . . وأخذ السلاح يلتمع ، إذ
يتهاوى في سرادق الضوء ، كالمرأى المصقولة . . .

٥

هذه صيحة الحرب راحت تزار : « يا لثارات عثمان ! » فيها مثل قصف
الرعود ، وعزيف الإعصار ، ودوى الانفجار المجلجل جاشت به فورة بركان...
من ناحية « عسكر » أقبلت مدوية ، رجفت لها الأرض والسماء . . في طيها
غضبة وفي إثرها رهبة قد أطلقتها ألوف من الحناجر الصاخبة وألوف . بضع
عشرات جمّة ، في جرس واحد ثابت كأنما أرسلها لسان وشفتان . .
إنها نداء الدم . . شعار نقمة هوجاء رفعت النفوس الموتورة كرفع الكتيبة العلم . .
دعوة للقصاص فطرية ، ترددت عن قلوب ملائمتها إلى حوافيها شهوة الانتقام
وآمنت أعمق إيمان وأقواء بشريعة الثأر كإيمان إنسان الكهوف والمغاور . .
وكان فيها رنة غير رنة النعمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس .
اندفاع ينبوع الفوار . . فيها أيضاً تنغم النشوة ينمي بزهو غامر بعنه الشعور
بالتفوق فتلك آية النصر بادية ، لاحت لهم بواكيرها ولما تأكل الحرب منهم
سوى قليل .

حيثما مد امرؤ من رجال « عسكر » عينه إلى أطراف الساحة التي عجت
بالأسنة المشتبكة كر إليه بصره وفيه إشراقة التمتع بها بسمة الرضا والطمأنينة .
الراحة في القلب والفرحة في العين ، والأمل المعسول كخفق الضياء يداعب النهى
والخواطر . حتى عائشة بهودجها ازدهاها الظفر الظاهر ، وغدا أمامها حقيقة
محسمة ما كان من قبل حلاً طوف بها في هدأة التصور . فرغت الآن مما عراها
من اضطراب ففادت إليها نفسها بعد خشية ووقع قلبها الجزوع موقعه . وطلحة
ابن عبيد الله . . أين منه اللحظة هدفه — ذلك الوهم القديم الجميل ؟ . . كاد
ها هنا يلتقي حلمه المنشود بالواقع المشهود على أديم الميدان وفي غيمة النقع الثائر من
حوافر الحيل وحركة المشاة ، لا يفتأ يبدو لعين خياله المقعد الأثير ، وسيف
الحكم ، وطليسان الخلافة تهم أن تتقدم بها نحوه النتيجة القرينة المرقوبة نصيباً
حلالاً له وحده بعد ما كان من نكول الزير . .

النصر إذن لم يعد بارقة رجاء ولا نسج خيال ، وإنا أوشك أن تنقبض عليه كفاه . إنه ليراه مقرباً منه ، دائباً على الاقتراب ، يدنو إليه خطوة كلما دفع رجلاه بجند على خطوة إلى الوراء . ولقد دنا حينئذ ، وقطع أمشاطاً حمة بدل الخطوات . وما دام نصره قرين هزيمة الإمام فإنه منه مستيقن لأن هزيمة خصمه غدت تدق عليه الأبواب .

ليس يخامرهم شك الآن في عقي الواقعة بعد أن شهد من مكانه بقلب جيشه كيف راح جنود الكوفة يركنون إلى الارتداد . ما كاد ينزو عليهم جناحاه حتى نكلوا عن الثبات . الضربة الأولى ألزمتهم التقهقر ، فحسب الضربة التالية أن تلزمهم الفرار . . .

كذلك كان عامر القلب بثقته ، يغمر نفسه البشر والتفاؤل . فما كذبه حدسه في قائديه ، ولا خابت فيهما فراسته . وساعة أن نصب أولهما . عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام على ميمته ، وبعث الآخر عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليقود ميسرته ، كان موقناً أنه أصاب أوفق اختيار ، فأنعم بما قام به السميان ونعم ما أبلياه . . . هما أن تصبح لهما الكلمة العليا في الصراع الدائر فيبلغاه وطره من عدوه . ولولا أن ثبت قلب جيش الإمام كل هذا الثبات لانقض السامر . . .

ومع ذلك فليس يكتف عن نفسه أن النصر الذي حازاه جاء خاطفاً سريعاً أكثر مما تخيله وهمه . كل من شهد الواقعة عجب كيف زالت هكذا ميمته على وزالت ميسرته عن مواقعهما تحت هجمة الخصوم . وحق لمن شاء أن يعجب كما يشاء . فما كان جناحاً للإمام من الوهن والتهافت بهذا القدر الذي يردهما التقهقرى بعد أولى الضربات . لا وليست تعوز رجالهما الحنكة الحربية ، ولا البأس والصبر في مواطن الجلال . أفئمة ياترى أسباب خفية فرضت عليهم التقهقر أو قهرتهم عليه ؟ . . . أعني تدير ؟ . . . أم هي ضربة مفاجئة بدأهم بها جيش « عسكر » قبل أن يأخذوا أهبتهم للملاقاتة بالقتال ؟ . . . لعلهم أخذوا على غرة وإن اشتبهت حقيقة الأمر على الرواة . . . أو لعل علياً هو الذي مكن لعدوه من هذا النصر الخاطف السريع ، فقد كان مسرفاً غاية السرف في الصبر والموادة

كما عهدناه ، متحرزا أشد التحرز وأبلغه من لقاء خصومه في حرب إلا أن تعجزه
أناته عن الضن باللقاء ، ولطالما صبر من قبل وأعذر فلا عليه لو أملى لهم هذه
المرّة كذلك لتكون له على طلعة وحزبه الحجة البالغة بأنهم أصحاب العدوان .

على أى حال قد كان هادئا تلك اللحظة بقلب جيشه الذى ثبت أمامهم ثبات
الرواسخ ، تشهد عينه ولا يضطرب جنانه ، وإن وجدهم ينالون من رجاله
ويضغطون مجنبتيه ضغطا شديدا حسبوا معه أنهم هازموه . الشك لم يراوده قط
في نتيجة المعركة ، وإن بدت للعيون مقدماتها لا تبشر بخير كأنه قد علم عاقبتها
قبل أن تحين

إنه هادئ الخاطر رضى البال ، لا تسكاد المحنة الحازبة التى أصابت جناحيه
على يدي قائد غريمه أن تنال منه . بل قد بدا محسور الطرف عن أطراف الميدان
وعما يدور فيه هدة هدهد سابغ ، كأنه السلال أو سنة كرى ، جلل محياه
المطمئن القسبات ، حتى ظن أدنى قومه منه أنه راح في خفقة نعل ! .

ولكنه رفع رأسه بعد قليل ، في حركة بطيئة وثيدة ، ومال بأذنه يرهف
سمعه إلى صيحة شقت نحوه غلالة الهواء من ناحية المودج الدارع . إنها تختلط
بصليل السلاح وصخب الأجناد ، حتى لا يصله منها سوى ضجيج مبهم تضطرب
حروفه ويوشك أن يغيض في غمار الضوضاء

ويلتفت ، وقد أعياه تبين الصيحة ، إلى امرئ قريب منه يسأله في هدوء :
« ما هذه الضجة ؟ . . »

« عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان »

فترسم على الأثر بشفتيه بسمة حزينة ، فيها رثاء وعطف ، وتلتع بعينه
نظرة تسيل رقة كأنها دمة يسكبها وهو يذكر الشيخ ، ويقول بصوت عميق
حروفه لأحاسيس قلبه أصداء :

« لعن الله قتلة عثمان ، فى السهل والجبل . . »

ثم ينفي ثانية إلى الهدوء ورضا البال ، كأنه ليس بموطن حرب تنهاوى فيه
الرموس والجوارح ، وتتحدث الألسنة بمنطق الدم . . .

عندئذ يقبل عليه ابن جهين ، والعجب يستبد به ، يحدثه وقد كادت ألفاظه أن يقطر منها اللوم ويفيض الإنكار :

« تالله ما رأيت كالיום قط . . . إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمتك وهزمت ميسرتك ، وأنت تحقق نعاما . . . »

فرمقه على مليا في سكون حتى ظن الرجل أنه لم يسمعه ، وهم أن يعيد عليه ثانية ما قال . . . فإن هي إلا لحظة ثم رآه لأعنه يرفع وجهه ويديه نحو السماء ، رانياً بنظرة ابنهال وضراعة وهو ينطلق في المناجاة :

« اللهم إنك تعلم أني ما كتبت في عثمان سواداً في بياض ، وأن الزير وطلحة أبا وأجلبا على الناس . . . اللهم أنت أولانا بدم عثمان فخذ اليوم . . . »

وبأسرع من كرة الطرف نقض عنه هجمته أو ما بدا كأنه هدأة الناس ! . جرت في أوصاله حمية الشباب القديم دافقة فكأن بها ثورة إعصار . فلم يكن ثمة بقية لإمهال ولا تريث ، ولا معدى بعد عن مقابلة هجومهم بهجوم يرد عنه العوادي بعد أن شد ابن الحارث على ميمنة الكوفة شدة الصقتها بالقلب حتى نزوح الإمام . . .

وهتف بين رجاله نقر يقول :

« الموت ليس منه فوت ، يدرك الهارب ولا يترك المقيم ! »

فكانت هذه مجاز جنده إلى الثبات . تدافعوا نحوه من كل صوب تدافع الفراش للضوء ، فإذا هم حلقة حوله كأنها السوار .

وأخذت الشمس في مستقرها تسير ، وثيدة الحركة ، رويداً رويداً لتتوسط السماء ، ضاحية السنا كمين يقظى راحت ترقب الجموع المزدخرة بعيان الوقعة . كان الوقت يقترب بهم من الظهيرة ، والجو المليء بالدفء يزيد الجسوم توتراً وحرارة ، حتى ليندفع المرء منهم إلى حتفه دون إرادة إلا بإملاء عصبه ، ويندفع بين رذائه وأعضائه ماء دافق سيال ، فلا يدري أهو عرق الجهد أم دماء الجروح . ما كان فيهم امرؤ يستطيع أن يتحكم في وعيه أو يدرك الشعور الذي يقوده إلى هنا أو هناك . فإن هو إلا مس يحرك الشاعر ما لم عليه سلطان . . .

فلعله نشوة الصراع لعبت بماطفتهم الفطرية لعب المحيا برأس المخمور ، وهل الناس إلا غريزة قديمة ، عريقة القدم إلى عصور الفطرة التي لم تعرف سطوة العقل ، ولم تدن له بطاعة ؟ .. جميعهم تحرر من ربة إدراكه هذه اللحظة التي حجبت فيها الأسته ما هذبته منهم العصور ورفقته من طباعهم البدائية . فعاد الإنسان الأول ، السكامن في أعماقهم ، إلى الظهور ...

بوحشية الغاب والكهف استمر القتال ، ذلك اليوم من جمادى الآخرة على أرض البصرة ، حتى لتشهد الميدان اكتسى بأناس اشتبكوا ، فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء . التصق الكتف بالكتف ، والصدر بالصدر ، والذراع بالذراع .. وكان بدء صراعهم بينهم بالنبل تتطابر عن أقواسها كرمش الماء ذات يوم مطير ، ثم خلوا حديثهم بعدها للرماح والحرايب . فلو كنت هناك لأعجزك أن تصل من صف أولئك إلى صف هؤلاء إلا أن تعبر جسراً من القنا الناشبة ! ...

في هذه اللحظة الحازية ، التي رخصت فيها الأرواح أيما رخص ، وهانت الأنفس على أصحابها كل هوان ، رأى على أن يشن على أعدائه هجومه المضاد .. ولم يكن هذا مما يسهل من فريق أو شك أن ينهزم جناحاه ، وضافت عليه حلقة أخصامه ، حتى كادت أن تشل حركته . ومع ذلك فليس معدى للإمام عن القيام بكرة يسترد بها من الأرض موطناً لقدميه ، ولا سبيل أمامه إلا أن يقتحم ذلك الجند المعادي الذي أحرز بالسبق إلى الهجوم مزايًا جعلته كالبنيان المرصوص ... وأخذ الراية فدفع بها إلى محمد ابنه ، وقال يأمره :

« تقدم » .

فأجال الفتى بصراً حائراً في القوم حياله — في هذا السد من الجند الذي يسد دونه الطريق . أئمة على الأديم فسحة لقدمه يعضى عليها بخطوه ؟ ثم أحس يد أبيه تدفعه من وراء ، وسمع صوته المهيب الأمر كره أخرى يسميحه به :

« تقدم ، لا أم لك ! .. »

فأجاب وهو مضيع حيران :

« لا أجد متقدما إلا على سنان رمح . . . »

« أدركك عرق من أمك . . . »

وخطف راية القتال منه . فإن هي إلا رجعة الطرف حتى رأى الناس عليا يحمل العلم بيسراه ، ويشهر ذا الفقار — سيف رسول الله — في يمينه ويقتحم وحده جند الأعداء . . .

لقد كانت هذه لحظة فذة في تاريخ الشجاعة ليس لها قط مثيل : أن يخوض امرؤ فرد جيشا برمته فيشقه ، كما يشق أديم التربة مكين المحراث . . . ولكنه ابن أبي طالب ، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول في تفهمه وأعيائها إدراكه ، وإن عز شبابه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال . . . إن إقدامه هو الذي كان يفتح له في صفوف عدوه المكتلة — المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة . قيل شفرة السيف . . . فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلة بنصرها منذ قليل لم يكن إلى اجتنابها سبيل . وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها ، لم تترك جلدا أثبت لسياتها المحتاح ، أو رعديدا نكل وآثر السلامة من خلال الفرار . . .

شق جيش العدو وحده ، وفتح ثغرة عميقة في بنيانه المرصوص ، والرقاب تنهاوى على حد حسامه ، والناس يسقطون صرعى بين يديه كأنهم أوراق الشجر وهو هبة قارسة من رياح الخريف . ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فائثنى في يمينه لما كف ولا عاد . . .

والتف به بنوه وأجلة صحبه ، وفيهم الأشتر وعمار ، يهتفون :

« نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يجب ، وما رد إليهم بصره ، بل مسح بكمه قطرات العرق التي بللت بحياه ، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفيء غلة عطشه ببعض ما فيه . . . وقال بعد أن حسا حسوة : . . .

« . . . إن عسلك هذا لطائف . . . »

« نعم . وعجبا منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ! . . . »
فابتسم وقال بهدوء :

« يا ابن أخي ، إنه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط ، ولا همه شيء . . . »
وأمسك سيفه الحق فأقامه بركبته ، وهب فجأة كالإعصار على عسكر أعدائه
يفوص في صفوفهم كما يشق سحيف الظلمة السوداء شهاب ! . . .

٦

الآن حانت الظهيرة . رقت الشمس الضاحية محاور الرءوس ثم مضت قدما
تم رحلة النهار . . . قليلا قليلا راحت تزايل مستقرها العالي وتنحرف عنه إلى
طريقها المذهب صوب المغرب البعيد فكأنها حينذاك كانت ميزان الواقعة المستعرة ،
مالت فيه كفة فريق وشالت كفة الآخر بعد طول رجحان . . .

وخط القدر في تلك اللحظة أو سطر من نتيجة الصراع المشبوب . بدأت
عند ذاك نقطة التحول فشهد الجمل أولياءه فارين وقد كانوا سادة الموقف ومالكي
مصيره منذ قليل . وأخذت البصرة تستقبل منهم فلولا مولية في إثر فلول ! . . .
أما على فقد أينعت جرأته ، وأثمرت هجمته الفذة ثم أته على أعقابها بنصر
مؤزر . . . وحين ألقى عينه على الميدان طالعتة القوضى تقود أخصامه ، فقد
أعوزهم الآن التماس القواد ! . . غاب عنهم الزبير مؤثرا أن ينكل عن المعركة
بجسمه كما نأى عنها قبل نشوبها بقلبه . . . وغاب أيضا طلحة بن عبيد الله . مضى
يلتمس لنفسه متعجا نائيا عن مهاوى السهام والحراب عسى أن يجد هناك آسيا
لجرحه فما كان أسرع نضوب أمانيه ! . . وما أشبه أمله الآن بجسمه الجريح ،
راح ينزف حق وشك أن يحف عوده ! . .

فلعل أعجب ما في قصة هذا الحالم بالسيادة أن يتنكر له في محنته ولي ويأسى
له غريم . بل قد كانت نكبته هذه من نسج جليف له . . . عدا القدر عليه في
ثوب صديق طالما أبدى له الولاء والطاعة ثم لم يعمله في وقدة النزال إلا ريثما يجعله

أمثلة أمام الناس لمن آوى الحية الرقطاء بين ردينه وهو يحسب أنها سوف تجزيه وفاء صرفاً على حسناء ! . . . ولكنها الحرب تنضو عن النفوس الزيف وتهتك المظاهر ، ثم تبديها عارية بلا طلاء : معادن خبيثة أو جواهر نقية الصفاء ، تربك النبل لا تشينه الخصومة ولا تنال منه . . .

لقد كان الأمر انكفاً على طلعة بأسرع مما تخيله وهمه حتى عجب لجنده المظفر كيف حاقت بهم هزيمة مباغتة ولما يكذب ينعم بتصره إلا لحظات . بدت له آية ظفوره المنهار كأنها سراب خدعته في البدء عنه ثقته فلما انكشفت عنه نشوة اعتداده رآها بلقما بلا ظلال . فما بقيت لجنده عزيمة تحملهم على الثبات ، إنما غدوا شراذم نهكتها الحرب فمضت تستبق سيلها إلى الفرار . . . كلهم فتنه نفسه عن الواجب ، وشغله حب الحياة . أما طلعة فظل بثوب الجندى وطبعه ، لم تخنه شجاعته ، ولم يفقد جلده . فراح يتذرع بالصبر عسى أن يسعفه الوقت بما يعينه في هذه النازلة فيستطيع المقاومة ثم يستطيع بعدها الثبات . وهل الحرب إلا تأرجح دائم بين نعمة النصر ونقمة الهزيمة ؟ . . . وهل حركات الجنود المصطرعة في ساحات القتال إلا كمثل الأمواج ، يلعب بها المد آونة فتفيض ؟ . . . ويكبحها الجزر أخرى فتفيض . فكذلك محنته الآن ، لعلها تنحسر عن شاطئه . وما دامت الحلبة لم تخل من رجاله فإنه سيعتصم بالرجاء . . .

وأهاب الرجل بمن بقي من جنده أن يؤازروه ، وثبت جهده للحشود الدافقة من رجال الإمام . فلو التفت به نفر يبأيعونه على النصر أو الموت لكان هذا أجدى عليهم وعليه ، إن ظفروا فلهم العزة أو قضوا فموت الكرام . . . على أن نعمة امرء آ في صفوفه كان قد أيس النصر ، وقر في عزمه أن الثبات الذي يبتغيه طلعة ليس إلا خفقة السراج قبل انطفائه ، فقد جفت الفتيلة وفرغ الزيت . . . بدت الآن الدولة المنشودة حلاً بدهد الصبح . وصاحبها الحالم سوف يحتويه الغمار . وأنصارها البناة قد انقض بناؤهم ولما يرتفع عن أساسه فهم الآن صريع وقيل ، وهم غداً أسير وشريد . فما غاية الناس من قتال مآلهم من ورائه قتل أو ذل ؟ . . .

بهذه النظرة استقبل مروان بن الحكم عناد طلحة ورغبته في المقاومة والكفاح ماوسعه الرمي بسهم أو الطعن بسنان . وعلى ضوئها رنا أيضاً إلى أطماعه تلك التي منته بسطوة جديدة في الدولة الجديدة تعيد له بعض جبروته في دولة عثمان . الحلم الجميل انقلب كابوساً ، ثم أضحي حقيقة مفظعة أهون على نفسه منها صرعة الكوايبس غربت منه آماله إلى غير مأب وأوشك أن يشهد لها بهذا الميدان قبراً يضمها رفاتاً محطمة لم ينل من السلطة وطره ، ولا من الوارث ثأره . . أفيدع يا ترى الحلبة هكذا في عمرة الهاربين دون أن يفوز بهدف واحد مما جاء هاهنا يبتغيه ؟

الآن بطلت المواربة وفرغ الرياء . لم تعد به حاجة إلى التوارى خلف أعذار مصنوعة هو يعلم أنها مصنوعة من زيف خالص قدونه إذن الثأر إن عداه الوطر في رجائه المعسول وحلمه الجميل . ولن يعود إلا بعد فراغه من الانتقام وصل الرجل من كناتته سهماً ركزه بقوسه ، ورمى بعين يلتهب لمعها صوب حليفه الكبير الكسير ، ثم أتبع النظرة الرمية فأصاب

عندئذ اشتفت نفسه وأحس الراحة تملأ قلبه . فلا أول مرة في حياته أرضى مروان ضميره إذ استجاب لصرخة طالما ترددت في أعماقه فلم يلها إلا الآن وحين رأى السهم قد نشب بطلحة أحس أنه نال شقاً من هدفه ، هو الثأر لثمان فيا ترى قد فاء إلى الحق إذ رمى فأعلن للدنيا أي امرئ كان قد قاتل الشيخ أو في القليل من كان أول عون في القضاء عليه ؟ . . . أم علم الثعلب أنه لن يشم بعد يومه فائدة ترجى من وراء الضيغم المهيض ، فاستأسد وأصمأ ؟ إن وقت النفاق قد فات ، والحلف الذي كتبه الطمع بينه وبين طلحة لم يعد له الآن بقاء بعد هذه الهزيمة القاضية على المنى والأحلام ، وكذلك نزع الرياء عن ولائه اللوقوت

وغامت عين القائد الجريح . فلعل بعض قطرات من عرق الجهد رانت على ناظريه ، أو لعلها دسمة سفحها وقد شهد كيف يكون تنكر الحليف للحليف ولكنه مع ذلك لم يبرح أرضه ، ولم يحن ظهره أمام الأحداث التي راحت تنوشه

كأنها كلاب . . بل قوم الرجل من قامته ، وشد رأسه جليلاً مهيباً كما يجدر بقائد يعرف لنفسه أنه العلم لجنوده ، ما يزالون يلتفون به ما بقي خفاق الديباجة . . . ثم كظم آلامه المبرحة وصاح :

« إلى . . إلى عباد الله . . الصبر . . الصبر . . »

ولكنها كانت صرخة في فلاة . أو كأنها دعوة إلى النجاة . . إنه ليشهد قومه تأخذهم فزعة فلا يزيدون إلا انقضاضاً عنه ، وفراراً صوب البصرة إلى منتجع حسبه يدخر لهم الأمن والسلامة . . . ولولا أن كبح من زمام مطيته الفزعة لحبت شوطها هي الأخرى مع الفلول المهزومة .

فما كان أمر عيشه تلك الآونة وما أفساه . . ودلو نزع الدماء الباقي من عمره مع دماء جرحه ولا يرى عاراً هو من الفشل عليه أشد . فكم غرته الأمانى كما غره الآن أولياؤه . وكم غلبه اليوم على شجاعته وهنه . ولو أسعفنه كفه لصال سيفه ، وللقى مصرعاً حرياً بجلد الأبطال . . .

وإنه لنهب ضاع بين وجع جرحه وألم نفسه إذ مر القعقاع به فشده يكاد أن ينوء ويتهاوى إلى الأديم لا يتماسك من ضعف ولا من هزيمة ، فرق له قلبه ، وأذاب النيل فيه حقد الغريم ، فأسنده في عطف وقال :

« يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات . . » فأرسلها إليه نظرة تفيض بشكره ، وهتف بخادمه بصوت واهن خفيض :

« يا غلام . . أدخلنى ، وابغنى مكاناً . . »

وكذلك غاب الرجل عن الميدان ، مخلفاً على أديمه مع الأشلاء المتناثرة لجنده ، أشلاء الآمال العريضة ، والأحلام الحلوة التى طالما راودته من قبل فى اليقظة وفى المنام . . .

٧

أمسكت عائشة في يديها الزمام . .

إنها لحظة حازية ، تذهل المرء عن كيانه . ندرت فيها الرؤوس ، وهافت النفوس ، وغدا المصير وقفا على الأقدام السبابة . . . ولكنه كان سيقا إلى فرار ومتجع هزيمة . كلما رمت السيدة بعين متلهفة من خلال ستر الهودج طالعتها النقيجة المريرة ، مقبلة عليها سريمة كسرة خطأ جيشها الهارب .

ولم يكن شئ يمسك على قومها عزمهم النهار ، فلا قوة لهم معنوية تثبتهم وإن توفر لديهم العتاد . . . وهل التزال إلا رباطة جأش وثبات جنان قبل ضربة سيف أو طعنة سنان ؟ . . . إنما أصحابها غدوا قطيعا من الشياه الفزعة أعارها الخوف أجنحة تنأى بها عن الذئاب المنقضة . . . وفيما بدا قد فرغت قلوبهم من الشجاعة لأنها فرغت من إيمانها بالقضية التي قاموا يناضلون عنها . فلو كانوا ذوى مثل سامية لمز على قوى البشر أجمعين أن ترحزهم شبرا واحدا عن مواطئ أقدامهم في الميدان . . .

أما الآن فليس معدى من علاج حاسم سريع حسبما تقتضى الآزفة وقد ذهب الراعى فانتشر أمر القطيع الجزع أيما انتشار ، وتفرقت هاهنا وهناك فلوله فرادى وجماعات . . . ذهب الزير ، وذهب طلعة على أثره ، وتركوا وراءها شراذم في حاجة إلى من يرأب صدعها ويربط بين قواها المحلولة ، أفتتقدم السيدة فتمسك الزمام الذى أوشك أن يفلت أم توجه «عسكرا» وجهة البصرة وتقر هي الأخرى مع المنحدرين ؟ . . .

لم يعرف الجبن وإن كانت امرأة طبعها أميل إلى حب العافية والسلامة . فقبلها بقية من إيمان بأنها أثبتت لهدف محمود هو إقامة حد من الحدود — الاقتصاد بالدم لدم حرام مسفوح يكاد أن يضيع . وكانت أيضاً تستشعر الرغبة في الانتقام لطلعة بن عبيد الله ، فما تدرى وقد ترك الوقعة أقضى أم سيمهله جرحه حتى مطلع النهار . . . أما صاحبها الآخر ، الزير ، زوج أختها أسماء ، فمسيره

بكفة القدر ، لا تعلم أى أرض الآن وطأتها قدماه أو أضحى مشواه . فلو قضى تحت عينها إذن لبرأت شيئاً من هذا القلق البالغ عليه لأن الدنيا كلها — فيما تشعر — مفروشة أمامه بالمصارع

وكان حقاً ما حدثها به قلبها عن أبى عبد الله ، فما ألقت عليه مرة عينها بعد لحظتها تلك ، حين رآه يوشك أن يكون فريسة سهلة لرمح عمار . . . إذ ذاك شهدته وقلبها وجيب ، وبحلقها غصة بعثها الطلع ، وبعينها دمعة تنيرى يرسلها الخوف الطاغى ثم بهم أن يمسكها الرجاء الذى يرادو النفوس ساعة النكبات المحتاجة . فقد مشى عمار يشق الصفوف ، وإنه لشيخ أوفى به عمره على آخر مرحلة من مراحل الحياة ، فما أقعده السكبر ولا أبطأت به شيخوخته عن خوض غمرة الموت . . . شئ — فيما يلوح لعينها الرقبة — يسير خطأ هذا المعمر الواهن الحش الساق . شئ غير القوة ، وغير حمية الشباب ، وغير الدم الحار فى العروق والأوصال كان يركب به من المواطن ما ينكل عن ركوبه الشباب الأجلاد من العزائم المواضى والصلابة التى لا تلين وكان مندفعاً خلال جندها كأنهم أغصان تقصف لضغطه وهو إعصار ، فإن هى إلا لحظة حتى رآه قد نفذ إلى الزبير فى مستقره فخازه برمحه المسدد ، وسد عنه كل منفذ فلا عاصم ولا نجاة . .

عندئذ أحست الوجيب ، وعانت الغصة ، وعالجت برهة ، دمعها الحيرى بين حجر العين وسياج الأهداب . . لاح الزبير شارد النظرة ، مضيقاً ، على قسماته مشى اضطرابه كمشى البغلة فى ملامح فريسة احتوتها الشراك . . . ولاح ابن ياسر فى غبرة لونه ، وبما اكتساه من فراء ، كثعلب ، ثوبه الإهاب ورمحه الخلب . .

فلا مرام أعاد الوحش الظافر ظفره إلى إهابه وعف عن الفريسة المخدولة بنابه . . فى اللحظة التى حسبت العيون الرقبة أن ستشهد الدم ينخضب من حربته خلفته الضراوة ، ولم يكن شئ ما يحمله على رد رمحه عن غريمه فى هذه الآونة التى يملك الحماس فيها النفوس وتأخذ المحارب صرعة الوغى حتى تشغله عن كل حواسه . . ومع ذلك فقد نكس الشيخ أداته الظامئة للدم . عاطفة غامرة شملت كيانه فامتلاً لها قلبه رقة على عدوه المغلوب نقضت للألوف من الوحشية فى شريعة الحروب . . هتف به الزبير فى هوادة كأنها ضراعة :

« أتقتلني يا أبا اليقظان ؟ . . »

فسرعان ما انتفض عمار للنبرات المبتهلة الحزينة ، فذاب عنقه ، وفاضت بقلبه الرحمة ... إن يكن ظفرك بهذا الغريم نصرا فإن المروءة عنده فوق النصر ...
وقال مجيباً وهو يدلى رمحاً إلى جانبه ، في لفظ هزته عبرة غلبت عينه المغضية من استحياء :

« لا ... يا أبا عبد الله ... » .

وكان هذا آخر عهد الزبير بالقتال . ركب فرسه ثم خلا منه الميدان كما خلا بعده من رفيقه ، وراح مصير كليهما في غمار المجهول .
وتلفتت عائشة حولها من جزع وحيرة ... أهكذا تن عزائم الرجال ؟ وهل من مهرب يا ترى من قضاء ؟ وأين ذهبت المروءات ؟ ... ما رأت جندها إلا رجلاً مال عنها إلى عين أو انحاز مسرعاً إلى يسار ثم لا يجمع بينهما غير درب البصرة : مسلك الفرار . فكأنهم جميعاً قد عميت أبصارهم عن الهودج القائم بينهم كالقلعة . شغلتهم عن المحنة المحيقة التي خلت البدن وأكلت الروح . ولكن المحن أحياناً تلهم ، وهذه زودت السيدة بما أجل هونا نكبة الهزيمة وأرجأ داهمتها حتى حين ... !

صرخت فيمن كانوا يعدون من حولها متلمسين النجاة . فإذا الحزى يوقف الأقدام الفارة ، ويشلها أن تعم في الحرب تاركته خلفها حبيبة الرسول للمصير المخوف ... آبت القلوب ، وقرت النفوس المذهوبة ، وعادت الناس حمية بعثتها فيهم المروءة فإذا صرخة الحرب تنطلق ثانية من أفواههم ، مدوية الجرس في نبراتها ابتهاج مع الدعوة إلى القتال ...

وهتفت عائشة — وقد رأت الزمر المذعورة فاءت كرة أخرى إلى الثبات ، ملتفة بالهودج كأنها سياج — تدعو قائدى جناحى الجيش ، ابن عتاب وابن هشام ، أن قفا أمام السيل ...

وكان — أول من لبأها مضر ، راحت تنضح عن الجمل ما وسعها الدفاع ، فقد مضت النبيل ترشقه من كل مكان حتى غدا الهودج عليه كالقنفذ ، ثم تبعهم

بقية المناصرين. ورويدا رويدا تكون القلب ، فما تكتلت فيه الجموع حتى انفصل بعضها يؤلف الميمنة والميسرة للجيش الوليد الذي تمخضت عنه المحنة ، وعاد القتال كبدة مسعر الأوار ...

وكذلك أمهل في عمر الوقعة . وإنك لتشهد الحماس يشيع في الناس فتعجب كيف أوتيت صرخة امرأة قوة تستطيع أن تحيي موات الأنفس وتعلأ القلوب رجاء . رورة . وما أسرع ما عادت صيحة الحرب على شفاههم إلى الحياة ، يزأرون بها ثانية . كمثل صراخ القساورة في بطن الغاب . . دوت من جديد « يالثرات عثمان » . فيها ضغينة الموتور وثورة الغاضب ، تتنقل بين الأفواه ثم تتجمع مع الأنفاس اللاهثة في جو الساحة كأنها ملاءة كثيفة تحجب عن الآذان كل ما عداها من المهرج والضجيج . .

واندفعت عائشة في حميتها المتهاجة فأخذت بكفها قبضة من حصى الأرض استقبلت بها رجال الأمام المندفقين على حمايتها تدفق السيل ، فصبتم بها وهي تصيح : « شأهت الوجوه ! ... »

ولكنها لم تجد شيئا من قوة الهجوم وإن لمهجت بدعوتها تلك مرات . بل بلغ التدفق على هودجها أشده . وتلاحمت حوله الرماح ، ثم تلاصقت الأبدان حتى غدت الحراب في أكف أهلها مشاولة ، عز عليها الحراك . فلعل وقعة قبل هذا اليوم لم تكن قط كالجل من فرط اشتباك الأسنة حتى لتستطيع أن تسير فوقها مواكب حاشدة من المطى والخيول ! ...

وندت من رجال الأمام صيحة لحربهم جديدة . مضى الآن عهدهم بالترفق وإثارة الذكريات في النفوس للدخولة عسى أن تنفي بها الذكرى إلى طهرها القديم ... كانوا في بدء المعركة يهتفون : « يا محمد » كأنهم يشهدون الرسول على أمر إخوة لهم في الدين آثروا الانقسام بعد الوثام ، ولكن الاسم الطاهر لم ينق الأنفس ولم يغير القلوب . ومضى أصحاب الفرقة وشأنهم ، بعيداً في مشاققتهم ، وإن ساروا شوطهم على أرض رشوها بالدم . ولم يعد من دواء لهم في الوطاب إلا العنف يشفي ما ملأ عروقهم من العنت والضغينة ...

هتفوا الآن صائحين :

« يا منصور أمت ! ... »

وانطلقوا على أثرها ينعون الموت فرائس جديدة ! ...

وهتف بهم على وقد شهد التعامهم بالخصوم :

« السيوف يا أبناء المهاجرين ... »

خفلوا النبل والحربة وهزوا الحسام وهل غيره سلاح يستطيع الآن صيالا
وقد التصق الغريم بالغريم ؟ ... إن السيف كان وحده أداة القتال في هذه
الآونة ، يصول ولا يكاد . ويهترثم لا ينال غير الأطراف ، من قدم أو ساق ،
حتى لم يرقط معركة أكثر يداً مقطوعة أو رجلاً بتراء ...

ومع ذلك فقد نزع النصر وطال الصبر والناس على ما كانوا فيه من شدة
التحام . كلما رميت بالعين فيهم أعياك أن ترى بينهم ثغرة تمر منها النظرة ! ...
بل غدوا سوراً ضخماً ، وطيد القوام حول « عسكر » كأنه بناء وثيق الجدر ،
لبناته وأحجاره من أجسام ! ...

وظلت الرحي دائرة ، قطبها الجمل ، لا تكف لحظة عن الدوران ، ولا تنق
تطحن المظم وتمصر الدم ، ما وقع بين شقيها فريق من أولئك أو غيره من
هؤلاء . فكل الفريقين وليمة شهية ، تستطيها الوغى المنهومة !

٨

لم يفتقر القتال حتى أوشك النهار يزول . وكان الجمل العلم بين أصحابه ، التفتت به
الكتائب المدافعة . بل غدا لهم مثل الحجر الأسود داخل البيت العتيق ، له
قداسة جمعت القلوب والخواطر ، وهفت نفوس كثيرة مفتونة ، أطاقوا به إطفاء
الحجيج بالحرم ، واستشعروا نحوه بما يحسه الوثني لصنمه . . . وهذه الأزد
لا تنضح عنه فحسب بالروح إنما قنتت له ، وراح منها رجال يفتون بعره ويرفعونه
إلى آناقهم يشمون في نشوة من التقديس الضال وهم يلهجون :
« بعرجل أمنا ، ريمحه ريمح المسك ! ... »

وكانت عائشة قد راودتها الآمال . كلما ألقت البصر أحست الأمن يقاربها شيئاً شيئاً ، والنصر يلوح لها يبارقاته . فما دام جيشها عرف الثبات من بعد فراره ، فثمة في رحاب المنى بقية . . . لقد غدا الدفاع عنها شرفاً تسابقت عليه القبائل ، واستهانت بالردى في سبيله . بل كانت تستقبله بالرضا والابتسام ، مشرقة الوجوه كما استقبل المياه ظمآن .

لم ينكل رجل قط إذ ذاك عن موقفه ، ولا أخذته على حياته خشية . فما غدت الحياة عندهم غاية كما كانت ساعة الفرار . دماؤهم الآن فدية رخيصة للجعل الدارع ، وللهودج الحصين ، وللسيدة التي رفعت لهم عصا القيادة . وإنها لترى ما غمر قومها من حمية فتزيدهم بحديثها حماساً على حماس ، وتنطلق الكلمات من ثغرها الذي شده العزم ونحله صلابة ، تهيب بهم ، وتدمرهم إلى المقاومة كأنها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة فيندفعون في طرائق الموت سراعاً يبتغون الخلود . . .

التفت يسرة ، وسألت حماتها هناك :

« من القوم ؟ . . . ؟ »

قال صبرة بن شيان :

« بنوك الأزدي أم المؤمنين » .

فردت تبث فيهم النخوة وتثير من أمجاد الماضي بأنفسهم ما يشترون بعثله الموت سلعة ثمينة :

« يال غسان حافظوا اليوم على جلاذكم الذي كنا نسمع به . . . »

وجالد من غسان أهل حفاظها وهنب وأوس جالدت وشيب

ونظرت يمنة وسألت :

« من القوم ؟ »

« بكر بن وائل »

فهمت فيهم .

« لكم يقول الشاعر :

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل » .

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلا استبسل وثبت ثباتا لا يترشح عنه أو يهلك ، ثم يتلوه آخر من قومه مكانه ، كأنهم جميعاً شلال ماء ليس يبطل اندفاقه . . . وما سمعها امرؤ من قوم آخر إلا سقط على أجله يتصيد لعلها مزجية حديثاً إليه يرفع في السير شأنه شأواً عالياً وشأن أهله . كان مباحاً إلى الموت لم تخل حليته ، تدافع فيه الناس غيرا كأفراس سبق كريمة . .

عسكر كان محور الحومة . على خطامه تساقط الأبطال من أعوانه كأنهم فراشات جذبتها وضاعة اللهب . ولكنهم ظلوا جهدهم يجالدون الهجوم الذي لم يفتروا ولم تنحصر عنهم أمواجه . وما كانوا قط فريسة سهلة لجند الكوفة المهاجمين بل جاوزوهم دراكا الهام بالهام والحسام بالحسام ، كلما استقبلوا منهم فئة خروا وإياها عند قوائم الجمل صرعى كأنما كانوا جميعاً على موعد والحتوف قرب أخفاقه .

فلعل الأرواح لم تعرض قط سلعة رخيصة كمرضاها بهذه السوق ! . . وكان اليوم قد صار أصيلاً يصبغ الثرى بسيله ، حتى احمرت الأرض فلا يدرى أمن لون الشفق مكبته الشمس المائلة عند جانب السماء أم الأفق غدا صقال مرآة انعكست عليها حمرة الجروح . أما الأنفس خالت غيرها منذ قليل ، إذا اقتحمت بخيالكم الجسوم المكدودة إلى القلوب فيها سممت خفقها الدائب يردد أكرم الأحاسيس . الآن شغلها النبل عن الذات . خلفتها الأثرة البغيضة وملاها الإيثار . أصحاب عائشة أبدلتهم المروءة غيرهم رجالا تشور في عروقهم دماء النخوة أن رأوا أمامهم أنثى توشك أن تكون مرشقا للسهام ، وأعوان على زادتهم المقاومة صلابة فعادوا عزائم مشدودة كوتر القوس عند التصويب ، لا هدف لهم إلا أن يتبعوا التضحية بأخرى تشغل وعيمهم عن نداء الحياة . .

وكانوا آية في إنكار الذات والفناء في شخص قائدهم العظيم . كانوا سفرا حافلا من الإيمان بحقه قلب صفحة فتطالع بعدها صفحات أجل من سابقاتها وأزهر ، فاقت الإحصاء وجاوزت الحصر حتى هان بها المجد ورخص الفخر ! . . من البدء كانوا أحرف الوفاء . . الهول الذي خاضوا غمراته لم يباعد قط ما بينهم وبين إخلاصهم للإمام ولا يثقل خط اليراع . . ولا شابت الوجي

المخدمة حبههم إياه بشائبة من ريبة وإن عم الكرب أو فدح الخطب . ولكم همت
الحرب أن تدع بيوتاً لهم خواء إلا من أنة أرمل ثكلى ودمعة صغير يتيم ومع
ذلك فلم تستطع الانتفاص من رجولة الرجال ، إنما مضوا أشواطهم جميعاً
— من شباب وشيب — على أرض الساحة يستبقون متنافسين إلى موت أعز
عندهم من الحياة . .

استبق الجند يعصفون بمن حياهم من حماة عسكر ، لا يردهم غير الهلاك
وإن تشابكت حوله الأسنة ، وإن نافح عنه أقوام أشداء أجلاذ بالعدد أو بالعتاد .
ولقد وقفت مضر كالطود عزيزة النفر تنثر الموت لمن حدثته نفسه بالتقدم فلم تغن
عنها عزتها ، بل انبرت لها طائفة قليلة فيها بنو صوحان يسدد خطاهم ولاؤهم
للإمام ، ليس منهم رجل تمسكه خشية أو يرده وعيد . وحين سمع زيد من بين
الناس صوتاً محذراً يقول له :

« تنح إلى قومك يا ابن صوحان . مالك ولهذا الموقف ؟ . . ألسنت تعلم أن
مضر بحياك ، وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ . . » .
ابتسم على الأثر وقال :

« الموت خير من الحياة . الموت أريد . . . » .

فكانت له على الفور طلبته . وسار سبيله إلى حتفه يتبعه أخوه سيحان ، ثم
يوشك أخوها صمصمة أن يرد نفس المورء لولا بقية من أجل حرمة أميته . . .
وكذلك مضى المقاتلة من جند الكوفة يعصفون بأهلهم ورجال قبائلهم
البصريين ، ويقصفون قصفا شديداً كل من وقف أمامهم ب مقام صيال . وبقدر
ما بانغت حمية أزد عائشة الذين قدسوا الجمل بلغ حماس الوغى بأزد على ذراه ،
فتساقطوا على عسكر عسى أن ينالوه ، لا يعينهم أن يقعوا تباعاً صرعى بل يهجمهم
ويملك بالهم أن تميل رايتهم . . . انبرى بها في البدء مخضب بن سليم يشق قلب
الجموع فصاده حينه ، فتناولها منه الصقب فقتل ، فالتقطها أخو مخضب عبد الله .
وظلت هكذا رافعة خفاقة ، كلما أوشكت أن تغلتها كف قائد صريع بادر آخر
من بيته يرفعها ليخلف سلفه على مزلق الحمام . . .

يمثل هذا تتابعت فرائس الموت ذلك النهار . وبأبلغ منه نالت الختوف نيلها من بكر وعلمها إذ ذاك في أيدي الدهليين . . . فلعن قادتهم أجمعوا إلى أبعد الأشواط في التضحية والفداء ، واسترخاض الحياة ، لأننا نسمع أبا العرفاء الرقاشي يقول للحارث بن حسان الدهلي ، حامل الراية ، وهو مشفق عليه :

« أبق على نفسك وقومك يا ابن حسان . . . » .

فلا يأبه لتحذيره ونصحه ، ولا يلقى نظرة نحوه أولى بها موقع القتال ، بل يهز علمه ويصيح بقومه بصوته الجهير :

« يا معشر بكر بن وائل . إنه لم يكن أحد له من رسول الله مثل منزلة صاحبكم فانصروه . . . » .

ويندفع راضيا نحو حتفه ، ويسير على أثره ابن له ، ثم خمسة إخوة يسلكون نفس المصير . . .

وتشيع المقتلة تواء في الدهليين فيسقط منهم خمسة وثلاثون تباعا في فترة من الزمن قصيرة كلحة الطرف . إنهم تهاووا كما تهاوت السنابل على منجل الحصاد . ولكنهم لا يثنون قط ولا ينكلون . وتعصى بقيتهم شوطها في الحومة يتسامرون كمن في ندوة . . يقول رجل منهم لأخيه وسيفه يقدر الأعناق :

« يا أخى ، ما أحسن قتالنا إن كنا على حق »

فيعاجله الآخر وقد خشى أن يكون إيمان صاحبه مسته ريبة :

« فإننا والله على الحق . إن الناس أخذوا يميننا وشمالا وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا . . . » .

مفر حافل بآيات الإيمان بالهدف الذي قاموا يناضلون عنه ، ملائته صور من الوفاء والبطولة تجل عن الحصر ليهون معها المجد ويرخص الفخر .

٩

شاعت المقتلة في أصحاب علي شيوعاً عز مثله في الوقائع والمركة تسير سيرها إلى النهاية . وكان الموت إذ ذاك نقاداً يتخير الخاصة من القواد قبل الأجناد ، فهم على كتائبهم ، يشقون بها أمواج العدو كما يشق النيزك كسفة الظلمة . وما منهم إلا رجل قد وعى وصية إمامه التي أدلى بها إلى ابنه محمد حين دفع إليه راية الجيش وقال يبصره ويحضه على الثبات عند اقتحام الغمرات :

« تزول الجبال ولا تزل عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تدفى الأرض قدمك . ارم يبصرك أقصى القوم ، وغض بصرك : واعلم أن النصر من عند الله سبحانه »

ما من رجل فيهم إلا اعتنق هذه الوصاة شرعة أعز على التبديل والتأول فكلمهم للإمام ولد يأسره البر وتملكه الطاعة . وليس منهم إلا راغب في مصير يشارك به رافع اللواء وإن فدحتهم المصاير ، فظهم جميعاً سواء . وعندما أمر على ابنه أن « أقدم بهذه الراية حتى تركزها في عين الجمل » لم يكن يدفع به لغير فكي الموت ، ولم يكن أيضاً قد تجرد من شفقة عليه بل كانت نفسه تسيل رقة وخشية على فتاه أن يتخطفه أجله . ولكنه كان يرنو لغاية أعز من عاطفته يرخس في سبيلها الفداء بالمال والولد والروح .

على أنه كان محتجز ولديه الآخرين عن اقتحام المهالك ، فذانكم سبطا رسول الله لو ذهبوا لانقطع نسله العاطر وعطلت دوحته الزهراء من ثمارها الطيبة . . . فكأنه استهدى سنة محمد في أخريات أيامه عندما احتجز علياً عن القتال بعد مصرع أخيه جعفر حرصاً عليه أن تنقطع ذريته الطاهرة بموته . وهل بقي الآن لرسول الله غير سبطيه أحد ينقل نسله إلى الأجيال ؟ . . .

قيل ذات يوم لمحمد بن علي :

« لم يغرب بك أبوك في الحرب ولا يغرب بالحسن والحسين ؟ . . »

فقال الفقي الذي عرف لأخويه قدراً عند ربه وعند الناس يغطهما

ولا يحسدهما عليه :

« إنهما عيناه وأنا يمينه ، فهو يدفع يمينه عن عينيه . . . »

وكذلك كان يركب المهالك ويخوض غمرات الموت راضى القلب رضى البال يقوده الولاء والإيثار ، وتدفعه شجاعة تدفقت في أوصاله من صلب أبيه . وعندما انبرى للجمل ليركز في عينه الراية لم يقعه الهول عن التقدم ، ولم تؤخره الوقدة الحامية التي شها رجال عائشة حول حصنهم الحي حتى غدت الأرض دونه قطعة من الجحيم . . . فكأنه إذ ذاك أعدى جنده بهذه البسالة التي تغلغلت في كيانه فاندفعوا إلى الغمار مثل اندفاعه لا ينكصون كأنما قد مات الموت . . . وأخذت الرحي الدائرة تطحن منهم القادة ، كابرأ بعد كابر حتى قتل على علم على من اليمن وحدها عشرة ، وعلى راية ميسرته طائفة موفورة بمن تألفت منهم كتابتها المختلفة الأصول والبطون . ولو نزع المرء إلى الحصر لأعياء أن يلم بالمصارع . ولكنها كانت منجلا حصاده الرءوس من كلا طائفتي المقتلين ، يسبق قادتهم إلى الختوف تبعهم من الجند ألوف تلي الأوف ! . . .

ونظر على وما زالت الحركة أمامه مصطفقة ، بين مد وجزر كأمواج اللجة في مهب العواصف . . هذا سراج البصرة يضطرب ويتذاب ، يلعب بذبالته تداول الصراع ، وها هي حقائقه تلتصع آنا وهاجة وآنا آخر خاية الضوء كأنها أشرفت على الخمود . ولكنها لا تكف عن بعث سناها ينير لأصعابها طريق الجلال المروور . وما دامت البهيمة الدارعة باقية بينهم على قوائمها فلا نجاء ، إذن لهم ولا لحصنهم سواء بسواء ، ولا حياة لامرئ أو بقاء .

الإمام علم هذا قبل أن تشيع المقتلة في الناس كل هذا الشيوع . وحال من البدء أن يكف غائلة الهلكة فهتف بأصحابه :

« من رجل يحمل على الجمل ؟ . . . »

فانتدب له هند بن عمرو المرادى ، ولكنه لقي مصرعه بسيف فارس كان يحمي البهيمة ، ويمسك بخطامها معتزاً كما أمسك في يديه بوثن معبود ! . . ولقى أيضا مصارعهم حفنة آخرون من خيرة العلويين ، منهم زيد وأخوه شيخان ، وعلباء بن الهيثم ، كلهم اخترمه سيف الفارس ، ونقذ إلى صميمه برجفة الموت . . .

عندئذ دعا الإمام إليه الأشتر ، وعمار بن ياسر ، فوجههما نفس الوجهة وهو يقول :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخدم ضرامها ما دام حيا . . .
إنهم قد اتخذوه قبلة . . . »

فانطلق الرجلان في فتية من مراد . واستبق عمار سبيله في ثوبه القرو وقد شد خصره بحبل من ليف . . إنه ليسرع الخطا ما أمكنته التسعون التي قضاها بهذه الدنيا عازفا عن وجهها مستدبرا أطايبها وأمانها المغرورة . حتى إذا شق له سيفه طريقا بين عدوه قطعه على الأشلاء والجحاجم ، انبرى له نفس الفارس الرهيب الجنب ، بهم أن يستقبله ، كما استقبل الدين قبله ، بالحمام النهم على شفرة حسامه . . .

ذلك كان ابن يثربي ، سلف كعب بن سور على قضاء البصرة ، قد نشط وتيته ونقر عرينه . . . الشجاعة كانت لحنا يترنم به خفق قلبه ، والخيلاء جاءت صدى لنصره على تلك البضعة من أخصامه الذين راموا الجمل فدهتهم الردى من دونه . . . فلعله حين رأى الشيخ يدب نحوه حسبها خطوة لعمار نحو القبر فابتسم رثاء أو استهانة . وهل لفان كابن ياسر طاقة بعجندل المغاور ؟ . . .

ولكن عمارا كان أبصر منه بالمغامر ، أعرف بالنفوس من أين ينفذ إليها العطب نفوذ الديدان في الحماة الرخوة . كان الشيخ واسع الحيلة كشلب ، عرف من غريعه افتتانا بالفخر فنفذ إليه من خلال خيلائه . فما أن سمعه يرد مزهوا شعرا غثا يشيد بانتصاره على ضحاياء حتى هتف به عمار :

« إن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة ، فلقد لعمري لذت بحريز وما إليك سبيل . . . »

فكبر على ابن يثربي تحدى الشيخ المعروق ، وخشى إن هو لم يسرع فيلحقه بمن أصاب أن ينتكت عليه نخره . . فليردنه إذن ثم يعود إلى خطام الجمل يسك به ، وإلى الهودج ومن فيه يحميه . . .

واندفع غاضبا نحو عمار ، وهز سيفه سريعا ثم انقض به انقضاض صاعقة .
ولكن الشيخ الواهن الضميف كان أسرع منه حركة وأكثر بقظة . قبل أن
تنبه العيون الرقية سبقت درقته اللحظ كما سبقت السيف الهاوى فتلقت الضربة ..
وفرت من ابن يثربى فرصة للمباهاة ! ..

فما أسرع ما انتقلت البسمة من فم الفارس الساخر إلى شفتى ابن ياسر ! ..
وما أضل عين الكبرياء الجريحة ! .. فى سورة من غضبه اندفع ابن يثربى يعالج
السيف المنتشب بدرقة غريعه فكان كمن شاء اقتلاع دوحه بعيدة الجذور
فى أغوار الأرض . عصاه السيف ونخبطه الاضطراب الذى أوقعه فيه حرج
موقفه أيما تنحيط . فقد غدا الآن أعزل لا يملك شيئا لنفسه ، حياته ملهامة فى يد
العدو الهزيل . . .

وشهد الناس إذ ذاك مجندل المغاوير مسلوب الحول ، ذلك الذى شق خندقا
من الموت حول عسكرهم أن يحتويه خندقه ، وأضحى الرثاء كله الذى أحسته
الجموع نحو الشيخ الواهن منذ قليل يحوط البطل الصنديد . ولم يعمله حينه ،
ولا ترفقت به النازلة التى أعدتها خيلاؤه لخصمه المجترى عليه ، بل جاءته سراعا
فى برقة من حسام عمار لمعت ثم هوت فأطاحت عنه ساقيه . وتركته لقي على
الثرى قد انهار دفعة واحدة كما انقض بنيان . . .

فكم من صريع إذ ذاك رقد عند قوائم البهيمة ؟ وكم علما انتكس ونجما هوى
من الأعلام والنجوم ! .. طائفة حمة من الوجوه والأكابر . وزمرة بالغة لقيت
الحتوف وافرة وما فيهم إلا أماجد وغول ، حتى لقد شككت قريش من أعيانها
على خطامه سبعين . . إن عائشة لتنظر فلا تبصر ، فالدفع حجب عنها مضاجع
الفواجع والأسى الساج فى جو آمالها سحابة من قتام اليأس وسواده ، ردتها توا
من نعمة الحلم إلى نقمة الواقع . . .

وأخذ الزيت فى السراج ينضب . وبدأت الذبالة تجف وتحقق خفقتها الباقية المؤذنة
بالانطفاء . . أين من الحومة الآن بنو ناجية ، أولئك الذين كانت تدمرهم السيدة
فتقول : « سيوف أبضعية وسيوف قرشية ! » ؟ . وأين الأزد التى فتت البعر

تشمه في نشوة غامرة من الولاء والتقديس الضال ؟ .. وأين بكر الدارعة في الزرد
والحديد ذات العزة القمساء ؟ .. تحظفتهم جميعاً المصارع ، وخلت منهم ساحة
القتال إلا أشلاء منشورة على أديعها تؤلف أدمم وليمة للنسور والعقبان ! ..

ومع ذلك فلم يبرح الرجاء قلب عائشة بعد نزول كل هذا البلاء . وما زال النصر
يخطف بخيالها خطف البرق في ليلة قر كثيفة الغيوم . فتمة بخيالها بنو ضبة ،
الذين دعته « جمره الجمرات » تحملهم أقدامهم وترفع هامهم ، وإنهم ليدفعون
عنها كدفع الليث ، وينطلقون في جلادهم خفافا كأنما راموا هزيمة الموت ! ..
ولكن السور الذي بنى أولئك الأبطال من جسومهم حول الهودج راح
يرق مع اللحظات ، كلما حيت الحرب وزاد الكرب . . أخذت تنشر في كيانه
المتين ثغرة هنا وثغرة هناك ، الموت أعتى عليهم عدواً من أن يستطيعوا جلاده ! ..
وبدأت أيضاً ترق معه غلالة الأمل التي كانت تغشى خيال عائشة وتمسك قلبها
الشجاع أن يذوق وخزة الهزيمة .

عندئذ همست ، وصوتها الخفيض الراعش تحبسه أن يجاوز سمعها ، وقد سرح
همها على خديها في دمة :

« ما زلت أرجو النصر حتى خفتت أصوات بني ضبة . . . »

وردت نفسها عن اليأس الطاغى ، جاهدة ، إلى حفنة منهم بقيت في الحياة .
نعم ما كان من بلاء قومهم من أجلها ، ومن وفائهم لها وفاء لم يأكله الموت وإن
أكل كثرتهم ! .. إن قلبها الثقيل بالأسى لا يستطيع أن يكن حزناً عليهم يكافئ
ما أبدوه من شجاعة . وإن عينها لتطيف بمواقع أقدامهم فتراها خواء لولا
شرذمة أخرى من الجند ملائمتها وخالطت بقيتهم ، تهم جهدها أن تتلوهم
في مسارى الخلود . . .

وقالت عائشة تسأل عن الحماة الجدد :

« من أنتم ؟ »

« بنو عدى ، خالطنا إخواننا من ضبة . . . »

فزفرت من حسرة تقول :

« مازال رأس الجمل معتدلاً حتى قتلت بنوضبة حولي . . . »
فكأنما لسعتهم من كلامها بنار ، سرت دماؤهم في عروقهم شواظاً فوقعوا
تباعاً على الموت يحاولون رد موكبه وسد السبيل دونه عن الهودج ومن فيه ، حتى
أقاموا كرة أخرى رأس الجمل رافعة شماء . . .
ولكنها كانت الخفقة الباقية للسراج يافظها ثم لا ينير . . .
وكما يسطع ضوء الدبالة أزهر وهاجاً في خفقته الأخيرة ، فكذلك أبدى
رجال عائشة من ضروب الشجاعة والجرأة في الدفاع عنها ما لم يبداه أحد منهم قط
من قبل ، وما يعز مثله على طاقة البسالة .

١٠

هاض جيش عائشة .

لم يعد جيشاً بعد . لا ساقة ولا جناح . غدا كله قلباً ، بل شيرذمة من القوم
عند الجمل ، تنضج وسعها عنه في اضطراب وزحام ، يتنافس أفرادها في مسك
خطامه ، وفي رفع رأسه عالياً كما يرفع القائد اللواء . كلما سقط حام مجندلاً تحت
قوائمه زحف آخر ليمسك بعده الراية العجيبة ، ليتبعه إلى نفس مصيره . . .
ولم يعد لهم أيضاً قائد يوجه قوامهم ويسدد خطاهم . كلهم غدا ذلك القائد ،
يعمل غفو خاطره وحسباً تملئ عليه حركة الصراع العنيف المشبوب . . . حتى
ابن عتاب رضى مختاراً أن يترك عصا القيادة وآثر عليها الخطام ، بل آثر وهو
مكره فلا مجال أمامه للاختيار وإنه ليظل حامل هذا اللواء حتى تأتيه ضربة
سيف تفصل عنه يمينه ، ثم ترسله على أثرها حطاماً بين الأشلاء . . .
وأضحت السيدة الآن لا تدمر الكتائب ، ولا تثير في الناس حماس الحرب
بالتحدث عن أمجاد قبيلهم وأهلهم ، فقد تفككت وحدتهم ، وباتوا فرادى بعد
تكتل واجتماع . وراحت عينها تستهدف الزمام وحده ، كلما أمسكته يد سألت عن
صاحبها ثم أثابته عن بلائه بلفظ مشير . . .

وسألت عن ممسك الخطام قليل :

« محمد بن طلحة » .

فدعت له . واستأهمها الفتى ما تريد :

« مربي بأمرك يا أماء . . . » .

فقالت وقد أخذها الريب في بقائه حيا إلى كثير :

« يا بني . آمرك — إن تركت — أن تكون نكير بني آدم . . . »

وكان هذا آخر ما سمعه في الواقعة كلاما واضحاً بغير إيهام . وكان آخر قوله

أن صاح وهو يحمل على السيول الدافقة من جند عدوه :

« حم . . . لا ينصرون »

ثم إحتواه الرغام . . .

ثم أقبل امرؤ طوال نحيل ، أجرد الوجه لا يحف وجنتيه شعر ، أطلس
اللون مثل ذئب الصحراء . فعندما أمسك زمام البهيمة لم يعلن نفسه كما كان
يعلن سواء ، بل ختم على شفثيه بالصمت . . . قد كان يؤثر أن يجنب السيدة
مغبة الإعلان . . .

ولكنها سأله . ثمة رجفة من القلق زحفت إلى صدرها ، لها مثل ملمس
الرقطاء ، جعلتها تسأله في اضطراب :

« من أنت ؟ . . . »

« ابن أختك . . . أنا عبد الله » .

فصاحت جزعة من خشية عليه :

« واثكل أسماء . . . »

غير أنه لم يزايل مكانه ، ولم يتخذ لنفسه ملاذا بعيداً عن الموقف الذي كان
شدقا الموت يزدرد كل من دنا إليه وإن جزعت خالته وودت مخلصه لو جاوزه
وتركها وحدها لمصيرها كيفما يكون . . . بل وقف بذود ويصول . . .

فإن عى إلا لحظة حتى جاء الأشر وقارب الوجار ؟ . . . إنه لمشي إلى مريض

الذئب الأطلس ، يروم صيداً يقصف به الجمل ، ويخضع صاحبه ، ويشكل أسماء .

ولحه من أعوان السيدة عبد الله بن حكيم بن حزام ، فأسرع يحول بينه وبين مبتغاه . لم يغيب عنه قدر الأشر ، ولا شك لحظة في أنه جاءهم برسالة الهلاك
ولكن ضربة واحدة قضت على المعترض وفتحت الطريق

ووقف الغريبان وجها لوجه تلتمع في حديقهم نظرة الضراوة . فما تقابلت عيونهما حتى تقابل سيفاهما ، وما اختلفا ضربات إلا كان لجسم عبد الله بن الزبير منها أوفى نصيب ، كلما رمى غريعه بطعنة أصابته مقابلها بضلع طعنات . . .
أما السيدة في هودجها فلاملها ذقت المات مرة بكل ضربة أسالت من ابن الزبير ولو قطرة واحدة من الدماء . . . نخصمه شديد عنيد ، بدا كأن قد آلى على نفسه ألا يدع ربيبها إلا جدثا هامداً فارقه الحياة . . .
وصاحت كرة أخرى من قلبها الكسير :

« واثكل أسماء ! . . . »

وكان الأشر حينذاك قد قل من حد مصاوله ، وأحاله كتلة صامته من اللحم لا تنطق فيها إلا ألسن الجروح . . . ومع ذلك فقد ترفق به وسمه ، ورد سيفه أن يجهز عليه . كم لقي المنتصر من هذا الكبح الذي حرمه لذة الظفر كاملاً غير منقوص ! . . . إن بقلبه هاتفاً رحيماً يمسك عليه عنقه — ذكرى من الماضي الغابر يوم كانت النفوس كلها تدين بالآلفة وقد صفت من شوائب الضغائن . . .

ولم يجد الرجل متنفساً لضيقه الذي أحسه غيب السكتان إلا أن يأخذ برجل خصمه المهيض فيقذف به في الخندق كقذفك الصخرة وهو يقول :

« والله ، لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر ! . . »
وتركه حيث رماه نهبا تقاسمه الموت والحياة . . .

كان على حينذاك قد أبطأ عليه الجسم . فالبعير ما زال قائماً ، رافع الرأس كالعلم بين الكتيبة ، وحماته نسوا الموت وإن لم تنسهم نوازلهم . . . كلما مضت إليهم فئة من أخصامهم حكموا بينهم وبينها السيف حتى شاع القصف وذاع الحتف . وظل كلا الفريقين على عناده لا يتزعزع ، ولا يبطأ طيء رأسه لاشدائد . . .

أبطأ على الإمام الفصل حق غدا بينا لديه أن الناس لن ينفذوا أو تسقط
عائشة صريعة في الغمار . وخشى عليها هذه المغبة الحزينة التي ستجلب حتما بالعار
جهاده وتسم جلاده ومتى كان يستبيح من الأقران المغاوير إلا الأكفاء
دع النساء وأين له النصرة عند الأجيال لو صرع رجاله امرأة وإن أجلبت
عليهم بالخيال والرجل وعدة القتال الرهيبة بعد إجلالها بالحقد والضغينة . . .
وكيف يستطيع إذن أن يحتفظ بوفائه لذكرى صفيه رسول الله لو حم الآن
في امرأته القضاء . . .

عندئذ صرخ في أعوانه ممن هم أدنى إلى البعير منه :

« اعقروا الجمل . فإنه إن عقر تفرقوا . . »

ثم انثنى إلى رجل من ضبة فأمره :

« دونك الجمل يا ابن دلجة . . »

نخف الرجل لما انتدب له يشق زحمة الخلائق المشتبكة على مواطئ البهيمة
وإن شعوره ليدفعه دفعا إلى القيام بهذه المهمة الحبيبة إلى نفسه عسى أن يبقى على
ما فضل من بنى ضبة أهله الذين راحوا صرعى إلاقلة . .

غير أن الاشتباك أوشك أن يفسد عليه أمره ، فما يرى فرجة في الناس ينفذ
من خلاها إلى البعير ، ولو نفذ لما أمن أن تهبله طعنة يضع على ظبة سيفها أمله
كما يضع دمه . . . فاعل القعقاع رأى من حيرته حينذاك علائم علت ملاحه ،
فقال له ييسط رأيا يحقق أربه :

« يا بجير ابن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب

أم المؤمنين . . . »

فلحمت على الأثر عيناه الآن تدرك الحيلة مالا يدرك البأس

وصاح من مكانه بقومه الضبيين حماة البعير :

« يال ضبة . . . يا عمر بن دلجة ! »

فإذا صوت ابن عمه يأتيه :

« ما تريد يا بجير . . . »

« ادع بى إليك . . »

فدعا به . حتى إذا بلغ مقربة منهم قال يستأمن :

« أنا آمن حتى أرجع ؟ . . »

« نعم . . . »

فما رنت بسمعه الكلمة حتى وثب وثبة شيطان جعلته من الدابة عند قوائعها .
وقبل أن ينتبه أحد إلى مايروم ، كان سيفه قد انسل ، ثم هوى فاجتث ساقها
وأهوى بها تهدر من ألمها على الأديم .

حدث هذا ولما يطرف لحظ ، ولما ينقشع عن الجو صدى لفظة الأمان التى
ألقاها ابن عمه إليه . ووجم الناس فقد أذهلتهم المفاجأة ، ولكنها وجهه مباركة ،
شملت حركة الحماة أن يماودوا القتال . . . لقد ذهب العلم فهاض أمر الكتيبة ،
تحطم الصنم الذى قدموا له كل هذه الضحايا والقرايين . . .

وهتف على فى ذات اللحظة التى سقط فيها البعير :

« أيها الناس ، إنكم آمنون . . . »

فارتدوا إلى وعيهم حيارى ، ولكنهم منعوا الحياة . . . انطوت الآن محنة
الحرب ، وبقيت محنة السلام . . .

بعد المعركة

هدأ النقع وهدمت النار . الجمره التي تأورت فشبت جميعاً عادت سيرتها الأولى
سوداء باردة ، قد غلفها رماد الهزيمة ورماد الانتصار . . . وفاءت النفوس بعض
فيها إلى الطمأنينة . والقلوب التي تملكها من قبل سورة الوغى حتى التمسست أمنها
في المنايا ، غلبها الآن على مبتغائها الحياة فوجدت أمنها في السلام . . .

وكانت كلمة الأمان قرب السيوف المسنونة . ما إن دوت حروفها في أرجاء
الميدان حتى أسلم القتال علمه ، فترجل الفارس ، ووقف الراجل ، ورقدت فورة
الحماس في ظلال السكينة ، ثم ألقوا جميعاً زمامهم إلى وجهه مذهلة ، لا يعرفون
أيان تفضى بهم إلى مصيرهم الخفي المجهول . . .

ولكنه كان مصيراً لا يغشى الظلام دربه ، بل سطعت في مسراه بارقات الرجاء .
إن قلوبهم لخبرتهم بخير وإن امتلأت إلى حوافيها بمرارة الهزيمة ، فذلك عهدهم
بأبي طالب وما يعرفونه من خلقه الرفيع . إنه الخصم الشديد العنيف حين
البأس ولكنه المترفق الشريف حين القدرة إذا ما ضاقت عن عفو غيره من
العالمين جعبة الغفران . وما كانوا في استمساكهم بالرجاء واهمين ، ولا أخطأوا
تصور سماحته ، فها هو مناديه يحجوب الصفوف رافعاً صوته على ملأ من الناس :
« . . . ألا لا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر : ومن
ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . . . »

فأعجب بالنصر كيف غير النفوس الظامئة إلى دمائه ودماء ناصريه أخرى
تراحمت على ابتغاء رضوانه . . . ولكنهم الناس دائماً في كل أرض وحين ،
بطانة الغالب وخصم المغلوب ، والويل منهم لمن توطأت له المزالق . فإنك لتشهد
ولما ينقشع عثير المعركة ، جموعاً من أجناد البصرة أتوه صاغرين ، أحنت هامهم
الطاعة ، يبسطون باليعة الأكف بعد بسطها بالسيف . . . بل قد كان منهم
فوج سارعوا إلى استرضائه والقتال مرفوعة بنوده ، بل لعلمهم زمراً إذ ذاك وأفواج ،

كتلك الطائفة من الأزد التي راحت تبث في طريقه الخوف ، فلما طعنتها المنايا
صارعت تلوذ بالولاء له ... هتف أحدها حينذاك يهيجها وقد أخذته حمية الصراع :
« كروا .. كروا .. »

فاتبعوه ، ينزلون على عدوهم نزول الصواعق . فلو لا أن لقيتهم من أصحاب
على فئة تمرست بالشدائد . لقصفوها . ولكنهم قابلوا أطراداً رواسخ ليست تميد ،
يقودها حيالهم محمد بن علي فيزلزل في قلوبهم ثقتهم كما زلزل تحتهم الأرض .
عندئذ صاح من بينهم من كان يؤثر الحياة :
« يا معشر الأزد .. فروا .. »

فما أغنى عنهم الفر بعد الكر ، ولا جنبهم المصارع . إنا آت بهم الضربات
القاصمة التي اعتورتهم إلى اللياذ بالمعصم الأوحى الذي يرد عنهم العوائل ، فإذا
بهم يصرخون ضارعين :

« نحن على دين علي بن أبي طالب .. »

وكذلك آب مثل أوبتهم ، غب الموقعة ، سواد جند البهجة ، وفاءوا يبتغون
رضوان الغالب . وإنهم ليزدحمون على التحير إلى عسكر الإمام وإلقاء السلاح
ازدحاما أشاع فيهم جلبة دونها جلبة العركة المحتدمة ، فحب البقاء عادهم ثانية . ثم
استبقوا يريدون الإدلاء بالبيعة إلى الرجل الذي حاربوه أشهراً بالسيف والفضيعة ،
إلى قلة منهم تفرقت في مشارف البصرة تصمم بالفرار . . .

ولم يكن على ليأبه إذ ذاك بالأكف المدودة . ثمة ما هو أولى الآن باهتمامه
وأحرى بأن يلقي باله إليه قبل غيره من الأمور . ثمة عسكر والهودج وساكنه
أم المؤمنين ، لأن أغضى عنها جميعها حتى حين فقد يعنى حدث يخلط عليه العواقب .
إنه لا يأمن أن تهتل بضمة من العوغاء في جنوده فرصة الاضطراب السائد فتتال
السيدة بشر يعيذها منه ، فما زالت النفوس في أغلبها تحيى بالرجبة في النار منها
إذ هي عند أعوانه أصل الكرب وناخلة الحرب . . . وهو أيضاً لا يأمن أن تفتن
بضعة كبيرة من جند البصرة بتلك البهيمة الضلة ، كمثل الأزد التي قدستها ، لو
خلى بينها وبين الحياة ولو خفقة نفس أو تردد زفير ، فما زالت في أولكم نفوس

ضعيفة ، تغلبها سذاجتها كما تغلبها جهالتها على تلويث عقيدة الفطرة التي لا تستجيب
لزخارف الأباطيل . . . لذلك ما كادت الموقعة تؤذنه بالنهاية بعد عقر الجمال ، حتى
دعا على إليه محمد بن أبي بكر ، فوجهه إلى عائشة وهو يقول له :

« انظر هل وصل إليها شيء . . . »

والحق به عمار بن ياسر ، فانطلقا سويا صوب الهودج فاحتملاه بعيداً
وصاحبته فيه لم يصبها أذى ، بعد إذ قطعاً بطن البعير ، ثم انتظرا ما يأمر
به الإمام .

وكانت نجاة عائشة أول ما أفاء الهدوء على علي وأعاد إلى قلبه الطمأنينة .
فما يحمل بها قط ضغنا ، وإن نفسه لأصفي معدنا من أن تمتلج بها الأحقاد .
وألقي على الأثر قضاءه في الدابة المضللة ولها إذ ذاك هدير يصم الآذان ، أمر
بها أن تقتل ، ثم نحرق ، ثم يذرى رماد جثتها مع الريح فلا تبقى منها بقية تفتن
البله وضعاف الإيمان ، وحين فرغ أصحابه من الجمل ، وغدا تراباً يذروه الهواء ، قال :
« لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ! »

ثم تلا وعينه تفتقل من جند البصرة إلى ذرات الرماح المتطاير في الجو
فوق الرموس :

« . . . وانظر إلى الهلك الذي ظلت عليه عاكفا ، لنحرقه ثم لنسفه
في اليم نسفا . . . »

وكان المساء قد أخذ يضرب خبائه على الجموع ، ظافرههم ومخذولهم ، وقد
جرت في هوائه قرة الشتاء — ولكن علياً لم يلد بأوار البلدة التي مدت إليه
أكفها بالترحيب . آثر أن يظل حيث هو بساحة الموقعة حتى يفرغ من الأسرى
والسلاح والغنائم ، وحتى يفرغ الناس من دفن موتاهم واستنقاذ جرحاهم . وقد
ظن بعض صحبه أنه لن يدع من عدوه أحداً حياً بعد أن أظفروه بهم الله فجاء
إليه من قال :

« بأمر المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى . . . »

فأبى وأجاب :

« لا أقتل أسيراً من أهل القبلة إذا رجع ونزع . . . »

وجىء إليه على الأثر بموسى بن طلحة والناس يتسارون بينهم : « هذا أول قتيل » . . . فما حسبوا قط أن يلين ابن زعيم المناهضين إمرة الإمام وإن وقع عنقه تحت شفرة السيف . ولكن الفتى أقبل فبايع ولقى من على رفقاً أسكن بقلبه الطمأنينة . . .

ومع ذلك فلم يقتل الإمام امرأً من أخصامه أتت به إليه ذاته ، يستوى عنده من تاب وبايع ومن علم ألا خير من ورائه وإن أبدى طاعة هي في حقيقتها بنت القهر ثم أخفى خصومة ناعقة كإخفاء الثاب اللامع سم الثعبان ! . بل هو اتسعت رحمة عفوهِ لأعنى خصومه عليه عداً وضغينة . وسرى من آيات رفقهِ وحسنه جلائل رائعة في القريب .

وقضى وقته من بعد بعيان الواقعة ، يتفقد فيها أمور جنده وأسراه ، ويعنى بجرحاهم وجرحاه . . . وهو لا ينفى في كل لحظة تسنح له عن كبج غلواء أعوانه ، وما استجاش بقلوبهم على أعدائهم من زهو النصر . كان يروض وسعه كراهمهم لأولئك الخصوم لعلها تعود ثانية إخاء ومودة ، فخر شعبه الآن في الألفة ، ولا غناء في رأيه لأحد من الفريقين عن تصفية النفس من أدران الحقد وشوائب الحزازة . . .

إنه ليضرب المثل لهم بلغة يتحدث بها فعلة قبل قوله . فما مر بقتيل من عدوه إلا ذكره بخير أو بكاه فأبكي حوله الناس . ولا صادفته جثة منهم تبين صاحبها إلا نشر من فضائل خصمه الصريح صفحة مطوية . . . توقف هنيهة عند أشلاء كعب بن سور فترحم عليه ثم قال لمن حضره من رجاله :

« . . زعم أنه لم يخرج إلينا إلا السفهاء ، وهذا الخبر قد ترون . . . »

ولما شهد جثة محمد بن طلحة بان الأسى على محياه ، وقال وهو يرد دمة تغاليه :

« رحمك الله يا محمد ، لقد كنت في العبادة مجتهداً ، قواماً آثاء الليل ، صواماً

في الحدود . . . » .

ثم التفت إلى أصحابه وقال وعينه لم ترتفع عن الصريح :

« هذا رحل قتله برأيه . »

وكذلك ظل يرثى قتلاهم ، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته القصير . بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء . وأمر بقبر كبير أن يحفر ليحتوى الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدي والأقدام
وحين مر في البصرة بتلك الحربة التي شهدت آخر لحظات طلحة بن عبيد الله على أديم الحياة ، ذكر من مشاهد الصداقة القديمة والصديق القديم ما أعادته الجثة الطريحة إلى ذاكرته ، فإذا عينه تبتدر ، وإذا دمه يلتصع تحت ظلمة الليل . . . ووقف برهة خاشعا ، قد ختم حزنه على شفثيه بالسكون وإن تحدث بقلبه أساء في خفق دائب متذائب .

وقال بعد قليل ينفس عن بعض ما يعاينه :

« أعزر على أبا محمد أن أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي . . . أبعد جهادك في الله ، ودفعك عن رسول الله ؟ . . أما والله لقد كنت أكره أن تكون قریش قتلى تحت بطون الكواكب . . . »
وملكته العبرة حتى لم يسمع سوى صوت أنفاسه ، لولا أن هتك امرؤ عليه هداة الحزن يقول :

« يا أمير المؤمنين ، أشهد لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بي : « من أنت » ؟ . . فقلت : « من أصحاب أمير المؤمنين » . . فقال لي : « امدد يدك لأبائع لأمر المؤمنين » فمددت إليه يدي فبايعني لك . . . »
فرفع على رأسه في هدوء كأنما قد انجباب عنه إذ ذاك وقر ثقيل ، ثم قال :
« أبا الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتي في عنقه . . »

ثم مضى طريقه وإن قلبه من صفائه ليرجو المغفرة للعدو قبل الصديق . وإنه ليرد طرفه الذي غشاه الدمع عن جثث القتلى المتناثرة في جنبات الميدان ، ثم يهمس في ابتهاج وعينه على السماء :

« إني لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة . . »

٢

كان محقاً إذا خشى أن تنوش عائشة سفاهة السفهاء، فماله على النفوس المغلولة سلطان، ولا تستطيع عينه أن تكون رقيقاً على هذه الألوف المحتشدة من جنده الذين تغريهم نشوة النصر، فتدفعهم إلى ركوب المحذور.

ولقد صدق إذ ذاك حدسه ووقع بعض المكروه وإن لم يتسع الوقت لتكرار وقوعه، ولكنه على أى حال صورة كانت حقيقة بالتكرار إذ ذاك، لها دلالة واضحة على ما علق ببعض النفوس من زراية بعائشة، والتهاون بقدرها الجدير بالسمو عن الزراية والامتهان فقد أقبل غب الموقعة أعين بن ضبيعة المجاشعي فمد عينه تفتحم الهودج حتى اطلع على ما فيه فروعت السيدة جرأته البغوضة، وصاحت به مستنكرة :

« إليك لعنك الله ! .. »

فضحك اللئيم باستهانة وقل وهو يهز كتفيه :

« والله ما أرى إلا حميراً ! »

وتركها تستنزل عليه أقسى الدعاء ..

جنبها على هذه المشاهد المرذولة التي تضيف على قلبها بعد ذلة الهزيمة مرارة الهوان، فأمر أخاها أن يضرب عليها قبضة بعيدة عن مهاوى الأشلاء وشماتة المظفرين . وكان القتي وابن ياسر قد استنقذاها من بين القتلى واحتملا هودجها فوضعا حريزا في خباء بعيد، فلما خفت حولهم حركة الجنود أقبل فمد يده من خلل الستر معلنة عنه .

حينذاك أجفلت مروعة، وهتفت به .

« من أنت ، ويلك ! »

فلم يزد محمد على أن قال :

« أبغض أهلك إليك ! »

فعرفته في التو :

« ابن الحثمية ... »

« نعم . أخوك البر »

« عقوق ! . »

ولوت وجهها عنه مغضبة .

على أن نفسه السيالة عليها بالرقعة ، المليئة بالعطف والرثاء ، لم تطاوعه أن يلقاها بعثل غلظتها التي أثارته في قلبها مرارة الخذلان ، فقال لها في ترفق :

« يا أخية . . هل أصابك شر ؟ »

فسايرت غضبها إلى مداه :

« ما أنت من ذاك . . »

« فمن إذن الضلال ؟ »

« بل الهداة ! . . »

وساد الصمت بينهما لحظة غالب فيها كلاهما خفق قلبه ، فلما أن خلفتها سورتها ، وآبت نفسها إلى عواطف الأخوة التي جهد غضبها أن يكتمها عنه ، ارتدت كرة أخرى أنثى ضعيفة ، تنازعها عواطف الحنان والتراحم ، فهمست له في صوت جاش بفرحتها أن شهادته أمامها يزدخر فيه ماء الحياة :

« بأبي أنت وأمي ! . . الحمد لله الذي عافاك . . . »

ونسيت في هذه اللحظة ما كان بينها وبينه من خلاف . نسيت الغضب والحرب والحزازة ، وأقبلت عليه تملأ ناظريها بمنظره . .

ووسعهما من بعد الحديث بفنوته ، وبما تشعب منه من عتاب وملام . أما هو فقد كفاه نصره الإمعان في إثارة المواجهد بنفسها المغلوبة ، وأما هي فقد جهدت طاقتها لتتأى بالكلام عن مغامر الألم التي ينكأها بقلبها الخوض في محنة اليوم الناشئة عن أخطاء أمسها القريب ، حتى لقد ودت بعمرها لو لم يثر فيها الققي الشجن حين قال :

« ... أما سمعت رسول الله يقول : على مع الحق والحق مع على ؟ ... »

بل قد علمت إن لم تكن سمعت لولا أن للزمن سطوة وللنفس كبوة . ولو قد خلى الآن بينها وبين عمرها فلعلمها ترتد به إلى الوراء أعواما حمة ثم تغير من فعلها ما يجنبها اليوم مرارة الندم ووخزة الضمير . . .

إن المرء لا يكون خالصاً لعاطفة بعينها تسيطر عليه ، وتوجه خطوه في كل طريق ، بل هو دائماً نهب لقدر من العواطف ، فيها توافق وفيها تباين ، لا تنى تتجاذب نفسه وتلعب بخطاه . وما على غير هذا النحو كانت عائشة عندما عادت الإمام ، فهي صورة من النفس البشرية في ميولها وفي استجاباتها للنزعات . طالمتنا بحقدتها على علي حقدآ ألب عليه البنود والجنود ، ثم كشف لنا عن قلب جرى الندم في عروقه جرى الدم ... ولم يكن تدمها إذ ذاك مستحدثاً أبدعته الهزيمة ، إنما استشعرته ولما يبدأ بينها وبين خصمها الصراع ... أأست تراها عند بدء الوقعة تصيح وقد سمعت من جيشها اللجب ضجة وضوضاء :

« المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل ... وما برأي خرجت مع هؤلاء ... »

فلعل إذن نزعها حاجتها وأخرى ردتها ... كبقية الأنفس البشرية لا يسيطر عليها ميل فرد ، بل تكون دائماً نهباً تتقاسمه شتى الميول والنزعات .

وكذلك — فيما نحسب — بقيت السيدة حيرى ، لا تعرف على أى شاطئ ترسو سفينتها المضطربة بين نوء المشاعر . فلما أتها الهزيمة بالاستقرار ، وفاء قلبها فيثا فلا تهزه الحمية ولا يفسده الحماس للصراع ، وجدت نفسها التائهة بين اصطخاب العواطف المختلفة التي كانت تتجاذبها فتضلها عن الصواب ...

نعم ذاقتم الندم الآن حق ذوقه وطعمت صايه . وهل أبعث له من قدرها للهيض هذه الساعة في أعين الناس وكانوا قبلها لا يكاد أحدهم يتناول اسمها على لسانه لفرط شعورهم نحوها بما يفوق الإكبار ويوشك أن يبلغ مرتبة التقديس ... الآن غدت ملهاة الألسن العيابة وأضحى شأنها محاض زراية الخثالة وعرض الجمهور . ولقد هز هذا من اعتدادها حتى أوشتكت نفسها أن تنهار إلا بقية من الندم أورثتها إياها المحنة ... زارها ، بعيد انتشارها وهودجها من بين القتلى بعد نهاية المعركة ، القعقاع بن عمرو مسلماً فقالت له :

« إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا ، فهل تعرف كوفيك

منهما ؟ ... »

فأغضى الرجل يخفى تأثره ، وقال فى خفوت :

« نعم ، ذاك الذى قال : أعق أم نعلم . . »

ثم أردف يهون عليها الأمر :

. . كذب والله . إنك لأبر أم نعلم ، ولكن . . لم تطاعى .

ولكن تهوينه ومواساته لم يردا عن نفسها شعورها بالألم ولا وخزة الندم ،

فقالت وهى تعالج دمعها أن يفيض :

« والله . لو ددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

ثم راحت تتخيل من كرامة الموت ما كان أولى بأن يكفها الآن ذلة الحياة ..

. ولم يطل بها المقام بالقبة المضروبة لها على أرض الساحة . رأى الإمام أن

ينزلها منزلاً أكرم وأسهل ، فأمر بها أن تؤخذ إلى البصرة قبل أن يوغل المساء .

وغشى وجوه الناس تلك الليلة فسطاط عائشة ، مسلمين أو شامتين . وكان

ابن ياسر ممن سموا إليها ، مع الأشتر والنخعى ، فلما وقفوا ببابها قال عمار :

« كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه ؟ » .

فهاجها حديثه الذى قطرت منه سحريته ، وقالت له :

« من أنت ؟ . . »

« أنا ابنك البار عمار »

« لست لك بأم »

« بلى وإن كرهت ا » .

فصاحت به فى غضب مهتاج :

« غفرتم أن ظفرتم وأنتيم مثل ما نقيم . . هيات والله ! . لن يظفر من

كان هذا دأبه . . »

وسكنت ملياً تذود عن نفسها الخنق الذى تملكها . وسكت أيضاً عمار

ولكنها استشعرت حركة بياض الحياء آذنتها بأمرىء غيره هناك معه ، فقالت

تسأله بعد قليل :

« يا عمار ، من معك ؟ . . »

« الأشر » .

فقلت وهي تعني النخعي بالحديث :

« يا مالك ، أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت ؟ »

فأجاب :

« نعم . ولولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر ! »

عندئذ لعقت الجرح الذي أصابها من كلامه الصريح المرير ، وهتفت به تؤنبه :

« يا مالك ، أما علمت أن رسول الله قال : لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث :

كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق ؟ »

فلم تلجمه حجتها ، بل أجابها على الفور :

« على بعض هذه الثلاث قاتلناه يا أم المؤمنين ! »

ما كان أكرم الصمت لها ولهذين الزاريين لو استطاعته وحملتهما عليه !

أما وقد عيراها فقد غلباها . إنها تشعر أن الوهدة التي انزاحت قدمها فيها كانت

بتدبيرها هي ، ولو كانت أصغت من البدء لأم سدة ، ولقولة الحق في منطقها

حينما نصحتها أن تنأى عن الخروج وتقر في بيتها مكنونة ، إذن لكفت نفسها

الشماتة وكفتها التعبير .

وسمعت من خارج الحباء صوتا يقول :

« يا أم المؤمنين . » :

فأصغت إليه . نعمة في نبراته شيء غير مرارة الشماتة ، هو أدنى إلى العتاب الرقيق :

« يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك . . »

حقاً ما أبعد مما كان أجمل بها وأجدر . . الآن تبلغ لبصيرتها الحق الذي

غم عليها من قبل . .

وقالت بصوت خفيض :

« أبو اليقظان ؟ »

« نعم » .

« والله إنك ما علمت قوال بالحق . . »

فنزلت الراحة على قلب عمار أن فاءت السيدة الطاهرة إلى الصواب وقال :
« الحمد لله الذى قضى لى على لسانك . . . »

وكانت الظلمة إذ ذاك قد شملت جنبات المكن ، والهدوء قر فى أنفائه فإذا
الإمام يلم بموضع القبة عندما فرغ من بعض شواغله الجملة ، ويقف بالمضرب يستأذن
ما كنته . . .

ولم يزد حين لقيها على أن قال :

« كيف أنت يا أمه ؟ . . . »

فاختلجت لنبرة صوته الهادئة ، القى لم يبطئها شىء من صاب الغضب ولا زهو
الانتصار ، وقالت تجيب :

« بخير . . »

« يغفر الله لك . . . »

« ولك . . . »

٣

الآن قرت البصرة . وجد الأمن فى قلوبها مساكنه ، فأغلقت دورها على
سلام . وآب الناس فيها إلى نفوسهم بعد طول اضطراب . ثم مسحوا أدمع المأسى
القى أراقها القتال .

فى مشارفها رقد لهم أحياء ، تحت أعين النجوم الساهرة ، قد سببهم المنايا
النوازل ولم تخلف من حياتهم إلا أسطورة . وفى دروبها سارت جموع أحيائهم
على أسى عميق كأودية ، شقه الحزن ومهدته الفجيعة . ولكن صرعاهم أحتوتهم
المثاوى فسكوا لهدأة غامرة ، الهدوء السابغ حياها ضوضاء وضجيج . فلموت
بيان بلا لسان تحت أطباق التربة ، وللصمت الحى السنة حمة تحت القبة . ليس
للألم هواتف بأحناء القلوب الحزينة تملأ على أصحابها الدنيا نواحا وإن يتردد
فى جنباتها صدهاء ؟ . . .

ولكنه حزن أورث الراحة وقرت به أنفاس قطان البلدة بعد طول قلق
وحيرة . الآن بانث لهم طرائق الحياة مبسطة ، لا يعوق راكبها خوف طالما سد

سبيله في الليالي السوالف ، مضى الغابر بما كان يبتث فيه من خشية الترقب ورهبة انتظار الغد المجهول ، وامتد أمامهم حاضرهم صافياً شفافاً يرون من خلاله مستقبلاً لا تحفه المخاوف . إنهم في أبهى أحلامهم لم تطف بهم قط رؤيا أطلعهم على مصيرهم رخياً بعد الهزيمة كما أطلعهم عليه حقائق الحاضر . هم اليوم المغلوب فحسب على سلاحه ، ولكن حياتهم وحياة الغالب تسير معاً في نفس المجرى لنفس المصير . الأخوة عادت ثانية تربط بين الفريقين ، وترتق مامزقته المعارك . وما من رجل ضمته البصرة أصبح آسياً على هزيئته أو أحس لها في فؤاده حرارة

فنعن ما أولاهم الإمام إن أحدهم لم يحسب مطلقاً أن غريمهم يمثل هذه السماحة . خلال الأيام الطويلة التي سبقت الواقعة ، كان طالما يثيبهم على لجاجهم أناته ويعدهم حسنى ، ظنوها من بوارق الوعود ، حقيقة أن تتقلب علمهم نعمة مستطيرة إذا سالوه أو أظفروه الله . . . أما الآن فقد كشفت لهم الحنة التي أصابتهم صديقاً رفيقاً ، سرعان ما نسي إساءتهم واتسع لمردهم عفوه وغفرانه

الناس لا تكف ألسنتهم تتحدث عن صروب رفيقه بهم ودفعه عنهم . إنه ليغالب من أجلهم جنده الذين كتبوا له النصر سطوراً من الدماء وأقاموا له صرحاً باذخاً على أشلاء الألوف من الضحايا والشهداء . فلقد أطمع الفوز الجند حتى غدوا يرون العدو سلعة حق أن تكون في الغانم ، وحدثوا إمامهم أن يبيعهم رقابهم وأموالهم وذرايرهم وكل ما لهم من متاع

قالوا له :

« اقسم بيننا أهل البصرة نتخذهم رقيقاً ! »

فمجب للجشع كيف ينسبهم وفق الإسلام . لو لم يبين لهم قبل الواقعة سيرته في العدو ، في كلا النصر والهزيمة ، لكان لهم بعض العذر . ولكنه كان أوضح لهم ناموسه ولما يشتبك منان ، ولما يلتحم صف من رجاله بصف من أعوان عائشة الذين تجيشوا لحربه

قال لهم حينذاك ، وهو بعد على حدود البصرة ، في خطاب له طويل :

« . . . وإذا هزمتهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمشوا

بقتيل . وإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا أستره ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف العقول والأنفس ، واقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لشركات . . . »

بهذا الدستور القويم طالع رجاله والمركة لم تزل غيباً في الغيب . وإنه لقضاء الدين ، وشرعة الفروسية ، وسنة مكارم الأخلاق . ومع ذلك فإنهم الآن أغضوا عن بيانه عين الأذهان . . . فما يبدو قد أبطروهم النصر ، أو بهظهم ثمنه فقالوا اليوم في تقويته وشمينه أيما مغالة حتى لا يرضون دون امتلاك عدوهم المغلوب امتلاك السلعة أو رقاب الإمام والعبيد . . .

وأبى عليهم الإمام ما أرادوه :

« لا . فالقوم أمثالكم ! »

فأنكروا منه رأيه وصاحوا به :

« فكيف تحمل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ . . . »

« كيف تحمل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام ؟ . . . »

ثم راح ثانية يبصرهم ، ويرسم لهم الحدود والمحارم :

« أما ما أوجب به القوم عليكم في معسكرهم فهو لكم مغنم . وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله . . . وما كان لهم من مال في أهلهم فهو ميراث على فرائض الله ، لا يصيب لكم في شيء منه . . . »

عندئذ أغضب حكمة طائفة من الغلاة غدوا من أبعد نواة الخوارج الذين تربصوا له الدوائر بالسيف واللسان . ومضوا يهيجون من امتثل ويكثرون عليه باللجاج والعنت حتى ضاق بتفكيرهم وشتمتهم نفسه . فلما رأهم لا يردعهم شيء عن مجادلته ، أبدى الرضا لهم وهو يضر درساً سوف يردم عن جشعهم الفاحش البغيض . . .

قال لهم في هدوء :

« اقترعوا . . . هاتوا سهامكم . . . »

ففعّلوا فرحين وهم يحنون النفس بالغنم الجزيل . وإذا به يسألهم بغتة :
« فأياكم يأخذ أمه في سهمه ؟ . . أفرعوا على عائشة لأدفعها إلى من
تصديه القرعة ! . . »

فبهت القوم وصاح سوادهم يعلنون التوبة :

« نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! »

وقضى بهذه الحكمة التي ابتدعتها يديهته على الفتنة ، وإن كانت بقيت في
نفوس بعضهم بقية موجدة عليه سوف تظهرها الأيام بعد حين . . .
وكذلك أبقى على عدوه كرامتهم ، وضرب للناس أمثلة عن الخصومة الشريفة
التي تنزه عن الدنيا كيف تكون . وما كان قضاؤها إلا شرعة لآداب الحرب
وآداب النصر يجدر أن تحتذيها البشرية في كل آن وجيل .

وأقبلت عليه الوفود تترى مبايعة ، دفعت بهم البصرة إليه لم تنتظر دخوله ،
فقد سرى الحديث بهذه السباحة مع الهواء فاستشعر الناس لنبته راحة تفرمهم ،
إذ أمنهم — قبل أمنهم على المال والولد والرقاب — على كرامة الحياة . .

ثم دخل البلدة المغلوبة ، بعد مكثه بميدان الواقعة ثلاثة أيام فرغ فيها من
شواغله . . . الآن لا تستشعر البصرة نحوه شيئاً من ضغن ، فقد استعبد لها أن
جنب رقابها الاستعباد . . . إنما الحياة عنده إباء وكرامة ، ودلو رآها تسودان
أنفس الناس ، حفظ لعدوه حياتهم حرة ونفوسهم شماء كريمة . بل هو مد لهم في
مروءته ، يتقيأون من ظلالها ما لا يعده الولي الحليم . . . كانت حربهم إياه — في
اعتقاده — عن ضلالة ، الرقى أولى بكشفها عن قلوبهم الغاوية . كانت صفقة من
الجهالة سودتها أيديهم ، فإذا به يمزقها ، ويلقي بها في متاهة الغابر السحيق ليستقبل
بصفحه الكريم من سفر حياتهم أخرى يضاء . . .

بهذا جرت سيرته فيهم ، لم يعدل عنه لحظة من نهار . إنه العدل والعطف
وال مروءة ، بل غدت كلها وأمثالها من المكارم ظلاله . . . فمن عجب أن نرى
هذه الخلال الشريفة التي استأسرت خصومه ، تثير عليه غضب بعض أوليائه . فما
عدم حظه العاثر أن زوده بطائفة من أنصاره رانت على أبصارهم غشاوة التعصب حتى

أرتهم الضياء ظلمة كشيعة أخفت عنهم حقائق الأمور . أولئك بلغ من حبهم إياه وإخلاصهم له أن أبوا عليه الرفق بأبنا رجل كان قاتله أو خان عهده ، فقد كان أعداء الإمام في رأيهم أئمة كافرين لا يستأهلون رحمة أو يكون راحمهم قد خالف فيهم شريعة الله وحينما بدا للإمام أن يعفو ويرفق كان إذن يسمح بغفرة ليست من حقه لم يقره عليها أولئك الأنصار

هكذا غلت تلك الطائفة من شيعة وأخشت في الغلو حتى تنادت فيما بينها ذات يوم بكفر على إذ أباح أعداءه صفحه ونزل لهم عن بعض حقه عسى أن يعطفهم ويؤلف حوله كتلة الأمة الإسلامية ، مملومة الشمل وثيقة الجماعة . وعندما تنطلق مواكب الزمن موعلة هونا في درب المستقبل فإننا سنراهم حربا على الإمام أعق عليه من خصومه ، ينالون بأسيا فهم وألسنتهم من سلطانه ومن إيمانه . أما الآن فهم وليد تمخضت عنه اليوم خلاله الشريفة ، لن يلبث سوى قليل ثم يشب من الطوق ويصلب عوده

عاده أمسية دخوله البصرة ، موسى بن طلحة ، فاستبقاه برهة لديه يتحدث حديث الصديق ، وقد صفت نفسه من مواجدها ورق قلبه للفتى الزائر . فلما أن عرضت لها خلال الكلام سيرة طلحة بن عبيد الله ، قال الإمام ، وقد بان في وجهه الرثاء :

« يا ابن أخى إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :

« ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين : . . . »

فما كان أبلغه من عزاء ، وما كان أجملها من إشادة بسيرة الراحل الكريم . . . وفارقه الفتى المرزوء في أبيه وقد انعطف قلبه ، وخفف رققه السابغ شيئا من حزنه ومن فجيعته

على أن هذه السباحة كان لها صدى خبيث الدوى بنفس امرئ من غلاة أنصاره هو ابن الكواء الذي غدا فيما بعد رأس الخوارج . فلما إن دخل ، عقيب خروج موسى على الإمام وسمه يبهج بعطفه على زائره ، حتى سأله عنه .
قال على :

« كان عندى ابن أخى . . . »

« من هو ؟ .. »

« موسى بن طلحة . »

فصاح الرجل صيحة نكراء :

« شقيننا إن كان ابن أخيك ! . »

عندئذ عصف الغضب بالإمام أن رأى عوناً له قد نزع التزمت من قلبه عاطفة الرحمة حتى غدا كالصخر الصلد وran التمصب على بصيرته حتى خفى عنها الهدى . وهتف به يلوهم ويرد غلوه البغيض :

« ويحك ! . . . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . . »

نخزى ابن الكواء . ولكنه خزى ساعة ستتحرر نفسه منه فى القريب لتعود كرة أخرى أصلب عوداً فى العناد ، وأشد شكيمة فى المغالاة .

٤

أين الحفنة الغالية فى عدائه ، الحاملة أمسها العريب بالمجد ، السابحة — فى بحار من النكت — للصولجان ؟ .. أى أرض توطأت لهم مواطنى ، وأى منزل أثابهم مرقداً ناعماً وضجة رفيقة ؟ .. ومن ذا ترى فى الناس أمدهم بالسلام الذى منعوه أمتهم وأبدلوها به الدماء ؟

إنهم لضالون . بالأمس ضلوا نفوساً وقلوباً عن محبة الحق الواضح واليوم ضلوا جسوماً حيرى وعقولا فزعة . فما لهم الآن من مثابة الأمن وإن عرفوا الأمن قد مد على غيرهم رواقه . يكاد القلق أن يسوقهم للمصارع . هم من خشية الموت فى موت داهم ، ومن خوف الأسر فى أسر دائم ، خيقتهم خفيتهم الهلكة ثم جثمت على صدورهم تنازعهم الحياة ، وحجبهم عن الميول الهروب ولا طمأنينة ! .. وهل من فرار من الفرار ؟ ..

تستروا بالظلام . نسجوا من سواده ردنا تسربلوا بطيلسانه ... أصحاب الليل آمن وفى قتامة رهبة تهد القلوب ووحشة تزعزع الجنان ؟ كلما خفت النسمة

الندية تلفت جزعا بلفتة المستريب ، فهي تحمل إليه وقع أقدام طالبيه . أو كشف السكون حوله حسبه هداة متربص يتعين منه سائحة غرة . إنه الطريدة الحيرى ، والظلمة مسرب لكلا الفريسة والمطارد .. لا راحة له قط فى شعابه ، والصمت عليه ثقل ، والليل طويل طويل !

ود القرار لو صبروا ساعة بأرض الموقعة يعرفون بعدها مصيرهم إلى أى قرار: أعيش العبيد أم محات الأحرار ؟ . أم العفو يمسح عن جباههم غبرة الذلة كما يحقن عليهم دم الحياة ؟ . ولو كانوا قدروا عدوهم حق قدره إذن لأوه فياضاً قلبه بالرحمة على سربهم الخائف ، رحبا حله وغفرانه . فما حركوا شيئاً من نمسه حين قاتلوه حتى يحركوه الآن إذ هم فى أيدى القلاة أو حبسو جدران . وكفاهم هوانا عليه أن خشوا لقاءه . وصيفه مغمدا !

غير أن فيهم من عزت على الإمام عقباه . . ذلك الزبير . طراه حينه وهو بمنأى عن ساحة القتال فهلك هلكة هارب لاميتة محارب ، وكان المجلى بين الأبطال . فما للقدر تعقبه حتى أصماه ؟ . لتوشك المنايا أن تبدو كلفة به حتى تأثرته بعد نأيه عن الصراع ثم طعنته غيلة ، كأن قتله كان نذراً حق عليها وفاؤه . . . إن عليا ليأسى وقد جاءه نبأ الفاجعة التى ختمت أجل الرجل وطوت سجل حياته الحافلة من بعد نشور ، أبعد ما كان من رجوعه للصواب . . وركوبه إلى الهداية ؟ . . وتوبته الخالصة لله ؟ .

ود على لو أبقى الزمن فى عمر غريعه النادم بقية ينعم فيها براحة التوبة . ولو استدبر الآن من أيامه القلائل مافات فلعله كان احتجز الزبير عن مصيره . ولكنها أمانى ، تخفف عنه هوناً وطأة الفجيعة ، وفيها ملاذ لنفسه الحزينة المرزوءة ، وإنه يستجلب جهده الصبر بالتصبر . فعسى التأسى أن يمسح أساءه ، والزمن أن يعفو الشجن ، وقد رد صاحبه وديعة إلى الله

ونقض الإمام عنه بعض دمه . من عجب أن نحسب طائفة دم الزبير قربى إلى على تدنيهم منه وتنفى عليهم رضوانه . وها هو ذا الأحنف بن قيس قد دخل عليه يخبره الخبر ، وجاء معه فى ركابه ابن جرموز ، الرجل الذى تلطخت

بدم الضحية البريئة كفاه ... فلو علم الأحنف أى حزن سوف تشيره الفاجعة فى قلب على ، وأى غضب عليه وإنكار لكان جنب نفسه اللقاء .

ورأى الزبية فى عيني الإمام ، وسمع صوته بطنته المرارة وهو يهتف به فى هدوء رهيب :

« تربصت يا ابن قيس ... »

فأجفل . قد كان حقاً ذا يد فى الخاتمة الأليمة التى انتهت بها حياة القليل . لعله وحده هو الذى رسم خطوطها دون غيره من الناس وإن لم تعلق بكفه قطرة دم . فليته ظل قابلاً بواذى السباع فى معتزله لم يشترك فى هذه الخاتمة بشئ كما لم يشترك قبلها فى القتال ، ولكنها كانت محنة سارعت إليها نفسه وهو يحسبها منه يسديها إلى الإمام فتقربه منه ، وترفع درجة مكانته التى هبط بها الاعتزال . ظن فى البدء أنه حقيق برضوان على إذا كفاه عدوه الزير ، فلما أتبع ظنه المؤامرات التى قضت على حياة الغريم ، غداً نهياً للعيرة ، لا يدرك أهو أحسن أم أساء حتى إذا وقف الساعة بين يدي الإمام تبددت عنه حيرته وهو يرى لمح الغضب يكاد أن يلسعه بشواظ من نار ..

وأغضى ملياً . ما لكلامه بعصيه ؟ .. شفيعة الآن نية رامت الخير فضلت عنه ...

ثم ألهم الجواب من بعد ، حديثاً رقيقاً فيه وعد وابتهاال ومعدرة :

« ما أراى إلا قد أحسنت ، فارقى يا أمير المؤمنين .. إن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلى غداً أحوج منك أمس . فاعرف إحسانى ، واستصف مودتى ... ولا تقوان مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحاً . »

وتلبث ليسمع كلمة ترد قلبه . ولكن الإمام أثر الصمت ، وأشاح عنه . ماجدوى لومه الآن بعد نزول القضاء . وهل من سبيل إلى إجازة اعتذاره بنية مكنونة فى طى ضميره ؟ .. إنما أمر هذا المرض وأمر الضحية كليهما إلى الله هو أعلم بما تكنه السرائر ...

ثم دعا إليه بالقاتل المخاتل ، فإذا ابن جرموز أقبل وهو يمشى على شفر ،
الرجاء يملأ قلبه ، والأمانى تحرك خطواته . . أم لا وطمع نفسه ماونى يحدثه
طوال الطريق بجزالة الثوبة المأمولة جزاء وفاقا بما قدمت يداه . . ؟

وسأله الإمام بصوت خافض عميق :

« أنت قتلته ؟ . . »

فأجاب بخيلاء :

« نعم يا أمير المؤمنين . »

غير أنها رنة للمباهاة لم تلبث سوى قليل . بددها على الأثر أن سمع عليها يقول

في مرارة وحزن :

« والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لثماً ولكن الحين ومصارع السوء . . »

وحلقت غيمة من الصمت كثيفة في جو المكان ، سترت الحاضر هنيئة عن
على ، وأرسلت بخياله بعيداً يرود وادى الذكريات . . هذه ملاعب الصبوة
ومراتع الشباب جمعتهم وغريعه أخوين على صفاء ، قد فرغ قلبهاها إلا من حب
وسلام . . من بطحاء مكة ومشارف بيتها العتيق إلى حدائق المدينة وبساتينها
النضيرة وثقت بينهما دعوة السماء وألفتهم جنديين في كتائب الله ، يدفعان عن
رسوله ، كتفا لكتف ، بخفق القلب ، ومنطق الشفة ، وبطش الكف . وبين
ماء بدر وسفح أحد ووادي تهامة سارا معاً يخضدان عومج الضلالة ، ويغرسان
في الأرض الطيبة زهر الهداية . كلما ركز المضلون في سبيل الدعوة فنا ورماحا
تثير الحرب وتشعل نيرانها مسعرة عصفت بها الكتائب الهادية نجبا الضرام
وانتشر الإسلام ، حتى رفرفت بنوده على العالمين خفاقة .

ذاك أمسه البعيد ، فليت الزمن لم يطلع بأمس القريب الذي شاب الحب
وفرق القلب من القلب ، ولكنها مشيئة سبقت في الغيب ، وسنن جرت عليه
المقادير ، ولا دافع اليوم لواقع ، ولا راد لحاضر . . .

وآب موكب الذكريات بالخيال السارى فآن لعيمة الصمت أن تنقشع وحنان
أن ينثلم بناؤه الركين عندما هتف الإمام بابن جرموز .

« ناولنى سيفه . . . »

ف فعل الرجل ، ومد إليه يده المغتالة . . .

وهز على السلاح فى كفه ثم قال فى نبرة آسية :

« سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله »

ترى أن خاطر راود الآن ذهن القاتل الأثيم حتى عدا به بعيداً عما يجيزه له المقام ؟ . . . أى خطل ركبه الرجل الطامع فى المثوبة على إثم ، النهم إلى إحسان على مضلة ووزر ؟ . . . ابن جرموز أركبه جشعه مركباً ليس يحمدّه ، لئنه لم يركبه ولم تود به سقطه من لسانه . فقد اجتراً فى هذه الآونة أخبث جرأة وأسوأها وقال للإمام :

« الجائزة يا أمير المؤمنين . . . »

فاخترمته نظرة قاسية على الأثر ، أخف من وقعها ضربة رمح تفوس فى قواده وسمع بعدها جواب على . رهيباً كأنه كلمة القدر الداهم والقضاء القاصم :

« النار . . . ورحم الله أبا عبد الله . . . »

ثم سرح باله هنيهة إلى بعيد ، وراء الأعوام السواف ، وعاد يهمس محدثاً نفسه :

« أما إني سمعت رسول الله يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . . . »

٥

أورد العدر صاحبه الهلكة . . .

وإنها هلاك الروح لا هلاك الجسد . . . اللعنة التى تتبع المرء وهو مزيج من اللحم والعظم والدم على ظهر دنياه ثم لا يستطيع الفكك ، وإن غدا ذكرى تميش فى الخواطر فى حياته الآخرة تتعقبه تعقب الظل ، وتظل تنهش بقاياها نهش السباع فريستها الدسمة . . .

فلعله كان قد غاب عن وعى ابن جرموز حين باغت الزبير ثم أرداه أن اللعنة ستكون له كفاء غدره . ولكنه كان أمراً مسطوراً وقديراً عليه مقدوراً ، همس

به الوحي ذات يوم في صدر رسول الله . ولم يكن هذا الجزاء سرّاً خافياً تمام الحفاء ، فقد تحدث به بضعة ، وروته طائفة ، وبشر به على القاتل فلم يعد ببشراه ما نطق به محمد منذ أعوام ! . . .

وكان المصرع قصة الجشم والغدر والخديعة . . .

وهل من مناقص أسفل دركا من كل أولئك وأحرى منها باصطلاء الجحيم ؟ . . .

من اللحظة الأولى التي شهد ابن جرموز خلالها فريسته ، لعبت بنفسه الأثيمة أوزارها ودفعته دفعا إلى الكيد للهارب الثائب ، عسى أن يتحين منه سانحة تمكن له من حياته ، وتفيء عليه سلبه ، ثم تجعل الزبير في نهاية الأمر سلعة يساوم عليها ويبيعها بغنم من عروض الحياة . .

جاش ذلك بذهنه ساعة أن شهده ، وقد ترك الموقعة ، وهام بجتاز وادي السباع . . .

كان الزبير قد رأى الفء للمدينة ، لعل عودة إلى حاضرة على تؤذن الناس فيها بندمه على ما سلف منه في حق الإمام . أو عساه آثر المكث في جوار قبر الرسول ، يقضى بالبقعة الطاهرة ما بقي من حياته في هدوء ودعة ، بعيدا عن الأحداث التي أخذت تعصف بأرض الإسلام . .

وشهد الناس ذلك اليوم فارسا يتستر جهدا ، ومطيته تحب به ، وخادم له يتبعه ، وقد شق سبيله من البصرة وراح بجتاز وادي السباع . ومرت القافلة الصغيرة في سيرها بمضارب الأحنف بن قيس ، وهو منحاز إذ ذاك بقومه عن وقعة الجمل ، يعتزل القتال . . عندئذ لعبت الشكوك بقلب الأحنف والفارس ينساب مستخفياً عنه وعن سواه ، وعجب أي عجب لأمر الزبير وتخلفه عن المعركة وهي إلى سيفه وشجاعته أحوج الآن إذ اشتد ضرامها والتحمت النصال .

وهمس الرجل لنفسه بنبرة المستريب :

« والله ما هذا انحيازاً ! . . . »

وحق له أن تنوشه الرية . . لأمر ما يخرج الزبير هذا الخروج ويدع
أطعمه وأمانه لقي باليدان . لأمر سوى أن يكون قد فاء إلى الحق بعد لجه في
العناد وما اشتهر من إباءه الصلح والمهادنة ، فلعله رأى اليوم من غريته قوة
تستعصى على جيوشه ، فخرج يؤاب أقواما ممن لم يلحقوا بعد بأحد من الفريقين ،
أو يستمد لمسكره أمداداً من هنا وأخرى من هناك تدعم أداة حربه . . .
وتلفت الأحنف حوله يستحث بعض رجاله ممن شهد معه فرار الزبير :
« من يأتينا بخبره ؟ » .

فنهض على الفور عمرو بن جرموز وقال :
« أنا آتيك . . »

فكأنما الشقاوة أنطقت لسانه ، أو الشيطان نفسه تحدث في فيه . . منذ
تلك اللحظة تحدد مصير الرجل ، وكانت اللعنة نصيبه ، فقد قام يتبع الزبير وإنه
ليضمهر له العذر في دخيلته ، ويعدو بإضماره الحد الذي رسمه له الأحنف بن قيس .
لم يرش أن يقوم بمهمة الجاسوس يتقصى خطوات الطريدة ويستكنه سر الأمر
الذي تهم أن تسير له ، بل غلب الجشع عليه فسل الخديعة وأخفى العذر وبيت
المكيدة ، كلها أدوات تنيله مأرباً غنائاً من مأرب الحياة . . .

وحانت له الطريق لحظة أدنته من فريسته فساراً مما كما يرى سبيل جمع
بينهما السفر والمصادفة ، حتى إذا امتد هتية بينهما الحديث فاجأ الزبير بقوله :
« يا أبا عبد الله ، أحييت حرباً ظالماً أو مظلوماً هم تنصرف ؟ . . . أتائب
أنت أم عاجز ؟ » .

فتوجس سامعه الشر ، ولكنه جنح إلى الصمت يلوذ به عسى أن يكون في
الصمت ما يدفع عنه فضول الغريب . غير أن ابن جرموز بقي على دربه ، يسير
في آثاره كما يزحف ظله ولا يحيد قط عن سبيله . . .

وكذلك أوجس غلام الزبير ، ومال على أذن مولاه يحذره هذا المتأثر خطاه :
« إنه معد يا أبا عبد الله . . . »

فهب القارس كتفيه مستخفاً وقال :

« وما يهولك من رجل ؟ ... »

ثم التفت صوب مقتفيه :

« ما وراءك ؟ ... »

« إنما أردت أن أسألك ... »

فتفكر أبو عبد الله هنيهة . ماذا لو مد للرجل شيئاً في حبل الحديث فأشبع فضوله ثم قرغ منه بانقضاء الكلام ؟ ...

« فقل ... »

« حدثني عن خصال خمس ... »

« هات ما عندك ... »

« خذلك عثمان ؟ ... »

فأغضى الزبير برهة ثم قال بصرامة :

« أمر قدر الله فيه الخطيئة وآخر التوبة . »

« وييمتك علياً ؟ ... »

« ما وجدت من ذلك بدأ وقد بايعه المهاجرون والأنصار ... » وخشيت

القتل ... »

« وإخراجك أم المؤمنين ؟ ... »

« أما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره . »

« وصلاتك خلف ابنك ؟ ... »

« إنما قدمته عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لي — سوى صاحبي — أمر . »

« ورجوعك عن الحرب ؟ ... »

فتفرسه ملياً قبل أن يجيب :

« ظن بي ما شئت غير الجبن ! ... »

هنا فرغت جعبة الفضول والتساؤل ، فبدا ابن جرموز كمن اقتنع بما سمع ،

وسار صامتاً مع القافلة الصغيرة . ولكن نفسه الحبيثة هتفت به وقد حركها

ماركب فيها من طبيعة العدر :

« أضرمتها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ . . . قتلني الله إن لم أقتله ! » .
ثم وارى بغضائه الآئمة خلف ابتسامه . الآن يفعل الحتل مالا تفعل الشجاعة ،
والسكرها هنا أمثل . . . إنه ليبدى المطف ويظهر الرقة لرفيق الطريق ، ويمضي
وإياه في الحديث ناصحاله ، ويعرضه وده في لفظ حلو . مالتزير علم بالعيب ليستشف
ما وراءه . . . حتى إذا رآه قد وهت فرسه ، أو لاح كأنها قد عسر عليها نوعا
قطع رمل الصحراء ، وأمامها منها حتى غابتها البعيدة أشواط طويلة شاقة ، رسم
الغادر على شفثيه بسمة حانية ، وفي نظراته لمحة رحيمة وقال :
« يا أبا عبد الله هل أدلك على أمر هو خير لك ؟ . . . »

« نعم . . . »

« إن دون أهلك فيافي ، نخذ نجيبى هذا ، وخذ فرسك ودرعك فإنهما
شاهدان عليك بما تكره . . . »
فترى الزبير برهة ثم أجاب :
« حتى أنظر في ذلك . . . »

وأقبل عليهما المساء . ومضى طرف منه ولما يخرج الركب بعد من مشارف
البصرة . إن دون مدينة الرسول مشقة تعي أجود الأفراس وأكرم الجياد ،
والرمال تحت حوافر فرسه لينة رخوة ، تكاد تغوص فيها قوائمها فتعرن به ،
وتوشك ألا تسير . فلو كان قد أعد للرحلة عدتها الحقة ، إذن لاختار ناقة تسبح
على أديم هذه الصحراء الشاسعة كالسفينة . أما الآن فما أهون الظفر به على من
أراد إدراكه . . .

ويبدو أن إلحاح ابن جرموز ظل يلاحق الزبير حتى نزل عند غرضه ،
أو قصور مركبه عن بلوغه الغاية هو الذى دله على الأخذ بالنصيحة ، لأنه ما لبث
أن بادل رفيقة نجيبه نظير درعه وفرسه ، وقد أنس إليه ولم يعد يخشاه .
غير أنها طمأنينة موقوتة ، ما لبثت أن تبددت من فؤاده وعأوده القلق
والتوجس . . . فما هو إن نزل منزلا يستريح فيه ويقضى به بعض ليله ، حتى جاءه
الذير في رجل من بنى كلب تحين غرة من ابن جرموز وهمس للزبير :

« يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف . . . وقد ندم الأحنف على خذله عليا ولعله يتقرب بك إليه . »

فوجم الزبير وشم رائحة الكيد حوله فى هذا الجو الذى علفت به أنفاس رفيق الطريق . . .

وراح الكلابي يتم حديثه :

« . . لقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك . »

« فما ترى يا أخا كلب ؟ . . »

« بت عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومه فإنك إن فهم لم يطلبوك . . »
إلا أن المستريب الذى تتداوله أيدي الشك تضيق عليه دائماً رقعة الأمان . .
وهل كان ليأمن الآن على نفسه من هذا العابر - الذى ودلو استضافه بين جدر -
أكثر من أمنه عليها من ذلك الآخر ؟ . . أما إن كليهما الآن عنده متهم ،
وغيرها أيضاً ، وبقية الناس حتى يبلغ مأمنه بعيداً ببلدة الرسول .

وأضى طرفاً من وقته ، ذلك المساء ، يستكه سر الرجلين : أيهما غادر
خائن وأيهما ناصح أمين ، محاولاً أن يقطع فيهما الشك باليقين . . ولكن ظنه
لم يسعفه ، ولم يفتح له إلى تعرف الصواب . .

وكرة أخرى همس له الكلابي فى صوت نذير :

« يا أبا عبد الله إنى أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذها ، فإن أحداً
من الناس لا يقدم عليك أبداً وأنت فارس . »

غير أن الضياء جاءه بالسكينة . مشى فى نفسه الطمأنينة مشى إشراقة الصبح
فى السكون المستيقظ فنى معها رنة النذير . أم أنعش البكور فيه شجاعته
الوسنى فأودع الخوف دبر ظهره ؟ . . لقد كان الزبير دائماً ثبت القلب راسخاً
جنانه لا يكاد يهزه وعيد ، فما يهوله الآن من رجل فرد يسير فى ركابه ويتمسح
فيه تمسح هر أليف ؟ . . ولقد غاب الليل واهت باعجائه مسارب الدسيسة . .
أما عينه فيقظى ، وأما حسه فرهف ، وأما جوارحه كلها فعلى بصيرة من رفيقه
إن شاء إبداء غدره وكشف ما فى طواياه . .

وراحت البكرة ، وجاءت الضحوة والركب يسير . وخطت الشمس خطوها من الشرق تعد ظلة من اشعتها على القافلة حتى أوشكت أن تتسنىم الرؤوس . ثم مضت أيضاً صمداً ومضوا قدما تحت وهجها المذهب ، والهدوء في البيداء الممتدة والأمن في القلوب .

عندئذ هتف هاتف منهم :

« الصلاة . . . الصلاة . . . »

فهذه هي الظهيرة حانت ، وحل موعد فريضتها اللحظة . .

ونوقفت القافلة . وراح ابن جرموز يردد نداء السماء حتى تهيأت لها الرقعة الصغيرة . ثم انثنوا معا يتخذون مسجداً لهم من رمل الصحراء يقرب ما بينهم وبين الله . . .

في تلك الآونة التي يبتعد فيها المرء بروحه عن دنياه ، ويتجرد من مادية جسده الثقيلة ، ويتحرر قلبه من شواغل الحياة حتى يغدو عنصراً من الصفاء والنقاوة ، ويدنو إلى خالقه بغير حجاب ، مستودعاً إياه جل شأنه شعوره وديعة . . في تلك اللحظة التي تخمد فيها مطامع الجسد وتنشط آمال الروح ، وعلى هذه البقعة التي غدت باسم الله حرماً أقدس ، وظهر أديعها الركوع والسجود . . . في تلك البرهة الخافلة بالسلام ، وعلى هذه الأرض النقية المطهرة ، جرت نوازع الشر ، وسرح شيطانه ، بغير حائل من قداسة يرده فقد ركب مطية ذلولا إلى خبائثه : نفس ابن جرموز . . .

وحين سجدت عنق فيها جهة الزبير لله ، وقرت روحه ، وخشعت جوارحه ، قطع الغادر الأثيم الصلاة ، واستدير خلسة إمامه الآمن ، ثم ضربه برمحه ضربة مغتالة ، نفذ بها السن من الظهر إلى القلب حتى غاص فيه . . .

وحقت عليه عندئذ نبوءة الرسول . كتبت على روحه اللعنة والشقاء الأبدى يتبعانه منذ الآن إلى أن يغدو رمة بالية تتأذى من خبثها حجارة قبره ، ثم روحاً معذبا تتداوله الزبانية في الأوابد . . .

أما نفسه فقد غاب عنها سوء ما اقترفته في حق الله . استبد بها شرها إلى غايته ، وحسبت نصراً ما أته يَجْمَلُ أن يتلوه نصر يشفي ما تحسه من الغدر ، فعدا صاحبها على الجدث الهامد فاحتز رأسه ، وأخذ ثوبه وسلبه ثم خلفه جيفة بيطن الفلاة يتولى الغلام مواراتها التراب .

وعاد ابن جرموز خوراً مزهواً من رحلة غدره ، قد نال السلب والدرع والسيف ، تحب تحته فرس ضحيته . . . عاد إلى منتجع قومه ونفسه لا تنى تحذنه بالفوز الأعظم : ذلك المغنم الذي لا بد سوف يهبه الإمام إياه حين يستقضيه عن وزره . . .

وأقبل عليه الناس عندما قارب المضارب . فلما عرفوا من لسانه القصة ، آذتهم فعلته ، وأنكروا ضراوته ، وصاح أحدهم به في تقزز ونفور :
« ويحك يا ابن جرموز ! . . فضحت والله اليمين . أتقتل الزبير رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله ، وحواريه ، وابن عمته ؟ . . والله لو قتلت في حرب لعز علينا ذلك ، ولمسنا عارك . . . »
فأشاح بوجهه استكباراً وقال :

« . . والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً . وإن مثله على لهين ! . . . »

وانطلق يسير ، نحو البصرة ، ليقبض الجائزة من الإمام . . .

٦

حليف المموم لو ذاق طعم الوسن لنامت همومه ! . . لكن عينه الساهرة ردت الغمض . ففيها قذى يهيجها ويقرحها ، ودمع سخين ينثال ، وأهدابها غدت كشوك ! . . ليت عائشة تستطيع الرقود ساعة من ليل لعل ادكارها ينام . الفراش تحتها يؤرقها . ويؤذى جنبها المستسلم لغفوة عصية كأن حشوه قتاد . . ليس يثيرها الهوان الذي سبحت فيه ، ولا هذه الهزيمة النكراء قد أكلت هدفها واحتضمنه . بل وقر التبعة الثقيلة التي ألقت على كتفها الأقدار . بكل فطرة مهذرة من جرح ، وبكل شلو مقطوع ، وبكل حياة استباحها الموت

الداهم في مجال الصراع طالعتها الرؤى المثيرة ، مرة بعد مرة ، في ساعات يحوها الطويل البادى بغير انتهاء ، بعشاعر أسى محض مرير . لكأن حياتها غدت بحيرة من الدمع ! ..

حتى البيت الذى استضافها اليوم كان بؤرة ألم . فلما نى صفية بنت الحارث تمؤه عليها بالعويل والنواح إن أسفر صبح ، وتهيم فى جنباته أنات بكائها المكتوم إن جن ليل تفجعا على زوجها عبد الله بن خلف . بن البصرة كلها صارت مأتما قائما ، تتجدد فيه مظاهر الشجن يوما فى إثر يوم ، كأن أهائها أنسوا للحزن واستطابوه ! .. وفيه هذا كله ؟ فيم الحرب التى نثرت المصارع وبثت الفواجع ؟ ولأية غاية من الغايات ؟

إنه سبب ودت بقلبها أن تنساه لو أجدى عليها النسيان . وأنى لها اليوم إغفاله ؟ . تتاجه المشثوم لا يكف يطالعها مع اللحظات وإن أشاحت بناظرها عنه ، فإن لضميرها لعينا تراه . . . وكانت النواة نزوة -- جمعة عاطفة عدت بها طور الحكمة فلم تزل تعدو حتى رمت بها وبأمتها بهذه الوهدة السحيقة . من لها اليوم بمن يبصرها بغمبة الكرم الذى آثرت به الإمام لعلها تثوب ؟ ..

الأحداث الآن بصرتها . . الكوارث التى أحقت بالناس لأنها ذات لحظة مشثومة أطنقت لسانها العنان تؤلب على صهرها ، ابن عم زوجها ، أحقاد خصومه . . ومع ذلك فأين الجنى الذى اجتذته بيد الكراهية . والحصاد الذى حصده بمنجل البغضاء ؟ . . إنها ترى ثمار فعلتها قانية الحمرة حضبها الدم ، ذابلة جافة تنصرها الموت . . فى الدائن تراها وفى البيد ، فى الغريب والغريب ، فى الدور والمضارب . . فى فمها أيضا تحس لها طعم العلقم ، وفى قلبها تستشعر لها برودة تجمد الحياة . .

لها الله ! . . ألا ينام عنها همها هنية ؟ ..

ما زال بالها يهيج الذاكرة كما رنت بذهنها إلى الجنوب ، نحو أرض الحجاز عة أخية حبيبة تستروح الأبناء ، ثمة أسماء . وحين تقطع الأخبار هذه النقة الواسعة من الرمال فسيكون من نصيبها الترمل ، ومن يدري ؟ ألا يكون أيضا

من نصيبها الشكل ! .. فهذه المفازة انشقت قبراً يضم زوجاً باسلاً قضى قضاء آبق فرار ولم يمت ميتة بطل . وفيها عدت قدما ابن طموح شاب تتلمس له مسالك النجاة ولا نجاة ، هرب من الأسر إلى أسر ، وفرهاً على وجهه فرار أطباءه . . . أفتغفر أسماء ؟ . . .

عائشة لا يهولها أن تنقم أختها منها أنها كانت سبب النكبة القاصمة . لم يعد بقلبها موضع لغير القلق الذي ملأه بعد فرار عبد الله بن الزبير ، ربيبها الأثير . . . عندما بشروها بنجاته ، إبان الواقعة ، من سيف الأشر ، دفعت عشرة آلاف درهم لناقل الخبر نظير بشرائه . أما اليوم فكم تود لو دفعت نصف عمرها لمن يخبرها عنه . بل لتؤثر أن تغمض أجفانها غمض الموت إن أمنت عليه الذل والخوف والهلاك . فما من امرئ غيره يعلأ عليها دنياها التي أفعمتها الأحزان . . .

فكأن القدر عاد فهادنها بعد حربه المسعرة ورسم بسمة على شفاهاه أضاءت لها قتام القنوط . ها هنا رجل يسعى ، ويعشى بخطو المريب ، قد أقبل وفي وقاضه الخبر المرقوب . . .

وقال ذلك الأزدي ناشر آ رسالته :

« إني أعلم مكان عبد الله ! . . . »

فابتدرت من فرحة عينها حتى غامت بالدموع . . . وقالت عندما استطاعت الجواب :

« على بمحمد . . . »

« يا أم المؤمنين ، إنه قد نهاني أن أعلم به محمد بن أبي بكر . . . »

فلم تبال شيئاً من الأمر . ودعت إليها أخاها وأمرته :

« انطلق مع هذا الرجل حتى تبيئني بابن أختك . . . »

وحين جاءها الفتى الجريح ، وملأت عينها بعشده ، ثابت نفسها وعرفت الهدوء . الآن قد أمن سربه ، واحتقن دمه ، ففي كنفها سيطعم الطمأنينة ، وتتمد به الحياة ، ولن يستطيع أحد أو شيء أن يناله بمكروه . إنها لعلى يقين . عاودتها ثقتها في ذات اللحظة التي دخل فيها مثابها الآمن . . . وحتى ابن أبي طالب لن يخرق

عليها اعتدادها الوطيد ، فهو أسمى شأنًا من أن يفسد عليها فرحتها بريبيها الحبيب ، أظهر نفساً من أن يثار من عدو مغلوب . . .

وصدق حدس السيدة في الإمام . فقد نسي كل مساءة سلفت من الفخ الطموح في حقه ، ونسي عداؤه السافر البغيض ، وقذفه فيه وسبه إياه على رؤوس الأشهاد يوم الجمل حين أحش السب فقال للناس :

« . . قد أتاكم الوغد اللثيم على بن أبي طالب ! . »

عن ابن الزبير أغضى على كل الإغضاء ، وأوسع في صدره للصفح عنه . فلما أن استشفعته عائشة لم يزد على أن رمى ربيبيها بنظرة ثاقبة نكراء وقال له في غير مبالاة :

« اذهب فلا أرينك ! . . »

بمثل هذه السماحة كان الإمام يلقي خصومه ، فتلك سجية فيه عزيزة في طباع البشر . بل قد كان أيضاً يمنحهم الود فوق رفقته ومغفرته ، ويأبى على رجاله أن ينالوا منهم بمنطق اللسان النابي ، دع القصاص والعقوبة وإن حقت عليهم قسوة الجزاء . . دخل البصرة فرأى لزاما عليه ، عن بر وليس عن مجاملة ، أن يزور عائشة حيث نزلت ليعرف بنفسه أطابت لها الإقامة ، فإذا به يسم شطر مقامها على الأثر بعد خروجه من بيت الله ، لم تشغله شاغلة ، حتى إذا انتهى إلى دار عبد الله ابن خلف ، وشهدته صفية ابنة الحارث ، قطعت نواحيها على زوجها القليل وراحت تصيح :

« يا على ! . . يا قاتل الأحبة ! . . يا مفرق الجمع ! . . أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه . . »

فلم يرد شيئاً على المرأة المحزونة . وما زاد على أن قال لعائشة عندما استقبلته ، بصوت هادئ رحيم :

« جبهتنا صفية . . أما أنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . . »

نفسه طوعه ، راضها على الفضائل . بل الفضائل هي التي نبعت منه . . عرف كيف يستقبل العقوق بالبر ، والشر بالخير ، والإساءة بالحسن والمغفرة . وما من عدو له آذاه ذات يوم وأمن في الإيذاء إلا تلقاه ساعة ظفروه وانتصاره بصفح كريم .

وعندما فرغ من زيارته ، وهم أن يخلف مثاب عائشة ، لم يملك أن يرد
بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغره . . . أخسب القوم أن قد خدعوه ؟ . . . إنما
غرم الوهم إذ ظنوه طعمة هينة وظنوا سكوته عليهم غفلة . . . فمن اللحظة الأولى
التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكون . . . ثمة في جو المكان شيء قد علق مع
الأنفاس ، له رائحة العدر ، أو الخديعة ، أو المؤامرة حيك نسيجها على حياته .
الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرها له ، وأبدت ما ضمته الحجرات . .
ومع ذلك فإنه استمسك بأناته ، وأغضى عينه ، وكنتم عن مضيفته أنه فهم
ما أخفته الدار .

ولما ودع السيدة ، وغدا على مبعدة من مثابها قليلة ، ألقى نظرة عابرة على
الأبواب المغلقة ورائه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر ، وقال :

« أما لهمت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه . . ثم هذا فأقتل من فيه . . »
فلقد كانت الحجر تضم طائفة من أعدائه ، جرحى أصحابه ، ضاق بهم فرارهم
فآوتهم عائشة سرّاً لديها دون أن تعلمه . فمذا كان يديرها أن أحدهم لاتبهجه
مواجهه ولا يطلق سهما على حين غرة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها
فيرديه ؟ . . . لعلها ظنت الخوف كفيلاً بشل جوارح أولئك المختبئين ، أو جباتهم
مقعدتهم عن ركوب هذا المركب العسير . . . أو لعلها حينذاك عاهدتهم على
ألا يغدروا وفيهم بضعة ، حرية بالألا يقيدوها عهد ، غدرة فجار . . . كيفما كان
شأن السيدة مع صحبها أولئك فقد كان لزاماً عليها ألا تستغل في على طبيعته
السمعاء وكان أولى بها وأكرم أن تجنبه الوقوف على حافة الهاوية . .

أما هو فلم يكن يهاب موقفه . فمذا يملك أن يحرمه ساعة من حياة سجلها
الله له في صفحة عمره ؟ . . . إنما الموت قدر ، موقوت بأجل ، ليس تقدمه غفلة
ولا يؤخره حذر . . .

وكانت ابنة الحارث ما زالت بمكانها ذاك عند الباب تنوح على زوجها وتبكيه
فلما أن شهدت الإمام يغادر دارها عاودت شتمه بأقذع ما يستطيعه لسان عياب
فانظر كيف لقيها ثانية بحمله وأناته وعندما سمع رجلا استاء منها يصيح :

« والله لا تفلتنا هذه المرأة ! . . »

أصمأه غضبه حينذاك على الغاضب له ، وهتف به يذكره رأيه السالف
بوجوب الرفق بالنسوة العاديات ، ثم قال يحذره وصحبه الحاضرين .

« لا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس ! . . »

وانظره أيضاً كيف قابل تدبير عائشة ، أوسوء تدبيرها ، إذ آوت من
عدوه من كان حرياً أن يفتك به غيلة لو لم تكن له فسحة من الأجل باقية . . .
لحق به امرؤ ممن سمع حديثه عن ابنة الحارث ، فلقىه ببعض طريق العودة
وقال له :

« يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض

لك شتيمة من صفة . . »

فجزع وصاح :

« ويحك ! . . لعلها عائشة . . »

« نعم . . قام رجلان منهم على الدار ، فقال أحدهما :

جزيت عنا أمانة عقوقا . . . »

وقال الآخر :

يا أمانة توبى لقد خطئت . . »

فما أسرع ما بعث إليهما بالقعقاع بن عمرو فأحضرهما إليه . ولم يعلمهما برهة
يفران فيها من غضبه . فلولا أن استشفع لهما الناس عند ذاك لأرداهما قتيلين
جزاء على عيبيهما السيدة التي لم تسكف عنه عيبيها وأغرته به الضغائن . . ومع
ذلك فلم تنقذهما من بطشه الشفاعة ، بل قال وهو محنق :

« لأنهنهما عقوبة ! . . »

وفعل . فقد أمر بهما فجلدا مائة مائة أمام الأشهاد . .

وكذلك نراه يغضى عن عدوه ويوسع لهم في صفحه ، ثم يشتد على أصحابه
أيما شدة وأبلغها . ذلك لأنه أراد أعوانه على أن يكونوا قدوة بتأثرهم بمكارم
الأخلاق ويسير في هديهم الناس . أما أولئك الذين كانوا ينالون منه فإنهم في عافية ،

بصبره أو بغفرانه ولعل خير ما يصور لنا سيرته في أخصامه ذلك القول الذي غدا شعاراً له ، وكان يردده دائماً بأمثال تلك المواطن :
« متى أشفى غيظي إذا غضبت ؟ .. أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي :
لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت ؟ .. »
وهكذا كان أبداً دأبه : يؤثر الرفق والصفح والصبر عمن ألحق به المساءة والشر . إن قدر غفر ، أو عجز صبر . .

٧

ما وراء هذا التجمع ؟ .. دار صفية ابنة الحارث غدت خلية تطن فيها همسات خصومه ، أولئك الذين أبت عليهم المواجد أن يسيروا إليه يستأمنونه على أنفسهم ، ويرجون مغفرته ، وكلهم لقومه حينذاك رأس مدبر .
ولكنهم كانوا أمانة لا يخشون عادية نعمته ، فيبينهم وبينه عائشة سياج ولو جال يوماً بياله أن يقتص منهم أو يثار لما وسعه الأمر وهم في نجوة عنه بتلك السيدة التي ما زال يراها صاحبة حق عليه . وإن يحول قط بخاطره الثأر فذلك يخالف سجاياه . إنه ليملك مصيرهم في يديه ، لو شاء ترك أو شاء أهلك .. ولكنه كان دائماً إلى العفو أميل ، فليس يستطيع قهر نفسه على ركوب ما تنفر منه .
عقب نصره قالت له عائشة في ضراعة :
« يا بن أبي طالب ، ملكت فأسجج . . »

فكان قولها صدى لإحساس قلبه ، ورسماً صادقا لما ألهمته من تصرفاته حيال أعدائه . فلم يعنف قط بامرئ منهم ظفريه ، بل وسعت مغفرته عدوانهم ، وأباحهم صفاء نفسه كفاء ما تجرعوه من غصة الهزيمة . أمن الخائف ، وحرر الأسير ، وأملى للهارب في جبل فراره إلى أن أتاحت له أرض ثابتة لا تميد تحت قدميه . . حق هذه الطائفة الغالية في عدااته أغضى عن ماضيها المليء بالضغينة والحقد عليه ، هي التي أججت سعر الحرب وأصلت أمتها الهموم والكوارث .

كان يعلم أن عقابهم عداله مطلوبة ، ولكنه كان يعلم أيضا أن العفو شعبة كريمة ، حريه بأن تسبق العدالة ، فالعادل الظافر أقوى منه الظافر العافر . ولن يزيد شيئا في بأسك أن تنال من عدو مهين

ومع ذلك فقد بدوا كأنما استباحوا منه هذه الأريحية النفسية إلى غير حدود ، وبلا احتراز ولا تعفف . ولو أنهم أنصفوا لجاءوا إليه سراعا ، في قلوبهم الندم ، وعلى شفاههم التوبة ، وفي أكفهم الطاعة ، ولكنهم عدوا ما هو جميل بأمثالهم من المغلوبين ، واتخذوا دار صفية بنت الحارث ندوة تسرح فيها همساتهم الناطقة بالدس والضغينة . وها هي عائشة تؤويهم إليها بدون إذنه ، كأنما تملك دونه العفو وتملك الثوبة . . .

لم يكن شأنهم ليكرمه حين نصره بعد أن دانت البلدة له وسجدت تطلب الصفح وتقدم الخضوع . غير أنها بلدة حديثة العهد بالولاء له حرية — إن سنحت فرصة — أن تفتن عن الطاعة . فما زالت بها بقية مريية ، ملكها القهر لم يملكها الولاء ، لا تفي تتطلع إلى ساعة تار ترد عليها ما ضيعته الهزيمة . وإنها لترنو بعين اللهفة فتدبم الرنو إلى دار ابنة الحارث ملاذ الزعماء المستظللين ظل عائشة ، عسى أن يخفق من هناك ، ذات يوم قريب ، لواء تمرد جديد . . .

ولقد يحسن المرء بالسيدة الظن فيراها آوت أولئك الحفنة الباغية عن رحمة ولكنه لا يستطيع أن يأمن عليها من وسوسة البغاة وهمسهم في ضميرها بمعاودة المصيان ، فكلهم حائد أو موتور . . . وكلهم قادر أن يهيج بصدرها مواجدها على على وضغنها القديم ، فتلك عواطف غائرة في النفس حق الأعماق ، سارية مع الدماء في الجوارح ، لم تجشها الهزيمة ، ولن يكفها شيء إن خلى بينها وبين الانطلاق . . إن في طبيعة البشر من أمثال هذه الشاعر كثرة موفورة ، تقود خطوهم دائما إلى الخطيئة . . . وعائشة ضرب في النسوة جامع الأحاسيس . أو هي هكذا على الأقل كلما نصبت من شعورها حكما فيصلا بينها وبين الإمام . ولقد طال حكم هذا الشعور بينهما ، في الماضي الغابر والحاضر المائل ، فكان الغلو الذي لا تكبحه كفة ينطلق بها مسرفاً في انطلاقه بغير روية أو قصد ، كأنه السيل الدافق ، لا يحكمه حابس ولا يمسكه سد . . . أفئن غدت اليوم طعمة لوسوسة بضعة من

دعاة الشر في أصحابها الموتورين تهيج ما نام من حفظيتها ، أليست حرية إذن بالإصغاء لهم ، حقيقة بتلبية نداء حقدتها القديم .

بلى ! . . . هذا أنسب عشاعرها ، أدنى إلى سخطها على وإن رأيناه يعد لها في رقاع كرمه ، ويجازيها على موقفها السالف منه برآ بنكران ، وعروءة بعضيان . فما الناس إلا عبيد العواطف ، إلا من عصم الله وحسن نفسه بسياج من الإرادة عصى على غلواء الأهواء . . . ولقد كانت فيها تحسب ولا تنكر ، تود لو كبحت نفسها عن الجموح في عدااء على بعض أشواطها البعيدة ، فلم تفدها هذه الرغبة في القصد ولم ترد عاطفتها عن الجموح .

وكان الإمام لا تغيب عنه هذه الحال ، ويتفرق هوناً بالسيدة العادية عليه فيعزو عدوانها إلى قلة تبصر ليست غريبة في طباع النساء . ومع ذلك فلم يكن لينسى لها ما هي به جديرة من احترامه وتوقيره كفاء قدرها بين الناس ومنزلتها عند رسول الله . . . وإنك لتضغى إلى حديثه عنها فتسمعه رأياً يجدرسم مشاعرها ثم لا يغمطها شيئاً من حقها . . . قال فأجمل المقال :

« . . . أدركها رأى النساء ، وضغن غلا في صدرها كمرجل القين ! . ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلى . لم تفعل ! . . . ولها بعد حرمتها الأولى . والحساب على الله تعالى . . »

فإذا بلغ منها بعد هذا أن تستقى إليها طائفة من غلاة عدوه وأعتاهم له خصومة يستظلون جناحيها ، ويحتفون حتى لتدبو خفيتهم درجة من التربص والمؤامرة . . . وإذا استباححت لنفسها من كرمه ما يحتلبه هيئته في عين الناس ، وييديها كمن يملك العفو دونه عن كل عاد عليه : كاشح أو سافر . . . إذا كان هذا وذاك فإنها إذن صاحبة مشيئته ، تجري على سلطانه كالقضاء فتنتقصه ، بل تشله وتقضى عليه ثم لا يكون من ورائها إلا إغراء العصاة وسفهاء الخلوم به ، في بلدة مغلوبة ، وبين ظهراى قوم قد قهرهم على الولاء .

لذلك كان حقاً عليه حيال إمرته وحيال أمته على السواء ، أن يخلى تلك الحلية التي راحت تطن بها همسات أعدائه ، فإن هي إلا مثابة للدميسة . . . ولقد

كان بوسعهم أن يعصف بلاجثيها ولكنه كره ، لوفعل ، أن ينال من قدر السيدة التي منحهم الامان ، وأبى أن تهون كلماتها وإن بذاتها من وراء ظهره . ولم ير خيراً من تسييرها عزيزة الى دار لها بالحجاز ، وفي جوار قبر الرسول ، فيتفرق عنها دعاة العدوان .

على أن بقية من كبرياء العناد انحرفت بعائشة عن مسلك الحكمة . فلقد بدا كأنها أبت الامتثال للأمر بالرحيل . لعلها ظلت لا تعرف لعلها حقاً بأمره . هي قد أغراها بعصيانها اليوم وسواس الطائفة الذين آوت ، عسى أن ينالوا منه بالتمرد الجديد . وكيفما كان الحافز الذي جعلها ترفض العودة إلى المدينة فلم يقرها الإمام وأبى إلا أن تطيع أمره . . .

ودخل عليها ابن عباس ، رسولاً من لدنه . فما رأته حتى لقيته بما يشبه الازدراء أو قلة المبالاة . ثم لوت عنه جيدها نافرة ، ولم تقدم له وسادة ليجلس ، ولم تأذن له . . .

عندئذ مد هو يداً إلى متاعها فأخرج منه ما يجلس عليه . فأذنها جراته ونالت من كبريائها ، فصاحت به مغضبة :

« يا ابن عباس ، أخطأت السنة ، فقدمت على وصادتنا ، في بيتنا ، بغير إذننا . . . »

فليتها لم تهج لسانه بالكلام . . . ذلك اللسان الذي عرفته قبل غيرها بصيرا بجوانب الجدال ، فياض المنطق ، حار الألفاظ كالشواظ . . .

أجابها على الأثر ، في هدوء أشد إيلا ما لسمعها من فورة البراكين :

« وليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقرى فيه . . . »

فلم ترد على حديثه بشيء . . .

وعاد يبلغها ما جاء فيه :

« إن أمير المؤمنين أرسلني إليك بأمرك بالرحيل . . . »

قطعت عليه جملة في تهكم واستنكار :

« أين أمير المؤمنين ؟ . . . ذلك عمر ! . . . »

« عمر وعلى . . . »

« أبيت . . . »

وتنبئنا رواية الخبر بتممة لهذا الكلام إن تكن وقعت فليست تجمل بمن كان مثل ابن عباس ، وإن أثارت السيدة ، وأمعت في إهاجة ثأرته . . . فلقد طوف بتيرة أبي بكر فتعيف على الشيخ غير مقصد ، ونال من قدره بغير ما ضرورة أجازها الجدل أو دعت إليها طبيعة الحديث . ولا نظنه إلا شطحة رواية ، أراد أن يضفي على خبره بعض المتعة ، فركب خياله السرف إلى حد أساء به إلى عبد الله . . . ونذع جانباً ما تزه عنه لسان ابن عباس ولا تفره عليه . ثم نتناول بقية جدله فإذا في بعض أطرافها عنف مقبول ، أعاتته السيدة على أن يلقاها به . وهل حسبناء يصير لها على التزامها العناد وإباء الصدوع بأمر مولاه وإن أغرتها كبرياؤها بالعصيان ؟

قل لها وهو يذكر ما أته من خروجها على الإمام ، وتأليبها عليه نزع الأنفس وعدة القتال :

« . . . والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين »

ووضعها بالفاظه حيث كانت ، ، وحيث يكون كل مغلوب . . . عندئذ آلتها الحقيقة التي أسفر عنها كلامه الصريح ، وأحست بكبرياتها تنالها جروح سال عنها دمعها يبتدر . . . وحين وسمها أن تمتلك روعها ، أبت مع هذا أن تقر بالهزيمة ، وراحت تخفي قهرها خلف جواب تغمز به غريمها العاني وإن شابت نبرات غضبها الجامح رجفة البكاء . . . قالت له :

« إني ممجلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله . . . والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أتم فيه . . . »

فلم يعهدها أن تستشعر لذة غمزتها ، وأسرع يجيب :

« ولم ذاك ؟ »

وتريث برهة عسى أن يأتيه رد استنكاره . فلما رآها اعتصمت بالصمت عاود حديثه بهدوء بطفته سخرته :

« . . . والله لقد جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك مديقا . . . »

فثارت به :

« يا بن عباس ، آمن على برسول الله ؟ . . »

« ما لي لا أؤمن عليك بمن لو كان لمننت به على . . . »

وحينذاك آثرت أن تلوذ بالسكوت لتكف عنها جدل صاحب اللسان

الإزعيل ! ..

٨

تهيات عائشة للرحيل .

ما لها اليوم معدى عنه . طلع عليها فجر السبت غرة رجب فأرسلت على خيوط ضوئه عيناً دامعة ، لاملها لم تندق بليلاً ، تطوف نظراتها الساهمة بما يبدو لها من البصرة تحت نور البكور . . . أى شيء ها هنا أودعته الثرى الصامت ؟ . . . وأى مقام كان على أديعه ؟ . وبأية حال تهم أن تخرج الآن ؟ .

المنى المريضة انطوت في الرمال . كأنها كتبتها على صفحتها الرخوة ثم جاءت هبة ريح فمحت السطور . . . والمقام لم تلن لها جوانبه . نزلته مقهورة فبنا بها المنزل حتى خلفته مقهورة . . . غدت أداة تحركها الأيدي ليست لها على نفسها مشيئة . فتلك الأيام القلائل التي قضتها بالبلدة أطلمها هم وأنهاها هم ، كلا انقضى منها يوم أسلمها بعده إلى غد شر منه .

إنها لتشعر أن حياتها لم تعد لها خالصة . أصبحت كلها منة أسداها الصنع والترفق : عيشها ، وتفكيرها ، وحريتها . . فما تملك أن تعيش أو تفكر أو تنطلق إلا بقدر قدره . ليست الآن من أطاعتها الطاعة وأطاعها معها العصيان . . . ليست صاحبة الكلمة لانكاد حروفها تلتئم على شفيتها فتجيئها الجيوش والوفود والنفوس مؤثمة . . . ليست حتى ذات الدار المهيبة والدمار المصون في القلوب والعيون . . . بقي لها فحسب من حياتها أن تعيش عيشاً تفضلوا عليها به في حرية إن جنبتها مذلة الأسر فهي كأسر ، وبذهن يتبع الفكر ولا يبدع الفكر .

ثم ها هم اليوم أولاء ، يحبسون روحها في سياج من منهم منيع ، وما أبغض
منة القاهر إلى قلب الغلوب . . . حتى الأشترا أيضا لم يعفها من تجرع غصة الذلة .
أزجى إليها جميلا لو تقبلته لكان قدرها لديها ، ولكنها أبتة كل الإباء . . . إنها
لتنعم بأن تجتر حقدتها على الرجل ثم تعود فتستره ، وتعيد نفسها الآن من قبول
هبة خشية أن يخف تقورها منه ويقل سخطها عليه . . .

وكذلك استقبلت رسوله ، غضى نافذة الصبر مهتاجة . . .
قال لها :

« يا أم المؤمنين ، مالك يقرئك السلام ويقول إن هذا البعير مكان بعيرك . . . »
فساحت حاققة :

« لا سلم الله عليه . . . »
وردت عليه الهدية .

ومع ذلك فلم تكن لتستطيع رفض كل ما قدموه أو تؤذيها الحاجة . . .
رأت لزاما عليها أن تنزل بكبرياتها درجة ، وإلا فمذا هنا يجهزها لكل هذه
الشقة البعيدة حتى تبلغ الحجاز ؟

جهزها الإمام وأعد لها قافلة طويلة لا ينقصها فيها شيء . ثم منحها اثني
عشر ألفاً من المال تستعين بها على الزمان . . .

وكانت هبة سخية حقاً . منة أخرى من مننه الكثيرة التي طوق بها جيدها
على كره منها . . . غير أن ابن أخيه : عبد الله بن جعفر أبي إلا أن يثقل في وقر
السيدة من المن والهبات ، فقد استقل المنحة ، وأخرج من لدنه مالا وفيرا يعي
الإحصاء ، أفاءه عليها وهو يقول :

« إن لم يحجزه أمير المؤمنين فهو على . . . »

ووقفت عائشة مليا خافضة الرأس قبل أن يسير بها الركب ، أثقلتها أريحية
غريبتها كما أثقلتها مروءته ونقاوة نفسه . فلم يحتجز عنها شيئا علم أنها تحتاج إليه
من مركب أو زاد أو متاع ، ولا تهاون قط في توفير ما يحفظ عليها كرامتها من
مظهر ومجد . بل قد بالغ في كرمه ما شاء حتى أباح كثرة من صحبها الذين حاربوه
أن يرافقوها في الرحلة . . .

وحين أوشك الركب أن يتحرك قال لابنه :

« تجهز يا محمد قبلها . . . »

وأمر الحسين أن يسير معها نهارا وليلة .

عندئذ وقفت وهي تشرف من هودجها على الجموع التي أقبلت مودعة ، وقالت بصوت اختلج من فرط التأثر :

« يا بني . . . تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك . . . »

ثم مدت بصرها حيث وقف الإمام ، ومضت تقول :

« . . . إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة

وأحمائها . . . وإنه عندي على معتبتي من الأخيار . . . »

فما سمع علي هذا منها حتى خاطب الجمع :

« يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت . ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها

لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة . . . »

علي أنها ، مع ما أكرمها به ، لم تنس أن تناله بمقذع اللفظ وهي ببعض

الطريق . فلقد أرسل معها حرما ضخما من عبد القيس أربعين فردا ، وقام علي

شأنها قيام العبيد والإماء ، فهايتها كثرته . وظلت كلما وقعت عينها على فرد منه ،

تهتف برمة وتقول مظهرة سخطها علي الإمام :

« هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي ! . . . »

ذلك أنها حسبت الحرس رجالا وكن فتيات تنكرن في ثياب الفتيان . . .

فلما بلغت غاية رحلتها ، ودخلت دارها ، أقبلن فكشفن عن رؤوسهن العمام ،

وهتفن ضاحكات :

« إنما نحن نسوة ! »

وكان هذا آخر عهدا بالرجل الذي حاربه بالبغضاء فخزبها بالحلم والروءة ،

وغالبته بالعنف والتأمر فغلبها بأريحية نفسه وصفاء قلبه من الحقد والضغينة .

وكان أيضا آخر عهدا بالشئون العامة ، فقد أغلقت بابها عليها ، وقرت بيتها

بعيدا عن معترك الحرب والسياسة . . .

أما هو ففرغ لشأنه وقد خلت خلية الدسيسة ، وتفرق عنها ما كنها
البغاة . . . فقد أباح بقيتهم صفحه ، ونسى كل ماسلف منهم من القدر والعدوان .
اتسعت رحبة عفوه لأعتام عداوة له ولم يستشعر ندما على معروقه ، حتي مروان
ابن الحكم ظفر بغفرانه وإن كان أعدى عدوه وأجدرهم أن ينال منه عذاب
الهن . . . جى به إليه مستضعفا ذليلا ، قد ضاقت عنه مسالك النجاة فلم يسه
بشيء ، وأغضى عابسا وهو يصنى لشفاعة الحسن والحسين فيه . . .
واتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه ، واستزال عفوه على الباغي المقهور ،
ثم أردفا يقولان :

« يايحك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يزد على أن رشق عدوه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه . .
ومد مروان نحوه كفأ مرتجفة ، فيها خضوعه وذلته . ولكن عليا عف عن
تناولها ، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطى رسول الله ، وإلى من حضره من
رجاله حينذاك ، وقال بوجه إليهم الخطاب :
« أولم ييايعنى بعد مقتل عثمان ؟ . . لا حاجة لى فى بيعته ، إنها كف
يهودية . . . »

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك القادر الذى كانت حياته لا تساوى غير لفظة
لسان أو إشارة بنان . وراح يتبعه فى مسرب انطلاقه بنظراته حتى اختفى عنه
خلف المجهول . .

غير أن اختفائه عن العيون لم يحجبه برهة عن بصيرة الإمام . إنه ليراه
الآن بعين الإلهام ، ويحترق إليه أسجاف الزمن ، وأستار السنين ، وظلمة الغيوب .
ثم يظل يتبع خطوه السارى فى المستقبل ، الموفى به إلى هايته ، الممتد بعده لدراريه . .
ويسمع الحضور صوت الإمام ، عميقا خافتا كأعما يأتهم لفظه من قرار سحق
بعيد الأغوار :

« . . . أما إن له إمرة كلمقة الكلب أنفه . . . وهو أبو الأكبيش
الأربعة . . . وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر . . . »
ويصمت لسانه الناطق بنفثة البصيرة ، ويدع الحديث للزمان . . .

الامام
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء الرابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

كان سلماً إلى حين ، حتى تنجاب عنهم غاشية الدلة ويهدأ الروح . . آفة الشر في نفوسهم مقيمة ، لها ديب ووجيب . والقلوب التي استشعرت الأمن من بعد خوف تحركت بها مواجدها . فلا الحرب صهرتها فطهرتها ولا المفرة أسرتها فغيرتها . إنما عاد لها شغائنها القديم سيرته الأولى ، يغلى ويفور ويشور . كان خفقها الضغينة ، وهل لقلب بغير نبض حياة ؟

ذات مرة أحكم وصف عواطف الناس نحوه فقال :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا بحصباتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني . ذلك أنه قضى فانتضى على لسان النبي الأمي أنه قال : يا علي لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق . . . »

فصدقت قوله بصدق ما سبقها من نبوءة الرسول .

وها هو اليوم : يطعم من أحقادهم صابها وعلقمها وما انفك عن رقابهم كرمه . . . لعلمهم في ذات اللحظة التي أباحهم فيها الأمن والحياة والحرية كانوا في دخيلة نفوسهم يدبرون ما يفسد عليه أمره ، ويزلزل سلطانه ، ويهد كيانه . . . لعلمهم يصطنعون مكرآ جديداً يشبهه على إحسانه إليهم إساءة . . . لعلمهم يحتلون ويحتلون عنه قوما لم تستر بصائرهم ليهضموه ثمرة حقه بعد أن وجئت دونها بالأمس رقاب وفريت أسباب . أفيعجب ؟ . . أم هي هكذا طبيعة الأهواء ؟ . .

كم منهم عطفهم إليه عطفه ؟ . . كم منهم استأسرهم عفوه — هذه الطغمة الباقية من وليمة الموت ؟ . . عندما كان قد رهم على طرف لسانه ورهين بنائه . اشتروا منه آجالهم بذلتهم . فيهم فئة خشيت الحتف فلاذت بفرار وبقية أعمار . . . وفيهم أخرى قهرها الخوف قبل السيف فأحنت الهام وخفضت الجباه ليلى لها في الحياة . . . أولئك شهدوا بيعته على أرض الواقعة حين انجلى عن أديمها غبار الصراع وراحوا يرددون مع الناس : « علينا عهد الله وميثاقه بالوفاء ، لنكون لسلك سلماً ، ولحربك حرباً ، ولنكفن عنك السنتنا وأيدينا . . . » — بل

قد فعلوا ، ومدوا إليه الأ كف بالتسليم وإن عف هو عن تقبل هذه الأبدى التى انبسطت نحوه تظهر الخضوع وتسكنم الخداع . ومع ذلك فقد كبح عنهم بطشه ، ورد تقمته ، وكان صفحه صدى طبيعة كريمة ليس وسيلة إلى استخلاص طاعة أو كسب ولاء .

لكنهم لم يعرفوا له جميله الذى طرق أجيادهم وقلدتهم . لم تمنعطف قلوبهم إليه من بعد شرود . لا ، ولم يمنحوا — فى القليل — إلى مهادته أو الصبر عليه ، كأنما العار فى الطاعة أو القرار ليس فى خلافهم هذا كل العار . . . فاعجب إذن منهم ، كيف اشتبهت عليهم القيم ، والتوت بهم مسالك النظر حتى أصبح جزاء العمل عندهم كفاء عكسه لا كفاء جنسه . . .

أنبمثل هذا الجحود يلقون مثيله ؟ . وبالإحـن المشاقة يستقبلون منه هذه الطبيعة السمحاء ؟ . . غيره جدير منهم بسوآت الأنفس الناضجة ببغضائه المنكرة لآلائه ، التى لا تزال يقبضها شر لييسطها شر ثم لا يكفها غلوها فى كراهته دون أن تجرع من كؤوس حسدها حتى تخاض إلى عمالة الشرور . . . لكنه كان يسمو بنفسه عن مقابلة الصغار بالصغار ، ويملو بالطبيعة البشرية التى خالطت روحه ترفماً عن الفرائز الدنية ، ويقهر الهوى لينصر الله . أو ليست الأهواء الجامحة محاريب إبليس ؟ . . .

الإمام كان أعرف بالسنة الهادية . كان صاحب رسالة راح ينشرها لتحصين الأخلاق . وكانت وسيلته الأولى لنشرها أن يكون هو أسوة ، وأن يضرب بفعله وقوله الأمثال للناس . وفى الصراع الذى انتشب بينه وبين عدوه وسالت خلاله الدماء كالجداول ، حرص دائماً على أن يكون مرآة مصقولة ، من شهد فيها استبان رشده وطاقته أقوم الحلال — فى الخلاف السلمى وفى الخلاف الحربى سواء بسواء . . . ولم يكن كرمه بهم وسيلة لمطفهم إليه ، بل كان عفوا للعفو وصفحا للصفح ودرسا ترشد به الأنفس التى تميل إلى الاستيعاب ولا تتغافل عن طريق الصواب أجل ، كان أبعد امرئ عن تسقط النصير من سبيل استدلاله بخوف أو استئساره بمكرمة . كذلك شهدناه وكذلك هو على الأيام ، وإنه ليرج المدينة فى أعقاب أم المؤمنين وصاحبها فلا يستبطن إلا من توثقت به النية

على غير خذلاته ، فمن عرفه مدخولا قلبه استغنى عنه . ومن كان نقي له سريره ثم ثبطه عن مظهرته حين الصراع شيء لم ينله بالقهر ليحتلبه المعونة . . . وإنه ليرك قبلا ، يوم استخلافه بالمدينة ، أناساً وشأنهم رأوا أن يحبسوا عنه بيعتهم ما كان أيسر أن يركنوا — لو عنف بهم قليلا — إلى الخضوع . . . وإنه ليخلي إبان مسيره صوب البصرة بين قيس وطائفة أخرى من القبائل وبين اعتزاله في الفتنة التي شبتها عائشة ، وأذكاها طلحة ، وأقم في سيرها ابن العوام وأمدّها بالوقود مروان وطعمة أمية الموتورون . ولو قد شاء لأخذ بالشدة أولئك وهؤلاء . ولكنه كان داعية حق يهدي إلى السبيل السوى ؛ فليس السيف إذن بأقطع وسائله ، إنما الحجة كانت وحدها سلاحه . ولئن وثب ، يوم الجمل ، بخيله ورجله على جحافل مناوئيه ، فلقد فعل بعد أن أعيته الحسنى ، ومضى يحارب فيهم الردة عن الحق ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، وصدع الأمة الإسلامية التي لم شتاتها — قبل غدرهم — جهاد الرسول . .

أما الآن — إذ خمدت الفتنة — فالحجة هي الحجة ، والإعذار هو الإعذار ما من سبيل له إلى قلوب من قعدوا عنه وأفهامهم إلا أن يصرهم على أن يروا طريقه واضعاً سوياً لا تضل عنه البصائر ولا تزيع الأبصار . ليس الختل سبيله . ولا الملق ، ولا شراء النفوس سلعة رخيصة مبخوسة بذهب الإغراء . . . هو نفسه لم تقو الدنيا بنشبهها وزخرفها وسلطانها العريض الباذخ على ابتياعه ، فكيف إذن يتخذها أداة فتنة في كفه يلوح بها أمام أعين الآخرين ؟ . .

بغير هذا يقوم الإمام في الناس . وإنه ليدخل الكوفة غب ظفّره بأعدائه من جند الجمل فلا يفتنه عن مثله المستقيمة زهو الانتصار . إنما يغدو أشد تأييا على سطوة النفس ، أدنى تواضعا إلى الله كحاله منذ عرفته دنياه . . . يقبل عليه أنصاره ، وقد هيأوا له دار الإمرة بحاضرة ملكه الجديد ، يسألون :

« يا أمير المؤمنين ، أين تنزل — أنزل القصر ؟ » .

فيتواضع تواضعا هو قمة الترفع وأعلاء عندما يجيب :

« قصر الجبال لا تنزلونيه . . » .

ويأمر فينزل الرحبة لأنه أراد تجنب نفسه منازل الأبهة والاختيال وإن كانت

عصية بطبعها على الغرور منيعة عن بذاته . فحسبه أن يقيم بنجوة عن دار كانت قبله مقام فرقة من الطغاة أصحاب الجور . . .

لقد كانت الدنيا بعزها تافهة ، بغیضة لديه ، يدفعها دفعك الحية الرقطاء وإن استهوتك من جلدها الرقش زخارفه . ولم يكن مجهولاً عنه أنه طالما قضى الأليالي مسهداً يناجيه وفي نبراته تنطلق سحرته كنطق نسكه وتأنيبه : « هيهات ! غرى غرى . . لا حاجة لى فيك ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير . . » — كان أبداً يلقى بسماها بغير احتفال ، وإقبالها عليه بالإدبار والزراية . ولم يكن فحسب يحصن نفسه دون اشتهاها والتزوع إلى مغائتها ، بل ظل دائماً يحصن — كما بدا — جهرة الناس ، ويلقنهم ما وسعه بفعله وقوله كيف يكون كفاح النفس وجهاد شهواتها وإن جاء جهادهم هذا — فيما يحسب الغافلون — على حساب هيئته ، وهو صاحب الأمر فيهم ، ومن حق له عليهم أن يستقبلوه بمظاهر التجلة والهيبة ، وعلائم الإعظام والتوقير . ولكنه وفي مثله ، حريص على غرس أصولها عميقة فى القلوب ، ونشر فروعها عليه فى الضمائر حتى لشهده يغضب أشد غضب وأبلغه لأن فريقاً من دهاقين الأنبار قد ترجلوا له عن خيولهم ومشوا يشتدون بين يديه من إجلال . . . يقول لهم حينذاك وقد ساء ما رآه :

« ما هذا الذى صنعتموه ؟ . . . »

فيجيبه القوم وهم فى عجب من أمره إذ يشيهم الإنكار على ما حسبوه مجلبة رضائه وما هو دائماً مبتغى سواه :

« خلق منا نعظم به أمراءنا ، يا أمير المؤمنين . . »

عندئذ يأسى لهم من بعد زراية ، فجعلهم بحزنه حقيق ، ويقول باسطة لهم آفاق الهداية :

« والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم فى دنياكم ، وتشقون به فى آخرتكم . وما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأريح الدعة معها الأمان من النار . . . »

ما هو إذن بصاحب دنيا فيشتري من الناس نفوسهم بعرض الحياة كما يفعل غريمه نزيل دمشق المنحدر من أصلاب التجار . . . ولا طالب جاء من منصب

أو سلطان فيرائهم لينصروه ، إنما جأه خلقه ، وسلطانه حقه . وهو رجل دعوة مثلى ، بالحق تنادى وعلى الحق تقوم ، فليس يكرئه إلا أن تنعرف أساليبه إلى غير ما يؤمن به ويناضل عنه وحاشاه أن يحيد . . . أما الدنيا فليس لها عنده حساب . وليس يحب أن تكون ذات شأن في تفكير رجاله وأخلاقهم فيأدرهم بما يهون أمرها ويقمأ خطرها — يخاطبهم ، ويعظ الناس ، ومن فوق منبر الكوفة يوم دخلوها وفي ركبهم النصر . بعد أن ذهبت ربح جند البهيمة :

« . . . إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، والآخرة ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . . . »

غير أنه ، وإن كان قليل الاحتفال بهذه الدنيا ، سادرا عن مفاتها ، لا يزدهيه فيها نصر ولا يبطره جأه ، إلا أنه لم يكن الذى ينأى على الهضم فيدع حقه نهياً مضيقاً بين نوازع الهوى الضالة . لقد كان أدنى إلى صفعة وصبره على ضيقهم لو قد جاروا على حقوقه خاصة ، ولكنه فى حق الله ليس بالصافح الصابر . وما نكث الناكثون بيعته فحسب ، حين نكثوا ، وإنما اجتروا على حق الأمة ، وفرقوا الكرامة بعد اجتماع ، وثلموا فى دين الله ثلثة غدت عزيزة على الالتئام . وإذا كان قد ألقمهم بظلمهم السيف ، ومشى على هامهم بالنايا الحاصدة ، فأولئك الذين آمنوا بالقضية التى قام بنصرها ثم تقاعدوا عن تعزيزه لهم جزاء المتخلف الذى أوشك الوفى أن يسلكه مسلك المتعيف . . .

لذلك لا يبرح له المنبر حتى يهتف بأهل حاضرتة الجديدة :

« . . . إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال ، فأنا عليهم عاتب زار ، فاهجروهم

واسمعوهم ما يكرهون حتى يفتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة . . . »

إنما أراد أن ينصف فلا يأخذهم بتقاعسهم عنه قبل أن يعذر إليهم ، حتى يتبين

أعن غير عداوة كان ذلك القمود أم رضوا أن يكونوا مع الحوالم لحقت عليهم

قولة الله فى المناققين بالمدينة إبان عهد الرسول : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا

له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فتبطهم ، وقيل أقعدوا مع القاعدين . »

لكن الحية تملك نفس مالك بن حبيب اليربوعي ، فلا يكاد يسمع من الإمام هديه حتى يغضبه هذا الرفق بالحوالف ، فيقول :
« والله إنى لأرى المهجر وإسماع المكروه لهم قليلا . والله أنى أمرتنا لنقتلهم ! . . . »

فلا يرضى الإمام منه بأن يخرج غرضه عن طوره ، وعن السبيل المأمون ، فيرده عن غلوائه :

« سبحان الله يا مال . . . جزت المدى ، وعدوت الحد ، وأغرقت في النزاع . . . »

« يا أمير المؤمنين . لبعض الغشم أبلغ في أمور تنوبك من مهادة الأعادي . . . »

« ليس هكذا قضى الله يا مال . قتل النفس بالنفس ، فما بال الغشم ! . . . »
ثم لا تكاد الجموع أن تقبل عليه خافضة جناحها لسلطانه ، خاضعة له ، حتى يلتفت منهم إلى السادة الذين اعتزلوه يحبهم بعذله في صراحة مكشوفة :
« ما بظاً بكم عفى وأنتم أشرف قومكم ؟ . والله أنى كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور ! . . . والله أنى كان من شك في فضلى ومظاهرة على إنكم لمدو ؟ . . . »
ويردف العتاب بقول الله :

« . . . وإن منكم لمن ليبطئن . فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن ممكماً شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً . »

بهذا الأسلوب الواضح المستقيم كان يلقاهم ، غير باغ ولا عاد ، وهو مستمسك بحقه عليهم ، ملتزم حدود الشريعة العادلة السمحاء أدق التزام . وكانت صراحته ، على عتفها ، أفعل في النفوس من ختل معاوية غريعه ، أقدر على استعبادها من الدهان والمراعاة . ولعل في نبأ سليمان بن صرد ، وزياد بن أبيه ، وسيرتهما الماثورة في الوفاء له طوال النوازل التي ألت به هذه ، ما قد يؤيد لدينا منهاجه الواضح السليم . . .

يدخل عليه سليمان ، عب رجعتة من البصرة ، مسلما ، فيلومه الإمام :

« ارتبت وتربعت وراوغت . . . وقد كنت من أوثق الناس في نفسي ، وأسرعهم ، فيما أظن ، إلى نصرتي ، فما قمد بك عن أهل بيت نبيك ؟ وما زهدك في نصرهم ؟ »

فيعتذر له الصحابي الجليل ، ويحييه في استحياء يخالطه رجاء :

« يا أمير المؤمنين . لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبني بما مضى منها ، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي . . . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك . . . »

ثم يؤوده ما بدا من على من الإغضاء ، فيسرع إلى الحسن سبط الرسول يستجير به على غضبة أبيه :

« ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التيكيت والتوبيخ ؟ . . »

فيلقاه الحسن بالأمثور من رفقه وسجاجة طباعه :

« إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته . »

« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيه إلى أشباهي ، فلا تستغشوا عتي ، ولا تهموا نصيحتي . . »

عندئذ يريت الحسن كتف الرجل النادم الأسيف ، مهدئا روعه :

« رحمك الله ، ما أنت عندنا بالظنين . »

وكان سليمان حقا أبعد عن متناول الشبهات ، فبقى أبدا مخلصا للإمام طوال أيام عهده ، وفيما لذكراه من بعده إذ احتوته روضته ، حتى لقي مصرعه في الطلب بدم الحسين الشهيد .

وكذلك وفي لعل زياد . أو هو في القليل ظل له الولي المؤثر بأمره ، المزدجر بنواهيه إبان منى خلافته وصدرا من تملك معاوية — ولئن التزم في البدء الحيدة ، واحتجب في البصرة أثناء الصراع الذي لون تراها ، وحق عليه بهذا الاعتزال لحي الإمام ، فلقد لاذ عقيب الجمل بأبي السبطين حليل الزهراء ، وأخذ ينضح عنه وعن غايته في ولاء وغيره حتى أراد الله لهذه القصير أن يزول ، بل هو قد

ظفر من ثقة على في ذات اليوم الذي استعق فيه تأنيبه بما أوشك أن يفيله إمرة البصرة ، لولا أن اعتذر وقال :

« . . بل رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطعنوا ، وسأ كفيك ، وأشير عليه . . . »

وقد فعل . فكان المشير المخلص الناصح لوالدها ديونه عبد الله ابن عباس . وكانت له في سياسة الأمر فيها حكمة أدلى بها للأمير حقيقة بأن يصلح بها شأنها في مثل ذلك الوقت الذي أطلع الفتنة :

« اضرب عن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . . . »

ثم كان من بعد يدا على قوية القبضة ، أمسكت نواحي من دولته أن تنهار . لم يغره عن الوفاء له نسب يلحقه بأبي سفيان ويلصقه أخا بصاحب الشام غريم الإمام ، ولعل أبلغ ما قد يشير إلى المحاولات التي ظل معاوية يبذلها لقتل ابن أبيه ، والليل به عن الولاء الذي استنه لنفسه وارتضاء ، ذلك الكتاب الذي بعث به أمير المؤمنين ، بعد حين ، إلى زياد ، يبصره بخديعة أخيه :

« . . وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل بك ، ويستغل غريك ، فاحذره ، فإنما هو شيطان يأتي للمؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته . . . وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس . ونزغة من نزغات الشيطان . لا يثبت بها نسب . ولا يستعق بها إرث . والمتعلق بها كالواغل المدفع . والنوط المذبذب » .

لكن معاوية لم تقعد به وسائله عن الكيد للرجل الواضح الحجة . السوى السبيل . فإن له إلى النفوس مسارب ملتوية كأنها مسارب الأرقام والتعالب الرواغة . . . ولئن أعجزه أن يلقي غريمه بالحجة فليس يعجزه أن يلقاه بالخداع . ولئن بات كالحفاش يعشيه النور فبحاله إذن ظلمة الدميصة . ولئن عز عليه أن يستلحق زيادا وإن لوح له بالنسب الأصيل بعد الصلب المجهول . فهين أن

يستلحق غيره ويلقهم حول عروض دنياه كالتفاف الضباع بالجيفة . . . يسير هذا عليه ما بقيت النفوس كلفة بالآراب والمطامع ، وما أكثر من استجابوا سراً لنزغة واستعبدتهم شهوة الحقد ، أو سطوة للنصب ، أو فتنة الثراء .

حتى أولئك الذين اصطلوا بمحنة الجمل وودوا لوجنبوا نفوسهم محنة غيرها تالية ، لم يعدموه محركا لنفوسهم على الإمام . . . نجح ابن عامر من البصرة بشوبه وما يكاد فطوى في حشاه همه وقبع بيقعة بعيدة عن النضال يجتر فيها طموحه الذي التمع آونة من عمر الغابر في أفقه التماع السراب ، فلما قنع من كفاحه الفاشل بالأوبة ، وغتم البقيا ، وحسب الهدوء والأمن في حيناً أقام ، جاءه من معاوية كتاب يشيره ، ويوقظ في فؤاده أطماعه الجريحة ، ويحرك في نفسه جذوة الحقد التي أوشك أن يدفنها رماد الاندحار .

إذ ذاك كتب الرجل — الذي ما زالت في دخيلته بقية تحضه على أن يلوذ بالسلامة — يرد على كتاب الشيطان :

« . . إني أقعمت طلعة والزير إلى البصرة وأنا أقول : إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الزير ، وإن غدر الناس لم يغدر مروان . فغلبت عائشة ، ورجع الزير ، وقال مروان طلعة ، وذهب مالي بما فيه . . . وإن اليوم كأس ، والناس أشباه . . . »

فلم يوثس الجواب ذلك المفتون بالسلطان . الساعى إليه من كل سبيل وإن كان تمزيق الأمة وتفريق وحدتها ، بل عاود نزغته هذه المرة أبلغ وأشد فكتب يقول :

« . . أما بعد ، فإنك قلت أمر دينك قتلة عثمان ، وأنفقت مالك لابن الزير ، وآثرت المراق على الشام فأخرجك الله صفر اليدين ، ليس لك حظ الحق ولا ثأر القتل . . »

ويعض يدور بابن عامر ، يعالج جماعه ، ويهيج فيه ما خمد من نحوه الثأر ويوقع في فؤاده الحسرة على ما أتفق في فتنة الجمل من أموال ، حتى يلين لو سوسته . . . فإذا رآه ترك نجوته ، وشد نحوه الرجال ، وابتسم لنفسه راضياً عن أحاييله . . . أليس به قد استزاد أصبماً جديدة في مجموعة الأكف التي أعدها كي تجتذب له الشواء الشهى من بين النار ؟ . . .

غدت للمدينة بلدة الذكرى ! . . لم تعد موطن الحكم ، ولا مستقر الحياة السياسية التي أخذت تصبغ الدولة من طرفيها بأصباغ فيها اختلطت حمرة الدماء ! . . إنما باتت وأصبحت فإذا خطر لها قد ذهب ، وضحه الماضي ، وبقيت لها منه الصورة الباهتة التي تتحدث سماتها البوادي بدورها القديم في تاريخ الإسلام .

سبعة أشهر من التنافر والاضطراب قضت تماما على مكانة البلدة الطيبة ، وخرجت بها عن معترك الأحداث التي مضت تتعرف بمصير الأمة إلى خلاف ما رسمت لها رسالة الرسول . وإلى غير ما أملت نفوس قوم رفعوا في السنين الحوالي ألوية الكفاح والجهاد . وكان الدين الناشئ القويم يأسى ، والقلوب الخالصة لله تقطر بالحزن خشية من مستقبل غامض يهم أن يقودهم إلى التناحر . غير أنه قدر جرى على بلاد السلام لم يكن له من مغير ، ومصير مقضى به قبل أن تتجمع في الأفق مقدماته وأسبابه ، الله بالغ به أمره . ومنذ اللحظة التي أمسك فيها عبد الله بن سلام بعنان دابة الإمام يود أن يرده عن الخروج من حاضرة محمد ، كان ذلك المصير قد استوى قائما على قدميه ، وراح يدب على صفحات التاريخ ديب الدابة على صفحة الرمال . فما انثنى على ، بعد مسيره في أعقاب جند عائشة ، إلى مدينة الرسول . ولا عادت البلدة ثانية إلى ما كان لها من المجد ومن القوامة السياسية على أمصار الإسلام . ولكنها تخلفت عن مكان الصدارة ، ونزلت مقهورة عن دورها السالف إلى سواها ثم قبعت كسيرة في قتامة الظلام ! . .

وكانت الكوفة هي الوارثة . برزت إلى ضياء الحوادث ذات يوم من الشتاء ندى الريح . وتسلمت صوايح الحكم من الحاضرة الأولى ، التي احتضنت النبوة ، وآوت شرودها ، وأمنتها من خوف ، ثم شهدت من بعد انبعاث المستضعفين من كتائب الله ، وانتشارهم في الآفاق على الحواضر والبيد ، ذوى أيدٍ شديدة وفي أكفهم مشاعل النور . . . الكوفة أخذت عن أمها الهادية الراية . وقامت على الأثر

بجهد لتترسم خطاها في سبيل نصرة الدين . ولقد أبى عليها الطالع أن ينفسح أمامها الزمان ويعتد به سلطانها جيلا تستطيع خلاله أن تمكن في القلوب لبذرة الهداية . . . لكنها ، على أى حال ، قد وسعها في فترة سيادتها القصيرة ، كليلة العصف ، أن تفرق الهدى من الضلال . وما أجله من سفر سطرته في الحق أصابع الإمام حينما أقام فيها سلطانه . وما كان أنضر عهده من أيام لو أدخلنا في حساب حكمنا المبادئ القويمة التي اختطها بتلك المدينة لتكون شريعة ، بها تستطب القلوب وتستنير الأفهام .

غير أن الهوى خوان ، فشقت بدائها الضمائر . . . أم تستقيم الحياة على محجة سوية وإن للبشر لأنفساً تحيد وتميل ، وأعيناً تمشو عن السبيل ؟ ... بل الناس استندوا طريق الدنيا فأقبلوا عليها ، واستطالوا طريق الآخرة فأدبروا عنها ، وبشس لهم ما فضلوا من مقام ... كانت للشيطان في قلوبهم حصون وقلاع ، وبينهم موال وأتباع ... وكانت تلك الزمر من حشوده وجنوده لا تربض لحسب بالكمال ، إنما في حيثما اختلبت اللب غاية ذاتية فطغت بصاحبها على قانون الأخلاق . لكن الشام — فيما أحسب — كانت حينذاك أرضاً وبيئة يموت فيها الإيثار ... أما الأثرة فلها هناك طلع منضود وظل ممدود . فلقد دعا معاوية فيها بدعوته التي حركت في النفوس شرها بإثارة شراحتها ، وفتحت أمام العيون آفاقاً وسيعة من الدنيا كلها متاع .

في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية وقفت الكوفة تنضج جهد الطاقة عن تراث النبي ، الذي انتهى إلى ابن عمه ، فلا تدافع — إذ تنضج — عن سلطة الإمام قدر دفاعها عن مبادئ الإسلام . كفاحها في حقيقته لم يكن يستهدف بسط سطوة زمنية بذاتها ، ولا فرض حاكم بعينه على البلاد والعباد ، بل قد كان كفاحاً خالصاً لتقويم الطباع وكبح جماح الأطماع . وفي خلال الأعوام القليلة التي تسنمت فيها منصة الحكم سارت دائماً على سننها لا تحيد ...

كانت نصيرة الفطرة السليمة والخلائق المستقيمة ، فمضت قدما تحمل البشر على حق الله . وكان الصراع العنيف الناشب بين دمشق وبينها ، حقيق بأن جلى تيه المعارفين المدول ، صراعاً بين عماية الظلمة وصفاء النور ... كانت

قصبة الشام ، ومن ورائها أميرها العاتى ، تحالف المادة وكانت الكوفة تناصر الروح . ولن شاء أن يستقضى ما شاء فيستوثق كيف كانت سياسة الإمام البادية للعيون ، تلتزم الصراط ، وتستهدى في الكفاح المرير بالمثالية ، بينما غريعه كان يغوى ويدس ويبيت ، حتى أقام له سطوة على أكتاف مرده الظلام ...

بنفس الأسلوب الذى بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة مضى ابن عمه يبنى فى الكوفة . فلا مخاتلة ولا إغراء . ولا هوادة فى حق أو مساومة فى باطل ... لا انحراف قط عن الحطة المثلى التى اختطها الله فى كتابه سبيلا للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء . فمن اليوم الذى انتهى فيه إليه أمر أمته كان الإمام فى قرارته يشعر بأن عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذى أرادها عليه الرسول . ولو قد خلى له ليختار لآثر النأى عن تقلد الخلافة زهادة ، لكنه رأى قومه يباب فتنة ، وقد ثابوا إليه ، وأجمعوا إجماعهم فالك على تنصيبه فكان أليق به أن يبادر بغوثه عسى أن يردمهم عن اقتحام المزالق . ولو تركت له الخيرة بعد استخلافه لظل جاراً لمثوى محمد وليه وهاديه . غير أنها أحداث جرت بغير ما يهوى قلبه فأخرجته عن مقامه الحبيب ، ومضت به ، تخط وإياه تاريخاً جديداً لقصة جديدة هو فى حياة البلاد أقباس نور ...

أما وقد تبعنا الإمام عبر الصحراء ، من الحاضرة الإسلامية الأولى صعدا إلى مستقره بالرحبة ، بعد انقضاء فتنة الجمل وتوقف النزاع للسلاح إلى حين ، فحذر بنا تبين الدوافع التى جعلت الكوفة أثيرة لديه حتى اجتباها مركزاً لدولته دون غيرها من الدائن ... ألأنها موئل عزيز لأوليائه ؟ ... أم لتوسط موقعها فى رقعة بقاع الإسلام ؟ أم هى أدنى بلدة فى الأمصار من دمشق فلا نخفى ليه فيها خافية مما يبىيت له معاوية بالشام ؟ ...

حين نكر بالزمن خطوة إلى الوراء ، بضعة أعوام ، نرى ثمة عاملاً يتبدى فى ضياء الحوادث المضطربة حينذاك ثم يسبح مناضلاً حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمعة كالمهشم فيشمل فيها النار ... إن عزة الكوفة بأنصارها ، وتوسط منزلها ، ودنوها من موطن دسيمة الأموى الأول ، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر ، ذات أثر فى اجتباؤها حاضرة ، ولكنها لا تحيط بكل

الأسباب . إنما نجد ذلك العامل الذي أجمع الفتنة على عثمان في ذيل عهده كان هو صاحب اليد الطولى في الخيرة ، وبريسته وحدها تلون مصير المدينة ، وتلون مصير البلدة التي قامت اليوم تتزعّم بلاد الإسلام ، وتلون من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة .

في الكوفة حينذاك بزغ فجر القوميات . . . بأرضها انفرست بذرتها ، ثم نمت ، ثم اشتد عودها واستطال حق استقضت الخليفة الشيخ أجله . ولم تكن في حقيقتها فتنة أريد من ورائها تبديل حاكم بحاكم ، إنما قد كانت ثورة على وضع من الأوضاع أممن في تأييده أمير المؤمنين عثمان وغدا جماع سياسته في الأمصار فأبّت البلدة أن تخفض له الجناح . . . ومن الإنصاف الذي تجار حوادث تلك الفترة بمقوماته ، أن نقرر خطل تلك السياسة إذ هي لا تنهض على عمد وطيدة من الدين . كلا ! بل كانت كذلك لا تتفق ولب الرسالة المحمدية التي نادى نداءها لنسلك البشرية كلها في وحدة عامة ، المنطوقون فيها سواء .

هذه المساواة التي انبنى عليها صرح الإسلام واجتذبت إليه الشعوب على اختلاف العناصر واللغات والألوان ، لم تجد في عثمان من يعلى لها ، ويمكن لسطوتها على النفوس . إنما شهدته ينحرف إلى مثل المصيبة الجاهلية الأولى فيؤثر من الأمة فريقاً دون البقية ، هاديه في إثارة : قوميته الخاصة ، ثم قبلها أو بعدها قرابة الأقربين . ولقد تلمس له العذر حين نحسبه أرادها دولة عربية خالصة أقدر على نشر الإسلام ، في دور تأسيسه ، أشد غيرة عليه من بقية الشعوب . ولكننا إذ نتبع سياسته لا نلبث أن نراها سياسة قبلية تجتبي قريشاً ثم تختص منها الفرع الأموي الذي ينتهي إليه نسبه فتؤثر رجاله ، دون غيرهم من العرب ، بالنفوذ والسيادة . ولو قد أحسن الشيخ انتقاء عماله من بين ذويه ، لكان هذا أدنى إلى تجنبه مصيره . لكنهم كانوا فتية غير ذوي عرس وخبرة فأساءوا السيرة في الأطراف التي تولوها وهم يرون في إمارتهم ميراثاً خاصاً يديرونه كيف يشاءون . ولسنا هنا بسبيل حصر ما أتوه من أخطاء فنعدد لهم ما ارتكبوه ، لا ولا يعنيانا أن نعرض لهم عرضاً يظهر شخصياتهم المتهافة المريضة ، ولكننا نجزيء من أمراضهم النفسية بذلك الصلف الذي حركته فيهم

دماؤهم الحريقة وأحسابهم الرفيعة فمضوا به يستعملون على رعاياهم ، ويرمقونهم بعين السيد رmq عبده الرقيق .

غير أن الذين أشربت قلوبهم مبادئ الإسلام وعرفوا أن نواتها المساواة بين أبناء بلاده كافة ، أبوا أن يطأطأوا الجباه لصلف الولاة . فلئن كانت قريش في القديم أعرق العرب وأعلاها شرفاً فلقد غدت وإياهم بمنزلة سواء أمام الشريعة . ولئن حسبت العرب لأنفسها قدمة على غيرها في الدين فهي بانتشاره باتت شعباً من بين شعوبه ، نأت أو دنت منازل هذه الشعوب من تخوم الجزيرة . أولئك وهؤلاء أضحوا طائفة من الشعب الإسلامي الكبير الذي لم تعد تفصل بين عناصره العديدة فوارق جنسية أو حدود إقليمية — عضواً في كيانه ، ولبنة في بنيانه ، لا يتفردون ولا تتفرد زعيمة حسبهم قريش بفريضة في الدين أو مزية مما كتب ربهم على المجموع

الإسلام بث إذن روح المساواة في نفوس أبنائه مؤلفاً بها بين العرب والأعاجم وإن اختلف اللون من اللون وتباين العنصر عن العنصر . غير أن السياسة العثمانية — فيما يبدو — لم ترقها المساواة فسأرت هواها ، ومضت شوطها وهي تحمل فريقاً من أبناء الأمة على فريق وتختصم جهاراً وخفية بأكرم الأنصبة والمقادير . وكانت قريش عامة ذات الخطوة الأولى عند التقديم ، وآثرها به وأسبقها إليه أهل بيت الخليفة حين توزع المناصب أو تقطع الإقطاعيات وتوهب الهبات ، يجتزئون بالنفوذ والمال . . . فلم يكن عجباً — وهذه هي الحال — أن تنشأ في البلاد طبقة جديدة تحصن أفرادها بالثروة والحسب والسطوة فغدوا ذوى قوة عاتية في تسيير أقدار الدولة وصيغ مصيرها بالصيغة التي يشتهون .

فلعل امراً يذكر ها هنا طبقة نظيرة لهذه سبقتها إلى الحياة ، وبرزت بالمجتمع الإسلامي في عنقوان دولة ابن الخطاب . تلك كانت لا ريب تصلها بلاقتها سمة واحدة من التشابه ثم تفصلها عنها سمات من الخلاف . ففي عهد عمر سار الرجل على سنة في الأقياء خالف بها المأثور عن رسول الله وعن خليفته إذ أجراها على غير سوية وقسمها بين الناس أنصبة مختلفة المقادير . وكان من أثر هذه التفرقة أن ظهرت على الزمن — طبقة باذخة الثراء في المسلمين تسكنز المال ،

أدى وجودها إلى تدمير البقية الفقيرة . لكن الحزم العمرى عرف كيف يكبح أولئك السراة — وكلهم من الصفوة والسباقين إلى الإسلام — عن استرقاق الأنفس بجاه المال ، فحبسهم بالمدينة إلى جواره ، لا ينتشرون في الأمصار ، ولا يحركون شيئاً في سياسة الدولة التي امتلاك أعتها في قبضة كفه القوية . . . أما عثمان فلم يكن له حزم سلفه ، ولم يرع في منح المال ما كان ذلك يرعاه . ثم راح أيضاً يوزع إمارة الولايات على ذويه ، ومقياس بذله المال واستعماله العمال هو القربى ، دون الحاجة ودون القدرة على الاضطلاع بالأمور . . .

هكذا نشأت في الدولة طبقة نزية حسية في أيديها السلطان . فلم يكن مما يخالف الطبيعة البشرية أن ينظر أفرادها إلى عامة الأمة من علياء برجمهم الاجتماعي نظرة الصلف والتكبر ، فهم أصحاب الثروات ، ذوو الأحساب ، مالكو الرقاب . . . ولم يكن أيضاً مما يخالف الطبيعة البشرية أن يتبرم الناس باستعلائهم ، سواء في التبرم من غضب لله إذ أهدروا المساواة ، ومن غضب لنفسه عن حسد لهم وغيره مما انفردوا به من ألوان الجاه . وكانت الشعوب المغلوبة أسبق غيرها إلى استشعار الضيق بصلف هذه الطبقة ، المتمثلة حيالها في أمراء عثمان ، لأنها أبت لماضيها التالذي الأجداد ، أن يطأه كبر عصبية من الحكام تنتهى — في حساب الحضارة — لشعب كان حق أمسه القريب بغير تاريخ . . .

« الأرستقراطية القرشية » هي التي كانت وحدها للقصودة بالتدمير حين الثورة على عثمان . في الأمصار اضطرم عليها السخط والتذمر بنفوس الموالي والأعراب سواء بسواء . ومن الكوفة طارت شرارة اللهب . وبالمدينة تهاوى الحطام . . . ولعلنا هنا في غير حاجة إلى معارضة تبيان غضبة الأشر وصعصعة ابن صوحان وأصحابهما على سعيد بن العاص ، ليلة ملكه غروره ، وأخذته العزة بحسبه ، فادعى سواد العراق قنية خالصة لقريش من دون سكانه الأصليين ، وفاتحميه ، والنازحين إليه من قبائل العرب غب دخوله في الإسلام . كذلك لا نرانا بحاجة إلى تكرار عرض الحوادث التي أدت لاستشراء الثورة في بقية أرجاء الدولة وانتهت بهدم سلطان عثمان . إنما يكفي الإقرار لهذه الحركة بالنجاح وبلوغها مارنت إليه . فلقد وسعها اقتلاع الطبقة الحسية الحاكمة ، وقشرها

من نفوذها ، وابتزازها ما كان أضيق عليها جورا من الهبات والإقطاعات
ثم رده إلى بيت المال حقاً لعامة المسلمين . . .

بالانتصار لحق العامة بدأ عهد الإمام . . . كان على وليهم ، تتجاوب في فؤاده
أصداء مشاعرهم . وكان هو الرجل الذي اختاروه — حثف رغبته — ليصلح
في الأمة ما أفسد سلفه ، ويميد الأمور فيها على النسق الذي رسم الله ووضع
أساسه الرسول . فليس إذن يستغرب أن ترى الطبقة المستعملة صوالحها في غير
سبيله ، فتتحد على حربها عساها تستعيد نفوذها الذي غلبتها عليه عامة الأمة .
أو تتجيش حشوداً وجنوداً تظاهر أيعا رجل وقف منه بموقف مناجزة . وليس
أيضاً بمعجب أن تصطف خلفها قريش تنضح معها عن عزتها القبلية ومزاياها
الاجتماعية التي أهدرتها سياسة الإمام الهادفة إلى تحقيق المساواة التامة بين المدلين
بالأحساب وبين سواهم من بقية العناصر في شعوب الإسلام .

وكانت المدينة — وهي حينذاك موطن السادة — حرة بأن تخلص ثانية
لأهلها حرة ، حين تنحسر عنها أمواج الوفود القادمة عليها من الأمصار إبان فتنة
عثمان ، وأفواج العبيد والأعراب الذين ظاهروهم على تدمير سلطانه . فلم تكن
إذن ، وهذه حالها ، بالقي تصلح عنواناً معبراً عن المادة التي يحتويها سفر العهد
الجديد بين غلافه . . . ولئن كنا شهدنا أشرافها يبادرون إلى الإدلاء بالبيعة
إلى الإمام ، فلقد شهدنا منهم ، حين قرت الأمور وارتحل عنها الثوار ، فريقاً
سارع إلى نقض البيعة ونكث الأيمان ثم لم يكفه إلا أن يجلب على أمير المؤمنين
بالخيل والرجال . . . وشهدنا كذلك فرقة تذاوت فترة بين الإباء وبين الإقرار
عسى أن تسفر لها غيوم الأحداث عن الجانب الذي تستطيع أن تنعاز إليه
وهي في أمان من الوبال . . . أولئك وهؤلاء قد شهدنا ، ثم من بعدهم غيرهم :
بقايا الأرستقراطية القرشية ، يتسربون تباعاً من مكائهم ، تسترا وخفية ،
فيرحون دورهم بالمدينة وسواها من بلدان الجزيرة ، يلحقوا بمعاوية غريم على
وحليفهم الطبيعي . لعلهم بمظاهرتهم يستعيدون مكانهم التي لا رجعة لها إلا في
التفاوت بين الطبقات . . .

الكوفة إذن هي العنوان . . . في اتخاذها حاضرة جديدة للعهد القائم

الجديد بشير لأهلها خاصة ، ثم بعدهم للساخطين من أعاجم وأعراب ، الذين انبسطت لهم رقاع البلاد المتقطعة من ملك فارس والروم . . . أم لا والإمام لم تقم له دولة إلا على كواهلهم ، ولم يعز عندهم مكانه إلا لأنه أقدر الناس على الرجوع بسياسة الحكم إلى ذات الأسس السليمة التي وضعها الدين وبني عليها الرسول ؟ . . . الآن ، وهو قائم على أمته ، كفيل بإنفاذ شريعة العدالة التي أمامها يستوى الكافة ، فلا تميز بين فرد وفرد ، أو عنصر وعنصر . لا حياة في المجتمع الإسلامي لهذا التفاوت بين الطبقات الذي ابتدعته الأحساب والثروات والنازل وأضرابها من مزايا مادية . إنما ينبغي أن يقاس التفاوت بينها بمقياس روحي : هو حرصها على التشبث بالدين ، وسبقها إلى التزام تعاليمه . . . أجل . في سيادة الكوفة بشير . وفيه أيضاً نذير رافع الصوت ، حرى به أن يقرع أسماع الأشراف والسادة ويدوى في آذانهم دويه ، معلنا لهم في كل لحظة وحين أن الله قدير أن يذهب ريمهم ، ويورث غيرهم عزتهم ما بقوا هكذا سادرين في انحرافهم مع الأهواء عن سبيل هديه القويم . . .

هذه بعض مشاعر الكثرة من المسلمين حين تسنم على الحكم في دولتهم ، وحين طفت الكوفة على صفحتها ورسبت بلمة الرسول في القاع . . . وهي تحت التأمل حرية بأن تصبح قوة معنوية لدولة الإمام ، إلى جوار القوة المادية ، التي آزرته وسندت سلطانه الشعبي ، المتمثلة في أهل الكوفة الغير على حقوقهم ، وفي أبناء الشعوب الأخرى المستلحقة بالدولة حينذاك من أعاجم وأعراب . فلقد كان على يكون وحده الرجل الذي فهم هذه المشاعر . وهي بعد تصطبخت في نفوس أصحابها قبل الاتجار ، فكان يرى دائماً أن تتخذ سبيلها إلى الحياة لأنها جديرة ، في نطاق ما رسم الله ، بأن تتنفس وتعيش . لكن غيره أغمضوا العيون . . . وها هو السخط انبعث كطوفان . . . وها هو الدوى أقض مضاجع السادة النيام . . . وها هي سنة الله تحقق عليهم كما حقت قبلهم على من سلف من بني العصور القوا بر الدين جانبوا العدل وآثروا الجور . . . أفقد حسبت قريش أن ربها مستعذب لها وحدها سنة تغاير ناموسه الأزلي الذي لا يقبل التحول ؟ . . . إنما غرها الكبر وخدعتها الخيلاء فتعلقت من دنياها بمثل السراب .

أما أمير المؤمنين فأعرف بما تبطن وبما تظهر الحياة ، لا يستهويه منها طلاء ولا يفتنه زخرف إن عبرة الماضي تعيش دأماً في ذهنه ، وحكمة الأعصر تتدفق عن لسانه تدفقها في منطق الحوادث المتواترة على البشرية طوال الأزمان يجيئه بالكوفة أهالي السواد فيخلو منهم إلى « نرسا » يستفسره بعض أنباء قومه : « أخبرني عن ملوك فارس ، كم كانوا ؟ . . . »

فيجيبه الفارسي :

« كانت ملوكهم في هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكاً . . . »
« فكيف كانت سيرتهم ؟ . . . »

« ما زالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة ، حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال ، وخالف أولينا ، وأخرب الذي للناس ، وعمر الذي له ، واستخف بالناس ، فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا عليه فقتلوه . . . »
وعند ذلك يقول الإمام :

« يا نرسا . . . إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق . وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله . . . »

وكذلك هذه تذكرة لمن يعي ، تتحدث بها الشواهد التاريخية ، وينطق التنزيل . ثم لا يزال العالم يسير على السنن الواضح ما لزم حكمه الخطوة المثلى التي رسم الله بعداد العدل لسياسة الرعية .

لكن النفوس قلب ، والقلوب غير . ما يدعها الهوى في مستقرها إلا كطرفة العين ثم يميل بها مرة إلى يمين وأخرى إلى شمال . ولا تكاد الضمائر تثبت أمام إغرائه حتى تأخذها أمواجه وتتقاذفها أواذيه . وهانحن أولاء قد شهدنا الإمام ، من أول يوم سلطانه ، تضطرب حوله الأهواء كأنواء ، فتدفع بسفينه بعيداً عن البليدة التي رحبت بهجرة الرسول ، في البدء ليقهر شراذم الجمل الخارجة عليه ، الناكثة لمهد الله ويردها إلى الطاعة ، ومن بعد ليقمع شهوات صاحب الشام ويلزمه النبي . إلى كلمة الجماعة . . . هانحن تتبعه على أودية الرمل ، وفي مغاور البادية الفسيحة كالتبه ، وهو يسل سيفه آونة بالنقمة ، ويحرك لسانه مراراً بالحكمة ، ليأخذ النفوس الشاردة بتلك السنة الإلهية التي تنظم العلاقة بين الحاكم

وبين المحكوم ، وتضمن للبشرية — شعوباً وأفراداً — عدالة مثلى لا ينتهب فيها الحق ولا تستباح الكرامة . . إنه ليضى . . قدما يسير غير آبه — ففى الله مسيرة ، وإليه مصيره — يدوس الصعاب ويطأ الأوصاب . . إنه ليدع وراءه أسوار بلدة طيبة ، عزيزة الذكريات ، خلع فيها إهاب الشباب ، وروى تراب التخوم حولها من جراحه ، واستودع ثراها الرطيب أحب صفوة إلى قلبه : الرسول والزهراء . . إنه لينطلق عنها فى هجرة ، كما أتاها فى هجرة ، ليبدأ نضاله عن حق الله ، وتحرير الناس من ربة الناس — ينطلق شوطه العسير القصير ، فى فؤاده يقين ، وبروحه هدوء الإيمان ، فلا يزال بقية عمره بين مد الحوادث وجزرها حتى يعانق السلام بدنه وهو نازح ، نأى الوطن ، غريب الديار . .

٣

أنى له أن ينسى عهده . عهده الذى قطعه أمام الله وإنه يومها لطفل أبى جبينه أن يعنو للباطل المتمثل فى أوثنان تخلفت من حجارة منحوتة ؟ . . الحق أبداً ، والحق وحده غايته ، وإن مشى إليه فوق الأشواك ، ومد نحوه حبلا من روحه ، وسبح على نهر من عرقه الناضح ودمه للسفوك . . .

ولقد وخزه الشوك ، وأذاب من روحه ليهدى المصاة . وبلل بالدماء والعرق الجبل والقاع . . . غيره كان حرياً بأن يتلقى الأمور بالدعة والسكينة ، وبالرضا والطمأنينة ، فقد انبسطت تحته الدنيا ، كما عرفها عالم تلك الأيام ، إلا بقاها قليلة كانت وشيكة أن تطويها أعلامه . . . إن ملكه قد ضرب بين قرنى الشمس . انتغرق فارس ، ولامس الهند والصين . . . هز تاج الروم ، مطوحاً بأهله عبر الصحارى الإفريقية الوسيبة ، يقتلهم من شواطئ الأبيض فيها إلى مياه الأزرق فى غربها البعيد . . . تاخم شمالاً بلاد الجليد وتاخم جنوباً مواطن السود . . . ذهبت الأكاسرة ، وذلت القياصرة ، وغدت الدنيا على اتساعها تضيق عن همه قومه الفاتحين . . . لكنه هو لا يقنع ، ولا يرضى بهذا التراث الذى انتهى إليه عن أسلافه يقتعد عرشه وهو مستعز قرير . ليست العزة فى حساب رأيه بالرقعة

المحدودة ، المحدودة بالجهات ، المحدودة بالأقاليم . . . ليست بكثرة الشعوب والأجناس التي تخضع لهيبة الحاكم ، المنعكسة على أشفار السيوف وأمنة الصوارم . ليست بتلك الخيرات الدافقة على حاضرة الدولة . المبتزة أو المجلوبة من البلاد المغلوبة . . . هذه كلها مظاهر يراها غثة ، تبدى القوة لعين الخدوع ، وما هي بقوة ، وتبدى العزة وقد يكون حشوها هباء . . . إنما المدة أن تمتنع النفوس على الهوى ، وتمز عن مناله . العزة أن تتحصن دون نزغه وزيعه . أن تتحرر الأفكار من إसार الوسوس . أن تتطهر الأرواح من أدران المادة . أن تلفظ القلوب مضغة الشهوة . وحينما يجد الحق طريقه للأفهام والأحلام ، وتسبح له نواة في عروق البشر من رعيته تلون دماءهم ، وتنمو وتثمر — عندئذ يكون الإسلام قد حقق مبادئه ، وامتلك أعنة القوة ، فعدا حريا بأن تنتشر ألويته على الآفاق ، ويسير شوطه إلى الأمام .

هو عليم بأن دينه لا يقوم على غزو البقاع وامتلاك الرقاب ، وإنما على غزو الأنفس وامتلاك الألباب . والرقعة التي تخضع له لا تقاس بالأرض التي تطوؤها جيوشه ، بل بمقدار من أشربت أرواحهم تعاليمه . وما كانت قط غاية هدف إليها الإسلام أن ينشر على العالم بأقطاره نفوذاً سياسياً من لون خاص . ولا أن يلتئم طائفة من الدويلات في دولة ذات حدود تستمد هيبتها مما تذخر من عتاد وتحشد من كتائب وأجناد . . . « الإيمان الأول » هو وحده السلاح القاطع الذي يستطيع المسلمون به بسط سلطانهم على الدنيا الضالة ، لأنه سلاح من عند الله يضل ماعداه . الإيمان الذي غرس محمد — عهد تبشيره بالرسالة السماوية — نواته في قلوب حفنة من المستضعفين والعبدان فأعادها نشأة جديدة ، ذات بأس شديد على ذوى الأيد والجبروت من أصحاب المروش والصواالج . تمشى على ملكهم مشى الإعصار المدمر والطوفان الجائح . . . كانت هذه قوة روح تنحصر أمام مداه قوى المادة الصماء ، وتذل ، وتلاشى حتى كأن لم يكن لها قبل التلاقى كيان . لكنها اليوم ليست كالأمس . قُتِرَت خبايا ضرامها : بردت جذوتها أو تسكاد فلم تنقد في الجوانح اتقادها القديم . ولئن ظل علم الإسلام يرتفع على ساريته ، وبقي حكمه يمتد فيشمل بقاعاً من بعد بقاع ، فتلك بقية من القوة الدافقة التي

ابتعثها ذلك الإيمان ما زالت تحرك دولابه ، وتسدد ركابه حتى يشين لها أن تفنى — بعد جيل ، أو حقبة ، أو قرون — لولا أن تبادر النفوس الغافلة فتشوب

على مثل هذا النحو كان على يفهم واجبه الذي لزم عنقه منذ ولى الأمور . وفى ضوئه كان يلوح المصير الذى ينتظر أمته وينتظر معها البشرية . ومن عظات الغابر السحيق والماضى الدانى راح يقبس الأمثال فتلهمه ليكافح حتى لا تغدو عقبي الإسلام عبرة منذرة لمن أراد تلسم العبرة وإلقاء سمعه للنذير . . . فلم يكن للعبث ما سلف من جهاد الرسول . وأغير هذه الغاية المخوفة كان تبشيره . وإن الفرد ليذهب ، وإن العروش لتتهاوى ، وإن الدول لتضمحل أو تتقلص عنها ظلال الوجود ثم لا يبقى بعد هذا كله وغيره من العروض والأباطيل إلى شيء ينقرد وحده بالبقاء فى الحياة كالدهر هو الحق الذى لا يفنى له جوهر ولا يزول . . .

فلتمتد إذن إلى سلطانه يد الأهواء تهم أن تنوشه من كل ناحية . . . ليتربص به المتربصون . . . ليقعدوا له كل حرص ومدخل . لكنه لن يستسلم . لن تهين روحه قوى . لن يشتري منهم أمنه وراحته بمطية يلقيها إلى شهواتهم كالعظمة إلى الكلاب الجياع ! . . . لقد كان أدنى إلى هدوء باله واستقرار السلام فى أطراف دولته لو رضى لهم بإمرة هذا المصر أو ذلك القطر يسودونه وتبقى لهم به بعض مظاهر الكبرياء والعزة وبعض علائم النفوذ التى تسيل لها نفوسهم تحرقاً ولهفة . غير أنه يأبى الهدوء الذى يأتيه على أنقاض مبادئه وأشلاء المثل العظيمة التى يؤمن بها حق الإيمان . ليس فى خلقه أن تثبت تحت قدميه رقعة أرض يظلها حكمه بينما تتعطم قواعد الحق وتهاوى فى روحه . وإذا كان معاوية يكاد يشنها عليه حرباً شعواء وهو يظهر للناس بداره إلى النار لدم عثمان ، فإنه ليسر الحرص على استبقاء ما فى يديه من نفوذ ، وليوشك أن ينسى ولاية الدم لو لوح الإمام له بولاية الشام . . .

لكنه تلويح محال . ومنطق للناس من ناقدى السياسة العلوية يعوزه الاستناد إلى القواعد الخلقية وإن وجدت له من قواعد الرأى بضعة أسناد . . . فما يحق أن يلام من يدرأ عن اللب والجوهر قبل العرض والمظهر . وكان الحق هو الأصل . المبادئ المثلثى التى سنّها الإسلام للبشر شرعة لعالم مثالى هى الجذر

والبلاد التي تنضوي تحت حكمه هي الفروع . ولن يضير الدوحة أن ينقص منها غصن أو يتكسر فئ ، وإنما يضير ويأتى عليها من القواعد أن يدب الفساد إلى جذورها الفائرة في الأعماق

وكان الإمام على بيته من الأمر الذي أخذ نفسه بإقراره ، فصاب فيه واشتد حتى العناد . وقد كان كفيلاً بمعاوية ، قديراً على أن يخضعه وأضرابه ، ويسوقهم إلى الانصياع لهديه المنبثق من روح الإسلام ، وإلى الامتثال للقيم الإنسانية العليا التي دعت إليها تعاليمه . ولكنه كان كذلك أبعد الناس عن الغرور والاعتزاز بما في يديه من قوة ، فللزم من أحياناً جموح ، وللظروف الدنيوية بدوات قد تخفض العزيم كما قد ترفع الدليل . وهو أمام عواملها المجهولة ، المتسربلة بالغيب . التي لا يكاد يدرها حسابان الحاسب ، يرى « ربما » حرية أن تتخايل أمام عيذه . . . فمن يدرى ؟ . . . ربما فشيت في القوم فاشية من حب الدنيا فقدموا الدعة وأخروا الجهاد ؟ . . . لعل أن يحوزهم باطل . . . قد يستأسرهم من معاوية سرفه وترفه فتمتنع الشام على جنود الإمام . . . عندئذ لا يعدم على عاذلاً يعذله لأنه لم يهيء لنفسه أسباب السلامة ولم يرض بمهادنة تبقى الدولة بها سليمة ، وتظل دمشق ، وعاملها المشاق ، تحت ظله . . . أما هو فقد وطئ على العذل نفسه ، ووطنها على أسوأ ما قد تنجاب عنه الأحداث من فروض وأحداش . وإذا كتب لابن أبي سفيان وأشباهه أن تكون لهم في دولة الإمام إمرة فلتسكن إذن حين ينبو سيف على وتقطع أسبابه ، ولا يقولن بعدها امرؤ عنه إنه خشى على سلطانه فداهن وهادن ، وأقام ركناً لدنياء على أنقاض مبادئه ، وساوهم في حق الله وحقوق الناس

نظائر هذه الخواطر وأمثالها كانت دائماً تعتل بخلد على ، لا تريم لحظة عن باله ، ولا يكف ذهنه عن لوكمها كلما تبدي لناصح أن « ينصح » أو لماقل أن « يشير » . فأما غدا النصيح والمشورة مضغة في أفواه الذين تخدعهم الظواهر ولا تهديهم البصيرة . وطالما انبرى للإمام منهم من أهاب به أن يبقى ولاية عثمان على ما في أيديهم فيبقى بهذا على كيان سلطانه ، ويعنع عنه الانتفاض في الأقاليم النائية بعض النأي عن كفه وسيفه . بهذا نصحته طائفة غيب البيعة وهو بالمدينة ،

وبمثلله أشار عليه المغيرة بن شعبة : أن يشبتهم على أعمالهم ، أو يشبت — في القليل — منهم معاوية ، حتى تأتيه بيعتهم فيمزل بعد هذا من شاء . . . حتى ابن عباس أيضا كان ذات يوم من هذه الطائفة الناصحة ، التي ترى الدهاء في المداجاة إلى أن ينفسح الوقت للحسم ولقاء الأمور بغير الهوادة كأما الوقت ما آن . وكم من قبله رأوا رأيهم ، وكم بعده من خلاء الإمام . . . لكنه رد هذا « النصيح » وارتفع بذهنه عن استيعابه . . . فما هو إلا سياسة المتردد المستريب في أساليبه ، الأخذ بها رياء ، والنكول عنها — بعد إقرارها — غدر ، وكلا الأمرين ليس في شيعة الذي يقول قوله في أهل الغدر ومن يروونه دهاء وكياسة :

« . . . لقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كياساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم ، قاتلهم الله ! . . . قد يرى الحول القاب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين . . . »

فليس هو إذن بالذي يتحرر من نطاق المعايير الخلقية ، أو يخضعها لأهواء الأنفس أو دواعي الظروف . ليس أيضا بالذي يلف بها ويدور ثم لا يزال يشذب من أطرافها وينتقص من نواحيها لتطابق فكرة مصنوعة وبدعة موضوعة . إنما طريقه سوى ، ونظراته إلى الأمور مستقيمة تخترق منها القشور واللباب . وإن شأنه ومعاوية كشأنه بالأمس ، وكشأنه في الغد القريب والغد البعيد . لا مدهانة ولا مهادنة . لكنه يظل يعذر إليه ، المرة بعد المرة ، حتى ينفد الصبر . . . وكان يعلم أن إعداده إلى الرجل الذي ادعى لنفسه ولاية الدم كالصرخة في الربع الخالي ، لا تردد سوى صداها . فما نفسه عنه بخافية ، ولا نداؤه بعسم صممه ما دامت على قلوب أكنة وعلى عيون غشاوة . . . ومع ذلك فإنه على كتابا ، يود لو وسعه به أن يستفيء غريعه ويهديه عن غيه حرصا على السلام والإسلام . وهو هذه المرة لا يوفد إلا رسولا يكاد معاوية يرضاه ، فإنه عنده ناصح ثقة . وما فعل إلا وقد رجا أن تبث هذه الوفاة في نفس العاصي طمأنينة تسوقه لخير . . .

وكان رسوله جرير بن عبد الله ، صاحب همدان في عهد سلفه . جاءه الكوفة فبايعه ، بعد أن نزعه من إمارته ، وعرض نفسه للوفادة . . . فقال إذ ذاك :

« . . . ابعثني إلى معاوية ، فإنه لم يزل بي مستنصعاً ودوداً ، آتية فأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر . . على أن يكون أميراً من أمرائك ، فأعمل بطاعة الله . . وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك — وجلهم قومي وأهل بلادى — وقد رجوت ألا يعصوني . . »

والناظر في شأن هذا الرسول قد يوشك أن يتبين ميله لابن أبي سفيان بعض ميل وإن هو حرص من بعد على أداء ما بعث فيه على نسق قد لا تناله المعابة . فهو يشير بأن يظل معاوية على إمارته ، عاملاً من عمال على ، يخضع ولا ينزع ، كأنما فاته ما سلف على أمثال هذه المشورة من إباء الإمام . .

وعيل الأشر إلى أمير المؤمنين عند سماعه قول جرير :
« لا تبعه . ودعه ، ولا تصدقه . فوالله إني أظن هواء هواهم ، ونيته نيتهم » .
لكن علياً لا يحكم بالظن فيدع اليقين . وقد نزع جريراً من ولايته التي ولاء عثمان فلم يمنح الرجل لخلاف ، بل سارع فنزل عند أمره ، وقال فيما قاله لأهل همدان وفي عينه كتاب خلع ، حينذاك :

« . . . هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا . . . وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . . . ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها . . . ألا إن البقاء في الجماعة ، والقضاء في الفرقة وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم . . »

فإن يكن قد خطر له اليوم أن يشير بإبقاء معاوية على عمله بالشام فلهه ترديد رأى قديم كانت بضعة قبله تراه . .

أما الإمام فلم يأخذه بالظنة ، ولم يستمع فيه للوم اللوام . من العدى أن على له ويسبر دخيلته حتى ينضح إناءه بما فيه . . . ولذلك تراه يقول للأشتر :

« دعه حتى ننظر ما يرجع به . . »

ثم يختم رسالته ويدفع بها إلى جرير :

« . . . انت معاوية بكتابي . فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فابذ إليه .

وأعلمه أني لا أرضى به أميراً ، وأن العامة لا ترضى به خليفة . . . »

جذب بقوله هذا مشورة الرسول وأشباهها من أنصاف الحلول . . .
وكانت رسالة داعية واعية . دعت إلى الحق من أقصر سبله . وبأوضح
أساليبه . . . ووعت قصة الاستخلاف ، التي أثارت كل هذا الخلاف . بما سبقها
وما لحقها من المقدمات والخواتيم . . . وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ،
وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره فجرف في فؤاده ينبوع النور .
فلم يعمل الإمام فيها أمراً جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ
منها خصمه إلا سدّها دونه . . . ما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ،
أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه إلا مدّ له الإمام معولاً من سطورها
— حديداً شديداً — يدمر باطله ، ويقوض معاقله . . .

وشهدت دمشق ذات يوم عاقلها . مبهور النفس ، عليه قفرة من اضطرابه ،
وهو يلقي ساكناً بسمعه إلى حديث الرسول القادم صوبه من الجنوب :

« . . . يا معاوية . إنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين . وأهل المصيرين ،
وأهل الحجاز ، وأهل النين ، وأهل مصر ، وأهل العروش وعمان ، وأهل
البحرين واليمامة . فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لو سال عليها
سيل من أوديته غرقها . . . »

وكان القول ما قال جرير . فتلك الرقعة المبسوطة من بلاد الإسلام بين قرني
الشمس كانت تظلمها راية ابن أبي طالب إلا ثغورا في أقاصي الشمال تتأخم الروم
قد غدت في يد الأمويين منذ وليها — خلال عهد أبي بكر الصديق — يزيد بن
أبي سفيان . وهي اليوم بعده في حوزة أخيه . فلعل بقاءها في يد الأسرة هذه
الحقبة من الزمن التي تزيد عن ربع قرن من السنين قد أطعم فيها معاوية ، فمضى
يراها كالثرات الموروث . ولعل نفسه أبت إلا انتهاها طعمة له ولذويه ، يصطنع
لامتلاكها الحيل ويحشد الذرائع ، ثم يحسب في خلعه عنها إهداراً لحقه
وابتزازاً لسلطانه .

لكن جرير لم يدع خيالات العاهل تسبح به إلى بعيد :
« . . . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن . ألا وإن العرب لا تحتمل
السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بعثها فلا بقاء للناس . . .

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزاني
فإن هذا أمر لو جاز لم يتم لله دين وكان لكل امرئ ما في يديه . ولكن الله
لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أموراً موطأة ، وحقوقاً
ينسخ بعضها بعضها . . . »

فسرح الوالي بعينه برهة ، يذرع بهما ملامح الرسول . وتفكر ملياً . حق
إذا أعياء الجواب الصواب ، همس يقول :

« انظر ونظر . وأستطلع رأى أهل الشام . . . »
فإلى غد . فإن غدا فرجة الحيران . . .

٤

تلك الليلة لم يغمض جفنه . . . جاشت بنفسه همومه . تحركت وساوسه .
تذاءبت رؤى الأمل نصب عينيه — أمله القديم الذي ابتنى له هيكلاً فارغ الذرا
والعماد فيه عرش وصولجان . . . يا ترى يرخى قبضته ؟ . . . أيدع القنية الثمينة يفلتها
كفنه بعد حرصه على إمساكها كل هذه الأعوام ؟ . . . هل يخضع للزرع فينزع ،
وللخلع فيخلع ، ويرتد ، كغيره من الولاة القدامى مسلوبى الحول ، امرأ في العمار
من عرض الناس ؟ . . .

لم يكن بالفر . . . الأحلام التي تضطرب في جوارحه لا يحركها الوهم وحده .
وأطماع نفسه التي تبجح به إلى تسنم غارب السيادة لا تستند فحسب على قاعدة
هشة من خيالات مخدوع . . . هو لا يلوى طرفه بعيداً عن السعائب التي تجمعت
في أفقه . لا يففل عن الحقائق الجلية البادية وإن فدحته وأثارت باله . وهذه
الرقعة المبسوطة تحته ، الخاضعة لسلطانته ، هي لا ريب أهون شيء على غريمه حين
يستعر القتال ويغدو السيف وحده هو الفيصل . وهي كذلك محط شراة
الروم ، لا تنى سرايا جندهم تنوشها وتغير على تغورها الدانية منهم لتردها كرة
أخرى إلى أحضان أمها القسطنطينية . ولكنها جنة له على أي حال . وملاذ أمين
يحميه من على إلى حين حتى تتكشف وجوه الأحداث . فلأن يعدم وسيلة تكف

عنه غائلة القيصر الروماني المستأسد ، إن بالصلح والمهادنة ، وإن بالمال والهدية ليفرغ من بعد للصراع الكبير . ولن يكمل عند ذاك للقد وما يجن من عوامل خفية أن يحسم ما بينه وبين الخليفة الإسلامي الذي بات لا يرضيه غير استئصاله وقشره عن الشام . . . إنما سيعمل . . . لسوف يجيش كل في طاقة البشر من جهود وحيلة . . . ليجدن إلى أطراف دولة خصمه ألسنة النار . . . لتكون كل بلدة من بلدانها مشغولة بنفسها ، لا تعرف الدعة ، ولا تستطيع في محنها التي ترى أن تعد الخليفة بمال ورجال . . . ليجعلها مراداً لحفنة من العصابات المنهومة إلى العبث وانتهاك الأسلاب ، فتنام على غارة لتصبح على غارة . . .

حق الظروف نفسها بدت كأعما تؤازره . . . هذه سجستان وطشت أرضها جموع من هراب البصرة غب الجمل فغلبت عليها وقتلت عامل على هناك . وهذه خراسان انسلخ أهلها من الطاعة ، وانسلخوا كذلك من الدين صابئين ، ثم أمدهم رجال كسرى من كابل بما أجج ثورتهم حتى أوشكت أن تذهب فيها ريح الإسلام . . . إنها لنذر . الأنسام الوانية التي تسبق المواصف ! . . . وإذا كان ابن عباس قد بادر فاسترد سجستان وأعاد فيها راية ابن عمه خفاقة ، وإذا كان خلود قد مشى على خراسان فأوقع بالمرندة في نيسابور وغنم وسبي وساق بنات كسرى إلى الكوفة أسيرات ، فذلك نصر قد لا يحف له قلب غريم يقيس النتائج البعيدة بقياس المقدمات الماثلة للعيون . أو ليست هذه الفترة فاتحة تسكاد تنبيء عن سلسلة أخرى من الثورات قد تسير غدا أو بعده في ركاب الإمام ؟ . . .

ليوشك معاوية أن تتبدى له الدولة كلها تزلزلت نواحيها ، لا يهدأ فيها بركان إلا ويشور بركان . . . وقد كانت المني أحياناً هي التي توجه نظرتة ، وتنفذ بها في المستقبل إلى خواتيم مأمولة . وكانت الحقائق دليله في بضعة من الأحيان . حتى مصر التي أثقلت فؤاده وعادته من أحوالها المموم ، لم يعدم بها فرجة تنفس عنه بعض برحائه . فما زالت ثمة فتة على ضفة النيل يتوقع عندها الخير . إنها هناك رابضة — وقد فتنها مقتل عثمان عن التزام جماعة المسلمين — تبرص بقريتها ، وتناظر سانحة من الزمن تسنح لتعلن التمرد باسم الثأر للقتيل . هي تحتجر بخربنا احتجار الثمالب . تتلمس الأمن في الاعتزال . تفر هادئة عن تنازل

وخشية . ولكنها ن تلبث أن تضعى بمصر بؤرة تشل سلطة طى ، وتفسد عليه
أموره أيا إفساد لو عرف الغاوى كيف يحرك منها على الخليفة النفوس ويوغر
الصدور ...

غير أن هذا كله لم يعد معاوية بالطمانينة ، فالزمن الذى يحالفه اليوم قد
يحالف فى غد غريمه . والريح الرضاء التى يسبح فى مهبا شراعه قد تزجر
كإعصار . بل هو لحظة هذه راحت تضطرب فى أعماقه عوامل خوفه وتدور
أعني من اضطرابها أمسه . فإنما مصر بلواه . . . بها المال والرجال . وبها من
الزاد وفرة تكفى أمة ضخمة من الجيوش تشرق وتغرب فى فجاج هذه الدنيا
الفسيحة ثم لا تكفها عن الزحف حاجة وبها اكتملت لابن أبى طالب
مادة الحرب كلها — بعد إذ غدا العراق ملك يمينه — من ذخيرة الجند والمؤن
والعتاد حتى أوشك ألا تكون قط مادة لأحد سواه . ومنذ غلب عليها ابن أبى حذيفة
وطرد منها عامل عثمان وهى شجا فى حلق صاحب الشام . قذى فى عينيه . حربة
مسمومة تشق جنبه وتدميه . وليس يأمن الآن أن يأتيه جند منها وجند من
الكوكة فيصبح بالجندين بين شقى الرضى ويشخب جنباه

وأحس كأنما قدمه طى مزاق تحتها هاوية سحيقة الغور إلى أبعاد تضل فيها
النظر ضلالها فى السواد الكثيف الذى نشرته حوله هذه الليلة الباردة من ليالى
الشتاء . وكانت العيون فى القصر وسنى . والصمت يشمل كل جزء من أبعائه
ونواحيه . وكانت الريح ذات دوى وزئير وهى تجوس معولة بين غابات أشجار
الخور التى أشرعت جذوعها كالمآذن وشبكت غصونها كالقبايا . . . ولم يكن ثمة
فى الليل أنيس إلا الوحشة ، ولا سمر إلا المزيف والعواء . . . لا هيئة إنسان
ولا همسة لسان . الهدوء فى الدار والثورة فى الغاب ! ولو قد أتيح له أن يتكلم
بمنطق الشجر والريح ، لبادلها وجيفا بوجيف وعزيفا بعزيف ! فما أثقل الصمت
على نفس الحائر ! وما أشقها من وحدة حينما تتسكأف حوله ظلال الهموم . . .
إنه ليتلفت فيما اكتنفه بحجبرته ، وفيما امتد إلى ما خلفها خارج أسجاف الشرفة
المنفجرة بكاء كهم المتوه ، فلا تقع عينه إلا على صحراء من الخرس والظلمة . . .
إنه ليضطرب أمام خلجات خاطره . . إنه ليحس بدنه يهتز على ضربات قلبه

الواجف . . . أفيدعو إليه عتبة أخاه يديه بعض شجوه ؟ . . . أيصفق فيأتيه من فتياه غلام يعلأ عليه بعض هذا الفراغ ؟ . . . أيتربص بالحارس الذى أخذ وقع خطواته الوانية يتردد خافتاً فى الردهة ، ثم يبرز إليه يحادثه أيعا حديث تجربيه اللحظة على لسانه ؟ . . . لقد تاق سممه لكلمة ، وتاق ثغره لكلمة ، فمن له بسمع وسمع ؟ . . .

ولم يشعر أن قدميه قد انسابتا ، كما فى حلم ، تحملانه إلى الباب حتى هم أن يجوزه . لكن نسمة باردة ردت له لوعيه قبل انقلاته إلى البهو ، وعادت به ثانية إلى الغرفة الكشبية . . . تأبى عليه نفسه أن يكشفها لمن يرويه صاحب قدره وسيد مصيره . تأنف عزته . دون هذا وتحزن خيلاؤه . . . كلا ، لن يدع الناس يقولون إن شيئا حزبه وأمرأأهمه وهم يرجونه كلما اشتبهت الأمور والأشياء على الدهاة والأذكاء ! . . . إيعا سيحفظ فى قرارته همه حتى ينبليج الصبح وتنقشع غمة هذا الليل الطويل الثقيل . وعندما يتبدى الفجر متبدأ له شواغل تأبى به عن تيه أفكاره . وحتى يسفر النهار فإنه سيزجى الفراغ والوحشة بالحديث والسماع . سيتكلم لسانه وتنصت آذانه . . .

وكرة أخرى يعد أصابعه إلى الكتاب الذى أقبل به عليه وافد الإمام . الآن لا يقرؤه قراءة عين . لا يتجول ناظراه فى سطوره وهو صامت يفكر . إيعا يلوك فى حلقه حروفه فتذبذب لهاته بألفاظه ، ويفر الصمت على جرس صوته الخافت الوئيد :

« . . . أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للعائب أن يرد . وإيعا الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصلبه جهنم وساءت مصيرا . . .

إن طلحة والزبير بايعانى ، ثم نقضا بيعتى ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما

دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء .
فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت الله عليك . . .

وقد أكرثت الكلام في قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم إلى
أحلك وإياهم على كتاب الله . فأما تلك التي تريد نخدعة الصبي عن اللبن في
أول الفصل ١ . :

لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرا الناس من دم
عثمان ، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجني فتجن ما بدالك . . . واعلم
أنك من الطلقاء الذين لا تحمل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض
فيهم الشورى . وقد بعث إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيخان والمهجرة
السابقة ، فبايع . ولا قوة إلا بالله . . . »

ثم صممت الحديث . . . عاد السكون يعلأ أطباق الحجر ، والوحشة تروود
فراغها الثقيل . ورجع البكم مرة أخرى يحاور أذنيه . . . ولكنه مع هذا
لم يدع ذلك الكتاب من يمينه . ظل برهة من زمن ، طويلة على وهمه ، يقبله
في كفه ، لغير مرمى أو غاية . لبث يتبعه نظره يد عينا لكلمة منه هنا وعينا
لكلمة هناك . فقيم سبحانه الآن على خضم أفكاره ؟ . . . أقد استخذي إذ يعبر
بماضيه وتخلقه الغابر عن المالحق بأهل القدمة والسابقة في الإسلام ؟ . . . أود
لو يستشف حقيقة الوعيد الذي أزجاء على إليه في ثوب رقيق من الرقيق
والسباحة ؟ . . . أمست قلبه واعتصرته العبرة التي نضعت بها في البصرة عقي
أصحاب طلحة الناكثين ؟ . . .

هو لا يدري ، وأنى له ، أى هذا كله جرى في باله — تلك الساعة للتأخرة
في السحر ، الدانية من الفجر — وإن ذهنه لتختلط فيه ولائده من خواطر
وأوهام ، وخطط وأحلام . غير أنه استطاع أن يرى من خلال تلك السطور
صورة لذلك القصير ، الذي ديج الكتاب ببيانه وأملاه بلسانه ، أطلعت في غير
الهيئة التي يرسمها الحق . . . كلاليس بالعر ١ ليس ابن أبي طالب بالذي تقتله
خدعة مخادع أو حيلة محتمل . . . وحتى قصة الثأر التي أهاجت عليه فرقة من
أهل الشام ، وكانت حقيقة بأن تحد من غلواء أى خليفة سواء وتقال من صلابته ،

لم تكن ذات أثر مذكور فيما وطد عليه عزمه منذ بدء اضطلاعه بأمر الدولة ، بل لعلها زادت استمساكا برأيه ، وإصراراً على خلع مدعى ولاية القتيل . فما دام الشيخ بنهية للناس من شاء منهم تولى ثأره . وإنما الأمير الشرعى وحده وليه ، يأخذ مهريقه ، وينفذ فيه كلمة العدالة . أما عشيرة القتيل وذووه فأفراد فى الدولة يلتصمهم كغيرهم قانونها العام ، لهم حق الاحتكام فى ثأرهم إلى الحاكم دون حق الحكم فى المذهب ، فإذا سولت لهم نخوتهم ابتزاز سلطة القصاص ، فهم خارجون على النظام . . .

كل هذا قد انبسط فى الكتاب وتبينت حجته ببقاء لا يقدر أن يخفيها ادعاء مغرض ذى هوى وإن لف ودار وسم الأفكار وسحر الأنظار . . . لكن معاوية اليوم فى حرب فناء ، يتوسل إلى كسبها بما يستطيع . فما يفيد أن عين إذا المين نصره ، ولا أن يغش إذا الغش عزره ، وعندما يصبح سلطانه الدنيوى فى كفة ، والقيم الخلقية العليا فى كفة ، فلن يتردد لحظة فى أى الكفتين يختار . ولقد أعرى حقاً غرسه فتعلقت به نفوس أهل حاضرتة ، وراحوا يعاقدونه على الثأر الذى أبداه فى عيونهم بطلا يستجيب لدواعى الروعة والنجدة كما تتحدث بها أساطير الأبطال . . . ولم يكن تعاقدهم ذاك وعداً موقوتاً بأجل النخوة التى ابتعثها فى قلوبهم غضبهم الطارىء للدم المسفوك ، ولكنه كان عهداً صادقاً قطعوه عن سلامة طوية ونذراً خالصاً نذروه عن عزيمة وإصرار . فما زالوا إلى يومهم لا يعس جلودهم غسل ، ويعيشون فى بيوتهم كرهبان الدير لا يقربون النساء . . . وإنهم فى غدد حريون أن يظلموا على موثقهم حتى يتألوا ثأر الخليفة المقتول أو ينصرف بهم كبيرهم عن التماس القصاص .

وابتسم معاوية . عرف البشر الآن طريقه لوجه المكروب . ومضى الأمل فى أعماقه التى ملأها قتامة الهموم . خف قلبه الثقيل . . . وعندما كان يلقى بنظره الساهر إلى الظلام الذى أخذت ظلاله ترقى خارج الشرفة فى لفائف الغاب ، كان خاطره يسبح به عائداً إلى ذات أمسية حارة من الصيف الذهاب ، وانية الهواء ومنانة النسيم . . . لقد أصاب الحجاج بن خزيمة إذ ذاك ، وصدقت نظرتة فى طبائع النفوس حين جاءه تلك الليلة يضرب عليه بابيه لينبئه خبر ماجرت به الأقدار فى مدينة الرسول . . . يقول له معاوية :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . . »

فيحييه الرجل وهو ساهم حزين :

« إني لك النذير العريان ، فقد قتل أمير المؤمنين . . . »

وتظلل سحابة من الفكر وجه السامع وأخرى من الأسى وجه صاحب الحديث ويسيطر الوجوم برهة على المكان . ويتفرد كل منهما قليلا بهمه حتى يعودا إلى ما كانا فيه من الإنصات والرواية . فإذا بانح الحجاج من خبره غايته مضى يقول :

« . . . وإني يا معاوية غبرك أنك تقوى على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومن مع على يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر . فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه . . . »

وابتسم الماهل مرة أخرى وهو يشوب لنفسه من خواطره . وطاب فؤاده وصفا عياه . . . كانت الذكرى بشرى له بالأمان . . .

ثم أقبل الفجر عليه من المشرق . أطلعت الظلمة له غرة لماحة بلون آماله تطل من خلال الظلال التي مدتها حول قصره مرده الشجر في الغاب . وكانت عقود الضياء تنبثق من بعيد كقطر الماء من فم ينبوع . وكانت حباتها الدقاق البيضاء تنظم وتنظم ، رويدا رويدا ، في رحاب الفضاء الفسيح حتى غدت فيضا راح يغمر الدنيا بلائله . . . وتبدت السعائب المنبثة في جوانب الأفق ذات ألوان في مسيل الشماع ، بها من دكنة الليل ، ورقة اللازورد ، ووهج الفضة ، وحمرة الياقوت . وأخذت مسعة من الضوء في نصاعة الثلج تجلج رءوس الروابي وقمم الأشجار التي أتلعت أجيادها ترنو مشوقة إلى جبين النهار الوليد . . . وعندما زحف إلى شرفته أول شماع ، وطرفت أهدابه على وميض نوره ، وانطوى الليل المساهر في غلالة الصباح ، كان الماهل المسكدود الذي استخفه بشره يجترأ الذكرى ، وتترامى أمام عينه الوصفانة صورة صاحبه ، فيهتف لها — وهو باسم — بين خفق الناس :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . . »

كأنه قوقعة طوتها صدفة ! . . كان واحدا ، غامض النظرة ، قد غلب على
 محياه السهوم وأخذت قسمانه مسحة فيها عبوس وفيها جفوة . . . وكانت عينه جوفاء ،
 جللت لمحا سحابة من الشرود كالضباب الذي يغشى أحيانا بركة من الماء
 الآسن ! . . ففي قرارها تنام حيرته ثم يخفيها وقاره المصنوع كما تخفي غيمة الضباب
 الحمأ والطين في قاع البركة . وتحت أهدابها انتشرت دكنة خلفها سهرة كتلك الظلال
 التي تمدّها على حوافي المياه الكدرة أعواد الشوك . ولم تكن نفسه هادئة وإن
 أوحى مظهره الساكن بالهدوء والطمأنينة . ولم يستقر له خاطر خلال النهر
 والليالي التي ملأها بتفكيره . فما يزال يتنسم القلق منذ جاءه جرير . وما تنقّ ألوان
 شتي من التوجس والحشية تتوالت على ذهنه كالأشباح . ولقد كان في البدء يوشك
 ألا يحفل بوافد الكوفة إذ حسبّه رسولا كالرسل ، يبلغ رسالة ثم يعود ، فإذا
 هو عنده ما كثر مقيم ، وإذا هو كالصدي في القصر الخالي يتردد دويه في هذه
 وتلك من حجراته وأبوابه حسبما يفسح له فراغها في الرجوع والتردد . . . فكذلك
 غدا جرير . وكذلك لبث عنده لا يبرح إلا أن يردّه عنه بجواب ما جاء فيه . .
 بضعة أيام فضاها معاوية هدفا سهلا لإلحاف جرير لا يعرف نفسه مهربا منه
 إلا التسويف . فلقد حصرتّه دعوة الإمام للطاعة في أضيق الأركان ، ومدت
 دونه كل سلاك إلا الجاهرة بالسلم أو المبادرة بالعداء وكلا الأمرين عليه
 شديد . . ولكنه اختار أن يتربص بزمنه ، ويستأنى به لعله يجيئه بالخلاص .
 ففي الزمن لكل حائر ملاذ . . . وحسبه الآن أن يراوغ ، ويحتجر من الرسول
 كالضرب أو الثعلب ، ويعسك قلبه خشية ثم يعسك لسانه تحريزا فلا يعطى البيعة
 ولا يشهر العصيان . .

ويلتفت ذات ليلة وقد أطبق عليه إلحاح الرجل :

« . . . يا جرير ! . . إنها ليست بخلسة . وإنه أمر له ما يهدده ، فأبلىنى

ربقي ! . . . »

غير أنه لم يكن يرمى بمطله الجديد إلى الإفراح لنفسه في التدبر ووزن الأمور . فالنهج أمامه واضح والطريق مستقيم . إنما لغايه ييطنها شاء أن يستمهل ، وأن يرجى . وسعه البت في دعوة غريعه برد صريح . ومن يدري ؟ . فلعن البريد أن يأتيه الآن بالجواب الذي بات طويلا يترقب أن تذيق عنه صحارى فلسطين . .

وفرغ والظلمة إلى خلوته . . . وكانت نفسه حزينه كالليل . وكان قلبه ثقيلا كالرمل . وكانت عينه ندية كالطل . بينا عوامل القلق تتناوب ذهنه السكليل كأنها ذئاب جياح تناوبت فريسة . . . لكن هذا كله لم يمنع سماعه أن يعتد إلى الحلاء والرياض حول قصره العالي ينصت فيها لوقع الخوافر على الحصا والحشائش . غير أنه لم يتلقف في الوحدة الهامدة إلا همسات الوحشة فثائمة جياذ . ولائمة يريد يجيئه بما يريد . وإن الليل ليضى به والهدوء شامل . وإن الصمت يتراكم حوله كما تسكثفت في السماء غيوم أمسيته المطيرة . وأن الأنجم لتبرز مطة عليه من بين السحب كالعيون السواهر ، ثم تزهو ، ثم تهت فتغيب وما زال سماعه المترقب معلقا بالمجهول . . . أيا ترى طاشت هذه المرة مشورة عتبة أخيه ؟ . . . أم النهار سيسفر عن أمه ؟ . أم ذلك القابع بناحية البيع من فلسطين قد آثر أن يشخص بنفسه إليه فلا مدعاة إذن لتحرير رقعة لوفادة رسول ؟ . .

أينما جرت به أحلامه أو همومه فمشورة أخيه لاتنى تردد في فراغ ذهنه الأجوف ، حتى في هذه اللحظة التي اختلى فيها بمحيرته كان صوت عتبة يعاوده ، ويملا خلوته ، ويدوى في أذنيه دوى الطبول . . ولم يكن قد أغفل تلك المشورة التي لقنه سليل آخر من سلالة أبي سفيان ، ولا أمهلها حينما حتى يتبين ما لعلمها تحتوى من رشد أو تسفر عنه من عار ، وإنما تلقفها ملهوا من قم المشير وقد لاحت له كأنها القشة التي تنقذ الفريق ؟ . . ومع ذلك فما كفت — منذ احتضنها وأثقلها — تلح بلفظها عليه ، وتضطرب في خاطره ، ويعلو جرسها رويدا رويدا من طوايا ماضيه الداني حتى غدا يسمعها — ليلته هذه — كأنها تناد لتوها من شفتي عتبة ، صاخبة هادرة كزبد الشلال : « اجتمعن بعمرؤا » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرؤا » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرؤا » . .

ابن العاص ، وأتمن له بدينه ! » . . . فما لعمر و ينام عنه كل هذه الليالي الطويلة فلا يقبل ولا يبادر بجواب ؟ . . .

كانت دعوته — وليدة المشورة — التي وجهها إلى نزيل فلسطين ، بسيطة ، ساذجة المظهر لا تنطوي على التواء : « . : قدم علينا جرير في بيعة طي ، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني : أقدام إذا كرك أمرا » . . . كانت تتحدث في يسر ، بلسان راغب في النصيح باحث عن الصواب . كانت رحية اللفظ ، ناعمة ، تنم عن خطاب ندى لد أثر لديه حتى ليدع ثقافته وخلصاءه أجمعين ممن في متناول عينه بالشام ثم يستمد هذا القاصي رأيه ويستهديه عبر الصحراء . كانت غفلا من التلويح بالغنم واستثارة شره الأنفس المفتونة بالمناصب وأسباب الجاه . فلولا أن ابن العاص عليم بخافية داعيه لأخذه الزهو حينذاك ، ولناه عزة وكبرا وهو يرى داهية الشام يحبس نفسه على مشورته لكنه خير به ، يعرفه أخا حذر . ويعرفه أيضا طويل المعطس يد أنفه إلى مهاب نغمه كما يمتد خرطوم القيل ! . . . فإذا دعاه معاوية ، فلغير الحق أو صلة الصعبة دعاه . وإذا هو لي ، فلغير ذاك أو هذه تكون شورا . . . كلا الرجلين يجيد قواعد الحساب . . .

وإذن فهذه رحلة إلى دمشق تنتظره ، وعناء ووعناء ، ويد سخية عند نهاية الشقة تسمح عنه عرق المشقة ! . . . إن ابن العاص كذلك أريب ، داهية كداعيه لا يتذكر طائما للطبيعة الجائعة في نفسه التي يمزج فيها القليل من النور بالكثير من الطين ! . . . إنه لا ينسى الجيلة البشرية ، النابتة من الأرض ، الرانية إلى الأرض ، المشغوفة من الدنيا بما لا يوشك أن يجاوز مجال الحواس . أما الروح فأمرها عليه هين ، والضياء الذي ينبثق من صفائها فقد غشاء درن المادة ، والقيم الإنسانية المثلثي فقد غمرتها عبادة اللذات ! . . . كان الرجل واقعي النظرة ، يؤثر أن يغوص بقدميه في الطين على أن يسمو فوقه بجناحي ملك ترفعانه بعيداً عن نطاق عيشه . . . كان وفياً لذاته غاية الوفاء ، مشغوفاً بها غاية الشغف ، حتى لتوشك أن تكون كل همه وكل شاغله . . . وعندما اكتوت الأمة بالفتنة التي كان عثمان قربانها ، مضى يراقب الأفق في صبر ، ويتبين طلعه ، ثم همس لنفسه وهو متذائب بين اليأس وبين الرجاء :

« . . . إن يله طلحة فهو فق العرب سييا ، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه
إلا سيستنظف الحق . وهو أكره من يليه إلى . . . »

وها هو اليوم ، بعد طول تلبث وأناة ، يعلم بفاجعة البصرة . ويرى الناس
يلتفون بهلى ، ويتبعون هديه الذى يقدم البدأ على النشب . . . وها هو يشيم بشار
دولة توشك أن تقوض الأثرة وترسى عمدها على القداء والإيثار . . . وها هو
مبشر جديد يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق دون كرائم الهبات والأرزاق ،
يحذرهم البهرج والزخرف ، ويحملهم على الشظف والزهادة فى مفاين الدنيا
ليرتدوا ككرة أخرى إلى دعوة الله . فهل فى ساحة مثله لابن النابغة مكان ؟ . . .
ويومى عمرو إلى ولديه وفى يده كتاب ابن أبي سفيان :

« ما تريان ؟ . . »

يقول له عبد الله :

« . . . إن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان . . فقر فى منزلك ،
فلمست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا أوشك أن
تهلك فتشقى فيها . . . »

ويقول محمد :

« . . . إنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت
فيه خامل تصاغر أمرك . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أيديها ،
واطلب بدم عثمان . . .
الثأر لعثمان ؟ . . »

هذه هى القضية ! . . . وإنها لدعوة رنانة الجرس كقصر النحاس ! . . . وإنها
لراية حمراء فى لون الدم تنساق وراءها حمية الجماهير السكافة بتأثر مواقع
البطولة ! . . . وهى التكاة التى يمكن أن يرتكز عليها تمرد معاوية . وهى النبع
الذى ترتوى منه أطماعه . وهى مجازة الوحيد للمجد حين أعوزه طويلا الفوز
بغيرها من وسائل الأجداد ! . . . ليوشك عمرو أن يلبث ساعة يقلب فيها الأمور
فى باله ، وهو يتدبر أساليب صاحب الشام لتستشف الحية خلف ندائه المدوى
للمم . . . أفهر صادق لحق القصاص إذن على ابن العاص حين يذكر الوافون

في دماء عثمان ؟ . . أم هو كاذب فدعوته لأطعمه ستار تلتقى وراءه يد الباغي
الواتر بيد الدعوى الموتور ؟ . .

إن معاوية ليدو كأن قد آثر طائعا أن يستمد ابن النابغة دهاءه من أجل
مطامع وآراب ، ترق لها الدماء كالماء ، وينسى الثأر فلا يصبح له حساب ،
ويتحالف الحسام الغاضب بالحسام المحضوب لأمر ما يسالم الرجل وانزه ،
ويؤازر مهريق الدم الحرام المسفوك على الثأر من برىء . فما دور عمرو في الفتنة
بعجول ، وما تأليه على القتل بغائب عن مدعى ولاية دماؤه ، وما شماتته يوم
أنته أخبار المصرع إلا لها بقية لا تزال تلفظها حتى اللحظة شفاء الرواة . . . ومع
ذلك فابن العاص لا يستغنى داعيه ، ولا يتهم التماسه المشورة لديه . إن شمورا
غامض الكنه ينفى الثقة على نفسه وهو يقلب بين أصابعه كتاب عاهل الشام .
إنه لا يقرأ العذر بين السمكات . لا يشك قط في حاجة معاوية إليه ، ولا يظنه
يريد استلحاقه وهو يخفى له غيلة — كلا ، فهذا بعيد . ولقد يوشك الحلف
ألا يقوم بين مؤمنين بهدف ، مخلص كل منهما لصاحبه ، يتبادلان ثقة بثقة
وولاء بولاء ، ولكنه يقوم أيضا بين مريبين ، يلتقى نفعهما ، كالحال في البيع
والشراء . .

ويحدث عمرو ولديه وقد تعبد له مسرى تفكيره :

« . . أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى في دينى ، وأما أنت يا محمد
فأمرتنى بما هو خير لى في دنياى . . »

ثم لا يكون له في أى الرايين حسم إلا أن يحججه الليل . فالليل مسرح الفكر
كما هو مسرح الهوى والتأمر . . . لكن الجشع لا يدع له مهلة ليقدّر أمره حق
قدره ، ويبتغى فيه وجه الله . إن الطين في طبيعته طفى على النور . قوة
مطامحه غلبت إيمانه . استذله زخرف الجاه . هو نفسه لم يستطع من بعد أن ينكر
ما كان من جنوحه — هذه اللحظة — إلى متاع الحياة . كان عصيا عليه أن
ينكر ، عسيرا أن يهدأ ندمه ولما تبق بينه وبين عدالة الله إلا نفس واهن يلفظه
صدره ولا يستعيده ، وخيط واه من أجله تعلق به وجوده ، وحفرة في الأرض
هى دار قراره ، وحفنة من ترابها هى كل دناره . . . فعندما لم يعد له أمل

إلا في الرحمة ، وذبل بدنه كعود الهشيم ، وفقر القبر فمه بمد بضع سنين قليلة ليلقاه ، بكى واستعبر ، وناجى الله :

« اللهم إنك أمرتني فلم أأمر ، وزجرتني فلم أزدجر . . »

فكم كان أولى له لو استشعر وخزات ضميره وكيانه ركين ، وبنأؤه متين ، والعمر أمامه مديد فسيح للتوبة . . . لكن المني خدعته حينذاك عن آخرته ، ولعت في أفق حياته التماع السراب ، فانطلق مع الهوى إلى حيث لا جنى ولا ماء . . . وإنه عندئذ ليتشبث بدنياء بمثل حرص البخيل وشره المنهوم فلا يدع من كفه كتاب صاحب دمشق ، ولا يدع من باله عروضه التي اختفت وراء الفاظه . . فإذا هو يعضى يتهياً لرحلته وإذا هو قد ألقى بنظرة الوداع على معتزله ، وإذا القافلة به تسير ، خلفها البيع وأمامها الشام . .

وتخب المطايا . . ويترنم الحداة . . وينساب الخف على الرمل الناعم انسياب الشراع . . ويتأرجح الركب على الظهر فيتأرجح الفكر . . دون الهدف الذي سمى الرجل إليه مراحل تضطرب فيها الخطا كما تتضارب الشواغل . . فالعاجلة شاغله ، والآجلة شاغله . المغنم والمنصب والنقود تصارع الحق والهدى والسلامة . وفي غمرة هذا المعترك كانت نفسه مضیعة ، لا تعرف مكانها اللازم بين القوى المصطرعة ، إلى هذه أم هاتيك . . وإن الركب ليضی فيهدف به أن يفيء للقرار . . وإنه ليقر فينادي بالسير وإنه ليطي . فيعجله أو يسرع فيمهله ، والرفاق حوله في حيرة مما بيديه . .

ويهمس له غلامه وردان :

« خلطت أبا عبد الله . . »

فيلحاه :

« ويحك . . »

ولا يأبه العبد شيئا بالحق ، بل يعاود الحديث :

« أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك . . »

« هات . . »

« اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : على معهما الآخرة في غير دنيا ، وفي الآخرة عوض عن الدنيا ، ومعاوية معهما الدنيا بغير آخرة ، وليس في الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما . . . »

عندئذ يطوف بشفتي عمرو خيال بسمة وهو يقول :

« فإنك والله ما أخطأت . فما ترى يا وردان ؟ »

« أرى أن تقيم في بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . . . »

فيغضى الداهية مليا يفكر . ثمة في نصيح عبده دهاء . هو أناة قد تشمر له راحة البال أو رفاة الحال . فيه أمن من مغريات الحياة للضلة ، إلى حين ، حتى يتبين لمن الغلبة في نهاية الصراع . . لكن سمعه وحده تقف النصح ولفظته بعده كل جارحة فيه ، فإعما الدنيا أدنى ثمرة ، وأشهى لمن تسجل الحفظ . . . وهو الآن قد جاءت نفسه بعد كل هذا الانتظار ، وشفها الظمأ إلى المجد ! . . . وهو قد هيا لمصيره المرموق ركابه وجند أسبابه ! . . . وهو إغما يخرج مخرجه هذا ، كما يحسب أهالي فلسطين وكلهم لمعاوية رعية وظهير ، عن مروءة ونجدة ، تلبية منه لصيحة الدم ودعوة الثأر للخليفة القليل . . . فهل إلى إحجامه سبيل ؟ ويهز رأسه في تعهل ونفسه تحدته :

« الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟ »

وتهتف كل جارحة فيه :

« كلا ! »

ثم يلتصع العزم في ناظريه وهو يلقي بأمره ، صريحا صارما ، إلى غلامه :

« ارحل يا وردان . . . »

٦

عندما التقى الثعلبان تراوفا فترة . . . كان لقاء على دخل ، لم يأمن فيه أحدهما لصاحبه ، ولم يركن له . فما يستطيع حلف تقيمه الأنانية وحدها أن يربط بالثقة بين شخصين . . .

لكن مر الأيام قرب ما باعدته الريية وراح يردم الهوة المحفورة بين وصولي وفي سهم ووصولي الأمويين . وهل للمراوغة دون غيرها كانت رحلة ابن العاص ؟ وهل للتعالي والكبر كانت دعوة معاوية ؟ . أن ضغط الحوادث لينادي صاحب الشام أن يبادر الأمور بالحسم والمعالجة . فالزمن يتسرب من بين يديه ويفر كالنائم الرقاق في إبان عاصفة . . . والتمز والسوانح قد تقبل ثم تدبر ثم لا تعود كرة أخرى إلى الظهور . . . وها هو عمرو عنده ، قد جاءه دون ريب لنفع ، وبذل من دينه وآخرته ، وأراق من ضميره بقدر الخطأ التي قطعها قائلته طوال طريقهما من فلسطين إلى الشام . . . كلا ، لم يكن ابن العاص بالخدوع فتغشه كلمات صاحبه التي غلقها له بطلب المشورة وبطنها بالنخوة للدم المراق ، كلا لم تغب عنه جبلته فيظاهره نصرة لحق أو يشايعه حقيقة على وافر ، بل النفع هو الذي يرسم الصلة بينهما ، ويختم بخاتمه صك الاتفاق . . .

ويخرج ابن العاص من التلييح بطلبته إلى التصريح بالسافر عندما تؤوده مداورة حليفة وتعييه :

« . . . والله يا معاوية ما أنت وعلى بمكنى بعير ! . . . »

فلا تغضب العاهل هذه المجابهة ، ولا ترده عن الإنصات . ويعاود عمرو الحديث :
« . . . مالك هجرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته وجهاده ، ولا فقهه وعلمه .
والله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا . فأتجعل لي إن شأيتك على حربيه وأنت تعلم ما فيه من الفرر والخطر ؟ . . . »
قال معاوية :

« حكك . »

« مصر طعمة . »

فتلكأ حينذاك صاحب الشام . أهالنه فداحة المطلب وسرفه أم غلبته الخشية
على نفسه وعلى أهدافه من حيث حليفه ؟ . . . لكنه أغضى هنيئة عن شكوكه ،
وراح يرد طمع مساومه باللين والدهاء :

« إني أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا
الأمر لغرض الدنيا . . »

فتجههم عمرو . وأجابه في اقتضاب :

« دعني عنك ! »

ثم أولاه ظهره ، ومشى لينغادر المكان .

لكن معاوية لم يتركه . إن الأطماع دربها طويل . فيه حزون ومقاوز .
فيه أودية كثيرة من التيه توحش السارى وتزرع الخوف في خياله . وفيه أيضا
عوسج وشوك . . . وعندما قر في عزم ابن أبي سفيان أن يرود هذا الطريق
ويقطع مراحل لم يغب عنه أن يهيئ لنفسه المطية ، فليس من الحكمة الآن أن
يدفعها إلى الشرود . . .

وآنذا ابتسم لصاحبه بسمة خابية ، رقيقة الشعاع كأنها من شفق أب رحيم
عليم لطفله الأحق الحرون ! . . ثم قال في هدوء :

« . . إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت . »

فتار ابن العاص :

« لا امر الله ! . . ما مثلى يخدع . لأنا أكيس من ذلك . . »

قال الأخير بغير مبالاة ، بعد أن ضرب الصمت بينهما برهة :

« ادن مني أسارك . . . »

وفي اهتمام ولهفة دنا عمرو . . . أقبل على صاحبه ، واصلت أذنه بشفتيه
ليسمع السر وهو يعنى نفسه بتحقيق آماله . . فإن هي إلا لحظة لما تعض حق ندت
من فمه صرخة مكتومة كأنها الفحيح تنبئ عن حنقه قبل أن تنبئ عن ألمه حين
غافله صاحب الشام وعض إحدى أذنيه !

ولم يزد معاوية بعد هذا على أن قال :

« هذه خدعة ! »

وابتسم راضيا عن نجاح مكره .

لكن المعاشة لم تمنعه أن يعاود وقاره ثانية فيقول لحليفه المخدوع :

« أبا عبد الله . ألم تعلم أن مصر مثل العراق ؟ . . »

« بلى . ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك . وإنما تكون لك إذا غلبت

عليا فى العراق . »

إن نعمة حقيقة ظاهرة ، عمادها المنطق ، يقوم عليها رأى ابن العاص . ونة

أيضا لفظة على طلبته ، ورغبة تتوثب فى حروف كلماته أن يظفر بما يريد . . .

أفيكفى حنينه إلى اقتصاد أريكة النيل أن ينم عن عزمه على الانتصار لمعاوية ،

ثم الإخلاص لدولته المرتجاة إذا قدر امرشها أن يقوم ؟ . .

معاوية ما زالت بنفسه بقية من خشية ، وبقية من شك فى الثقة بهذا الحليف

الذى يقاس ولاؤه بانتفاعه ، ويتنسم الهواء دائما فيدور بوجهه يشم ريح

الشواء ؟ . ومع ذلك فهو أريب . أجل ، إن ابن العاص كذلك . . له رأى

فى الأمور ثاقب ، وله دهاء يحاور به ويطاول الأحداث إذا واجهته وضيق عليه

الحصار . ولقد أسفرت الأيام القلائل التى مكثها يحاوره عن بعض مكر يحنه

حرى أن تصلح به الأمور المضطربة ويستقيم شأنها حين يحقق العنف فى مقام

الحيلة . . وهو قبل هذا أخو حرب تمرس زمنا بشدتها وافتحة وقدة القتال .

وعندما يذكر ماضيه لا تنسى مصر ثم لا يغيب عن بال الذاكر أنه عالج فيها سياسة

النيل سلحة من عمره الطويل عرفت خسلاتها البلاد من حزمه ولينه واقتداره

ما لا يعد معه أن تكون له فى نواحيها شيمة باقية حتى اليوم .

على أن هذا جميعه لم يبدد غيمة الشك التى أوشكت أن تستر مزايا ابن النابغة

عن ثقة داعيه . فما زالت ظلال من الريبة قاعة بنفس معاوية ، تشعره الرهبة ،

ويسير منها فى ظلام من الخدس والوساوس لا يدرى إلى أين مداه . . . وكرة

أخرى تؤرق العاهل هواجسه ، وتعضى به ساعات ليده بطيئة ثقيلة فى مثل ونى

تأملاته الثقال . . وإنه ليرضى ساعة ، ثم يأبى ساعة . . وإنه ليوشك أن يبتسم ،

ثم يعبس ، ويزور وما كاد يأنس . . فإذا أشفى به الضيق على حدوده ، والتف

به الهم ، وسامته الحيرة أطلع السمر عليه عتبة أخاه . . .

ويقول له عتبة في رفق مشير وعتب نذير :
أما ترضى أن تشتري عمرا بمصر إن هي صفت لك ؟

« إنما مصر كالشام . »

« فليتك لا تغلب على الشام . . . »

وكذلك أذابت النصيحة تردده وهتك نذيرها السر الذي حال قليلا بين التقاء
كفه وكف عمرو على عدااء الإمام . . فلم ينشب الصبح أن شهد اجتماع الرجلين
يرمان صك الانفاق ، ويوثق كل منهما به الموائيق حتى لا يخونه خديته .

كانت مصر هي الدارة التي هفت إليها نفس عمرو الظمآنة . وها هي اليوم
في حوزته — في حوزته على القرطاس . . إنها لتلمع الآن له من بعيد ،
وتنعكس على صقال مياهها صور نفوذه وسلطانه ، وتتبدى في ذهنه ألوان الخير
التي تطلعهما حدائقها الزهر وحقولها الخضرة حتى لتوشك أن تكون ذهباً في لون
الرمل الذي يمتد وطاء لأقدام النيل . . . كانت معقد آماله ، ونبع أحلامه التي
ما وئت منذ برحها تنهادى بخياله . . . أموى رده عنها وأموى يردّها عليه . فما
أعجب أن تكون ثمنا يتناوله في نظير طلبه بدم ذلك الغريم . . ومع ذلك فليس
يفيده اليوم أن ينتصر لعمان وقد كان في أمسّه يسخطه ويود لو أنه اقتص منه . .
لا يضيره أن يفعل ما دامت مصر سترجع إليه . كانت شاغل خاطره ، ومهوى
ناظره . هي أوطاره وآرايه . . هي واحته ، أم هي يا ترى سرايه ؟ ولكنه
يسعد بالعهد على أي حال ، وتطيب نفسه وترضى ، وبعضى يشعذ من همته ما لعله
كفيل بأن يردّها عليه . . .

ولقيه بعد الموثق ولداه :

« ما صنعت ؟ »

« أعطانا مصر . »

قالا له :

« وما مصر من ملك العرب . . ؟ »

ولقيه ابن أخ له ، ذو أناة وبصيرة :

« ألا تخبرني بأي رأى تعيش في قریش . . أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك . . ؟ »

وغضب مروان بن الحكم حين علم بما انتهت إليه المساومة فحدث نفسه وهو واجد مغيط :

« وما بالي لا أشتري كما اشتري عمرو . . . »

إن القوم ليلعن الرجل على ما نال . تصغر في عيونهم الطعمة — مرة من طمع في مزيد ومرة إذ هي ثمن بخس لدينه وآخرته . أو يصغر شأنه أخرى من حسد له فتكبر وتمول . . . أما محمد المعنى بدنياء فقد ود لو شارك أبو صاحبه في ملكه القابل ما داما قد تحالفا على المشاركة في الصراع . . . وأما الثاني التقى عبد الله وابن الأخ الذي يرقب الله ويخاف سطواته فإنهما أنكرا عليه جشما أنساء الحق وإنه لأحق بالاتباع . . . وأما ابن الحكم فقد أناره أن يراه أثيرا لدى معاوية يفرض له دولته ولما تقم لها دعامة . . . ولكن ابن العاص لا يكاد يحركه شعرة عتب عاتب أو غضبة غاضب . فهذا وغيره لا يردده عن القصد وما وطن النفس عليه . وإعما يسير شوطه . السطوة منه قيد خطوة . الدنيا تلقى بفتاحها إليه . . . الزمن أيضا حليفه على نيران العدل وشعلة الضغينة . وها هو مروان ما يكاد تشور ثأثرته حتى ينبرى له معاوية بما يترضاه :

« يا ابن العم ، إنا نشتري لك الرجال . . . »

ومن تلك الليلة بات عمرو في عين صاحب الشام . أصبح حارسه . أضفى درعه في الصراع القريب . غدا ظله الذي يقتني خطاه . . . إنه لا يكتمه المشورة ، ولا يبيخه النصيح حين تتأزم عليه الأحداث . إنه ينطلق أمامه حين البأس بعيد له الطريق الذي يقوده إلى المجد والسيادة . وها هو الآن ، والمداد لين على الميثاق يبادر بمونه ويشر أمام حليفه ذخره من الدهاء . . . كانت الأنباء حينذاك تقض على الأمير الطامح مضاجعه ، وتفسد رقاذه وصحوه بالأخطار المتويزة من بينها كأبالسة النار . فلا يكاد معاوية يأمن ابن النابغة ويأانس إليه حتى يستهديه :

« يا أبا عبد الله ، طرقتنا في ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس منها ورد ولا صدر . . . »

« وما هي ؟ . . . »

« . . أن محمد بن أبي حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه . وهو

من آفات هذا الدين . . . »

فيجيبه في هدوء وقلة اكتراث :

« ما يتعاطمك من رجل خرج في أشباهه أنت تبث إليه خيلا تقتله
أو تأتيك به . . . »

فبث بخيل إلى مصر ، عليها مالك بن هبيرة الكندي يحاول أن يقتحم
بها الحدود إلى الغريم الخوف . لكنها استمعت دونه واستغلت كالسر . فلما
أن أعياء أن ينفذ ظافر إلى الغرين ظل يكابد ويطاول حتى خرج إليه محمد في
قلة من رجاله ووفرة من غروره وإدلاله . فإذا الإعداد يغلب الاعتداد . وإذا
الكثرة تغطي على الجسارة . وإذا الحيل تكرر وتغير حتى تحصر محمدا بالعريش
وتقضى عليه وهو على قدميه قائم ، في بركة من دمائه ، يذود العداة . . .

« . . . وأن قيصر زحف بجماعة الروم إلى ليغلب على الشام . . »

فينصحه عمرو :

« فأهدله من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسله
الموادعة فإنه إليها سريع . . . »

فيفعل ابن أبي سفيان . ويهدي إلى عاهل الدولة العجوز المتأخة كنوزا
من الذهب والنفائس ، ودرا من الجوارى والعلمان تلهيه عن حربه ، وتميل به
إلى المهادنة ووضع السلاح في أعماه إشارا للسلم والسلامة . . .

« . . . وأن عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير إلينا . . »

على . . .

هذه عقدة العقد يعي حلها الدهاة ممن تجرى لهم سيرة في المكر كالأساطير . .
أم ترى تجدى الفارة ، أو تثمر وسائل الملق والموادعة مع الإمام ؟ . .
بل هي بيعة أو قتال ، بلا تذبذب بين طرفي القرار . . . ولقد يوشك ابن العاص
أن يكنى حليفه — بتدبيره — أمر ابن أبي حذيفة بمصر ويرد عنه عاديته .
ولكنه لو فعل فقد أمن الخطر فيها إلى حين ثم لم يضمن من بعد أن تلين تحت
قدميه جنة النيل . . . ويوشك أيضا أن يكبح عنه شره القيصر وبني الأصغر من
ذئاب البيرنطية . ولكنه لو وسعه فقد أمن منهم حدوده الشمالية — وهم حينذاك عدو
مريض مهيب ، منتفخ الإهاب مثلوم الناب ! — ثم ترك بقية الحدود والنخوم نهبا
سهلا لغريم غيرهم ذي قوة وأيد . . . فما هي إذن جدوى تدبيره والحال هي الحال :

أمير أمر وعامل عصاء ، والدولة هي الدولة : وحدة سياسية — إلا ولاية —
في كف علي ، وشعب مخلص — إلا فرقة — على الولاء لسلطانته الشرعى بين
أهل الإسلام ؟ . . .

ويتفكر الداهية . ويعبس . ويتعقد جبينه الذى غضفته أعوام عمره الطويل . . .
للحظة بدا كأن قد غابت عينه وفارقها النور حتى حسب معاوية أن غفوة أطبقت
على جفونه للحظة تراقصت على صفحة وجهه الأسمر ظلال وأطياف حتى ظنها
من دكنة لونها هوة عميقة من الظلام غرقت فيها لمة الرجاء للحظة تقلصت
منه شفتاه على ولائد وأجنة من الألفاظ يسكها الحذر ثم توشك أن تفلتها الحيرة . . .
ولكنها لم تكن غفوة ، ولا ظلة ، ولا حيرة تلك التى اعتورت قسبات ذلك العريق
في الخديعة . إنما انساح فكره بين صفحات التاريخ القريب والبعيدهم أن يستلهم
الرأى والمشورة . وعندما آب ذهنه من الرحلة ، أضاءت التماهة عينه الخافية ،
وانبسطت الراحة على غضون محياه ، وتوثبت بسمة عريضة تتراقص على شفقيه
نشوانة قبل أن تند الحروف من بينهما ترسم الخدعة الجديدة .

V

في وهمه تراءت دولة عريضة ، ممتدة مع الأشعة التى ترسلها الشمس كل ضحوة ،
ومع الظل الذى ينتشر عندما تجتمع عائدة إلى عوالم المساء واسعة المدى
مبسوطة الأطراف حتى لتلتهم كل أهل الإسلام ، وتنظم في عقدتها الطويل أقطاره .
وفي صحوة تراءت دويلة ، قال الناس إنها ولاية ، وقال الواقع إنها دولة
في الدولة ، نسج وحدها بين غيرها من الولايات ، قد بكرت في النمو وبكرت
في الانقطاع عن الوحدة السياسية التى ضمت كافة الأقاليم الإسلامية كأنما رشدت
وجاوزت حد اليفاع

ولكنه يدع عن نفسه وهمه ، فصاحبه أمامه جائم ينتظر منه رأيا يصلح له من
شدة الحقيقة ، ويهيئ السبيل إلى السيطرة على الأحداث التى مضت تنزاحم حوالبه . .
معاوية ما زال في لفحة من أمره ، يكاد يتلف ذات الأنفاس التى تند عن شفق

عمرو لعل كلمة تبدر معها فترسم الخلاص . وإن نفسه لخيرى ، وإن عينه لقلقة غاية القلق وأعتاه وهو يعد يبصره إلى مشيره الذى بدا صمته قطعة من الجلود
غير أن ابن العاص ، وقد آب لتوه من رحلة ذهنه فى فيا فى التاريخ ووديانه ، كان مشغولاً عن صاحبه ، وعن دولة الوهم التى أقعده عرشها الباذج ، بتأمل دولة الحقيقة التى ما فتئت تفسد عليه خيالاته . . . فما معاوية فيها ؟ . . ما سلطانه المستفاد من هذه الولاية التى تناخم الروم ؟ . . ما غاية شأوه وقصاراه لو نجح كفاحه فبقيت له إذا حالفته دنياه ؟ . . إنه لا ريب غير ذى خطر . ليس شيئاً فى عين الدولة القاعة اليوم : بيدها وحضرها ، أبيضها وأسودها مما وسعت رقعتها الممدودة بين الشروق والغروب ، ومن ضمت شعوبها الشقى من الروم إلى النوبة ومن البربر إلى الصين . . . ليس شيئاً إلا أن يقاس قدره بنظرات أهل إقليمه فإنه حينئذ شئ على أى حال . إنه فى عين شامه رب سطوة لا تستطيع النظرة الزارية تخطيه أو اقتحام مقداره . هو حقاً فى اعتبار السلطة الزمنية ، وفى اعتبار رأى العام الإسلامى فى مجموعته ، وال من الولاية ، ولكنه فى اعتبار الحقائق الناطقة ليس كالولاية . فما ينكر أحد أن الرجل قد وسعه مع الزمن أن ينفذ إلى نفوس أهل إقليمه باللين والبذل وحسن الحيلة وغير هذه وتلك من وسائل تربط برابطها الوثيق بين الحاكم وبين المحكوم . . . وولايته — على هذا الأساس — يمكن أن تغدو له رداء يحميه وجنة يتحصن بها إذا ما تأزمت عليه الأحداث . . . وأنصاره فيها — أو قل رعاياه — قد يشفى بهم حماسهم له على أن يشرعوا الأسنة حيناً من الزمن ، ذوداً عن سلطانه عليهم أو — فى الحق — عن إحسانه إليهم عرفاناً منهم بحميله وأياديه . . .

ومع ذلك فإلى أى مدى تستطيع أن تثبت الشام ؟ أقدر أحلست له صفوف أهلها بغير فرقة بينهم ولا خلاف فيطمئن عمرو عندما يحكم تديره إلى أنه لا يبنى على أرض رخوة ؟ . . أكلها أموية ؟ . . أتستجيب حين الجد لدعوة الصراع فتكون صدى صادقاً لصيحة معاوية ، تردد عنه وتؤازره ، وتعمل وسمها حتى تقيم له الإمرة المنشودة على أنقاض إمرة الإمام ؟ . . .

لا يدع عمرو هنة فى الغابر ولا فى الحاضر إلا أحصاها ثم طاردها بالتمحيص والاستقصاء . وها هو لا يأبه شيئاً بلهفة حليفه الذى جلس أمامه ساعة كالدهر

ينتظر رأيه في ثالث الأنباء التي هزت خاسره وزلزلت هدوءه . إنما يعصى شوطه في الاستقراء وهو يمرض أمام باصرتة مشاهد من تاريخ هذه الدولة القريب والبعيد . إنه منه على بينة : أولئك الذين يميلون فيها إلى ابن هند هم السكثرة الغالبة إذا استمسك بحذيره في التقدير ولم يرمهم السكافه . . . فيها جاوروه السنين الطوال بعد أن جاوروا قبله أخاء يزيد بن أبي سفيان أميراً لهم في عهد الصديق . . . وبها انتأوا معه — عن مقر الخلافة الإسلامية — في رياضها وغياضها المنقطعة عن مدينة الرسول بمئات من الأميال والفراسخ وعديد من الفلوات وأودية التيه . فمضى هذا النأى قد وهب معاوية نوعاً من التفرد في ربوع الشام بالحكم والسيادة دون عين ترى فتتقد فعالة أو رقيب ينقض ويحد استقلاله . . . عسى طول عهده بحكمها قد زوده بنوع من الاستقرار على سلطاتها أدناه هونا من أصحاب الملك الراسخ ذوى العروش والصوالج . . . عسى الجوار أيضاً أورث أهلها الألفة به ، والخنوع له ، والتسليم بأن يكون عليها ماشاء وشاءت له سعوته أو ظروف أحواله . هذه مزايا حرية بأن ترفع معاوية في الشام إلى ذروة التفوق حين ينحصر الخلاف بينه وبين غريمه ابن أبي طالب على الشام . ولكنه تفوق لا ينعض عين عمرو عن سواء من الاعتبارات الأخرى . فما الشام إلا ولاية كالولايات . وما أهائها إلا ناس كالناس . . . وفي خلال الأعوام الطويلة السالفة ، منذ أصبح فيها للعرب سلطان ، لم يكن لفرد من رجالها رأى في اختيار الخليفة إلا بقدر ما يأتى الخبر في اختياره فيبايعه الوالى وتبايعه على البيعة أتباعه . ما من امرئ منهم نقض أو ثار ، بل كانوا جميعاً لعاملهم الصدى والظل كحال غيرهم من الأهلين في غيرها من الأقاليم الدانية والنائية ، التي لم يكن لها في الشورى كلمة حتى اليوم . فلم نشهد قط ، بعد حركات الردة وعصيان مانعى الزكاة خلال عهد أبي بكر ، عاملاً أو مواطناً حاول أن يتمرد على البيعة التي تعقدها المدينة . أيعا رجل في القوم لم يعص ، ولم يخالف ، ولم يحل له بخاطر أن ينحرف مرة عن الطريق التي كان رسمها دائماً ذلك « المجلس النبأى » بالعاصمة ، المتمش في جماعة المهاجرين والأنصار . إنما كان حقاً خالفاً لتلك البقية من صحابة ارسول أن تختار خلفه على أمته ، وأن تقتضى المسلمين كافة في أنحاء الدولة الوفاء لعهدا الذى أبرمته والطاعة لختارها الذى ارتضته . . .

كان هذا حقاً للمدينة غير مردود دون غيرها من المدائن . ثبت في الضمير الجماعي للذين الفهم دينها وأظلمهم عليها الموحد وإن فرقهم الأمصار مشرقين ومغربين وتقسمتهم الأرض بين الجبل والوادي والقاع . ولقد ألف الناس الأمر حتى غدا مع الزمن عرفاً ثابتاً مقررأ له في نفوسهم رسوخ التقاليد للسيطرة وقوة القانون النافذ ، وأوفوا به وامثلوه أصدق امثال حتى أصبحت له عندهم قداسة .

البيعة إذن أمر والرضا بها التزام . هذه حقيقة نطقت بها دائماً وقائع الحال منذ كانت هناك بيعة عقدتها « ندوة للمدينة » أو « مجلس الأمة » أو أيما اسم يمكن أن ندعى به تلك النخبة من حواربي محمد وصحبه الذين التأمهم مجتمع حضرته وغدوا على ترائه خلائف وأمناء ... ابن العاص قد علم هذا وأقره ، ونزل دائماً على ما تعارف عليه المهاجرون والأنصار وقضوا به لأبي بكر ، ثم لعمر ، ثم لعثمان . لكنه اليوم غيره في أمسه ، وهو في غده أسيل إلى الزيغ والانحراف ... كلما تبدت رويدا رويدا خيوط نفعه في آفاق الزيغ والانحراف ... وإنه ليتنكر للبيعة اربعة كما لم يتنكر لما سبقها من بيعات . ويجهز بخلافه وانتقاضه على الإمام خلافا لا تغذيه إلا عاطفته وانتقاضا توجهه صوالحه الخاصة . ولئن قيل غضب الرجل لدم عثمان بعد ندمه لما سلف منه في حقه فمن حق أي أمرىء أن يغضب كما يشاء دون أن يساير انفعاله إلى المدى الذي يتجاوز به حدود العرف والقانون والمقدسات . وإن اعتذر له بأنه يفسق إمرة على فيراها موضوعة فبأي عذر يساغ سعيه لتأثير معاوية خليفة للإسلام ... فلقد سعى لهذا سعيه وإن توارى خلف الثأر وأبس هدفه الشخصي بخلاف زائف من المروءة . أو لا فكيف يساوم حليفه على مصر إلا أن يكون قد وضعه في خياله ، وفي تقديره ، موضعاً تكون له به السيطرة عليها وعلى غيرها من الأمصار ؟ ...

من اليوم الذي أتته فيه كلمة ابن هند وهو ينتجمه ذاك في فلسطين حزم عمرو على الخلاف أمره ، ورسمها في باله إمرة للمؤمنين يقوم عليها أهل الشام وينسلخ منها الإمام . وما أحسبه إلا سبق بهذا التفكير معاوية نفسه الذي كان قصاراه لو أقره على إقليحه وأبقى له به السيادة القديمة ... وإنه في سبيل ما أضمر ليتخذ لكفاحه عدة من الدس والسكر والتآمر ويحرك في القلوب الساذجة شغفها

بالمرودة والنخوة وولعها بالقصاص وفق شريعة الغاب ! . . . إنه ليفتح أمامها باب الثارات وسيعا على مصراعيه بعد أن كان الدين قد أوصده وحرم على أهله اقتحامه منذ حين . . . إنه فوق هذا يبتكر فرقة جديدة يضرب بها حق بين أهل نفس إقليم صاحبه ، فالنار — في رأيه — تأكل النار والانقسام يقضى على الانقسام . . .

نظر عمرو فرأى لزاما عليه ليلغ أربه أن يحى من العصبية القبلية ، ومن التحزب الأعمى للأصل ، ما كاد يموت . . . كان عليا بأن الشام يمنية ، فيها طائفة كبيرة من بقايا غسان منذ استظهر الروم بهذه الفئة العربية قبل الإسلام ووطدوا لها على حدودهم ملكا يدرأ عنهم شررة الأكاسرة وغارات بدو الصحراء . وكان عليا بأن الهجرة الإسلامية بعد الفتح قد مكنت لليمنية أيضا في التفوق العددي بالإقليم وأفادت عليهم نوعا من الشعور بأنهم غدوا أولى القوة فيه أو أنهم أوشكوا أن يعيدوا دولتهم الغابرة للحياة . . . فمنذ بعيد ، عندما كانت العرب مزقا محولة وكان أبناء شمال الجزيرة ووسطها يعيشون معيشة قبلية خالصة ، تقدمهم إلى التكتل ، ثم الوحدة السياسية ، طوائف من قبائل الجنوب فينت لنفسها سلطانا في دويلة هنا ودويلة هناك كما نعلم عن ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة اليمينية . تقدمت اليمن إذن إلى التملك ، وسبقت غيرها من العرب في مضمار الحضارة ، فلما أن أتى الدين الجديد في قريش ، وعلمت به مصر . وربطت يد الحجاز بين قبائل العرب أجمعين في الجزيرة : من ولد عدنان وولد قحطان ، هفت العزة بنفس الغالب ولعبت الغيرة بنفس المغلوب . ولولا أن دعا الإسلام بين أهله بدعوة السوية لما انطمرت في قلوب أولئك وهؤلاء — حتى حين — عوامل المنافسة والتفاخر وما قد تجر إليه من تناحر وشنآن . . .

لكن عمرو بن العاص لم يرد لتلك الحزازات الانطمار ! . . . إن التلويح بقاعدة إسلامية في الشام تساس منها الدولة الناشئة قد يكون لمعة السراب . ولكنه على أية حال محاولة تستحق منه أن يجربها إذ هي حرية بأن تبتعث الرجاء في نفوس اليمنية وتدفعهم إلى الطموح عسى أن يستردوا خرم المسلوب ويعودوا إلى تسنم ذروة مقامهم السالف على هام العرب أجمعين . . . ولئن كان معاوية من قريش فإن الإمرة المرقوبة له لن تقيمها إلا سيوف « جنوبية » يعرف فضلها عليه حين

يأتي حين المفاضلة بين قبيل وقبيل . وما أحرام عندئذ بأن يقدم اليمن على غيرها فتطفو بهم « غسان » القديعة من القاع . . . وما أولاهما إذن بمكان الصدارة في ملكه دون مضر التي لن تؤدب إلا بالتخلف إلى الذيل . . .

كان منطق الأشياء ، وأصداء التاريخ ، ودقة الاستقراء كلها تمهد الطريق لتدبير عمرو وتقديره فلا يكاد يلح عقبة واحدة تسد السبيل دون « المغامرة الكبرى » التي حزم عليها أمره تلك الليلة وهو يتكأ بشوراه عن صاحبه المهموم . . . غير أنه أثر التريث قبل أن يدلي برأيه ، فما تؤمن اليمن باليمن يتنازعان . . . وما يستطيع هو أن يحملها على الثقة به وعندها من هو بهذه الثقة أولى منه . أتري انكشفت خبايا تفكيره للإمام فتعزز له وأعد العدة التي تفسده عليه ؟ . إنه حين يجده قد بعث جريرا رسولا من لدنه إلى معاوية يكاد يؤمن بأنه فتق حجاب الغيب ولما تنفسح الأيام لتفكير مفكر ولا لتدبير متآمر . فجير من بحيلة وبحيلة من اليمن واليمن هي التي بهم عمرو أن يتخذها عدة في الصراع الرقوب ، الذي راح ما كرا يرسم خطوطه ، لكثرة من انتشروا من بطونها وأحمازها في إقليم الشام . . فهل يستقيم له دسه على بين أولئك الخنية وهم حريون بأن يكونوا أسمع لجرير وأدنى إلى الوقوف بجواره منهم إلى الانحياز لصف عمرو بن العاص ؟ . .

فليضرب إذن الرسول القادم من الكوفة ببعض أهله . . لتكن من اليمن نفسها أدانته القاضية على نفوذ ابنها جرير . . فليطلق النار تأكل النار . . . وابتم راضيا عن نفسه وقد شارف به تفكيره نهاية المطاف ، ولعت عينه الحائية كأنها شهاب . وامتلأ بالزهو والاعتداد عطفاه وهو يلقى بسمه في تراخ إلى تساؤل خديته الملهوف :

« وما ترى في على ؟ . . »

« أرى فيه خيرا . . »

فلو أن امراء سوى معاوية كان سامعه لمبطت هذه الكلمات القلائل بقلبه إلى مواطنه . فما أرقها ملقا يسبح على ظهر غريمه وينشر حوله حالة مضيئة من الإجلال . . لكن سليل أمية كان أقدر على كبش شموه أن يشى باضطرابه حتى مضى صاحبه يكمل حديثه :

« يا أبا يزيد . أتاك في هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس في أنفس الناس .. ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة فيه خطر شديد .. »
قال معاوية وهو يمالج قلقة باصطناع الهدوء :
« فما ترى يا أبا عبد الله ؟ .. »

« أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي ، وهو عدو لجريز . فأرسل إليه ، ورطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا .. »
عندئذ استضاءت عين العاهل ، وهدا زفيره ، وتباج وجهه الكمود وهو يهتف كالحالم :

« شرحبيل ! .. »

« عدو جريز ! .. »

ومضت الليلة وثيدة الخطا ، على جناحها كتاب وعى أقل لفظ وأدله ، اندفع به البريد من دمشق إلى الشمال حتى بانح حمص فأودعه يد شرحبيل .
« ... إن جريز بن عبد الله قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فظيع . فأقدم ... »

وأصبح الصبح وقد اتسمت رقعة التدبير فضمت من بني عمومة المراد بالدعوة طائفة من أسد ، وزيد ، وطىء ، هم قادة قومهم من اليمن وقحطان ، دسوا على صاحبهم يرورون له القول ويعوهونه على ما اشتهى معاوية ، ووفق خطة ابن النابغة وتديره ...

واختلف الناس في بدء الحنة على شرحبيل ، اختلفوا عليه بخلاف رأى ومشورة لا خلاف عداوة وعدوان ، فهو منهم الرأس وهم منه الفروع والأطراف ... يقول له ابن غنم الأزدي :

« .. إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتله .. فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس . وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه ؟ .. »

ويقول له عياض التمالى :

« . . . دع قول المضلل ! . . . فإن ابن حرب ناصب لك خدعة . . . »
لكنه في تردده ، واستجابة منه لغل توارى بقلبه ، يأبى السمع ، ويصر
على المسير إلى دمشق ليلقى معاوية فيها ، ويتلقى عنه فصل الخطاب . . . فإذا
رأى ابن غنم منه تصميمه ، هتف به ناصحا يحذره مره :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . . لا تهلك نفسك وقومك . . . »

ومغزيا يحضه أخرى :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . . إن كرهت أن يذهب يحظها جرير فسر
إلى على فبايعه على شامك وقومك » .

ولقد كره وإن حسب أنه تلمس وجه الحقيقة دون وحى من عدائه القديم . . .
وإنه لم يرض شأنه ، لا النذير يردعه ولا الإغراء يلويه . يعصى قدما إلى معاوية . . .
إلى دمشق حاضرتة التي موهبتها الفتنة . . . إلى طغمة بها رتبت في طريقه كنسق
بيادق الشطرنج وفرسانه ومحاربيه ، هيئت لها خطواتها سلفا إلى غاية مرسومة ،
ووضعت في أفواهها الألفاظ لتجها عند اللحظة الحاسمة ترديد يبعث . . . ومن
وراء هذا كله ، من خلف ستار ، يد معروقة تحرك الجيوط في الظلام ، وتدفع
الدمى ، إلى مصير محتوم ! . . .

١

كان الغروب منسكفي الظلمة ، شاعت في جنبات أفقه الدامي خطوط المساء
سوداء عريضة كأنها تؤاف الإطار الحزين الذي هم أن يطوق المدينة . وكان
الهدوء يملق في الجو كالضباب ، وينساب خلاله انسياب الظلال التي راح ينشرها
الليل ، لا يكاد يشي لكشافته بما يبنيء عن العاصفة الوشيكة الوقوع التي أخذت
تعمل في الأنفس وما بدت مقدماتها في الطبيعة . . . السمعة وانية . الشجر تفر
وتهدات غصونه . الماء ركذ في جداوله كقطع المرايا المصقولة يستقبل الشعاع
ثم يوشك لحدره وتراخيه ألا يعكس الشعاع .

الطمأنينة التي اكتست بها السماء ، وأغنى الجدول ، ونعس الغاب لم تلق
ظلام من ظلالها على الناس . لم تعد في دنائهم رواقها الآمن . لم تلف نزع نفوسهم
بأبراد الهدوء والسكينة — على الأرض مكوث ، وعلى الأوجه خداع . . .

ها هي دمشق في أمسياتها صامته ، ومنانة المظهر وإن كان قلبها يضج نكالية
النحل . . . فشت فيها دعوة الإفك التي لفقها عمرو وملائها الطنين كغاية ما تمغو
إليه مطاعم حليفه معاوية . . . تواتر فيها الحمس . توالى الفرية تتبع الفرية .
تزاحمت السن أهلها على البهتان . . .

أينما خطوت في القصة المفتونة التي تهيأت بحديثها الملفف لاستقبال شرحبيل ،
صك سمك اللعاب بسيرة الإمام ، وقصة محنة شارك فيها — كاختلاقهم —
بسيوف محضوب . . . ومنظر دم حرام موهوا فيه بالزيف ولعبت ريشة أخيلتهم
في جنباته بالنقصان والزيادة . . .

لكن الطنين ، والرسم ، واصطخاب القلوب بالنقمة لم تعد كلها نفس معاوية
بالطمأنينة ، لم يحس في قرارته الراحة التي حسبها الصدى اللازم لمحمسات قومه ،
ولعظهم بالفتنة ، وتناديهم فيما بينهم بالقصاص . فما زال قلقه يأكل يقينه ويفرى
أمانه . وما ولى أملة يضطرب به على مثل اللجة الحائرة ينشرها المد آونة ويجذبها
الجزر آونة . . . هدوء مفقود ، وقلبه مفشود . وحين تلوح له فرجة للرجاء
بين تدبير مشيره لا يلبث اضطرابه أن يسدها ويبنى عليها بالطين . . . فلعله
الآن قد خشي أن يفسد دس ابن العاص فلا ينطوى له شرحبيل . . . من له

بإتلاف الجنة معه على غريمه وإنهم لشيع بعدد البطون والقبائل ويقدر المشارب والأهواء ؟ . . . يستطيع أن يأمن منهم بدواتهم وهم لجرير ذيول ؟ .

كلما أوغل المساء حمل من قنانه إلى دخيلة نفس ابن أبي سفيان ، وعفى على أحلامه الموثقة بظلاله . . . الآن حقاً في حوزته الشام ، ملك يمينه وإحسانه ، ولكن أمرها في غد في يد الغيب . . . هي أموية ، والله عشرين حجة طويلة ، وحرية بأن تواليه بعدها عشرين لوبقيت حالها كأمس وأمهل له الأجل في الحياة . غير أنها — بعد أيام ، عندما تتفاعل الدسيسة التي دبرها ابن العاص — سيفقد مصيرها معلقاً بخيط ، بكلمة قد تفلت من هذا الفم أو من تلكم الشفاه ، فإذا أمرها ينتهى إلى غير رجعة ، وأمله يذهب مع الريح ! .

وحد هونا من اضطرابه ، ورد من تأثرة خيالاته . إن القلق يلعب بنفسه ، وما يحسن بالسياسي الأريب أن يعطل العقل ، ويعمل بأعصابه . . . لم يعد يؤمن اليوم بالتأنج التي حدسها عمرو وإن كان ليؤمن بالمقدمات بعض إيمان . وهل ذلك التدبير إلا مغامرة ؟ . . . وهل النجاح إلا صنو الفشل في أمثالها من المغامرات ؟ . . . إن كاد ليقتنع بحلوسه ينتظر ما تنجلي عنه التجربة لو علم أن شامه باقية له خاب تقدير مشيره للخواتيم أو أصاب . ولكنه هو وحده محور التجربة : المادة التي تنصر على نار الانتظار . فما مآله لو لم تخلف التجربة في البوتقة إلا رماداً أو ما هو أتفه من الرماد ؟ . . .

ألقى إذن بطبعه ألا يدع مصيره ومصير إقليمه في يد نتيجة مجهولة تسفر عنها أحاييل عمرو . ليس هو بالذي بكل شأنه للمصادفات ، أو لرجل كشرحيل تلعب بنفسه جمعات عاطفته فلا يؤمن جنوحه إلى عين أم إلى يسار ، أو لحفنة من رؤوس اليمن قد تضطرب ميولهم بينهم فلا تتفق كلمهم على قرار . ليس هو بالذي يبيع ما في يديه ليشتري سلعة خبيثة لما يطمعها الغيب . . . إنما من حق أهدافه عليه أن يستبق الجسر الذي يربطه بماضيه لا يهدمه لعله يكون مخازنه — حين محنة — إلى ضفة الأمان ! . . .

وهذا جأشه لهذه الحيلة الواجبة منه ، فانطلق من لحظته ، الليل وطاؤه والحفة رداؤه . . . فلما أن جنته دار رسول الإمام ، ألقى العبء الذي أثقله خلال انفراد بأفكاره :

« يا جرير ، إني قد رأيت رأيا . . »
فانبسطت أسارير الرجل الذي برح الكوفة ، وقطع من الفلاة شوطاً ومن
الزمن سلخه في سبيل الوفاق :

« هاته يا أبا يزيد »

« اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ، ومصر جباية — »

« وتبايع ؟ »

« فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي . وأسلم له هذا الأمر .
وأكتب إليه بالخلافة . . . »

فتفكر جرير . . . ما عليه لو فعل ، عسى الله أن يرأب الصدع ويحقق
الجماعة ؟ . .

قال :

« اكتب بما أردت ، وأكتب معك . . »

فلو أن هذا الرسول احتذى حقاً نهج سيده الذي إليه أرشده لما خط كلمة
واحدة في كتاب ابن أبي سفيان ، ولما ارتضى منه هذه المساومة . إنما بعثه على
ليعة غير مشروطة يقتضي معاوية إياها ويقتضيه معها إمرة الشام : التسليم وحده
كان مجاز الأمير المشاق إلى رضا الإمام عنه ، والوسيلة إلى الإبقاء على وحدة
الأمة بلا انقسام . . . لكن جريراً جاوز حدوده . وتحيف على أمانة الأداء
المفروضة في كل رسول ، فنضح بما في نفسه بفعله ، وتبدى لناكرة أخرى — كبده
قبل تركه الكوفة إلى دمشق — فردا من أولئك الذين يلوون الحق ليلاً ثم
الهرى وفرقه كأنما حسبوها يجتمعان . . .

أفتصدق عليه إذن كلمة الأشر : « إني لأظن هواه هواهم » فهو خائن
بهذا التقدير ؟ . . إن المرء ليوشك أن يسائر الشك فيؤثم الرجل ، ثم يوشك أن
يحسن الظن به فإذا به هو مخدوع . ولسكننا على الحالين نرى علماً صاحب المبدأ
الأمثل الذي لا يتعرف قيد شعرة مع الباطل وإن جاء الانحراف بالدنيا جميعها
مسومة تناديه أن تكون مثته . . . ونراه كذلك رجل السياسة الذي يجد
المساومة آفة تأكل من هيئته كما تضعف مثله وتقوض خطته التي جعلها أعمدة

دولته . فما من امرئ يعلمه هاود بعد طول تمسك وإصرار إلا أيقن أنه أضعف الفريقين غلبه الحق على عناده . وإنه إذن لحرى بأن يكون العوبة في أيدي عماله يجلبون طينته على الشاكلة التي توأثم هواهم ، منهافت القدر في عيون شعبه فلا يؤمن فرد واحد بأهدافه

خضع جرير أو خان فالإمام ثابت في مكانه ، رسخت قدمه على عزمه ، وصحت نيته على انتهاج المحجة المستقيمة بغير زيغ ولا انحراف . فليس هو بالذي يساوم الباطل أو يهادنه . وليس هو بمن يقتله زخرف أخدوعة المقدمة لا يحلها أن يدعها بل أن يقطعها والحية إن بتر منها ذيلها ثم أطلقها فلن يكف عن اللدغ نابها السام

ولذلك كان جوابه إلى جرير يكشف عن حيلة معاوية ويهتك سترها المموه بزيف الرغبة في الخضوع والطاعة :

« . . . إنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . وأراد أن يرثك حق يذوق أهل الشام . . . »

لقد صدق حقاً حدسه في البدء والنهاية ، فإنما رحلة الكتاب وأوب الجواب مهلة مخطوطة بقرت لمعاوية عن دخيلة عنية إفليمية ورأسهم شرحبيل فهذه دمشق تحتوى الرجل بعد أن تخمرت بالديسة وها هو يبيت فيها كمن في خلية ، ملأت أذنيه بالأزيز والطنين وها هي استقبلته كاستقبالها الغزاة المظفرين ، يلعب حديث صنائع أميرها بإيمانه ويمسح ثناؤهم على غروره وعندما تفتح له أبواب القصر يثني فيه كأنه متبوع ، يوشك معاوية أن يسير بين يديه من خضوعه

ويفرغ الرجلان من بعد الخلوة ، يقبل معاوية على زائر خلاطها في استحياء المذراء :

« يا شرحبيل . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على . وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . »

فيتفكر سيد اليمن هنيهة وهو مشغول . هذه نفس الصورة التي شهدناها طوال طريقه بالحاضرة الأموية حتى بلغ دار الأمير . ذات الطنين . ذات الخلية المضطربة

بالوسوسة والأزير . . . يا ترى هذا كله كلمة مصنوعة وزعت على الألسن ووضعت في الأفواه ؟ . . . أتلفيق ؟ . . . أتواطؤ على مكيدة ؟ . . . هو يخشى أن يكون رأيه ملهامة لقوم يزينون به مع هواهم ويخطون به مجراه . لكنه يكيح نفسه أن تنساق وإن آمن في ضميره باستحالة إجماع كل من قابلهم على ضلالة . وإنه إذن ليتحرز فلا يتعجل بحكمه ، فإنما الخير في الحيلة .

ويبدى الريث في تساؤله :

« رأيك ؟ »

فإذا معاوية لا يجيبه إلا بما يتعلق باعتداده بعقداره بين الناس :

« . . . إني قد حبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا . . . »

عندئذ يطعنن خاطر شرحبيل وتهدأ وساوسه . فما هذا حديث مولع بفتنة كما حدث ابن عثم ، ولا يخذعة مضلل كما ظن ابن عياض . بل هو قول من يحب أن يتلمس الحق حيثما كان ، فيصدر في رأيه عن شعور أهل إقليمه ، وفي فعله عما يحملونه عليه . . .

ونهض شرحبيل راضيا وهو يقول :

« أخرج فأنظر . . . »

وحسب بهذا أنه بلغ ذروة التحرز وطلب الحق الخالص في مأويه !

٢

كرة أخرى احتوته الحلية . . . الآن أرفع أزيما حق بلغت المهمة مثل عواء العاصفة في الغاب . الرياح نفسها راحت تحمل الثورة على الإمام . . . قطر المطر على دروب عاصمة الشام كان له مثل قرع الطبول الداعية للحرب . . . ليالي الشتاء الحالكة كانت مرآة تمكس العواطف الحزينة التي فاضت بها القلوب أسى لعثمان . . .

أينما مضى الرجل يستطلع نبتت السنة في مسارب قدميه تناديه للقصاص . ضاقت السبل عليه وعن وطأهم له معاوية ومشيروه . ملأ النحل عليه هدأة القضاء .

إن جرسهم جميعا واحد ، بغير تفاوت في الرنين كأنما صدر من ذات الناقوس .
 سحنهم كلها واحدة قلبها الغضب وبدت فيها تكشيرة الذئاب تلويحهم أيضا
 واحد ، تقبضت به الأصابع تنوعد كأنها تشد على حسام مسنون . . .
 وفرت الحيلة موليه أمام هذه المظاهر الناقمة ، فهاج شرحبيل :
 « يا معاوية أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . والله لئن بايعت له
 لنخرجنك من الشام أو — لنقتلنك . . . »

فكنتم الحاكم المجدود غبطته بغفلة حليفه الجديد ، وقال وهو يبدى التسليم :
 « ما كنت لأخالف عليكم وما أنا إلا رجل من أهل الشام . . . »
 « فرد هذا الرجل على صاحبه إذن . . . »

إن بارقة واحدة للحق تبلجت هنية في ذهن شرحبيل وكاد يستضيء بها
 ضميره ذات ليلة أراد أن يدل فيها على جرير بسلطانه بين قومه من رجال الجنوب .
 فما نراه بعد لقائه معاوية ذاك إلا أن ملكت نفسه الثمالة ، واستبدت به رغبته
 في التشفي علاجا لعله ، فمضى يقرع رسول الإمام وهو يحرص على أن يعلأ حديثه له
 بغمزات سخريته وازدراءه :

« أتيتنا بأمر ملفق لتلقينا في لهوات الأسد ؟ . . . وأطرات عليا وهو
 قاتل عثمان . . . »
 فجبهه جرير :

« . . . والله ما في يدك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ! . . . »
 واحتدم بين الرجلين حوار أحسب كلا منهما كان يدافع عن قدره قبل
 دفاعه عن أهداف صاحبه . ولكنه حذل بذو الشك في نفس شرحبيل ، وذكره
 ما أضمر بين الحقد على منافسه وما أحيى من كلفه بجاء النفوذ وإنه لتلعب به
 الريية فلا يدرى أين يضع تأييده حتى يسمع من ابن أخته له شعرا لو ترك معه
 وشأنه لكان حربا على معاوية ولكن عاهل الشام كان أنفذ بصيرة ،
 وأسرع إلى معالجته عن التزام جانب النصفة فإذا الصنائع تقتله ثانية ، وتتهم
 عنده عليا بدم عثمان ، وتقيم البيئات والحجج على ما ادعته : كتبها مختلفة وشهادة
 زور وعندئذ يحرق ويهود عناده حتى لود لو اقتضى ابن أخته ما يجمله
 أمثلة :

« هذا ببيت الشيطان ! .. والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنى .. »
ورين على بارقة الحق في ذهنه بظلمة الضلال ، وباع نفسه للباطل . . . وكتب
على الأمة الفرقة . . .

وإذ أوشك أن يرح دمشق حج ثانية إلى كعبته : قصر الأمير للغامر ،
يعاقده على ما انتهى إليه تفكيره :

« . . . أنت عامل أمير المؤمنين عثمان ، وابن عمه ، ونحن المؤمنون ،
فإن كنت رجلاً تجاهد علياً وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تقى أرواحنا
استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك بمن نريد ثم جاهدنا معه حتى
ندرك بدم عثمان أو نهلك . . . »

فهل تغير هذا سعى معاوية حتى يتردد لحظة في اعتناق ما عرضه شرحبيل ؟
إنه قد غامر وأفلحت مغامرته بعض فلاح ، ودبر وكاد يجدى عليه تدبيره ، وعندما
يمضى شرحبيل عنه إلى منزله ، وإلى مأوى قومه ، وإلى بطون من قبائلهم
وأشخاذ تؤلف الكثرة الغالبة من أهل الشام ، فيفتد سيسى هناك رأيه
كالمدوى ، فتطيب به أمرتهم ، وتصبح طرية دانية تنتظر آن القطاف ! . . .

ومع ذلك فلم يقطع صاحب الشام برأى في وفادة جرير حين كر عليه يستحبه
البيعة ، ويستقيته الدخول في الجماعة . فلقد أبطأ حتى لم يعد بعد هذا مجال
لإبطاء ، ومضت به الأيام والأشهر وهو يستعمل رسول الإمام عسى أن تتفاعل
دسيسة عمرو فيتعرف خبيثة أهل إقليمه ، ويذوق طعم دختهم المغشوشة ! . . .
وإذا كان شرحبيل قد سره هونا ، وزوده من تأييده بأدسم زاد ، إلا أنه ما زال
يؤثر التريث حتى يجيئه الغد بالينية كلهم ظهيرا وتكأة . . . وإنه ليجلس الآن ،
في قلبه ثقة ، وعلى وجهه مثل صمت الجلود ، يستمع إلى جرير وهو يتلو عليه
آخر ما وصله من الإمام :

« . . . أما بعد . فإذا أذاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخذه
بالأمر الجزم . ثم خيره بين حرب مجلية ، أو سلم محظية ، فإن اختار الحرب
فانبدله ، وإن اختار السلم فخذ بيعته . . . »

فلو أن بينه وبين محدثه حجابا ساترا لحركت حروف الكتاب من قسماته ما ينبىء عن انفعاله وهو آمن أن تراه اللعاط الناقدة والعيون الرقيبة . ولكنه راض عاطفته على البقاء فى قرارة جليدية ، تنطفىء فيها جذوة قلقه واضطرابه . بل قد حبس لسانه فى حلقة لا يحركه ، حتى ليحسب مشاهده أن كل جوارحه همدت فيها حركة الحياة إلا سمعه للرهف لبقية الحديث . . .

وراح فى سكونه يعد أذنه الصاغية لوعيد جرير ، ولكنه كان إنصات المشغول بأمر بعيد . دونه فسح من الزمن وأشواط من المسافة . . . فإلى الشمال قد مضى خاطره — إلى منازل شرحبيل — إلى حمص التى لا بد قد وصلها رأس اليمينة الآن ومضى فيها يعدى الناس بنفسه المريضة . . . وإن قلبه ليتبع داعيته الجديد هناك . وإن عينه لتتأثر خطاه أينا مضت به القدم فتتعلق منه بكتابه الذى لا ريب قد تلقاه . . . لقد كان لا بد لإتمام الحطة ألا يقبع شرحبيل بمستقره ، قانعا بسخط الإمام وغضبه عليه . بل أن يسير بنقمته تلك يذرع الإقليم ، ويغرس نواتها فى أيعا رجل كانت نفسه ربة صالحة لاستنبات الفتنة . . . وما كان أيسر هذا على معاوية وقد صمّن ميل شرحبيل إليه . ثم رسم له الهج الذى أراد بكتاب منه لحق به غب مبارحته دمشق ، يقول فيه :

« . . . إن هذا الأمر الذى قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة . فسر فى مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه . »
ورد معاوية عن متابعة رحلة الخاطر أن صك سمعه ختام الحديث الذى كان قد ساقه جرير :

« . . . أراك قد وقفت بين الحق والباطل كأنتك تنتظر شيئا فى يدي غيرك . . . »

فرفع برهة عيننا تائمة إلى محيا الرسول ، ثم حمل لسانه على الجواب :
« أفتاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله . »

غير أن ذلك المجلس لم يتج له أن يكون إلا بعد أن مضى داعية الباطل وخطة عاهله ، يغير النفوس ، ويشير الثائرة ، ويؤلب الناس . ولقد يكون من حق الواقع الإقرار هنا بتلك المعارضة التى صادفها شرحبيل ، ولكنها مع ذلك معارضة

سلبية ، لم تجد لها صدى في نفوس العامة الذين تتألف منهم كثرة أهل الشام . كانت حيدة التزمته طائفة من نساك حمص ، ممن صفت قلوبهم لله وأبت الزيف فلم يصغروا للدعوة . ومع ذلك فلم يؤثر تقاعدهم شيئاً في همة الداعية المفتون ، بل راح ينفث سمومه حتى لم تبق في الشام مدينة إلا استجابت له وقد سمعته يقول :

« . . . إن علياً قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجميع ، وغلب على الأرض . . . وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خاض به غمار الموت حتى يأتىكم . . . ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية . فجدوا ، وانهضوا . . . »

فلعل هذا النجاح قد أغراه باهتبال غيره أبلغ ، تكون له المنعة على صاحبه والحظوة لديه عندما يستقيم أمره على غاية ما يشتهي . فما إن فرغ من رحلاته في بلدان الإقليم ، ورأى تبشيره قد أتى بشمره ، حتى راح يقلب كتاب معاوية في كفه وهو آخذ عليه ما بدا فيه من قناعة ومطلب يسير ؟ . . . أفيكفى الآن بالإمرة ؟ . . . ألا تتطلع عينه لما هو أعلى من مكانته . . . أضافت دنياه إلا عن الشام ؟ . . . وهتف الداعية لنفسه :

« هذه سقطة ١ . . . »

ثم قام من فوره يكتب إلى أميره
« . . . إنك أخطأت خطأ عظيماً حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة . . .
قد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة ١ . . . »
وفد فعل .

وسافر البريد إلى دمشق بالكتاب والأخبار .
عندئذ آن لمجلس معاوية أن يكون ، فقد ذاق أهل الشام ، وطعم من حاوهم ما لم تطلعه قط أحلامه ! وإذا به يمد يده إلى رسول الإمام بالرد الذى طال عليه الانتظار ، ثم يقول في خيلاء :
« يا جرير ، الحق بصاحبك ١ . . . »

أين هداة الطمأنينة؟ .. أين سكينه الوفاق والوحدة؟ .. أين منهم ، جميعاً ، السلام؟ .. خياله كان وهم أفئدة خشيت الفرقة أن تمزق الأمة وتميدها ثانية قبائل محلولة كبديها الواهن في صحارى الجزيرة . حديثه كان أمنية وحلم حالم .. أما الآن فما للسيوف تؤثر العرى؟ .. إنها تهيات تنضو القرب وتمخلع الأغماد . الحراب شحذت والسهام ريشت . الرماح أنلمت الجيد في الفضاء وشدت القوام ، يكاد صقالها يخطف البصر وسنانها يقطف الهام ! .

اليوم لا سلام ! .. حق الكوفة للمصابرة لاكت الحرب . الصمت آدها وأعيها . الركود الذى ارتضته فى الله لم يعد له فى أعضائها مسرى بعد إذ لقيت دعوتها إلى الاتحاد العنت والجحود والترفع .. ليس فيها اليوم من يستطيع رد نفسه عن لقاء عدوها العاصى بما يغرى ادعاءه ، ويقمع طمعه ، ويقمأ خيلاءه . كل أهلها الآن غاضب ثائر ، تمردت كبرياؤه على صبره ..

وكان الإمام لا ريب أولى امرئ فيها بأن يثور كصعبه ويصبح لهم فى غضبهم طليعة . ذاق من الشام مرها . وعلقمها . طعم من تمرد أميرها الصاب . لكن طبعه جنبه الدفعة ، وأبت عليه حكمته أن على لحنقه أو يفسح السبيل لمواطن قومه فتطفئ على أناته . وإنه ليكبح منها الجراح ويمسك عنانهم أن يتفلت من كفه فيلقاهم بالملائنة كلما تلاسبت نواظرهم لتلبث جرير وشدوا على سيوفهم وقربوا الحيل وصكوا الأنياب :

« .. وقت لرسولى وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً » . وما كان يريثهم رهبة ، إنما رغبة فى استنفاد كل معذرة قد يسوقها غريمه ، وفى إنفاذ كل حجة إليه ، ثم ينتضى بمد هذا حسامه ! .. أما الآن فقد مضى وقت الإعذار إلى غير رجعة . فشلت المصابرة ، ونبذت الحجة المؤزرة .. عاد أخيراً جرير ، وهامى الأرض توشك أن تميد به ، أمن قلق أم من خيبة ؟ .. وهذا حديثه يترنح به وتلك ملاحه عليها غبرة ، أو صمة عاص أو صمة مخدوع ؟ .. .

ويقبل الإمام بسمعه ، ثم يغضى بعقله عن كلمات رسوله التي جابها معه من الشمال كأنما لقنها من لسان عاملها وقومه العصاة . . يغضى عن أسلوب الوعيد ، وقصة ميثاق الميثاق من ذوى الخيول والأسنة المتمرسه بالحروب ، ونبا الخطر المنيق من اجتماعهم على التنادى بالثأر انبثاق سيل الطرفان . . . فأما مكابرة معاوية فلا يغض عنها جناحه — مكابرة التي حملها جرير من دمشق في كتاب ، أدبه زيف ، ومداده افتراء . . .

يقرا سطور الإفك المنقوشة أمامه وهو آسف حزين لما انحدر إليه ضمير ابن هند ووجدانه :

« . . . لعمري لو بايعك انقوم الدين بايورك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان . . . ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذات عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . . . وقد أبى أهل الشام إلا قتلك حتي تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فذات كانت شورى بين المسلمين . . . »
فما كان أعجبها فرية لا تكاد تلزم عليا تحمل دم القتل ، وإن ألب وخذل وشرك فيه ، تنهافت وتهاوى ، على بها قاتل برىء . . .

وتتهم العقل ، لاريب ، إن أقدمنا على فخصها تحت مجهر المنطق ، أو ردنا أسنادها إلى وقائع التاريخ . . . لسكتنا نؤثر التخلي عن الجدل فيما لا يجدى فيه . ونحاول أن نلم بهذه الآونة التي أشرعت فيها الأسنة تستعد للتشابك فلا تراها إلا فترة من حرب لفظية سبقت حرب الحديد والنار . كل فريق أخذ اليوم في الإعداد ، وجذب الأنصار ، وجمع السكتائب المكتبة تقيم له أهدافه فوق دعامة من الجماجم . وما يريد بهذا أن يرمى الإمام بالظما للدم ، إنما نراه — وقد غلب على صبره — لم يجد معدى عن لقاء خصمه يبعض الأسلحة التي اختارها للصراع ؛ وكان من بينها سلاح الحاجة والمسكايدة والتبشير . . .

غير أننا لا نستطيع هنا أن نغصط معاوية حقه من التفوق في هذا الميدان . لقد كان أملك لأدواته من على ، أقدر على العمل بها قاطعة حديدية لأنه رجل لم يردده وازع عن التماس أى أسلوب في حربه الباردة ، مشروعا كان أو غير مشروع . لم يرحل في الدس ، ولا في الغدر ، ولا في الادعاء بالباطل ما وصلت به طرائقه

الملتوية إلى مطمئن قاتل في غريمه . كان همه أن يفوز وإن وطشت قدمه الملوثة
قدس الحق وقيم الأخلاق . كل حرمة مباحة ، وكل ضلالة حلال . الحق باطل
معارضه ، والزيف حق ما أيده ، فهو بما اجتمع له وزودته به خصاله وشيمه
صاحب اليد العليا في حرب القلم وحرب اللسان . .

وكانت الخطة التي اتبعها على ها هنا دفاعية ، تماماً كأختها التي التزمها من قبل
ومن بعد في القتال . فما عرف عنه قط أنه هاجم ليكون بادئاً بعدوان ، بل
« الرد » كان أسلوبه . الرد ليصير ، أو يدفع نهمة ، أو يجمع فتنة عدت على
حقه الذي هو حق الأمة التي نصبته حارساً عليها يذود عنها الدواهي الداهية
والعوادي المغيرة . . . فلا عجب أن يكون خصمه في ميدان المسكيدة « أخف
حركة » منه ، يبدأ حين يشاء ، ويختار من جنبات الحلبة ما شاء . وأن يكون
« حر الكف » يتناول السلاح الذي يوائم طباعه وليس عليه من ضميره رقيب
يزعجه عن فعال تسيل لأشباهاها بالندم ضمائر الأحرار . . .

لم يكن الرجلان إحدن في مجال هذا الصراع اللفظي على مكانة سواء . رجحت
كفة المعادي وشالت كفة المفترى عليه . تباينت الأسلحة ، فهي في يد على محدودة
وفي يد خصمه وفيرة عديدة جمعت كافة الصنوف والأنواع . تمددت ميادين
الحاجة والتبشير أمام معاوية وضائق حلقتها على الإمام — إلا ما أقره منها الدين
وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة . بل القرائن البشرية في صورها الشائنة لمعاوية
ظهير إذ هو امرؤ أجاز لنفسه تسويد المادة على كرائم الأخلاق .

تحت هذه الأضواء التي تشعها أدوات الصراع يمكن في يسر فهم التفوق
الظاهري الذي حازه ابن هند حتى علت به يده فوق كف غريمه . وإنه لتفوق
ترفعت عنه شيم الإمام وسجاياه وهو غير عاجز عن حيازة مثيله . إنما قد أباه
وهو عالم أنه بإبانه هذا مغبون . فلقد آثر ألا يعد دينه ومثله السامية سماتاً تطعم
منه أهواء اللثام فتشبع البطون وتنجوع الأرواح . واقد رضى بالالحى يمدله به
الجاهل العائب ، والشانيء الثاب وإنه لعارف أن تفوق خصمه تفوق غدرة
لا تفوق قدرة ... وها هو يكشف لنا عن حقيقة الحال في الزال الذي لم تتكافأ
فيه القوى المتنافرة في الجانبين ، عندما يقول :

« والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية القدر
لكنت من أدهى الناس . . . »

فالقياص هنا بين قدرتين : إرجاف بالباطل ، وتحيف على أصول المقارنة ،
ومجانبة الإنصاف . وهو كمثل صررك الماء في ثوب ، وحصررك الشماع في قبضة ا .
فأما العائب الزاري الذي أضله هواء فرفع معاوية درجة في مراتب الدهاء ،
وقرر ذكاه . ووفر له من مقومات الحنكة السياسية ما شاء ، فهم فليقدم
ليكشف لنا متى جرد الداهية من باطله ما عجز حق الإمام عن الثبات له ثم فشل
من بعد دون دهره واستذلاله . . .

جيش عاهل الشام من مكره وأخاديعه الكتاب التي تعمل له ، وفرق منها
في الليادين الإسلامية . . . في مكة والمدينة بث دعائه . وفي أرض النيل . وفي
إقليمه هو الذي كان حرباً به أن يطمئن لولائه ، بل في الكوفة أيضاً نشطت له
فرقة من العيون والجواسيس . . . وكان يعلم أن أفيل أسلحته هو ماهاجم به عليه
في إمامته ، ونال من شرعية البيعة التي غدت له في عنق الناس فلم يأله تنقصا
ونجربحاً ، ولا ونى عن معاجلته باللمزة تتبع اللمزة ، والهمزة تردف الهمزة ،
تسكاد تتفق في معانيها وإن تباينت فيها الحروف والألفاظ . . . كان يفترى ، ثم
يعاود الفرية ، ثم يكرر المعاودة ما وسمة أن يكرر عسى أن يقر افتراؤه في نفوس
صحبه يقينا ، أو يثبت الريبة في نفوس أعدائه فينحدر بهم تيار الشكوك إلى دركة
ومهواه . وإنه بهذا الرابع على أى حال ما دام مستطيما أن يخنى عن الناس
الجوانب التي لا تظاهره ويبدى كل ما عداها : ما يتنقص من سمعة الإمام . . .

ولم يكن كتابه الذي احتمله جرير أول ما نطق بكذب ، ولا آخر ما أتى
بيهتان . . . إنك لتسكاد تعد من أمثاله ما يعي الحصر ثم توشك لو شئت أن
تحتزلها جميعها في واحد يغنيك لبابه عن الكثرة الوفيرة . ولكنك لن تجده
قط انبرى بإفسكه إلا انبرى له على بحقه ، فيه دحض وحجة وإحكام . فهذه الحرب
اللفظية التي شنها لقيت أمامها الكفاء القادر على أن يحيلها سجالاً لا ترجع فيها
كفة العادى إلا بقدر ما يتهماً خصمه لرد العدوان ، ولو أن علياً صمت فلم يجب
على تلك الكتب المبطللة لما نال صمته من قدره في نفس أى امرئ يتحرى

النصفة ، ولكنه كان عارفا بطباع الناس ، علما أن السكوت قد يساء فهمه عند العامة الذين تستهويهم مظاهر الأشياء فيرون الحسر في الصمت ، والكف عن الجواب توأم الحرج والاعتراف بالهزيمة . لذلك لم يفض الإمام قط عن قرية ساقها مملوكة ، ولا عن كتاب جاء الرجل أن يزخره بزيه وأباطيله ، ولعل اجتراءنا ببعض رده على ما احتمله جرير فيه غناء عن الإطناب وسوق الأمثال .

كتب عند ذاك إلى العاهل المتمرد يقول :

« . . . أنا في كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبه . . . »

زعمت أنه أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى . وما أمرت فيلزمني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فيجب علي القصاص . . .

وأما قولك : ادفع إلينا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . . إنما أنت رجل من بني أمية ، وبني عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إلى أحلك وإياهم على الهبة . . .

. . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف الخيار . . . »

وإذا كانت العرب في جملتها أمة « سامعة » قبل أن تكون قارئة ، فقد استغل الفريقان منها هذه الصفة فحرص كل فريق على أن تصل دعوته إلى السمع تصكه وتغزوه . . . لذلك تراميا — فيما ترامياه من أدوات هذه الحرب السلية — بالنظم يزجونه ، كل إلى غريمه ليبرز تحت مواطئه . فللشعر مدخل إلى النفوس قد يستغرق دون غيره من فنون البلاغة ، وله ذبوع يشق على ما سواه من صنوف الكلام . إنه صحف العرب السيارة التي تخلق الرأي العام أو تصوغه وتجبله . له مبرى على أجنحة الريح ، مع الظاعن الراجل والفارس الراحل . . . الرواة يتناقلونه ، والحدادة يترعنون به ، حتى يبلغ الحضر كبلوغه الوبر ، وحتى يقتحم السكوخ كافتحامه القصر ، والندى كالخدر . . .

ترامى الفريقان بالشعر خطير المرمى بعيد الغاية ، يستعدى الناصر ويجذب

المعين ، فإذا هذه الحقبة كالتربة الحصبية ، أطلعت نقرا وفرا من شعراء السياسة ،
يدعون بدعوة الكوفة أو الشام ، ويتأثقون في إبراز القضية التي يظاهرونها
بمنطق القصيد الذي يستهوى السمع والماطفة ، حشوه الحجة والبرهان . . .
يحدثنا بمض شعر من تخيرهم معاوية لنصرة أهدافه . في مجال التعريض بعقيدة
رجال الإمام :

وقالوا : على إمام لنا فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا
وما في على لمستعجب مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ، ورفع القصاص عن القاتلينا
فما يكاد شعره يصل الكوفة حتى يكون له صدى : شعر آخر يجاوبه ،
ويتردد في غياض دمشق ورياضها :

« . . أتاكم على بأهل الحجاز وأهل العراق ، فما تصنعونا ؟
يرون الطمان خلال العجاج وضرب الفوارس في النقع دينا
جعلتم عليا وأشياعه نظير ابن هند ، ألا تستحونا ؟ »
ثم لا تقتصر هذه الحرب الشعرية على أن تتناقلها الكتب أو الرواة عبر
الفوات ، بل نرى جموعها زحفت تقتحم على معاوية معقله . . . فإن هي إلا أيام حتى
كان على قد بعث إلى الشام خفاف بن عبد الله ، أحد بني طيء في زيارة لبعض
أهله هناك لعله أن يبلغ بهم أميرها ابن هند فيلقى في روعه من حديثه وشعره
ما يكسره ويكسر معه رجال إقليمه . .

ويستقبل معاوية الرجل وقد قدمه له حابس ، سيد طيء ، فيسأله حين
يعلم أنه حضر فتنة المدينة :

« . . حدثنا عن عثمان »

فيجيبه خفاف :

« حصره المكشوح ، وحكم فيه حكيم ، ووليه محمد وعمار ، وتجرد في أمره
ثلاثة نفر : عدي بن حاتم ، والأشتر النخعي ، وعمرو بن الحق ، وجد في أمره
رجالان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه على »

« ثم مه ؟ . . »

« ثم تهاقت الناس على على بالبيعة نهاقت الفراش ، حتى ضلت النمل ، ومقط الرداء ، ووطىء الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يذكر له . . . ثم تهاق للمسير ، وخف معه المهاجرون والأنصار . وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة . فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل . . . حتى إذا كان في بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجلا إلى السكوفة فأجابوا دعوته ، فصار إلى البصرة فهي في كفه ثم قدم إلى السكوفة فحمل إليه الصبي ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس فرحابه وشرقاً إليه . فتركته وليس همه إلا الشام . . . »

وما يعني أن نتناول هنا القصة التي رواها خفاف بالتحريض والنقائس ، فقد فرغنا قبل من حديث الفتنة وأنضنا فيه . ولكننا على أية حال ، أبرأت عليا من الدم أمام من لفق اتهامه ، وبلسان امرئ كان لا يسخط عثمان . وإن معاوية ليتدبر ما في رواية الزائر فلا يقع منها إلا على ما يرد كيده ، ويهدم دعواه ، ويكاد يكسر عنه أعوانه لو خلى بينهم وبين السماع . . . وإنه ليخشي الخشية كلها على كفاحه ، حتى ليوشك أن يطوى مجلسه عن سيد طي وصاحبه مذعورا مضمض النفس من خشيته ، لولا أن يصطنع قلة اللبالة وهو ينصت لبقية الحديث . . .

ويقول حابس :

« . . . ولقد أسمعني ، أيها الأمير ، شعرا غير به حالي في عثمان ، وعظم به

عليا عندي . . . »

فهبط قلب عاهل الشام . ولكنه يتجعد جهده ، وينظر إلى خفاف :

« أسمعني . . . »

فإذا الرجل قد بهته بقريضه ، وأتاه من ألفاظه البينة بمثل صوت الحمام

الأسنة ، وقعمة السيوف والصوارم ، ما أوشك أن يصم سمعه . . .

ويعض خفاف في قصيده :

« . . . اهرب اليوم إن أذاك على صيحة مثل صيحة الأحقاف !

إنه الليث عاديا ، وشجاع مطرق نافث بسم زعاف

فارس الخيل كل يوم نزال ونزال الفقى من الأنصاف
واضع السيف فوق عاتقه الأيى ن يذرى به شؤون القحاف
سوم الخيال ، ثم قال اقوم تابوه إلى الطعان خفاف :
استعدوا لحرب طاغية الشا م ا .. فلبوه »

فما عاد المنحرد يستطيع أن يستمسك ا لقد عصف به قلقه ، وذعره ،
وانزعاجه . . . إن الجدران حوله لثمة ، تترنح وتميل . والأرض تحته ميادة .
وقلبه يضطرب بين جنبيه كانتفاضة الطائر الذبيح . . . لكأنما القتال استعر .
لكأنما الخيل حصرتة . لكأنما السلاح اعتوره وهو لقي على الثرى ، موظئا
للحوافر ، تنفث جراحه بقية حياته قطرات حمراء . . .

ونفض معاوية الرؤيا المفضمة عن ذهنه المحموم . ورفع وجهها باهتا إلى
سيد طيء ، ثم مال عليه يسر بقدر ما وسع نفسه اللاهث :
« يا حابس . إني لا أظن هذا إلا عينا لعلى . . . أخرجه — أخرجه عنك
لا يفسد أهل الشام . . . »

ع

أحدث خفاف ، أم بعض الخطط المرسومة هو ما أوحى إلى معاوية بتوجيه
دسه إلى الحجاز ؟ . ابن العاص — على أية حال — لم يشر عليه ، ولم يكن
من تدبيرة أن يبعث صاحبه كتبه ورسله لى الجنوب . وإنها لسقطة منه ما كان
يحسن أن تغيب عن دهائه . فبث القتاد فى طريق الإمام أولى بمثله ، وأقن حين
الصراع أن يعلو بصاحبه على غريمه .

لكنه ، لأمر لعله أسره ، ود لو رد معاوية عما عقد رأيه عليه ، وعندما
سمعه يقول :

« إني قد رأيت أن نلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر
عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا . . . »
أبى ، وحاجه :

« إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : راض بعلى فلا يزيدك ذلك إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان فلن تزيدك على ما هو عليه ، أو معتزل فلست بأوثق في نفسه من على . . . »

غير أن معاوية لم يمل به هذا الاعتراض شعرة عن عزمه ، بل عساه ارتأى في بعض أهل الحجاز تربة قد تثمر فيها بذوره ، لعل هوى في نفوسهم أن يجنح بهم إليه فيكونوا له النصير . . .

وتخير الرجل من فوره ألمع أسماء هناك يجاور أصحابها مقام محمد وبيت الله ، فما وجد خيرا من أولئك نفر الدين اعتزلوا الأمر ، ونأوا بجانبهم عن مظاهرة على وعن ثلبه على السواء ، ففي نفوسهم بقية من شك قد يزعزعها نفسه .
كتب إلى سعد بن أبي وقاص :

« . . . إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير — وهما شريكاك في الأمر ، ونظيراك في الإسلام — وخفت لذلك أم المؤمنين . فلا تكرهن ما رضوا . ولا تردن ما قبلوا ؛ فإننا نردها شورى بين المسلمين . . . »

وكتب إلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .
فأما أولهما فليمنيه الإمرة ، وليسلس له من إغرائه ما عساه أن يستهوى به لبه ويحرك خياله الذي رانت عليه تقواه :

« . . . لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك . . . إني لست أريد الإمارة عليك ، ولكني أريدها لك » .

وأما الثاني فليمنه إذ خذل قومه الأنصار عثمان ، وبات هو مثلهم خاذلا له بعد موته ، يدع واثبه ولا يرفع في وجوههم سيفه ولا ملامته ، وإنما أثر السلامة في الاعتزال .

وتلفت جيرة الحرمين تلك الحقبة الحازبة من عمر الإسلام على هوى تنطق به السطور قد حملته إليهم كتب عاهل الشام . لكن زيف الداهية لم ينلهم ، ولم تقتلهم عن الحجة أباطيله . كلهم أبى أن يكون منته إلى أطماعه التي لم تعد تخفى عن البصائر وإن سربلها دونهم بألف ادعاء . . . حتى العامة في البلدتين الحرام أجمعوا الرأي على رد دعواه ، فنضج كتابهم إليه بفشل حيلته .

بعث إليه ابن عمر :

« . . . ما أنا كملى فى الإيمان ، والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، ونسكاته

فى المشركين . . . فأغن عنا نفسك . . . »

ورد ابن مسلة :

« . . . لعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان

ميتا فقد خذله حيا . . . »

وأجاب سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قریش ،

فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه . . . غير أن عليا قد كان

فيه ما فىنا ولم يك فىنا ما فيه . . . فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما كان خيرا

لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أنت . . . »

وكان رد المسور بن مخرمة بلسان أهل المدينة :

« . . . أخطأت مواقع النصرة وتناولتها من مكان بعيد . . . ما أنت

والخلافة يامعاوية ؟ . . . أنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! فكف عنا ،

فليس لك قبلنا ولى ولا نصير . . . »

وعندما حمل إليه البريد رجع الدسيمة التى ودلو أفرخت له فى الحجاز ،

ثمتم عمرو وقال :

« كيف رأيت يامعاوية رأيى ورأيك ؟ . . . »

فأجابه وهو مكبود :

« رجوت ماخفت . . . »

لكنه ، مع هذا ، لم ينم للقنوط ، فما زال اليدان وسيما لدسه وادعائه . وإذا

كان تأليه على لم يجد صدق فى نفوس فئة كهؤلاء يتعرجون أن تلعب بهم

أساليبه ، فإن كثرة غيرهم حرية أن تنحرف إليه لأنها طرية فى يدى زينة يستطيع

أن يصبها فى قلبه : أولئك هم طوائف الأعراب من القبائل المنبثة فى صحارى الجزيرة

وفى نجادها ، الذين زودتهم حياة البداوة والفطرة بسذاجة لا يفطنون معها إلى

ما يسوقه من أخاديع . وهل دعوته بينهم إلا صورة من صور النخوة التي تهز فيهم المشاعر ؟ . .

بات البدو إذن في الجزيرة مرتاح تجاريه ، يبتهم باطله في ثوب من النجدة براق ، ويحضهم أن يؤازروه على الانتصار للخليفة القاتل من واريه فلا يحرك في قلوبهم إلا إيمانها بالروءة وولائها القديم بالثأر لمظلوم ، ولم يكن ثمة حقل أخصب لدعوته من الموسم ، عند المسجد الحرام ، حينما يتوافد الحجاج . فهناك البدو الذين يقبلون محرمين من النجاد والقلوات . وهناك التجار تجتمعهم الأسواق . وهناك أيضا وفود الأقاليم والأمصار ينتشر بينهم نعمة ويحملون منه بقية معهم حين العودة . هؤلاء رسله ، وإن جهلوا ، إلى أقوامهم ، ودعائه في بلادهم الدانية والبعيدة الذين يتطايرون أحاديثهم شرر النار !

ولم تغب عن على هذه الدعوة السرية التي شنها غريمه بين الجميع ، يوقع بها في نفوسهم ما يريد ، ويخذل جموعهم عن صاحب الحق في ولاية الناس ، ويشير فيهم التمرد عليه ، فأرسل إلى ابن عمه : قثم بن عباس ، عامله على مكة ، يبصره : « ... إن عني بالمغرب كتب إلى يعلني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتبسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق . . »

لقد كان الصراع السلمي عنيقا بين الرجلين إلى غاية عنفه ، لم تحمد ناره طوال هذه الحقبة التي انطلقت فيها يتصاولان بالقلم واللسان . وإنه ليكشف لنا عن نواحي لم يكن فيها معاوية منفردا وحده في مجال الصيال ، بل لعله كان مسبوقا حين نستشف من خلال كلمة الإمام لابن عمه كيف تأهب على الملاقاة خصمه في ميدانه ، وشعذه له من أساليبه ما يقل من سلاحه ؛ حق لقد بث العيون في قلب إقليمه تأتبه بنواياه من قبل أن تذيع في الناس .

ونباعد الحق لوحسبنا معاوية لم تكن له بالسكوفة رصدة تنقل له ، وتعمل لغاياته : فأدنى الدهاء ، أن يفعل ويستشف ما وسعه خطوات خصمه . وإن عليا ليوشك أن يكتب الناس ويمضي بهم جموعا ليجتاح الشام فتتجاب له السجف عن حقيقة بعض من ظنهم الناس أعوانه . . . ينادى القوم داعيا إلى الفصل :

« . . . سيروا إلى أعداء الله . . . سيروا إلى أعداء السنن والقرآن . . »

سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار . . . »
فصنذذ ، حين لم يعد من الحرب مناص ، نرى امرأ مدموسا عليه قد نهض
بجاده جهرة لعله أن يرى بالوقعة بينه وبين أنصاره :
« أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا
إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . ها الله إذن لا نفعل . . . »
فلعلها كادت تستشري فتنة لولا أن عاجل الأشتر الأمر فصاح :
« من لهذا أيها الناس ؟ . . . »

فإذا الصيحة تثير الجموع ، فتلاحق الرجل في فراره أمام غضبتها ، ثم تتعاوره
بالأكف ، ونصال السيوف ، والأرجل ، حق يقضى ويموت دمه في لماته . . .
ويقبل الأشتر محاولا أن يطيح بما عساه قد علق من أثر بنفسه على نتيجة
لدعوة الجاسوس :

« . . . يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيك ، ولا يؤيسنك من نصرنا
ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن — »
ولكن أمير المؤمنين لا ينسيه التمايف رجاله عليه دم الخائن القليل ،
فيستقصي مصرعه :

« . . من قتله ؟ »

« قتله همدان ، وفيهم شوبة من الناس »
فيأمر في الحال بتوديته :

« قتل عمية لا يدري من قتله ديته من بيت مال المسلمين »

هذه الصورة من التجسس والدس لها أشباه ، في الكوفة ، وفي طريق
جيش الإمام طوال سيره إلى مرابضه في صفين للملاقاة معاوية بعد فشل دعوة
الوفاق في كل خطوة قدم كانت الأرض تطلع عليه عينا يرصد حركته وبسكاد
بعد أنفاسه ، أو مناقبا يبدى له النصرة وهو يكم الخداع والعداوة . . . دخل
عليه ، ساعة تهيئه للرحيل بجنوده رجال من غطفان وآيم ما كادوا يلحون
عزمه ، حتى انبرى له منهم حنظلة بن الربيع :

« يا أمير المؤمنين . إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا . . . أتم ، وكاتب

هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة . وعلى من تكون الدبرة . . . »

وكأنما كانت الفرقة كلها على اتفاق ، ولقنت ما تقول ، وجاءت شوطها لتبته وتدعو إليه . . . فما لبث أن نهض منهم ابن المعتم يردد مثل ما قال صاحبه . ثم قام بعده غيره ، ثم غيره وغيره كثيرون ما مأرب لهم إلا تأخير السير ، كأن قد أرادوا بهذا الإرجاء إيقاع الوهن في صفوف جيش على ، أو أفساح فسحة من الزمن لذلك القابع هناك في الشمال . . .

وأصغى الإمام لحديث التردد الذى أتوه به فى أحرف نصيحة ، ثم قام فيهم وفى الناس ، يتحدثهم بمنطق إيمانه :

« . . . إن الله وارث العباد والبلاد . . . يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . . . أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ، ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفًا ، ولا ينكروا منكرًا . »

فهتف به أحد رجاله : معقل بن قيس :

« إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش . فاحذرهم فإنهم أدنى العدو . »

وصاح صاحب شرطته ، مالك بن حبيب :

« يا مير المؤمنين إنه بلغنى أن حنظلة هذا يكتب معاوية »

وقال عياش بن ربيعة :

« . . . إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكتب معاوية ، فاحبسه

أو أمكننا منه نحبسه حتى تنقضى غزاتك . . . »

ولئن كان الإمام قد رأى الترفق بدعاة التردد المدسوسين فما كان هذا عن إحسان ظن بهم أو شك منه فى ترددهم عنه . ولكنه رفق القادر الكريم . وهل غيره مثل هذا التقاعد من فرقة لم تكن يوما له ، وهو يعلم أن قومهم لا بد ينكرون تقاعدهم ؟ بل لعله أراد أن يرثيهم عسى أن يأسرهم حمله ، فلا يكونوا عليه إن لم يصبحوها له . . . على أية حال ، لقد غدوا بقومهم سبة قبلهم عنده ، ومرة يتنصل من وصمتها الكبير والصغير من ذويهم حتى ضاقت عليهم الكوفة

فبیتوا أمرهم بليل ، وخرجوا منها هاربين من العذل والمساءة ينتجعون ارض
الدميسة في جوار جند الشيطان . . .

ولئن كانت هذه الفئة المنحرفة قد وجدت أمنا في الخروج ، فإنها لم تجد لها
في زيغ معاوية غاية مرضية يمكن أن تحمل في سبيلها السلاح . إنما قدمت
بمستقرها الجديد عن مؤازرة الأمير المتمرد ، وركنت إلى اعتزاله . ولم يسمع
عنها إلا كلمة الحنظلة ، ما تراها ندت من بين شفثيه إلا حين مقامه بالكوفة
فأخذت عليه فيما أخذت من وسائل اتصاله مع الشام وإن قيل نطقها من بعد قراره
— لم نسمع إلا أبياتا يحرض بها ابن هند على خلاصة الناس هي ألفاظ لم تجاوز
القول ، ولم يخرج منها إلى حيز التأيد العملي ولا بتحريك سيفه المغمود . . .
يقول ذلك المحرض القار :

« أبلغ معاوية بن حرب خطة واسكل سائلة تسيل قرار

لا تقبلت دنية تعطونها في الأمر حتى تقتل الأنصار . . . »

فر إذن حنظلة ، وفر ابن المعتم وقلة من رجالهما معها إلى الشام . فلم يخسر
الإمام شيئا بهذا الفرار . ولم يكسب معاوية شيئا بالانضمام ، فلو كانوا خونة فقد
حسبت عليا طهر من الخيانة ضفوفه ، ولو كانوا مرتابين فهم كذلك منذ بدئهم .
قد اعتزلوه من قبل ، ولم يلحقوا به حين دعاهم إليه إبان محبة عائشة وصاحبها
في البصرة ، بل آثروا القعود . وإنهم لأشبه عندي بمنافق المدينة ، أو بضعاف
الإيمان في فجر الإسلام الذين أبرم رسول الله عهد الحديبية فلم يحملهم بنصوصه
على المسك بين أنصاره إذ لم يحمل قريشا على ردهم إليه بعد أن ارتدوا وخلفوه .
أولئك كهؤلاء — سوسة فساد تنخر في كيان جمع وفي سليم فما تنجح قضية
نصيرها مرتاب . وما أجدى فرار فريق حنظلة وابن المعتم على معاوية مثل خردلة
— إلا أن تكون الجدوى أن لحقوا به ثم اعتزلوه فكان أولى أن تشيع الريبة
في أهدافه بالاعتزال . . .

غير أن ابن هند كان يكفي أن يأتيه أمثالهم : مخذلين أو مرتابين . . .
فلن يطلع قومه من صور اللعاق به إلا على ما يرضيهم ويرضيه : إنما أشباه حنظلة
أصحاب هجرة أنكروا منكرًا من الإمام . . . إنما قد عرفوا موطن الحق فحجوا

إليه ليلتزموه . . . إنعاهم ، وغيرهم : نقرأ آخر من أصحاب الأسماء الضخمة
الرنانة ، سيكونون كتابه الذى يتقدم به فى عينه لأهل إقليمه — كتابه الذى
سيضم منهم مادة جوفاء فارغة يسرها لنفسه ! فلن يكشف قط عن صفحاته
للعيون . . سيكتم عن الناس باطنه ، سيطوى أسطره ويبدى ظاهره . أفما يأمن
إذن غدرة زمانه وهؤلاء أنصاره ومريده رجال عدموا الرؤية ، وجلاء
البصيرة ، وعمق التفكير ، كل همهم غلاف أنيق . . .

٥

هذا كتابه يتقدم به . . . له هيئة ، وفيه فنتة ظاهرة تدعو إليه العيون
المسحورة . ذو منظر ولون ، قد ليع غلافه وتزخرف شغافه ! . . إنعاه يعنيه أن
يجذب الناس إلى راية ذات زبرق وإن رخص فيها النسيج . فالقوم عنده كمثل
الثور الذى تجذبه الحجرة . . .

الرجل حقا قد سبر طبيعة الجماهير ، وخبر مغاور العاطفة التى تنطلق بهم إلى
الأقصى البعيدة دون حاجز يقف بها من التعقل أو التدبر . ومتى كان العقل
يحكم الثورة ؟ . . ومتى كان الثور يلقي بعينه إلى السيف الحى وراء القماش
الجرأ ؟ . . لو قد عرف أن قومه مناقشوه حين يتبدى لهم كتابه لفكر عشرا
ولم يتقدم . لو قد عرفهم مستنبئية ماتضمه الصحائف لبات لياليه وهو مكروب
وقطع حياته وهو مغلوب . ولكنه عرفهم « لا يقولون إذا قال ولا يسألون إذا
أمر » . إنهم رجال تسليم . عطلوا الفكر إلا فكره ومضوا خلفه إلى حيث
شاء كأنما يقودهم بلجم . . . وهو قد ألهم فيهم الحمية فحق أن يزودها بين اليوم
واليوم بالوقود . وكان الوقود إفسه وأكاذيبه وزخارف الخداع والنمويه . . .

والآن إذ فاته أن يخلب إليه بقية أهل الشورى ، وجيرة الحرم ، ومنتجى
الأمان الروحى عند قبر الرسول ، لفق الصور فتانة ، تسحر الأنفس التى تستلها
المظاهر . . . الآن لكتاباه أغلقه ، أكثر من غلاف ، براقة أنيقة . . . الآن
له أكثر من عنوان ، كل منها يعلأ النهم بحروفه الضخمة الرنانة ! . . . يستطيع

أن يطلع على قومه بين اللحظة وتاليها بسفر كأنه جديد ما هو بجديد ، أصله واحد وأغلفته عديدة ، يلبسه منها ما يروقه ، اليوم هذا والغد ذاك ، كأنه غنية في أسواق المتعة يتشكل حسنها في عيون عشاقها بتغير الشفوف . . .
وقال ذات يوم لعمر بن العاص :

« إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيمه خطيبا فيشهد على علي بقتل عثمان وينال منه . . . »
فهذا إذن عنوانه الجديد . . . أعياء عبيد الله فالتمس عبيد الله . . . وهل من فارق في نظر صحابه بين الأخوين وكلاهما من صلب الفاروق العادل الذي جرت الألسن بطيب ذكراه . . . ؟
وجيء بالفتى إليه يصغى لنحريضة :

« إن لك اسم أبيك . فانظر بعلم عنيك ، وتسكلم بكل فيك فأنت المؤمن المصدق . . . فاصعد المنبر واشتم عليا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان . »
قال عبيد الله وهو بين تردد واقتناع :
« . . . أما شتمه فإنه علي بن أبي طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول في حسبه . . . ؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق . . . وأما أيامه فما قد عرفت . . . واسكني ملزمه دم عثمان . »
فهتف عمرو :

« إذن والله قد نكأت القرحة ! »

وعندما برح الفتى . وخلا السكان بعده للعاهل المخادع يجتر ذكرياته وآماله ، لم يطق معاوية كتمان رأيه الصريح في ابن عمر — في تفاهة عنوانه الجديد الذي سيخلب الناس . . .

قال لابن العاص :

« أما والله لولا قتله الهرمزان . ومخافته عليا على نفسه ما أتاننا أبدا . . . ألم تر إلى تقرظه عليا ؟ . . . »
فطمأنه عمرو :

« يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب . . . »

وكان هذا في الواقع شعاره . فما يهمه إلا الوجه الذي سيتبدى للقوم فأما اللب فسيخفيه . إنه ليستنصر بابن عمر ، ويستعديه ، ويتلمس عنده الشهادة على حلي وإنها لمكذوبة أو تبطن بالهوى والغرض ، ولكنه يرتضيها إذ هي الرقعة الحمراء التي تجتذب نظرات ثبرانه وإنه ليتلف عليها ، ويظل حالما باليوم القابل القريب الذي يتسنى فيه شاهده ذروة المنبر ليزور كلامه وينشر اتهامه حسبه أن « له اسم أبيه » . حسبه أن الآذان ستلقف حديثه والأذهان ستؤمن بما فيه . وهل يجرى بخاطر المفتونين أن يعين عبيد الله وإنه لمن عمر صاحب السيرة التي تؤرخ للحق والعدالة ؟

لقد كان معاوية على بيته من دخيلة الفتي يوشك أن يدفعه إلى الطريق التي رسمها له فلا يراه يحزن أو ينكص عن التزامها أو يجحد . عرفه كارها للإمام ، يجزع حين تلوح صورته له في خياله فيلمح منها قسما صلبة لاتلين ، ونظرة عين تحترم المجرم ، وشد سيف يتهيا لإتقاذ شرعة القصاص وكان عبيد الله هو المجرم الذي قهرت العدالة ذات يوم على إفلاته إبان عهد عثمان إذ هو امرؤ — في عهد ذلك الخليفة القليل — ليس كالناس ، يحل دونهم عن العقوبة وكان على حينذاك يراه قد تلوثت كفه بإثمه فلا عفو له على معصية أو تصبح الشريعة سلاحاً في يد الحاكم له حدان ينال بحديدها المستضعفين والعامة ويربت هازلا يمثلومهما على ظهور الخاصة من ذوى الأحساب

إن قصة ابن عمر هي صورة محنة من تلك التي تذلل العدالة في كل عصر تعرض فيه الضمائر وتهاوى قوائم الشعور بالمسئولية . قصة الهوى يحرك القانون . قصة طبقة تخصها الدولة بغنائمها وإن أساءت وطبقة غيرها ليس لها في وقاضها سوى اللغارم قصة خيانة الناس لله

أجل قد خانوا ربهم ، أحسبهم ، يوم أطلقوا الفتى حرا ولما يحف من كفه دم الهرمزان فبأي حجة أطلقوه ؟ وما هي المآذير التي تلمسوها له لإبرائه وقد عجز هو عن تلمس المآذير ؟ وكيف يستطيع القانون ، بعد حكمهم ذاك ، أن يسير في الناس إلا شائها مهبطا منضيا من معرة واستحياء ؟

كان ذلك يوم أن طعن ابن الخطاب بيد أبي لؤلؤة فيروز غلاما للغيرة وأخذت (٦ — الإمام)

روحه تنزف رويدا رويدا من جراحاته . . . وعلم عبيد الله بمصاب أبيه فانتضى سيفه ، ومضى فقتل الهرمزان وإنه لمسلم تشهد عند ذاك ودماؤه تسيل ، وقتل ابنة أبي لؤلؤة : فتاة صغيرة بلا جريرة ولا حول ، وقتل جفينة : رجلا من نصارى الحيرة كان يعلم الصييان في المدينة — فلولا أن تسكأثر عليه الصحابة ، وسارع بن أبي وقاص فأخذ بناصيته ، وخطف منه سيفه ، ومضى به فخبسه في داره لكان انطلق إبان غضبه المجنون فقتل كثيرا من السبي وفئة من الأنصار وللهاجرين صور وهم له أنهم شركوا في دم أبيه . . .

وعلم عمر في وجعه بعدوة فتاه على الهرمزان فسأل الناس :

« ولم قتله ؟ . . »

قيل له :

« قال : قتل أبي »

فهز الخليفة الطعين رأسه منكراً وهو حائر مرتاب ثم قال :

« ما أدري ما هذا . . . انظروا إذا أنا مت فاسألوا عبيد الله البينة على

الهرمزان هو قتلى ، فإن أقام البينة قدمه بدمي ، وإن لم يقم فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان . . . »

ولم تكن إقامة البينة هينة لأنه لم تكن عمة بينة على الإطلاق . . . فما أشهر الهرمزان خنجرا في وجه ابن الخطاب ، ولا رآه أحد عند الطعنة يؤازر المجوسى القتلى ، وما عرف عنه أنه أكن للطعين موجدة . كل الذى حرك غضبة الفتى عليه رواية راو ترسم الهرمزان ذات يوم قبل الطعنة وقد أقبل ينجى أبا لؤلؤة فلما افترقا سقط بينهما نفس الخنجر الذى أصاب عمر بعد أيام . . .

وقال عثمان — وما كان بعد قد ولى الأمر — يعنف بعبيد الله :

« قاتلك الله ! . . قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة

رسول الله . ما فى الحق تركك »

وساءله فى استنكار :

« وما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلها ؟ . . »

واشتد سعد على الجاني ، واشتد معه من صحابة محمد كثيرون رأوا أن ينفذوا

فيه عقوبة جرمه وفق ما تحتم الشريعة وإجازة لوصية أبيه . فلما قضى عمر ،
وخلفه على الأمة عثمان تبدلت الحال بحال . . .

أقبل ابن العاص على الخليفة الجديد — حين رأى أن ينظر في الاقتصاص
من عبيد الله — يزلزل فيه رأيه الحازم الذي جهر به منذ أيام :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله تمد أعفائك أن يكون هذا الحدث كان ولك على
المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . . . »

فهل وقوع الحدث في غير عهده يبت العقوبة ؟ . . .

لقد بدا كأنما الرقة أخذت عثمان حتى استعصى أن يتناول بالقتصاص عبيد الله
بعد مصرع أبيه : وبدا أن العامة وقد فقدت خليفتها الحبيب المرحوب جمعت بها
الماطفة إلى العطف على ولده فألهاها عطفها عن وجوب التزام شرعة الله فيه
كاللزامها في سواه . . . تهاست حينذاك طائفة :

« أبعد الله الهرمزان وجفيه . . . يريدون يتبعون عبيد الله أباه . . . »

وقال بضعة من المهاجرين :

« قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! »

ومال عثمان إلى الرقة الأصلية فيه فأغفل تناول القضية بالحزم الواجب ،
والعدالة المفروضة التي يستوى أمامها الكبير والصغير . . .

وكثر اللفظ ، وزاد تحدث الناس عن هذا التهاون في إنفاذ القانون في مجرم
وفي ممالأته على غير ما تنص أية شريعة : سماوية أو موضوعة ، حتى لامه الكثير :

« ألا تنصى وصية عمر في عبيد الله ؟ . . . »

فلم ير مناصا من حسم الأمر بالقطع ، فجلس بجانب المسجد في الناس ، ودعا
المهاجرين والأنصار ، وأمر بالفتى فأحضر بين يديه . . . ثم استشار :

« أشيروا علي في هذا الذي فتق في الدين ما فتق »

فأجمعت كلمة الأكابر من أصحاب رسول الله وذوى الرأي على أخذه بظلمه ..

وقال على بن أبي طالب :

« أرى أن تقتله . . . »

وعاود ابن النابغة ما أسلف من حديث الإغفاء . . .

وتحدث العامة والأوشاب — كثرة وفيرة — بما لا يحسنون غيره من منطق العاطفة . . .

وعندئذ اعتلى الخليفة المنبر يخاطب الحاضرين :

« أيها الناس . . . فقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم ، وقد عفوت أفعفون ؟ »

فتهانف من حوله جمهور العامة :

« نعم . . . نعم .. »

وثار على وقد رأى حق الله يستلبه من ليس له حق فيه ، ومن إذا وكلت إلى عواطفهم الحدود لا تقطع النظام وجبت الحدود التي تحفظ على المجتمع حياته سليمة وأوضاعه مستقيمة :

« أقد الفاسق فإنه آنى عظيما ، قتل مسلما بلا ذنب . . . »

قال عثمان في عناد :

« ألا إني ولي دم الهرمزان ، وقد وهبته لله ولعمر ، وتركته لدم عمر »

فغضب المقداد بن عمر ، الصابي الجليل ، ورمى بصيحته في وجه عثمان :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله . . . »

وحينا استشرع على من الخليفة التخاذل ، والجنوح مع الرقة إلى تفويض

قوائم العدالة ، ولي الشريعة للأهواء ، وتمطيل الحدود ، قال يتوعد عبد الله :

« يا فاسق ، لئن ظفرت بك يوما لأقتلنك بالهرمزان ! »

وأمام هذه الثورة للحق الواضح من أعرف الناس به ، وأشد هم حرصا عليه

لم ير عثمان غير أن يظهر التزول عن عناده ، فقال لهم في ترفق ولين :

« فننظر وتنظرون . . . »

لكنه لم ينظر ولم يدع لأصحاب الرأي معاودة النظر في القضية حسبما خط

ناموس الله . فقد كان — كما بدا من بعد — أبرم قراره وبیت إصراره . فإذا

هو يخرج عبيد الله من المدينة نائبا به عن المستمسكين باتهامه وتفسيره ، وينزله

داراً بالكوفة لا يطوله فيها حديث القصاص .

وتلك قصة عنوان . . .

بنى وعلى في بناء أحلامه التي عقدها واثقا على عبيد الله . . . جلا المنبر للأعين
جلو العروس . . . حشد له الزمر والجموع حوله كأنه وثق في ليلة عيده . . .
وسبق بذهنه الزمن . طفر خفيفا إلى لحظة نصره المرقوب الذي لن يلبث
ذكره أن يشيع في المجامع ، ويزحم المحافل ، ويمسأ الأفواه . . . هي ساعة
ويظفر — كليات يسوقها الفتي الخطيب . . .
وفي إبان ابتهاجه ، والأعناق تتطاول إلى المنبر ، والعيون على عبيد الله ،
والآذان تعلق بشفتيه ، ونأى معاوية عن قبلة السمع والبصر ومال بهمس
لشيطانه :

« ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله ؟ . . »

فابتسم عمرو له وقال :

« شبهت غير شبیهه . . »

أقذ سخر ؟ أم تخابث ؟ أم كان رده عفو الخاطر ؟ . . معاوية على أية حال
لم يبق باله إلى الجواب ، ولم يأبه له ، النشوة شغلته عنه . . . وخطيبه بدأ ،
والقوم أصغوا إليه . والمجد الجامع الذي ملأته الزمر المحشودة لاح من سكون
الحركة في جنباته كمقبرة . . . كأنهم أموات ! كأنهم صفوف لحود . . . أليسوا
جميعهم صرعى فتنة ؟ . .

ما تركت هيئة ابن عمر لهم سوى أنفاس ، ولم يجذب شيء انتباههم عنه .
الأعين إليه شاخصة ، الأسماع محدودة والقلوب مصغية . . . في الصدور رهبة ،
وعلى الأوجه خشوع .

طوال مديد القامة ، فارع كالنخلة . . عريض مبسوط البنية بين منكيه ،
كأنه مارديس عليهم المـكان . . . لولا هنة في ثوبه ، وهنة في جوارحه ، وهنة
في ملاحه لكان ذات العملاق الذي كان ذات يوم أبوه . . . عليه مسحة من
هيبة ، وفي صوته جاذبة ، ونظراته لها شعاع نافذ جسور يقتحم الأنفس على
أصحابها بلا تخاذل . . . أدرة تلك في يساره أم هو الوهم خدعهم عن حواسهم
اتكمل لهم صورة ابن الخطاب ؟ . .

وارتاح معاوية لهذا التوفيق ، فقد سحر بصاحبه القوم . هم بين عارف بمعر يتوسمه الآن من خلال ذكرياته ، وسامع بصفته يتوهمه بأعين خيالاته ، كلهم أحسوا الرهبة من خطيبهم وأثمنوه عنها الإجلال . . . الجو حولهم تغير ، ليس هو الذى اعتادوه ، فما هذه دمشق المألوفة . . . والزمن أيضا تغير ، ليس حاضرهم المعروف ، فما هو بامتداد يومهم حين يعموا الجامع الكبير . . . إن أنفاسا رقيقة من الماضى تهب عليهم ندية ، وقوة آسرة من ذكرياته المجيدة تلف خواطرهم ، ثم تثب بهم إلى الوراء ، عبر السنين والمسافات .

هاهى المدينة تلوح ، نقطة نضرة ، كقارب أخضر فى محيط الرمال . . . تلك آطام يهود على تخومها تحف بها خربة خواء . . . هنا روضة البقيع : عالم الموت فالخلود ، ومجاز الإيمان إلى الآخرة دنيا السلام . . . هذه بقايا خندق سلمان ، والصور ، ومدخل البلدة الآمنة . والبساتين والزروع ومغارس النخيل ، والدروب التى طالما وطئتها قدما محمدا وأخفاف القسواء . . .

ثم الرحبة ، وقبر الرسول ، وحجرات الأزواج ، والصفة التى كانت منزل صفوة باعوا الدنيا ليقرّبوا من الله . . ثم المسجد كله فرش حصباء وعمده جذوع . . ثم القبلة ، والمنبر الساذج الذى شهد ولادة الدولة ، فيغاعها ، فعزها الذى رفرفت فيه راية الإسلام على أركان العالم . . لكأن عمر الآن فوق أدنى درجاته يبائعه الناس فيسفق على أكفهم بكفه العريضة . . . لكأنه آب لتوه من تجواله بين الرعية فجلس يقضى أو يسمع أو يشاور الصحاب . . . لكأنه فى مرقعته قام يحصى الأسلاب من كنوز كسرى أو نقائس الروم ، ثم يخرج ساجدا شكرا لله على النصر الذى حازه جند الله . . .

إنها لصور تترى . صحائف من المجد جديرة بأن تداعب خواطر الجماهير المحشودة حول منبر دمشق تلقى سمعها مرهفا إلى فتاه . . أفليس هذا من ذاك ؟ أما هو شبهه ؟ . . ألا تهبج فيها وقفته ، وهيئته ، ونبرات صوته سيرة الذى فات من عدالة أبيه فتراه مثله لسان حق يوشك ألا ينطق بهواه ؟ . .

وأصغى معاوية وعبيد الله ينطلق حديثه رقيقا هادئا كماء الجدول . . . وتناهف على اللعظة الحاسمة ، والكلمة المبجلة المنشودة . . . وسبق بسمعه لهمة الفقى ينصت

إلى ألقاظ الفرية المقررة وسبة الاتهام التي وضعها بنفسه في فيه . . الآن سيذهب الهدوء . . سيخلى مكانه على ملامح الخطيب للثورة . . الآن سيعنف خطابه ويبدو نابه . . الآن سيهدر هدر الشلال ، صيرار كإعصار ، ستنطلق كلماته حامية مدمرة كمثل اللحم والصواعق !

فما هي إلا منى مخدوع ! . . كل هذا الذي انتظره معاوية من خطيبه ظل خافيا في ضميره كأنما ابتلعه الفق وواراه . . لفته فأبطنه ! . . رعاه جناحه ولم يلفظه لسانه ! . . إنما تحدث بحاجته ساعة حديث الآمل ثم خلف المنبر وغادر المسكان . .

وأسرع معاوية صوبه . يسكه بطرف ردائة ويفتح له من بين أسنانه وهو مبهور :

« ابن أخى ، إنك بين عى أو خيانة ! . . »

فتفرسه برهة عبيد الله كانت ثقيلة مديدة كالدهر أجابه بعدها بغير إخفاء :

« كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس يحملوها عني ، فتركها . . »

فلم يعقب العاهل . وهل يجديه التعقيب ؟ . . ألا ليت عمرو بن العاص لا يتشبت برأيه فالفتى في الحق ، لأخيه شبيه ، يفرقهما حرف وتجمعهما فكرة ومع ذلك فمعاوية لا يفلته ، ولا ينبو بأمثاله ممن ألفت بهم أقدارهم في مسالك طريقه . وإنه ليغضب في البدء ، ويخيب أمه فيه ، ويوشك أن ينبذ عبيد الله أو يعاديه ، ولكنه لا يلبث يوما ثم ينفصح له صدره ، ويبعث فيرضيه ويدنيه إليه . . حسبه أن يبقى بجانبه ، فإنه على أى حال عنوان ! . .

ولم يقف بالرجل مكروه ، ولا وسائله التي تقن وتخدع وتجذب نحوه أنظار الناس ، فلئن فاته لف الكثرة من صحاب الرسول فقد لف فئة من أبنائهم حو اليه وإنهم شباب لا تتحقق لهم مطامعهم إلا في محيط أطباعه العريضة . ومن يدره ؟ لعلمهم يكونون يوما عونا له على الآباء المياعدين يفتلونهم كذلك إليه ! . . إننا لئراء قد استقام له حدمه . زاره ذات يوم بعد صفين فأوشك أن يكون ما ارتجاء لولا ما كان من عناد ابن أبي وقاص ، وشدة مراسه ، ورأيه الثابت الذي لا يلين . .

في ذلك اليوم دفع سعدا فضوله فمضى يتنسم أخبار الحكمين : أبي موسى وابن العاص وهما بدومة يتبادلان ويسران مداولتهما عن الناس ؛ ونزل سعد بأرض البادية على ماء النبي سليم في مكان قريب ، فلما أن علم عمر ابنه يأمره ، أطمعه فيه مجيئه ، فأقبل عليه يحاول أن يعيل به عن اعتزاله إلى مناصرة قضية معاوية . . .

حدث الفتى أباه :

« يا أباي ، النقي الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . . . »

فلقيه الرجل بنظرة مستريية لكنه لم يقطع عليه الحديث .

ومضى الشاب :

« . . . وقد حضر ناس من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله ، ومن أهل الشورى ، ومن قال فيه رسول الله : « اتقوا دعواته » . . ولم تدخل في شيء مما تكره هذه الأمة . . »

قال صاحب الرسول :

« ثم مه ؟ »

« فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . . »

عندئذ هتف الوالد بولده :

« مهلا يا عمرا . . إني سمعت رسول الله يقول : (يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفي التقي) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره . . »

وطال بينهما جدل طمع الفتى إبانته في استمالة الشيخ عسى أن ترجع به كفة ولى أطماعه فتفتتح أمامه وفي رجائه وسيرة حسبا تأمل خيالات شبابه ، ولكن سعدا كان أعصى على إغرائه ، وأشد شكيمة فإذا هو جبهه بالرأى الفصل الذي لا سبيل بعده إلى مراجعة . قال له :

« يا بني : لو كنت غامسا يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي . . »

رضى معاوية بعبيد الله يقيم عنده على ما يشتهي : إن شاء اتهم الإمام أو شاء كتم الاتهام ، فحسبه أن له اسم ابن الخطاب . . وتصيد عمر بن سعد بن أبي وقاص

ليكون شركا — إن استطاع — لأبيه . . . واجتذب عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد فجعله على رايته يوم صفين لعله أن يعيد إلى الأذهان ذكرى القائد المبقرى : سيف الله الذى نشر ألوية الدين عالية ، وقهر الشرك ، وقاد جند الإسلام إلى النصر أينما حمل السيف وهز الحسام . . . كلهم فتية لهم مطامع وآراب يهيجها الشباب ، كلهم ذوو أسماء ، كلهم عناوين . . . هم أغلفة أنيقة براقة تستهوى الأعين المفتونة باللعمان والأسماع التى تستعذب الرنين . . .

بل القدر أيضا أمدده بغيرهم : طائفة أثيرة على عواطف الناس ، ذات غار ساطع له إشراقه . فمئذما تعبس الدنيا ، وتمتد سياطها إلى الظهور لاذعة . وتبدى الخلب والتاب ، تهزم البشر إلا صابراً ذا حصانة . . .

وقد عبست ، ودارت رحاها عنيفة تطحن النفوس . . . لو لقيها ضحاياها بمنى صبر الإمام ما كثرتهم شيئا ، ولا نالت من عزتهم وعزمهم إلا بقدر ما تناله بعوضة من قرن الثور ! . . . هى أهون على القلوب الركيكة والدخائل الحصينة . محنها موقوتة ونعمها مبتوتة . المتعلق بها أمل فى غير أمل . وصاحبها راحل إلى معاد بلا زاد . . . ولقد خبرها على فكشف ما تبطن ، وحذر منها من يغرم بها الغرور :

« . . . أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتكم . . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ! وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . . »
وهى أيضا كقولها :

« دار شخوص ، ومحلة تنقيص ، ساكنها طاعن ، وقاطنها بائن ، تئيد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف فى لجج البحار . . . فما غرق منها فليس بمستدرك . وما نجا منها فإلى مهلك . . . »

فقيم إذن — وهذا صدق حالها ، ومآل آلهـا — يـرجوها الناس فيتداركون عليها تدارك الإبل الهيم على المورد العذب بعد طول إحـمار ، ويتهافتون عليها فى اضطراب ولهفة تهافت الفراش على شـعلة النور ؟ .

إن فيهم لطائفة لم تحصنهم القناعة . وهنت منهم العزائم فأسلسوا لها القياد

وهى الجلد وخار الصبر . حابتهم بعرضها الزائل وسخرها الحائل ، وكانوا مع ذلك ذوى غابر ساطع له إشراق . . .
ولم يكن الإمام بالذى يمدل العافى المحروم ولا يستقبل هناته بالعدر والرحمة .
فالفقر وقر وقهر ، والعيلة مذلة . . . وعند ما تلمس الفاقة المرء توشك ألا تدعه إلا وقد جرحت عزته وأدمت قلبه وكبرياه . كم حزن لفقر ، وعطف على ذى حاجة أسيف مرور ، فحاول وسعه أن يرأب فيهم الصدوع ويلأم الكلوم والثلوم ، فى شبابه وهو حينذاك فرد من الرعية ، وفى كهولته وهو من بعد راع مسئول كان يسخو لهم بما تملك يمينه — وإن كان طعام يومه وآله — ويبيت راضيا على جوع . . . وكان يسر عطاياه ، ويأسى الأسى كله إن بذلها علانية . فى العطن من ، واللن مفسدة لبذل الباذل ، ومذهبة لحياء السائل . لذلك طالما كان يقول :
« من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . . . »

غير أن دخله المحدود كان يقف به كثيرا على حد المعجز حين تهول الطلبة فتعي قصاراه . فما عطاؤه ؟ . وما أبقاؤه وإنه ليعين الشظف فلا يكاد يحس مثل حرمانه أفقر رجل بين رعاياه ؟ . كان المال ينساب فى كفيه انسياب المياه ، والفضة والذهب فى خزائنه كثرة وفيرة كأنها الحصى والحجارة . فما لحظها يوما برغبة ، ولا انحدر إليها هواء وإن رمقها غيره رنوة شهوة ، وتناولوا نحوها بأعناق الاشتياق . . .

وقد رنت الأعين ، وهفت الأنفس ، وصغت القلوب لفتنة الحياة . . . طمع فى مسكة من المال نفر من أصحابه ألحت الدنيا عليهم بإغرائها ، فاشتروا السعة وعافوا القناعة . . . حين جاءوه حسبيهم يشكون إليه حاجة قاصمة فهم يردها عنهم بما فى وقاضه — بملك يمينه وإنه لراض قرير . لكنهم — لعجبه — أبهظوه الطلب ، وأعضلوا به فى السؤال . وهل من حيلة ويده قصيرة ؟ . والمال قليل ؟ . .
والمورد ضحضاح ؟ . . .

وثار ضيقا وقد تبين أن صاحبه : عبد الله بن زمعة جاء يراوده عن منعة تصلح شأنه من بيت المال ، وضج يقول :
« . . . هذا المال ليس لى ، ولا لك . . . إنا هو فى المسلمين وجلب

أسيافهم . . . فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة أيديهم
لا تكون لغير أفواههم . . . »

* * *

إن الذى جبه على به ابن زمعة كان ناموسه الذى التزم دائماً منه على الأيام .
فلم يظلم الرجل ، ولم يتنكر له . بل هو رعى حق الأمة كافة ووثق أمانة الراعى
المستول . . . كانت تستوى عنده الحظوظ . فالمال وأصله ، والمال وأهله ، والمال
ووجوه إنفاقه . . . لا رضىخة ولا منعة ولا قطيعة ، بل امرؤ وما فرض الله . . .
السوية شماره . فالقوم سواء ، وأعطيتهم سواء . لا يتميز فلا يميز . إنه ليأخذ
نفسه بما يشق على غيره من خشونة المأكل وخشونة اللبس ، ولا يرضى أن يرزأ
المسلمين شيئاً من مال الدولة ، وفاق قدره عندهم وتقدمه عليهم ، وإن دعوه أن
يفعل راضين مختارين . بل نراه وقد رفقوا به يرد رفقهم ويأباه . . . يقول أحدهم
له وقد وجده ، ذات يوم قارس البرودة ، يرعد في خلق قطيفة عليه :

« يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً ، ثم
أنت تفعل هذا بنفسك ؟ . . . »

فيكون جوابه :

« ما أرزأكم شيئاً . وما هم إلا قطيفة فى القى أخرجتها من المدينة . . . »

ويلوم آخر تأثر به فى عزوفه عن الدنيا فأنحرفت به سبيله — غير جامع
لإثم ولا مبطن لمعصية — إلى التخلّى عن ماله ، وهجرة عياله . . . ينهيه عن
التزام أسوته :

« ويحك يا عاصم ! . . . لست كأنت . إن الله فرض على أمة العدل أن يقدرُوا

أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبذّر بالفقر فقره . . . »

وإنه ليؤدب عماله بأدبه ، فيحملهم على انتهاج نفس نهجه فى أموال الناس ،
لا يكرهونهم على أداء صدقة ، ولا يستأدونهم به غير ما فرض الله ، ويؤثرونهم
بخراج أرضهم يصلحونها ويصلحون شأنهم به ، ثم يرسلون إليه ما فضل منه . . .
ويحذرونهم أن يعبثوا بأمانتهم فياً كلوا ما تحت أيديهم . . . يكتب لأحد عماله على
الصدقات :

« . . لا تروعن مسلما ، ولا تتأذرن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . . فإن قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أربابهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حق تقوم بينهم فسلم عليهم . . ثم نقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى ولىه ؟ . . فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعم منعم أخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أنيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها . . . واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإن اختار فلا تعرض لما اختاره . ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره . . . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله . . »

ويكتب إلى الأشتر حين بعثه على مصر :

« . . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد . . فإن شكوا ثقلا ، أو علة ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجفف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يشغلن عليك شئ به المؤونة عنهم ، فإنه زخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالمعبر . . »

ويكتب إلى الأشعث بن قيس ، بعد بعثه إياه واليا على أذربيجان ، يبصره بحقيقة عمله :

« . . إن عملك ليس لك بطمعة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، ولا تخاطر إلا بوثيقة . وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت خزانه حق تسلمه إلى . . »

وإنه ليراقب ولاته ، ويحاسبهم على ماتحت أيديهم ، ويرسل إليهم برقباء يفحصون أعمالهم ثم يرفعون إليه سيرتهم بين الناس فى الأتقى وفى المال ليرى إن

كانوا يلتزمون سنته ويحتذون منها . . أرسل مرة لكعب بن مالك يقول له :
« أما بعد ، فاستخاف على عمالك ، واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر
بأرض كورة السوداء فتسأل عن عمالي ، وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة
والعذيب . . . »

وبعث بكتاب إلى عامل — جعل مال المسلمين وسيلة لصيته بين أهل
إقليمه — قال فيه :

« بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك :
إنك تقسم في المسلمين الذي حازته رماحهم وخبولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ،
فيمن اعتمالك من أعراب قومك . . فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان
ذلك حقاً لتجدن بك على هوانا ، ولتخفن ميزانا . . فلا تستهن بحق ربك ،
ولا تصلح دنياك بحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا النىء سواء ، يردون
عندى عليه ويصدرون عنه . . »

وعلم يوماً أن شريح بن الحارث قاضيه اشترى لنفسه داراً ، فدعاه إليه بمظه
ويحذره ، ثم بيكته أشد تبكيت وآله وإن لم يشك فيه . . بدأ يسأله :
« بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً ، وكتبت كتاباً وأشهدت فيه
شهوداً . . . »

أجاب شريح :

« لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين »

فرمقه الإمام رمق عائب زار ، وقال وهو كالأسيف :

« يا شريح : أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ، ولا يسألك عن بينتك .

حتى يخرجك منها شاخصاً ، ويسلك إلى قبرك خالصاً . . فانظر يا شريح لا تكون
ابتعت هذه الديار من غير مالك ، أو تقدت الثمن من غير حلالك ، فإذا أنت قد
خسرت دار الدنيا ودار الآخرة . . »

ثم استأنى برهة أتم بعدها حديثاً خلط فيه الجدل الأجهم بالدعابة الساخرة :

« . . . أما إنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتاباً على

هذه النسخة ، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق . . »

وكان كتاب الشراء الذي اقترحه الإمام :

« هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للارحيل : اشترى منه دارا من دار القروى ، ومن جانب الغانين وخطة الهالكين ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهى إلى دواعى الآفات . . . والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيات . . . والحد الثالث ينتهى إلى الهوى المردى . . . والحد الرابع ينتهى إلى الشيطان المغوى وفيه يشرع باب هذه الدار . . . اشترى هذا المعتبر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة ، والدخول فى ذل الطلب والضراعة . . . »

أفمن كان هذا حاله ، وتلك أمثاله ، يدع مال المسلمين لى تسبيحه طائفة تقدمت بقربها منه وإخلاصها له ؟ . . أما هو فلا يفعل وإن نفسه لمحصنة ، وإن قلبه لى جنة مانعته عن الجور والتعيز . . . حتى حينما تنوس المغويات أهله لا يفعل ، بل يستمسك معهم بعبثته ، ويشد أعنف الشدة عليهم وإن أبكتهم الحاجة . . .

يقبل عليه بالكوفة أخوه عقيل ، علت السن فتقل ، وغلت السلة فأملق ، لعله أن يجد لديه ما يعينه على الشدة . . .

ويتلقاه الإمام بالاحتفال والتجلة وإن عينه لتكد تدمع على ما نال منه زمنه ، وقلبه يئن لصيبياته هؤلاء وهم أمامه شعث غبر ، ملكهم الفقر ومسهم الضر . ولكنه يكتنم فى نفسه رثاءه ، ويسأل أخاه فى ترفق ورحمة :

« مرحبا بك وأهلا . . ما أقدمك يا أخى ؟ »

يجيب عقيل :

« ركبنى وهن عظيم ، فجئت لتصلنى . »

فربت له الإمام ظهره مواسيا ، ويقول :

« إذا خرج عطائى فهو لك . . . »

غير أن الرجل الذى خلف بلده وراءه ، وخرج فى ضباب ناظريه يقوده صيته قطعوا به المراحل الطويلة ، لم يكن كل همه أن يطوى العمار والقفار ليتبلغ بمسكة من المال كهذه لا تكفى مشاقه ولا ترد إملاقه . . إنما كان ظنه أن

صاحب كل هذه الدولة العريضة لا يؤوده أن يفتح له بيت المال ثم يدعه وما شاء فيه يغترف ويحمل حق بكل وينوء . . .

ويلج عقيل . ويعاود بعد معاودة ، وهو يعنف في الطلب ويشدد في السؤال :
« وما يبلغ منى عطاؤك ! »

ويحلم الإمام ويصبره :

« وهل تعلم لى مالا غيره ؟ . . »

ثم يتهاوى صبره ذات ليلة بلغ فيها أخوه من إلحافه ومن تعنيفه أقصى جهده وغاية قصاره . . . في البدء يقبل بسمعه عليه ، ويبدى له من الرقة ما يطعمه فيه . حق إذا حسب الشيخ أنه بالغ أربه ونائل طلبه ، مد له الإمام حديدة حمراء محلاة فأدناها منه فانبعث من حرها بصيح . . .

عندئذ يعصف على به يجره :

« ثسكتك الثراكل يا عقيل ! . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ،

وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ . . »

ليس الإمام إذن بالذى يخون أمانة الله في يده فيهبيل نفوذه ليرضخ الرضاخ ويقطع القطائع ويجعل مال المسلمين دولة في طائفة منهم وإن تزلقت إليه بصحبة أو صلة رحم . لا يفعل ، وغيره يفعل — معاوية ! . . فما يعي عاهل الشام أن يمنح من شاء أو يمنع من شاء ، فأعما المال — في اعتباره — قنية له خالصة ، شهواته وحدها ترسم حدود إنفاقه ثم لا رقيب ولا تثريب . . .

برق الذهب ثم قال : « هيت ! » . . فأما ابن زمعة فقد عجمه . وأما عقيل

فقد خرج إليه . وأما معاوية فقد استغرقت البسمة ما بين أذنيه . . .

ويتفكر العاهل الوصولى والفرحة تفيض به وتريق لونها على عبياه ، كما يسيل

لأعاب معتوه . . فهذان جلب الخير ، أول القطر ، والقيث بعد مدرار . . .

وعبيد الدينار والدرهم كثر ، وما أقل القنع الأحرار في هذه الدار . . . حاله

قدره ، والطمع والفاقة . وها هو ذا وقد أقبل زمانه يقوم فينثر ادعاء جديدا

له على الملأ من رجاله المفتونين . . يعتلى منبره ثم يخطب وهو يلوح باسم عقيل :

« يا أهل الشام . . . هذا سيد قریش وابن سيدها عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فأنا ب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! . . . »
ويسمع عقيل فيشتعل غضبه لهذه الفرية الكافرة ، ويأبى لنفسه أن يبتلع ما احتوته من تنقص وجور ، فإذا هو يثور :
« . . . قد عرفت من فى عسكر أخى لم أفقد والله رجلا من المهاجرين والأنصار . ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من صحاب رسول الله . . . »
ثم يفرق احتجاجا فى تهافت الجماهير .
وعندما يجلس العاهل مجلسه ، ويرى ما ناله ادعاؤه من كرامة ضيفه ، ينثى فليين له الحديث عسى أن يهدأ غضبه ، ثم يدفع إليه بثلاثمائة ألف دينار ، عطية سخية يشتري بها رضاه . . . ويمس له بنخب تبطن بنفاقه :
« أنا خير لك من أخيك . »

فلا تلوى الشيخ الضرير المنحة الثمينة عن الحق وطريقه ، بل يسرع بجوابه ساخرا كأنه لسعة السوط :
« صدقت . . . إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت قد آثرت دنياك على دينك ! . . . »

ثم يعد عينه التى غلفها الضباب كأنما يحاول أن يستشف أثر رده فى ملامح مضيفه ، ويرهف سمعه . ويشعد لسانه يهينه للسمة جديدة ! . . .

لكن معاوية لا يجيب . وما جواب يجد الجدال والملاحاة ؟ . . . إنه لمشغول . . .
خواطوه تهيم فى آفاق آماله . تطوف به أرض الإسلام ورقاعها الفسيحة بين قرنى الزمن . تطوى دياره وتقطع أقطاره . . فى الحجاز دارت ، عند الحرمين . وفى مفاوز الفلاة التى تنبسط كالتب عن الجزيرة . وفى العراق بمصرية البصرة والكوفة ، وخلال سواده الذى جرى ماؤه فلانت حصباؤه وملاء الحين والظلال . . . أينما انطلقت عينه فى هذه الأقاليم التى جاورته اثنت نفسه راضية . قد تصيد من رجالها حفنة طيبة ، هم بين أهلهم أعلام . وما دامت الدنيا حسبه ، والزيف وسيلته ، والذهب حيلته ، فإنه لآمن لا يضع قدمه على مزلق . . . فليمل إذن ميله ، وليخط خطوة جديدة لأرض جديدة ، عسى أن يجد فيها أناسا من

نفس ذلك الطراز الذى وقع شراكه . . . لبيسط جده ولعبه ، ولينثر مكره
وذهبه ، وليقر على طمأنينة ، فلسوف يؤتينه التهم ، والأنفس التى أعيها الصبر ،
والضائر الجريحة طائفة أخرى تتعلق بأسبابه ، وتسير فى ركابه ، ذات غابر فى
العواير ، ساطع الطلعة ، له إشراق . . .

٧

الذى أهمه فى البلاد إقليم : جنة يانعة ، بطلع منضود وظل ممدود . تأتيا
نعمها وفرة ، على فترة ، كلما طأ التهر فسال به واديه الأصفر ، وفاضت فيه
كالعيون ومس بكفه الساحرة ضفافه الجرد فجرت بهجة ونضرة . . . وكانت
بعيدة عنه بالقلب ، دانية بالقرب ، كأنها من إقليمه الساكن دثار اشعار . . .

والذى أعياه فى الرحال مارد : جنى من الإنس أو إنسى من الجنة . . .
يهوله طوله ، ويعجزه دهاؤه ، وتكده خيلاؤه . . . لما كانت قامته بالى يحزبها
أن يقال عنها مديدة ، بل كأنها من نسيج أسطورة . . . إذا وقف فبرج . وإذا
مشى فى الناس تذاويت رعوسهم بين صدره وخاصرته . وإذا امتطى الفرس
الأشرف كان راكباً راجلاً تخطط فى الأرض رجلاه . . . أما دهاؤه فمكر
شيطان . وأما خيلاؤه فإدلال بقدرة . وليس مع ذلك بغيرور .

والذى أسأمه فأسقمه ، وأجرى غيظه كالحمى الكاوية فى دماائه : اجتماع الجنة
اليانعة إلى المارد الماكر ، وانضواؤها تحته ، يوليها الدهاء فتوليه الولاء . . . منذ
دخلها سكنت له ، وخفضت جناحها مختارة غير مقهورة . . . لما اغتصبها عنوة .
ولا نالها بسيف أو ركبا بخوف ، وإنما جاءها — حين جاء — فى سبعة من
رفاقه ، قطموا إليها الفلاة فى ركابه كأنهم نداماء صخبهم تهون عليه وحشة الطريق .
ودخلوها معه بغير اقتحام دخول الأضياف فاستقبلتهم بالقرى والتجلة . . .

ولم يكن فى الحق نائماً عن مصر ، وعاملها المارد ، وخراجها الضخم الذى
لو أحيل عدة لفتح العالم بشرقه وغربه . . . أينما سرح فكره بدت له هذه الجنة
سعيراً تحترق فيه أحلامه . . . وقد حسب فى الماضى أنه آمن شررها وشرها حين
(٧ الإمام)

بعث بجند اختلب ابن أبي حذيفة من ربوعها إلى حتفه . لكنها ظلت حصينة دون هوان بعد وقعة العريش التي انتصر فيها جنوده ، وباتت على عهدا إلى اليوم للإمام لا ترد كلمته ، ولا تخلع طاعته ، وإن عاشت فيها فرقة عثمانية انطوت على نفسها بقرية صغيرة كانطواء ثعلب جبان بحجره .

وأسف معاوية . فلولا أن عمل عليها قيس بن سعد بن عباد من لدن على على الأثر لكان قد وسعه أن يجيش لها كرة أخرى من غاراته ومكر عمرو مايردها فوضى بلا صاحب حتى تنضج بها فتنته فتسقط في حجره وهو رخي سقوط الرطبة الطرية . . . لكن الإمام لم يعل له في رسم خطاطه ، وتنظيم تدبيره ، ونسج أحاييله ، بل رماه فيها بمن تصغر في عينه خدعه فلا يراها سوى عبث غلطة . . . لقد كانت العرب تعد دهاتها فتقدم منهم خمسة لا يسبقهم إلى الدهاء مباح . فيهم عمرو ، وفيهم معاوية ، وعلى رأسهم قيس وإن أنف دهاؤه أن يقوده إلى مأثم . . . كان يقظا كذبا ، ما كرا كشيطان ، ناعما كحية . . . وكان حبه للإمام يتوثب به إلى القداء والتضحية ، وإخلاصه له تقانيا فيه ، وإجلاله إياه أدنى درجة إلى التسبيح . . . وعندما اختاره على عاملا من قبله على الجنة التي اشتاقها معاوية وتاقت روحه إلى امتلاك برها وبحرها ، لم يكن مسيره إليها مسير آمل في منصب ، أو متوفز إلى جاه ، بل رجاها قناة تحز بسنها عدو إمامه حتى تستلبه حياته . . .

قال له الإمام فيما أوصاه يوم ولاء :

« سر إلى مصر فقد وليتكمها ، وأخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند ، فإن ذلك أربح لعدوك ، وأعز لوليك . . . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن على المحسن ، واشدد على المريب ، وارفق بالعامية والخاصة فإن الرفق يمن . . . »

فأبى عليه إشارة وليه على نفسه أن يستبطن جندا قد يكونون عدة تعين الإمام في ذلك الوقت الذي تنادت البصرة فيه للنار ، وتشرعت للحرب ، وطاف رجالها بهودج عائشة طواف المجوس بالنار . . . قال يجيب مولاه :

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت . . . فأما الجند فأبى

أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك ، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة . . . ولكنني أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى . . . »
فإن هى إلا أيام حتى كان قد دخلها ، وما فى ركابه إلا سبعة ، وما فى عينه سوى دعوة بيعة . ثم شهدته الفسطاط يقف على منبر جامعها يخطب الناس فى طمأنينة وثقة :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . . . أيها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله . فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . . . »

ومع ذلك فلم يقنط معاوية ، إن مصر بايعت لكن دعائه بواديهما الأخضر فى جنة ومقل — تلك الفرقة العثمانية المعادية التى ترنو إلى دمشق بنظرة الولاء لم يعسها من الأمير الجديد عنت ، ولم ياحقها عسر أو ضر . . . لان لها قيس وإن أبت الطاعة ، وأفسح لها فى رحابة صدره ما بدت به عزيزة الجانب فى أعين من يرونها تأبى وتحالف فلا يصيبها جزاء المخالف . . . إنها ، على تمردها ، لموفورة السلامة ، آمنة السرب كحمام الحرم . . . لكانها من وجارها ذاك لصيقة بصاحب الشام دونها حصونه . . . لكان « خربتنا » دمشق صغيرة فى أرض النيل . . . لكان أهلها — كالأولى تحدثنا بسيرتهم الأساطير — قد أحصوا جلودهم بالرقى المميذة تمنعهم الخوف فترهبهم السيوف . . . وكتب إليهم قيس :

« إني لا أكرهكم على البيعة ، فأنا أدعكم وأكف عنكم . . . »

فكان حقاً لمعاوية أن يستمسك بأمله فلا ييأس اليأس كله . بل يتربص مع الأيام عسى الأحداث تعينه على الإفادة يوماً من حزبه الرابض بالقرية الصغيرة . فلعلها السياسة . أو لعله الدهاء قد زين للعامل للارد هذه الخطة الناعمة يتناول بها فرقة المعارضين العصاة أو لعلها ظروفه التى لم تدع له إلا طاقة محدودة قد قهرته على الصبر والمواذعة . فما دخل إقليعه بقوة حربية كالتى حظه على اتخاذها الإمام تشد من أزره فترهب أعداءه ، وتزعز أوليائه ، وهل كان حوله سوى نكير من أصحابه لا تكاد دماؤهم حين البأس تروى حديدة حسام . . .

رفق بهم إذن وقد كانوا جديرين منه بغير الرفق والهوادة . ودأورهم جهده وإنه — فيما نحسب — لمقهور على أداء دوره ، مغلوب أمامهم على أمره ، وهل كانت ظروف أحواله : فقره في السلاح ، وقلة النصارى ، وترقبه لليعة تأتيه من أطراف إقليمه إلا مملية عليه أن يبدى من الحية جلدها الناعم ويخفى نابها السام ؟ .

أما هم فلعلهم كانوا أشد قوة بتوحد كلهم ، واجتماعهم في رقعة صغيرة من الأرض هي بهم كالحصن وإن كانوا ذوي عديد قليل . فما طاقته ؟ وما قصارى جهوده إن هو بادأهم العنف وإنه لكالأعزل ؟ . . . أولى به إذن أن يستشف عقي إقدامه قبل أن يقدم لبتخير خاتمة آمن وأسلم ، وأن يعمل بحذر فيما يجالج الداء المعصى بالدواء الأيسر وإن لم يكن الأنجع الأحسم . . .

فيأترى قد تجنب الخطر أم تجنب الحزم حين استباح لنفسه أن يتحرر من وصية الإمام فلم يشدد منهم على حريب ؟ . ما تركته الفرقة للتأبئة لحظة من زمان — منذ دخل القسطنطينية — في أدنى شبهة مما يبيتون . . . إن بلدتهم لدار فتنة : وإن نهجهم لعصيان . وإن عزمهم لتشريع لاعتداء مسلح عليه وعلى وليه وعلى السواء حين تلوح في أفقهم بارقة ظفر . . . لم يكن قيس في شك من هذا كله أو يكون دهاؤه اختلاق راوية . . . ولكنه مع هذا يترجم الروية والريث ، ويبدى لهم من اللين ما يوشك أن ينتقص من هيئته — حتى حينما تنادوا فيما بينهم بالتمرد ، وتهاثفوا جهرة بالانتفاض ، ودعوا إلى خلع الطاعة بألفاظ الثأر لعثمان ، لانراه يهز في وجوههم قناة أو يلوح بوعيد ، إنما يتلقاهم بما هو دون اللوم وأدنى إلى العتاب الرقيق فيبحث إلى داعيتهم : مسلمة بن مخلد الأنصارى ، يقول :

« ويحك . . . أعلى تثب ؟ . فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأنى قتلتك . . . »

ويبحث كذلك إلى القوم كلهم يؤمنهم :

« إني لا أكرهكم على بيعة . . . »

فإن هي إلا هدنة عقدها ، وعهد قطعه على نفسه حتى كان الخبر قد جاءه من البصرة بمصارع الخارجين على إمامة الإمام . . . الرعي الحاصدة التي خافها

معاوية على شامه وأحلامه قد عملت . دارت شقتها هناك بالعراق . مشى على على
عدوه بالنايا المغيرة . عصف بجندهم عصف الأهوية الثائرة بالهشم . أكلت ناره
« الجمل » ثم ذرت عظامه رماداً مع الريح . . .

ويصبح صباح ، وعسى مساء ، وصاحب الشام بين يد قلعه مضجع ، يوشك
من خوفه أن يرى الجحافل الغازية تفيض عايه كطوفان ، من مجرى دجلة ، من
مفازة الجزيرة الجرداء ، من شاطئ الفرات الأدكن ، من ضفة النيل عبر رمل
سيناء . . . أمس وحده كان عمر راحته ، وهدوء خاطره ، وطمانينة بالله
ثم دفعه الليل في سواده . . . وعندما فاز حزبه الصرى بتلك الهدنة العارضة ود
بقلبه لو طال عهدا فترة من زمان يمد فيها إعداده . أما اليوم فهي في الغابر —
حبل أمته قصير . . .

ويتلفت العاهل القلق وهو ريشة في لجة اضطرابه فلا يسهفه ذهنه بغير
الحدس والظنون والرجم بالمغيب المجهول من كل مرتجى ومأمول . . . فلو قر
على . . . فلو أقره على أرضه كما ولاه قبله عمر وعثمان . . . فلو نساء الحرب إلى
حين . . . إنها متى أثن كذبت من بعد لقد ظلت زمنا بفتح السياسة التي اتهمجها
طويلا قبيل وقعة الجمل وفي أعقابها وكان بها يداور ويمحاور عسى أن يفوز
ببعض أربه . ولكن عينه كانت دأما على قيس ، في إبان شدته ورخاء حاله على
السواء . وهو اليوم لا يعيل بوجهه عنه ، ولا يغفل لحظة عن أية حركة تند منه
بالوادي الأخضر ! فكل همه أن يدرأ عن نفسه دهاء المارد وطاقة عصر مكتنزة
لو خلى بينها وبين الانتشار لهزت الدنيا ، وفتحت العالم بشرقه وغربه . . .

اسكن شق الرحي الثاني لم يدر دورته . . . همد حركة . جنح صاحبه به
إلى الركود . . . فما تحركت بمصر قدم أخذت طريقها إلى الشرق نحو فلسطين ،
فدمشق ، فأعمالها السكينة للناخلة للروم . ولا انمقد بها لواء . ولا تكتبت
كتيبة لحرب متمرد الشام . . . فلولا أن يقال مخدوع أقال معاوية إن صاحب
النيل قد آثر القعدة بضفتيه يتفياً نعيمه ويستروح نسيجه : لكنه عرفه أخا
بصر وبصيرة ، فلا أمر ما قد تناقل إذن عن اهتبال فرصة النصر ، الذي حازه الإمام
بالبصرة ، وسار ذكره في الأمصار فكبت أعداءه وأعز خالصاء وأولياءه . . .

لأمر ما يدع قيس الآن علياً في عرقه ، وفي النقع الغامر الذي أنجابه عنه القتال .
وفي هم حازب غالب من الإعداد للملاقاة خصمه العنيد في دمشق ثم قبع ينظر
ساكناً من مغاني جنانه ..

فقيم كان مسكونه وكان انتظاره وقد عز جانبه وعلت كفه وكف الإمام بعد نصره ذلك المؤزر ؟ . . إنه ليس عن فتور همة ، ولا عن غفلة ، ولا عن قلة حيلة أو قصور في عتاد وأجناد . فلقد دانت له البلاد في واديه إلا بلدة ، وخضع الناس من رعاياه إلا فرقة ، وجاءه خراج أرضه وقرا خالصا بغير عنت ولا منازعة في الأيام القلائل التي تلت دخوله الفسطاط أعزل ، استطاع العامل الداهية العملاق أن يسوس فيحسن حق غدت أمور إقليمه خيوطا معقودة بإبهامه ، ففاض المال ، وانحنى الرجال . . . فلو قد أراد أن يعد لأعد ، وأن يحشد لحشد . ولو قد مد إصبعاً بحركة وعيد إلى خربتاً لأقبلت إليه تهطع وهي تنفض له رأسها ذليلة . . ولو قد تأبى عليه أهلها ساعة لما شهدتهم بعدها ساعة إلا صرعى على غيارها ، لفظهم الحاضر وحضنهم الغابر . .

غير أنه راثها ، كأنما شاء أن ينسئها أجلها إلى حين . . . وبقي على عهده لها ، محاجزا بينها وبين نابه ، حاويا بأسها في إهابه ، كحية وعصفور . . . فيما أحسب كان قيس مؤمنا يقدر نفسه أقوم إيمان ، واثقا بجدوى تدبيره أعظم ثقة ، فلم يرد شئ عن احتذاء خطة له رسمها في حيطة وراح ينقذها في تحرز وكتمان . . . إنه ليسر نوایاه ، ويلفها من الغموض بأبراد ثقيلة كثيفة حق لتختلط حقيقة أمره على نصيره اختلاطها على غريبه . . . من البدء كان هكذا ، ومن بعد امثل نفس المنوال . . . أو ما أقدم حين كان يجب الإحجام فدخل على أمة ديارها وهو أعزل بغير عدة ولا أعوان ؟ . . . أو ما أحجم حين كان يجب الإقدام فأغض عينه عن خربتا وأهلها المخالفين وقد هاض حزب عائشة واستطار من أنباء ظفر الإمام مادفع أعق عدوه إليه يتكفف الأمان ؟ . . .

إنها خطة ، لا مراء ، عصية على الفهم ، ليس لها من المنطق عماد . . . حق معاوية ضل فيها دهاؤه . يوم استقبلت مصر قيساً بالصمت ترقب العاهل الأمور في صبر ، فلما رآها يمدن فيها ثعالبه تطلع نحوه بحذر . . . كان الموقف حينذاك

لا يكاد ينضح بعقباء . كانت فوقه غمامة ناشرة حجبت من الأفق صفاء
وشابت رواده حتى لقد حار العاهل النائه في مجاهر ظنونه أتلسم الخطوط
الداكنة في سمائه عبسة الغروب يتبعها ليل أم ظلة سحر يعقبها فجر . . .

وفي ثنايا توجسه الحائر جاءه الزمن بالجواب . . صاحب الشام لم يطل قلقه ،
ولم يضرب به خياله أشواطاً وسيمة في غمرات الحدس والوساوس . فلقد أفلمت
نشوة النصر إقلاع سعابة صائفة ، وسكنت الأنفس التي كان يزلزلها الخوف ،
وقرت القلوب الفزعة من بعد وجيب . . . ومع ذلك فقيس هناك بمكانه على
النيل ، ما زال على الحربتا في الأمان واللين ، لا يشعذ سيقا ، ولا يهرز إصبعاً
بوعيد ، كأنما كل همه قعدة ناعمة على الضفاف الخضراء في مغاني جناته . . .

٨

الزمن له . . . هذه فسحة منه طال بها عمر أحلامه . كانت بلسا لحيرته .
شعاعاً هادياً في ظلام حاضره يبدو كسفة من ضباب غده المجهول . دعامة جديدة
في مجازة إلى مجده . . .

وطاب نفساً معاوية . وحق له . فحين يستنبي الآن رجاءه يرى دنياه في
عينه ، كأنما أقبلت عليه مجلوة ، على وجهها سلام وعلى ثغرها ابتسام . . . وحين
يحاول أن ينشر الحيلة لا تتعثر به الوسيلة ، فالجعبة وسيمة ، والحدع حاضرة ،
والباع طويل ، والخطر قليل . . .

ذات يوم ضل حذسه في سياسة المارد الداهية الذي يحكم النيل . كانت عميقة
كهواية ، مشوبة كصفحة البحر النائر في يدي عاصفة ، خافية الكنه كالقضاء
المغيب . . . أمس ظنها هدأة الطبيعة المخادعة تنهياً لإعصار ، فأورثته القلق
والتوجس . كان غموضها يعلأ الجو عليه بالوساوس ، وكان خرس صاحبها عنه
ينضح بالريبة . . . السكأن غفوته تلك بالوادي الأخضر تربص ذئب ينام بعين
ويرقب بعين . . . وقعدته إقعاء الوحش تنهياً للانقضاض . وهل كان قيس
إلا حية مخاتلة ؟ . . .

ثم مضى الأملس هادئاً كسابقه، وانقضى اليوم ناعماً كألمسه . وغاب الغد على أثرها في رمسه . . ليالى ونهر ما كان أطول سويعاتها الحائرة وما أشقها وأثقلها على نفس عاهل الشام ، إنها صهرت عزمه ، وأوهت صبره . . . شدت قبضتها العاتية على نحره ، وجثم شيطانها على صدره . . . ألصقت أهداب عينيه أمسيات طويلة بالنجوم الدامحة . . . ولكنه تحصن أثناءها بأمن اليأس الذى لا يملك سوى انتظاره إشعاع الفجر وبوارق إصباحه . وراح يتلمس جهده ثغرة ان كانت كسم الإبرة فى سور حمة فمصاد أن يتنفس من خلالها نسيم الخلاص ! . .

وها قد أملت الهدنة له ، وجاءته بليالى من هدوء جأشه استطاع فيها أن ينقب بظفره الجدار . . . ولم تكن فى الحق هدنة قد عقدت له ، بل هى عهد بالمسألة بين قيس وخربتا النواثة . ولم تكن سلاماً ساد بين مصر والشام ، بل هى غفوة عارضة شاءها النيل الزاحف فى مهاده الرمل كالأفعوان . . . ومع ذلك فما كان معاوية ليأمن مغبة ذلك الهدوء الثقيل الذى التزمه حارسه العملاق القابع له خلف الأسوار ، أيا رجل غيره كان حرياً به ككثفه أن يحار ذهنه فى الخطة السريلة بالغموض . المسترة من الإسرار بألف ستار وستار . إنه ليؤوده أنها مختلطة الخطوط ، مظمومة المعالم كعبث الأهوية الهوج فى تما الرمل أو بصفحة الماء . لا تتركز على منطق معلوم فلا يتبدى من نتائجها ما قد توحى به المقدمات ولا تسير فى اطراد وموكب الحوادث السيار . . ليست سلباً يعلن فيؤمن جنابة ، وليست حرباً يشهر فيتسع رحابه وتشعر أسبابه . إنما كقارب ضال ، كبير الشراع ، فى يدي نوء مجنون ، يجذبه ثم يرخى له ، ثم يرخى له ويجذبه فلا يلوح لذهن ناقد أين مرساه .

على أية حال استطاع عاهل الشام أن يتنفس الرجاء فى أعقاب الهدنة التى امتد بها الأجل بمد انقضاء آجال « عسكر » وأجناده ، الذين شهدتهم البصرة صرعى على تراها المبلل . وسعه من تلك اللحظة أن يتبين فى الأفق ظلة فرصة مولية شابت سماء مصر بالدكنة ، ولمعة فرصة مواتية أشرقت فى سماء شامه وأحلامه . لكنه فى ذروة بشره لم يكن يحلم بأن يهد على العامل الداهية عرينه أو يشوش سكونه . حسبته أن يرقب سنته ، وأن يقابل وناه بوناه ، وأن يقبض

كفه أن تقطع عليه رقده فتوقظ في صميمه غصبة جبار تعقب الويل وتورث الدمار . . .

لكن كر الليالى ، وتوالى الساعات عليه وهو فى مرقبه ، وذلك الشلل الذى ضرب به على أصابعه المتحفزة للنضال ، لم تكن كافية أن تتقدم به إلى الأمام خطوة نحو أربه . ذلك الجهد السلبي الذى بذله تجاه خطة غريعه الخافية عن تقصيه كان مضية لعمره ، مثقلا لقلبه ، موهنا لأعصابه . وإن غده لمجهول . وإن أجنة الزمن التى لن يلبث أن يدفعها ولائد إلى الحياة لمغلقة من الغيوب بما يحجبها عن وعيه ، وعن استقراءه ، وعن استيقان ملاحظها أم هى سليمة أم هى شوهاء ؟ . . . فما يدري على أية هيئة ستكون ظروفه ، ولا فى أى قالب يسويها قدره . وما يسمعه لحظة من هنيهة أن يثق باليوم القابل وإن اطمأن إلى اليوم الراحل بعض اطمئنان . وهل فى مقدوره أن يقيس غده بحاضره وقد حذرتة خطة قيس المغشاة ألا يركن آمنا إلى القياس ؟ . . .

كلا بل يعمل . ويعمل فى عجلة لا تنسيه حذره . ويعمل ليومه فى يومه دون ترقب لما يحتمل أن يطلع به غد غائم لما تتضح له تباشيره . . . الآن إذا غفت مصر ليس بعينه من خطة أميرها شيء إلا أنه فى غفوة ، مخله قد انكمش فى إهابه ، وخطره نام إلى حين . والإمام أيضا مشغول عنه ، ينفذ عن نفسه غيرة الحرب ويلامق كالليث جراحه . . . وتلك الوفادة التى ماونت تحته على الطاعة دواؤها لديه حاضر . وهل أنجع لها من مطل يردها عنه خدرة كليلة ؟ .

فى هذه السويمات الحاسمة من تاريخه بدا معاوية كمن قد أوتى حاسة هادية توجه خطاه ، وتسدد نظرتة ، وتوفى به رويدا رويدا على غايته المرتجاة بغير عسر ولا مشقة . لكننا ، فى الواقع ، نسلبه نصيبه من الحزم إن وكلنا تصرفه كله إلى جده السعيد ، ونجنى على الحقيقة السافرة بما يحجب وجهها عن العيون . فما كان صدفة ما هدام . ولا صوتا هاتفا من السماء تنزل بالخطبة الثلى إلى هذه الأرض فانحرف سراه إلى سمع شيطان .

لم يكن غيبا انتهك ستره وتكشف سره فوضعت لعاهل الشام من خلاله المعالم ، إنما نفسه دليله . هى هاديته . كانت مشعلا له أنار السبيل الذى اعترضته

الحيرة ، وسدته ظلمة الغد المجهول ، مضت به إلى مراميه وهي تحترق من جزع ، وتتوهج ، ويسيل دماؤها في كل خطوة كقطر الشموع . . . إنه لم يكن غرا ، ولا مخدوعا عن هدفه ، ولا جبانا يردده النكوص وإن أبدى ريثا كان يلبسه أحيان كثيرة ثياب متواكل قليل اللبالة أو متردد مفلول الحيلة . . . وحين رأى مصر تغنو لحصمه ، راحت الحيرة تعبت به عبثة السكأس بدشوان لكنه لم وعيه المبعثر ، وتفض عن رأسه النشوة المغيرة . وما زال ذهنه يسير به حتى التقى همه برمل سيناء فجعل يإزاء أرضها ثلاثة رهط من أعوانه أشدة ، أقامهم على فلسطين ليدروا عنه ثعبان النيل لو شاء زحفا على تخومه . . . ولم ينم لياليه أيضا حتى كاتب الثعالب المحتجرة بالقرية الصغيرة ، فرقته بخربتا ، عسى أن تكون له في الوادي عدة حين يآزف الصراع . . .

تستر الرجل بالخفية في ضلته بمعتزلة مصر ، مناهم عوته ، فرشهم عروضة وديناه . سارهم وتاجوه سرهم ونجواه . . . ولم يكن يخشى عليهم غائلة من أميرهم الجانح إلى سنته ، فقد علمه ذا وفاء ، لا يتنكر لعهد ، ولا يعتل لغدرة . . . ومع ذلك فما أعجب أن تكون الحطة التي رسمها معاوية في كنفاحه قيسا ، تدور رحاها كلها على اختبار اليهود المقطوعة : أهي عارض أملتة الحاجة ، أم سليقة أنجبتها الخلائق النقية المطبوعة على كل خلة كريمة وسجية أبية مستقيمة . . . وكانت نفسه هاديته ، كما أبنا ، في هذا الميدان . ففي مرآتها يرى غيره ، فيحسب له الوفاء عجزا ، أو حيلة ، أو وسيلة . . . وقد انتهى به تفكيره في حال غريعه ، القابع هناك في مغانيه ، إلى العلم بما في يديه من قدرة وحول اجتمعت بهما له أفياض المال وسواعد الرجال . . . وأيقن أيضا أن الحيلة في جمبة قيس إن كانت معدة حاضرة فهي عدة الظلام لا يطولها حدسه وقد تطيش في استنباء كنهها ظنونه . . . كلا الفرضين لم يكن مسعفه على التقدم إلى هدفه ، فلم يبق سوى « الوسيلة » علة يفترضها لصمت داهية النيل . . .

ولم يضيع وقته ، فالعمل وحده قد يكشف له عن مسالك يشقها كيده . . . وكانت الفكرة التي لا ريب سيطرت على ذهنه تتفق ونهجه في الحياة ، وتسير وطبعه في سبيلها . إنها سليقة التاجر المنهوم للربح يلتمسه من أدنى طرقه

وإن خاض إليه على أنقاض الذمة . . . إنها شيمة المساوم التهاز ، يعد الصاع ليغم الأصوص . . . وهل يجوز له بخاطر أن صمت قيس عنه وعن أضراجه المخانلين من معتزلة النيل كان ابتغاء مثل سامية ، ونبت نفس كريهة تنفض الأثرة وتدنى الإيثار . . .

وفي عجلة وأمل غمس قلمه في مداد المني الخداعة ، وزيف الأباطيل ، وبرز العروض السخية التي تغوى ، وتفتن ، وتميل بالقلوب النهمة الوصلية إلى كل ميل . . . وكتب بيد المساوم الضلل رقعة سوداء ، كلها رياء ، واقتراء ، ومراودة ملحة عن الحيانة :

« من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك . أما بعد . . .

إنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثره رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو في شتمه رجلا ، أو تسييره أحداً ، أو في استهماله الفقى من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحمل لكم بذلك . . . وقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئاً إداً . هـ . فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجابين على عثمان . . . فأما صاحبك فإننا استيقنا أنه الذي أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك .

فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان المراقين إن أنا ظفرت ما بقيت . . . ولئن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ، وسأني غير هذا ما تحب ، فإنك لا تسألني عن شيء إلا أوتيته . . .

والسلام .

وختم كتابه وإن بنفسه لجزعة من مغبته أن يوقظ غضبه الثعبان النائم . وإن بها كذلك للهمة أن تصادف عنده ضميراً يكون خيالا لضميره . . . ولتنبئته الأحداث . . .

أما الافتراء فهو ديدنه . ما انتشرت أمامه قط ثمرة إليه إلا اقتحمها بلا وني أو تلبث . . كان عماد سياسته المناهضة للإمام والمحور الذي يدور حوله تدبيره . وحتى عندما قضى الخليفة الشريف أيامه الدنيوية ، ووسعته رحمة السماء ، ولم يدع على هذا الكوكب الدنس إلا تراثا روحيا له نقاوة المدى في البكرة ، وطهارة قلب المولود ، وعطر الزهرة الريانة حين تفتق عنها الأكمام — حتى بعد أن غدا الإمام ذكرى للذاكر ، ونورا من الغابر يهدي في الحاضر ، وزادا طيبا للعقول والخواطر ، لم ينم معاوية يوما واحداً عن رميته بأباطيله الافتراء . . وإنك لتراه وقد غدت الدنيا بكفه ، وجثا الإسلام عند قدميه ، لا يني بأمر الناس أن يسبوا عليا ، ويهيضوا من قدره ، ويركبوه بكل مذمة ومنقصة . فإذا قيل له ليكف اندلاع لسانه الكذوب العياب : « إنك يا أمير المؤمنين ، قد بلغت ما أملت ، فلو كففت عن الرجل » — أبي وقال : « لا والله . . حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذا كر فضلا . . . »

وأما الجزعة على مصيره أن يرسمه قيس فنبأها مع الليالي الطويلة التي حالفته فيها اليقظة . ما كان ليقر جنبه أو يلين فراشه وذلك العملاق يتراءى له في خيالاته كأعما يوشك أن يعبر سيناء ، ويقتم فلسطين ، ويدق عليه أبواب قصره في دمشق الفبيحاء . . فلو فعل لجاءت النهاية ، وجاءته من جانبيين ، شطرها من العراق والآخر من النيل . وهو بهما حينذاك كمن شدت أوصاله جبرما إلى فرسين ثم ضربا ليجمعا : هذا إلى عين وذلك إلى يسار . .

وأما الرجاء الذي احتوته لهفته فقد طلع عليه ذات ليلة صافية الأنجم في حساب أوهامه وإن كانت حقا غائرة الأعين كثيفة الظلال . . إنما ضل فيها حسابانه . بدت له كظنه من خلال الطبيعة الهادئة التي أخذت حينذاك تنفض عن نفسها رهق الصيف ، وتخلع ثياب الهجير ، وتتعمى من أبرادها الخضر تبترد في نسمة الحريف البليلة . . ولاحت كذلك من خلال أملة النهى الخو ، الذي حملة

كتاب وولده كتاب ١ . لكأنها جاءت به بحلم عمره ، وغاية المرجو من قدره المترفق وحظه المواتى السعيد .

فليكن له إذن وهمه . وليكن له بشره ساعة أو سويعات من ليلته تلك « الصافية — الدكناء » وهو يرتل جواب قيس له كأغنية ١ . . . ففيه متعة . وأطياف رجاء . ومزاق يؤدي عاجلاً إلى الحياة كظنه السارح الضليل ؟ . . . قرأ معاوداً وهو نشوان :

« . . . بلغنى كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به .

وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى الناس بعتان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عايه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى . . .

وأما ما سألتنى عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضت على من الجزاء به ، فقد فهمته . وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس مما يجعل إلى مثله . . . وأنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شيء تكرهه ، حتى ترى ونرى . . . والسلام » .

وبطيه الكتاب الذى أقبل عليه من مصر إقبالة النسمة المعطرة ، طوى معاوية إحدى صفحات قلقه . إن سفر متاعبه ضخم ، والسطور التى خطها الزمن فيه تسكل فى تبينها وفى استيعاب ألفاظها المتداخلة عينا . ولكنه مع هذا قانع قرير ، قانع أيعا قناعة ، وقرير إلى غير قرار . أم قد خدعه حينذاك تقديره فعاش صدر ليلته تلك وهذا الكتاب عيش طفلة ودمية ؟ . على أية حال غمرته الفرحة المفاجئة — لا ريب — من هامة لساق . ظفر خياله السارح فطوف به كالنحلة فى مغانى أحلامه ، انتشر أمله الجامع انتشار الضوء بين وضعة النجر وحمرة الغروب . . . فهلا أمن ؟ . بل يوقن . بل يطمح . بل يبني البواذخ الشم على دعائم التصور ، وطيدة رفيعة كأنها الصروح ذات الأبراج ، فالوارد الجبار خلع جبروته : استأنس الوحش الذى تهباً طويلاً للانقضاض ، غدا وادعا حكامة ، ألبا كهرة ، حياً كهذراء ١

ما كان أيها بدء ليله ؟ .. فما يريبه الآن ، وما يشغله في مصر ، من جيرة النيل ومفازة سيناء ؟ .. هذا عهد من الداهية في كتاب ، مصانعة ، كتابعة كبايعة ، أم لا فأين الساعة ولاء قيس لعل وإنه للمليم حق العلم أنه شهيد قرية ؟ .. فيم صمته إذن عن هذه التهمة التي ألصقوها بسيده ، الموغلة في الحيف ، الغالية في الباطل ، المنسوجة من خيوط الحقد بإبرة المطامع ؟ .. كيف لم يدفع بجد قلبه ، لاحسامه ، عن إمامه فجاءت سطوره لينة على استحياء كأن قد أتت الإنكار ورضيت الإقرار ؟ ..

في خاطر العاهل ، الذي استخفه فرجه ، كانت « اوسيلة » وحدها هي التي سطرت حروف الجواب ... ذلك حسبانه صدر ليلته . وإنه ليفكر ساعة بشره هذه في أمر قيس ، وموقفه اليوم وموقفه أمس ، فلا يرى علة تفسر له نمومة غريمه المارد إلا إضماره في دخيلته العميقة كالبر هرقا خالصا محببا لنفسه ، راح يعد له ، ويصبر في حذر ، ويستأنى بزمه عسى أن يبلغه إياه ذات يوم قابل وهو رابض هناك بجانب النيل . وما هو بمرود أبدا عن وطره الخفي المأمول . وما هو بعثمه إلا هذا السكوت عن غريم صاحبه مرة ، وعن ثمالب خربت مرة ، حتى تأزف آزفة يستطيع خلالها أن يساوم من شاء على ما شاء . ولعله ، إذ ينادى النفير للحرب ، وتدوى الطبول فتتفلق الهام وتتناثر على الثرى فتات الأجسام ، عامد إلى الفرصة السانحة المرقوبة ، فناهض فيها لأمره ، يساوم أو يعلى وهو حينذاك القوى الأغلب الذي لم تصبه بعد قارعة ، ولم ترهق سيفه الحادثات الجسام . . .

ويقلق معاوية . دون هذا ويسود ليله . . . تلك الأمسية التي تبدت لعينه صافية الأنجم أخذ ينقب وجهها ضباب . كلما انطلق به الفكر ، والزمن ، في ساعاتها الوثيدة : من جبينها ، إلى النحر ، إلى الصدر ، إلى الخصر ، إلى الأطراف التي همت توفي به على النهار ، وجدها ذات وحشة وظلمة ، غارت نجما — في باله — كليلة في الشتاء عابسة وإن عرفها من بواكير فصل الخريف . . . اكتسى هيكلها كله بمثل القار . .

وكان اضطراب ذهنه ، لا غيوم السماء ، هو ما حجب صفاءها الرائق عنه ، وعبت بأمنه ، وطرده طلائع الطمأنينة التي غزت خياله الفسيح ساعة الغروب . . .

فما وراء هذه المصانعة ؟ . . ما غاية قيس من الليونة التي خطها جوابا على الإغواء والنعومة التي استقبل بها الاقتراء ؟ . . أحقا التوى ومال ؟ . . أعن حب نفع ، وصدق نية على تبادل المغائم واقتسام الأسلاب المتخلفة بعد من أنقاض دولة الإمام أم هرلين الرمال الرخوة ما تلمسها قدم حتى تميد تحتها وتنهال ؟ . . أم نعومة الحيلة المختلة ؟ . . أو تلالؤ السراب ؟ .

ذات غد غير بعيد ، حين فشل إغواؤه ، وضلت وسائله عن ضم قيس إلى صفوفه ، وتسعرت بينهما المناجزة والجفوة ، كتب إليه معاوية يذمه ويعرض به :
« إنك يهودى ابن يهودى . . . »

لجاء نعتا إن يكن لا يطابق في حقيقة صفة المنعوت فقد صور لنا رأى ناعته فيه ، ولم يكن معاوية — إذ نعت — ملهاة غضبة جارفة ، ولا أسير خيال أحق مريض ، وإعنا استملى ظروف ماضى المارد ، وعيشه الشباب بالمدينة ، وعشرته فيها قبائل اليهود جيران قومه الخزرج وأحلافهم قبيل الدعوة . . . فإن كان هكذا رآه ، فقد وفر له من طبيعتهم النهازة ، وأثرة تأسره ، وتلوى خطراته وتدفعه أمامها ريشة خفيفة في رياح أطماعه .

لتوشك إذن هذه الصفة أن تجمع الغريعين في سبيل ، يلتقيان على نفع . . . ومع ذلك فمن يدرية أنه لم يقبس من اليهود غير هذه من خبائث ؟ . . بل يؤوده أن يطعمئن له ، غدا كأمس ، وإن غدا بعد رقيق فضله وبذله مما تسعه تلك الأمانى والعروض . فهو يومه — إن مال — خائن وليه الأول : الإمام ، وهو في غد — إن وفى لطبعه — للجديد أخون ، وتلك شيمة كل غادر خؤون .
ويصابر معاوية هذه العروض المثيرة التي أمطرها سماء أمسيته . . . لود لو انطوى في فراشه وهو نشوان بنصره صدر الليل ، والرجاء حينذاك يهدد خياله ، لكنه الآن لقي في أيدي قلقه ، وخضم أفكاره ، والوساوس التي تترى عليه أمواجا وراء أمواج . . . فذاك « اليهودى » قد حيره ، وما يحسبه ، هذه اللحظة ، إلا انطوى مثله في أمسيته ، يفكر ويعاود التفكير وقد أمسك كتابه بكف يهودية ، وراح يطالع سطوره المغوية المرة الثانية ، لثالثة ، لأمشرين بعد المائة على عادة إسرائيل الحذرة . . . أفقتله ياترى الوعود . . . بل كلا . أيعا رجل غيره ولو كان غرا لا تجوز عليه هذه الحيلة ، التي لبست

بالعروض السخية وبطنت بالأمانى المعسولة . . . وما كان قيس بالغر الذى يفتنه
الزخرف البادى على اللب الزائف الموه . . . ليس غرا فبرتمى فى لهفة على قيس
الضوء الذى شبه مساومه ارتعاء فراشة فى لسان الالهيب . . . ليس غافلا فيقطع إلى
خيال الرضيخة السمينة المشتهاة ، للنعكس من خلال كتاب الإغواء ، كأنه محروم
منهم . . . ليس أحق — قبل هذا وذاك — فيؤمن بصدق النية التى لوحث له
بنصف ذلك الملك المؤمل الفسيح . . .

وعندئذ حق لمعاوية أن يلوم نفسه أعنف اللوم ، ويغرق فى عذرها كل
الإغراق ، فلو اقتصد فى عروضه لكان خيرا له ، وأجدى عليه ، وأحرى بها
أن تبدو للعيون صادقة فتميل إليه نفس قيس لو شاء أن يميل . . . ولكنه أباحها
بقلمه مالا يبيحه بقلبه ، ومط أمامها رقعة السخاء مطا شديدا حق رقت وكشفت
من خلال شفافيتها خدعته . . . أم لا ، فما الذىبقى خالصا له . . . هو الخليفة
المرجى ، من الدولة التى وسعها أطباعه وسلطانها خداعه ؟ . . . ما الذى تحويه كفه
وقد أهدى مصر لابن العاص ، وأقطع العراقيين قيسا وله غيرها ما أحب لو شاء
وفرض لأهله أيضا الحجاز ؟ . . .

كان فلك أمسيته إذ ذاك قد أفلح لغايته ، عند شاطئ السحر . . . والنجوم فى
الأفق وسنانة . . . ونسمة الخريف الندية تطل وجهه المحموم . . . كل شيء حوله
احتوته الظلمة التى أراقها سواد أفكاره ، حتى البواذخ الشم من خيالاته التى
تبدت له صدر الليل كأنها الصروح ذات الأبراج . . . ومع ذلك فما زال يصابر
جزعه ، ويتشبث بأوهامه . . . وإنه ليمد عينه من خلال ستر الظلام فيتبدى له شعاع
كالخيط ، يسرى مخافتا من ناحية النيل — من عامل مصر — من نفسه اليهودية
النهضة . . . ألا لو يصدق حدسه فإن المارد إذن لمطواع ، حريص على ما سحا به
حرصا ينميه خوفه أن تفلته الفرصة ، وجشعه الذى ماله مثيل إلا فى إسرائيل . . .
ولسوف يلوح له ثانية بوعوده ، وبوعيده ، فتستجيب فيه طبيعة اليهود ، وينقاد . . .
وكتب إليه :

« . . . قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك
حربا . . . وليس مثلى يصانع بالخداع . . . فإن قبلت الذى عرضت عليك فلك
ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملائمتها عليك خيلا ورجلا . . . والسلام »

١٠

كان كالبادي الصحرا ، أليف ظعن وترحال . أكل قدمه الرمل ، وهقق القيقظ إهابه ، وتحلب العطش ريقه . . . ولكنه سائر شوطه ، لقدر مقدور . في النهار والليل ، تحت وقدة الشمس ، وفي قرة الظلمة — حق في كوايبس حلمه التي تطالعه كل لحظة إعياء تقسر رأسه على النهويم وجوارحه على الارتخاء . . . إنه لا يأمن التروقف . بحسبانته — لو فعل — أن حرارة الحياة في أعضائه ستخمد ، وأن قبره سينشق عند منتهى أثر قدميه . الموت يرصده في كل مكان فلا أمان بمكان . إنعاسير ، ومماودة سير ، وسرى يسلم إلى سرى . فعناء وحياة خير من قرار وموت . . .

ومن خيالات وهمه كانت النجاة تلبثق له ، كشمعاع النور في ليلة ضريرة ، كالنبع في الصخر ، كالظل في الفلاة الجرداء . . . فإن يكن سرايا فإنه أمل ، ومهرب من يومه وما احتوى من كرب ، ونظرة إلى غد باسم ذي ضياء ، ومسرب ذي زروع . . .

وكان لا يثق بالسراب ، ولا يؤمن ؛ ولكنه انطلق نحوه ، بلا فتور ، ففيه راحة إلى حين . راحة لنفسه الحائرة ، وقلبه الخافق المقلقل . فمن ذا يدريه ما يضمه ألقه عند التقاء الأرض بالسما : خيال ماء أم هو ماء . . . وشبح دائرة أم دائرة ؟ . والأمل دائما يسبق الرؤية . والرجاء شطاح ، بجناح وبخير جناح ! فلعله — إذا انخدع ساعة لوهمه — أن ينخدع بعدها وهمه ، فتبدو النجاة من قريب . . .

لكن الليالي حدثته غير شجوه . . . فالماء خيال ، والدائرة طيف ، والرجاء هباء وقبض الريح . . . المغاني الحضر منمتة جناها : ظلها تقلص ، ونبعها غاض . لأشجرة ولا قطرة وإن ثقلت العصون ، والتف الشجر ، وجري الكوثر بفيضه على الأيام بجري الشمس والقمر . . . كلاهما انحرف النيل ، وأتى له أن يعيل وصاحب أمره ومالك عنانه قائم دونه صلبا كقناة ؟ .

هو كالرمح — ذاك الرابض هناك في مصر — قد يشدخ ولكنه لا يلوى ،

أو يكسر ولا يعصر . ولقد ظن معاوية . إبان خياله وتغنيه أنه لا بد يوما لاويه .
فها هو اليوم ، وهاهو قيس ، كالم يعهده ، ثابت ، شديد . عنيد لكأنما
الإغواء قوى عزمه ، والوعد وثق مراسه ، والوعيد زاده صلابه كالماء
للحديدة المحماة .

« المعجب من اغترارك بي ، والطمع في . . . »

أنسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم
سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك — طاعة
أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله
ورسوله وسيلة : طاغوت من طواغيت إبليس ؟ . . . »

إنها إذن سراب خادع تلك اللعة التى تبدت لعينة ذات مساء من أماسى
الحريف وقد بعث النظر إلى أفقه البعيد عند التقاء سماء حلمه بجنة النيل . وضح
عبث التمنى ، بغير جدوى انتظاره ، وتربصه ، ورفقه الموه المزعوم وكان
يعلم من البدء أنه مخدوع عن الحقيقة ، كالبادى المصحح الذى ضل سبيله فلم يكفه
المهجير عن المسير . لكن هذا كان بالأمس ، اليوم أيضا ، اللحظة التى سلفت
ورود هذا الكتاب العنيف . فإن يبق له الآن شيء من راحة البال فهو يأسه
من غريعه ، واليأس طى أية حال إحدى الراحةات

والقلق أيضا قد عاده ، أشد وأمض فما نسى قط من بعد ، خلال حياته
الطويلة — وحتى فى ثنايا انتصاره ، ذلك الوعيد الذى لطمه به قيس ، ورماه
فى وجهه كقبضة تراب . كان خطرا يرصده ، سيفا مصلتا فوق رأسه قد عاق
بمثل نسيج عنكبوت فإن خشيه فقد خشى قبله اللحظة المجهولة التى ينقطع
فيها خيطه الواهى فيقد رقبته أو يفلق هامته .

ويعاود مطالعة ذلك التهديد وهو مشغول :

« تملأ على مصر خيلا ورجلا ؟ . . . »

والله ، إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لئدو جد
وإنه لئدو جد ! طالعه سعيد ، وقدره الآن فى عينه وإن ركه غريعه بالتهديد .
فالآن قد انكشف الستر ، وبرز الحفاء ، ولم يعد دعة مجال لمطمع فيه ، وهل
فى سراب جنى وظل ؟ فما وعد حتى أخلف ، كطبع اليهود !
وكتب لقيس :

« . . . إنك يهودى ابن يهودى . . . إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك . . . »
غير أن غصته لم يطفئها التعريض . وغضبته لم يخمدها ذمه وتهديده . . . وكان
ثأرا كأعصار وخائفا كعصفور في برائن حداة جارحة ، حائرا كوحش أطبقت
عليه المشراك ، لكنه استقبل نفسه بوجه واستقبل قومه بآخر . فإن هو إلا الصباح
حق طوى همومه ، ولبس قاعا كشيئا على كربه الثقيل ، واغتصب بسمة الرضا
والارتياح وهو يخطب الناس :
« . . . يا أهل الشام . . . »

إن قيسا قد تابعكم ، فادعوا الله ولا تسبوه . . . لا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا
شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سرا . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عندهم من
أهل خربتنا ، يجرى عليهم عطاياهم وأرزاقهم ، ويحسن إليهم ؟ . . . »
وما يضيره إن كذب ، فلك شيعة فيه . . . فالكذب مركب هين يباغى
هدفه ، على نفسه أهون من صدق يقعده ، ويكبح طمعه ، ويتخلف به في سباق
الحياة للمجد . . . وما يكرهه الساعة من الناس حوله ولن يتبين أحدهم أنه مخاتل
كذوب ، فأيا أمرىء منهم جاءه النبأ من مصر يتخلف قيس عن معالجة الشام
بالمهجوم ومبادرة خربتنا بالشدة ، حرى بأن يظن به أبعد الظنون . . .
بل أولئك الذين لم يدوروا في فلك معاوية ، كانوا عدوا له عتيدين ،
يتربصون به ، ويرصدونه كل مرصد ، ظنوا به كظن أولياء الماهل المخاتل ،
وتبدت أمامهم — لجزعهم — قدما فيس على هاوية . . . ليس لحسب عامة
الناس بالحاضرة الجديدة ظنوا به ظن سوء ، بل الخاصة فيها ، الخيرة ، الصفوة
الخالصة من رجال الإمام الأئمة الذين يؤلفون من أعوانه طليعة الصفوف . . .
وجاءت منهم الإمام طائفة ، تدفعها الريبة ، خدته في الأمر وإنه ليوشك
حينذاك على الخروج للنخيلة بأجناده ليتشرع منها لحرب الشام ، فلا يكاد يلقف
من شكوكهم همسة مخافتة حتى ينبرى يذود عن خديته .

« والله ما أصدق بهذا على قيس ! »

فيبادره منهم ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ، لا يداجى ولا يعهل ، ملقيا
بظنه وشوراه .

« يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . . »

أجل فثمة شبهة غير منكورة وإن غشاها على إيمانه الوطيد في وفاء قيس .
ولست بالأولى . لا ولا الثانية ، توالى النذر عليه جذيرة بأن تزلزل يقينه كلما
حملت له عيونه المبتوثة هناك بالشمال ، مع كل إشراقة ، وفي كل مساء ، خلال
هذه الفترة الأخيرة من الكفاح ، أنباء وفاق سرى تهاشم الناس بانعقاده بين
رجله وبين صاحب الشام ، فلو صدقته فصحبه الذين يحاورونه الآن قد صدقوه
أيضا النصيحة . . .

ويفكر وإنه لنهب بين يقينه وبين الظنون . ويتدبر الخطوة اللازمة في أناة
وروية . . . لقد سمع أن يجنح إلى قولة السوء ، ثم يمدل نصيره ، ثم يقطع الثقة
المدودة نحوه إلى غير رجعة وما هو إن فعل بالجائر . قد سمع اللحظة أن يعدد
حربا وكان من قبل يعدد اضماتقة . قد يجيزه الحذر بعد الأمان أو يسمه كوسمه
القدرة . . . ولكنه ليس بظنين — ذلك العامل الطوال الأجرد ليس عنده
بتمهم ، بل ولى وفي شكور مشكور سما بنفسه عن الحيانة . وماهى إلا فرية صبا
صنائع ابن هند في أسمع العيون ، قد أعقها لسان كذوب ، ونسج وشيها الخبيث
قلب دءوب على الدسيسة ، فمضت يدرنها وراء الحدود . . .
ويثنى عبد الله :

« اعزله يا أمير المؤمنين . فوالله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته —

اعزله ا . »

ويعلو جرس نصحه إلى صيحة ، ففضبة ، فتورة تهز قلبه وفرعه . فإذا رجمه
في الآذان دوى ، وفي الأذهان نذير ، يضطرب ويقور فيدفع هتافا تلمظته
الشفاء كالزئير :

« اعزله يا أمير المؤمنين ا . . . »

غير أن الإمام ينطلق عنهم بعينه إلى بعيد . . . إلى غبرة في الأفق تعلو أمامه
كالسمابة ، وتطير صوبه كالدخان . وإلى ضجة تخرج من الغيمة الزاحفة ، في بدئها
مخافتة تخطو النسمة ، ثم تدنو فتعلو . ثم تبدو نواتها وتتسق خطواتها حتى تعميل
نحوها العيون الرقية . . .

وعندما ينجلي الغبار ، ويترجل الفارس ، وتأخذه الأبصار . يصمت القوم
من توجس ، وتحتبس صيحاتهم المتمردة وراء الأفواه . فعلى الرجل وعشاء راحل
أبلى السرى وأعبي الرواحل . فى عينيه سهوم حائر ، وفى وجهه وجمة محاذر ...
وفى سكون ثقيل حريب ، يميل على أذن على يسر إسراره ، كأنما لسانه قلم
يرسم فى صماخها حديثه . . . فإذا فرغ ، دفع إليه بكتاب فى رقعة ، وتعمل على
أهبة ينتظر . . .

فلولا أن أودع الإمام وجهه الكتاب ، يكتب على سطوره ببصره وخاطره ،
لبدت لهم خلجات نفسه بلا حجاب عميقة الأثر فى جبينه . لكنه لا يبيحهم
مشاعره . ويعضى معاودا يتلو من الصحيفة كلاما ، بناظره دون ثغره ، له فى
فؤاده مثل وخز الرماح :

« للأُمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

سلام عليك . . .

أما بعد . . . إني لما نظرت لنفسى وسى ، لم أرى سعى مظاهرة قوم قتلوا
إمامهم مسلما محرما . برا تقيا . فاستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديفنا .
ألا وإني قد أقيت إليكم بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى
مظلوما . . . فعول على فيما أحبيت من الأموال والرجال .
والسلام . . . »

ويعاود أيضا . يتلو بعينه ولا يعقب . . . إنهم حوله كبيان عليه مراقب من
عيونهم تربصت بأفكاره . كأسوار قلعة . . . كطوق النجاة . . . لكنه
لا يبدى لهم إلا عينا جوفاء تحيد سريعا عن نظراتهم اللامعة المخالسة لتبدو بنجوة
كالخصاة الصلدة إذ يطلها ندى الصباح . . . إنما شغلته صورة تشعبت خطوطها
من سطور الكتاب ، ثم تقاربت ، ثم تجمعت فى أضواء وظلال رسمت الحياة
الهدنى فتنة تستذل الرجال ، بها هوى ختال ، وعابد ضال . . . أفكذلك يريق
الحاضر من سوائه ظلمة تكفن فى سوادها القابر الهيد ، وسيرة كانت أمس
كالشمس وضاءة ، ونفساً منيرة على الفواية منعة أحد على عواصف الريح ؟ .
أما الجمع فقد تلقاهم الرقعة التى مدحا إليهم الإمام ، من حذهم وحيرتهم ،

إلى مثل نوء عفيف من العواطف ، يضطرب بهم ، ويدوم ، ويدور . في وجوههم
دكنة الحزن ، وشحوب الأسف ، وحرمة الثورة . فما هذا بقيس الذي عرفوه .
ليس هكذا تستطيع أن تجمع الأخيلة فتخلط الخبيث بالطيب ، وتجمع النقيض
للقبيض . أسيد الخزرج ، علم الإسلام ، ابن النقيب سعد بن عبادة الذي احتضن
الدعوة وإنها لطفل هزيل مهيض ، والدعاة وإنهم لحفنة يتخطفهم الخوف ، هو
الذي يخط مثل هذا الوفاق ؟ . . . لقد يوشكون أن يحسبوه أحمق ، أو قعد ،
أو أحمق ، ولكن ظنهم ، قبل يومهم هذا ، ما كان قط مستطيعاً أن يقرنه
وخيانة . . .

كلهم غاضب ، وكلهم أسيف . على ملاحظهم مثل غيرة . وفي حلقهم شجى ،
وفي عيونهم وميض نار . . . حق الحسن الذي تشرق من جبينه سحابة الطباع ،
وترف الطيبة والسباحة في بحياه . . . وحق الحسين الذي كان ذكرى حية لجده
رسول الله تعيش فيها قسامته . . . وعمار أيضاً الآدم الرقيق الذي لم يترك تقدم
العمر فيه بقية لوجدة . . .

كان لهم : « اعزله ! » . . . وصوتهم « اعزله ! » . . . وأنفاسهم المتذائبة بين
الصدور والناشق : « اعزله ! » . ثورة وحنق . صخب وغضب . عواء وزئير .
لنهر الأرض من هتافهم ميادة كمن زفير بجوفها انشق عنه قلب بركان .
اعزله ؟ . . . بل لو كان حضرم معاوية لهتف مثلهم : « اعزله ! . . . »
فإنها هدفه . سعيه وقصاراه . . . إنه ليدو الآن للإمام ، تحت شعاع البصيرة
الكاشفة ، بقصره هناك ، كشيطان راح ينقث في روعهم من بعيد أحرف اللفظة
المؤلبة . . . أم يدع قيساً وجته ؟ . أم يتركه شوكة نخزه ؟ . أم يسلمه أطماعه
العريضة ملهاة في كفه يعبت بها ثم يحطمها حيناً يشاء ؟ .

ورفع على يده إلى صحبه يكفهم عن اللقط ، فالأمر إن خفي عن إدراكهم إبان
السخط ، إنه لشاخص تحت عين الروية ، عار بلا دنار ، ظاهر بلا ستار . . .
وما هو قط في قيس بمستريب . ولا بمنكر وفاء . ولا بعازله اليوم وإن تجيشت
عليه مواجد رفاقه . ولقد ينثر الآن جعبة الفعال التي أنجزها بعصر عامه فيرى فيها
أعمالاً يبدو كتقاعد ، وأناة كتردد ، وسكوناً كغفلة . ولكنه مع ذلك لا ينبو
بذلك العذر الذي ساقه إليه قيس عن التهمل والسكون والأناة :

« ... إن قبلي رجلا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم حتى يستقيم أمر الناس ، فترى ويراها رأيهم .. وقد رأيت أن أكف عنهم . ولا أتمجل حربيهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل قلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم »
ولقد فعل ما كتب ، وأمن الخائف ، وأمهل المريب ، وكان بذلك هدفا سهلا لخصومه وأصدقائه على السواء . فلعله الآن أن يقطع صمته ، ويجمع حزمه ، وينفذ ما أبلغه إياه إمامه ساعة خروجه إلى قاعدته فيبدأ ضربته قبل أن يستطير شر أولئك المعتزلة بعصر ، ويقوى بهم حزب الشيطان .
وعندئذ بعث إليه الإمام :

« ... سر إلى القوم الذين ذكرت ، فأب دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ا . »

ومع ذلك فقد أبي قيس ... أية خطة تلك سوغت له أن يدع عدوه وشأنهم ، وإن اليوم ، بل الساعة ، بل اللحظة تزيدهم جميعها منعة وعدة بعد إذ كانوا قلة ضعيفة تهاب اللقاء ؟ ... بذهنه فحسب ما أضمر ، فلم يطلع أبداً على تدبيره صباح ؟ .

١

م القتال ... لا فرجة اليوم لطاعة ، أو موادة ، أو وفاق ... العيون تلهب . تزلزلات بقيعها الصدور . بانث العقول في مشافر السيوف وفي رؤوس الأسنة . وأينما تحرك البصر أو تربص السمع كان خفيج ووسوسة ، وألوية وبنود ، وصليل وقمقمة في كلا دمشق والكوفة — في القصر والرحبة . ها هنا جموع تلتها جموع ، وزمر محشودة ، وصيحة للدم . وهنا نداء ودعوة ، ولفظة جهاد ، وحركة إعداد . والقلوب التي حلت بالوحدة المرتجاة قشع حلها تردد الضجيج ! ...

لكن قلبه كان قد أشرب الرحمة ، ونفسه صفاء ، وروحه تملأها اللوعة . فما كان أشقه من سفر على فؤاده تحفه من كلا جانبيه الجاهم ! . وما أبغضها حنة ، هذه الحرب ، تخبر فيها النيات ، يقتل الرجل فيها أخاه ، والوالد ولده ، والابن أباه ! ... أرض محراتها سيف ، وبذرها مهج ، وربها دم ، وطلعها المجتفى بعد هذا كله قبور وأحزان

ولم يكن — مع ذلك — ليقمده أسفة ، ولا الحسرة الحبيسة بقلبه توشك أن تسبق الزمن فتفيض كالدمع قبل أن تتبدى أمام أعين الحياة تلك الكوارث للرقوبة ... وهل كان بيده أن يغير الأنفس ؟ .. إنه كافح في هذه الناحية كفاحه ، ينطقه ، وسن قلعه ، حتى تهاوى لسانه وكل بنانه . ولكنه ، والوفود تترى عليه ، وصيحة الحرب تلوكها الخناجر ، أتبع محاولاته بأخرى جديدة لعلها أن تبقى على السلام

وكانت قدمه لم تسر بعد شوطها في طريقه إلى النخيلة عندما جاءه الجواب . هذه المرة لم يحدث معاوية ، ولم يلتبس من لدنه الفصل أو الفء للصواب . فبعسبه ما كتب له ، وما لو كان قد أتبع إسماعه الجلاميد لخرت صعقة تستجيب للهداية ! ... إنما كتب دونه لصاحبه ، مستقر سره ونجواه ، عمرو بن العاص :

« ... إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، وصاحبها مقهور فيها ، لم يصب منها شيئاً قط ، إلا فتحت له حرصاً ، وأدخلت عليه مؤونة تزيده رغبة فيها . ولن

يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ... فلا تحبط
أجرك أبا عبد الله ... »

وأحبط عمرو أجره ... سخا بآخرته وبخل بدنياء . فثمره في يمينه اليوم
خير عنده من جنات وظلال ، وخر وعيون ، وهور عين !

لم يجد جهده ، هذا الآخر ، على السلم مثل خردلة ، ولم يدع ثغرة للرجاء
إلا في ويل ، وحرب مجلية تسوق لدمار ، وفتنة حصادها خلاف وفرقة ، طويلة
الأجل إلى أجيال ، فقد أبت نفس ابن العاص إلا أن تعيدها جزعة :

« الذي فيه صلاحنا ، وألفه ذات يئنا ، أن تنيب إلى الحق ، وأن
تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى ... »

فكان بجوابه العجيب أشد غلوا من رفيقه ، وأبعد في العنت والعناد . فتح
باباً في القضية لم يفتحه قبله سواء ...

وزم الإمام شفتيه في عزم ، على غضبة نائرة ، وهو يطوى الكتاب الذي نقل
إليه صورة أخرى من صور الأثرة . ابن النابغة ووليه سبان ، مرثى ومرتأة ...
ولولا أنه على ، بخلقه على المناقص ، عف اللسان والفكر ، لجال تلك اللحظة
بذهنه ما جال حينذاك بخواطر الناس ، فرد كئلام بنوة الشبيهين جميعاً إلى
أبي سفيان ...

بل قد عصمته أيضاً سجاياه أن يبيع أصحابه الخوض في أنساب أعدائه ،
وإطلاق الألسن تتناولهم من أساليب الدم والمعاينة بما قد يباح . وإنه ليعلم أن
حجر بن عدى ، وعمرو بن الحلق ، جهرا مرة بالبراءة واللعن من أهل الشام ،
فلا يمهلهما أن يسيرا المواجد ، ويقول :

« كفا ... »

فيحاوره الرجلان :

« يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟ »

« بلى . »

« أو ليسوا مبطلين ؟ »

« بلى . »

« فلم منعنا من شتمهم ؟ »

قال :

« كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . ولكن . . . لو قلم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدم من ضلالتهم . . . كان هذا أحب إلى وخيرا لكم . . . »
وتوالت عليه الوفود والزمم ، كلهم قادم كأن لهجرة في الله ، قد خلف أهله وراءه ابتغاء الجهاد . فما كان عمرو في اعتقادهم بعاص ، ولا معاوية بمتحدر ، ولا من تابعهما على الفى بظنين . . . إنما قوم عدوا حق الله ، وأدبروا عن سبيله أن صدعوا الأمة بظلمهم فصدعوا الدين . وإنهم لينسون ربهم في غمرة انكبابهم على الحياة فيدعهم في العماية أدلة لإبليس . . . يصف غاياتهم المضلة الضالة ، وحوافزهم الخاسرة ، عبد الله بن يديل بن ورقاء الخزاعي ، فيقول للإمام :
« لو كانوا الله يريدون ، أو الله يعملون ما خالفونا . لكن القوم إنما يقاتلون فرارا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم . . . »

ويقول عنهم المرقال : هاشم بن عتبة بن أبي وقاص :

« . . . نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل . . . »
وكان قدر آجالهم في نظرة عمار :

« إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم تقربة عند الله . . . »

كذلك كان أصحاب علي ، وكذلك صحت منهم المزائم عندما تشرعت في أكفهم البوادر الصقولة ، وتنهأت لهم ضواير المطى تهم جميعها أن تجوز بهم البادية من سواد العراق إلى غوطة الشام . وما كان سفرهم إلا كحجة غدت عليهم فريضة ، وشعيرة من شعار دينهم مستعقة الأداء . . . وليس بينهم سوى قارى وناسك ، وعابد ، الليل والنهار في التهجذ لديهم سواء . الأرض لهم مسجد ، والزمن صلاة ، والعمر عارية ، والآخرة وحدها الحياة . . .

ونادى بينهم مناديه :

« أيها الناس . اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة . . . »

ثمضوا إليها على الظهر والقدم . إن يكن لخطوهم حسيس على الثرى الندى ،
وفي برودهم حفيف ، وفي سلاحهم رنين ، ففي حلوهم دعاء وذكر وتسبيح لها
في الفضاء الفسيح جلجلة . . . نهر من الرجال دافق ، منبعه الكوفة ، وعجراه
ذلك الطريق للنساب بحذاء الفرات نحو البلدة الصغيرة انسياب ثعبان ، ومن
دون ذلك له روافد وجداول من بحيشة البصرة وأصبهان والمدائن وغيرها من
بلاد أقبلت تغذى ذلك النهر المتلاطم الطويل . . .

وأصبحت النخيلة وهي محشر لكل صاحب جبهة سوداء ، يبس جبينه من
كثرة السجود ، وأصبح معاوية وإنه لملى جزع يأتيه نبأ هذه الحركات منجما ،
ساعة ساعة ، كأنه خلق سلسلة . فلا يكاد يتبين فيه الجد الأجهم ، والنهاية المخوفة
المقدرة ، حتى يفزع إلى رجال إقليمه :

« يا أهل الشام . . . قد كنتم تكذبوني في علي ، وقد استبان لكم أمره .
والله ما قتل خليفكم غيره . . . أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ،
وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم . . . »
أما الحق ، فالإمام لم يرحل إلا وقد تعاقبت زمر الناس على معسكره ، من
حواضر ملكه وبواديه ، على وفودهم أعلام من رجالهم لهم بلاء ، في سيوفهم ردى
وفي قلوبهم أمن ، وفي حلوهم شهادة . . . فالجهد قد دوى بها النفير ، والجهاد
نشر رايته ، والجنة قريب . . . وما في البلاد رجل مست روحه نفحة إيمان
إلا تشرع لها بإيمانه ، ونهياً بصبره ، وتعجل من خلال لفحها ونقعها ودمها سبيلاً
إلى موعود ربه الذي وعده الثقة الأبرار . . .

وفي مسيرهم من الكوفة إلى النخيلة ، كانت خواطرم ما تزال نشوانة بحديث
الرجل الذي تألفتهم كراشم سجاية ، وازدراؤه بدنياء ، وفناؤه — من يفاعه ،
إلى شبابه ، إلى كهولته حتى يومه ذاك — في الله :
« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته . . . فأنصبوا أنفسكم في أداء
حقه ، وتجزوا موعوده . . . »

وعلى رنين السلاح ، ومطيم تخب ، وأقدامهم تدرج بهم على الرمال ،
راح يتردد كالصدى في آذانهم مع الصليل ، قول الحسن الذي تزودوه قبل مخرجهم
إلى النخيلة :

« . . . لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم . فاحتشدوا في قتال عدوكم : معاوية وجنوده . ولا تحاذلوا . إن الإقدام على الأُسنة نَجدة وعَصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة . . . »

وبين إيمانهم الذي نحلهم الثقة ، وعزيمتهم التي وهبتهم الإقدام ، ظلت صيحة الحسين تفرع سمعهم كالنذير ، لتجنبهم مهاوى الغرور والهلكة .
« . . ألا وإن الحرب شرها ذريع ، وطمعها فظيع ، وهي جرع متعساة فمن أخذ لها أهبتها ، واستمد لها عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ، فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سميه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . . . »

وقد أعدوا ، ولم يشدوا إليها رحالهم بغير زاد . . . عديد وعتاد ، وعزيمة واعتداد ، بين يدي حنكة ويقظة ، ولئن قاربوا حلبة الصراع وإن عدوهم حينذاك ضمفان ، فكذلك دائماً أصحاب الدنيا أوفر نقرأ ممن نذروا حياتهم للشهادة ، وآثروا ما عند الله . . .

وتواثبت بهم خواطرهم ، وظفر الخيال قبل الخيل ، وسبقت العقول العقائل إلى ساعة في الزمن تطلع النصر في تاريخهم شمسا قانية ذات دفء ، بعد زهمير هذا الشتاء ، حرها كفاح ، وأشعتها دم . . أما الآن فهم على أهبة ، ينتظرون منه أمره لينطلقوا . في أثناء الفرات ، أو محاذاة دجلة ، أو مع البادية الجرداء التي يضمها الرافدان وهي كبعير السقاية يحمل الماء وهو ظمآن . . إنهم لن يمنعوا كأطيار ضالة وإن ودت جموعهم لو كانت من ذوات الجناح ، ولن يقطعوا الشقة كوحش الفلاة تنخبطه الوهاد والروابي وإن مائلوا الوحش في الظفر والنباب . . . إنهم من هدفهم على بيئة ، ومن خطوهم الوشيك كهذا النهر الذي ينطلق فلا يجاوز مجراه . . . وها قد مضت قبلهم طلائع ، ترود الطريق ، إلى حيث وجار الثعلب الختال في الشمال ، غدت لهم كشمع لسوف يسرون في ضيائه . . . ثم حانت لهم لحظتهم المرقوبة ، عندما وقف منهم الإمام يأمر جعافلهم المسكتلة بالتقدم وهو يرنو بعينه صوب ماء الفرات :

« . . . إني بعثت مقدماتي ، وأمرتهم بلزوم هذا اللطاط حتى يأتهم
أمرى »

ورد طرفه إلى بعيد ، نحو دجلة الذي لا تلمحه من مقامه في معسكرهم
الأبصار وإن يسر أن تراه عين التصور ، وأنهم يقول :

« . . . وقد أردت أن أقطع هذه النقطة إلى شريعة منكم موطنين بأكناف
دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله . وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري ،
ولم آلكم ولا نفسي . . فإياكم والتخلف والترص ، فإني قد خلفت مالك بن حبيب
اليربوعي ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا إن شاء الله . »

فتهاقت كتنائبهم بهليل ، وخفقت الرايات ، وغمر النفوس غامر الشوق
للجهاد ، والرضا بالمسير ، والفرحة بالمصير الذي دنا وإن كان رحلة بلا معاد ،
وهجرة آمنة تنجهم القبر وتسلبهم العمر . كلهم قرير أما مالك بن حبيب فمحزون .
وإنه ليأخذ بعنان دابة الإمام فيلويه بين أصابعه في اضطراب ولهفة . ويغضى
بعينه فيأبى دمه أن ينطبق جفناه . قلبه يضطرم ، وثره يخلج ، وكيانه يهتز
بعث رجعة محموم . ولكنه يغلب أساه ، ويقول هامسا بصوت كله ضراعة :
« يا أمير المؤمنين . . . أخرج بالمسلمين ، فيصيبوا أجر الجهاد والقتال
وتخلفني في حشر الرجال ! »

فريق له القلب الكبير ، وتربت كتفه اليد الحانية ، وتداوى حزنه النبرات
الرحيمة :

« يا مالك . . . إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئا إلا كنت شريكهم فيه .
وأنت ها هنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم . . . »
وتحركت دابته فتحرك الناس .

ورجز حينذاك راجز :

« يا فرسى سبرى ، وأمى الشاما وقطعى الحزون والأعلاما

ونابذى من خالف الإماما

إني لأرجو إن لقينا العاما جمع بنى أمية الطقاما

أن نقتل الماصى والهاما »

وعندما توالى الكتاب ، وأدبرت عن الديار ، شاعت البسمة في ملامح
خفير ثلاثة ، عملاً منهم العيون والثغور . فلقد خرجوا الآن مخرجهم هذا عن
بلادهم وهم أعزة ، طوعاً لا كرها ، لبلاء لا بإجلاء . . .

وأولئك فريق ممن كان قد نقام عثمان ، وأخرجهم من ديارهم بالكوفة
إذ عاتبوه في عامله عليهم سعيد بن العاص ، نبوا بصلفه ، فدفع بهم إلى ابن هند
يسومهم من تجبره ، ويسقيهم الطوان . . .

وتلا منهم جندب بن زهير والرواحل تسير :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »

وهز في عينه قناته وإن عينه لتومض بمزموه وغضبته وهي تتجه كالشهاب
إلى ناحية الشام . . .

وهتف صاحبا :

« صدق الله العظيم » .

ثم تبعاه . . .

٢

مضت إلى وجهها مقدماته : اثنا عشر ألفاً مكتبة ، كأنها السيل وهي تئرم
الفرات في زحفها السريع الثابت ، مغربة بثقلها إلى الشمال ، نحو غاية لها مرومة
لن ينالها اليوم إلا السلاح . . . كل راكب فيها وراجل يعرف قصده ، ويسمى
واجبه ، ويسير على جادة من أوامر مولاه كالصراط . جمعهم خرج في الله ،
ينصر حقه ، ولا يلتوى قيد شعرة عن الشرعة القويعة . الكفاح الذي يطلبونه
ليس وسيلة لدولة ، بل جهادا في دين . والأطراف والجحاجم المتحفزة للتناثر إن
هي إلا دعائم في بناء « الإمامة » نذروها اختيارا ، لا لبنات تقيم معقل
« الإمام » . . . فإنما الله يريدون .

السلطان الزمني لم يكن لهم فتنة ، ولا هدفا يرمقونه أثناء زحفهم بالقلوب

المشوقة والعيون النفاذة إلى مستقره البعيد كالشعاع . ولا جنة يفيثون إلى جناها
الشهى وظلها المديد بعد كد الصراع . . لا مرمى ، ولا قصد من متاع هذه الحياة
وعناصر الناس والجاه — بل الإسلام الغاية . . .

وكانت كل حركة محددة ، وكل خطوة مسددة الطريق مرسوم . والخطوة
مرسومة بما احتوت من دفاع ومن هجوم . بل شؤون الأجناد ساعة السير ،
وإبان الرقبة والانتظار ، قد أعدت أوفى إعداد وأحكمت بأدق مقدار . . .
بل سيرة الجيش ، فرادى ومجموعة ، فيما يجتاز من بلاد ويلقى من ناس ، مقدورة
كأنها صورة يحدها إطار ! . . لم يدع على أمرا إلا دبره ، ولا شيئا إلا أحاط به
وأحصاه . لا هنة . لا شاردة ولا واردة . وعندما انطلق قائده : زياد وشرج ،
على مقدماته بجانب الفرات ، سبقته إليهما نشرة منه ترسم الخطّة المثلى لسياسة
الزحف والرصد والاستطلاع .

« . . . إن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم . فإذا أتما خرجتما
من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع في كل جانب ، كي لا يفتركا عدو
أو يكون لكم كمين . . .

لا تسيرن السكتائب إلا على تعبئة . .

فليكن معسكركم في قبل الأشراف ، أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار
كي ما يكون ذلك لكم ردها ، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين . . .
اجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال ، وبأعلى الأشراف ، ومناكب المضاب ،
لئلا يأتىكم عدو من مكان مخافة أو أمن . . .

حفوا معسكركم بالرماح والأنسة . ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم ، فما قوم
حفوا معسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون . . .
احرسا معسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نوما حتى تصبعا إلا غرارا
أو مضضنة . . .

وليكن عندى كل يوم خبركما ورسول من قبلكما

وكان نهجه في سياسة جنده التسوية ، وبر الكبير بصغيره ، عليهم واجب

الطاعة . ولهم منه حق الوفاء :

« . . . إن الله جعلكم في الحق جميعا سواء ، أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، وبمنزلة الولد من الوالد الذى لا يكفيهم منه إياهم طلب عدوه والتهمة ؛ ما سمعتم وأطعتم وقضيتهم الذى عليكم . وإن حكمكم أيضا لكم ، والتعديل بينكم ، والكف عن فيكم . فإذا فعل ذلك معكم ، وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق . . . ونصرته على سيرته ، والدفع عن سلطان الله . فإنكم وزعة الله فى الأرض . . . »

وحذر أمراء جيشه أن تبيحهم ضرورة الحرب ما لا تبيحه قوامه الخلق وشرعة السجاياء الكريمة إبان السلم والطمانينة ، من السلب أو العدوان :

« . . أبرا إليكم وإلى أصل الدمة من معرة الجيش ، إلا من جوعة إلى شعبة ومن فقر إلى غنى ، أو عمى إلى هدى فإن ذلك عليهم . . فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى بها الله . . . »

لا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم . . .

مضت هكذا أوامره رسم السيرة ، وتنظم الصلة بين كل قائد وفرقة ، وكل جندي وزميله . وكل جيشه وغيره من رعاياه ممن سيخرق الجند عليهم بلادهم وأراضيهم . فأما أمره للمقدمة فالسير والفرات صوب الشمال ، عيونا وطليلة ، لا تعجل بقتال إلا أن تحمل عليه ، ولا تنتهج خطة إلا أن يزودها ببيان ، وهى فيما بين هذه وذاك تكون ملتزمة جانب الحذر واليقظة والاتقاد . . .

أما القوة الرئيسية فقد استأخر بها بعض زمان لا يبرح مقامها ولا تبرح حتى تكاملت له القبائل واجتمعت المقاتلة ممن حشد عماله وولاته من الأقاليم . ولم يطل بعد هذا إعداد . فتكتب الناس ، وانتظمت الأخماس . ثم عقد الألوية ونادى مناديه بالرحيل . . .

حينذاك كان العام فى ربه الأخير . وكان الشتاء يلفظ من أنفاسه بقية كالنماء إن تكن توحى بمقدم الربيع ، فقد خلفت الكون بعدها مثلوج النسمة ، والورق النابت مبكرا على غصونه يرتجف بمثل اختلاجة مقررور . . .

وكان النهار في إبان مولده باسم الظلمة أبلج الجبين . والشمس المظلة من سماء صفا أديعها صفاء مرآة ؛ قد أسفرت عن وجهها المتألق الصبوح ، وانسدل شعاعها على جوانب الأفق كشمع غائية : خيوطا دقيقة من نحماس كلون اللهب ، رفاقة رقيقة ، ليس فيها وقدة من حرارة النار وفيها رحمة من رخاوة النور . . .

الأربعاء اليوم . وشوال الشهر . والزمان مستهل الربيع . . . النخيلة تعج عجيجها بمن حملت ، ومنافذ الكوفة ، والدروب الطويلة المؤدية إلى الفضاء الفسيح الذي انساب في أديعه الناعم القرات انسياب ثعبان . . . للنجائب رغاء ، وللخيل صهيل ، وللأسنة صليل . والصدور التي تتوق للقاء شقيقها دعاء وزفيرها تكبير . . .

الإمام قائم على رأس قواته ، يشق أمامها الطريق في وقار وتؤدة . لا يعضل بالناس في سير ، ولا يؤودهم حين اعتلاء شرف أو اجتياز غور . . . بقلبه طمأنينة ، بعينه دعة ، على ملامح وجهه سلام . يحسبه الرائي — وهذه حاله — أخصا سفرة إلى مزاح آمن وادع وليس بنازح إلى غمرة تحفها المصارع . . .

ما ادرع ، ولا اكتفى الزرد والحديد . كل ما عليه ثوب مرقوع ، قصير إلى ركبتيه ، إن يكن ستره فليس بكاف أن يقيه عادية البرد في ساعات البكرة أو ليالي البوادي الثلوجة . . . لا ملحفة إلا هذا القميص من الصوف والجلد والليف ، ولا درع إلا شعر صدره الكثيف ، يطل من ثغوب ثوبه كأنه الشوك .

وكانت عينه طوال الطريق وانية ، أدنى إلى الوسن منها إلى الانتباه ، كأنما يؤثر النظر بالبصيرة ، فدروحه اليتقطان طرف لماسح يري المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب .

وكانت رحلة تفشد الدم . ولكن الحرب لم تستغرق كل همه ، وفكرة الموت الجائعة من ورائها لم تشغله عن مقومات الحياة . . . ففي الطريق دأما عظة لمن ألقى السمع وأدار البصر أينما مضت قدم . وفي العظة تقويم خلق ، وإصلاح معاش . وما هو بالذي تجمد خواطره وإن أحاطت به عدة الحرب كالسياح . . . لم تلهه الحومة المقبلة عن دوره القدي احتذاء عمره من تنقيف الأنفس ، وتهذيب الطباع ، وتأديب الناس بأدب الشريعة الهادية ليصموا بعده مشاعل النور . . .

(٩ — الإمام)

وإنه ليضع رجله في الركاب قبل المسير فلا يكاد يستوى على ظهر دابته حتى يذكر ربه : « باسم الله » ... ثم يرفع وجهه يناجيه : « اللهم أنت صاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ... » ويمضي ، فيتبعه الجيش كله على يقين ...

... وينزل منزلا بجمعه الحاشد فيتقدم يصلي ركعتين . فالأرض كلها مسجد ، والصلاة قربان . حتى إذا فرغ قام فقال ، ليعلم الجاهل ، ويبصر الغافل :

« أيها الناس ... من كان مشيما أو مقيا فليتم الصلاة فإننا قوم على سفر . ومن صعبنا فلا يصم المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان ... »

ويعر في سيره بآثار كسرى ، فيسمع صاحبها له يتمثل :

« جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد »

فينهاه :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بك عليهم السوء والأرض وما كانوا منظرين » .

ثم يستقبل بعد هذه التلاوة الجمع بالتحذير :

« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبهوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية ... » .

... ويلقاء بعض الدهاقين قد أتوه بدواب وطعام هدية له ولرجاله ، فيأبى ويقول :

« أما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنعسيها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإننا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بشفن ... »

عندئذ يحاولون أن يحملوه بكياسة على القبول :

« يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ... »

فيضحك وقد فهم حيلتهم :

« إذن لا تقومونه قيمته ! نحن نكتفي بما دونه »

فإذا ألحوا عليه عيسى وقال :

« ويحكم ! .. نحن أغنى منكم .. »
ويتركهم وهديتهم الفخمة على الطريق ..

* * *

ويعضى .

المطايا تحب والركب يسير...

دورة اليوم تنطلق بساعاته إلى حافة الأصيل . . .

الرايات تعتنق ثم تغترق في النسمة البليلة . . .

كل امرئ في الحشد الزاخر ذلك النهار بأمره مشغول : برحله ، بدابته ،
بسلاحه ، بالشقة الطويلة التي ما يفى الأفق يطالع عليه من مراحلها طولاً من
وراء طول . . .

وهو أمامهم يقظان كغافل إلا حينما تند منه خاطرة في شأن دنيا أو شأن
دين . متوثب تكامل إلا على الظهر تحتسه الذي لا يحس ثقله وإن حسبه القوم
كلا على الراحة . .

وعند ثنية في الطريق يعتلى جسمه البدين بالحياة فتنتطلق الأعين إليه ترمقه ،
من كل جانب بعيد وقريب ، وقد شهدته يثب إلى بقعة من الأرض ينو إليها
بنظرة واجمة . . .

وتلقف الآذان صوته الهامس الحزين :

« ها هنا ، ها هنا ! . . .

ها هنا موضع رحلهم ، ومناخ ركابهم . . .

ها هنا مهراق دمائهم . . . »

فتأخذ الناس من حديثه رجفة ، ويسألون في توجس وإشفاق :

« وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ . . . »

ويتمهل بهم ، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين ، توقف نظرها على عيائه

في رنوء حانية ، ندية غائمة ، وهتف يجيب :

« ثقل لآل محمد ينزل ها هنا . فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم . . .

ويل لهم : منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار . . . »

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته . . .

إن لروحه لطرفا لماحا ، يرى المسكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من
خلف حجاب . . .

قتلك البقعة « كربلاء » الشقية ! . . .

٣

منها إلى المغاني الحضر بين التهرين ، سوداء التربة ، زهراء الماضي ، التي سميت
قبل بأججها إلى مدار الشمس . . . من كربلاء الحزينة مشى على الماء ، مخلفا
وراء ظهره بقية من قلبه الأسيف الأسيان ، رفت يومه كالإمامة على الثرى المغبر ،
ثم مضت دمعة تنديه ، ثم غدت مع اللينالي السود التي تكشف عنها بعد هذه
الأحداث جدولا من الدم جرى سلساله من فؤاد الحسين الشهيد . . .

فلتمل به عينه الآن عن مصارع بنييه ، ومحنة حازبة يدخرها القدر ، وغدر
فاجع يعدم العتاة لعترة الرسول . فإنما الغد القابل رهين بساعاته ، والفعل القاتل
خبىء في غلالاته لا تدركه اللحظة فراسة العيون . . . وإن عينه الندية ليخفيها
جفناه ، وإن قلبه العاني لتمسكه يمينه أن يترنح بين جنبيه أو يعيد ، وإن الرعدة
من محبة وإشفاق لتمس في أوصاله فإذا هو في هنية قد نقضها ثبت كيانه كالبنديان
في الله ما يلاقيه . وفي الله أيضا محبة بنييه ، ونكبات قاصمة تحيق بذراريه ،
فالدعاة أبدا هدف الطغيان . . .

وخطت به الدابة تخوض يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل ، فرقة
وراء فرقة ، وقبيلة في إثر قبيل . قرابة خمسين ألف تأثروا خطاه في مسيره ،
يسلمهم الفرات إلى دجلة ، ويدوى وقع أقدامهم على الأرض السوداء النظرة
دوى الطبل . ولم تكن بابل برقة مجهولة المسالك على الكثيرين ممن يطأون
ظهرها الآن ، ففهم ثمة من الألى فتحوها ونشروا في ربوعها دعوة الإسلام ،
ولكنه لم ينخ فيها الدواب ، ولم يتمهل بالركب . لقد كان حسبه أن يمر عليها
كالطيف ، ويدعها ورقعة منها كانت يوما ملاذ الشيطان . . .

وقال حينذاك لمن استنبأه هذه العجالة :

« إن يابل أرضا خسف بها ، فحرك دابتك لعلنا أن نصلى المصر
خارجا منها . . . »

كانت الشمس خمرية الشماع ، ذرت ضوءها على الأفق كأنه حبات النبر
تلتمع في الأصيل وهاجة . وكانت أنفاس الشتاء رطبية رتيبة ، تتردد على مهل
فلا خفقة للنسيم هوجاء ، ولا نفحة صقيع ، ولا سحابة تفسر الظلال قاعة اللون
فوق المروج . . . الطبيعة رائقة ، والسكون هادئ تلهف السكينة كأنها التي
السمع يعد الخطا التي تواتر جرسها المنتظم على الثرى الناعم . والشمس كذلك
بدت وانية ، كأنها ثقلت حركة في مجراها وهي تنساب للغروب . وقطر الذهب
في وشاحها الوضئ راحت تصبغه الحمرة رويدا رويدا ، بيد خافية ، خطا قانيا
وراء خط ، وطيفا داميا بعد طيف . ثم احتضنها الشفق . ثم حفها الغسق .
ثم آن حين وسنها فالتحفت المساء . . .

وأصبح اليوم وهم بسابط تنبدي لهم في مجال النظرة بشاطئ دجلة البعيد
قصبة كبرى ، التي تمثل فيها عمر دولة عمت زمانا على الناس ، واستذل عواهلها
زهو دنياهم فحسبوا لأنفسهم الخلود . . . بدت للدائن من وراء ، بين الزروع ،
على التربة العنبرية تأتلق في الضياء الذي يسكنه المشرق . وكان قصرها الأبيض
الكبير ، وإن عدت عليه العوادي ، لا يزال يلتمع كالغرة في جبين الصبح الأدهم
ساعة البكور . . . إنه البقية من عزة قديعة . وهي معه كذكرى حلم نسخته
اليقظة . وشطرها الداني من كنائب الإمام إذ تغادر إليه سابط حلقة من سلسلة
النصر التي طرقها سواعد قوم ضعفة ، على الفطرة ، كادوا لولا نفحة سماوية أن
يسيروا في ركاب البشرية هملا ضائعا بغير تاريخ . . .

غير أن الإسلام بدلمهم بحالم حالا ، فأورثهم الأرض ، ومنحهم العزة ،
وملكهم بعد ضعف مصائر الشعوب . وهذه الطائفة التي انطلقت تزحف الآن
إلى الأمام ، صفوة منهم على بصيرة ، النور ينبثق من حيث تسير . إنها لتعلا
الأعين بما ورثت فتخشع وتمتلي منها بالثناء القلوب ، لتوشك أن تخر ساجدة ،
هذه اللحظة التي طالعتها أجداد فارس القديعة ، تهجدا وحيدا اللهم الصبر ،

واهب النصر ، قاهر الطغاة . فلقد صدقها وعده ، فلا كسرى اليوم ، ولا عبدة نار ، ولا إدلال بقدرة لا يخلبها غالب طالما أثر بها في هذه البلاد حزب الشيطان . . . ذهب الكل وبقي الله . وهما هي الآن بهر سير ، الشطر الداني من قصبة الأكاسرة على الشاطئ القريب للنهر ، قد غاب غابرها الصلف في حاضرها الخاضع ، وغابت معه دولة عاتية ، وملك محرد كما تبدد مع المواصف دخان . .

ويتلقت هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى البلدة الخافضة الجذح بعد إدلال ، فينتبه خاطره ، ويلتمع ناظره ، وتهز نفسه المطمئنة الذكريات . . . على خده الآن دمعة ، ظهرها بكاء ، ولها ثناء . وفي قلبه فرحة وإيمان ، وعلى أهدابه رنوة تتوئب ، فيها ثقة يحفها خشوع ، ونخر يخالطه شكر ، ورضاء يزينه دعاء . . . وعندما دنت معالم بهر سير والجيش يسير ، خفقت شفتاه تهمسان نفس الحمس الذي رده بنفس الوطن منذ أعوام :

« . . . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . . . »

بلى أقسموا أمسهم ليخلدن — أولئك الأكاسرة وكتائبهم المغرورة بوران — ثم صبحهم العذاب . وكأن ملكهم حلم ليلة نسخته اليقظة . وكأن عزهم ظل أمسية ذاب في النور . وكأن عرشهم بيت عنكبوت ! . . هم الآن ذكرى للخواطر المستعيدة ، وعبرة للعقول الرشيدة ، والعيون الشواخص الشهيدة ، وكم يجند الإمام اليوم من راشد وشاهد ومستعيد . وكم من بينهم له على هذه الربوع دم ، وتحت تراها الصامت شهيد . . كلما تحركت به راحلة ، أو مشيت قدم ، ثار من وقعها مشهد من ذلك النصر الزاهر الذي احتازه سعد منذ سنين ولم تغير الليالي فخاره . كرة الزمن لا تبليه ، وتواتر الفتوح في أعقابها بين جناحي الشمس لم يطلو عنهم لواءه الرفيع ، فقد جثت له القادسية ، وتمزق رستم ، وفنيت بوران ، وظهرت الكتائب الإسلامية وهي نشاوى بريح الدماء تجتاح السهل والحزن ، الجامد والماء ، نحو القصر الأبيض وفي أقدامها اجتياح إعصار . . .

والتوت أجياد . فهنا الآن مظلم سابط . وهذه خلفه الدائن مظلة على النهر
كالشرف العالي تراحت عليها أطياف الشفق . وبهرسير بينهما على الضفة الدانية
لدجلة كأنها درع تمنطقت به حاضرة فارس — ذاك منذ أعوام . . . أما الآن
فالماضى يشور من وقع الخطا الرتيبة . الغبار لوحة الغابر ، الوقائع البائدة تترى
خلاله للعقول الذواكر ، الأعين الراصدة يلتقى لمحها ولمح التصور على الأمس واليوم
فى مكان . ها هنا اللقاء . فى ذات البقعة . بأرض المظلم اجتمعت الذكرى إلى العيان .

وعندما التقت العيون بعينا هاشم تحييه كانت الأذهان قد استعيت ساعة من
سويحات ماضيه . هو إن وسعه لأغلق على الذكرى التى يكبرونها واعيته من
استحياء ، فلا من لديه ، ولا زهو ، ولا إدلال . لكن الذين حضروه حين
الفتح — من جنود الإمام — يرونه اليوم بنفس مقامه حينذاك . النقع الذى
يشور من أخفاف مطيته على ذات البقعة قد أعاد أمامهم صورته ، وسيرته ، على
رأس حفنة صغيرة من الرجال ، بعثا سعد بن أبى وقاص طليعة له إلى بهرسير . .
وكانت غيرة القتال ما تزال عالقة بالأردان ، والأبدان فترتها المشقة . والإعياء
الزاحف على الأطراف والجوارح يتحول لوسن . وكانت أشعة الشمس واهنة ،
يذيبها الغسق ، وينشر منها على المكان ظلالا عريضة . والفرقة الكليلة تتلمس
المأمن لتنام .

لكن آهة محاذرة أبلغتهم جميعا شف التوجس . . ثم صيحة مخافه . . ثم
صرخة فزعة أطاحت من العيون خفق النعاس .

ودوى على الأثر زئير تجاوبته أركان الليل كأنه قصف صاعقة زعجرت
فى القضاء . فى رنينه ثورة ، وفى إرعاده هلاك .

كانت هدأة الطمأنينة هى وحدها ما يسيطر على قلب هاشم إبان الجزع الذى
ملك رجاله ودفع بأفئدتهم إلى الحلق . . ومن خلال العتمة التى نقطتها أضواء
الأنجم ، مد عينه الثابتة إلى موئل الهدير ، تقنم الوحش الذى أبطره عنفه
وعنفوانه . . .

وتقدم الرجل على سكينه ، وأقبل الليث على احتياج ، قد شحذ نابيه ، وتفتح
إهابه ، ونشر لبدته الكثة على جيده كأنه الشوك .

فإن هي إلا وثبة حتى بدا هاشم لأصحابه على باب قبره احتوته أحضان
الوحش كأنما غاص في جلده . والتمت الأنياب في الليل . وانفجر الغم الهادر
بزئيره اعتنقا برهة كالدهر سكنت خلالها أنفاس الناس . فلما افترقا برق
في الظلمة الثقيلة وميض غدا الوحش بعده لقي على الأديم ، صيغه دمه ، هادم
الحركة كالدمية إلا خواراً أطلقتته الجراح . . .

ومسح هاشم شفرة سلاحه ثم أودعه غمده . بغير زهو فعل . على استحياء
كهذا الحياء الذي يجمل اليوم محياء ولمح العيون الشهيدة والخواطر المستعيدة
يحياه . . .

وكما همس من قبل ، يهمس اللحظة وهو يجوز مظلم ساباط صوب بهر صير ،
في هدوء وإيمان ، وعينه تدور بالمكان :

« . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من روال ؟ . . . »
ثم ينطلق خلف الإمام .

٤

كان مسيره والرافدين . مرة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك حتى بلغ خنق الأرض
بينهما فقال يسرة إلى الفرات ، تاركاً دجلة ، مغرباً نحو الأنبار ، فمصدماً من بعد
في الجزيرة إلى أقاصيها كأنما رام أن يتخذها مرقباً يطل من عليائه على سهل الشام .
العراق كله مراده . سواده الخصب الذي حفة الماء عن عين وعن شمال ،
وباديته التي هي مهاد نهريه ، وأشرافه التي تحدت منها الحياة في روافده سيالة
تحدّر الدماء في الشرايين . . . لم يدع على فيه ركناً إلا نفّسه ، ولا شعباً إلا اعتلاه
ولا قاعاً إلا انطلقت عيونه وطلائمه في ثناياه . داس جنده السهول والوديان ،
الحل واليانع ، والربا واليفاع . بجانب الفرات مشيت مقدماته والضفة اليمنى ، على
حافة البادية ، تذرّع الرمل المنبسط نحو الغرب كالتيه ، وتشق سبيلها محاذرة إلى
الشمال على هدى الماء . وفي جوار دجلة خرجت فرقة له من الدائن ، تملو مع
الأرض إلى مكان الموصل ، ثم تنثنى إلى نصيبين ، ثم تنكفي في حذاء نهير

الحابور مخترة جبال منجار وقد أوشكت أن تبلغ السور الضخم الذي تؤلفه الهضبة الأرمينية الناهية في السماء . أما مجازه بجيشه الكبير فوسط الجزيرة ، مع انحرافه عن الشرق ، حتى الرقة الواقعة على مصب رافد للفرات ، والمطلة على حوض حلب حيث يفتح منها الطريق لنا إلى وجار أعدائه .

وكانت الخطة أن تلتقي بهذه البلدة الجيوش الثلاثة : الأصل وللمقدمات والطليلة ، وقد هبطت الشام من أعاليه فأمنت أن تجد عنتا أو تصادف مقاومة إلا مقى وأينا اختار . فالشرق الآن له : فارس وما وراءها إلى غاية ما بلغته أقدام جند الإسلام . والجنوب له : ما امتدت الصحارى الفسيحة إلى بحر الهند مجاوزة النفود ونجد والحجاز . والشمال أيضا له ، حتى حدود أرض الصقالية ، ولاياته موالية ، وحافته البعيدة هي الحائط الأرميني المائي الذي تضرب قننه في الفضاء إلى خطوط الجليد .

أينا خطا كانت قدمه ثابتة ، لها موقعها الأمين المعلوم فجاري المياه رده له ، والجبال فوقه رده ، والصحارى إلى يساره رده ، وقد جنب نفسه أن يخرقها من الكوفة ليبلغ بين قيطها ومحلا حاضرة الشام ، أما وكر خصمه فركن منبوذ ، من تحته رمال ، ومن فوقه تلال ، وعن يمينه عدة وأعداء ، وعن يساره اصطخاب الأنواء . فليس البحر إذن بواقية إلا أن يتخذ مسرعا للفرار . وليس الرمل إذن بعاصم إلا أن يتسلل من خلال دروبه إلى فلسطين فتلقفه على تخومها تماسيح النيل . ولئن كانت دولة الروم اليوم في عهده ، مهادنة له ، قد مكنتها عنه ذهبه وهداياه ، فإنها حين الوقعة حرية أن ترقب حركة الصراع شامته ، لعل القدر أن يقذف بصاعقة تدك خصمها القريب والبعيد . . .

لكن معاوية إن يكن آده انطلاق الكنائس الزاهدة إليه ، التي باعت الدنيا بكفن ، تروم أن تدق عليه أبوابه ، وتشق عن قلبه إهابه ، فقد راحت نفسه تنسرب في الظلام ، تتلمس الهنة هنا والثغرة هناك في صفوف الإمام عسى أن ينفذ من ثناياها بالدسيسة . . . فما يعيه الكيد ، ولا إثارة الحسد وإشعال حريق البغضاء ما وسعه وما أمكنه بكره أن يفوز بفرقة مدمرة تفوض دعاتهم الوحدة التي يرتكز فوقها سلطان غريمه . وإن هي إلا ساعة جاء فيها نبأ إقامة أمير المؤمنين

حسان بن مخدوج على رياسة ربيعة وكندة دون الأشعث بن قيس حتى نفخ حليف
الظلام والمكيدة في شرر عصبية القبيلة الذي كان الإسلام قد وأده في رماد
التسامح، ونفث في روع صاحب له من كندة كنفث الشيطان :

« اقدفوا إلى لأشعث شيئا تهيجونه على ... »

ففعل شاعره .

فلولا أن الفتنة لم تكن نضجت على غصنها حينذاك ، وأن الزمن قد تلسكأ
قليلا في سيره لأغر الشعر ثمره المر . . . فلم يكن الأشعث للإمام بالولي الأمين
وإن تبعه كظله إلى قبره ... وإن خاض معه الدم ... وإن اكتسى فترة في العيون
كسوة الفيصل يسير قدما بلا حيدة عن الحق أو تحرف . . . إنما كان امراً أعجبه
نفسه فرفعها للأبصار ، واقتحم بها الصفوف حتى غدا في المقدمة يدفعها إليها أصل
ونخوة وكبرياء . ولولا أن فاضل بين الخصمين فرجح على ابن عم الرسول لسكان
آثر ابن هند وديناه فلحق بركابه وتعلق بأسبابه . ولكنه تدبر فأيقن أنه هنا ذيل ،
وأنه هناك ذيل ، فاختر أن يكون خير الذبول . . .

لم يكن الرجل ، فيما رأيت ، وفيما بقلبه وجارحته ، بسرره ونجواه على الدواء
وهو يتبع الإمام شبرا من الأرض بعد شبر إلى غاية سراه ، وحتى انقضاء حياته
وانتهاء دنياه . . . على كان من بدء الأمر لا يكاد يأمنه ، ثم يغلبه فيه أمله على
شكوكه ، ثم يرى من حاضره صحائف تحيي أممه أخرى مشوبة من ماضيه فتوشك
الريية أن تملك على قلبه الكبير مسالك الرجاء فيه . عندما انتهت إليه بيعة الناس
بعد مصرع عثمان ، كتب له وهو إذ ذاك عامل على أذربيجان يدعوه للولاء والطاعة
فكان من كتابه :

« . . . لولا هئات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس . ولعل

أمرك يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله ... »

فما صح فيه من بعد أمله وإن صح حينذاك خدمه إذ أتاه منه الولاء . فلقد
بايع وإن قدمه لعل حافة المعصية والتمرد ثم لم يكن له قدر ذرة من الفضل حينما
أطاع . . . إنما حثه على الطاعة خلصاؤه ، ودفعته كبرياؤه أن يلحق بعلى ليكبر
في الأغنياء بشرف هذا اللحاق . . . يقول لأصحابه قبل أن يبايع وهو لا يكتف
عن أحدهم نواياه :

« إن كتاب على قد أوحشني . . وهو آخذى بعال أذربيجان — أنا لاحق
بمعاوية . . . »

وقد حق له أن يعيل بفكره إلى هذا النهج فصاحب الشام ليس آخذه
— إن اتبعه — بديعة أو بعال . . .

لكن صحبه يعيرونه :

« الموت خير لك . . . أندع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل
الشام ؟ »

فاستعيا . خجل أن يخون ثقة أناس أودعوها عنده أمانة وهو سيد لهم فيعيد
ثانية إلى الحياة قصة خيانة سلفت أوشك الزمن أن يدفنها في طوايا . . هو الآن
شاخ . انفلت به الأجل إلى شفا الهوى . غفلت العيون والعقول عن كبيرة قارفها
إبان شبابه فوضعت زمانا في مهب الهوان . لكن الذاكرات جعبة تحتزن كل هنة
وموبقة ، فإن هزها فاضت بمحدث ارتداده عن الإسلام غب موت الرسول ،
رغبة منه عن الله ، وصدا عن دينه الحنيف إلى الملك والعرش والتاج . . .

حينذاك والشباب مورق ، والمنى تسحر ، وأحلام النفوذ والجاء تتراقص
في خياله كتلك الظلال التي تنثرها شمع تذاب نورها مع الريح ، كانت الجزيرة
العربية مهد فتنة ضالة مضلة ، أثارها الشيطان فعصفت بها عصف الإعصار وحدث
محمد ما زال في فراشه ، مسجى ، تندبه من الأثدة جراح وصدوع ، ومن الأعين
مشون ودموع . كانت دعوة إلى الغواية . استذلت القلوب المريضة والضامر المدخولة
المهيضة . فمنعت طائفة الزكاة . وتنبأ فريق كأنما الوحي همل مباح . وارتدت فئة
كبيرة عن ضياء الإسلام إلى ظلمة الجهالة العمياء . . . وكان أبو بكر هو الربان
الذي أمسك بدفة السفينة التي اعتورتها كل هذه الخروق فأوشكت بها أن
تبلغ القاع . . .

فإن هي إلا أشهر قليلة حتى رتب الخليفة الشيخ ما اتفق ، وعبر سفينه
العاصفة رافع الشراع . . . لقد بحث في فجاج البادية بموته ، كتائب مجندة عتادها
الإيمان ، أقوى من الموت فلا تخشاه ، وأعق من الطوفان فاجتاحت الصعاري
تبل محلها بفيض العقيدة . فإذا الأرض سلام ، وإذا الكفر هباء ، وإذا الأنفس

صفاء . دان مانعو الزكاة . وتردى الأنبياء الكذبة . وبهتت الردة وانكش
ظل دعائها وأوليائها إلا فلا هنا أو فلا هناك ضاقت به الفلاة الفسيحة فراح يستخفي
ويحتجر كالهوام . . . وكان من هذه الغلول شرذمة من بنى وليمة فرت ببقية عمر
من أسياف زياد بن لبيد ، قائد الصديق ، الذي ألقمهم الخوف والحلف ، وأشفي
بهم على الفناء . أولئك استأخرت آجالهم ، وأمهلتهم المنايا فسحة من زمان شدوا
خلالها مطاياهم إلى ديار كندة ، يستنصرون سيدها الأشعث ، ويحتمون في رحابه ،
ويستعدونه على حجة الإسلام .

ولم يردهم الأشعث ، ولم يعجب لهم عندما استعانوه فقلبه في عشاء . . .
كان إيمانه كبعض أبراده ، إن شاء خلعه أو شاء وضعه . . . فنسى الهدى
الذي اعتنقه ، والعهد لله أن يصونه أو يقضى دونه . إنه ليفضى المين عن لؤم
وليعة فينسى شماتها حين جاءها نبأ موت الرسول . وينسى كذلك كيف غنت
بغاياها وخضبن البنان ، وقرعن القداح مترعة بالراح ، فرحا بوفاة الذي أعزهن
دينه عن الفحش والفسوق . وينسى أيضاً سوى هذه وتلك آصرة صهر ربطته
بمحمد إذ تزوج أخته قتيلة وإن اتى ربه ولما تجمعه بها دار . . .

إنما ذكر الرجل الفتون ظمأ نفسه إلى المجد والسيادة فقال لمن استنصروه :
« لا أنصركم حتى تملكوني ! »

فلكوه . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ، ولو علموا لرضوا مؤثرين
أسياف زياد تتخطف نواصيمهم في حومة الجلال . . . ولكنهم وضعوا حياتهم أمانة
رخيصة في كف من خان أمانة الله فكان لهم أخون ، وكانوا عليه أهون من
حفنة من تراب . . .

ويستعز الرجل حيناً بتاجه . ويتخبطه صلفه فيحشد الحشود تناوى جنود
الإسلام . ويحلم زمناً بملك يرد يأكل اليمن وحضرموت وعمان . ثم تصبغه بعد
ذلك الهزيمة فيلجأ إلى النجير : حصن ضخم ، عساه يمصمه . لكن الموت ينصب
عليه من خلفه ومن قدامه ، تصبغه جنود الهاجر وزياد ، فليس له ولا لأعوانه
كاشفة اليوم من قدر الله ، فإن بدت له بعد فرجة إلى نجاة فإنها الحياة . . .

ولا تلومه نفسه ، فيعده الطوفان . . . وإن الليل ليشهده قد تدثر بظلماته ،
يخرج محالسا كالخفاش إلى « عكرمة » أحد قادة الجيوش التي أتت تقاتل الردة
فحصرت أهل الكفر من حصنهم في وجار . فإذا لقيه ولقى المهاجر وزيدا باعهم
نواصي رجاله ، وحرية النساء والأطفال ، ببقية عمره . . .

قال لهم :

« استأمنكم »

فسألوه :

« علام ؟ »

« أهلى ، ومالى ، وعشرة من أحب ، ثم أفتح لكم الباب . . . »
وفتح الباب .

ووقع ملسكه المزعوم كله طعمة في يد جند الإيعان .
وجيء له بكتابه الذى ضمنوه الأمان للعشرة الذين احتار ، فما تبينه حتى أخذ
قلبه يتسرب قطرات بين حبات الرمل . . .
إنه فى ساعة حرصه على الحياة نسى أن يكتب لنفسه الحياة وكتبها بعهد أمانة
لعشرة سواء . . .

وهتف المهاجر ساخرا ، وقد فرغ جنده من حصد أهل النجير وهم ثمانمائة
فارس وراجل صريع وقتيل :

« الحمد لله الذى خطأك نوءك ، يا عدو الله ! . . »

فسجد يستجير ، والسيف يبرق على عنقه .

وعندئذ حدث عكرمة رفيقه المهاجر :

« ألا تؤخره ؟ . . أبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجل

نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى الخطابية أفذاك يبطل ذاك . . . »

فأخذوه إلى المدينة ، مع بنى قومه وأسراهم من نساء وأطفال ، مصفدا
بالحديد ، لا تكاد تلمحه عين امرأة منهم حتى تنحرف عن شؤمه أن دك بينها
وأخريه إذ أثابها الثكل والترمل ، ولا عين غلام غردق عنقه عن حديدة
الحسام ، فلم يصده الحمام ، إلا تأورت عليه من حقد إذ أثابه اليتيم والدلة . فبسدره

هاض ملكه ، وعرف السيف طريقه إلى قومه ، وأذاق فلهم غصة الهوان ،
وهان . . .

ويتردد في أذنيه ، والأصعاد ترن في معاصمه ، والدرب أمامه للمدينة طويل ،
ولولة الأيام والشكالي والأيتام ، مختلطة بذلك النعت الذي الصقوه به ناطقا بخدر :
« يا عرف النار ! . »

إنما الذاكرات جعبة ، تحتزن الهنات والسيئات فإن هزها اليوم فاضت بمحدثه
بعد أن كادت العقول تفساه . . . فهل يجسر ؟ . . . لكأنه ، هذه اللحظة وتحريض
الشاعر يحرك منه مكان من الحيانة قد سد أذنه ، وكن قلبه المفتون بغطاء من الحجل
والتعزز أن ينقلت ثمانية إلى ماضيه . . . وما هو بغير ، وما هو إن أصغى إلى
نظيم الوقمة بآمن أن تتبعه كندة كما تبعته قبلها وليمة . فالخير إذن في الخضوع
لأمر على ، والسلامة في الاستسلام . . .

ويقبل عليه حسان بن مخلد ، وقد حزر حقه وغيرته يريد أن يخفف عنه :
« لك راية كندة ، ولي راية ربيعة . . . »
فتأخذه النخوة أن يتفضل عليه منافسه :

« معاذ الله ! . . ما كان لك فهو لي ، وما كان لي فهو لك . . . »
لكن ابن مخلد كان أعلم به فلم يرد فرقة تدب في صفوف أعوان على . لإمرة
على طائفة يتولاها هو أو يتولاها غيره . فإذا افترقا ، أخذ راية القيادة فلحق به
فركزها له في مقامه . . . وعندئذ يسارع الأشعث إلى الإمام لينفي الشبهة عن نفسه :
« يا أمير المؤمنين . إن يكن أولها شرفا فإنه ليس آخرها بعار . . . »

فيرمقه على هبة ، ثم يرضيه :

« أنا أشركك فيه . »

وتخمد شعلة الوقعة ، وتتوارى الحيانة إلى حين . . .

الأيام التي أعقبت المحنة النفسية التي عاناها الأشعث بعد رسالة الدسيصة ،
شهدته وفيها غالبا في وفاته بدا كأنما الماضي الأسود الذي كتب في سجله
غدره القديم لا يني يطل عليه من خلال ساعات يومه ، وآباء ليله ، كمثل السواة
للكشوفة تؤذى الأبصار ولا تحتجب عنها بدثار . . . فوفي نكير وفي ، وأخلص
كأدنى ولي ، ومضى الزمان كله — حتى اللحظة التي غلبته نفسه فيها على احتراسه —
يضرب بظفره ونابه ، ويشير من رهج البذل والشجاعة لغاية الإمام ما يشغل
العيون عن زلته ، ويمسك الألسن أن تردد حين تلفاه : « يا عرف النار ! . . »

وقع بدوره الذي أملى عليه : لبنة في البناء الكبير المؤلفة منه أداة الدولة
الإسلامية في تلك الحفبة الصاخبة بالحوادث الجسام . إن يكن فاته أن يكون من
عمدها فالعماد حينذاك الخليفة والكل عصبة وأوتاد . أو يكن فاته أن يجبل من
مصيرها ما قد شاء فإنه الزمن الذي لم يسعفه ، والوعى العام كان في انتباهه ،
كإقعاة الأسد عند الخطر ، قد تهيأ وتحفز فليس يؤتى من غرة ولا يغمز ! . .
فما عدا الجمع الضارب الآن بالقدم والظهر إلى جوار الروم أن يكون فرقا من
كتائب الإيمان ، خرجت في الله ، لتمر دينه ، وتنصر عهده ، وتشر لواؤه غالبا
على صروح النفاق . وكأين من رجل اليوم هجر داره ، وصار مسيره ، قد التوت
به الذكرى إلى الأمس ، عندما هاجر الرسول للمدينة من البلدة الحرام ، فرأى
نفسه صديقا آخر يوشك كلما امتدت الخطا به في الشباب أن يتبدى له على مدى
النظرة السائلة « حراء » . . .

على أنه مع ذلك لم يكن من العروس — هذا الأشعث الذي تلبدت رأسه
بشعرها فأعلمته من بين الناس ! . . . وكانت الأفكار في ذهنه أيضا ملبدة ،
والنبات في فؤاده ، والآراء بين شفتيه . . . بل الأرض تحته غدت مشبكة
الدروب ، مختلفة المسالك كشرك الصياد ، فامس يدرى أيها مجازة . إنه لفي حيرة ،
فالشدة أقسى ما تتمتعن فيه الضمائر . وإن يكن مضى شوطه ، بعد وقعة الشاعر ،
إلى أرض الشام وهو يدخر لها من سلاحه وجلده ، فقد ادخر عاهلها له من

دسائسه وهو على بينة بما يهدد رياه ، ويعسح على غروره ، ويلوى بعنانه إلى
الغاية التي يروم . . .

ولكنه انطلق في ركاب الإمام للأمام ، علما بين أعلامه إذ ولاء ميمنة أهل
العراق . الآن هو شيء في أعين قومه ، وفي جسد الجيش ، وحيال النظرة
الزارية حين تود اقتحامه يمز دونها على الاقتحام . . . حق أن تهدأ نفسه ، وأن
يسكن جأشه ، وأن يطيب خاطره ، وعندما تأزف الآزفة سيرين ربيعة ، وكندة
والبحن جميعا أنه في حسابهم ذو خطر ، لا يلحقن دوره كما يلحقن سواه ، ويسعه
وحده أن يخطط مصيره بيمينه .

* * *

والجيش بعد هذا يسير . والزمن أيضا يسير فتلبس الأنجم الصفا ، ويرف
النسيم بالدف ، وزهر الأرض كالرياض . فقد أقلع الشتاء بصقيعه ، وخفقت
في الجو أنفاس الربيع تبعث اليقظة في الأوصال المقرورة . مضى شوال . وأقبل
القعدة ثم خطا إلى حدوده . ووافى الحجة ففى النفوس حنين بعقدته إلى الكعبة
الحرام ، وبالقلوب إلى مشوى الرسول وله وغرام . لكنهم إلى اللقاء أشوق —
أولئك المكتائب الزاحفة من جند على زوم بزحفها جيرة الروم . . . كلهم يتعجل
الزمن إلى ساعة الجلاء ، وإن أنت بحينه ، ليسل سيفه ويحلو سنه على الرقاب .
فما الموت بمنزلة يقينه ، ولا هو راده عن الغاية وإنه لغاية تهون أمامها كل
الغايا . . .

في خلال هذه الفترة ، مضت الأمور على ما انتهى على ، ووفقا لما جرى
بتقديره . . . ذرعت الطليعة الصغيرة الأرض سعدا إلى نصيين . وقطع جيشه
الكبير الجزيرة بغير معوق ولا مقاومة . وأخذت مقدماته على عتق صفى الفرات
حسبا رسم لها خطة المسير . غير أنها في الطريق قلبت الرأي فرات أن تمر بالنهر
عند « هيت » حين جاءها النبأ أن معاوية قد زحف بجموعه ليهاجم القوة
الرئيسية التي يقودها الإمام . على عجلة عبرت بعد أن قطعت نصف الشقة إلى
« الرقة » لتربط مصيرها بمصير سيدها ، وكل جندها وقادتها يرددون :

« ما هذا لنا برأى : أن نسير وبيننا وبين المؤمنين هذا البحر . . . »

ثم أمعن في السير والضفة اليسرى للنهر ، فإذا هي من بعد لاحقة لاسابقة ،
فد بلغت في « قرقيسيا » مؤخرة الجيش وهو يوشك أن يجتاز عند ثنية الحابور .
فلما تقدم زياد وشرج للإمام خفقت بسمه على ثغره وخاطبهما في دعاية :

« مقدمي تأني من ورأى ؟ . . »

والثأم الجمعان . ومضى الجند حشدا واحدا حتى نزلوا على جانب الفرات
« يلبخ » . هنا تبينت لهم مواقفهم ، وراحت سمات العداء تتجمع سمة سمة وهي
تنبيء باقتراب ساعة الحومة ، فقد لوت الرقة بأعناق أهلها عن الإمام ، فغلقت
الأبواب لا تعينه بشيء ، ورفعت سفنها من الماء لا يعبر ، وردت طلبه أن تجسر
جسرا بينها وبين مستقر أعدائه يصبغهم منه أو يسيم . . . كانت البلدة عثمانية
الهوى ، لا ذت بها من الكوفة فثة فرت من كفه ، وغلت في شقاؤه ، ونزعت
نزعها إلى ابن هند ، تكاتبه ، وتعنوله ، وتلتزم نفس نهجه في اللدد والخصومة .

ومع ذلك فلم يعضل عنها بالإمام . ولم يدفعه إلى حافة غضبه فينكل بها وإنها
افئة واحدة : مئآت قليلة ، لا تكاد دماؤها تشبع حسامه . . . فالدّم عنده حرمة
إلا في مأثم عز دونه كل دواء . والعنف أبغض وسيلة من وسائل المجالدة
والكفاح . ولئن جيش ، وزحف ، وامتشق ، فإن نفسه ظلت كلفة بالسلام
تحتال لالتماسه ولو من سم إبرة . . . وما كان يعيه حينذاك أن يقمأ فرقة مثل
هذه ضالة ويحملها على ما تكره . ولكنه طفق يرجو — إن يفسح لها في
رفقه وصبره — أن تجنح إلى الحكمة وأضرابها من العلاة في شقاؤه ، فيملك
الأمة أن ينفرط عقدها ، وتتقسمها الشيع فتذهب مع الريح . . .

على ظلمهم تركهم ، تلك الليلة من ليالي ذى القعدة ، ويحسبون حصونهم مانعهم
بطشة المنية . وما هي قط بماعة إن يهز في وجوههم حسامه ، ولا بدافعة عنهم
البلاء إن يعدد نحوم إصبعا تنطلق معها جنوده يسحقون الديار والأعمار . . .
غير أنه أثر الرفق ، وقدم المهلة ، ونثر رقعة الأرض التي تليهم فاختر العبور
من جسر « منبج » ليقم جيوشه إلى « حلب » من الشمال .
ومن الرقة بعث بكتاب :

« ... إلى معاوية ، ومن قبله من قريش :
إن لله عبادا آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله
فضلهم في القرآن . . . وأنتم في ذلك الزمان أعداء لرسول الله ، تكذبون
بالكتاب ..

فلا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ، ولا فضائلهم في الإسلام ،
أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولي به ...
ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ولا أن يمدو طوره ، ولا أن
يشقى نفسه بالتحاس ما ليس له ...

فاتقوا الله الذي إليه ترجعون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون ... »

وكم من كتاب . . . ولكنه اليوم نذير .

لئن ترفق وأملى لهم ، فقد ترفق قبله محمد بسلف لهم ، وبهم ، وبأمثالهم كثير .
وما طى بالذى يمدو طوره فينصرف عن تأثر الخطأ الرسومة التي طبعها الرسول
المعظم في الدعوة . « فكأين من قرية أهلكتها وهي ظالمة ، فهي خاوية
على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ... « وكأين من قرية أمليت لها
وهي ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير ... »

٦

هم كانوا أهله ، أولئك العصبة الجاحدة في خلافه . من العشيرة الأدينين .
عام وإياه في الزمان أصل ، ثم ربطهم به من بعد صهر وجوار . إن يسروا على
دربهم فلن يضروه ما عاد أمرهم إلى الله فهو أعلم بهم ، إليه الرجعة وعنده
الحساب ... أو يتبهاوا بقضهم فما يغني الجمع حين تلتقي الأسته وتبدو الآخرة من
غير حجاب . . . إنه على بينة ، يمدو الحق وجنوده . وهم على شبهة ، تبعوا
الطاغوت فضاقت المسالك ، ودنت للمهلك وغدوا بغيرهم في تباب . . .

وكان عزيزا عليه هذا البغى الذى إليه أنسوا يقطفون من ثماره الخبيثة .
فألهوى شقوة . والمصير شقوة ، قصر عمرهم أو طال ، وعندما تشرع سيوفه
فسوف تتربص بهم على أشفارها مناياهم ثم تحمل فلهم على امتثال نهجه الذى تنكبوه
عنوة وكرها ، ولات حين توبة إن غر الأمل فم الأجل وأقبل المآب . . .

الكرة بعد الكرة حذرهم الفرقة . بالرفق فعل ، وبالوعظة الحسنة ،
وبالحكمة وبالبيان لايتشكى السأم لسانه أو بنانه . كانت الرحمة دائما تعمد حسامه
والرحم ، وحق الجوارى الوطن والله . كلما دعاه عنهم وجد قلبه إليه أقرب ،
فداوى بالحرف مايداوى بالسيف ، وله فى نبيه الهادى مثال . . . فى بطحاء مكة
كانت أعين خياله تراه ، وبين الشامب ، وعلى دروبها التى فرشتها الشمس بوقدة
من الهجير كالنار . لم يغب محمد عنه ، ولم تغب أمائيله . دورة الزمن لم تستطع أن
تطمس الذكريات . والواعية فتية ندية وإن صلب بدنه وشاخ . وحين تراوده
القنا والحراب عن مصارع الفلاة فى الكيد له ، تشرق أمامه البسمة الحانية ،
والغم الذى ترف الشفقة على شفتيه ، واليمينان اللتان تفيض منهما المغفرة كالدموع
وإن مشيت على اللامع الرحيمة مسحة من الحزن قد رسمها مايلاقيه من عناء
وقسوة وتعذيب . فإن يكن يحزن لما يصيبه فحزنه لهم أشد أن خالفوه فارتضوا
عمى الليل دون نور النهار . أو يكن لم يعجزه منهم النكال ولم يصد عنه السير
فى سبيله ، فالرجاء فى جذبهم إلى حظيرة الهدى كان حلم أيامه ولياليه . . .

كم من ساعة أطلعتهما معا — الرائد وفتاه — فى كنف الكعبة ، وحيال
الستر ، وعند الحجر . هذا يدعو بقرآن الله ، وذاك يرقب . وهو غلام ، خواجه
الأنفس المفتونة بغيرها كيف تطفح استكبارا وعنتا وسخرية على الوجوه . . . وكم من
لحظة وارتهما معا وراء الظلال نأيا عن الأكف الأثيمة التى تربصت للنبي
بالعدوان . . . كان محمد حينذاك هو النور ، وكان على الظل الذى يقبمه ويدور
معه حينما يدور ، وذلك عهد انطوى سجله . مضت شروره حتى ظن أنه لاشر ،
ودفن الماضى شياطينه فى « القلب » ! . . . فلو أنهم أسعدتهم نجومهم لفة هوا
الإسلام قبل الحمام فحققوا رغبة طالما ألحت زمانا على الرسول أن يجنبهم الضلالة
إذ كانت لهم به وشيجه ، وفى قلبه مكانة ، وبين قومهم أقدار . ولكنهم غووا ،

على خلاف مشتبهاء ، حتى نفص منهم يديه ، ووقف على أشلائهم وهي لقي على
الرمال تهم أن تتخذ من القلب منفليها ومثواها ، يلحى جحودهم وطغيانهم :
« يا أهل القلب ، بثس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! ... كذبتهموني وصدقني
الناس . وأخرجتموني وآوأتني الناس . وقتلتهموني ونصرني الناس ... هل وجدتكم
ما وعدكم ربكم حقاً ؟ . . . فإنني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً . . . »

واليوم على صراط رائده . إن يكن قد ذهب النور فتقلص الظل على أثره
فما يفي الصوت يتواتر جرسه وتتردد في أعقابه رنة صداد . . . الشماع تملأ
برجعه ، والنجاد ، والربع الخالي ، والبادي السارحة حول المياه والخضرة .
إلى الغاب والشجر ينطلق ، وإلى العيون التي تفجرت من الصخر ، وإلى منزل
أشم بمكان أفيح تأرجت بأنفاس زهره نسمة الشمال ...

لكن الغي كتاب ، والرشد كتاب . والقدر من فوقهم يحرك يمينه فيدهمهم
بظلمهم إلى بوار . فبأت يدان بالخسران كتبنا على صاحبهما الغواية حين خط
ما أملت عليه الأهواء .

« من معاوية بن أبي سفيان ..

أما بعد :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن السكلى وضرب الرقاب «
نشر القدر صفحه ، وصرف بقلمه ، ثم طوى سجله على المصير المقدور ، وقد
اختار للخلف محنة السلف الذين شاقوا الرسول ...

فليكن هو الهوى المضل ، أو هو الطمع المذل ، أو زخارف الحياة التي صيغ
نسجها من أباطيل قد قتلها الشيطان الغاوي خطاما يقود به أوليائه إلى مهواه ...
فلتكن هذه كلها ما أعوى معاوية وانحرف بخطاه عندما سطرت يمينه كتابه
وختمه بخاتم محنة لسوف تمزق أمته وتدفع بها شيما ضعيفة محولة يتخبطها التفرق
والانقسام . غير أن سومة الغل كانت تنخر كذلك في سويدائه ، وعفن الحقد ،
وقبح المواجد القديمة التي لم تبلها فيه سماحة الإسلام وإن وارتها زمانا كالجدوة
المقدمة طمرها الرماد .

وتتردد لحظة في سمع الإمام كلمات كان قد ألقاها على الناس عبد الله بن بديل
ابن ورقاء الخزاعي قبيل مسيرهم إلى أرض الفتنة لئلا تجزأ العامل المشاق :

« كيف يبائع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده
عتبة في موقف واحد ؟ . . والله ما أظن أن يفعلوا . ولن يستقيموا لكم دون
أن تقصد فيهم المران ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتثرحوا جبههم بعمد الحديد . . . »
وصدق عبد الله . فقد ود على السلامة للعشيرة الأدنين ، وأبى ابن هند إلا أن
يشعلها نارا تأكل منها بحطبها من تأكل ، وتقذف بقايا جيفهم ، كسلفهم ، في
قلب جديد . . .

ويأسى على أسى محمد إذ خذله أهله أمس ونبوا به حين دعاهم بدعوة السماء .
ويتريث وقتنا كمن يتوق أن يتدبر لهم — وإن كرهوا — ثغرة إلى الهداية ،
فلما أن يؤوده الفكر ، وتعييه الحيلة ، وتعز عنه الوسيلة ، يهمس لنفسه في
حسرة وإشفاق :

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم
بالمهتدين . . . »

ولا يرد عينه الغائمة بدمع الرحمة عن رسالة الخلاف التي أقبلت عليه مزهوة
من المنزل الأشم بالمسكان الأفيج الذي تنأرج بأنفاس زهره نسمة الشمال . . .
لا يردها وإن ضربت حولها عيون الأشر والحسن وعمار ، وبقية صحبه وأوليائه ،
سياجا من العواطف اختلفت أعواده وتباينت آحاده ، فيه التحدى ، وفيه الحزن ،
وفيه الرغبة تسبق الزمن إلى سويمة جهاد . إنما يظل يرمق الأحرف وهي تتوثب
أمام ناظريه كألسنة النار ، كاسفا أسيفا . وشفثاه تنطلقان في التلاوة بصوت رحيم
عميق رقيق :

« . . . وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أولم نمكن
لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء . رزقا من لدنا ؟ — ولكن أكثرهم
لا يعلمون . . . » وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فذلك مساكنهم لم تسكن
من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . . . »

وعندئذ تضطرم قلوب بشغفها ، وتتطلع أعين ، وتنهياً سواعد وأقدام . . . ذهبت المحاسنة . دنا اليأس . ملأت الجوريج الحرب والدم والنار . . . لبس كل لأمته ، ورحل دابته ، وغدوا جميعاً على أهبة كأنهم ، لفرط تحفزهم ، يقفون على أكلة قدم . . . الآن لم تعد بهم حاجة إلى التهل . ولا إلى الإملاء في الصبر للعدو العنيد . وإذا كان الإمام لم ينل بعنفه أهل الرقة حين حبسوا عن رجاله سفنهم ، وأبوا أن ييسروا له عبوره إلى أرض الشام ، فالآن لم تعدعة مدعاة إلى الرفق والهوادة وهذا دليلهم الذي يأتعون له قد أسفر اليوم عن وجهه ، وخطت عينه دعوة الصراع . .

فإن هي إلا سلحة من الزمن ، كيوم أو بعضه ، حتى ثارت بالأشتر حميته ، فاندفع إليهم بحصنهم وهم محتجرون ، يدق عليهم بسيفه الباب ، ويزار لهم الوعيد :

« يا أهل هذا الحصن . . . إني أقسم بالله لئن مضي أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حق يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأفتلن مقاتلتكم ، ولأخرين أرضكم . . . »

فأخذهم الخوف فجسروا . . . وبعث هو إلى علي بيمض الطريق « نحو منبج » فعاد . . . ثم عبر الجيش إلى أرض الفتنة ، كتيبة كتيبة ، فرسانا ومشاة ، يزدحمون جميعاً ويستبقون كأن لأقدامهم أجنحة طير ! . . .

كانوا على شوق . فهذه الأحرف التي أتهم من قصر دمشق طريقهم إلى الكعبة ! — إلى منى القلوب ! — إلى غاية يشدون بها من زمان على قطر الدم ، وحزق الجوارح ، وبقية الروح ! . . . لم يعد يحسبهم الأمل في صلح ، ولا طيف سلم . إنما رفع معاوية ذلك الرجاج الذي كانت تنحبس خلفه عواطفهم فتدفقت كالسيل يحمل الدمار في تياره إلى العصابة الجاحدة التي أضلها الهوى عن الحق إلى شفا المصارع ! . . .

واحتشد الجمع العابر على الضفة الثانية للفرات يعد عيونه وشوقه عبر الصحراء إلى ملاذ أعدائه . . . كله رغبة في اللقاء . لا رهبة ولا خوف . في القلوب

شغف . على الشفاء بسمه ... اللامع الضلابة كأنها صخر نحتت العزم فأبدع تشكيكه .
والصدور أفسحت ، والأذرع فتحت لتحتوى هناك فى أحضانها — إبان الحومة —
فرائد الحور ! ...

وتهل هنية على الشاطئ فارسان ، عقلا دابتهما ، ثم مضيا معا إلى النهر
يخوضان ماءه ... كانا قد ازدحما على الجسر حين العبور يرجو كل منهما أن
يكون له على زميله فضل السبق عسى أن ينفذ بسيفه قبله إلى صدر مفتون ، فإذا
الخطا تشتبك ، فيضطربان ، وتسقط إلى النهر قلنسوة هذا وقلنسوة ذاك . . .
ويقول أحدهما لصاحبه وهو ينشل قلنسوته :

« يا بن الحجاج .

إن يك ظن الزاجرى الطير صادفا كما زعموا أقتل وشيكا ، وتقتل ! »
قال الثانى ، والفرحة حينذاك تغمر محياه :

« ما شئ أوتاه ، يا عبد الله ، هو أحب إلى مما ذكرت . »

وأسرعا يمتطيان ، ليسبقا الجمع . . .

فالوجهة الجنة ! ...

لولا أن حاجز بينهم وبين القتال ، فربما غرسوا على شاطئ أنفرا ، بعد المعبر ، جنة من الجحيم ! . . ما كان يصدحهم أن تكون الرمال الأكفان ، والدم الغسل ، والنصال التي تقصدت في قلوبهم صحائف تدل عليهم ، وتعلم لحودهم أمام الأعين وهم رقاد عاشوا بالموت بعد أن فارقوا الحياة ! . . فالمنية لديهم بداية ، والشهادة فريضة ، والدم قربان . وحين تحركت بهم دوابهم تدع الماء وتوغل في البلقع ، كانت المني لا تزال تخطف في أخيلتهم ساعة العدو كهذا الشماع السابح يتوثب به موج النهر ، إن مد برق أو جزر غرق . . فالجهاد حلمهم الذي غذا خواطرهم . واللقاء في ظلال الأسنة غاية الأنفس تتوق إليه في حنين . والإمام — إن كان نهاهم ، يومهم هذا ، عن المبادأة بسل الحسام — فالنذر في الجوتهم أن تتجمع فيوشك معها أن يدعوهم لرى الفيا في الظمآنة ! . .

هم قد خرجوا يرتادون ، وما من حيلة لمرئاد . . . إن الأرض أطلعت عليهم الأمن سكنوا ، أو العنف شدوا على عدوهم فجالدوه ويأما أثر الكثيرون منهم لو استقبلهم عدوهم بالصوارم ! . . اليوم أعيام الحلم . أسأهم السلم . تقطعت نفوسهم حسرة على تلك الفترة من أعمارهم التي أمضوها يطاولون خصمهم بغير طائل . . . لكن علماً كان يدخر الحرب إلى لحظة في خاطره ، خفية عن كل خاطر ، بعيدة عن أناة الحالم وصبر المصابر . فما هو لهو ، ولا هي حشد ، ولا هي غيلة . بل صراع شريف بين جميعين : تماقد يخنانه بالقبول أن يحتسكاً إلى الأسنة لتعصم ما لم يحسمه كلام ولم تقطعه أقلام ! . .

لم يكن قط ليخلب النصر من غرة ، أو يعمل القنا في ظهر . . . فليست الحرب غارة تسير وفقاً لشرعة العابثين بالمحارم من قطعة الطريق ومحترفة القتال . وليس يبيعها أن يخالف فريق ويشاق إلا أن يعلنه الآخر بها ليصبح على أهبة وحذر ، إن شاء خضع فبايع ، أو شاء أبى فدافع وهو حينذاك متبين سبيله الذي اختار . . . تلك شريعة ارتضاها القدامى ، وتعارفت عليها جيوش الأسبقين من الدول والشعوب ، كان القتال وفقاً لها صراعاً سافراً نبيلاً بين الأجناد ، لا يقر

البقعة قبل الإغذار ، ولا تنهياً له مقوماته دون إعلان ، فلا نجاة ولا غدر ، يلتقي فيه الفريقان وهما على بيته : كفتان عالمان ، وجهها إلى وجه ، وصدرها إلى صدر . في هذا الضوء الذي يبدد ظل الشبهات ، خرجت كرة أخرى مقدمات الإمام من الجانب الغربي للفرات تجاه الرقة ، ترتاد الأرض في طريقها إلى الشمال . وكان عليها هذه المرة أيضاً زياد وشريح . وكان هدفها أن تنفض السبل أمام القوة الرئيسية التي كانت حينذاك تتجمع وتنتظم بعد عبورها من الرقة لتحت الخطأ إلى منزل لها تختاره في ديار الفتنة . فما يأمنون جميعاً الغدر من معاوية وإن جاءت على غير ما تبيعه شريعة الحروب ، لأنه يبيع ما لا يباح ، ويقاقل بأي سلاح . . .

ومضت بهم مطيهم محاذرة ، تحب هونا على طريق حلب . فليسوا يخشون جانب دمشق وقد علموها البؤرة التي تركزت فيها جحافل الشام ، وإنما الحذر من هذه الدائن الضاربة إلى تخوم دولة الروم ، والتي قد تكون جمية لفرق إضافية أعدها ابن هند لتفاجئ الإمام من مأمن ، فتكر عليه من الشمال بينما تزحف الجحافل الشامية عليه من جنوب وغرب تسددونه المسالك فيغدو بها في حلقة وثيقة ليس فيها ثغرة للخلاص إلا مياه الفرات . . .

ولم يغب طويلاً عن أمير المؤمنين نبأ مقدماته التي انطلقت غرب النهر ترود له الأرض ، وتعد الأنف والآذان والعيون إلى تجمعات أعدائه . بل هو يوم أو بعضه ثم بعث فأحضر الأشر :

« يا مالك ... إن زيادا وشريحاً أرسلنا إلى يعلمانى أنهما اتقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم ، فنبأني الرسول أنه تركهم متوافقين . فالتجاء إلى أصحابك النجاء ... »

وأمره عليهما يعملان تحته على ميخته وميسرته ، على أن يعذر إلى عدوه ، المرة بعد المرة ، ولا يدانيه جانحاً لاعتداء ، متشرعاً لحرب :

« ... إني أمرت عليكما مالكا . فاسمعا له . فإنه بمن لا يخاف ربه ولا سقاطه ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل »

وتواقف الجمعان : مقدمة على ومقدمة معاوية بسور الروم بقية النهار .
يوشك الرأي ألا يلح في وجوههم عداوة ، بل مكينة وطعاً نينة . يتبادلون
الحديث في وثام عن الوحدة ولأم الصدع ، منهم معذر ومنهم مخالف . فاجتماعهم
ليبان ، واقتراقهم بإحسان .

غير أن الليل كان يبطن القدر في سواده ... فلم تكدم تعابت الأعين
في معسكر الأشر هجمة حتى دهمتهم الخيل يقودها أبو الأعور وهو يحسب أن
القرة مجزيتة الظفر . إنه ، فيما يبدو ، على دين سيده ، لا يأثم ولا يتخرج ،
فكل ما يثيبه الغلبة حلال ... لكن القوم الذين ظنهم لقية هينة بلا مساج من
الحذر والتأهب ، قد غالبوه هجمته ، فاضطربوا ساعة ، وثبتوا ساعة ، ثم كروا
فما أسفر الصبح حتى كانت أرض الواقعة من أبي الأعور وأجناده الغدرة خواء ...

كما استتر بالظلمة قدامهم ، توارى بالسحر خلف المسكان مصعداً برجاله عن
سيوف خصمه ، نازحاً بهم إلى الشمال ... ترك خلسة سور الروم ، وأسحر منها
إلى ملاذ ... إن كان لغاية أضمرها الرجل في دخيلته ، فلعله خشى أن تنال من
جمعه الأسنة إن هو ثبت ، فاستمهل إلى حين هنية الجد حتى يزيد أهبة ، وتثين
له فرصة جديدة . أو لعله قاس فسحة الزمن فعلها في حساباته سويحات إن تبقى
له على رجله وخيله فإن غدا مطلع عليه بعدها وليه في حشود تملأ الأرض فتشد
أزره وتعلو به على عدوه . أو لعله مكيدة الحرب ، والحرب تراجع وفر كما
هي صبر وكر على أية حال ارتد أبو الأعور يبتعد ، وتحرك الأشر مع البكور ،
في طائفة من المقدمة ، ينشده على الدروب والمسالك المتفرعة من البلدة حتى ثقفه
قد لا ذمن « قنسرين » — في منتصف الطريق نحو حلب — بربرة تحميه ،
وتهيء له من شرفها حصناً يدرأ عنه غرة الهجوم ... وكان النهار قد تبين .
والصبح يلقي ظله ونوره ، والقفر حولهم ينبت الوحشة من كل ذرة في رماله ،
ويوميء إلى الفراغ ...

حتى أولئك الذين قد عرسوا بالقتال من أعوانه ، وراحوا يدلون بفروسيتهم ،
ما ثبتوا برهة حتى حصدت بعضهم سيوف غلة من أجناد الأشر فانطووا في الثرى
مغيين كانطواء ذكر لهم كان — إلى ساعة حينهم — كأسطورة ... ونكص

البقية على الأعقاب إلى تلك الجنة التي ادرع بها أبو الأعور، يلتفون حوله يعصمونه إن أغارت عليه هذه الطائفة من مقدمات الإمام . لكنها لم تكن حربا توفرت لها شرائطها ، واكتملت مقوماتها — وإن عاجل فيها صاحب معاوية أعداءه بالعدوان . فلم ير الأشتر أن يندفع بوحى غضبته ، بل استحضر نصب عينيه وصية علي ، فأثر الكف جهده عن الباغي ، وقدم الأناة .

لكنه لم يكن ليأمن منهم عدوة مباغنة ومبادرة كأمس إلى القدر والحديعة ، فأحب أن يكف عن نفسه وعن جنده بلوى القائد القادر ويناله بجزاء بغيه وطغيانه . إنه مراوغ كثعلب — ذلك الرجل الذي باغته ثم انسرب من بين يديه محتجج تحت ستر الظلمة ... وهو فارس القوم . وهو ظفرهم وناهم . فلو حرك فيه إدلاله بقدره ، واختياله بشجاعته في مجالى الطمان ، فلربما وسعه أن يحتلب هذه المقدمات الشامية نابها ، ويقلم ظفرها ، ويدعها مكفوفة الأذى حتى يلتقى الجيشان في ميدان الحرب ، يتناجزان أو يتوادعان ...

رام القائد ولم يرم الفرقة ، فاحتجارها عن رجاله استئمان ... كف إلى حين ... مهادنة موقوتة بساعة أو بساعات . فلم يكده يصف جنده على أهبة ، ويؤمن منزلهم ، ويخفهم بما يجنبهم بغتة الغريم ، حتى دعا الأشتر إليه فتي من قومه النخع ، فأمره بأمره :

« يا سنان ... انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة » .

فهتف الغلام :

« مبارزتي أو مبارزتك ؟ »

« أو لو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ »

« نعم ، والذي لا إله إلا هو ، لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي فعلت حتى

أضربه بالسيف ! ... » .

عندئذ ابتسم القائد لفتاه ، وقال وهو يربت كتفه :

« ... إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي ، لأنه لا يبارز — إن كان ذلك

من شأنه ! — إلا ذوى الأسنان ... ولكنك حديث السن يا سنان » .

لكن السلى — فيما بدا — كان جديرا بسخرية مالك فلم يكن من شأنه

لقاء الأقران . . . فما هو أن سمع الدعوة إلى المبارزة حتى راغ وهو يعتل بتعلة
لعلها أن تدارى اضطرابه ... سكنت طويلا عن الرسول ، وأغضى يتفكر
ويتدبر ، فلما آن أن يرفع عينيه وجبينه ، كانت عبسة تظل ملاحه ، وتغشى على
وجهه بالوجوم .

وقال لسان :

« إن خفة الأشر وسوء رأيه هو الذى دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من
العراق ، واقترائه عليه : يقبح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته ... إنه
سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، فأصبح مبتغى بدمه ... » .
فلم يلو اعتسافه الأباطيل ذلك الحدث عن مجابته بمعارضته ... قال الشاب
وهو يحاول أن يرد إفكه عليه :

« قد تكلمت فاسمع منى حتى أخبرك » .

لكنه أبى أن يصغى ، وصاح :

« اذهب عني ! ... لا حاجة لى فى مبارزته ... » .

وضحك الأشر بعد هذا ، وقال ؟

« لنفسه نظرا . . . » .

ثم نثر على حد الأفق نظرات عيفيه ، ترود الأرض ، وتود لو آنست من
وراء هذا الفضاء حشدا يحرث الرمل بأقدامه ، وينشر الظلال فى منبسط النور ...

٢

الوقت يدنو من الضحوة . نسمة الصبح مسترخية ، فائرة الحركة ، قد مسها
من الليل وسن لم تنفضه يقظة النهار . الأرض ندية بالطل ، قفر بلقع ملؤها
نور ! — لا جنى فلا ظل . . إلى صخرة حثا الريح فوسمها بعيسم الزمان ،
أو كشييا جمع حباته ثم نثر منها وفرق وأهال . أو رقائق من صلصال هى بقايا
آنية عابر ، عاشت فى الحاضر ورحل دونها إلى الغابر . .

هذه وحدها هى الظلال الهامدة ، قد تناثرت على الأديم النقي فبدا بها

كإهاب حية ... أما غيرها من خطوط الظل ففيها حياة ، تسكن وتميل ،
وتقصر وتطول إن تحركت أصولها ، أو أخذت الشمس سمتها إلى الزوال ...
فيها أعين شهها الأرق ، فيها قلوب نهشها القلق ، فيها آذان تسمع الرعد في همسة
النسمة ، ودوى الصاعقة في زحف الهواء ... فلئن باتوا ليلهم في أمان فإنه
أمن النائم على جرف السيل . ولئن أمهلتهم الآجال فما درأوا منايهم بهذه
الأسياف التي حملتها أكتفهم طول الليل ... طالت الرقبة وما طلع معاوية . لم
تظهر لهم أفراسه المسومة . ولا فرسانه المعلقة ، ولا عتاده وأجناده وقد حسبوها
رحلة ساعة ثم يبدون قبل مطلع النهار . وها هنا أمامهم . على قيد النظرة حيال
الربوة ، فرقة تربصت على حرد ، تحصى عليهم الأنفاس . فهل إلى لقاء ؟ ...

لا هو الخوف ، ولا هو الختف ، ولا هو التردد يقعد بهم عن الصراع .
فما بهم خور . ليس في قلوبهم وهن . سيوفهم صليبة مسنونة لم يسبها ثلم ، وأجسادهم
دارعة لبست الزرد والحديد ... لكنهم حيارى . هذا سيدهم لم يوافهم بجمعه .
هذا معسكر عدوهم على أهبة . مشيت فيه الحركة من بعد سكون ، وبرقت الأسننة
منه في ضوء الشمس تخايل عيونهم وتدفع بهم إلى الحذر واليقظة ... آن الخطر .
نهضت للمطى وركب الفرسان ...

كانت الربوة ملاذا حصينا يحمي ظهورهم أن تنالها نبال الأشر ، تعد لهم في
الدفاع ما أرادوا الدفاع . وكان جمعهم كثرة ، وعدتهم وفرة . غير أنهم ما انسابت
العاصفة من المعسكر المقابل إلى جناتهم حتى اضطربوا ساعة من زمان ركنوا
بعدها إلى الارتداد ...

كرة أخرى ارتد صاحب معاوية وترك الميدان . جلا عن قنسرين ساعة
الضحوة وتركها لغريمه . وما كان عليه لو ثبت من جناح أن تقطع وسائله ،
أو تجندل فلوله وتلقى مصارعها أمام عزيمة الأشر على احتلاب النصر بأفدح ثمن
وبأغلى قيمة . فمن عجب أن نظن أبا الأعور توقع الهزيمة فآثر السلامة ،
والنصر حينذاك أدنى إلى يمينه منه إلى كف خصمه ... فهل كان ارتداده —
ولما يبذل الجهد كله فيما لاح — لحكمة ؟ . . أخطأ مدبرة وقصد مقدر ... أم
الحشية وحدها أن يسحق المدوقواته قد جعلته يجنح إلى التراجع ؟ .

ليوشك المرء حين يتبع الرجل ، منذ خطر على أرض الحلبة إلى الآن ، أن يراه يخطو على نهج مرسوم ، لهدف علمه وكتمه . في سور الروم يتراءى نهرا الزباد وشريح ولا يبادرهما بمدوان ، حتى إذا أمدهما الإمام بالأشتر . تسربل بالليل ، فضرب ثم هرب . وفي قنسرين يلوذ بشرف من التلال بحميه ويجعل فرقه في مثل الحصن ، فلو شاء ثبت فدافع وكبد غريعه من الخسائر ما تنوء به العصبة أولو العزم . ولكنه ، كحاله ، اضطرب ثم هرب ... فرار يتبعه فرار ، ولحاق يتبعه لحاق ، كأنه رام أن يشد إليه مقدمات الإمام ، يجرها من موقع لموقع ، ومن بلدة إلى بلدة عساه أن يشردها وبنأى بها عن القوة الرئيسية لجيشها الغازي إلى أبعد مقام . وما أحسبه وصاحبه إلا اختطا هذه الخطوة حتى تتوفر لصاحب الشام القدرة على مباغته جيش أمير المؤمنين وهو أتر بلا مقدمات تستطلع له ، وتصد عنه خطر الضربة المفاجئة . فإن أصاب غايته فقد رجعت كفة معاوية وشالت كفة علي في غمرة لأولهما فيها ميزة البدار للقتال ، وميزة المعرفة بطبيعة الأرض ، وميزة ولاء أهل الإقليم ...

أما التراجع فقد أفلح ، وطوى قائده الفراسخ خارج البلدة ينأى منها عن سلاح أعدائه . وأما الموقع فسقط طعمة الأشتر غير منافس عليه ولا مغالب ، ينزل منه مكانا أوسع رحب السعة عند شاطئ الفرات . وأما المطاردة فسكانت حلما سلخته الحقيقة وبددته كالدخان ... فلم يتعقب الأشتر فرار أبي الأعور ، ولم يبطأ آثاره التي تركها على الرمل . إنما سكن من قنسرين بمنزل ذي جنى وظل عسكر فيه بفرقته ، يطلون منه على شريعة الماء ، ويصوغون حلقة في سلسلة المقدمات التي باتت اليوم منتشرة بشاطئ النهر ، من هذه البلدة ، إلى سور الروم ، إلى ما يواجه الرقة عند نهاية الجسر .

عن هذه الحادثة انجلت الموقعة في قنسرين بين الأشتر وأبي الأعور ، أو انجلت في الحقيقة الحكمة المدشودة من وراء الارتداد . . . انكشف عنها الغطاء فإذا هي ثمرة مريّة كريهة المذاق تلك التي غرس نواتها معاوية ، وتمهدها زمانا بسقياء ، ثم طعمها في نهاية المطاف حتف أنفه وكان يعدها وليمة لخصمه . . . الآن له القفر ، وله الظمأ ، وله لفحة الهجير والرمضاء . السراب وحده ، والحراب

وحده وحين يهل بخيله ورجله على المكان فلن يجد أمامه لهم مستقرا إلا أن يصفهم عند حافة البادية ، وعلى شفير الصحراء ..

ولم يكن نمة أدنى ريبة في أن أمير المؤمنين قد أقر قائده على موقعه ، ودعاه أن يستمسك به ، ويحرص عليه ، ويحتال لحفظه ما وسعه الحرص وأمكنته الحيل والقدرة . فهو رده جيشه كله . وهو معبر إلى العراق بجيشه منه موارده وأمداده من عتاد وجند وميرة . وهو منزل سهل أين لا يشق على الناس ، وتخرج منه السبل وتنتهى إليه معبدة ممهدة إلى مدائن الشام .

وانحدر الإمام من جانب الفرات يزحف هونا إلى الغرب عساه يلتقى بأعدائه المصعدين صوبه من ناحية دمشق قبل أن يأخذوا مكانهم في الميدان . لكن معاوية كان قد سبقه ، فمواطىء جيشه طوال الطريق هينة ، فلا ماء ولا صحراء ونزل العامل المتحرد . ونزل الإمام على كشب منه ، وتوافف الجمعان يعدان ، لم يجنعا لعنف ، ولم يشهرا السيف . إنما شغلتهما الشواغل فترة من الزمن يعد هذا إعذاره ، ويعتسف ذاك تملاته ، قبل صف الرجال وبدء القتال .

فكأني بأبن هند ، وإنه حينذاك للجانب الأذل ، قد اضطرب وتينه واسترخى عرنيته نظر لنفسه فكان الوبال المآل . يكاد يستنشق الهزيمة من الريح وهي تقبل عليه ريانة بقاء الفرات توشك أطماعه أن تضل في تيه من القلق والوساوس كهذه البادية التي تنهيا إلى جواره لا ابتلاع ملته وهو مزق وقلول وعندما استقرت به نواه ، واحتواه فسطاطه مع الحلوة . كان نجيبه قد عقدته الفكر ، وعينه قد أغمضها التصور ، وفهذه ينساح به في عالم من الظنون والهواجس فسيح ...

غير أن الرجاء أملى له ، تلك الليلة التي لم يرقد خلالها جنبه ولم يغفل هدبه ... أم ينام على عواسج وأشواك وهذا على دونه قد احتاز الماء فعدا بآمن لا ينوشه الخطر من ثناباه كلاب سهر ، يصطلي الفكر وإن قدره الآن لجائم بهذه الثنية من مياه الهر التي اتخذها الإمام معسكرا لجنده — الضفة ترسه ، والموج حرسه وإن عينه لتجوس فيها بلمح التصور فتراها كأنها السياج الدارع ، أذانيها الجسر قد أحال الشام عنده مرادا مباحا لأهل العراق ، وأقاصيها

موقع الأشر في قنسرين ، الذي اختلبه ظلفه ، وقبضته كفه . . . وفيما بين هذه وتلك كتاب كمثل الجلاميد ، يشدها الإيمان بما أقدمت له ، ويحسبها يقينها بأنها تدفع محنة توشك أن تنال وحدة الإسلام بالانقسام . . .

وأبحر الليل . ضرب سفينته في لجة السحر ، إلى شاطئ الفجر . . كم من ليلة عاشها معاوية في هذه الليلة ! . . كم من سنة . . كم من جيل ! . . لولا الصباح قد تسلمت منه إشاعة إلى باب فسطاطه لحسبها ليلة بلا صباح . . . ومع ذلك فالضيء الضئيل جاءه بالرجاء ، وراح يقيء عليه بعض السكينة . طابت الآن نفسه من بعد حيرة . هدا جأشه من بعد قلق . قرت روحه وقد أحسها طوال أمسيته تنقلت منه فتشرد ونهيم . فإن هي إلا نقطة الشيطان في أمنيته حتى استعضر جعبة حيله وأخاديعه ، كما يفعل ساحر ، فنثر منها وعجم ، وخبر واختبار ، ثم مضى راضيا لما اتواء .

وشهد النهار عند الثنية ، فيما يلي موقع مقدمة على ، إلى الشمال ، جمعا جما ، معهم الفؤوس والمسكات ، قد انتحوا من البر ناحية لاحوا كأعما يختفون فيها عن الأعين ، وراحوا يحفرون الأرض ويخدون فيها الأخاديد . . أولئك لم يرم من المسكر رقيب فيملك عليهم أيديهم . لكن الرصدة مشت ينبئهم فلقفه الناس بالعجب ، وتأولوه كل تأويل . .

وشهد النهار أيضا سهما صريشا ، أز في الجو أزيزه ، ثم سقط في المسكر بين قوم من مقدمة الإمام . هنالك أخذوه وهم يحسبونه مؤذنتهم بيد القتال فإذا هو مؤذنتهم بيد التفرق ، وتعزق العزم ، وانفصام ما بين حلق هذه السلسلة التي كانت أمس السياج الحارس لجند أمير المؤمنين أن يناله مقتحم ، أو يشغره مهاجم . . .

وهمس رجل لجاره ، وعينه على السهم .

وأكبا معا يقرآن ما فيه :

« من عبد الله الناصح .

إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات . .

نفذوا حذرکم ! . . »

عندئذ بدت في وجهه بهتة . أعدت الآخر ، فإذا هي بغتة ، ثم رهبة ، ثم حيرة وقلق ، ثم خوف وفرق . . .

ولغظت ألسن . ومالت شفاها على أسمع ...
وحينما ذاعت القصة ، وغدا المعسكر تخلية نحل ، كانت ملامح مغبرة ، وأوصال
ميادة ، وأفئدة هواء . . .

فأين هم من الإيمان وأهله ؟ . أين صدقهم وصبرهم ، وحزمهم وقدرهم
أولئك الذين فرقوا من رقعة ، فنشروهم فزعة . وطوتهم فزعة ، ووئبت قلوبهم
إلى الخلق ؟ . . .

لولا أن تم عنهم مواضعهم المحيطة فترقى بهم فوق الظن . لوسمهم الجبن ،
ثم بقيت سمته على جباههم أبدا ذات أثر يلحق بهم إلى القبور . . .

لكنهم ليسوا سواء . فيهم أشبال أصحاب بدر وأحد والخنديق ، وأقران
آساد الجمل والقادسية ، الذين يلقون الهول فيلين كحمل ، والموت فيهمهم
الأجل . إنما كان ذلك المعسكر خليطا من اليقين والشبهة . فيه طائفة صبرت
فبرت ، وفيه طائفة خارت فبارت وإن بدا جمعهم كله ، حين المحنة ، على غير
ما كان يجعل ، فسرى الخور في نفوسهم ونحر . وهل كانوا إلا فرقة تسودها
« نزع الجماعة » التي طالما أتت ما يأباه الفرد وترفع عنه لو ترك له الأمر ليصدر
فيه عن هدى ضميره ويوحى تفكيره ؟ . بل هم أيضاً شراذم شقي لا يجمع بين
ميولها تجانس ، من قبائل وبطون ، تباينت بهم منازل الولاء للإمام والوفاء
لغاياته ، وتذاءبت أحلامهم بين عمى الجهل ، وحمق السذاجة ، وجلالة البداوة ،
وبين إشراق الفهم ، واستنارة البصيرة ، وحسن التقدير ...

ليس الموت ما يخافونه وقد حركوا نحوه مطاياهم ، بل اللوثة التي صورها
الوهم . فلغيرها تهيأوا ، يقدمون الصدور والنحور للأسمنة ، ويستيقنون للمصارع
على قطر الدم . أما هذه فغيلة . إحناء الرقاب للذبح . ميتة السوائم . . .
وسخر على وقد نبأه خبر الأخدود الذي يحول الفرات عن دراجه ، وقصة
السهم ذي الرقعة . وبعث برسول :

« ويحكم . . . إن الذي يعالج معاوية ، لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه . .
وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فاهلوا عن ذلك ، ودعوه . . . »
فكم منهم سمع ، وكم منهم وعى وهذه دقائق الفئوس في الأرض ينقلها
(١١ — الإمام)

الوهم من بعد فتحهم منهم الآذان ؟ . . . وكم قد استطاعوا أن يتبينوا الصواب في الخطاب ، وما لهم من نظرة إلا تطوف حولهم قلقة ترود الأرجاء لتبعث فيها عن سيل الطوفان ؟ . . . خرست الألسن عن كلمة الصبر ، وعميت الأعين عن الحقيقة ، وبات خفق القلوب نقشة ملهوف وشبهة مخوف :

« هم يحفرون ! . . . هم يحفرون ! . . . لنتحلى ! . . . هم يحفرون الساعة ! . . . يحفرون . . . يحفرون . . . لنتحلى ! . . . والله لنتحلى ! »

وبعث على ثائية ، ينذر ويحذر :

« لاتعلبوني على رأبي ... »

فغلبوه ! . . . بعضهم من خور ، وبعضهم من جهالة ، وبعضهم وهو مفلول الحيلة ، قد رحل مثلهم بعد أن أوهوا بيانه ، ولماظوا دعاءه إلى الصبر ، فهو غالب ومغلوب ! . . .

٣

أفرخ الكيد ، وضحك الشيطان ، وأدل معاوية ما شاء له إدلالة بهذه الوسيلة من وسائل الخداع الذي لا يضيق عنه باعه ، ولا يقصر ذراعه ! . . . فقد خدت أخاديه في صف على قبل خدها في جانب الفرات ، وأصاب سهمه منه ثغرة مغفورة نفذ فيها بسنه وسمه ! . . . فإذا المقدمات المناوئة قد تراجعت عن شريعة النهر تخلى الأرض التي كانت لها ملاذا وجنة ، وللجيش كله ستارا حافظا ودرعا منيعة ...

ولم تردهم دعوة الإمام عما اعتزموه ، ولا حث بعضهم بعضهم أن يلتزموا الأمر ، ويدعوا الخور ، ويشبتوا على قدم . . . إنما ملكتهم حينذاك جنة فمضوا لطيتهم ، على غير وعى ، يرتدون عن الماء إلى البلقع ، وعن الحضرة إلى القفر . . . وكانت خشية الفرق هي ما يعلأ منهم الأذهان فكسروهم هباء ، ويأخذ عليهم الجنان فقلوبهم هواء . . . يستبقون إلى الفرار حذر الموت كالسواثم ، زاغت الأبصار ، وانطمست الضمائر ، وبلغت القلوب الحناجر ! . . . حق هذه المسكة من الولاء التي

ربطتهم زمانا بابن عم الرسول ، وأوفت على القداء ، انقصمت الآن عروتها ،
ووهنت وحدتها فعاثوا عنها بالتمرد ، يعجلهم فرقههم إلى الخلاف ، ويدنو بهم من
المصيان ... فلقد تهامسوا ، ثم هتفوا ، ثم صاحوا بغير تخرج ولا حياء ، وقد
سرى إلى أسماعهم دعاؤه ونجواه :

« لئلا نلحقكم بالله ... فإن شئت فأقم . وإن شئت فارتحل ... »
فإن هو إلا أن خلت مهم الشريعة حتى أسرع معاوية فاتحها بجنده ،
معسكرا فيها بأرض يستطيع منها أن يقطع عن الإمام كل نجدة أو زاد قد تأتيه
حين الحاجة من جانب العراق ، ويملك الضفة عليه أن يردها رائد من رجاله
أو دوابه وقد باتوا الآن بنجوة عن الماء ، بمكان يابس عند صفين ، عزلهم فيه
عن الفرات هذه الجحافل الوفيرة من كتائب الشام ...

هكذا انقلب الميزان ، وتبادل الجيشان موقعا بموقع فساءت خيرة المخالفين ...
لكأنى بهم ، هذه الفرقة ، وقد ثابت إليهم الخواطر ، ووعت الأبواب ، قرأوا
ما عملوا حاضرا ، تأخذهم الرجفة أن عصوا أميرهم وتفرقوا عنه رأيا وكلمة ،
كما اختلف على موسى بنو إسرائيل ... هم أمس أمروا أن يشبثوا على مقرهم
— وفيه ظل ومنعة وأمن — فزايروه . وأولئك قبلهم تمردوا على منزلهم —
وفيه رعد وسلوى ومن — فأنكروه . كلاهما أعماء هواء فانحرف وتمرد
وشق الطاعة . فكم اليوم من رجال الإمام من رحل بخياله فاستحضر بياله —
هذه اللحظة المنكودة — كلمة الله التي سخر بها حينذاك من يهود :

« أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ... اهبطوا مصرا ، فإن لكم
فيها ما سألتم ... »

أوائك عصوا وسخرت السماء . وأولاء عصوا وسخر على ... ثم غضب
وأنكر . ثم ثار وثار . ثم صبر . فماله اليوم إلا الصبر على عصية خالفوه حتى
غدا بهم في محنة ، تورث الهم ، وتأكل العزم ، وتكشف منه لأعين عدوه رمية
لا تخطئها رمية ... كطعام إسرائيل قبلهم فعملوا . أمرهم « فبدل الدين ظلموا
قولا غير الذي قيل لهم » فباتوا على ضمير ...

وينظر الإمام فإذا القوم على الأفق كالجراد ، يهطمون من هلع وهم يوشكون

أن يخشوا الظل الذى شيّعهم ، والنقع الثائر فى أعقابهم من أثوابهم ، وحركة الظلف والحنف ؛ وخفقة النسيم . . . وأسى لهم . وأسى أيضا لهذه البقية من جيشه التى مستطعم الصاب الذى جناه التمرد . . . الآن ينبو مقامه ، وتضطرب خطوطه وخططه ، ويرى الأمن فى التحول مليا عن مواقفه ليلاً الصدع فى صفوفه الذى نهأ عن الانسحاب . . .

كم من الخواطر اليوم طاف بياله ، وهو محزون ، من وراء هذه الهزيمة التى أصابته ولا جراح ، وضربته بلا سلاح . . كم من هواجس وريب ، وكم من وساوس وظنوف . . ليس هو الوهن الذى نال من خطوط قواته ما يثير شجته ، ولا تقدم عدوه إلى الموقع ، ولا الخدعة الفاجرة ، بل التمرد الذى لطخت به نفوس فئة كان يظنها أسبق الناس إليه طاعة ، وأسممهم له . وأسرعهم إلى الفداء فى سبيله . فثمذا يدربه أنه ان يتجدد فى كل صباح ، ويتكرر فى كل مساء ، وتتعاقب عليه أمثاله مع تعاقب الليل والنهار ؟ . .

واسكنه يرد نفسه أن تتطير ، أو تعبت بها الشكوك . فإن هم إلا أناس كأنا ، ونفوس كنفوس ، قد غلبهم حرصهم على الحياة إذ هم نفس يلقفه الصدر ويلقيه ، كما غلب إخوة لهم وأباء ولدات ، إذ هم مغنم ومطمع وأسلاب . . . فلئن عقه اليوم صحبه فقد عقى غيرهم قبلهم محمدا حتى انفرجت بهم عنه الصفوف المرصوفة ، فدانت الخيل . وطالته النبل ، وسال بدمه عجاء . . .

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق ، كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام . . . محنة كمحنة ، ويوم كيوم ، وموطن كموطن تلك التى تطالع المرء من عهد محمد إن أرجع إليه البصر ، وحملته الذكرى فذكر . . . فلولا أن ها هنا الماء والظل وهنالك الجذب والحل ، وهنا الحاضر وثمة الغابر ، لكانتا محنة ومرآة . . .

إذ ذاك مد الرسول عينه إلى الجموع الكثيفة التى أتت لتتأثر . . . لقد قهرها بظلمها منذ عام ، وأنزل بها على ماء بدر نكبة قاصمة صدقت بها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فإذا السادة من قريش يتقصفون كالتقصب الجاف . وإذا بيوت مكة مزار للموت ، لم يدع منها بيتا إلا اقتنص من شبابه أو من شبیه . وإذا العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين . . .

وبهت الشرك الذي كان مستعزا بنفروه . وراح من بعد يلحق جراحه ، ويكنم أساء ... إن يكن يستعيد الفجيعة فلتحفزه على التأهب للانتقام . وها قد مضى على بدر الحول ، وأملى الزمان لقريش وأفسح . فأعدت ، وشعدت ، وصقلت الأسياف . ثم أجلبت بقضها على محمد ، عند أحد ، فيها المقاتلة ، وفيها النساء ، وفيها الاقيان . وما من فرد في جموعها إلا أقبل وهو يرجو أن يعينها « هبل » على الله . . .

وإذ تراءى الجمع ، خرج الرسول في رجاله غطط لهم موقعهم ، وصف منهم خمسين على الجبل من ورأهم ، بأيديهم الأقواس ، ايعموا ظهورهم أن يأتيا عدوهم بغتة ، فتذهب ريح الإسلام :

« قوموا على مصافكم هذه . انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ... وإن رأيتمونا قد تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ... وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وظهرنا عليهم ، وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

خالفوه . . . خلفوا الجبل — أولئك الرماة — حين لاحت لهم بارقة ظفر ورأوا قريشا تهجر الميدان خوف المنية ... وما لهم يثبتون ، وقد تعاورت عدوهم حراب محمد وأصحابه فأثمنت فيهم ، وفرت ، وصرعت ، حتى ذهل أهل الشرك عن نفوسهم فتخطفهم الخوف ، كما يتخطف الطير الجيفة . . . الآن أسفر النصر . الآن بانث الهزيمة . الآن تلعع الغنيمة على أرض الواقعة تدعو من طلبها : « هبت لك ! » فهي حرم مباح .

ولبوا العرض . . . نسوا في هذه اللحظة ما أمرهم به الرسول فزايلاوا الجبل ، يندفعون إلى السبي والأسلاب كالذئاب المنهومة . . . ولكنها نشوة عمرها قصير ، وفرحة ما برقت في أخيلتهم حتى خدو هجها فعلتهم الخيل من المكان الذي زايلاوه ، وطالهم النبل ، واضطرب عسكر المسلمين كله وحصدته أسنة العدو حتى ظن أن محمد مات ...

وصاح حيذاك أنس بن مالك لمن هدم نبأ مقتل النبي فأذهلهم عن اليأس وأوطأهم اليأس :

« مات ؟ .. فما تصنعون بالحياة بعده ؟ .. انهضوا فموتوا على ما مات

عليه . . . »

محنة أطلعت خطمها ، وحركت زبانياها تضرب بهما في عين وشمال بين أهل الإيمان حتى طحنت بينهم خلاصة فرسانه ... كفى بها من محنة أن أكلت حمزة بن عبد المطلب ، وطرحته به في يدي هند فريسة هامة ، لا تستطيع دفعا قهشتها المرأة ، ولا كت منها ، واتخذت بعض مزقها قلادة . . . وحين ارتوى زوجها من شماته ، وطابت نفسه بالصيدية ، وقف تهزه عاطفته المجنونة فيهتف وهو نشوان :

« أنعمت فعال ! يوم بيوم بدر ... اعل هبل . . . اعل هبل . . . »

ولم يعل هبل . . . وما كان ، فآله أعلى وأقدر . . .

ولم يمت محمد . وما كان ، فقد استأخره ربه لساعة نصر تأتي إليه بهند ، وبأبي سفيان ، وبالملا كاه من أهل الشرك قماة صاغرين ..

ولم تضق أيضا نفسه السكرية عن الصفح عمن أوقفه نهمهم ، واختلافهم على أمره ، هذا الموقف الضنك ، بهذا الوطن ، في هذا اليوم الذي دى فيه قلب الإسلام وتفجر الحزن من جراحه كالينابيع ... إنا صفا لهم . مسح غضبه عليهم حين مسح دماءه عن محياه . فالتصر قدر . والفشل قدر . ولن يخزي الله حزبه وإن بهت — حيناً — الأمل ، وإن شمت ذو غل ، وإن امتدت الرقبة وطال الأجل ...

وصفح على الليلة كصفح هاديه . لم يضق قلبه عن الصبر ، ولا عن الأمل ، ولا عن المغفرة .. فإن هي إلا نار مطهرة — هذه المحنة — تخلص فيها نفوس قومه من شوائبها ثم ترتد مجلوة . فالذي اكتنفه الظلام يهفو للنور . والذي شرد به القفر يحن للظل . وإن ربه لمجنب رجاله العثرة من بعد ، ومسدد خطوهم إلى رشاد ، وجامع قلوبهم على تعزيزه فهم بقية الخير ...

وعندما وعت عيناه كتائب مقدماته ، والتأمها وجيشه المنزل الجديد ، لم يكن انسحابهم ما يهيج خشيته ، ويدفع به إلى الجزع ... إنا يحز في فؤاده اللحظة

أن تنسج الهوة بينه وبين صاحب الشام سعة تنذر ولا تبشر . فليس معاوية بعصخ إليه ، ولا حائداً عن مجافاته ، ولا خائفاً جناحه لدعوة السلام وهذه أزمة الأمر كله في يمينه ، لو شاء غدر أو شاء صبر ... بانت الحرب وحدها هي المركب — القتال ، دون الحسنى ، وسيلة الوحدة للنشودة ...

وابتسم حينذاك صاحب الشام ...

ساعة كساعة . وموطن كموطن . وصل كأفعوان ...

« هذا والله أول الظفر ! » ...

وفرك كفيه من غرور ... وانتفخ نحره ولعت عيناه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام . . . كأيّيه قبله عند أحد ، وقف الابن مستعزاً بصلفه ، وبشجرة خدعة ، وبنصر ساعة أورثته إياه فرقة قوم على وليهم واختلافهم من جهالة وغفلة . على الماء وقف ، ذلك اليوم ، يتجبر ويعلو ويديه ، كأن هذه القناة الجارية قناة مسنونة صلبة في ذؤابتها القضاء والفناء ، ركزها رهبة ، وهزها غلبة . . . ثم مضى وما بدأه من الوعيد :

« يا أهل الشام ! ... لا سقاني الله ولا سقي أبا سفيان إن شربوا منه أبداً ،

حتى يقتلوا يجمعهم عليه ! » ...

٤

التيه والصلف والزهو عاشوا ليلة في خبائه . . . كانوا ضيفاته لم يكونوا أعوانه . ولم يكونوا كذلك مواليه ... وعندما أشرق النهار ، وملاً ضوء الأفق ، وابتدرت الشمس في الفرات ساعة الغروب ، كان رحيلها مؤذناً بأفول كبريائه . . .

لم يعمر الظفر ... في البدء ظنه حليفه . توأم خطاه . مطية له إلى غاياته فوطى به ظمأ خصمه ، وعتا عتوا كبيراً كأنما الأقدار في يمينه ، والأعمار ، وهذه الأهداف التي غالبوا عليها الحياة والموت ... فح كالأفعوان ، وصلب كالرمح ، واستطار أشرا في سماء زهوه كالعقاب ! . . لم يرده عن التجبر أن

السلم لم تكن تقطعت بها الأسباب . وأن الحرب لم ينشق عنها الحجاب ...
لم يلوه عن عناده واعتداده أن الإمام لم يبدأه بعدوان ، ورائه غاية الريث عسى
أن يتذكر ويدع لده فتتعد الكلمة بين شطري الأمة ، وتبعد المحنة عن
الإسلام ... لم يكفه أنه مدغل مبطل ، جانح لإثم ، متجانف لعصية يسوقه إليها
هواه ... لم يرح الله !

حق الذين جاوروه وناصروه ، بنوا حينذاك باستكباره . ففي التراب أحيانا
تبر ، ومن الوحل قد ينمو خير ! . . . أفرت له طائفة بظلمه وأنكرت طائفة .
هلل فريق وأسف فريق . وحينما حلت له الشهادة ، وراح غروره يحرك لسانه :
« هذا والله أول الظفر » ... انبرى له من رجاله من يجيبه :
« هذا والله أول الجور ! . . . »

فعجب له ... لكن هذا العائب عليه كان زاهدا تبعه بجهالة لم يتبعه طامعا
في دنياه ، ولم يسر مسيره في صفوفه وهو يرمو لعرض ، أو يطمح إلى جاء ...
ثم زاد دهشة . ثم غضب . ثم هزت الجراءة كيانه والرجل يعضى غير آبه
في عتابه أو في عابه :

« يا معاوية . . . سبعان الله .. الآن سبقتهم القوم إلى الفرات تمنعونهم
عنه ؟ . . . تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ . . .
أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ! . . . »

فبهت العاهل المفتون من خزي . فلما تاب ، ووسعه أن يستجمع نثار عنته ،
ثار ، وسارع يردع الرجل ، ويكبت إنكراه أن يذيع في الناس :
« اكفني نفسك . ما أنت عندي بذى رأى ! . . . »

لكنه أخطأ الرمية ... فلقد راجعه الناس ككرة أخرى بالعب واللوم ،
وراح يقذف إليه بحممه :

« هذا والله أول الجور ! . . . لقد هجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ،
وحملت من لا يريد قتالك على كتفك »

وصدق . كأنما ستر الغيب — هذه اللحظة — قد انتزاح عن مكنونه فبلغ
برمق عينيه خفاياه . . .

كان هو على شبهة من الأمر الذي جاء فيه ، فأبصر ، وولى ببقية دينه يفر

إلى المسكر الآخر ، لينضح هناك عن حق الإمام ، ويضرب باطل عدوه بملك
يمينه ، وبكل إيمانه ...

وكان الحذر بالأمس في صفوف مقدمة الأشر هو علم الفشة التي آثرت
الانسحاب . فلما اجتنبت الفرق الموهوم إلى صدى محتوم ، تلاومت ، وثابت ،
واستردت العزيمة .

وكانت طائفة من الناس معتزلة ، تشهد الخلاف الناشب بين الجمعين وهي تأمل
أن يرأب الله بها الصدع حين تمكنها فرصة وإن احتشدت الجيوش وشرعت
الرياح ونزعت لنجاز ... فجاء عنت معاوية ، وعتوه ، وعدوانه الجديد بغير
ذريعة للعدوان ، يفتح لها ثغرة للنيل منه ، والانحراف عنه ، والإعجال إلى
مجازاته ...

حق ابن العاص لم يرتض الغدر من وليه ، ولم يرفيه وسيلة إلى انتصاره . فلما
عرف منه العزم على حرمان خصمه الماء ولما تنتشب حرب ، راح يعظه أن يدع
غروره ، ويخلى بين عدوه وبين الشريعة بغير جور ولا تحيف ، يردون
ويصدرون ما طاب ورد وصدر :

« خل بينهم وبين الماء ، فإن عليا لم يكن ليظماً وأنت ريان — وفي يده
أعنة الخيل — وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ... »
فنفخ الماهل وزفر :

« ألا تدعى ، أبا عبد الله ؟ ... »

« إنك تعلم أنه الشجاع للطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ... ولقد
سمعت ، أنا وأنت ، وهو يقول : لو استمكنك من أربمين رجلا . »
أجل قد قال :

معاوية يذكر ، وابن العاص ، وفئة أخرى ممن شهدوا ذلك اليوم ، الغائب
في الغابر ، للمائل الآن بذكره المفجعة في الحاضر ، كيف كانت ثورة الغضب
ونار الحزن تلتهبان على وجهه على ، وتأكلان منه حله وصبره ... حينذاك لم يكن
للعلم موضع بصدرة ، ولا للأناة عليه سلطان . كاللث إذ يداس عرينه
ويعشى على ذماره للسكين ثلث ؟ ... فقد غمطوه . أنكروا عليه حقه وقدره

وصهره . تواثبوا في جموعهم ، وهو معتزل ، يعصفون بداره ، ويقصفونها .
ويبشون حولها النار ...

ذلك يوم خالد في الزمان بغله وضغنه ، بحيفه وجوره ، بحسده وشأنه ،
ترب الظلمة مغبر الجبين . . . ما كان عمرو لينساء ، أو معاوية ، أو هذه البقية
التي بقيت اليوم من قريش ، ثم من بني عبد مناف . ثم من بني هاشم الذين سلبوا
حقهم في تراث الرسول ، وودحقد قومهم لو تخطفتهم المصارع ، ووطئهم الأقدام
وهم تتأثر وأشلاء . . . من خلال كل هذه السنين السوالف تشق أحداثه أطباق
الزمن إلى الخواطر ، كالغيبس في الظلمة . كألجنة النار التي أوشكت أن تندلع
حول البيت تهم بحصده وتدميره . كالصرخة المدوية التي أطلقتها حينذاك فاطمة
تجأر فيها بشكواها إلى رسول الله ! ...

ولم يكن محمد ، وهم يعدون هذه العدو على دار زهرائه ، قد عزب ذكره
من الأذهان . قبره ندى بدمعهم .. جسده رطيب كأنما لم تفارقه كل الحياة ...
شبعه حاضر علاء عليهم الفضاء ، كالشذى للماطر ، يغيب الطيب وهو مائل
لا يغيب . . . ومع ذلك فلم يكادوا يشيعونه إلى الجدت ، حتى استرفهم مس ،
وملكهم هوس ، فانطلقوا إلى دار ابنته كمردة الشياطين ! . . . معهم الشعل .
في أيديهم الحطب والحراب . ظلالهم دمار ونار . . .

الموجدة على علي ، والحسد لقدره ، والخشية أن يفسد اعتزاله هذه البيعة التي
أدلوا بها إلى أبي بكر بغرة من آل بيت الرسول ، قد حركتهم جميعاً على حرد
نهاية اللطاف فيه احتلاب صفي محمد تراث ابن عمه ، وإخراج الأمر من عينه فلا
تجتمع الرسالة والخلافة في هذه الدار من هاشم ، التي نبت قريش كلها بشرفها ،
وسؤدها ، وعزها إبان حقبة الجاهلية وبعد مولد الإسلام . . . كرهوا لها أن
تطولهم بالأمر بعد سموها بالنبوة ، وأن يقوم منها سيد بعد موت سيد . وأن
يستأثر رجالها بالحكم ، ويستأسروا بأقدارهم ومزايام هذه الجزيرة الفسيحة التي
تعج بالقبائل كأنما عجمت عن إنجاب أمثالهم سائر البطون . . .

وعلى ضياء شعلة مما طرق الدار ، ولون الأفق ، وأشاع في الجو حره ، لاح
عمر وقد تغير وجهه بمخمة ، وتبلل بمرقه . وتخلل الدخان لحيته ، ولمع حسامه
في يمينه بكذوة النار . . . إنه أحسن شديد في دينه ، أحسن شديد في عدله ،

ولكنه اللحظة أحسن شديد في عنفه واندفاعه وهو يم الباب ... إنه ليشير الجمهور ويهيج الفتنة ، ويهيئ الخطب ليؤثر الحريق . . .

واستأسد وتنمر . وتصايح وزار . ثم اندفع من خلال الجموع كالشرر ، يدق البيت على ساكنيه . . . ليس هذا بعمر ! . . ما هو بابن الخطاب ! . . الذي جرى بقدميه إعصار . . . الذي انفجر بصدرة بركان . . . الذي استوى على لبه مارد . . . إنه الآن مخمور الأمس ، عاد سيرته الأولى كحال من بضع سنين ، حين أعماه شركه ، وأضله هواه ، وختله عن الهدى غروره فسل حسامه وانطلق على درب مكة ينشد النبي ، ولسانه إذ ذاك يجري بكفره وخمره :

« لأقتلن محمدا بسيفي هذا ! — هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها وضيع بهارجها . . . »

واليوم أيضا ختله اندفاعه ، وبقية بنفسه لا تزال راسبة من حسد الجذود وبغضاء الأجيال ... هوى كهوى يعضى به ، ويحميد بخطور الثابت ، فيغدو ويروح على لهيب المشاعل ، يوسوس لنفسه ، ويهتف بالعصبة التي تؤازره على هجم الدار :

« والذي نفس عمر بيده ، ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها ! » . .

قالت له طائفة خافت الله ، ورعت الرسول في عقبه :

« يا أبا حفص ، إن فيها فاطمة . . . »

فصاح لا يبالي :

« وإن ! . . »

واقرب . وقرع الباب . ثم ضربه واقتحمه . . .

وبدا له على ...

ورن حينذاك صوت الزهراء عند مدخل الدار ..

فإن هي إلا رنة استغاثة أطلقتها « يا أبت رسول الله .. » تستعدي بها الراقد بقربها في رضوان ربه على عسف صاحبه ، حتى تبدل العاني الدل غير إهابه ، فتبدد على الأثر جبروته ، وذاب عنفه وعنفوانه ، وود من خزي لو يحز صعقا تبتلعه مواطئ قدميه قبل ارتداد هديه إليه ...

وعندما نكص الجمع ، وراح يفر كنوافر الأطباء المفزوعة أمام صيحة الزهراء ، كان على قلب عينيه من حسرة وقد غاض حلمه ، وثقل همه ، وتقبضت أصابع

يُحِينَهُ عَلَى مَقْبَضِ سَيْفِهِ تَهْمٌ مِنْ غِيْظِهِ أَنْ تَفْرُصَ فِيهِ ... أَكْذَاكَ يَنْتَهَبُونَ حَقَّهُ ،
وَتَرَاثَ هَادِيهِ ، ثُمَّ يَلُودُونَ عَلَى انْتِهَابِ عَمْرِهِ وَعَمْرُ أَهْلِهِ : الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ لِلرَّسُولِ ؟ ...
أَكْذَاكَ الْهَوَى يَضِلُّ ؟ ... الْأَنْ ظَهِيرُهُ قُلْ يَسْتَيْحُونَ مِنْهُ مَا لَا يَبَاحُ فِخْرُهُ لَهُمْ
حُلْ ، وَأَمْنُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ . . .

وَمَدَّ طَرَفَهُ نَحْوَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ يَنَاجِيهِ :

« يَا ابْنَ أُمٍّ ... إِنْ الْقَوْمُ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ... »

وَتَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ . وَعَضَتْ رَاحَتَهُ كَرَّةً أُخْرَى عَلَى حَسَامِهِ مِنْ أَسَى وَحَقِّقِ
وَحْسَرَةٍ ... ثُمَّ أَغْضَتْ عَيْنَهُ ...

لَا حِيلَةَ . . .

فَإِنَّ الزَّمَانَ ...

بَيْتُ الْقَوْمِ أَمْرُهُمْ بَلِيلٌ ... هَذِهِ الْفُرُوعُ وَالْأَصُولُ فِي الْجَزِيرَةِ أَزْهَرَ الْيَوْمِ
نَجْمُهَا فَقَدَتْ تَعْدُ الْأَعْنَاقُ مَسْتَطِيلَةً تَحْتَالُ . أَصَابَتْ ثَأْرَهَا . بَلَغَتْ وَطَرَهَا مِنْ
هَاشِمٍ . فَضَلَّتْهُ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْأَعْصَرِ الطَّوِيلَةِ . . .

الْآنَ عَزَتْ قَرِيْشٌ . عَلَتْ تَيْمٌ بِابْنِ أَبِي قَحَافَةٍ وَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ . زَهَتْ
عَدَى بِابْنِ الْخَطَّابِ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْمَشُورَةِ وَالْوِزَارَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ . طَابَتْ
نَفْسُ زَهْرَةٍ وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْبَطُونِ وَالْأَيَّامِ وَقَدْ نَالَتْ جَمِيعَهَا مَبْتَغَاهَا مِنْ هَذِهِ
الدَّارِ الَّتِي سَمَتْ عَلَيْهَا فِي الْغَابِرِ حَتَّى أَمَسَ بِالْكَرْفِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ إِلَى ذُرْوَةِ كَانَتْ
عَزِيْزَةً عَنْ تَطْلُعِ الْعَيُونِ ، وَتَصَوُّرِ الْأَخْيَلَةِ ، وَشَطْحَةِ الْأَحْلَامِ وَالظُّنُونِ . . .

كُلُّهُمْ عَقَدُوا النِّيَّةَ ، وَتَنَاصَرَتْ حَفَائِظُهُمُ الْقَدِيمَةُ عَلَى عَلَى فَنَازَعُوهُ سُلْطَانَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى انْتَزَعُوهُ وَهُوَ حِينَئِذٍ فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، مَشْغُولٌ عَنْهُمْ ، وَعَنْ
تَدْبِيرِهِمْ وَتَأْمُرِهِمْ ، بِالْجُثْمَانِ الطَّاهِرِ الْمَسْجِي يَجْهَزُهُ لِيَرْحَلَ الرِّحْلَةَ الْآخِرَةَ . . .
مَضَى مُحَمَّدٌ لَغَيْرِ أَوْبَةٍ . فَرَغَتْ الدُّنْيَا مِنْ نَوْرِهِ . غَابَ فِي قَبْرِهِ وَغَابَ مَعَهُ وِلَاءُ طَائِلِهَا
تَسَابَقُوا بِهِ يُولُونَهُ آلَ بَيْتِهِ ، قُرْبَانًا وَزَلْفَى وَفَرِيضَةً ... وَعِنْدَمَا انْجَابَ ظِلُّهُمْ عَنْ
بَابِ قَاطِمَةٍ ، وَانْتَشَعَ جَمْعُهُمُ الْعَادِي ، وَخَلَصَتْ سَاحَةُ الدَّارِ مِنْ مُوَاجِدِهِمْ وَحَسَدِهِمْ
إِلَى حَيْنٍ ، تَلَفَّتْ عَلَى يَرُودٍ يَبْصُرُهُ الْمَسْكَانُ ، يَنْشُدُ الْعَوْنَ ، وَيُبْعِثُ عَنِ النَّصِيرِ ...
وَكُنْ يَمُصِّرُ الْمَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ ، وَمَنْ يَطْلُبُ الْجَنَى مِنْ سَرَابٍ ، وَمَنْ يَحَاوِلُ
مَلَأَ رَاحَتِيهِ بِالرَّيْحِ ؛ هَمْسٌ فِي حَسْرَةٍ وَقَدْ ارْتَدَّ بَصَرُهُ إِلَيْهِ وَهُوَ حَسِيرٌ :

« لو استمكنتم من أربعين رجلاً . . . »

عمرو يذكر . . . ومعاوية . فما كان له من سبيل إلى النسيان وأبوه قد تصدى إذ ذاك يعرض العون على آل بيت رسول الله ، ويعينهم النصرة لو أطاعوه فأثاروها فتنة على الصديق ، تشرد به ، وتنزل الميز من عليائه . . . ومع ذلك فالابن اليوم لا يجري على سنن أبيه . أحلامه تردده وتقصيه . تحضه أن يشاق . تهم به تراوده وتغويه . . .

ومال يجيده عن صاحبه ، وعن الذكرى ، وعن مياه الشريعة وقد وقفت دونها شراذم رجاله تمنع روايا الإمام أن تبلغها أو تبيل بقطرها الأوام . ولقد أوشك الناس أن يقتلوا عليها . بل تسرع فوارس من فوارس على صوبها إلى ناحية معسكر معاوية فوزعهم أمير المؤمنين عن القتال حتى يأخذ عدوه مصافه ، فيحاجه بالحسنى ، ويعذر إليه . . .

لكن معاوية لم تسكبه هذه الأريحية النادرة من غريم ، فمضى وما اعتزم من عدوانه . . . إن حوله الآن جمعا من آله لم ترات تحرك فيهم مكان الضغينة ، راحوا كالأبالسة ، ينفثون في روعه وينفخون في غروره ؛ وكالسياج ، يضربون أكنة على فؤاده فلا يرى الزشاد . . . إن جراح أسلافه نكأتها أطباعه فسال قيعها ودمها وعقنها تلبس الهدى بالضلالة . إنه مفتون . البأس والظفر والغلبة الآن أعلامه . . . الظمأ والصدى من جنوده . . . بيده الآجال . وإليه المآل . وعندما أتاه حارس من رجاله يعلن قدوم واعد ، تلفت اختيالا وكبرا ، ثم عقص قرنه ، وألقى بنظرة متفضلة على مدخل الحباء . . .

وقال له صمصمة بن صوحان دون أن يستقر به المجلس :

« يا معاوية . . . إن أمير المؤمنين يقول لك » .

فسأله بغير اكتراث :

« رسول . . . »

« نعم . . . إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم . قاتلنا قبل أن تقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حق ندعوك ونحتج عليك . . . وهذه أخرى قد فعلتموها : حلت بين الناس وبين الماء . . . نخل يا معاوية بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم . . . »

فقد المتجبر طرفا ساخرا يقتحم الوافد ، ثم يعيل عنه إلى من حصره من
شياطينه وفيه من الشهادة شعاع . .

وأكمل الرسول في طمأنينة ونبرات صوته المهادنة تقتنم برنة وعيد :
« . . إن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له ، وتدع الناس يقتتلون على
الماء حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا . . » .

وصمت برهة يذرع الجمع بنظره ، ويلم في نهاية طوافه بسيدهم الذي ناشه
الفكر وعقد ما بين حاجبيه . . . ثم عاد يسأل :

« ما ترد على . . ؟ »

قال معاوية وبصره على أعوانه :

« ما ترون ؟ . . »

فتحدثت الأحقاد . .

انفلت منهم الوليد بن عقبة ، يمصف :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه أربعين يوما ، يمنعونه برد الماء

ولين الطعام . . اقتلهم عطشا . . »

فجهد عمرو ليتقى مغبة الدفعة ، ومضى يراجع بنصحه :

« بل خل بينهم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير

الماء فانظر فيما بينك وبينهم . . »

وثار يزيد بن أسد القسري :

« كلا والله . . لنقتلهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين . . »

وهاج الوليد ثانية :

« اقتلهم عطشا ، قتلهم الله . . »

وقفى ابن أبي سرح على آثاره ، وهو يحاول أن يبدو من خلال حقه في

ثياب القائد الماهر الذي يهدف للغلبة :

« امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم

هزيعتهم . . امنعهم الماء ، منعهم الله يوم القيامة . . »

عندئذ نبا بصمعة حله ، ولم يطق صبرا على سفههم فهتف بلا مبالاة :

«-إنا ينعنه الله يوم القيامة الكفرة ، الفجرة ، شريرة الخمر ضربك وضرب
هذا الفاسق ! . . . »
ثم نهض يحدث أميرهم :
« ما ترد على ؟ . . . »
« سيأتيكم رأيي . . . »
وقد أتاها ، ولما يبلغ الرسول مأمنه . . .
دعا إليه أبا الأعور فأمره :
« ياسفيان . . . امنعهم الماء ! . . . »

٥

الشريعة حرم . نأت الآن عن اللسان اللاهث ، وعن الحلق الجاف ، وعن
الشفاه التي شققها حرق الأجواف . . . لا واردة . لا راوية . لا شريرة ولا زاد
ماء . . . الآن لا يتربص الرجل للرجل من خصومه ، ولا الفارس للفارس
تربص الأمس الذي أملته حينذاك الخصومة أو توازع اللدد والسخيمة . بل تجيش
الجمع . اعتد وتأهب كما تحتم طبيعة الصراع . . . هذه عدة وعدد وعتاد . جنود
على تعبئة . أداة حرب على أهبة وحرب على الباب ! . . .
استوت الصفوف . تسرعت الأسنة . جرت الرصدة خفية تشم الأنباء . . .
على طول المجرى انتشرت قوات الشام في نظام . فيهم الراجل والفارس . عليهم
الدرق والدروع . بأيديهم السيوف والنبل كأنهم سور من السلاح واليقظة دون
اقتحامه . المنايا الحاصدة ، واللوت القاصف ، والجراح والدم . . .
وعلى كثر منهم في الجانب الآخر يجثم الصدى والهم . واللوم والحسرة .
والنوى القعيدة التي تعد عينها إلى سراب ! . . . الدواب تلهث . والأناسى تشرق
ببقية الريق . رغاء كبكاء وصهيل كمويل . ورنين كأنين . . . كلما مضت
بالإمام بينهم قدم سمع الزفرة في النبرة . وجرس الندم في آهة الألم . . . من ديار
مذحج . من منازل كندة . من ألوية الأنصار ، ورايات الأزد ، وخيام بجيلة

كلهم أسيف مغموم ، الرثاء خفقه القلب . والدمع طرفة العين . والأسى والحسرة
اختلاجة اللسان . . . فقيم مكثهم هنا على الرمل الجاف يمتص جلودهم بقية مياه
الحياة ويعتصرها قطرة قطرة ، ثم يدعهم لقي ضائعا تنتهبه السباع والعقبان ؟ . .
لموتة على الضفة هناك ، عند حد الأفق ، ييلها الدم أشرف وخير . . . إن
يكن الصدى يحفهم ، ويشف منهم الحلوq والألسن ، وينش أجوافهم بحرقه .
فالقنا الآن في أكنهم ظماء . . . إنهم ليرجون مناجزة . يحنون إلى قتال .
يشنفون لو انطلقت بهم إلى الغاية القدم والظلف والحافر تحمل النصال الحديدية ،
والمزائم الصليبية الشديدة إلى هذا السور الذي حمى الفرات دونهم كالحرم ،
تال منه ، وتشفر فيه ، وتخط على جدرانها الحية — بأحرف حمراء — عقي
أخدوة . . .

ورن في الفضاء ، تحت هدأة الليل الساكن صوت وجيمة ولوم ودعوة :
« فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاء النجف . . . »
من ديار مذحج انطلق النداء . من قوم الأشتر . من بين الفئة الذين عاج
صاحبهم بالارتداد عن مواقع الماء إلى القفر حين تبين الخور في جنوده يذهب
اللب ، ويأاة كل القلب ، ويهد عزيمة الأبى المصابر . . . فكيف اليوم أمنهم ؟ . .
كيف هجرة لم كانت في الله ؟ . .

وهمس الإمام ، مع رجمة الصدى الحزينة ، بسمع رفيقه :

« ألم تغلبني على رأي ، أنت والأشعث ؟ . فدونا كما . . . »

فارتج الأشتر . . .

ولو كان يسهه الفرار من هذه الملامة الساخرة ، كما وسعه أمس التفهقر ،
لبذل من عمره سلحة ليهرب من النبرة الزارية . . . ولكنه يصبر على هذا
اللوم ، ويثبت له ، ثم ينضى الجبين وهو يقبل على نفسه يحاسبها وإنه لحزبان . .
فلقد غلبه . بلى غلبه وهو حينذاك مغلوب على ركوب ما يكره ، ويكره الإمام
منه . . . غير أنه لم يتحرد . حاشاه ! ما كان ليعصى أمير المؤمنين في أمر أمره وإن
علم الطاعة ستقتضيه أجله وتبترزه الحياة . إنما هذه الظروف التي ألت به ، قد جرت
بخطوه ، على غير رغبة منه ، وفي حين غفلة ، إلى وجهة ظن فيها السلامة . . .

كان قد حاز نصرا مرموقا في حساب الاعتبار الحربي وطهر الأرض أمام القوة الرئيسية لجيش الإمام عندما دق شراذم أبي الأعور السلى ودفع بها مهرولة إلى ما وراء قنسرين ، لكن الفتنة لم تطعمه ثمرة نصره ، ولم تمل له في البقاء بالموقع الجديد إلا زهاء ليلة طلع صبحها ومعاوية يدب في فيالقه على الطريق . فعندئذ لزمه التدبر ، وغدا حقا عليه أن يستعصر في تقديره طاقة جنده وجهده . . إن هو بقي حيث أقام ثم ثار به خور أمحايه تقسمه وإياهم آلاف ، وشردت بهم أجمعين مخاوفهم الموهومة . وإن هو ظهر على تخاذلهم . فصبر وثبتوا معه بوقوفهم وقعوا إذن بين مثل الرحى الطاحنة من جحافل الشام : مقدمتهم التي تراجعت أمس فرارة ، وحشودهم المقبلة اليوم تزحف نحوها زحفها السريع . فلقد سبق معاوية جيش الإمام عند صفين ، ونزل منزلا وسطا بينه وبين الأشتر ، يشطرهما ، ويتر المقدمة الظافرة عن جيشها المتخلف حتى لتوشك أن تغدو بمنزل هي فيه فريسة مفلولة الحيلة ، مفلولة الوسيلة ، حيال جمعه الوفير ذى الحول التام على المصنف بكل دفاع ، والبدء بأى هجوم .

هذا الوضع الذى أصبحت فيه فرقة الأشتر هو الذى أمل على قائدها حركة التقهقر على غير رغبة الإمام . ومع ذلك فلم تكن بالحركة اللازمة التى لا حيلة دونها لختال ، ولا محيص عنها في ضرورات فن القتال غيرها كفيل بالغلبة . ونهبها سرف من الأشتر في التطير والحذر ، وفي التماس مسارب الفرار والنجاة حينما يجدر الصبر الضمين بالظفر . ولئن كانت الظواهر البادية حتمتها مرة ، فخكمة الحرب حرية بأن تنكرها مرات . فالواقع المهجور جدار يحتمى به الجيش ويمنعه أن يلتف حوله عدوه من سيل مأمّن . وهو مشرب الجند والدواب . وهو معبر الزاد والمدد والعتاد . وهو منفذ الرجعة . وهو بعد هذا كله شق رحى يرهب هذه الفياق السكيفة العادية ، التى قدر عليها أن يسلمها زحفها السريع إلى الوقوع فيها يشبه الكمين ، بين معسكر الإمام عند صفين ، وبين الشقة الممتدة إلى الشمال من الرقة ، إلى سور الروم ، إلى قنسرين التى سيطرت عليها المقدمات المنصورة . . .

كانت خطة لاشك مكفولة لها عناصر النجاح لو أحسن العمل على نسقها ،

واستمسك الأشتر وأصحابه بالتزامها ، والصبر جهدهم على بلوغ حدها المقدر وما ينبیح هنا الادعاء بأنها اختطت من قبل أو رسمها على قبيل مخرجه أو إبان مسيره إلى الشام قبل نزوله منزله المعلوم . ولكنها انبثقت له ، فيما يبدو ، عندما قرب به وبغريته القرار . وهي ثم عن بديهة فيه لمحة ، وتبصر بالأمور غير منكور ، نراه من خلالها على خير ما يجب أن يكون قائد ماهر ، ومحارب قادر مداور ، يستطيع أن يفيد من جماع الظروف والغير والمفاجآت التي تجد — دون توقع — على حلبة القتال . . . فلقد كانت مجموعة جيوشه ، قبل الانسحاب ، تستند بظهرها إلى الفرات ، وتؤلف في انتشارها من معبر الرقة مثل القوس ، طرفها البعيد في قنسرين ، وطرفها القريب عند صفين . وكانت فيالق معاوية المبتورة المقدمات ، في موقع وسط بطن القوس ، مخوفة بالعدو من جهاتها الثلاث . حتى لرسم حولها حشود العراق والحجاز مثل منجل الحصاد . . . منى الشرق والشمال والجنوب حصرها على وأغلق عليها المسالك . لامنفلها إلى النهر ، إلا أن تقتحم دونه الشقة على كتاب زياد وشريح ، المنبثة على طول مجراه ، والمتخذة لها قاعدة حربية في سور الروم . ولامهرب لها صوب حلب ، إن أرادت الاتصال في مشارفها بفرقة أبي الأعور المبتورة ، لأن الأشتر كان يسيطر على منفذ المدينة . وحتى إذا وسعها التسلل إلى شريعة الماء شرق صفين من الفضاء الواقع بين معسكر على ومراكز مقدماته ، فسوف تجابه حينذاك فرقا أخرى من كتاب الإمام ، قد خلفها خلفه على أهبة ، عند المعبر ، لتؤمن خطوطه ، وتكون ردها يدفع عنه أيما هجوم مفاجيء قد يشنه عدوه ذات يوم ، فيقطع صلته بالعراق . . .

لم يكن إذن معاوية من خلاص ، إن هو آثر الفرار من مأزقه ، إلا فتحة عند المغرب ، تسلم جنده إلى البادية — اجتيازها تحقيق بأن يوقع جيشه في هلكة ، أو يقوده إلى ضياع فما مغامرة بانقلات من ثغرة يترصد له الخطر على كلا جانبيها ، خيرها قنال وشرها وبال وسوء مآل ، وعقباها هزيمة أو استسلام على أية حال ؟ . . . ليوشك أن يقبدي له مصيره الرهيب وهو حينئذ يستقره الضنك فلا تطالعه من قناعة الأفق إشماعه سلامة . . . الحلقة عليه محكة . الإمام

عن يساره ، والأشتر عن يمينه ، والحائط المسلح على الفرات من وراء ظهره
تصب كلها الويل ، وترميه بالموت والمصارع حين يجنح إلى المشاقة أو إلى الانسحاب
أم يحسب غريمه عند ذاك تاركه يحوز الثغرة فلا يسدها ، ولا يهزم منجل
الخصم ؟ . . .

هو في شرك . غدا العنف لا يجديه ، فالحلاك والمغامرة سواء ، وشق الطريق
عنوة قضاء عليه بالفناء . . . هذه محنة . أحبولة لا يبرحها إلا بالحيلة . وعندما
تطبق عليه الأمور ، وتشبك خيوطها ، وتضيق رحبة الفضاء ، فالإقدام نائلة ،
والإحجام هو الفرض ، والسلامة الغاية . . . إنه فيما علمنا أريب ، وفيما يحسب
على دهاء . . . وله أسوة في الفحص اللدن الذي يثنى إذا عصفت الريح . . .

لهذه الساعة كان يرنو الإمام وهو عندئذ يستقره قرب صفين يبعث الرسول
بعد الرسول ليحمل الأشتر على الثبات . فقد خايله النصر . وشم رائحة القهر
تنطلق من لدن معاوية وهو كالثعلب في حباله الصياد ، إنه صبر ساعة ، أو سويقات
أو بضمة أيام تعدها الأصابع إن امتد بصاحب الشام أجل كفاحه ولم يعل من أول
لحظة إلى المبادرة للنجاة عن طريق التسليم . وما كان ليستمسك حينذاك بمناد
يورثه هلاكاً لا مرء فيه ، تجمعت فوقه غيومه ، وقطر قطره فأذر بوبل هطال
ما كان ليلوى جيده كما هو الآن يلويه ، ولا ليعقص قرنه ، ويتفخ بخره نفخة المدل
الفرير . ولكنه كان حرياً بأن يروض من شماس نفسه . ويعلك من جماعها قيدع
أحلامه وأوهامه ، ويعيل إلى الوادعة ، ويقبل وهو كظيم بهادن الإمام فيرتفع
الدم ، ويخمد الخصام ، وتنعكس كلمة الإسلام . . .

غير أنها فرصة ولت . ذهب أوانها فلا معاد . وعندما أدرك القوم قدرها ،
وأبصروا مزاياها ، كانوا كالصائد ، أفلت الطير وفرغت الشراك . . . فلقد قضى
عليها الخور ، وتقهقر الأشتر ، وانساب الأشعث على آثاره حتى أصبح الجيش
وهو فصائل مقطعة ، ووحدات بلا عصابة . ولولا أن يادر على فصده ملياً بمن معه
ليلتقى بالخالفين ، لما استوت صفوفه ، ولبقيت جموعها بقضها وحشدها تهددها
هذه الثغرات التي خلفها بينها الاضطراب وفتحتها فوضى الانسحاب . . .

وأقبل الأضمت يحدث الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، أينعنا القوم ماء الفرات ، وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ ..
خل عنا وعن القوم ، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . . . »

وضح له الآن خطل ما أعان عليه ، وعقبى خلافة ، والنتيجة التي أسلمته
العوبة في يدى معاوية ، لو شاء عابث ، ولو شاء حطم وهو حينذاك غير مدافع
ولا مردود . . .

وعاود حديثه ثانية . هذه المرة لم ينكر الوزر الذي بشه في طريق الانتصار
المضيق كغرسه الشوك والمواسج تحت أقدام طمل غريب :
« . . . سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك . . . »
ولم ينم على وعده . . .

الموت الآن هو مجاز الحياة : الفداء ، والبذل ، وإنكار الذات . إنه امرؤ
جسور . لا تعوزه الشجاعة ، ولا يتردد اللحظة الواحدة في التقدم ورأسه على يمينه
إلى اقتحام الأهوال . . . ليس بخوار . ما هو الذي يفرق أو تهتز تحته أو صاله
إن حمى البأس ولاح الحين ، وامتلأت المعجاج والمفاوز عليه بالمصارع . فالسلاح
ملهاته ، والحرب رياسته ، وهذه الحياة البدوية التي عاشها عمره الطويل زودته
بزاد من الخشونة ، والجلد ، والحية راص نفسه على الكفاح . . .

وعضى يؤذن الناس بالتأهب للصراع المقدر :

« من كان يريد الماء ، أو الموت ، فليعاده الصبح ! . فإني ناهض إلى الماء . . . »
ثم ينثنى إلى أهله يقوى فيهم اللحم ويشد المزائم :

« يا معشر كندة . . . لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني . إنما أقارع بكم
أهل الشام . . . »

حتى في هذا الوطن ، لا يذسى الرجل تلسم الخيلاء التي أفعمت فؤاده ،
ووضعت وقيله ، في عيني نفسه على رءوس غيرهم من المعاشر عندما يشين اللقاء ،
وتدعو الدواعى إلى الصبر في البلاء . . . فلقد علم أنه ليس وحده المناهض
في حرب ، الناهد اليوم إلى مناجزة عدو مدل بأقداره ، مترصد لهم على شريعة
الماء . . . ليس وحده السائر إلى الختوف الرواصد ، والنايا الحواصد . فحين

رفع صوته بالنداء يدعو الناس للأهبة ، كان موقناً غاية اليقين أنه غير مغن
فتيلاً في الوقعة المرقوبة ، إلى أن يعينه عليها معين ، ورفيق جهاد ، وعدة أجناد :
فوارس على خيول كأنها الأعاصير ، تنطلق أمامه فتحشى على وجار خصمه العنيد
بالدمار . . .

يقول حينذاك للإمام ، يستأذنه ويستمدده المعونة :
« يا أمير المؤمنين . . . أنا أ كفيك . قرر الأشر فليعل بخيله فيقف
حيث تأمره . . . »
فيجيئه الإذن :
« ذاك إليكم . . . »

لكنه امرؤ فخور ! . . . يود لو يتعلق به الفضل حين يأزف الفصل ،
وتنتهى إليه الأسباب عندما يشرق النصر ، بعد التقاء النصال والحراب ، وتقضب
الجدوع والرقاب . . . إنه محتال ، ذو سرف في كبره وخيلائه . مزهو ، له غلو
في علوه وازدهائه . ولقد يأنف الموبقة ، ولقد يأنى السقطة ، ولقد يأنى
المكرمات . ولكنه في فعله ، يكاد لا يصدر عن سليقة مستقيمة أو طبيعة سخية
كريمة : بل بقية من نخوة الجاهلية أو حمية البداوة هي التي تسدد خطاه . . .
السيرة المستطيرة ، والذكر ، والأحدوث مأمولة . . . أن يلغظ باسمه الساحر .
أن يتحدث الندى . أن يبديت ثم يصبح وهو مذاق الشفاء ورواية الرواة . . .
ودعه ينطلق في الحومة ، يهجم ويكر ، ويندو على شلو ويروح على شلو ،
وتتصنف أمامه المقاتلة كالأعواد — أيما محنة جازها ، وأيما خطر دهم ، وأيما
بلايا وأرزاء لا تذهله لحظة عن الوفاء لنفسه وجنسه وإن ندى ، في كلا الأمن
والغمة ، الوفاء لمن حق له عليه الوفاء . . .

. . . يرى الأشر يبلى بخير ما يؤمل من مثله ، ويضرب بسيفه جموعاً تتدفق
عليه كالطوفان حتى يكشفها عن الماء ، فلا تهزه هذه الشجاعة النادرة بالرضا
بقدر ما تزلزله بالغيرة ، فيصرخ هاتفا بمحامل لوائه :
« لله أنت ! . . . ايس النخع بخير من كندة . قدم لواءك . فإن الحظ لمن
سبق . . . »

... ويلتقي بمعمرو بن العاص قبيل التعام الأسنة ، فيزجره ، ويخوفه أنفة
قومه البدو الأباة ذوى النخوة :

« ويحك يا عمرو ! .. أترانا نخليك والماء ؟ .. تربت يداك وفمك ! ..
أما علمت أنا معشر عرب — لقد رمت أمرا عظيما ! .. »

.. : وتدور دائرة الواقعة فى النهاية على البغاة ، فلا يرى النصر ، الذى أسهم
هو فيه بحظ وافر ، كفاء لبعض حق وليه أمير المؤمنين ، ولا لبنة فى بناء الهدف
العظيم الذى أفبلوا من أجله ... إنه ليبدو على ريبة كمن لا يدري ما هى الغاية ،
وفيم القدوم . أو لا ، فإيمانه بحق على — أن يكن آمن به — تسليم ، وولاؤه لثله
ونواياه ولاء مريض سقيم ... يقوم غب انجلاء الواقعة عن الظفر :

« ... والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة ! .. ولكن ممي من هو
أقدم ممي فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة ... »

ولكنه امرؤ — كما رأينا — غفور . هدفه السيرة المستطيرة ، وتذاكر
السمار ، ورواية الرواة . وحافزه الغيرة ، والحمية ... حتى عندما انتدب نفسه
للقتال على الماء ، لم يكن الندم ما دفعه ، ولا شموه بخطأ ارتداده ، ولا الرغبة
الخالصة فى مظاهر غاية الإمام . إنما تحركت نفسه بزهوها وكبرها وتلك الخيلاء
حينما سمع من دياره هاتفا يحثه على حمل السيف ، ويدعو للنجدة ، ويشير فيه
مكامن الفرور :

لئن لم يحل الأشعث اليوم كربة	من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء القرات بسيفه	فهبنا أناسا قبيل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ،	وتلقى التى فيها عليك التشتت
فمن ذا الذى تثنى الخناصر باسمه	سواك ، ومن هذا إليه التلفت ؟ »

٦

وقف الأشتر بين فرسانه ، على فرس له أشرف ، محذوف ، أدهم كلك الغراب ،
يرنو إليهم بعين ، وإلى الفرات البعيد بعين . ثم أقبل يحثهم ويحرضهم ، وقد حان
وقت اللقاء :

« فدتكم نفسى . . . شدوا شدة المخرج الراجى الفرج . فإذا نالكم الرماح
فالتوا فيها ، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون
الرأس . . . »

وهتف الأشعث بن قيس ب رجاله :

« بأبى أتم وأمى . : تقدموا قاب رعى هذا . . . »

وراح يلقي برعته ويتبعه ، والقوم على آثاره ، سيوفهم على عواتقهم ، والحمية
تلتمع بثل ومضة الغضب فى لحظ الأعين . . .

تقدم الرجالان للحومة وما فى الحاطر إلا العنف والقتال والشهادة . كل جهد
بذلاء للإبقاء على السلم عبث ، وكل سبيل فتحاء للموادعة على الماء دون لقاء ، سده
معاوية وصحبه . . . اليوم لا مهادة . لا فرجة لصلح وإن يكن هذا الماء غير
ما اختلفوا فيه ، وقدموا له ، وتذرع العسكران بالصبر والسلاح والجموع الكثيفة
لبلوغ مداه . . .

فى غمرة هذه المحنة التى طوقت بعلى ، وأحاق شرها بأجناده ، نسى صاحب
الشام والذين معه تلك الذريعة التى اتخذها لجيشهم راية ، ورفعوا على رؤوسهم
ديباجتها المصبغة بلون الدماء . نسوا ثأر عثمان الذى احتجوا به ، وجاءوا فيه ،
وحركوا القلوب والألسن لتقيم عمرها على اللغط به وترديده . إنما أمس لفقوا
الحجة ليبلغوا من الدنيا جاهها وسطوتها ، فأتتهم اليوم فرصة خير من حجة ،
وسانحة دونها كل ذريعة ، إذا أرادوا التوصل إلى هدفهم بالسبل الموطأة دون
الأسباب المصنوعة . . .

الآن لم تعد لهم إلى التعلات حاجة . . . بلغ طموحهم مأمنه ، غدوا على قيد
خطوة من هذا المجد الذى سبقوا إليه الزمان والقدرة والزاياء الخلقية التى يجب

أن تتوفر لكل طامع سلطان . القوة في ملاكهم . العدة أعدت والحشود حشدت . اليد الطولى يدم في موقف أصبح غريمهم فيه كمن شد وثاقه وكبلته الأغلال . فما لهم اليوم والمطل ، وقد كان اللطل أمس مركبهم حين كان البدار حريا بأن يقودهم للدمار . . .

بل يبادرون لحظتهم هذه إلى اهتبال الفرصة التي لم تجدهم بعثها الأيام ، ولم تنهأهم بصنوها أضغاث الأحلام . فلقد مات الآن عثمان في خواطرهم فلا تفكير فيه . ومات أيضا تأره فلا حديث عنه ولا محاجة ولا ادعاء . ومات كذلك كل جدال كانوا يزعمونه وسيلة فيهم إلى الجماعة ، والدخول في رحبة الإمام ، ونبد الانقسام .

لم يدع منهم داعية بدعواهم القديمة : أن ينال قتلة الخليفة الشيخ الجزاء ، أو يسلمهم على عن يد وهو صاغر لسيد الشام ، أو ترجع الأمور شوري في الناس فيؤمر للأمن يشاء . . . كلا ، فما هذه كلها — الساعة — مطلب . لا أرب لهم فيها . لا غاية يأمنون أن يبلغوها من ورائها ، وهي تملات ، كهذه الغاية المؤكدة المضمونة التي خايلت عيونهم ، وخالجت ألبابهم ، وأوشكت أن تطولها أكفهم ، وهم بموقفهم الحريز المنيع على ضفة الفرات . . .

ويهتف الأشتر بابن العاص وقد توافقا عن كذب ، يتهيان للنزال :
« . . . يا ابن العاص والله لقد نزلنا هذه الفرضة والناس تريد القتال على البصائر والدين . وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية . . . »

أجل حمية . فلغير الهدف الذي أقبلوا جميعا ، من هنا ومن هناك ، من أجله يقاتلون . . . لغير الاحتجاج بدم عثمان . لغير شق الطاعة على جماعة الإسلام . لغير الوحدة المشدودة . إنما انتهز رعيمهم ابن أبي سفيان ، هذا الموقف الضنك الذي أصبح فيه خصمه ، فهزه سلاحا باترا ليفتح به ثغرة تنفذ من خلالها مآربه ، فيسقط دولة ، ويقيم دولة على أنقاضها لنفسه طالما غازلت فيه عرائس الخيال . وينادي الأشعث حينما يقارب القوم ، وهو يحسر لهم عن رأسه ليروا شعته فيعرفوه :

« أنا الأشعث بن قيس . . . خلوا عن الماء . . . »

فيبادره أبو الأعور :

« أما والله لا ، حق تأخذنا وإياكم السيوف »

« قد والله أظنها دنت منا . . . »

وبمثلها أجابه عمرو :

« والله لا نخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينما اليوم أصبر . . . »

وعلم ربهم صبرهم ، بل خورهم ، ذلك اليوم على النهر . . . فما أن بلغ عنهم

غايته ، وأبوا المشرب على عدوهم ، وحسبوا موقعهم الحصين مانعهم ، حتى أرسل
الأشعث إلى صاحبه :

« أقعم الخيل . . . »

عندئذ انطلق الأشتر بفرسانه كأنهم مرده أطلقوا من عقال طال فيه احتباسهم

منذ عهد سليمان ! جاءهم الفرج بعد ضيق . تنسموا الحرية في ربح الموت .

وما الموت ، وهم يرونه اليوم في الوثوب ، كما رأوه في التقاعد ؟ . . . وما غاية حياة

يحفها الضيم ، ويحدها الحسف ، وتباعدها الكرامة ؟ . وفيهم ذلتهم الآن لدليل ،

رقيق طليق ، استرقه أمس كفره حتى حطم محمد هبل والعزى ومناة ، وغيرها

من مسوخ مؤلمة ، فأكره حينذاك وأبوه وأهله على الخلاص من قيود الضلالة ،

وشرك الشرك ، وأغلال الجهالة العمياء ؟ . . .

لود الأشتر لو تعبد له طريق الاستشهاد ، أثناء هذا الصراع ، عسى أن تغسل

دماؤه حوبته ، وتمحو خطاه عند ما خالف الإمام . . . لكن أجله أمهله .

لم ينؤبته . ظل ثابتا تحت كفره لأدمم الأسهم ، يقفز به على مهاوى الردى ،

ويحمل معه من غبارها الفاتك ، الذي يتناثر من حوافر جواده ، ما يبثه على

ردوس مناوئيه . . . بقية الأجل كانت درعه ، وذلك الفرس الكريم المنطلق به

في النهار كقطعة من الليل كان مركبه . والإيمان في فؤاده هو الذي كان يحمل

ويشد ويقصف بمن عارضوه من صفوف المقاتلة ، فيجرعهم الحمام في الخوف قبل

أن يذوقوه في قذفة الرمح وضربة السيف . . . كان شيطانا على شيطان . . .

وكان جواده نذير شؤم للذين يستقبلونه ، إن ثبتوا عصف ، وإن التوا عن مهبه

انعطف كأنما حينهم كان يشده إليها بخيط موصول . . . هو كاللوت ، له سواده

ولونه الحزين ، وله رهبته ، وعلى ديب خييه ، وركضه ، وكانت تتراقص

أبالسة المنايا المنهومة . . .

ومضى يحمل الشكل واليتم والفواجع . . . يقط ويقطد الأجسام والهام وسيفه
غير ناب في كفه ، وفرسه الحالك بلون الغراب ، كغراب ، أو عقاب ، يطير به
فوق نصال السيوف وأسنة الحرب . . . في البدء كانت الخاصة أهدافه . الفوارس
الأجناد . الأبطال الذين سرت لهم سيرة في الشام يحل مثلها عن شطحة الأساطير . .
فما أن عثر بابل فيروز ، صاحب البأس فيهم ، وسمه يرتجز وهو يناديه :
« يا صاحب الطرف الحصان الأدم . . . أقدم . . . » حتى أقدم يلبيه ، ودم ،
فلم يدعه إلا شقين ، قد فلق ظهره برمحه ، وبعت بروحه وذكره على للسواء ،
إلى حيث لا معاد في خاطر مقتون . . .

ثم قفى بدمه بغيره : فئة كثيرة لها بلاء وبسالة ، من الفرسان الأشدة
الأعلام ، فيهم زامل حامل اللواء ، وفيهم مالك بن أدم فارس الشام ، وفيهم
الأجلك الذي عدوه فيمن ذكرت العرب من أبطالها القساورة . لكنهم تخطفتهم
عينه ، وكان الموت يتأرجح فوقهم وفوقه حتى ليوشك أن ينثني عنهم إليه ، ثم
يميل صوبهم دونه ، كأنما اجتلى فيه رهبة تروده وتفسر شبحه على القرار ؟ . . .
شد عليه ابن أدم وهما راكبان حتى غشيه ، وظن الناس أنه قاتله . فلما
اندفع نحوه الرمح مال عنه إلى بطن فرسه فرى عور . وأخطأته الضربة بعثل
شعرة ، وغريته حينذاك مبهوت . . . وإن هي إلا لحظة حتى التوى ، ثم استوى ،
ثم ثبت على ظهر أدمه ، وهو يصيح كالساخر :
« خانك رمح لم يكن خوانا . . . »

وعاجله ، فجندله . . .

وانبرى له زامل يود لو أصابه بأصحابه الصرعى ، فينال ثأر قومه فيه . يعشى
إليه على حذر ، على جواد مدرب أصيل . ويلقى إليه كل عينه ، وكل ذهنه .
ويتربص به غرة يجوزها إليه القضاء . . . فلما أسرع ما احتبست الانفاس ،
والنواظر عند ذاك عاتقة بجسد الأشتر قد أطاحت به الطعنة الصارعة بين القوائم
السود . . .

ولكن قبره لم يكن هناك . . . درأ الطعنة درعه . انثنى عنه رداه . . .
وقبل أن تطرف عين ، هز سيفه مرة وهو راجل فقط قوائم جواد خصمه ،
ثم هزه أخرى فإذا زامل صريع . . .

ولم يكن للأجلح عنده نصيب يفضل مصاب صاحبيه ، وإن أصاب ذكرا في موته سطرته الدامع ، ورددته المجامع ، وسار في الناس مثلا يعز شبيهه في الوفاء . . . فلقد ضاقت أخته بعده بدنياها ، وأكلها الحزن ، وبرى البكاء عينها إذ غدا لها دمعها المزاء ، وحزنها الشراب والغذاء ! . إنها لا تنساء . لا تطيق أن تصير نفسها على الفجعة فيه . لاتفى الليلة بعد الليلة ، والنهار بعد النهار ، تربيته بذوب الروح ومن شؤون الفؤاد حتى قضت حسرة عليه . . .

ويسمع الإمام ذات يوم من رثائها الحزين :

« ألا فابكي أبا ثقة فقد والله أبكىنا

أنا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا

كريم ما جد الجدي بن يشفى من أعادينا . . . »

فلا ينضح لها بغير التوجع لـنـكبتـها ، والأسى عليها . حتى إذا بلغ الرواية من نظيمها :

« شفانا الله من أهل العراق فقد أبادونا . . . »

دار بوجهه في أصحابه يهون عليهم من دعوتها ، ثم رفعه إلى السماء :

« أما إنهن ليس يملكن ما رأيتم من الجزع . أما إنهم قد أضروا بنسائهم

فتركوهن أيام حزانى بائسات ، من قبل ابن آكلة الأكباد . . . اللهم حملة آثاءهم وأوزارهم ، وأثقالا مع أثقالهم ؟ . . . »

وكم تركوا اليوم وراءهم من أيام ويتامى — أولئك الذين أبوا إلا أن

يشعلوها فتنة كنار الجعيم اصطلوا حرها من أجل جاء الحياة . . . طاش عن

الهدى صوابهم ، وصل فيها حسابهم ولم يجدهم الأمل للأمول . ولا عتوم

بما امتلكوا اليوم من بأس الحرب ومنعة الموقع قد أغنى عنهم ، إنما غدوا وقودا

للنار ، تمتد لها السنة نقادة تتخير منهم الجياد ، وتأكل الفوارس ، وتحرق

لأبطال لأجلاء . . . الأشر يضرب ويصرع ، والأشعث يضرب ويصرع .

والمنجل يحصد والرحى تدور . . .

ولا يطول صبر ولا كرم . بل هي حملة ثم أختها يخلص بها القائدان من خاصة

خصمهم إلى جمهوره . فإذا الأول بفرسانه يشد في ناحية ، وإذا الآخر برجله

يشد في أخرى . فما يشور النقع حتى تنهاوى صفوف العدو المدل وتفتل ، وتنفرج

عن زعيمها الذي حسب زمانه آتية الساعة بالمجد والنصر والوصول إلى أسارى
أذلاء يرغبون الجلاء في تراب قدميه . . .

وعندما بانتهز الفرصة لمعاوية ، وتنازلت أمام عينيه سوداء مغبرة ، كهذا الأدهم
الذي أركضه إليه الأشر فوق هام عصيته ، لم ير صاحب الشام في الصبر نجاء ...
إنما مال عن موقعه ، ولاذ عن خصمه بالقرار ينحاز بقومه ثلاثة فراسخ ، ثم
ينأى ، ثم يعمى وسمعه عسى المكيدة في غد تنيله ما لم ينل بسيفه . . .

وبعث إلى البقية من أصحابه التي استمسكت بالدفاع :

« لا تقاتلوا ... خلوا بينهم وبينه ... » .

وهل كان ثمة مجال لقتال ؟ . . بل المجال كله وسيع فحسب لمن يؤثر الحياة
في ضيم ، ويلتقط أجله وهو مبصر على الأديم الندي بالدم ، بين تثار الأبدان
ومزق الأجساد ثم لا يكاد . . . فلقد ظفر من باع نفسه لله ، وخسر من باع
حظه من آخرته بشهوة الحياة . علا الحق فهو سماء ، وزهق الباطل فهو جفاء ...

وعندما غمست خيل على منابكها في مياه الفرات . وفر معاوية وجنوده
مقهورين بلاذهم البعيد الجديد ، انفلت إليه صاحبه عمرو ، على ثغره مع قتره
القهر بسمة صفراء ساخرة :

« يا معاوية . . . ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم ، كما منعهم أمس .

أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ؟ . . . » .

فأشاح عنه وهو يهمس عن كمد وغيظ :

« دع عنك ما مضى منه . . . » .

ثم ألقى بعينه إلى الماء ، تسبح هناك هنية بين الحشود المظفرة ، إلى غاية
نظره ومداه . إلى مناط فكره . إلى الدخيلة الصافية للإمام ، والطبيعة النقية
الكريمة . . . فإن هي إلا برهة تقضت عليه وهو يفكر ، ويقدر ، ويستخلص
عواقب الأمور حق شاع الرضا على محياه . . .
وقال بعد هذا لصاحبه :

« ما ظنك بعلي يا ابن العاص ؟ . . . » .

فأجابه وقد حدس مرماه :

« على ؟ . . ظني أنه لا يستعمل منك ما استعملت منه . وأن الذي جاء

له غير الماء . . . »

V

طلع ذو الحجة بالأمل في سلم ترد عليهم جميعا الوحدة ، وتنزع من القلوب الغل ، وتدع الناس وهم على جادة سواء ، لا تلتوى الطرق بهم ولا تشعب المذاهب . بدت غرته كوضاء البدر في الليل ، كالجبين الأبلج ، كالشامة البيضاء في جبهة الأدهم . لها من إشراقة الرجاء شعاع . فيها أمن ، عليها طمأنينة ودعة . حق الذين نالت منهم الجراح ، وخضبهم الدم ، طابت نفوسهم بولده . . .

كلا الفتيين هدا منهم الروح . لاح قرارهم في بشار صباحه . . . الآن يتقسمون الأمان حاضرهم عليه سكينه ، غدم القابل مأمول ، يوشك ملائمتهم أن يتخيل فيه عروة غير مقصومة توثق بين الحزبين فتعيد الأمة ، كأسمها القريب ، مؤتلفة ، تجمع النازل الداني والنازح الغريب . . . وما لهم لا يأملون وشهرهم هذا يعلمهم الألفة ؟ . . . وهو موعد التواصي بالتعاضب ولأم الصدوع ، وهو موسم خير ، تهوى فيه أفئدة كل مسلم ومسلمة ، وعيونهم وأبدانهم ، إلى بقعة ذات أمن ويعن ، بأرض مكة قد طهرها الله ، وأقام فيها قواعد بيته الحرام بيد أبيهم إبراهيم . . .

ومضوا على صفاء . . . يومان كاملان مرا قبل هذه الغرة وهم إخوة ، نأت عنهم المواجد وخلفهم الأحقاد . المحنة التي باعدت بينهم ، ولوت زمانا بأجيادهم عن الوفاق ، وأرسلتهم يترامقون بالموت على مشافر الأسنة غدت الآن في ظل الغابر . توارى وجهها بعد وقعة الفرات كأنما أغرقنها إحدى لججه حين اقتحمه جند على بخيله ورجله وغمسوا فيه القائمة والساق . . . فلما أملى لهم أمير المؤمنين في الشماتة . ولا أعانهم على البطش . ولا أمكن لهم في الثأر من عدوه الذي منعه شربة الماء . . . وعندما جاءه الأشعث بن قيس ، وعليه رهج القتال ، يدل بالنصرة :

« أرضيتك يا أمير المؤمنين . . . قد غلب الله لك على الماء » .

قال للناس :

« خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكركم » .

فلما سمعهم يزأرون :

« لا والله لا نسقيهموه ! » .

أبي عليهم ما أرادوه :

« أيها الناس . . . إن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم . . . إن

الخطب أعظم من منع الماء . . . »

ثم بحث إلى معاوية يهدي جأشه ويبت في نواحي نفسه الأمان :

« إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأتم فيه سواء . . . » .

وكذلك شاء أن يخلص لمثله الكريهة ، وطبيعته النبيلة السمحة فلم يبادر خصمه بمثل عدوته ، ولم يسل عليه سيف الصدى الذي ابتزّه إياه . وكذلك اختلفت الروايا من الطائفتين إلى الشريعة ، والحيل والدواب ، ترد وتصدر على طمأنينة . . . يومان كاملان انقضا لم تهز كف رجحا ، ولم ينطلق من قرابه حسام . فلم يكن الخطب في الحقيقة شربة تبل عطش الظامى وتنقع غلة الصديان . بك هو خطب هذه الأمة التي جمعها في الزمان عهد ، وفرقها الآن عهد ، وأخذت تنوشها الأهواء الجامحة والمقاصد المفتونة بما ينذر بالندهور والانهار . . . إنه خطب الحرب . خطب الإسلام الذي توشك الحوادث الدامية أن تعصف بأعواده ، فتقصف فروعه الطرية النضر ، وتجتث جذوره الفتية الحضر ولا تشب بمد دوحته وتصلب على الأيام . . . فلقد أجلبت العرب : نصفها على نصفها . بأسها بينها شديد ، فقالها خاسر ومفلوحيها خاسر . . .

وأحضر الإمام بعض صحبه إليه :

« اثنوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل ، وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى

أمر الله تعالى . . . » .

كأنما نعى أن يرعى معاوية ربه ، في قومه وأمته — إن لم يرعه في دينه — قيادر وهو على شفا الويل حينذاك بإلقاء سلاحه ، ضنا بالدم ، وإبقاء على الناس . عسى أن يرشد من بعد غواية . عسى أن تعطفه الرحمة على عشيرته أن تناها للمصارح . عسى أن تستميله هذه الساحة والنبل والرفق من على بعد وقعة الفرات فيقابل إحسانه بإحسان . . .

وساءله منهم سائل :

و ألا نطمعه ، يا أمير المؤمنين ، في سلطان توليه إياه ، ومنزلة تكون بها له
أثرة عندك إن هو بايعك ؟ . . . » .

فأبى أن يرضخ له الرضاخ ، أو يساومه في الحق :

« اثنوه فآلقوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه . . . » .

فلم يجهم معاوية بجديد . إنما عنت وعناد وإصرار . يأتونه من آخرته
فينأى ويحميد ، من أطماعه فيسرف ويزيد ، كأن قد عقد النية على أمر ، ومضى
إلى غاية له على مزالق ، كالهوى مع جرف السيل ما تقدمه من ثبات . . .
قال له أحدهم :

« يا معاوية . إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . . . فأنشدك
بالله أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . . . » .

فأجاب كالمساخر :

« فهلا أوصيت صاحبك ؟ . . » .

« صاحبى أحق البرية في هذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة والإسلام
والقربة من رسول الله . . . وإني أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك
إلى ما يدعوك إليه من الحق — » .

« ويطل دم عثمان ؟ . . لا والرحمن لا أفعل . . . » .

وعندئذ انبرى له شيث بن ربعى . لم يطق أن يسمعه يلوك حجة مردودة
عليه ، هو يعلم وهو يلوكها أنها زيف ، ومنطق باطل ، ودعوى منقوضة . . .
« لا يخفى علينا يا معاوية ما تقرب وما تطلب . . . إنك لا تجد شيئا
تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت
لهم : (قتل إمامكم مظلوما فهللوا نطلب بدمه) . . . فاستجاب لك سفهاء
طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأجبت له القتل بهذه
المنزلة التى تطلب — ورب مبتع أمرا يحول الله دونه . . . والله لئن أخطأك
ما أرجو إنك لشر العرب حالا . ولئن أصبت ما تتعنأه لاتصيه حتى تستحق
صلى النار . . . » .

فجبهته صراحة شيث حتى أخرجته عن طوقه من هدوء الطباع ، فثار به
وبأسبابه :

« كذبت ولويت أيها الأعرابي الجلف الجاني ! ... انصرفوا من عندي ، فليس بيني وبينكم إلا السيف ... » .

ولم تكن هذه أول مرة ركب فيها معاوية عناده ، وأسرف سرفه في المشاقة حق تهديد وتوعد وأوشك أن يسيل الحسام في وجه دعوة السلام . ولم تكن هي الأخيرة ، فلقد سبقها كثير وتلاها كثير . ولكنه في كل مرة كان يعين في عنته وإن بدا هو أمام أناس كالساعي إلى الوحدة ، العامل على الوفاق ...

... كان همه ، إذ لعل في النفوس قداسة ، أن يشغل عنه قلوب القراء فلا يلوذ به لائذ منهم ، ولا يظاھره على ابن هند ظهير . لما أن ضاق خلافه بأبي الدرداء وأبي أمامة الباهلي ، وهما حينذاك عنده بالشام ، ووجدتهما يراجمانه : « يا معاوية . علام تقاتل هذا الرجل ؟ ... فوالله لو أقدم منك مسلماً ، وأحق بهذا الأمر ، وأقرب إلى النبي » .

لوى بهم :

« أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ... فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام ... » .

وفعل بالسادجين مكره ، وقد فانهما أن القصاص حق ولي الأمر في المسلمين وحده أو يضطرب حبل النظام . وما لمعاوية إذن والقود وهو فرد من الرعية ؟ . وفيه دخوله في هذا الأمر إلا أن وجدته مطية تحتمله إلى سواء ؟ ... وأين هذه الساعة دماء عثمان وهي هدر وكانت أمسها حرماً يوشك أن يستمضي على صارعيه لو سارع إليه معاوية بنصره حين عزت النصرة له إلا من الإمام ؟ ...

وخرج الرجلان يظلعان بهذه الحجة المفلوكة إلى صفوف على وفي ظنهما أن معيها سيثمر الوفاق . فكيف لقيتهما حينذاك الجموع ؟ ...

دخلا على أمير المؤمنين يسألانه مطلب يعتسف الشام ، فلم تغب عنه المكيدة المسترة ، والطلبية المستحيلة التي دونتها ندور الهام ؟ ... ولكنه أخذها معه إلى صفوفه ، ثم أشار :

« هم الذين ترون ... » .

فما أن جالا في القوم ، وسرى فيهم نبأ ما قدما فيه ، حتى انبرى لهما قرابة

عشرين ألفاً من المقاتلة مسربلين في الحديد ، لا يرى منهم سوى الحدق ،
يهتفون بمثل قصف الرعود :

« كلنا قتلة عثمان ! . . . » .

... .. وأخرى أيضاً . . .

أخرى من هذه الحيل التي تواترت تكشف لنا عن عنت معاوية ، واعتسافه
الذرائع والتعلات التي تدنيه من بلوغ أربه ثم تنثيه عن شبهة المشاقة والاعتساف !
إنه ها هنا ليبدو كمن يعيد للخواطر خرافة الذئب الذي اشتبهى الحمل فراح يتذرع
إلى افتراسه بمشق التلغيق وصوغ صنوف من الأسباب والمعاذير تخفي منه عنت
المتحيف وتظهر منه هيئة المنصف أو هو في الحق تلك القدوة التي
تأثرت خطاها الملتوية فيما بعد كافة الذئاب . . . تأتية من القراء ، مرة ، طائفة
ودت لو ترده عن عزمه ، وتميل به عن سبيل العناد الذي يوشك أن ينتهي
بالأمة الإسلامية إلى محنة حازبة مآلها إلى بوار ، فلا يكاد يشم منهم اللوم حتى
يمضي به طريقه الدائر : بحلقة من تعلاته تسلم من حجة إلى حجة ، ومن ذريعة
إلى ذريعة كلها مغتولة مصنوعة . . . فإذا صدموه ببيان ، أو جبهوه ببرهان ،
فمعين زعمه لا يغيض . . . :

يحيثهم بدعواه . ثم يقف بعدها على آثارها بسلسلة طويلة مبطله ، حلقة
حلقة . كلما راجعوه أنام المرة بمخئل جديد :

« أطلب بدم عثمان ، من على . . . هو قتله وآوى قاتليه . . . » .

« إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً . . . » .

« إن لم يكن فعل هذا فليمكننا من قتلة عثمان ، فإنهم في عسكره وجنده

وأصحابه وعضده . . . » .

« فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ؟ . . . » .

« الناس تبع المهاجرين والأنصار ؟ . . فما بال من ها هنا منهم لم يدخلوا

في هذا الأمر فبؤسوه . . . » .

علة وراء علة ، وذريعة وراء ذريعة تدنيه من بلوغ أربه ثم تنثيه عن شبهة

المشاقة والاعتساف . . ولكنها معاذير منقوضة ، وحجج منقوضة لا ثبات لها

أمام منطق الحوادث ، ولا في سبيل الحقائق الدافق الذي لا يحتاج لبرهان .
فما كان عثمان ضحية ثأر ، ولا صريع نقمة فردية نضعت بها نفس رجل من
الناس . ولكنه حاكم ضاقت بحكمه رعيته ، وملكها غضبها عليه حتى ثارت به
ثورة عامة انتظمت الكبير والصغير ، والخاصة والختالة ، والدأى والقاصى من
سكان المدينة إلى أهل الأمصار والأقاليم . . .

ويقول على للذين أرادوه على القصاص من أولئك الثوار وقد علومهم
يمدون بالألوف :

« تأول القوم عليه القرآن ، ووقعت الفرقة . وقتلوه في سلطانه وليس
على ضربهم قود . . . » .

ويراجعه من أذئاب معاوية من يقول :

« أتشهد أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . . » .

فلا يتوانى عن الجواب :

« إني لا أقول إنه قتل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . . . »

وقيل الفتنة كان يحذر عثمان :

« الناس إلى عدلك أخرج منهم إلى قتلك . . . »

فلما أساء فيهم السيرة وقتلوه ، طالعهم الإمام برأيه في القتل ، ورأيه

في القاتل ، بغير إخفاء :

« استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . . . » والله حكم واقع

في المستأثر والجازع . . . »

غير أن معاوية كان لا ينى ، كلما توطأت له مناهج المعارضة والخلاف ، يلوح

بهذه الراية الدامية أمام الأبصار ، عسى أن يلف رmqها إليه ، ويحتوى برقعنها

المصبغة غوافل العقول في أحضانه . . . فالناس عبيد الحمية . والعرب عامة أمة

يفتنها الثأر . والشام من بينهم درجت على طاعته ، وشبت تحت ظل سلطانه ،

فليس فيها من يقابله بغير التسليم برأيه والامتناع لأمره ونهيه . . . حتى في هذا

اليوم الذى طعم فيه وجنوده ذلة الهزيمة ، لم يراجع من قومه مراجع ، ولم يحملوه

أو يعظوه أن يلين جانبه فيسمع لدعوة الوفاق القى دعا بها الإمام .

وعندما أقبل الليل ، وغابت غرة الشهر الحرام في الظلمة ، كانت أمانى السلم قد توارت كذلك عن النفوس الراجية إلى وهدنة من اليأس بعيدة المهوى عميقة القاع . . .

ودخل عليه حينذاك ، والمساء يرسم ظلال غسقه على السحب البيض حمراء كالدم ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب . . . فما أن شهد الإمام يزلف إليه في مشية المعجب ، حق هتف به بما يهد كبريائه :

« أنت قاتل الهرمزان ! . . لقد كان أبوك فرض له الديوان وأدخله في الإسلام . . . »

فأسعف الفقى صلفه :

« الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان ! . . »

وعندئذ تبين الإمام عنت أخصامه ، وعزمهم الثابت الذى لن يلين ، فقال

للمفتون بصوته الوثيد الرزين :

« لا عليك . . . سيجمعنى وإياك الحرب غدا . . . »

وفى غد تسير العزائم ! . . .

٨

بدت صفين كالإهاب المرقش . بجلد الحية : به سواد وبياض . . . كانت رقعة من السلم خرقتها العنت ، أو ديباجة من الحرب خرقتها الأناة . . . كانت هدنة هفا إليها دائماً على ، وسعى سعيه لتسكون مجازة إلى سلام دائم يؤمن سرب أمته ، ويهبها الأمن والحياة . . .

لم تكن سلماً كالسلم . ولا هدنة كالهدنة . ولا حرباً كال حرب . إنما أخذت من أولئك كله بطرف حق ضاع وجهها بين ألناف هذه العوامل المضطربة الخطوط ، والمختلفة الظلال والألوان . فيها عداوة وفيها صفاء . فيها قرار وفيها دم . فيها رقبة للخير وفيها تربص بالأحيان . . . الحياة تصطرع آنا تذود عن مقوماتها فتغلب الموت . واللوت يصطرع آونة يدافع عن خرابه فيقهر الحياة .

وفي كل هذه الأثناء كان الناس في هم من رجاء يخطف مناه ، وقنوط يدهم سواده . على شبهة من يومهم ومن غدهم ، فلا يدرون أنومهم على طمأنينة أم إصباحهم على قتال . . .

على هذه الهيئة انطلقت الأيام . سلم ولا سلم ، وحرب ولا حرب ، كأنما أمانهم حلم حالم طالت الرقدة به فلم تنفتح عينه على حقائق الصباح . . . وكان الإمام دائماً حليف الحياة . وكان ابن هند دائماً حليف الموت ، يمدد بالزاد بعد الزاد من الوقيعة والعنت والعناد . ويلوى جيده عن الوحدة المنشودة إلا أن يفتكس عليه تقديره ، وتشتبك أسوره فيخفض حينذاك جناحه ساعة أو بعضها لدعوة الوفاق . إذا خيله الظفر تجبر ، وإذا لاحت الهزيمة صانع وخادع حتى بلغت من أنيابها بحيلة تدنيه في الأعين العاشية من الله ، وتبعد به عن الملامة . .

لكن المواجهة والمخادعة كليهما لم ينجيا القوم من قدر لازم حق عليهما قبل أن تتحرك بهم الأقدام . فالحق بين والباطل بين ، والمطل إن جاز مرة على الممتطول فإنها أناة ترث وتزول ، وفترة من الزمن لا تطول . وعند ما يفيض بالنفوس صبرها لا تمسكها حيلة . وعندما تطفح الكأس تسيل . ولقد اغط الناس : ضجت طائفة ، وشكت طائفة ، وهم يرون عدوهم أمامهم مدلا لاهيا لاتزعه دعوة ولا يناله حسام . الماذل تقبضه عيبة وتبسطه عيبة . والشاك تنشره ريبة وتطويه ريبة . والإمام بينهم غرض تقاذفه نثار الظنون التي حسبت صبره على غريره مرة شكا منه في لزوم القتال ، ومرة كراهة الموت . فلما أن نيا به اللعط ، وساءه الهمس السارى من الشفاء للمسامع . لم يعد له معدى عن مصارحتهم بخافية ما اختلفوا فيه :

« . . . أما قولكم : أكل ذلك كراهية الموت ؟ — فوالله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . . . وأما قولكم : شكا في أهل الشام — فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهدى بى وتعشو إلى ضوئى ، وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها . . . »

وقديما كان يقول مثل هذا القول ، ويسير على نهجه ، ولا ينى يتريث عسى الله أن يمد عدوه بالهداية ، ويجنبه غواية إبليس . وهو اليوم أيضا يصبر ليفسح لأمله . وهو في غد يطاول معاوية وما أبه بحوله وطوله ، ولا بخيله ورجله . . .

لقد كان إبان القتال الذي حمى من بعد يأسه ، وفارت سعره ، بحث أصحابه على الثبات أمام هبة الهلاك العاصفة ، ويهون عليهم الصير ، فيتلو لهم :
« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تتمون إلا قليلاً . . . »

وكان يهتف بالذين يثنون عندما تضيق عليهم حلقة الأُسنة يسرعون من فوجها إلى النجاة :

« ابن فراركم من الموت الذي ان تهجزوه إلى الحياة القى ان تبقى لكم . . . »
وكان ينطلق في الصفوف التريصة به - بين احتدام الوغى ونوران رهجه ، حاسراً بلا عصابة ، عاطلاً بلا درع . فإذا خاف صحبه عليه مغبة إقدامه ، ابتسم وقال بغير مبالاة :

« أبا الموت تخوفوني ؟ . . إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عني وأسلمتني . فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ السكلم . . . »
كلام لم ترده عن قتال أعدائه خشية الموت ، والموت على الحلائق لزام ، وعلى المؤمن صلاة وقيام . . إنما كان يستأنى بأهل العناد طاقة جهده واصطباره لعل أحلامهم تصيب من بعد جهالة ، أو تؤوب للهدى من ضلالة . فالتضية تضية الكافة . قضية الإسلام . لا معاوية ولا الإمام . وحين يتهياً للنجل ، ويهتز للحصاد ، لن يتخير من الثمار . . .

ومضت صفين . مضت على وجهها إلى غايتها في طريق أين من الأمن قد اعترضته صنوف كثيرة من صخر الحرب ، ومن حفر الموت ، ومن جداول الدم المسفوك . . عاشت من عمر الدنيا نحواً من مائة يوم ، ومن أجل القتل نحواً من تسعين وقعة . ولكنه قتال — في أعظم حالاته — كائن أدنى إلى المناوشة والغارة . لا حسم فيه ولا فصل ، ولا تجيش بالعدة كلها وبالعدد كله . إنما كان على يأمر الرجل من أصحابه ، فيخرج في جماعة من المقاتلة تاتي جماعة من عدوه ، فيقتتلان في اليوم مرة ، وفي اليوم مرتين ، ثم تؤوب كل فرقة إلى جيشها عند ما يغرب النهار . يخرج الأشر آونة ، ويخرج قيس آونة ، ويخرج غير هذا وذلك ، كل في يوم ، من أعوان الإمام الأتابة ، أبطال يناجزون من جنود معاوية النظائر الأمثال . . .

مناجزات أوشكت أن تكون فردية . حرب ولا حرب . صراع مائع
استغرق كل ذى الحجة كأعما خشي كلا الفريقين أن يتقدم بكل جمعه إلى القتال
مخافة الهلكة والاستئصال . فدعوة الصلح آسرة . والرجاء فى السلام لم يغض
معيه . ودعاة النوفيق من أهل الورع والقراء لا يزالون يحرثون النفوس
ليغرسوا السكينة — النية خالصة ، أو حسبها جلهم كذاك . . .

وحين أفبل المحرم ، أغمد السيف ، وجف الدم ، وانبرى اللسان والقلم . .
الشهر الحرام فاء بالناس الموادعة . حنهم آمنه على تلمس الأمن . دفعهم عرفه لطفى
الضغينة . . . فلما استهل الهلال جرت الرسل كرة أخرى تلوح براية السلم ،
وتعمل لحقن الدماء ومنع البلاء . . .

حتى معاوية بدا فى قومه كالساعى للوحدة . ما كان ليحجم ، والملا أوشكوا
أن يعقدوا الأمل على صلح لمح بريقه فى الخواطر ، وتجاوبت ببشره الأنفس حتى
خايل العيون النواظر . . إنه لم يرم وحدة ، ولم يجد لألفة ، ولم يتطلع إلى وثام
يجيئه على حساب أطماعه وأنقاض طموحه ومراميه . ولكنه شهد الناس قد
هفوا إلى الحياة الرخية فى ظلال الإخاء والطمانينة ، فشق عليه أن تذوب أحلامه
العريضة كما تذوب الظلال فى سطعة النور : وأن يخالف جمعهم فيكشفوه داعية
شقاق وعدو وفاق . لم تكن له حيلة إلا التظاهر بالسير فى غمار هذه الرغبات
التي انبثقت عينها من قلوب المجموع . . . وإنه ليفكر . وإنه ليدير أمره ويشحذ
حرصه وحذره فلا يعيبه أن يصطنع الوسيلة التي تبديه مسهما فى الهدف العام ،
ثم ندينه من أحلامه . . .

يبحث برسل إلى على ، ظاهر دعوتهم ألفة وخبيثها خلاف برددون عنده ثانية
ما أسلف به صاحبهم ، ويطلبون منه المحال ، وهم يعلمون أنه محال ؟ . .
يقول قائلهم :

« . . . إن عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله .
فاستقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه . . . فادفع إلينا قتلة
عثمان تقتلهم به . فإن قلت إنك لم تقتله ، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا
شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . . . »

فكم من ذريعة مصنوعة . وكم من حديث مثله معاد . . .
ويتلهب بينهم وبين الإمام النقاش . هم على إفسكهم ، وهو على حقه ،
لا ينصرفون شعرة عن عنادهم وغيبهم ، وإن أتاهم بالحجة الواضحة ، والبينة المسفرة
الوضيئة كإشراقه النهار . فما لهم من سبيل سوى خلافه ولا من غاية إلا نزعه
من حيث نصبه الناس وحق عند ما يحاول أن يشير فيهم عاطفة الولاء التي
يكنها كل مسلم غيرهم للرسول الكريم ، بعد أن غلفوا قلوبهم عن براهينه ،
بيدون كأنهم في غير واديه . أفندتهم صخر . آذانهم بها وقر . أبصارهم عليها
غشاء . . . لا يكادون يفقهون قوله أو تهزم دعوته وهو يعظمهم وينشدهم الله :
« ... عجبتا لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم
الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس ...
إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيكم ، وإمارة الباطل ، وإحياء معالم
الدين . . . أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ، ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم
ومسلمة » .

غير أنها دعوة إن أقيت اليوم منهم الصمم وهي وسيلة إلى رآب الصدع ،
فسوف تكون في غد صرختهم وهي وسيلة لبذر الفتنة فالله ليس غايتهم :
لكنه — علا وجل — سيلاحون باسمه راية لهم قد لونوا أديعها النقي بالبهتان .
وعندما يضطرب أمرهم بينهم ، ويأكلهم الوهن ، وتستشري في صفوفهم حريق
الهرطقة ، سيحملون الكتاب ، ويهتفون بالله ، ويتنادى شياطينهم بدعوة حق
سخروها لباطل ، ولوثوا وجهها بالضلال .

وكذلك تظاهر معاوية بالرغبة الجادة في تلمس وسائل الوثام والسلام وهو
ينفخ غير وان في نيران الفتنة ويعمل جاهدا للانقسام وما كانت رسله
إلا غشاوة تخفي غرضه عن نظرة الغافل ، وفهم الجاهل ، وإدراك الفتنة للفتونة
من عصبته الذين يشدهم هوامم إليه ، ونشب دنياهم ، ومواجيد قلوبهم كما يقاد
البعير القيرير لنصل الجزار وما كان دعاؤه سوى تقاق ، أريد به لي الأعين
عن حقيقة آرايه التي شف عنها كدحه الخبيث لاحتلاب السلطة ، وامتلاك أعنة
الأمر في الإسلام . فلقد علم ولما يبعث برسله هؤلاء ، ومن قبل علم ، ومن بعد
علم ، ألا رأى له في بيعة أبرمها من لهم وحدهم حيثذاك حق الإبرام — وهم خلاصة

المهاجرين والأنصار بالمدينة — إلا أن يوافق فتنتظمه الجماعة وتلزمه الطاعة ، أو يخالف فيخرج على النظام . ولكنه أباح نفسه ما لا يباح ، وأحقها غير حقه وموضع

فشل وفده ، وعادوا إليه يبنثونه بما هو به عليم وفشل قبله وبعده غيره من الوفود . لكن ابن هند كان دائماً يتصيد من الفشل كل نهزة قد قدنيه هونا من هدفه ، يعز بها عند رجاله ، ويشر بسنها في صفوف خصمه وأسواره ما وسعه تحمين الظروف . فلم يكن يدع الوعيد ، يلوح به كلما جاءه من على رسول يحدثه ، إن حسب وعيده مبلغه من نفس الوافد بعض ما يرتجيه . ولا كان يكتف المصانعة واكتساء الرياء حين يظن في التملق الشفاء . ولا قدم مرة عن إثارة طمع الأنفس إذا قدر أنها تسترقها الشهوة وتستذلها العروض ، أيعا باب ولجه وأيعا محراب اعتلاه وهو في هذا كله كان دائماً على خلط المداجاة بالوقعة : عب وقعه الماء ، يأتيه بشير وشبث وسعيد ، بعثة من لدن أمير المؤمنين ، يدعونه إلى الطاعة . فما يكاد هبث يتقدم رفيقه سعيد بن قيس إلى الكلام ، حتى يلقف العامل المرائي هذه البادرة ، فيدع الأمر الذي جاءوا فيه ، ويحاول أن يتفذ بين الصاحبين بدسه الرخيص

يقبل على شبث معنفا يلومه وهو يظهر الغضب عليه من أجل سعيد :
« . . . إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك : قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته — ! » .

لكنها وقعة رمى بها الرفيقان دبر الآذان
وفي المحرم . حين يعود شبث وعدى ويزيد وزياد ، وفدا آخر من لدن على ، لا يكاد الرجل يلتقي باله إلى دعوة السلام إلا بقدر ما يبيعه إياه حرصه على الظهور كالوادع المسالم . فإذا صك سمعه من الدعوة نبأ نكبة الزبير وطلعة ، استأسد وثار

يقول له عدى بن حاتم :
« إنا أتيناك تدعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقق الله به دماء المسلمين إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة . وأحسنها في الإسلام آثارا . وقد اجتمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد

غيرك وغير من معك . . . فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

عند هذا يشور . لاتنفعه الذكرى ، ولا يصغى للعبرة . ولكنه يسرع — كأنه رأى في هذه الإشارة الخلاص — فيزوق الكلام وعيدا حافلا برشاش زئيره ، يتهددهم به :

« كأنك جئت متهددا ولم تأت مصلحا . . . هيهات يا عدى . . . كلا والله ، إني لابن حرب ، ما يقعق لي بالشنان ! . . . »

ثم لا يثوب به إلى في الهدأة أن يقطع علقته زياد بن خصفة جنوحه إلى تلمس الأسباب للمشاققة .

« أتيتك فيها يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا . . . دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . . . »

لا يثوب به هذه الملاينة إلى الهدى ، ثم لاتحمله إلى السكون إلا هنية يعد فيها دعاواه واقتراه . فإذا أعد وهياً فقد آتى كرة أخرى — وكم من كرة ! — بأباطيله التي جهد زمانا لتثير الشبهة حول مسلك الإمام . فهو عنده قاتل وائر ، أو محرض مؤامر ، أو منافح عن الجناة ناصر . ما لابن هند وسيلة يفلت بها من تقبل الدعوة الجامعة إلا هذا التي من الجدل والإفك يلف فيه ويدور . ولا غاية له يرنو إليها بروحه إلا إفساد كل سعى هدفه الأمن وانتظام الأمور . . فلما أن فشلت الوفادة كبتغاه ، وخرج الرسل من خبائه ، راح يدعو إليه خدعه يستنهضها أن تعدد بالدسياسة .

وعندما يدهم الليل ، وتغفل الأعين إلا عين دساس خاتل ، يبعث الرجل إلى زياد من دون أصحابه الآخر يدعوه . . .

حينئذ فحسب يلبس الأسد جلد هرة . . . يبرد إرعاده ، ويحتفى وعيده وتهديده ، وتتوارى فيه عزة المدل بنفسه وبأبيه خلف ستر من الملق والرياء ، نسجه كيده ، ورقشه وعده ، وزر كشه ثقته وعقده . . .

يقول لزياد بصوت لين تسيل منه الضراعة :

« يا أخا ريعة . . . إن عليا قطع أرحامنا ، وتخل إمامنا ، وآوى قتلة

صاحبنا . وإني أسألك النصره عليه بأسرتك وعشيرتك ، ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحبت . . . » .

حسب كل النفوس سلعة يشتريها الجاه . حسب كل القلوب بضاعة مزجاة في سوق الحياة . حسب هذا التيجي مستجيبا لنفثه وتأليه ثأرا لدم طلحة ابن أسرتة الذى أراقه على على ترى البصرة . . .

ثم يتربص . إنه ليرمق بطرف حي — ما هو بحي — آثار تحريضه وعهده على محيا الرسول . يخالسه النظرة ، وينتظر الثرة ، ويتبين الثرة أقد أغارت عميقة في ضميره فهان أم هو جل عن الهوان . . .

ورنا نحوه زياد بطرف ثابت ، جمدت أجفانه ، وقر إنسانه ، وبرق وميضه كوهج النار . . . هذه عين لا يعميها نشب . بصيرة لا يطمسها ذهب . هذا ذهن لا تقتله الحيلة إن بالعطية الشهية وإن بحمى الحمية وإثارة الغضب للدم . هذا رجل يسير في النور . .

وفي هدوء وسكينة تنفرج شفتا زياد عن كليات ، قاطعة كالسيف ، لاسعة كالجدوة ، فيها عزة وكبرياء :

« يا معاوية . . . إني لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . » .

٩

تلا الإمام :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .
فلقد جف الصبر . ذبل الرجاء والأمل . ذهبت الأيام والليالي السوائف جفاء لا غناء فيه ، ولا جنى أطلعته مع جهد الغرس ، ونصب السقيا ، وحرص الرعاية . فمن يطلب النبع في سراب ؟ ومن ينشد الثمر في صخر ؟ — الأنفس الموات لا تنضح بخير . . .

ولم يندم على الزمان الذي تسرب من بين يديه تسرب القطرة في الرمل
 بقدر ما أسي للمصير القدر ، والحنة المقبلة ، والدم المضيع بثري صفين بهم أن
 يسطر بسن الموت على أمتة الشكل والوهن والخراب . . . فهو أسيف . وهو
 واله محزون . وهو جو براه شجته ، يكاد دمه ييل صدره لولا أن بكى القلب
 ففاض النبع في مآقي العيون . . . فما هذه إلا ممر كته — هذا الجهاد السلي
 الذي شمر له قرابة العام ، ولهج به ، ودعا إليه ليعلى كلمة الإسلام ، وهو الوقعة
 الكبرى التي ود بروحه ولبه وعصبه لو حاز النصر من غمارها ونال لقومه
 الأمن والإخاء والعزة . . . لكن حملة السلام التي أعدها . ثم قادها ، أقيت
 الهزيمة . . . كسرهما الجشع والهوى والأحقاد . وعندما يظهر ذات يوم عدوه ،
 ويظا الأمة المنكوبة بقدميه ، وينشر فوق ربوعها الحزينة حكمه كالظلال السوداء
 التي تبسطها الظلمة ، فلن يكون نصر ذلك الغريم صدى لخطره وقدره ، ولا نتيجة
 لجلده وصبره ، ولا وليد نصيره ونفوره ، بل النهاية الطبيعية لهذه الدبرة التي أصابت
 عليا وهو يكافح كفاحه المرير في وقعة السلام . . .

فلولا أن قد علم المبغضون للإمام نيته ، وسبروا غوره وسره ونجواه ، لجنى
 الناس على الحقيقة فظلموه . . . وكم ظلمه إلى الساعة أناس ، وقد ألزموه هذه
 النتيجة التي أنجلت عنها في البدء صفين ، ثم من بعد الخدعة الضالة المضلة التي
 انفرجت عنها مهزلة التحكيم . . . تترفق طائفة فتراه غفل . وتغلو طائفة فتراه
 ضل . ثم يوشك الذين يقيسون الأمور بالخواتيم ، ويحكمون على الخطوة بعقبها
 دون تدبر الظروف الطارئة والعوامل الدخيلة التي تنكث الخيوط وتمحو الخطوط ،
 أن يصوروا ابن أبي طالب قد مد يده عن غير تبصر فصاغ بنفسه المصير المؤسف
 الذي آل إليه عهده المقلقل القصير . . .

هذه المصابرة التي طاول بها على خصمه الشهور الطويلة كانت الحجة القائمة
 عليه من كل ناقد ألصق به مغبة انتكاث الأمور وألزمه بوار نضاله وسعيه :
 « فلو أنه عاجل غريمه ! » . . . « فلو اقتحم على معاوية الشام غداة
 ظفروه العزيز في البصرة » . . . « فلو حرمه وجنده شربة الماء ثم أباحهم
 الظما والسيف عقيب وقعة الفرات ! » . . . ولكنها ومثلها فروض

معتسفة ، تهاوت جميعا تحت طرقات الواقع الذى هدمها بعموله ، وأقام الإمام على انتفاضها وخرائبها ، رافع الرأس ، متبجح الجانب عندما انتزع النصر من برأس عصابة عاتية ، مثل ضعفين من جنوده . جمعها الجشع فأدلت ، ثم أكلها الفزع فتولت تنشد السلامة فى الحرب يجلدها من ميدان صفين . . .

كلا ، لم تضاره المصابرة ، لم تنل من عزمه ، ولم تفل حده المشحوذ للقتال . لم تعد خصمه المتربص بأى عامل من عوامل الفوز والتفوق . ما من علة أزجها ناقد . وما من فرض ساقه عاذل ، كانت له أصبع فى النتيجة الحربية التى انجباب عنها غبار المعركة . بل هى كلها ، فيما أحسب ، ذرائع مصنوعة أريد بها بعد الواقعة النيل من تبصر على ، ومن قدره السياسى إن لم تكن ستاراً حاجزاً يخفى خلفه هذه الحياة التى قارفها دعاة التحكيم فإنما ضاره رفاقه . حفة منهم لها حول ، وفيها تزغ ، ومن مواضعها القديمة انبثقت الإحن والشكوك والغيرة ، ونظائرها من النوازع النفسية ، انبثاق القيق من القروح . وما كان للامامة فى جيشه عند ذلك إلا أن يتابعوا خاصتهم وقد رأوهم اللحظة — والأسنة حواصد — يدعونهم إلى كتاب الله كما طالما ردد الإمام . . .

فكأنى بهلى قد شفت له الأنفس المغشوشة عن دخالها ، فسبق بذهنه ضعفها وترددها ، حينما حث قومه على الصدق عند اللقاء ، والجد فى المناجزة ، والتشبث بحقهم أن ينقرط منهم عقده إذا مسهم ضرر . أو جنحت طائفة من النفوس المستريية لخور . . . يحضهم وقد مارى معاوية ورجاله ، وحادوا حيادا عن دعاء السلام :

« لا يكون هؤلاء بأولى فى الجد فى ضلالتهم منكم فى حقكم وطاعة إمامكم »
ثم يتلو عليهم :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين . »
فإن يكونوا تنازعوا من بعد وهان أمرهم عليهم ، حتى غدوا وقد أضلهم عنادهم ، لا يعرفون الحق كعرفتهم الباطل ، ولا ييطلون الباطل كباطلهم الحق .
وحق بلغ من جحودهم ومن كنودهم أن بات على وهو الغرض الذى أوشكوا أن

يرموه بالنواصل ، ويطأوه بالناسم وحق ذلوا كذلة الساعة فود لو صارفه
بهم معاوية واحدا من رجاله بكل عشرة منهم — إن يكونوا قد لجوا في العمى
والجهالة ، وأخذتهم الغفلة — وهم الأعلون — فمسم الوهن ، وحصبتهم
الفرقة ، وتداعى اجتماعهم تداعى الرداء الخلق مزقته الحروق ، فما انفراجهم
حينذاك عنه إلى رجوع نزعات أنفاس مريضة مال بها عن الجادة خيال ذهن ،
أو ضيق عطن ، أو غرور حق ، صورت لهم جهلهم معرفة ، وغفلتهم حكمة ،
وعماهم بصيرة

وندد الذى يكنه الزمن فى ضميره إلى ساعاته فالحوادث وشيكة أن تسير
فى طريقها المقدور . والحن تهم أن تتلاحق بأخذ بعضها بذيل بعض كإبل
القافلة فإن هى إلا أيام ثم يسفر الصبح الذى ننتظر إقباله — وما ارتجينا —
كثيب الطلعة ، عليه غبرة أعلته فى الأعصر

* * *

ومضى المحرم . . .

مضى بالأمل والرجاء وحلم هانىء رلود الخواطر وخالج القلوب ببشره حتى
أوشك السلام أن يكون بعض خفقها الرتيب
وحل صفر . . .

لمع هلاله فى سمائه ، والنفوس مشحونة بآسها وهمها وشكها فى لياليه ، حتى
رأته كالجدوة الكفيلة بإرسال شررها على الأنام ، وملء الدنيا بسحب الدخان
ولظى الحريق

النهار ينسلخ من نورهِ . الشمس تنحدر نحو العتمة بقايا الضياء القرمزى
الذى يسكبه الشفق يغمر جانب الأفق بألسن حمراء متقدة تشيع فى القوم العرق
والفتور فالصيف فى أوجه ، وحره يلفح الحضرة فتذبل ، ويلس القطرة
فتجف ، ويلوح البدن بمثل سمرة السنابل حتى فى هذه اللحظة التى سرحت
خلالها ظلال الغروب ، ولف ثوبها الأغبر الساحة ، وخطر الجند فى غواشيها
كالأشباح لا تتبين الأعين منها خطوط اللامع ، كان الهواء أنفاس تسمى
محزونة

ومن بين أطياف العتمة الوليدة . انطلق مرثد بن الحارث الجشمي ، تراحت على رداءه الناصع غبرة العسق ، وحمرة الشفق ، وتقع الرمال الذي نثرته نسمة الليل ، يوسع الخطا وهو ساكن الجأش جامد القسبات ، كأنما يسرهمه عن عياه . . . فلما غدا على مسمع من معسكر عدوه ، تحدث شجوه على ملاعقه ، وعلا صوته يعلأ الفضاء والسماء :

« يا أهل الشام ! . »

وكان الصدى يردد وراءه :

« يا أهل الشام ! . . »

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم ، واستأنيت بكم ، لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه . واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهاوا عن طغيان ، ولم تهبوا إلى حق . . . والله ما كففتنا عنكم شكافى أمركم ! ولا بقياً عليكم . . . وإنا كففتنا عنكم لخروج المهرم — ثم انسلخ . . .

يا أهل الشام ! . .

« إني قد نبذت إليكم على سواء . . . إن الله لا يحب الخائنين . »

وترك فيهم نذيراً راعدا رددته الفلاة ، هز القفر ، وحرك الماء ، ورج دويه السمع والفؤاد . مضى جمعهم يقلبه بين جد وحيرة ، وبين وجل وأمل ، وبين ندم على الوعد الداهب ، ورهبة للوعيد القريب . . .

وعند ما آب مرثد إلى معسكره ، كان الإمام قد قام في رجاله يدور عليهم بمنازلهم : يحثهم ، ويهيئ صفوفهم ، ويمقد الألوية والرايات . . . الليلة بطولها لم يزرهم النوم . إنا غنوا لأمره وهو ينطلق بينهم كالنسمة السارية ، من جانب إلى جانب ، ومن قوم لآخر ، لا تكل حركته . . . حتى إذا بدا لهم خيط الفجر في ناحية المشرق ، كانوا كتائب مرصوصة ، تخفق أعلامهم ، ويلتمع سلاحهم في ضياء النهار . . .

ووقف بينهم يبصرهم . . . ما من مرة مثلها تواقفوا والسيوف شرع ، والحتوف دائية ، وإلا أخذهم فيها بمنأجه ، وحشهم أن يستمسكوا بسنة الفروسية ، وشريمة النبل والمروءة :

« لا تقتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم . . . »

فإذا قاتلتموهم فهزمتوهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تسكشفوا عورة ، ولا تعثوا بقتيل . . .

فإذا وصلتكم إلى رحل القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضمايف القوي والأنفس والعقول » .

غير أن القتال لم تتأجج ناره وتعلو هجيره عقب هذا النذير . انتهى حقاً ترفق الناس بالناس ، وسياسة المودعة واللين ، والاغترار بالرجاء والألفة . ولكن صفر شهدهم مرة أخرى ، كما شهدهم قبله ذو الحجة ، يقدمون الحذر ، ويؤخرون الشدة ، ويجعلون على نفوسهم رقيباً أن تغلو في خصومتها غلوا ينبغي الفناء ويبحث منهم الأصول والجذور . إنما حركوا الألسنة في أكفهم بمقدار ، يجترئون بهذه الفرقة لهذه الفرقة ، وبذلك اللواء لذلك اللواء . لم يصطرعوا كافة ، لم يحركوا الرحى الحاصدة كوحى هواها لتطحن الثمر والزهر والبراعم . . . عشرة أيام تقضت عليهم وهم بهذه الحال . من ثانی أشهر العام السابع والثلاثين للهجرة ، من صبح غرته ، في ذات الأربعاء . . . وكان العراق في الحلية نصف الشام . هان دونها عدة ، وإن لم يكن عليها قدرة وشدة . وكان أجناده قد استووا على القدم والأهبة . صفوفاً متراسة : أحد عشر ، تقابل مثيلاتها من كتائب العدو ، ويواجه الصف منها قرينا يضم من أهل بطنه أو قبيله أو عشيرته من دفعته الخصومة إلى اللياذ بمعاوية . فإذا تنادوا بينهم بالنجاز ، انبرى الصف للصف ، فالتقى الأهل . يحارب الولد أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه . . . الجياد تجارل . والفوارس تصاول . ولرجال تنازل ما وسعهم صبر اليوم ، ثم لا يكاد يحمزم البأس وتحفزهم الوقعة حتى يتراجع الجمعان : كل فرقة إلى صفوفها ولما يقاربوا النصر أو تقارعهم الهزيمة . . .

فكأن النفوس كانت ما تزال تخزن — حثف لديها — بقية من حرص على الدم ، وطمع في السلم ، في كلا العسكرين كانت الرغبة في تلصص الأمن والأمان

كالجذوة الحراء تحت الرماد . . . حق الأشر عندما قاد أولى الكتاب .
في أول وقعة ، في أول يوم لم يغض بمنقه إلى مداه أو إلى عتمة الليل . . .
وحق هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . . . وحق ابن عباس أيضا طاول جهده
إلى الظهيرة . . .

ولم يكن هذا منهم شكا في هدف . ولا قعودا عن غاية . ولكنها كانت
حينذاك طبيعة القتال الذي يسكه الحرص على الدم ، وتغمة الخشية من الهلكة
أن تجمع أداته إلى صراع موصول يأكل الناس بغير رخصة أو تحرز . وهي
كذلك حال المارك في ذلك الزمن ، تسير بمقدار ، هينة رخوة ، أولها شرار ،
وآخرها دمار ونار . . . ومع هذا فلم تكن كلها مناوشات تجتلد فيها السيوف
ساعة ثم تسكن . بل قد غلبت على بعضها سمات الوقائع الجادة التي يبدوها اللقاء
والكر وتحتمها الهزيمة والنصر . . . وها هو عمار . حينما تثنى نوبته ، يندفع
إلى الغمرة وهو على بيته ، ويخوضها على متن عزمه ، فلا يكاد حسامه يشرع
في عينه ، وصفوفه تستوى أمامه ، ورجاله وفرسانه ينصتون له ، حق يراها
حرجة للجهاد ، ليست غارة موقونة المصاولة والجلاد . . .

ويهتف الرجل بجمعه ، وإن شوقه إلى السكفاح ليتألق على ملامح وجهه
الهضم المعروق :

« يا أهل الإسلام . . . آريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ؟ —
ألا إنه معاوية ! . . . فالعنوه لعنة الله . وقاتلوه فإنه بمن يظني نوز الله . ويظهر
أعداء الله ! . . . »

وعندئذ يهمس له امرؤ من رجاله :

« يا أبا اليقظان . . . ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلّموا فإذا
أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم . . . »

فيجيبه حازم الرأي قاطع النبرة بغير إهمال :

« بلى ! . . . والله ما أسلموا ، ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر حتى
وجدوا عليه أعوانا . . . »

ثم يشد بفريقه شدة الواثق المظمن على صف عمرو بن العاص . لا رخصة
ترده ولا رهبة تنديه . كطفرة النمر ينطلق . كثورة السيل . كهبة العاصفة . . .
فلا يزال يخوض المنايا إلى عدوه — والمنايا حيرة . . . — حق يحصد ، فيقتل
ويشخن وتتداعى أمامه المقاتلة كالبناء المنهار ، تنفرج عن صاحبها ، وتكشف عنه
كشف الرداء الخلق عن عورة . . .

ويتلف عمرو . . . الصبر مزق ونثار . المنعة نسيج عنكبوت . المنافذ إلى
الحياة مسدودة . . . وفي غيروني أو تردد يستجمع الثعلب المغلوب بقايا أجله ،
ويصوغ من فزعه جناحين ، ثم يروغ — فالفرار أمن ، والهرب سلامة . . .

١٠

ليست هجمة ابن ياسر وقعة فصل كتبت الخاتمة أو حسمت النزاع . كانت
غارة بدأها كمر ، وختمها نصر ، وتلتها بعد ذلك معارك جادة ، إن لم تكن قضت
في الأيام القلائل الباقية على خصمه القضاء الأخير ، فقد صاغت الحروف التي تؤلف
الهزيمة . . . كانت ضربة عنيفة سدتها إلى العدو دعوة حارة إلى الله ، وغضبة
دوت لدينه ، وتهمة ألصقت الكفر والضلالة — دون ريث ولا تخرج —
بصاحب الشام . . .

كانت حملة صدق وصبر ، لم يقف بها عن بلوغ غايتها نصب المقاتلة ، أو حذر
المصرع . أو انحراف النهار . وكانت أيضا معركة دعوة ، سل فيها عمار سلاح
العقيدة يلوح به ، ويهزه مشعوذا قاطما في وجه غريمه ، كهزه القناة والرمح
فما معاوية بخصم سياسي حين يرد الخلاف إلى المبادئ لا إلى الأهداف . ما هو
بمسلم وإن استسلم . ما هو أليف إيمان . إنما قهره على الهدى — بل الطاعة —
خوف الختف وشفرة السيف ، والجزيرة حينذاك تجشو على ركبتها طوعا وكرها
أمام شوكة محمد ، وتخضع الجباه لله . . . وما حزيه الدين يظاهرونه اليوم
إلا على نهجه ، لنهم بنزغهم ، وطوامم كطيك السجل للكتاب في غلاف زيفه
وزيفه . إن أصلتهم الغفلة فمعدرة لا تسعها مغفرة ، وإن فتنهم الدنيا عن الآخرة
(١٤ — الإمام)

فمنعة إلى حين ، ظلها زائل ، وعهدا حائل ، ومجدها خيال . . . والنفوس التي عنت له ، لم تغض منها كلها ينابيع الخير . فيها بقية ترعى الله . فيها قلوب تقشمت أكنثها ، كما انجباب الغيم — من هبة الريح — عن صفاء السماء . فيها أعين كشف الحق عنها غشاوتها فأبصرت النور . . . وعندما تسلك شمر بن أبرهة من معسكر معاوية ، في طائفة من قراء أهل الشام ، فلمحقوا به على ، كان ندمهم نذيرا زلزل على العاهل العاصي غروره ، وأوشك أن يذيقه التخاذل . . وقال له عمرو :

« يا معاوية . . . إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ، ورحم ماسة ، وقدم في الإسلام لا يمتد أحد بمثله . . . إنه قد سار إليك بأصحاب محمد العدودين ، وفرسانهم وقرائهم وأشرفهم ، ولهم في النفوس مهابة . قبادر بأهل الشام مخاضن الوعر ، ومضايق الغيظ . واحملهم على الجهد ، وأتهم من باب الطمع . . ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل ! . . »

لكن معاوية كان أقدر من خديعة على معالجة الموقف ، ومما جلته بما يصلحه . فليس الجاه هو الذي يرد وحده إليه النفوس الشوارد ، والقلوب التي غدت تتذاب اليوم بين دعوة باطل ، وإن تكن مجزية فهي مخزية ، وبين دعوة حق تطيب لها الضمائر النقية ، وإن تأجل لها عن الحياة الجزاء . . ليست الدنيا هي التي تفان المتشبهت بآخرته . . ليست المنافع سبيل أصحاب الأنفس التي عليها من خشية ربهم حارس ومن إيمانها الخالص رقيب . إنما الدين وحده السبيل . التلويح به طلاؤه يمحو ويستتر الأباطيل . .

وكذلك وقف معاوية في أجناده ، على لسانه منطق التقى الخاشع ، وفي دخيلته نزغة المضل المخادع ، يقول بفيه ما ليس بقلبه :

« أيها الناس . . أعيرونا أنفسكم وجماجمكم . . لا تفشلوا ولا تتخاذلوا ، فإن اليوم يوم خطر ، ويوم حقيقة وحفاظ . . إنكم على حق ، وبأيديكم حجة . إنما تقاتلون من نكث البيعة ، وصفك الدم الحرام ، فليس له في السماء عازر . . »

حق ابن العاص قد ذهب أيضا يحاول امتشاق نفس السلاح الذي سله عليهم عمار . إنه خشى فتنة قومه ، ورجا فتنة عدوه ، فترادى للناس بين الجمعين وقد

رفع رقعة سوداء في رأس رمح كانت لواء عقده له ذات يوم رسول الله . فلما امتدت إليها الأعين . ولغظت بأمرها الألسن ، وحسبت فتنة أنها علامة أدنت الرجل إلى الهدى . وبعدت به عن الريب فيه ، بادرهم الإمام يحذرهم الفتنة :
« هل تدرون ما أمر هذا اللواء ؟ . . »
قلوا له :

« هذا لواء عقده له رسول الله . . »

فأجابهم على :

« إن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال :
(من يأخذها بما فيها ؟ ...) فقال عمرو : (وما فيها يا رسول الله ؟) . . .
قال : (فيها ألا تقاتل بها مسلما ، ولا تقربها من كافر) . . . فأخذها . فقد والله
قربها من المشركين . وقاتل بها المسلمين . . . »

ثم رفع وجهه إلى السماء ، وأصبعه توحى إلى قبة الماهل المتمرد المشاق ،
وجأر بقسمه ودعواه :

« ... والذي فلق الحبة . وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا ،
وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعوانا رجعوا إلى عداوتهم منا — إلا أنهم لم
يدعوا الصلاة ! . »

واهتزت أنفس وترنحت خواطر ... الرأي ينقلب لنقيضه . الثقة تنزلزل
وتنهار . الشكوك التي راودت في معسكر الشام فتنة ممن لم يبيعوا بمدقلوبهم
للشيطان ، غدت يقينا باسق الفروع ، ثابت الأصل بجذور الدوحة . . . وكان عمار
هو الذي حرك البركة الراكدة ، ورج ماءها الآسن الثقيل . وكان عزمه وصدقه
وإصراره على الثبات في الميدان حتى ينتزع النصر من عدوه ويثيبه عليه الهزيمة ،
هي النواة التي أطلعت في نفوس أقرانه من رجال الإمام زهرة الصبر ! ... فلما
مسح عن جبينه عرق الحرب ورهق النصب عندما غرب يومه ، حتى نشط
أصحابه مثله إلى مواطن اللقاء يطلبون التزال ، ويتعجلون الآجال ، وينشد
الرجل منهم الغلبة أو الشهادة ...

وحيت الوقدة . كل واحد من رفاق الإمام وخلصائه كان له فيها دور ،
وله حملة ، وله جولة أدته ساعة من الظفر وساعة من الموت ... حتى ابن عباس

قد خرج إلى القتال مخرجه .. وحني ابن علي : محمد بن الحنفية . فلقد غدا القتال دولة بينهم يتركه كابر ليلقغه كابر ، كأنما القوم يحرسون على اقتسام شرفه بقسطنطين ! ... بل الإمام أيضاً أوشك أن تدفعه النجدة إلى الغمار ، يقتحم عليه حرمة ولما يلتق الجيشان في وقعة جامعة . فما هو أن قام عبيد الله بن عمر يتحدى محمدا ويدعوه : « أن اخرج إلى ! » حتى أخذه شغبه القديم بالمناجزة ، فنخس دابته إلى الدل المغتزون :

« أنا أبارزك فهل إلى ! ... »

فبغت الدعوة عبيد الله ، وبددت شجاعته ، وغاض على الأثر ماء اعتداده وزهوه . فإذا عحياء يصعب . وإذا فرسه تستدير لتدبر . وإذا رمح في يمينه يسترخى كالسوط ! ...

وهمس الفتي وهو ينأى بعمره :

« ليس لي في مبارزتك حاجة .. »

وعتب محمد على أبيه :

« منعتني من مبارزته ! ... فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله . . . »

فابتسم على بسمة نضحت بحنانه وقال له :

« لو بارزته أنا لقتلته . ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله ، وما كنت

آمن أن يقتلك ... »

لكن الحسرة لإفلات الفريسة الفارة دعت محمدا أن يراجعه :

« أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله ! ... والله لو أبوه يسألك

المبارزة لرغبت بك عنه ! ... »

وعندئذ زجره الإمام ونهاه :

« يا بني لا تذكر أباء ولا تقل فيه إلا خيراً ! ... برحم الله أباه ... »

* * *

غير أنها — فترت أو استعرت — كانت كلها مناوشات لم تل بأى الفريقين عن مواقعه ، ولم تنل منه إلى الغاية التي تكتب عليه الخذلان ... كانت تجربة ! ... حكما يشهد المهمة ! ... فارا تصقل الصبر والعزم ! ... وحين لاحت الثمرة المريرة

جنية ، لم يكن هناك معدى عن اقتطائها ، ولوك لها وقشرتها ثم انتطار كلمة
القدر ا ...

وغدا الناس — ذلك اليوم الذى استنهض فيه معاوية أوليائه باسم الدين —
والإمام بين أصحابه ، قد غلبت على عياله عبسته ، وتحدث الجد فى جبينه
وعينه ... فأصفوا له :

« حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ ... »
ولم تبارحهم الشمس ، أصيل يومهم وفى أدانى غروبه ، حتى راوه متوكئاً
على قومه ، محيطة به الصفوة الباقية من أصحاب الرسول ، وهو يخاطب جموع
المقاتلة والفرسان من جنوده :

« أيها الناس ... »

اسمعوا مقالتي ، وعوا كلامي ا

إن الخيلاء من التجبر . وإن النخوة من التكبر . وإن الشيطان عدو حاضر
يعدكم الباطل ... شرائع الدين واحدة . وسبله قاصدة . من أخذ بها لحق ،
ومن تركها مرق ، ومن فارقها محق ...

ليس المسلم بالخائن إذا أوّمن ، ولا بالخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا
نطق . ونحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا الفضل . منا خاتم
النبين ، وفينا قادة الإسلام ...

ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموى وعمرو
ابن العاص السهمى أصبحا يحرضان الناس على طاب الدين بزعمهما . . . وقد
علمت أنى لم أخالف رسول الله قط ، ولم أعصه فى أمر قط . أقيه بنفسى
فى المواطن التى ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائض : نجدة أكرم فى الله
بها ، فله الحمد ...

أيها الناس ..

وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها
إلا ما شاء الله . . .
فرجف عمار ...

لقد كان الشيخ الجليل ذا بصيرة نفاذة تستطيع أن تبلغ من اللفظ مدلوله
الحق الذي يتسلل إلى اللب ولا يطرق المسامع . فلما انتهى الإمام من قوله ، زلزه
ختامه وأحزنه ، وخذ في وجهه الهزيل خطوطا أعمق مما حفرت أصابع
التسمين

وهمس الرجل للذين حوله وهو مهموم :
« أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة إن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم
عليه آخرا . . . »
وسجل القدر

١١

في معسكر معاوية ، ساد الهرج ، وشاع الحمس ، واضطربت النفوس
والأنفاس حين حملت إليه نسمة الصبح نذير الحرب ينادى به عليهم منادى الإمام :
« يا أهل الشام . . . اغدوا على مصافكم . . . »
ومضت الصيحة . وكان صباح كالليل

كان اليوم غرة الأربعاء . . . الشمس تدرج في مهدها البعيد عند حد
المشرق . خطاها وسنانة . نهارها يحبو على خيوط الأهمة . سناها تصبغ السكون
أطيافه . . . وكان دفتها رطيا كريحا الشمال . رفيقا كقطرة الطل . رقيقا
كأوراق الزهرة ليس فيه من وقدة حامية تلجئ بهذه الشعلة التي مستعجاجة
للموقع عندما ينتهي البكور . . . وكان أفقها من عسجد ولازورد ولجين ، نقي
الصفحة كقلب الوليد . لم تشبه الحمرة القانية التي لن يلبث أن يعكسها على صفائه
مكان الحومة حينما يله الدم . . . السلام على الأرض ، والهلاك في الخاطر . وهذه
الهدأة التي لفت الميدان ساعة البكرة بستر السكينة ، كانت غشاء خادعا ، كسطح
للألم في المحيط ، يخفي تحته اصطرار الحياة والموت ، العسف والقوة ، جواهر
الحقيقة وأصداف الزيف . . . فإمن سنة الطبيعة أن يتوافق ضدان ، ويأتلف
تقيضان

ظهرت المنايا وبرزت الأحياء . . . الآن توشك الرحى أن تدور . الوغى الحاصدة تتربص وتشعد الظفر والناب . الأرواح توافقت على مخارج الجروح . والمفاتيح : رؤوس الأسنة ومشافر السيوف ، في يد القدر ، تم أعدها فتفتح بها محابس الدم ، ثم تدعه والانطلاق . . .

عشية أمس خطب على رجاله :

« الحمد لله الذى لا يرم ما نقض . ولا ينقض ما أبرم . . لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر فى شيء من أمره ، ولا جحد الفضول ذا الفضل فضله . . ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده دار الجزاء والقرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . . »

ثم مزق رقعة البقيا وأعلن الجد فى الشدة :

« . . . ألا إنكم لاقوا العدو غدا . . . اسألوا الله الصبر والنصر ، وألقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين . . . »

ومضى يهيمهم . طوال ساعات تلك الليلة الفاصلة راح يعدهم للصراع الخطير الذى سيسفر النهار عنه ، فيكتبهم ، ويسوى صفوفهم ، ويقدم دارعهم على حاسرهم ، ويعدهم للقاء ربهم بالشهادة فيحصن نفوسهم بذكره ، ويطيل وإياهم القيام ، ويتلو القرآن . . .

وعندما برح الليل . وانتشع سواده انتشاع الغمامة ، وأقبلت من المشرق طليعة النور ، دعا عدوه للنزال ، فليس يرضى أن يأتهم من غرة ، وما من طليعة مباغثة غافل . . .

وعندما صاح داعيه ، ودوى فى الهدأة نذيره ، أصبح معاوية وجنوده على بيئته . . .

ومع ذلك فقد شاع فيها المهرج ، وسرى الهمس ، واضطراب نفس وأشفت نفس . . . الأفتدة فى صدورهم توثبت . والقلوب فى مقارها ارتجت . لا بقيا بعد ، لا هوادة اليوم فقد مضت فترة النجاة الرخى القى حسبوها موصولة على

النهر والليالى ، ومطوها جهدهم ليسأم على مقامه ، ويثلم سيفه ، وتفتر عزائم
رفاقه عن القتال ...

* * *

وهتف صاحب الشام فى عجلة ، ولما تنفض النوم أهدا به :

« أين الجند المقدم ؟ ... »

فخرج له أبو الأعور السلى على كتيبة

ثم هتف ثانية ، وقد ثبت قليلا لحظ عينيه :

« أين أهل الأردن ؟ . »

فجاءوا يسمعون . . .

ثم هتف ثالثة ، وقلبه ركين كالصخرة :

« ... وجند الأمير ؟ . . »

وما فتئ يهتف والكتائب تأتيه ، كتيبة كتيبة ، وفرقة فرقة ، فى سلاحها
وأدراعها ، وعلى ألويتها وراياتها : جموعا غفيرة تشد عزمه وحمته يفوق نصفها
كل أعدائه ...

وحينما غدوا على أهبة ، وجال بين الصفوف ينظر ، ويمجم القدر ويسبر
الغور ، لم تهزه فيهم بادرة من بوادى الخور والتخادل . . . فقد ذهب عنهم
الروع ، وانجباب المهرج الذى أشاعته بغتة الدعوة . الثقة فى القلوب ، والعزيمة
على الملامح . فما بهم هيب . ولا هم بأحلاف جبن ، وإن شططت بهم منازع
الهوى وحملتهم بعيدا عن الجادة . وعندما بان الجد ، انبرت فرقة إلى معاوية
فبايعته على الموت ، وأخذت نفسها بالدود عنه ، أو تتخطف رؤوسها المصارع .
فإذا بهم يطيفون به ، ويبنون حوله سياجا ساترا : خمسة صفوف كأنها قلعة
حصينة ذات أسوار ، إن اثلمت فى سور ثغره . سارعت صدور من الذى يليه
تسدها بالقلوب والجحاجم ! . . فهو بها فى جنة غير مخروقة . عزيزة على الهجمة
والقارة . منيعة على الإقدام والجسارة ، لا تنفرج عنه إلا أن تشقها جميعا
المنية . . . وعندما تواقف المقاتلة ، وتهبأوا لخوض الحومة أقبلت « عك »
تهزها حميتها فتعاقد رجالها على الصبر كالأوتاد فوق أرض الموقع . وجاءوا بحجر
قوضوه بينهم ، ثم تهاثفوا بلسانهم الذى كان يبدل الكاف بالجيم :

« لا نفر حق يفر هذا الحكر . . . »

وقد صدقوا وعدهم وكانوا رجال صبر ، لهم في سجل البطولة أقدار مسطورة
وصحائف مسجورة ، يعصف الفناء بهم فلا يريعون ، ويعي فينثنى ولا ينثنون .
كأنما سمروا أقدامهم في مواطئها ، وحالفوا الموت والثبات . . .

على أن هذه العزائم الجبارة لم تسكن بالقي تلهي معاوية ورفيقه عن تلمس
الحرص والتشبت بأسباب الحذر والحيلة . فما إن تواقف الجمعان على أهبة تهفو
قلوبهم إلى التحايز قبل اشتباك الأسنة ، حتى تذاكر الرجلان الأمر ساعة أفضت
بهما إلى وجوب تنظيم الجيش على أسلوب مغاير ...

وقال العاهل لصاحبه :

« فما الرأي ؟ .. »

قال عمرو بن العاص :

« قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد ، فاعصب هذا الأمر برأسي »

« إني أفعل »

« وأرسل إلى أبي الأعور فتحه عنى ودعى والقوم ... »

فسرح معاوية صاحب مقدمته عن موقع ابن العاص إلى غير بعيد ، على تل :
« يا سفيان . إن لأبي عبد الله رأيا وتجربة ليست لي ولا لك . وقد وليته أعنة
الحيل فسر ... ودعه والقوم ... »

وأقبل عمرو بعد ذلك على واجبه ، ينظم ويغير ويرتب صفوف المقاتلة من
فرسان ورجالة ، حسب رأي بنظرة القائد الذي صقلته تجربته ومرسته الحروب ...
وكان يعينه على أمره ابنه : عبد الله ومحمد . فالعدو للائل حيله عنيد ، على الذكر
في مجالى الطمان ، يرمى عن القدر والمنية . . . والجنود الذين يظلمهم لواؤه ،
أقدموا لأمر أقصاه شهادة وأدناه نصر . . . وعند ما تركوا خلفهم ديارهم التي
نأت عن الضواير الجرد والرواحل الشديدة ، كانوا قد ادرعوا بالإيمان ،
وتحصنوا بالخطوة ، وإن قل نفرهم وناصرهم . فليست تغنى في لقاءهم ساعة الحومة
حشود ككسف الليل لا ينتظمها نهج محكم يسدد خطوها في القتال ...

وقال عمرو لوالديه :

« إن هؤلاء قد جاءوا بخطة بلغت السماء .. قدما لي هذه الدرع ،
وأخرا عني هذه الحسرة ... »
فمضيا ينفذان ...

ثم راح يثني بنفسه بين الزمر ، فغير وبدل ، وأفر وعدل ... فلما أحسن
الصف والتسوية ، وطاب خاطرا بما فعله ، أقام لنفسه منبرا بين جيشه في موقع
يشرف منه على المكان ، ويحرك وهو فيه أجناده إلى خطوطهم عندما يدوى
النفير . ويتسمر السعير ... وإنه ليأمر فتطيف به جحافل من اليمن ليكون في جنة
مانعة ويكونوا حوله كأسوار القلعة ، لا يخلص من خلاطهم إليه حاسر أو دارع ،
ولا يستطيع امرؤ أن يروعه بشر :

« لا يقربن هذا المنبر أحد إلا قتلتموه كائناً من كان .. »

كذلك دبر ، وكذلك فعل . غير أنها حيلة لم تكن كالحال لوجه التزال .
ولا بدافع من حرصه على التفوق واحتلاب راية النصر من ابن أبي طالب
الرابض لهم على قيد الخطوة كأنه الليث يترصده الفريسة .. فما هو بغافل عن
حقائق الحال : لغيره الظفر إن هو ظنر . ولغيره الثمرة إن هو غرس ، ثم سقى ،
ثم اقتطفها وهي جنية شهية من سياج الأشواك ... إنه عبد طبعه .. إنه عمرو .
وحين بنى فليس وفاؤه وليد شغفه بالخلال الكريئة ، ولا صدى لطبيعة نقية قوية
أو سجية سوية سليمة ... كلا ، لا يهزه النبيل ، ولا يهيم بالأريحية ، بل النفع
وحدة هدفه وممرماه . الوفاء عنده له شرطه ، وكل جهد على قدر ثمنه ، والحامد
كلها مطايا لغايته ، كأنها في جعبته سلمة يبيع منها بمقدار ..

هكذا بدا ذلك النهار ، وأمسه أيضا ، وبقية عمره على السواء . لم يتحيف
على طبعه ، ولم ينصرف عن طريقه المرسوم الذي شقته نفسه المنهومة أبدا بجاء
الحياة وزخرف السطوة ، فما همس برأى . ولا أدلى لصاحبه بعشورة ، ولا أشار
بكلمة تكشف فرجة يستطيع معاوية من خلالها أن يستقبل القتال وهو آمن
على مصيره إلا بعد أن أمن هو قبله على غايته التي رنت إليها أطباعه .. فللهذه
الغاية قد جاء . ومن أجلها خاض الحق ، وعنا للباطل ، ومال راضيا عن الجادة
السواء ... من أجل النسب والنفع والمأرب .. إنه ليصغى إلى معاوية فيميل

نحوه بكل صممه ، ويشهد قلقه حين يفتته دعوة الحرب فيقلق له ، وينظر معه إلى جيشه وفيه ما فيه من اضطراب الخطوط وخلل المنازل فيهم همه — ولكنه مع هذا كله يكتم الرأي عنه إلا بشمن ! ..

يشترط وقد استمانه معاوية :

« على أن لي حكى ! ... »

فيدهش العاهل :

« حكك ؟ ... »

« نعم — إن قتل الله ابن أبي طالب ، واستوسقت لك الأمور ... »

« أليس حكك في مصر ؟ . . »

وعندئذ تنفجر شفتا المساوم عن بسمة أينة صفراء ، فيها تعلق وجشع وسخرية :

« وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ؟ ... وقتل ابن أبي طالب ثمنا

لعذاب النار ؟ ... »

فلا يراجعه صاحب الشام ، إنما يحذره نقلة القالة إلى الآذان المتربصة للماخذ ،

ثم ينيه :

« رويدا لا يسمع الناس كلامك ! ... ولك حكك أبا عبد الله ... »

وما راه أسرف حين مفي ، ولا مولاه شط عندما تمفي ، فأعما هي حلبة

بمحلبة ، وعطية بجهد ، وصلة بدينار أو دنائير ! ... ومن يطلب الحسنة

يرتخص المهر ! ...

أما على فقد صف على الأهبة رجاله ، كلهم راغب في القتال مشوق له ، يكاد

يسبق إليه أجله . فلما أن توطأت لهم مواقعهم ، وحشدت الكتائب ، وخفقت

البنود ، صر بهم يحرضهم :

« ... إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

فسدوا صفوفكم كالبيضان ... قدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ... أميتوا

الأصوات فإنه أطرده للفشل . والتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة .

وراياتكم فلا تملوها ، ولا تزيوها ، ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم ، اللانعي

الدمار ، الصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ... »

لكن أرفع راية وأمنعها كانت في عين صاحب ميحنته : عبد الله بن بديل
ابن ورقاء . ولم تكن في يد راعدة هيابة . ولم تكن رقعة من قماش ...
وعند ما خطا القائد بين الصفوف في رجاله ، يخاطب منهم الروح والقلب
والبصيرة ، علقت الأعين بذلك العلم الذي نسجه الله ، وابن بديل قد رفعه إلى
مدى ذراعه ...

وسمعه يقول :

« أنتم والله على نور من ربكم ، وبرهان مبين ... قاتلوا الطغام الجفافة ،
ولا تخشوهم . وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم طاهر مبرور ؟ »
وهز في عينه رايته : كتاب الله ، ثم زار ، ونظره يرمى إلى عدوه بنار :
« قوموا إلى عدو الله ! . أنخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه إن كنتم
مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور
قوم مؤمنين »

١٢

غلبته الرحمة ! . . .

الجحافل التي استقبلت في الوغى جنوده لم تنل من عزمه . حشودها التي
غشت الأرض كالضباب ، وانتشرت عليها كأرجال الجراد ، وأخفت معالم البقعة
عن الأعين ، لم تمس قلبه برهة ... كانت الثقة موطنه ، والطمأنينة ملاذه ،
والإيمان بالنصر هو السلاح الذي تهزه يمينه . وعندما دفعه النهار على موجة ،
ورده الليل على موجة ، وراحت حركة القتال في مدها وجزرها ، تقبل به حيناً
وتدبر به حيناً على متون أمواج تليها أمواج ، لم يطف بباله أن يدرأ الهزيمة
الخوفة بالصلح إذ الهزيمة لم تدرله مطلقاً ببال ، ولكنه كان ينظر إلى حمية أعدائه ،
وإلى اندفاعهم في غمرة الموت اندفاعاً السهم عن قوسه . وإلى جموعهم الكثيفة
كسحب الشتاء ، فيحميه عن الرهبة إيمانه ، وعن الفرق يقينه ، ثم يغنيه عن
الكثرة المدلة بوفرتها روح له رقى أمامه ستر المجهول حتى ليراه ! . . إنما ذاق
من مرارة القلق والوجعة حيناً كسرت قلبه هذه الحرب التي أخذت تأكل وهي

منهومة كل مقدس من الصلوات يحمله البشر ، وتهدم كل آصرة ، وتستبيح كل حرمة للنسب والقرابة . فلقد مضى اليوم كله ، وبقي من الليل أقله ، والناس كافة ، من فريقه ومن مناوئيه ، في حلبة كأنها غاب وكأنهم ذئاب .. حكمت بينهم شريعة القرون الأولى ، وطبيعة النسر والضيغم . يقتتلون كالوحش ، فينهب الرجل لحم ولده ، ويقطع الأخ جوارح أخيه ، وتسيل بينهم دماؤهم كالدماء .. وكان هو إيان الحومة يهتف برجاله كلما لاحت له من جانب العدو طائفة رفعت الأعلام وشدت القسي وهزت النبال وهي تبتدر للقتال :

« من هذه القبيلة ؟ .. »

فيقال :

« الأزد ... »

فيدعو إليه أزده ، وبأمرهم :

« أكفوني الأزد ؟ »

ثم يسأل :

« من القبيلة ؟ ... »

فيخبره قومه :

« خشم ... »

فيقول لخشم التي معه :

« أكفونيهم ا »

فأكلت العرب نفسها ا . جزت عنقها بيمنها وهي تنقاد للحمية ، ودعوة

الدم ، ذلك اليوم من صفر في صفين ، وقد حمزها الطعان ...

ولم يكن عليه في هذا حرج ، فليس في الحرب حريجة . ولم يعد به طوره كقائد ، ككل قائد قدير راشد ، يستقبل الأ كفاء بالأ كفاء ، ويوفر الأهبة للغلبة قبل أن يحين اللقاء ... فعن قوسه يرمى السهم . وآفة الشيء من جنسه . وليس أعرف بهذه الفئة أو بتلك من يليها ، الذين جمعتها وإياهم وحدة الطبع ، وحد الاحتمال ، واتفاق حيل القتال ...

غير أنه لم يصغ فيهم لدعوة الخصومة بكل الإصغاء . فالضغن داء داوى نفسه من بلائه . والصبر اليوم على الأسته قناء ، والسلام بقاء . . فكأنه اطلع من

مكانه ذلك بصفيين على الدخائل المكنونة فأشفق أن تبذر محنة الحرب بكل قلب بذرة ، ثمرتها مرة ، سوف يجنيها على الزمان قومه فتطعمهم الصاب وتشريهم العذاب . . . إنه الغد ، أو بعضه ، أو سويغات قلائل من الذي يليه ، ثم يلتهب ثأر بكل صدر ، وينشق قبر بكل دار ، وتنمقد على الرءوس سحب الأحزان . . . وخاف على قومه الهلكة . وخاف القلة والذلة بعد الوفرة وعزة الجذاب . وخاف أيضا على هذه الصلوات ذات القداسة ، التي خاقتها الأصلاب . وربطتها الأنساب ، وجعلها الله كالحرمة أن تضطرب بها زلازل المواجد ، ثم تنهاوى على الثرى صريعة . . .

عندئذ غلبته الرحمة ! . . .

وكانت نتيجة القتال في أصحابه ، ذلك اليوم ، عدل عقباء في عدوه ، لم تمل كفة النصر بأولئك ، ولم تشل كفة الهزيمة بهؤلاء . ومع ذلك فقد أهاب بأعدائه الذين خضبهم العرق ، وملكهم الحمية ، وهاجمهم لون الدم يدعو فيهم ، ونفسه تسيل رقة ، بدعوة السلام :

« من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم ، فيدعوهم إلى ما فيه ؟ . . . »
فبهت الناس . وأرسلوا نحوه عيوننا محمقة جامدة الجفون والأهداب ، تفرسته مليا دون أن تطرف أو تريم كأنها خواء . . . سلبها قوله الحركة وصل منهم اللسان والبيان . ولولا مكانة له في نفوسهم عليه رفيعة ، تجل عن الريبة لأنكروه . . .

ولكنه على عهده . على سجية السخى الكريم ، وطبيعة السمع الذي يتقدر فيغفر ، ويعلمك فيصفيح ، ويدين فيصفح . على شريعة القلب الذي فيضه حب ، وغيضه حب ، ووقمه صفاء ، ورجمه صفاء ، ووسمه يحتوى البعيد والقريب ، والبيض والحبيب سواء . . .

وأعاد الدعوة . . . أولئك الذين كانوا معه في أرض البصرة ، من بضعة أشهر ، شهدوا له موقفا كهذا قبل أن يحرق الجمل ويذريه في الريح . كرت الذكرى بهم إلى الموقع ، وإلى عدة وأجناد ، وصلف وعناد ، وجنوح إلى الهوى صرف عدوه هناك أن يصغوا إليه وهو يدعوهم إلى كلمة الله فأبى نفوسهم إلا النفي

حق تكفنوا بالعرء ا .. وإنه الآن لكأمسه ، طى نفس دأبه وخطته ، يشاء
أن على لخصمه الجديد ، ليقبس العظة من عقى المصيان ...
ونهض إليه من بين صحبه غلام ، غص العمر كالزهرة ، وقد هزه النداء
فاستجاب :

« أنا صاحبه ، يا أمير المؤمنين ... »

ولم يلبه من الجمع سواه .

فلعلمهم إذن قد خشوا غيرة العدو . أو لعلمهم قدروا تأييه وعناده . أو لعلمهم
أحيوا الأمس فى خواطرهم فآمنوا أنها قضية السلام الذبيح ا .. فما ينفع رفيق ،
ولا تجدى هواة ، ولات حين اتفاق ...

ونقل بينهم عينه وبين الغلام ، فلم تتحرك لأحدهم جارحة ، ولم يهمس فم ،
ولم تنم عن حياتهم إلا الأنفاس ...

ثم ألحف الفقى الطرى العود ، الصليب العزيرة :

« أنا صاحبه .. »

« فدونك ا »

وخلاه وقصده إلى صفوف الأعداء ...

لم يعد الراحل . كصاحب له قبله فتك به جنود البهيمه الدين كانت تقودهم
عائشة ، ذهب هو الآخر إلى قدره ا .. كفه التى رفعت المصحف بترها البغاة .
ونفسه التى هفت للسلام لفظتها جراحه . وعوده الأخضر قصفه الموت
وما اكتمل ، وألقى به فى الرغام يجفة ا ..

وعندما أصبح الصباح ، وغابت عن المشرف الخطوط الدكناء ، وصحا
السكون الذى ضاق ذرعه بحمق البشر ، طريت صحيفة ونشرت صحيفة ، فغلا
الأمن ونام ، وطفرت الحرب إلى غايتها الجراء ، شعواء مستمرة . تطأ الرحمة
والرحم ، وتبذر الحزن والوجيمة ، وتحصد الحقد والتأرا .

ونحى الإمام عنه بغله الذى كان يمتطيه ، ثم صاح :

« اتئونى بفرس ا ... »

فسمعوا الجدم من صيحته ، وقرأوا العزم على عبياه ...
الآن اختفى فيه الأربحي المهاود . رقد أخو السلم الذى يضمن بالدماء أن
تهدر ، وبالحرمان أن تباح ، وبالحياة البشرية أن تتخطف مثلها ، وتهدم تراثها
زبانية الحديد والنار — رصب فى القاع ، وطفا على الأثر آخر ، مارد قوى
جبار ، يفرق الرفق من هيئته ، وتهرب الهوادة ، وتفر الأعمار ؛ ... الفارس
الذى يركب الردى إلى أهدافه ، ويقتم على الهول عرينه ، نفص عن نفسه نومه
وقام كباشق الجبل حينما يطالعه النور ، هز قوادمه ، وحرك خواقبه ، وتأهب
على القمة السامقة يذرع بعينه الأفق حتى تلوح الفريسة ! ..

وأبوء به أدهم كالليل ، له صلابة الرمح ، وخفة الفهد ، وسرعة العاصفة .
أقبل معهم يخب على خيلائه . شديدا يقاد بشطين ، متحفزا لا يطيق عرفه على
جيده ، قلق المنزل يبحث الأرض بقائمتيه كأما يضيق بالقرار ويتوق إلى طي
المراحل وإثارة الريح والغبار ! .. شئن الصدر فى غير ثقل ، ضامر البطن
فى غير هزال ، ضخ العضلة نحيل القوائم . إذا حمحم فجلجلة ، وإذا صهل
فزئير ! ..

وهدأت الدابة حينما لمسها بنانه ، فتلا :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ... »

وما استوى على الظهر ، حتى استقبل القبلة ، ورفع يديه إلى السماء فى ضراعة
وابتهال ، وهو يناجى الله :

« اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأأنضت القلوب ، ورفعت الأيدي . وشخصت
الأبصار ... نشكركم إليك غيبة نبينا ، وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشنت
أهوائنا ، وشدة الزمان ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير
الفتاحين ... أعنا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق ... »
ثم هتف برجاله :

« سيروا على بركة الله .. »

فإن هى إلى سويمة حتى انطلقت المنايا من العقال ! ..
كان النهار لم يعل للضحوة حين تحرك الإمام ، يتقدم الكتائب المشوقة إلى

اللقاء ، المفتونة بالشهادة ، العالية في إيمانها بنصر الله . يتبختر به فرسه الأدهم وهو يحث الرمل في تهاديه ، ويخط ذيله المترسل الطويل في نقاء ... وكان هو على الظهر كقطعة منه . لا يرتج إن عدا الجواد ، ولا يتمايل إن ثقى وحاد . وجهه الوضوء يكسف النور ، ويكاد يهر غداة الصباح . .. على جبينه هدوء آمن ، وفوق ثغره وميض إيمان ، وطرفه الأدعج ارتخى جفناه ، والتفت أهدابه كأنما الومس يتاغيه ..

ليست هذه بهيئة حرب ! .. فالأدهم تحته يختال في رقة ، ويتحرك بدلال ، ويرفع الحافر بمقدار ويضعه بمقدار ، كأنه يخطو على زهرا .. ليست هذه بسحنة محارب ! .. فالوجه سكونية ، والعين هدوء ، والثغر صفاء ... الطمأنينة التي نعتت عياه لا تشي بجبروته . ملاحه دعة . لمحاته فيض دافق من السلام عذب الينبوع ! .

غير أن جسده الذي استوى على جواده ، ولصق به لا يريعه ، كان يوحى بالرهبة ... فكالصخرة كان . له جهامة الصوان ، وخشونة الجلد . وهذه المسربة التي امتد شعرها الكثيف الغزير بين بطنه وصدره بدت كأنها شظايا الصخور ! .. وإن كفه لتبسط فتلوح كالرحى الحاصدة . وإن كتفه لتميل حين يتلفت فإذا عظامها مشاس ليث ! .. وما يبين في ذراعه عضد من مساعد ، فسكلاهما استوت ضخامة وتكافأ صلابة ، وأدجا معا وحدة متسقة كاصفاة المنحوتة قدها الله من جبل ! ..

واستقبلت الأعين المتربصة في المعسكر المقابل هذا الفارس الحاسر ، العاطل الرأس من جهة ، ومن لمة ، سوى خفاف كأنه بقية الأثر ، البادي الصدر دون درع ، سوى شعره الكثيف كاللبدة ! .. استقبلوه من خطوطهم ، من بعيد ، فأرهموا الحقد في النواظر ، وهياؤا للنايا على المشافر ... كلهم إليه ساق . أسياهم يهزها نحوه الحنين ، والنهم ، والظمأ للدم ! .. جموعهم تدافعت صوبه تدافع الجواد للخضرة ، كأنها طوفان . خيالهم مزقه ، وشق له في الفلاة قبره ! .. ليس فيهم من عملوا به حتى يدانهم بهذا الجواد المدل المختال ، الذي راح يقطع الرمل في وني ثقل كمشية السلحفاة : بل قد طفرت بهم مطاياهم . وجرت الأقدام ، وعدت النفوس والشخوص والظلال لتعجل به إلى حينه ! ..

وبقي هو على هدوئه . وعلى سيره الرتيب الوئيد . وعلى هذه الإغفاءة التي بدت تغشى عينيه وما هو بوسنان . لا يزيده قربهم منه سرعة في مشيه ، ولا دنوهم إليه ميلا عن سمته . إنما امتد رفق بصره إليهم من خلال أهدابه ينظر ويرقب ويعد الخطوات ... عن عين وعن يسار يقبل الجناحان . الأرض الحالية يطويها الزحف . الشقة بينه وبينهم تضيق — ولكن الطائر الذي بدا على هيئته جيش الشام قبل التقدم ، التوى قوامه ! .. اختلت وحدته وتضعف انسجامه ! .. ليوشك بدنه أن يكون قد لفظ ريشه أو انفصلت عنه قوادمه وخوافيه وهي منطلقة وحدها إلى أمام ؟ .. أما جسدها فمستأخر ، يثبت بذات مكانه الذي برحه جناحاه فهو عار مكشوف

وتبسم الإمام . لهذه اللحظة كان يدخر الابتسام ! .. لمعت عيناه من وراء أهدابه المرتخية . وشاعت الحركة في كيانه المفتر نشاطا خافيا في دماائه وعزمه وخاطره لم يرسم ظله على محياه ..

إذ ذاك كانت ميسرة عدوه — أدنى الجناحين منه — تنطلق نحوه انطلاقا السهم للهدف . وكانت أختها الليمنة ، من مقرها البعيد ، تقطع الشوط جادة إلى موقعه كأنها تضمن على صاحبها وحدها بفخر مصرعه ! .. أما هو فعلى ذات الصورة : سكينه ووسن وإعان ... صخرة على ظهر ، ومشية على زهر ! ...

ومد عينه ترود الأفق ثم تثقب بلسحها الجحافل المغيرة ، المندفعة إليه في عنف . الهادرة كالعاصفة ، المنحدرة كالللال ... من خلالها انسرب نظره على جناح فكره وتقديره ، إلى قبة عظيمة هناك ... إلى سياج من المقاتلة حولها قاموا صفا وراء صف . وحلقة وراء حلقة . إلى غريم تستر عن النية بحصون حية ، بناؤها أجساد ، وملاطها عزائم ! ..

خلف هذه القلاع والأسوار ، أخفى معاوية عمره من أصابع الصراع النابشة كما يوارى البخيل كنزه . كنهه بفسطاطه . ولفه بخمسة صفوف من مقاتلته للعقلين ، الواحد يليه تاليه ، والفرد لاصق بهنوه حتى ليعسر أن تمر من خلالها خفقة الريح ! .. وكان الماهل بقلب جيشه ، ذلك القلب الذي ثبت مكانه إلا قليلا عندما تحرك الجناحان ، وكان حماته من خاصة جنده ، وأخلص قومه

وانصاره له وللغاية التي اطلعتها احلامه . وكانت الجموع تزحف وهم ينظرون .
على أهبة وحذر ، حتى تحين لهم ساعة القداء . فلقد بايعوا أميرهم على الموت
دون أن تنكص بهم قدم . عهدهم ثبات وصبر . هدفهم قناء أو نصر . شعارهم :
« هنا القبر ! » إذ استقاموا على مكانهم كالأوتاد ! ... فلعلهم ، حينما وقفوا ،
جعلوا آجالهم تحت أرجلهم ، فلا تقدم ولا تقهقر ولا ميل ... أو كأنهم نخل
بدت الجذوع والفروع ، وغاصت الجذور في الأغوار ...

ثم تلفت الإمام ..

كانت لفظة مباغثة ، على حين غرة من المغيرين الذين قروا لونه وهو جاثم
على فرسة ، رخی الهدب ، مفتر الأوصال ، يحاكي بدنه وأعضاؤه قطعا ضخمة
من الجنادل ! .. كومضة البرق في خطفه . كلمة السيف إذ ينشال ثم ينحط
في انقضاضه . ما بدرت منه حتى قاض من قوامه المربوع زخر الحياة . ثم رجت
في رجاله الساكنين مكان الثورة من القاع . ثم أعدت منهم الميمنة وكانت قبلها
تسير مثل سيرة ، بخطو قصير كأنها لا تسير ! ... فإن هي إلا لحظة كطرفة
العين حتى أسرع القدم والحافر . عدا الرجال وطفرت الأفراس . برقت الصوارم
وأزت السهام ...

وعلى الأثر اضطرب الميزان ... حين تحركت حشود الشام من قليل ،
كانت الأرض تحتها ثابتة ، والهدف بينا ، والطريق مفتوحة ... أما الأرض
فسهل ميسوط ، قر وطاؤه ونامت حشاؤه ، وأما الطريق ففرجة بين جناحي
الإمام يكاد لا يسدها رجاله الذين أقبلوا الهوينى معه كأنما يشقلهم وقر أو يعيهم
السير . وأما الهدف فراكب على أدهم ، الجواد خائر والفارس نعلان ! ...

كذلك انطلقهم كان ، بدء الهجمة ، والسلاح في أكفهم كالأيون الرواصد ،
أطرافه تشخص إلى الغريم لا تريم . بأعين السيوف رمقوه . وشخصوا إليه .
وطوت ظباهم صوبه المسافة بلا كلال وهي ظمأى إلى دماثة ... ولولا طاقة
للطى محدودة ، وأشفار لحقدم مفلولة مثلومة ، تثلب ولا تخرج ، لجنبوا
النجايب والخيول ، وركبوا دونها عقائل الغل عساها تعجل بهم إليه فيدفتوه
حيث قام ! ...

ولكنها لفظة ثم اضطرب تقديرهم ، وشال ميزانهم ، وتزلزل للميدان تحتهم
زلزاله — أولئك الحالمين بقبر له غير معلم في العراء بجانب صفين ! رمى
إليهم بعين ، والشقة بينه وبينهم لا تطويها الرمية . ورمى إلى ميخته بعين ،
وخطوها إلى جواره حين وثيد ، فإذا السكون ضجة ، وإذا الغبار إعصار ، وإذا
الهجمة التي وجهوها إليه التحام ، ثم تقلقل ، ثم نكول ، ثم تقهقر وفرار ...
ونالت البغلة من الجحافل المغرة — إنها أخفت الحصا ، وغطت الرمل ،
وسترت الأفق عن العين . ولكن المفاجأة التي بادرتها بها ميخته أذهلتها عن
البأس ، ولوت بعنان خيلها وجندها وقادتها إلى وجهة لم تكن يريد . كر عليها
ابن بديل . وركز عنف حملته على أدنى فرقة فيها رامت الإمام بالفارة حتى
انتكث نظامها كالخيوط ، وتداعت ، ثم تهاوت على ماوراءها من صفوف أصحابها
كما تهاوى جدار ...

ولم يعل لها لحظة في التدبر . ولا في التصبر ، وما كان ! ... لم يعهدها هزيمة
لثوب أو تستعيد جأشها المسلوب . إنما انطلق ، بغير ونى ، يحرض رجاله :
« أنحشونهم ! ... فإله أحق أن تحشروه ! ... » وهو يتبع الضربة الضربة ،
والشدة الشدة وفي يديه سيفان مختلفان على رقاب أعدائه كأنهما مقص
الأجل ! ...

ثلاث ليال وأيامها سطرت ساعاتها الحزينة للصراع الساح الذي سجلته
صفين . وثلاثة رجال .. والثغرة التي فصلت بين هذا الزمن وهؤلاء الأناس
وسع القدر أن يجتازها على جسر قائم من نزع الأتقس ، وعبت الأهواء ،
واضطراب الجوانح بالغرور والجشع والضعينة ...

وكانت الأقدار ساخرة . فكان تدهور في ناحية ولم تكن هزيمة . وكان
تصبر في أخرى ولم يكن نصر ... معاوية تقوضت خطوطه ، واتسكت عليه
خططه وخيوطه ، ولكنه بات يملك الزمام ! والإمام تقدم رجاله ، وأبلى أبطاله
ولم ينل نيله من شراذم الشام ... والذين مدوا له على الأديم من أشلائهم مهادا
لينا يسير فوقه إلى الظفر كان فداؤهم هواء ، وفناؤهم في سييله هباء وجفاء :
تنائت جسومهم على الرمل فكان بذل ولا نيل ، واتضحية كأنها رنين طبل
ضائع الصدى والدوى في عالم فسيح من الصمم والفراغ ... والذين ضنوا من
رجالهم على الحرب بالجراح ، وادخروا الدم ، لم يهتف بهم بعده في حياتهم عيش ،
ولم يقر لهم في هذه الدنيا قرار حتى باعوا العمر سلعة رخيصة في سوق
الغفلة ...

ولسكنها نهاية محتومة : وغاية في لوحة المصير مسطورة ، مقدورة المقدمات
والخواتيم من قبل أن يرسم البشر من صورتها أول الخطوط ، أو يحددوا من
رقمتها مواقع الظلال والأضواء ... فما الناس إلا همل حينما يشرع القدر سنانه
ويهيء مداده وألوانه . ما هذه الليالي الثلاث وأيامها الحوالك إلا ديباجة النقش
وأديع . وما أولئك الرجال الذين خطوا النتيجة الحزينة إلا أقلام : وما تلكم
الأنفس المفتونة عن الحقائق اللغيبية والأسرار المستورة إلا للادة التي أذاب سيالها
جمد الألوان ، وآلف منها بين الشئب والضرير ، ولثيل والغريب ، حتى جرت
منظرا حافلا بالهدى والحكمة ، بالحسم والتخاذل ، بالموت والحياة فكان
الصورة المحتبأة ! ...

أما الليالى فمن صفر ، رأس العشرة الثانية فيه . وأما الرجال فمن طى ، أئمة نصيره وأرليائه . وأما الأهواء فغرة وغرور وتحاذل ، أخذت سمتها إلى قلوب غلت فى الوفاء له ، والذباد عنه ثم لم يجنبها ولاؤها المفروض سقطه عارضة فجفته بمدى فى أهدابه .. وكان ابن بديل الفاتحة ، وفى عقبه أضاف الأشر خطوطا وعناء ، وعلى الأثر جاء الأشمث فأكمل الصورة الحزينة ...

ودع القدر يذب ، ويعزج ، ويؤلف ، ثم عد إلى الرقعة بأقلامه . دع اللوحة الخالدة على الزمان ، المائلة أبدا أمام أعين الحواطر ولمح الأذهان ، يقترب فيها الضوء من الضوء ، ويلتقى الظل بالظل ، وينفى الخيال فى الأصل ، حتى تبرز مقبلة الهيئة ، قاعة السمات ، شوهاء ... دع هذا كله إلى مقدماته . إلى الخطوط المبكرة فيه ، إلى الخطوط التى تبثت — عندما عطف ابن بديل فى مبحنة طى بعسرة الشام — كأنها بشاره الفجر ، لمحة النهار ، طليعة الغلبة والانتصار ، فإذا هى بعد ساعة أو سريعات تستبين : فاتحة ظلمة ، وغسق ليل ، وبداية دبر ، إن تكن حقت الدم ، فقد أكلت الظفر ، وأوهت العزم ، واستذلت المثل والمكارم ! ..

ومع ذلك فليس ابن بديل الخزاعى بالنهم فى إخلاصه ، ولا فى قدرة إمامه ، ولا فى هذه الشجاعة التى أثمر الغلبة وتستقدمها عروسا مليحة تزفها الحرب للجندي الأقدام . ولكنه بدا امرأ تغلبه الدبعة فينسى العقبي ساعة الزهو بالنصر كما يذمها الذى أعلته خمر . . أطاح بجند حبيب بن مسعدة ، وتفرقوا عن كفاحه فلولا منهوكة ، وشراذم نالت منها المفاجأة قبل أن تنال السيوف ، وضاعت عليها الرحاب الوسيمة فى جنبات صفين كضيق المصاف والصفوف . حتى حينما استجاشها معاوية فى محنته ، أذهلها البأس والخوف عنه ، فلم تصنع له وهو يدعوها ، ووضعت صرخاته دبر الأذن مرة ومرتين وثلاث مرات . وإذا ذلك لم يعد لعاهل الشام رده بحميه من عصفة القائد للغامر إلا تلكم المعقلة الذين بايعوه أن يعوتوا دونه ، والتفوا بفسطاطه حلقة بعد حلقة فى خمسة أسوار ، ثابتي الأقدام كالأوتاد المفروسة ، مانصة جسومهم بعزمهم كأحجار جدار . . .

ولم يعنى صبرهم هذا الخزاعى ، ولم يقل من إصراره على بلوغ سيدهم المستتر

عنه بالقبة العظيمة البيضاء ، وبالمفدين والفداء من أمام ومن وراء ... إنما انطلق يضرب بسيفيه جميعا ، وبعنفه وحمزه وصبره جميعا ، ولو كان يسعه لأفقد إليهم الأحيان من كل ثغرة وكل باب وإن كادهمم بالتواجد وأعمل فيهم الأنياب . إنه يروم منهم معاوية ، قدمهم الغالى فى التمرد ، المفرق الأمة ، الصاعد عليها شملها ووحدتها ليسقيه الهلكة فيكفي الناس الانقسام ..

ومضى يهدم الجدار بعد الجدار — يقصف الصف بعد الصف فتهاوى جموع المعقلة تحت أقدام أصحابه ، وتتكسر تكسر الأعواد الجافة ... ولم تكن محاولته أولى الحملات للقضاء على ابن هند وهو بين عسكريه ، بل سبقتها أمس أخرى لم تسارع إليها الجحافل المغيرة والقوى المحشودة الغفيرة . وإنما انطلق بها امرؤ فرد على جواده ، لم يزل يحمل ويقتحم ، وينساب بنفسه بين العدو والسياب ثعبان حق دخل على معاوية خباءه ، ولم ينجه منه إلا الفرار ...

على أن الجراءة فشلت فى ميدان لا مجال فيه للدفة . خبطت حيلة المقتحم الجسور ، ورقدها مد النفس ، بارد الجوارح والأطراف ، قد ناشه الصخر من كل جانب ، فشدخه ورضخه .. وحبطت أيضا حملة ابن بديل وإن تبدى بدؤها كلمة الفجر بشرت بطلعة النهار .. فأما قشلها فقدر . وأما هدفها فأمنية حالم ذابت فى الدم . وأما الحافز الذى التوى بقدمى القائد للغامر عن تتبع الميسرة للدحورة إلى اختراق القلب صوب القبة البيضاء فهى الغفلة المسترة من الجراءة الرعناء يستار ..

الغفلة هى التى عدلت لا ريب بابن بديل عن مطاردة جند ابن مسلمة حتى يكف خطرهما عنه ثم عن بقية جيوش العراق . ولكنه تعجل الخاتمة . ودفعت به حماسه ، وذلك النصر السريع الذى اهتبله ، إلى مركب صعب حسبه سيورد معاوية الهلكة ... كان يأمل غير مستريب أن يقضى بحركته على غريم الإمام دون حاجة إلى واقعة جامعة تشببك فيها كتائب العراق وجحافل الشام . وكان الذى قر فى ضميره أن هجمة أخرى خاطفة تنصرف به عن صمته المقرر من ميسرة أعدائه إلى قلب جيشهم المتخلف عن الطعام كفيلة بأن تجرع الدعر معقلة العاهل الأموى ، وتشيع فى صفوفها الفرق والاضطراب فتفرج ذاهلة عن ابن هند

هدفا بين المقاتل ، لينا للمناضل ، هينا على الغوائل . فلو كان أجدى حسابه لجنب المسلمين بهذه الجرأة غمرة فاجعة ، جالت فيها بعد ذلك أبالسة الحرب وهى صديا منهومة تجرع وتبلع فلا تشفيها الدماء المهدرات من أوام ، ولا يشبعها من الروس الطائحات غذاء وطعام ؟ ..

ثم خابت ظنه الجسور .. فى حساب الشجاعة جرت له سيرة هى أمثلة للبطولة . وفى حساب الحروب تنهه الحنكة والدراية بما يجب أن تكون عليه إدارة المارك وقيادة الجيوش . فما على شاكلته يكون قائد يقدر خطوه ، ويقيس أبعاده وآماده ، ويتقبل الخطر وإن هان بالحذر ثم يزنه بعثقال ؟ .. إنما كان ينبغي أن يدبر فى باله كل مقدرات النصر واحتمالات الهزيمة دون أن تفتته الجرأة أو يضلّه التفاؤل ولكنه افتتن . وخف عليه شأن تلكم الليسرة الفرارة فلم يهدا بالطاردة . وعندما حسب نصره الأول عليها مفضيا به إلى نصر ، كانت هى قد نقضت عن قلوبهم أثارة الجزع التى أنجبتها البعثة ، واستعدت بالجلد ، واستعانت العزيمة ..

وأثناء حينه من مأمنه ... إنها سوية من النشوة قصيرة ثم ذاق القائد المغامر الصعاب .. شق بين أعدائه طريقه وهو يضرب ويشخن ويقنع هذه الشخوص الثابتة فى مواطنها ثبات الأوتاد . وكان يهتف بصوته العريض : « يا ثارات عثمان ! » ... ولم يكن بطبيعة الحال من الذين يفتصرون للخليفة الصريح الذى أشعلت دماؤه نار الحرب الأهلية بين أمة الإسلام . ولم يكن أيضا مخادعا يروم بنداؤه أن يحول العدو عن الثبات له أو الوقوف فى طريقه وهذه دعوتهم يلوكلها لسانه وهذا شعارهم الرامز إلى الثأر شعاره . ولكنه فى الحقيقة إنما منغى يحث نفسه على التصبر بذلك النداء الذى أشكل عليهم مغزاء وهو يطلب منهم دما أهرقوه ، عزيزا عليه . يوم جندلوا أخا له كان يدعى عثمان ! ..

وكانت نفسه الموتورة تسدد خطاه . وكان قلبه الأسيف الحزين يوجه سيفه إلى القبة الكبيرة البيضاء ... للفريسة الآن فى الجو رائحة ! .. لهيكلها الشحيم الجسم طيف يكاد يعلا الفضاء ! .. للقضاء أنشودة وقعتها الحوافر ودقتها الأقدام على طبول الرمال وهى تنطلق للواثر . فليس معلوية يبعد . على مرمى حربة . العين تناله وإن كان الحسام لا يطوله ...

هذه اللحظة الحازبة كانت المنجل المسنون وكان ابن هند سنابل الحصاد ،
إن عوده ليضطرب ، إن عنقه ليتشبث بموضعه . إن عنقه ليزوب ... وعندما
دنا القدر منه استشعر الحياة في ريقه حلوة شهية فبخل بها على الكفاح ! ..

وكذلك أمن العمرة ، وهو يستأخر بعمره وينأى عن مواطن الجراح .
فما بدت له طلعة المادى ، واستيقن الخطر في الثبات حق مال غير وان يندشد الأمان
في الفرار .. تراجع ببقية أجله . ومن بين يديه ومن ورائه اندفع معه قلب
جيشه ميلا آخر عن الفرقة المغيرة والقائد المخاطر العنيد ، وغدا احتمال الظفر ،
تلك اللحظة ، أمام الخزاعي ، كاللمحة البارقة من جانب المين ، يبعثها جفن
ليسترها جفن ! .. أو تخففة الذبالة الجافة أو كومة ضة الحلم في عمر نائم . فلقد
عدلت حركته التمهقر صفوف الماهل المخرفة فعادت سوية قوية . ثم أمدتها خيله ،
ثم كرت إليها فلول حبيب بعد زوال فزعته وهرجها وجأشها الذاهب الشتيت .
ومع ذلك فلم يبدل الموقف من عناد ابن بديل ولم ينل من عزمه وإصراره .
إعاضى وغايته . وظل وهدفه الأول لا يشغله شاغل عن رقبة معاوية . لا يذهله
بأس ، لا ترهبه كثرة ، لا تحمله على التردد أو النكوص خيل ولا نبيل ، ولا رده
عن التقدم والافتحام هذه الجحافل المناجزة التي أطبقت عليه كالسوار من عين
ومن يسار ، ومن وراء ومن أمام ..

حتى عندما تساقط رجاله حوله كأوراق شجيرة عبثت بها يد العاصفة لم يكف
لحظة عن غلوائه ، ولم يلتمس مفاوز الأمن والنجاء ، فلموت جاء . للمنية لخصمه
أو لنفسه على السواء ... وإن قوام جمعة لنهذه الحرب ، ويتمزق شلوا شلوا ،
وجارحة جارحة .. وإن النكبة لتلد النكبة ، والخطر يفرخ الخطر ... وإن
الرحى الحاصدة لتنطلق تدور فتكسر وتعصر ، وما هو بعلق باله إلا لذلك العنق
الذى مطه الباطل ، وتفخه الحقد وأتلمته الخبلاء ... فإن يكن فقد جنده فليديه
بقية يشوقها الجلال ويطيّب عندها الاستشهاد . وهذه الفتة الصابرة معه حرية
أن تظفر أو تقبر وكلا الأمرين جنة ورضوان ! ..

وتقدم بهم . لايفى حلقه المكدود من نصب القتال وحرقة العطش وحر
الظهيرة يهتف محرّضا هتافه الذى ميمته منذ سوية لحظات نصره : « أنخشونهم ! .. »

فأله أحق أن تخشوه ... « ولاتنى قدمه تشق في الطريق للأمام وسيفه يدق
أو يخرط الهام ... ولاتنى لعزمة تتلألأ في ناظريه تلالؤ البرق في اليوم الماطر
وبلل العرق على حاجبيه كقطر الغمامة ... كلما شد عليهم عدوهم شدوا ،
وكما أحكم حولهم حصاره لم نختمهم الحيلة ولم تنقصهم الوسيلة فانفلتوا خفافا من شركه
المحبوك انفلاتة الرقط والأراقم . ولكنهم مضوا في كفاحهم وإن أسلمهم الكفاح
المرير من شرك إلى شرك ، ومن أحبولة لأحبولة ...
ظهرا الظهر ، وكتفا لكتف ، تساند فريقهم وتعامسك كالسور . لا ثغرة
بينهم لا قترام ، ولا فرجة لسن سهم . جلودهم دروعهم . سوقهم مطاياهم ...
كانوا قلعة من البشر ، جراحهم وحدها منافذها وأعينهم الوامضات بالصبر
والبشر والمزعة هن المراقب على أجساد صلب بناؤها وشمخ إباؤها كأنها بروج .
وهذه الدماء المهرقات منهم خد مسيلها مثل الخندق حول القلعة الحصينة ...
وكانو مائة ا ...

٢

لم يطل كثيرا عمر الجهد الذي بذله عبد الله بن بديل لا قطف رأس معاوية
من فوق بدنه ... كان هجمة خاطفة تبعها سريعا ذلك التوقف على أبواب العالم
الآخر الفسيح يدقها الرجل بسيفه ويديه وقدميه ، وبعزمه وصبره ، وبشوقه
وشغفه إلى مبارحة دنيا لا تعيش فيها المكارم إلا كعيش الزهرة الرقيقة في رعاية
زهار ، مبتورة الجذر ، كسيرة العود ، غريبة الدار . فهي مجاز وهي معبر إلى
راحة ، وهي عناء لقرار . وهذا القطر ، من الدموع والعرق والدم ، هو الجدول
الذي تنطلق عليه السفائن الراحلة للأجلة ، دراكا خفافا ، تحمل الأرواح العانية
والموصوبة والضائقة بذلة الحياة ...

وكانت الحياة في قم الرجل كريمة المذاق ، قد أفسدتها عليه أهواء الناس ،
خليطا من قتاد وعلقم . فيها حسد وبغض وأثرة . وجوهر الحب النقي الذي أودعه
الله دخيلة القلوب كان كدرة في صدفة ، الصدفة في صخرة ، الصخرة في غور من
الرمل والحصى والأعشاب ، الغور في قاع بحر بعيد المهوى ، معتكر الوجه ،

عاصف النوء ، طاغى الأمواج ... حتى حينما نال منه الوهن ، وأكلت من بأسه وآد صحبه شدة النضال ، وخارت بهم أقداهم مهيضة على الثرى القانى الندى بالدم ، كان طعم التراب الذى حشا أفواههم وهم حتى أحلى مذاقا عنده من طعم حياته . ومع ذلك فلم يؤثر الموت وإن سعى إليه . ولم يتعجل لنفسه القضاء إلا بقدر تعجله اقتناص الرأس الذى جر جشعه كل هذه الداهية الدهماء . وليس بين الذين صاحبوه فى مصيره امرؤ واحد خطر بباله التماس السلامة فى التسليم أو فى الهروب ...

وكانوا مائة ا ... كانوا حفنة بين أمة من الأعداء . قطرة فى خضم . حصة على أديم صحراء ا ... حين خرجوا والضحى تقارب الظهيرة كان لهم العنفوان وإن لم يكثروا الغريم المدل المختال ، وكانت لهم العزة بالجلد دون العدد ، وبالعزم دون النفر ، والإيمان قبل العدة من الخيل والجياد ومن السلاح والعتاد ... وشهدتهم الضحوة عماقة انكش أمامهم عدوهم كالأقزام . وشهدتهم الوغى مردة على حابة الصراع لا تنكص بهم قدم ، ولا تفتر ذراع ، ولا تهجد حركة . وشهدتهم الأرض كأن لم تشهدهم ، فأقداهم ما تكاد تلمس ثراها حتى تطفر خفيفة سرية تخوض لجة الهواء ا ...

لكن الظهيرة اقتربت وهم - قى ، رقد همد على صفين كالوات . هى سوية أقبات ، ثم سوية أدبرت فإذا نصرهم ذاك غيمة بددتها الهزيمة ... ولم يفت أمرهم إمامهم وإن هم فاثوا هدفه — فما أحسب — ومالوا عنه إلى اقتناص صاحب القبة البيضاء . فكأنى بهلى قد حذر غايتهم منذ اقتحموا جحافل القاب وأشفق أن تغولهم دونها العوائل فقدم نحوهم سهل بن حنيف فى فرقة المدينة لعله أن يخفف عنهم ، ويعد هونا من أزرهم وبأسهم إذ تعاورهم القوم وحيت وقدة الصراع . غير أن فسحة الزمن كانت قصيرة . فهى ساعة وبعضها أقم الكر وقتها ، هم يسكرون ثم لا تلبث الحرب أن يعيل ميزانها عليهم فى مثل خطفة البرق فيسكر عدوهم من كل جانب : معقلته وخيله وميسرته ، وتبدأ الرعى تدور . ما بين الضحى والظاهرة كان النصر وكانت الهزيمة انتظما فى خيط ا ... ولو أوتى سهل سرعة الريح ، ومشت بأقدام جنده الأعاصير والصواعق ، لما وسعته قدرته أن يبلغ موضع القتال قبل أن ينقلب مجنه .

إنها حركة لم يسبقها الإعداد تلك التي غامر بها الخزاعي ، كانت مفاجأة
لعاوية ولعل على السواء . وعندما فشل تدبيره ، وقعت به قلة جنده وكثرة
غريمه دون غايته ، كان أوان إصلاح خطئه الحربي قد فات . ومع ذلك فشمة
عوامل أخرى نزلت حلبة المعركة ، أضافت الكثير إلى خطوط الهمة التي انجلى
عنها بعد ساعة واحدة الغبار . فالهينة التي انقلت من يمينها سلاح المبادأة هبتها
القوى التي تسكنت عليها وقطعتها شرازم . ومدد سهل رده حسيرا خيل كالليل
قد أفسحت لها هزيمة الخزاعي واضطرب أمره في حرية الحركة وسرعة السكر
والمهجوم . وقلب جند المراق لم يخل حينذاك من عناصر كانت تؤمن بحق على
على حرف ، فلم يكذب في الأفق تفوق الأمويين حتى انسحبت الهينة من صفوف
الإمام كأنها آثرت ألا تهز سيفها في وجوه إخوانها من عن الشام ، بل مضر
أيضا تلكأت عن النجدة ، وجنحت هي الأخرى إلى مبارحة الميدان في لحظة
كان ينبغي خلالها الصبر واثبات إن لم يجدر التقدم والاعتحام . وعندما حسب
الناس أن المأزق الذي وقع فيه ابن بديل وميخته ليس سوى هزة طارئة هي
جانب من طبيعة الحرب التي تتسم دائما بالقلب ، ويختلف تيارها بين لحظة
ولحظة من حظ لحظ ، من مد لجزر ، كان للموقف كله في حقيقته أبعد عن
رجاء الآمل ، وبشر المتفائل ، وأدنى إلى خطر داهم يوشك أن يجاب عن
نكبة مستطيرة ...

حدث هذا كله في سرعة مذهلة . في كسفة قصيرة من نهار . في دقائق
قلائل التأمّت فيها ساعة مرت كاللمحة ، وثقلت كالدهر ، وتساقّت خلالها
الأحداث نحو القاية كأنها ريشة يحرفها التيار ! ... العيون قصرت عن متابعة
الصور التي حركها الزمن . الأذهان كُلت عن استكناه النتائج لأنها عجزت عن
ملاحقة البواطن أو الأسباب . حوافر الجياد التي تداركت تركض وتمدو وتطوى
المسافات بدت كأنها تقفز وتطفز وتتوذب وهي بنفس مكانها لا تريم ؟ ... فأما
النصر فغيمة ، وأما الهزيمة فغيمة ، وأولئك الجند في الفريقين استظلوا السحاب
المترحل يترى فوقهم قطعة قطعة ، لا يحركونه بل تسوقه الريح ...

وانتبه الإمام مثل غشية ... فإذا ميخته انهارت . وإذا مدده قد ضربته

خيل عدوه وردته فرادى ومثانى ومزقا محلوله تهرطع مهیضة إلى النجاة . وإذا
الميدان حيث نشب الصراع يستحيل جزرا وقطائع من الأقطاع في بحر طام من
المهرج والموت والفواجع ... هنا شرذمة وهناك شرذمة . هنا فلول من جنوده
لصقت جسومها بالثرى المبلل وهناك فلول تصارع المهلكة على بقية أجل وعلالة
أمل كما يضطرب في الحبال الطير وهو يحاول أن يتحرر وينفذ إلى الفضاء . هنا
وهناك دحرة ودبرة ، وهي وتهافت ، مصرع ودم — أينما انطلقت عينه طالعتها
صور شتى من النكبة القاصمة ، في الميمنة .. في الميسرة ... في القلب ...
في كل بقعة من أرجاء الميدان ...

ومع ذلك فلم يفقد الجنان . لم يفقد القلب الذي يترنم بين ضلوعه بالحففة
ورجعها وهما جسارة وإيمان . لم يفقد بمدى يديه ولا يسراه وهما له جناحان .
هو جيش وحده . وفرة من عزم ، وعدة من بسالة . فما تخلف النصير عنه ؟ —
ما تألب العدو ؟ — ما الموت ؟ ... وعندما عزم على أن يلقي إلى المعركة
بيديه . كان عليه أن يشق طريقه إلى حديقة الموت بين صحبه قبل خصومه . فلقد
انبرت له من أواسط طائفة ، فيها أبنائه ، تجهد جهدها لتفتديه وتناهى به عن
الانفجار . والتفت به . وقدمت إلى محلة الخطر مهجها دونه ، والصدور والنحور
والأبدان تؤلف حوله سياجا مانعا أن يخترقه إلى فم الهلاك المغفور ...

لكنه عصف بهم . مضى يدهم دفعا عن نفسه وهو يشق بينهم طريقه واثقا
إلى الغريم . راح يتجرد من هذه الدروع . ويقصف تلك الحصون المؤلفة من
دم ولحم ، ومن أنفاس وحياة ، ومن تضحية وحب وإيثار ، ليخرج خالصا إلى
العراء يدق على الهول باب ، ويشق إهابه ، ويقتسم نوبه وأنيابه ..

وكان عاطلا غير دارع ، حاسرا بلا ترس ، أعزل اليد من السلاح سوى
رميح كالعصا القصيره . ومع ذلك فقد بدا كمن لا يحذر ، ولا حاصبه لا يخترق
من الردى المتربص له على مقربة في صفوف أعدائه الذين ظفر الالدد من عيونهم ،
وحرضهم الحقد ، ورددت صدورهم أنفاس الضغينة . إنما مضى يدنو منهم ،
ويحاول أن يخاطب جموعهم في لحظات كان خلالها قبلة لكل عدوان ، وهذا
هنا لكل طعان ... وعجب له صاحبه سعيد بن قيس فهم يرده عما اعتزم
وما هو فيه .

« أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك ؟ ... »

فلم ينل منه تخوفه ، بل رد نصحه وأباه وهو يجيب في طمأنينة :

« يا سعيد ... إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حافظة يحفظونه من أن

يتردى في قلب ، أو يخر عليه حائط ، أو تصيبه آفة . فإذا جاء القدر خلوا

بينه وبينه ... »

وانطاق . كلما اعترضه من ولده من يبتغى أن يستقبل عنه بصدرة سهام

قناصة الشام أسرع فدفعه ، أو نحاه ناحية ، أو احتمله فألقاه بين يديه أو وراء

ظهره . لتفسح سبيله إلى الصفوف المغيرة ... كان في هذه الآونة يواجه جيشا

برمته . وكان ظاهرا كالعلم في أديم سواء لا تخطئه عين ، وكالحدف تنو صوبه

الأسنة المنهومة . كانت النبل تنطلق إليه كالصواعق ، وتتر حوله بصوت الرعود ،

وتتناثر كمطر منهمر وهي تكاد تبل عنقه ومنكبيه بدمائه . عند ذلك غلبت

الركة ابنه الحسن فأقبل أيضا يحاول معه محاولة سعيد :

« ما ضرك لو سميت حق تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لمدوك من أصحابك ؟ »

فألقي الإمام نظرة عابرة إلى جانب الميدان حيث ميسرته ، ثم ابتسم غير آبه :

« يا بنى .. إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطىء به عنه السعى ، ولا يعجل

به إليه المشى ... »

وعاود انطلاقه ...

كيف يهاب ؟ ... العمر قدر ، والأجل كتاب . ونفحة الإيمان التي تفيض

بفؤاده كانت له الملاذ والجنة . هو لا ينكص . هو لا يحرص على بدنه إذ البدن

ثوب وغشاء ، ولا يقشبت بهذه الحياة فهي زبد وجفاء . إنما البقيا للروح .

للسيرة دون الصورة . للمثل والمبادئ لا للجيفة النابضة بالدم ، المصوغة من

عظم ، الملفوفة بلحم وإهاب ..

ثم انطلق لم يتردد في انطلاقه المنقض هنيئة ، ولم يتوقف عن التقدم سابحا

على الهول ، غائضا في الحراب والنبل يضرب فيهم ويقتلع — أولئك الذين تقدمت

بهم مصارعهم يروم حقدهم أن يذوق من دماؤه .. وكأنما غرهم به انفراده ،

وقلة النصير خلفه ، وهذه السمات البوادي للهرج والحور في صفوفه على طول

جبهة القتال فأقبلوا إليه مهطعين تزدهيم الكثرة ويخيلهم الظفر وكأنما بدا لأحمر ، مولى أبي سفيان ، أن قد آنت اللحظة ليحسم الأمر ويشيب وليه ابن هند على كفاحه الزنيم للتاج . فما هو أن بصر بالإمام يخطر ، وأيقن أن نيله قريب ، حتى انفلت يركض فرسه ، ويشرع سيفه ، ويسبق إليه النظير والقرين ليعود وحده بفضل اغتياله . ولكنه أخطأ الحساب . حظه خاب . حينه كان قد دعاه . فلم يكذب يدنو ، ثم يرتفع النصل ، ثم يسدد الشفرة المصقولة إلى الصدر العاري ، ثم بهوى بها تحمل الموت كالفضاء ، حتى كانت يد الإمام أسرع إليه من ومضة الحسام في عينه ، فإذا هي تحتطفه من صهوة جواده ، وتعلو بجسده في الفضاء كالدمية ، وتجلبده الأرض جلدة قوية هشتت عظمه ، وعجنت لحمه ، وخلفت له من علائم اللدد والغرور والحياة آهة بلا صدى ، وأنة بلا ترجيع .

كانت ريبة حينذاك وحدها في ميسرته ، ثبت رجالها على قدم . لم يفزعها الهول . لم تذهلها هذه الموجات المتوالية من قوات العدو التي راحت تغور جوانب الموقعة . لم تل بها خشية الخطر ، التي تملك نفوس بقية الجند في الجيوش العراقية ، إلى حركة انسحاب أو إلى فرار . . . ومع ذلك فلم يلد بصبرها ، أو يتخذ من صفوفها الراسخات جنة . وعندما انكشفت عنه الخيعة ، وخلا القلب إلا منه ، وهربت مضر بالأعمار ، أقبل وحده ، كما شهدناه ، يقتحم العمرة ..

غير أنه لم تشغله شاغلة إبان تألب للنومين لدماثة عايه عن إدامة النظر في حال رجاله الذين حزبتهم الحنة ، وحربتهم الحرب ، وفرق شملهم وأعدادهم اختلاط الأمر واضطراب حبل الكفاح : إنما كان يضرب وهويرتب ، ويهجم وهو ينظم . فلم تكد المعركة في إقبالها وإدبارها تلتقي به في جانب البقية الباقية من ميسرته ، حتى راح يستثيب الذين هجروه ، ويحثهم على الصبر ، ويحذرهم مذلة الفرار .. وكان الأشتر قد دفعه إليه مد القتال ، فدعاه :

« يا مالك »

« لييك يا أمير المؤمنين ... »

« ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه

إلى الحياة التي لا تبقى لكم ؟ »

أينما كانت حركة في جنبات الحاية ، وأينما كان نفس ، كان على إرسال بصره ويشرك تديره . وفي حلال الأيام والليالي اثلاث التي استغرقها القتال ، وحمل فيها أو فتر وطيسه ، كان يشهد — وإن نأى — تقدم الجند واستنخاره ، الهجمة والدحرة ، السكرة والفرة . كل هنة وصغيرة فلم نخف عنه من مواطن الخطر خافية ، لم تغب لحظة عن إدراكه خطوة راجل أو وثبة فارس مهما نأى بها الميدان ... إنه لينظر إلى المعركة كمن يتصفح صحيفة . ويعمل كمن يخطط على أديعها بقلمه فيمحو أو يضيف ما يشاء ... ولم تن قط عزيمته . ولم تحزبه الشدة في إبانها بقدر ما حفزته فإذا هو مضاء وأنفة وإيمان . وعندما استشعر المحنة التي تردى في قلبها رجاله ، كانت عينه تسبق العلة ليعمل لها ذهنه الدواء — جمعهم ولي إلا حفنة . صبرهم هاض ما عدا مسكة — ريمهم ذهبت سوى أثر كأنه بقية الربوع الدوارس . أما هو فله صبره ، وله أيضا بشره وإن كرته الانهيار ، وله ثقته واعتداده : فلم يكذب يده له من صفوفهم خوار ، حتى انطلق يقتحم العمرة ، بغير وئى أو فتور ، يهجم ويصول ، ويناضل وحده موجاتيا من جموع الأعداء ، لا ليظفر ، بل لينفث الثقة في القلوب ، ويرسم الأسوة لكل متردد ، ويحمل على الصبر كل فرار ...

وكان له نهج ناجح يهد السكرة التي خايلها النصر ، ويمد القلة التي أفرزتها الهزيمة . حين تقطعت أوصال جيشه ، وغدا شرازم كالجزائر في طوفان من جحافل الشام ، سارع هو فنفض جمعته ، ثم يادر بما يرد عن صحبه المادية ، ويزلزل خصمه ، ويطنى جهره ، ويكفى قدره ... حينذاك شحذ الحيلة ، فقدم الولاء والفداء والتضحية طليعة مناصرة إلى أولئك الذين تخلق حولهم عدوه . وتركهم من حصاره في شر ، أعتاه أسر ، وأهونه هلكة ، وكان تفضيله خصومه الأقوياء عن حقيقة الحال ، وبثه الدعر في قلوبهم ، وإيهامهم أنه الأعزى الخطوط التي وضعها تديره . وكانت قوة الإيمان ، والجرأة ، وحب الإيثار هي الدعائم التي أقام فوقها جسرا مر عبره جنوده المقصولون عائدون للحرية ... فذات ساعة في الوقعة ، حملت خيل معاوية كثيفة على فرسان من العراق فقهرت منهم ، ومزقت ، وبترت ألفا حيل بينهم وبين الخلاص ، عند هذا نادى الإمام :

« ألا رجل يشتري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. » .
فأتاه رجل من جعف ، مقنع في الحديد ، تشع عينه نظرة تخيف الموت :
« يا أمير المؤمنين ... مرني بأمر ، فوالله ما تأمرني بشيء إلا صنعته ... »
فقال له علي يسدد خطاه :

« أبا الحارث ، شد الله ركنك ! .. احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك
فتقول لهم : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام . ويقول لكم هلموا وكبروا من
ناحيتكم ، ونهمل نحن ونكبر من هاهنا : واحملوا من جانبكم ، ونحمل من
جانبنا على أهل الشام ... »

فأسرع يفعل ، وشهده اليوم يعدو به جواد كالليل ، أدهم الجلد والفرقة .
خف حملة على الريح ! .. لم يزل يعضى به في صفوف العدو المروسة ، مرة خلة ،
ومرة عنوة ، وهو قابض على ظهره كالقلعة ، لا يصيبه سهم ، ولا يناله حسام .
وبلغ الجمعى هدفه . فلما لمت من بين قناعه الحديدى عيناه . قرأ أصحابه
المحاصرون في نظراته بشير السلامة ...
وسألوه :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ .. »

قال :

« صالح ، يترئكم السلام .. »

ثم أدى لهم رسالته .

فإن هي إلا لحظة حتى اهتزت الأرض بالتهليل والتكبير ، من هذا الجانب ،
ومن ذلك البعيد . ووقعت جماعة الشام في حلقة منه . وفي حيرة من هذه الحملة
المفاجئة التي بادرها الفريق المحاصر المستضعف . وفي فزعة من تلك التي أنبأهم
التكبير خلفهم أنها ستحمل إليهم المصارع ... غلب على أوهامهم حينذاك أن
عليها قد استفاء جندا ضخما — ثم ذلك الزئير عن أعداده — وأقبل فيه من
ورائهم ، يخافوا الوقوع بين فكي المقرض ...

وكذلك نجت الفرقة المحصورة . وانفسح لها سبيل الخلاص واسعا في صفوف
العدو الذي ختل عنها التهليل ، وفرقه الخوف ، وأوقت به حيلة رجل ، وجراة
(١٦ — الإمام)

آخر على الفناء ... وكذلك تشهد الإمام دائماً خلال الواقعة قد جمع حواسه ، وإدراكه ، وعلمه بالقتال والرجال ، عدة وأهبة تسكب عنده جمعة النوازل ، وتندراً غائلة الويل . فإذا أجزى الحتل ختل ، وإذا أجدت الجراءة غامر ، وإذا أمر الضراب صال ...

٣

بدأت دعوة الأشتر الناس للثبات كالصرخة في الربيع الخالي .. شغلهم عنه الخطب . أذهلهم الروع . وكافوا يفرون من حوله كالجراد . وكالظباء الشوارد . وكالحمر المستنفرة فرت من ضيف .. ولم يردد اللضاء صيحة كصيحته فيها الالهة والاستغاث ، والرقعة مع العنف ، والتوسل مع الوعيد . وكان يحجار بصوته المجاجل : « أنا الأشتر .. إلى أيها الناس ؟ » فيقبل واحد ويدبر عشرة . وكان يرميهم بوحش لفظه : « عضضتم بين أيكم ! » فيلقونه بسمع أصم ... فاستفاء منهم قومه :

« أخلصوا إلى مذحجا .. »

عندئذ أخذت خشية الدهول تنجاب هونا عن النفوس المفزوعة : وبدأت الأرجل تثبت ، والقلوب تثوب . لكأنما هز العرب من غير قبيله أن رأوه لا يبالهم ، ويكفر بنخوتهم ، ويؤثر النخع عليهم ، فراحوا ينعتون عيونهم إليه بعدلى الأجياد عنه ... ولكنه انطلق يستجمع أهله . رويدا رويدا كان تفرم يقبل ، وأعدادهم تأتلف وتتكتل . فلما شهدهم قوة تستطيع أن تقف على قدم ، فتدفع خطراً أو تسد ثغرة ، وقف بينهم يخاطبهم ونبرات اللوم تتنثر من بين شفاهه كالحم :

« عضضتم بهم الجندل .. والله ما أرضيتم اليوم ربكم ، ولا نصحتهم في عدوه ، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الفارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان المطراد ، وحترف الأقران ، ومذحج الطمان ! .. » وتركهم برهة يلوكون فيها تقريره . حتى إذا نضمت سياهم بالندم والتوبة ،

رق صوته ، ولان لهم عياه . ثم مد يمينه ، وهو يحرضهم ، يشير بها إلى
مقالة الشام :

« ... اجلوا سواد وجهي برجع في وجهي دمي ا ... والذي نفس مالك
بيده ، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله ... »
قالوا له وقد حركتهم حميته :
« خذ بنا حيث أحببت ... »

كان عليه أن يعيد بناء ميمنة على التي تهافت ، وخرقت جدرها الشقوق
والشغرات . فلم تعد سوى خرائب وأنقاض ، وأوشكت معاول الهدم التي تناولها
بها رجال ابن هند أن تدكها وتأتي عليها من القواعد . وأئن كانت المهمة التي
أخذ نفسه بها عسيرة ، فإن المادة الصالحة للترميم ، ورتق الفتق ، وإقامة الدعام ،
كانت لا تزال على مدى يمينه . هنا ملاط وعمد وأحجار ا — هنا طوائف لم تكن
لتمسكين أو تفر بالعمر وفيها بمد ذماء من روح ، ونفثة من دم ، ونفس حياة ...
ولكنها تلفتت لتجد الميدان قاعا خاليا حولها إلا من نفيها الهاشم الذي نهكته
الحرب ، وأكل منه الكفاح . أما عدوهم فسيبهم إلى النصر . وأما حليفهم
فهجروهم إلى المهرب ، وأما هم فرقأوا أدمع الحسرة ، وامقوادم الجراح ، وساروا
الهوينى على محجة الموت لعل هذا الفضاء من حولهم يطلع جحفا من الغريم المدل
يلغون ثأرهم أو يثيبهم لقاؤه الشهادة ا . . .

ولقيهم الأشر . أولئك شوية من همدان . شباب بواسل شم صلاب ، مزقهم
الوغى الخوانة ، وحالقتهم الخطوب فلم يعضوا للذلة الجباه . بالدهاء ضمخوا
قتلاهم . بالثرى كفنوا أحياء . فات حظهم غار النصر فآثروا وهم أعزة ركام
القبور . بالرضاء والبشر والطمانينة استقبلوا الأحياء .

وكانت لهم راية عزيزة في الرايات ، ظلت على مدى القتال ثابتة كالطود ،
رافعة كالقمة ، تطاول غيوم السماء ، لم يقصفها حدث ، ولم تعل بها محنة ، حملها
رجال غير أمجاد . وركزوها في قلوبهم فلم يدعها واحد منهم إلا وهو يودع آخر
نسمة من أنفاس العمر ، ينفضها الصدر ويلفظها النحر ، ولا يتوسد على الأديم
رأسه حتى يتلقفها من فؤاده قلب آخر . وحين هذا تطيب نفسه ، ويهدأ باله ،
وتومض عينه ببسمة رضاء ، ثم يجر على اثرى القانى المبلل وينام ...

دونها قتل ستة أخوة ، ثم ثلاثة ، ثم اثنان . ضممهم في الردى التراب
كما جمعتهم في الحياة الأصلاب . فلما أن خاضت قومهم ربة الحرب ، وفنيت منهم
القدم والحافر ، وتقطعت بهم عن الطعان الأسباب تهاوتوا بحسرتهم :
« ليت لنا عديدا من العرب يحالفوننا . . فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهرا . . »
وعندئذ لقيهم الأشر . فأهاب :
« إلى . . . »
فلبوه . . .

* * *

ولم يطل به التجوال — كما أسرع الناس منذ ساعة للتفرق بادرُوا الآن إلى
التجمع حوله كلما بلغهم نداؤه ودعواه . فلقد هدأ منهم الجأش ، وسكن الروح ،
وتبددت غمة الضعف والتخاذل فما بقي منهم إلا نادم وأسيف . في جموعهم تلك
لم يكن خائن . إنما زلزالهم البغته ، وجمعت بهم أقدامهم عن غير وعى إلى مسالك
النجاء . وإنه ليهتف فتأتيه من هنا طائفة ، وتلحق به من هناك فرقة ، وتأتلف
عنده الفلول والشراذم وهي تنفض عن أردانها غبرة الحور وعن وجوهها معرة
الفراز . وإنه ليحضى وشمس الظهيرة تنطلق للمصر ، فيكون سيره كليلها ، ونفره
كظلالها ، كلما استقدم نعا نصيره واستفعل ، وكلما مالت امتد ظلها وطال ! . . .
فردا فردا جمع رجال الميمنة المدحورة ، حجرا حجرا لم جدارها المنقوض ،
وشيثا شيثا راح يرسى له القواعد ويقيم العمد والدعامات . . . ولم يلبث جهده أن
أجدى جدواه . فالميون النالقة ثبت حملاتها على مواطن الخطر . والقلوب الفزعة
أمنت من خوف ووقع خفقها نغم الجهاد . والجوارح المرتجة فامت للعزم فصلبت
للملامع ، ورسخت السوق ، وشدت الأيدي على الصوارم . وعندئذ أخذ الأشر
بهم حيث كان زحف ابن بديل قبله ، فلا يكاد يصمد لكثيرة من عدوه إلا كشفها ،
ولا لجمع صلف منهم إلا حازه . . كانت ربة القتال هاديته . كانت تسبق خطواته .
كانت تفرش له الأرض بالنصر . . . أما صحبه فقد حلت لهم خمر القلبية فراحوا
يعبرون من كؤوسها حتى النشوة . وأما خصمه فقد بهتهم بلاؤه ، وثبات جنانه ،
وارتماؤه على الأسنة المشرعات صوبه كأنه يتمجل حينه . إذا ثبتوا له اقتحم .

وإذا انصرفوا عنه طارد . وإذا حركوا القدم للهرب كان أسبق منهم إلى منافذ النجاة يسد عليهم الخروق والمسارب . وأينما نقلوا العيون في جوانب المكان لم تقع إلا على حديدة سيفه ، الحافظة خطف الشعاع ، المتلاثلة كاللواء الجاري ، الصافية كالمرآة راحت تعكس على صفاتها منايهم . . .

حق رجاله الذين جاوروه في الحومة بهرم صدقه القتال ... تحدث أخوان عنه وهما يشهدانه يقصف ويعصف ، فخارا فيه . قال منقذ :

« ما في العرب رجل مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيته ... » .
فتساءل حمير :

« وهل النية إلا ما ترى ؟ ... » .

وعندئذ هن منقذ رأسه وهو مستريب حيران :

« إني أخاف أن يكون يحاول ملسكا ! » .

ولكنه كان لا يبتغي وجه دنياه . كان يرجو الآخرة ، ونصرة الكارم ، وإحدى الحسينين : غلبة أو شهادة . ولقد ساقه الزحف حتى رأى امرا من رجال الإمام يحمله نفر وهو على أكتفهم خضيب ، فسأل الناس :

« من هذا ؟ » .

فأخبروه :

« زياد بن النضر . استلحم عبد الله بن يزيد ، فتقدم زياد فرجع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حق صرع ... » .

ثم رأى بعد هنية جريحا آخر فسأل :

« وهذا ؟ . » .

ف قيل :

« يزيد بن قيس ، لما صرع زياد ، رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حق صرع ... » .
وعندئذ غمر رضا محياه ، وقال :

« هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم . ألا يستحي الرجل أن يتصرف

لم يقتل ولم يقتل ولم يشف به على القتل ؟ ... » .

فالصبر فريضة ، والجرح خفر ، والموت في معام القتال مثوبة وذكر .

أما الملك فنشب يفتن الدين استذلهم الحياة ...

وزحف بجمعه . . .

كان ماردا على صهوة جواد . خف لجه فكان كشبح . وطال قوامه كأنه
برج ، وأفعم بدنه توثبا وحركة فلاح كشعبان . . . وكان يذرع الميدان كالإعصار
الغاضب ، ويحتاج اجتياح عاصفة . لا تكاد تثبت تحته القوائم ، ويوشك من
نشاطه وسرعته أن يظهر هنا وهناك ، وهناك وهنا في آن . . . ولم يكن همه
حسب أن يلتهم ويقتحم ، وأن يقنص ويصيد ، وأن يقسط وهو يفرق الردى
على أعدائه قسمة عادلة وحصصا سواء . . . إنما كان يرجو أن تنجاب له غمرة
التعق فيشهد الخزاعى ورفاقه الذين تعاقدوا ممأ على الموت وهم الآن جثى بناحية
كلت منهم الجوارح ولم تذلل الأرواح . . .

حينذاك كان النهار يترحل . الشمس تميل . الأصيل يلتهب . الأفق يصطبغ
بالشفق فيبدو جانب السماء كالحريق . . . وكانت الأرض مسرحا لأطراف
النساء الذى تقدمت طلائمه . فهنا بقعة قانية هى من ترى غريق فى الدم
أم انسكابة الشفق نخلتها الحجرة ؟ . . . وهنا كثيب من حجارة غبر ، أثمر لفحة
الرمضاء أم قدمسها ظل الليل ؟ . . . والرمال الصفراء كانت منعكس النهار الباهت ،
الذى خفت نوره وحال لون محياه . . .

وتحت ظلة الغروب رآهم اصقا بالأديم كالإبل البرك بعد نصب الإصحار . فلما
أن أحسوا فى جوارهم بالقوى الزاحفة ، وحركوا نحوها العيون السكيلة ، ودبت
الحياة فى أوصالهم دافقة عندما رأوا تلك الشارات من خطوط بيضاء تزين رهوس
القادمين ومناكبهم ، وتنبأ أنهم من رجال الإمام . . .

وتهااتفوا يسألون فى قلق :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ »

فأجابهم من أصحاب الأشر من ردهم إلى الطمأنينة :

« حى صالح فى الليرة ، يقاتل الناس أمامه » .

فرجع الفضاء بشرهم وشكرهم :

« حمد الله ! .. قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم ... » .

وقام ابن بديل يتوئب بقدميه ألف شيطان ! نسي وصيه . ونفض إعياءه .
ورده ذكر على جبارا عاتيا كما كان ، يبحث عن الخطر ، يتعدى الهول . . .

وأهاب بمائته :

« استقدموا بنا . . . » .

كرة أخرى عاود المفامر مجازفته . وجه بصره إلى القبة البيضاء ، وسيفه ، وقلبه الذى كان يضطرب بالفت والزاوية ... وطى أثره سار رفاقه يستبقون الطريق ، ويوسعون الخطى حسبما أمكنتهم الجسوم المنهوكة ، وحمى الجراح ... وكانوا قد تساندوا بالمناكب ، يديون دية رجل واحد ، ورجل واحدة ، وقلوبهم فى جنوبهم تطفر شوقا إلى الردى أو الظفر . وكان الخزاعى عليهم ، خلفه انطلقوا ، ومشاهم ، قبلهم مضى يشق المجهول ، وعندما أناه تحذير الأشر : « لا تفعل . . . » ابتسم ، ولم يضق ذرع خطاه ... وعندما جاءه نصحه : « اثبت مع الناس فهو خير لهم وأبقى ... » أبى السلامة ، وزود قدمه الزاحفة بجناح ..

وعبر لقدره ، دونه من عدوه سياج من المقاتلة كالغاب . جند ضخم تكاثفت جموعه تكاثف الظلمة فى الليالى المطيرة . صفوف كاللوج . فباى سيفه أصاب ، وكم من رقاب ؟ .. كان كزورق ، وكان حسامه مجدافى ملاح . كلما خاض لجة برزت لجة فتحرك هذا وتحرك ذاك وانساب القارب على التيار الأحمر ؟ .. ثم بدا الشاطئ فاذا هو وعر تحطم الزورق على صخوره . . . على مدخل القبة البيضاء . على مرماه . . . فلم يكذب يخلص إلى معاوية حتى زلزلت جراته أولئك الذين أحاط جمعهم بماهلهم فذهلوا عنه ، وغدوا عيونا جوفاء وأكفا مشولة . كانوا فى مثل حلم . كانوا رجالا كظلال . ولكن حرارة الحياة التى هجرتهم بفتة وتركتهم مسوخا صماء كالأصنام ، تركزت كلها فى حلق ابن هند الهلوع ، فراح يصرخ :

« ويلكم ! .. الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ! .. »

فردهم إلى الوعى صياحه ...

من كل جانب تطاير الصخر والحجر إلى ابن بديل ليسلبه عمره . قذائف قذائف اندفع نحوه . ورجا ورجما غمره بطوقان . ما من رجل منهم مشى إليه مشية جندي بسيف أو حربة . ما من امرئ جرؤ فدانه . إنما تناولوه عن بعد بهذا النوع من العدة الذى يكفيهم لقاءه ويكف عنهم شره حساميه ، كأنهم

في عمرة ، وكأنه إبليس يحصبونه بحجرات ا .. وحين أوهى قوى وناء ، وفته
الصخر والحجر ، ورقد جسده الهامد كومة من مزق ودماء ، هتف معاوية برجاله
وقد فأت نفسه إليه :

« انظروا من هو ... »

قالوا :

« ابن بديل » ا ..

فأقبل نحوه يمد يده ليرفع غطاء كان قد ألقاه عبد الله بن عامر على الصريع .
وعندئذ ابتدر دمع ابن عامر ، ثم صلبت ملامحه ، ثم رد اليد الممدودة ، بمنف
وقسوة وهو يزأر :

« لا والله ، لا يمثل به وفي روح ا .. »

قال معاوية وقد هزته عزيمة رفيقه :

« اكشف عن وجهه فإننا لا نمثل به .. قد وهبت لك .. »

ثم ألقى بنظرة على الحيا الشائه ، فيها شماتة وفيها إكبار ، وهمس يقول :
« لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلا عن رجالها لفعلت ... والله
ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن ثمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمي ، إذا ما الموت كان لقاءه

قدي الشبر .. يحمي الأنف أن يتأخرا

كلث هزبر كان يحمي ذماره

رمته النايأ قصدها فتقطرا »

ومضى إلى قبته ...

ورقأ ابن عامر دموعه ، ثم جر على محيا الراقد الهامد الغطاء ...



حق الأصيل . كانت الوقعة مضطربة السمات ، خليطاً من تقهقر وصبر وإقدام ، خطوطاً مختلفة ، رفيعة وعريضة ، ذات معالم من هزيمة ونصر ، ومد وجزر ، كتلك الخطوط التي راحت الشمس في غروبها تصبغ بها جوانب الأفق بريشة الشفق ، فيتجاور فيها النهار والليل ، الضوء والظل ، صفاء الآلى وعتمة العنبر ، وتنبتق منها أشعة الطيف كثير اللجين والتبر ، وتنظيم اللازورد والمرجان . . .

في الميمنة ذهب الأشريرم ويقوم . . . وفي الميسرة ثبت على يناضل ويصاول ، بغير ظهير ولا سند سوى هذه الطائفة من ربيعة التي دقت القدم في الأرض ، وألصقت السلاح بالأكف حتى لاح كل واحد منها كأن له إصبعا سادسة هي الرمح أو العنزة أو السيف . . . من اعتدال النهار لغروبه ، من الضحوة إلى الغسق ، والمساء لما تنتشر ظلاله ، وقفوا جميعاً يقارعهم الموت ، وينازعهم الثرى الذي وطئوه حبة حبة وحصة حصة . ولستهم غالبوه بالعناد وإن لم يكاثروه بالأعداد . ما كان لامرئ حينذاك أن يقهرهم . لا قبل بهم لقوة ، وقد تحصنوا دون عدوهم ، بالإيمان يدرأ عنهم عادية الخوف وهي أفئك بالنفوس من أسنة النضال .

وسأل الإمام حين دفعه تيار الوقعة إلى هذه الفئة المصابرة ، التي ثبتت للموت :

« لمن هذه الرايات ؟ . . »

قالوا :

« رايات ربيعة »

فدعاهم وهو يكبرهم :

« بل هي رايات الله . . . عصم الله أهلها . وصبرهم ، وثبت أقدامهم . . »

ثم أشار إلى غلام حدث منهم ، كان يرفع رايتهم الحمراء :

« يا فقى . . ألا تدنى رايتك هذه ذراعاً ؟ . . »

« نعم والله ، وعشر أذرع . . . »

وقفز يتقدم . ثم قفز ليغوص في جمافل العدو الكثيفة بغير مبالاة ، وقد

أذهلته الحماسة عن الناس ، ومواطن الردى ، ومهاوى الهام . . . ولكنه سمع عليا من ورائه يحذره :

« حسبك ، مكانك ! . . . »

فتبت حيث قام . وثبت خلفه رفاقه لا يتخلل صفهم مغير ، ولا يهزم عن مواقع القدم مغامر . ناضلوا على الباع والذراع ، وعلى الشبر والفرس ، وعلى الحبة من الترى والرمال . ولم تختلهم قط عن صبرهم تلك الحيل التي انتفخت بها جعبة ابن هند وود لو أبلغته هدفه . . . فأتى له أن يختل ويخادع ، وأن يراوغ ويحتال ، والإمام على بصيرة من خافية ضميره ، لم يغب عنه أسلوبه في التويه . . .

من قبل ومن بعد جرد معاوية خيله ليبعد الخطر عن نفسه ، وليخذل الناس عن على ، وليأتيه من حيث يأمن البغته أو ترق خطوطه في مواقع القتال فلا تستعصى على الثغرة . بالمال . بالمنصب . بالفرور الذى يستأسر قلوب الرجال . بكل وسيلة وحيلة احتال . . .

أنت تراه حين يوقن أنه بات غرضاً واضحاً ترصده الأعين ، وهدفاً بينا تسعى إليه المنايا الظمآنة على شفرات بضعة من اللغامرين فى معسكر الإمام ، قد حصن نفسه عن النوازل الداهيات فنأى عن الميدان بفسطاطه . ثم اتخذ مسابجا من الحماة . ثم أضمن فى الحيلة فقدم فارسا من مواليه شبيها به ، كان يلبسه مثل ثيابه ، ويزوده بمثل عدته ، ويقدمه فى الغمرات لعل الأعين العادية والأبصار المشرعات أن تنخدع فيه . . .

وأتمر حقا هذا التويه . فكان الناس حين يخطر أمامهم حريث يتهامسون بغير تردد : « ذاك معاوية ! » . وكان العاهل طيب الخاطر بحيلته . وكان دائماً النصيح لفتاه ، دائب الحرس عليه ، فى سلامة مولاة أمان له هو نفسه وضمآن حياته . وكان كلما رأى دفعه إلى الميدان حذره قبل أن تنطلق فى غمرة الصراع قدماه :

« يا حريث . . . اتق عليا ، وضع رحلك حيث شئت . »

لكن الفرور أرداه ! — أردى الغلام المدل المختال الذى ودسيده لو ادخره واستأخر بأجله بعد هذا اليوم . وأغبر هذه الداهمة القاصمة التي أتت بحينه ،

ورسمت الملعقات الأخيرة من عمره بكف صناع دون حذقها ودربتها جمعة الخيال
وشطحة الأساطير . . .

وكان الشيطان دليله . . . مضى يهون عليه ، ويزين له ، ويلون قدره بكل
زاه وبراق حتى هانت الأخطار ، وخفيت عنه قيم الأقدار . فلما انتفخ سمعه ،
وورم صدره ، ومال خده من الكبر ، أقبل يعثى على خيالاته وكأنما الدنيا تضيق
عن خطوه . . .

وكان عمرو عيطانه . . .

قال له ابن النابغة ينريه :

« إن رأيت فرصة فاقم . . . »

وكان على حينذاك على رأس جنوده . . .

ثم قال ثانية :

« ... إنه كره أن يكون لك حظها ... »

« من ؟ »

« معاوية . . . إنك والله يا حريث لو كنت قرشياً لأحب صاحبك أن تقتل

عاليا . . . لكنه كره أن . . . »

فصرت أسنان الفقى من الغيظ ... وفتح فحيح ثعبان ،

« كره . . . »

« فإن رأيت فرصة فاقم . . . »

فاقتم . . . ولم يكن بالجبان الرعديد ، بل كان ذا بأس ، جلد القلب .

شديد البنيان ، له ساعد دوار يطيعه سلاحه . . .

وصاح الغرور :

« يا على ، أقدم . . . »

فإذا هي آخر دعواه ، وكل ما لفظه حلقه من علائم الحياة . . . حتى النفس

لم يتردد بعدها فيه ، ولا كان له رجوع . وحتى خفقة القلب التي ختمت عمره

لم يهتز بها إهابه . وحتى اختلاجه العين وهي تظلم لم تخرج لها أهدابه . . . إنما

هي كلمة وقع بها الإمام صوته ، يسخر ، وهو يقبل عليه : « يا أيها العبد الغرير —

اثبت ! » . . . فإذا الغلام قد ثبت . ثبت كيانه على الأديم للبلى بدمه . على باب

رمسه . . . هو في الحق لم يثبت وإن همدت منه أعضاؤه ، وسكنت أنفاسه ، وصار جيفة يرنو لها الوحش والطير . لم يرقد بدنه على الأرض وهو جميع . لم يقع وحدة موصولة إلى وطائه . إنما تفرق . تمزق . انفلق جسده كحبة الفول : رمة في اليمين ، ورمة في اليسار وقد شطرتة الضربة . . .

فأى المشاعر خالج الآن نفس ابن العاص ؟ . . . الأسى أم الأسف ؟ . . . الألم أم الندم ؟ . . . أم الذى كان أدنى إلى طبعه غير هذا وذاك من عواطف وخليجات ؟ . . . إنه لم يكن غافلا عن خطر على ، ولا هو حين أغرى الغلام ، كان يرجح أنه سيظفر . . . إنما أراه كان يعلم أن الحرف في وسوسته ، واللفظة في تغريده ، وكل ما احتواه أسلوبه الزائف المذاع هى جميعها إبرة تحيك كفن حريث ومعول يشق الثرى له عن قبر غائر يتوارى فيه . . . ومع ذلك فلا عن ضغينة للقى نزع نزع ، ونفث نفثه القاتل المسموم . . .

لا لنقمة ولا لثأر . واسكنه كان رجلا يعرف نفسه ويعرف حليفه . وكانت نفسه هى بضاعته . وكان حليفه هو شاريها . فلو تعددت معها السلع في سوق البيع لبخسها معاوية ، أو زهداها ، أو هان شأنها لديه . . .

بهذه النظرة الثاقبة الحاسبة كان عمرو يقيس العلاقة بينه وبين ابن هند . قالصالح الدأى وحده هو مؤلفهما على هدف ، وجامعهما على غاية . وبقدر حاجة الواحد منهما لصاحبه يتوثق العقد ، وبقدر تغاينه عنه ينفطر . . . ولقد أيقن ابن العاص دأما أن الزمن الذى أوشك أن يحقق له أطباعه إذ جعله ناصحا لسيد الشام لن يظل إلى الأبد في ركابه إلا أن يؤمن التابع بفضل المتبوع ، ويعرف قدره ، ويقدر خطره . وما كان معاوية ليؤمن مثل هذا الأيمان حتى يهبط درجة من سمائه ، وتنتقص أطراف خيالاته ، وتقفز الأرض حوله من الأعلام والمشارف التى تخفى حليفه الوصولى عن عينيه . . .

أدنى إلى طبيعة ابن النابغة إذن هذه الشهامة التى أراقها نعره ، ذلك اليوم ، وحريث يدنو إلى حافة قبره وهو غرير . . . فهو علم يندك . وهو مشرف ينهار . وهو ريشة في قوادم العاهل أو خوافيه حين ينزعها الموت مستعوق الباشق أن يحلق ويستطير . . . وما كان عمرو ليرجو أن يوهن من قوة واه إليه إلا بالقدر الذى يخفضه به إلى مستواه ، فيقهره على اللجوء دأما له ، والتعويل عليه . . .

حق حينما كان يسعى إليه بالرأى ، كان يبطن الشورى بعكره ، ويعزجها
بما ينال من كبرياء العاهل المستشير واستعلائه . فلم ينقط عن غمزه ، وعن كشف
هناته ، وعن تهوين شأن نفسه عليه ، هو المولع دأما بأن ييدو الأريب اللبيب
الذى يحتل السكر ، ويفتل السكر ، وتعنوا له جباه الدهاة . يخرج على إليه
ذات ساعة من القتال ، يناديه :

« يا معاوية ... »

ويكررها المرة بعد المرة ، والعاهل مجفل عنه لا يزيد على أن يقول لمن حوله :

« اسألوه ما شأنه ... »

« أحب أن يظهر لى ... »

عندئذ يدفعه عمرو إلى ما بين الصفيين وهوفى الأغلب كاره ، ليسمعوا الدعوة ...

« يا معاوية . ويحك ! ... علام يقتل الناس يبنى وبينك ، ويضرب

بعضهم بعضا ؟ ... »

فيرجه المعجب .

ثم يصفى الغريفة

« ... ابرز إلى ، فأينا قتل صاحبه فلأمر له ... »

فيرجه الخوف ..

ثم يسأل حليفه :

« ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا . أبارزه ؟ ... »

« اغتنمه منتها ! ... »

« ويحك ! ... »

« أنصفك الرجل ... »

فيكاد حلقه يغص بالمأظه الخيري المكتومة ، وهو مشدود :

« يا عمرو بن العاص ؟ ... »

« ... إن نكبت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى ... »

اغتنمه منتها ! ..

غير أن وسواسه لم يغلب ابن هند على حرصه ، ولم يلهه عن تبين القبر الذى

يغفر فاه على قيد الخطوة : إنها قدمه ترتفع ، ثم تنحط ، ثم لا تكون الحياة ...
وصاح معاوية في مشيره اللثيم :

« ما أحقك ! ... ليس مثلى يخضع عن نفسه ... والله ما بارز ابن أبي طالب
رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه ... إن تريد إلا أن أقتل ! ...
وحفظ معاوية بقية أجله ..
ونحك على ...

وسخر عمرو :

« إيها أيها الرجل ! ... أتجبن عن خصمك ، وتهم نصيحتك ؟ ...
ثم انتفخ حتى حسب أن قد ضاق به مكانه . واكتفى بحياه مسحة من خيالاته
وهو يعلق لأمره في اعتداد و صلف :

« والله لو علمت أني أموت ألف مائة لبارزت عليا في أول ما ألقاه ! ...
ولسكنها سخزية عابث وتفخمة مغرور ، فلم يهلكه القدر حتى ملخ عنه إهابه
الزائف المرقش وتركه عاريا أمام النواظر الزارية النقادة ... عاريا يدخيلته ،
وعاريا بسوانه ، وبين هذه وتلك لا فرجة لفخر بطل ولا لعجب مختال ! ...
فلقد خرج يجتلد ، والرحى تدور ، فكادت النخوة ، وحمى الحرب ، ونجمه
العائر القائر تقع به تحت كف الإمام . عندهذا تبدد الكبر من نفسه ، وجفت
الحمر في كأسه ، وغدا بدنه وذهنه وعينه جميعا مطايا له ذات أجنحة تطير بعمره
إلى تجوة بعيدة ...

وأقبل على . إن رأى فالخطر ، وإن دنا فالحام ، وحينذاك لن ترده الصوارم
القواطع عن رقيق دنياه ! ... وتد رأى . ثم دنا . ثم هم أن يدهم . فإذا
ابن العاص أسرع بالحيلة من دمه الدام ، وضربة البائر القاصم ... إلى ملاذ
الحياة ... الداهية الخبيث تفزعة الهجمة ، فيلقى بدرعه ، ويلقى بسيفه ، ويلقى
بنفسه تحت قدمي غريعة مفلول الحول ، مكشوف السراة ، كله ضراعة
ووهن ومذلة ...

ويأبى الإمام أن يلوث يديه بدم أعزل خافض الجناح ، تكرر ما وعفة ،
فيخليه ..

ويقول الناس :

« أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . . . » .

فبيئسم لهم :

« وهل تدرون من هو ؟ . . » .

« لا . . . » .

« فإنه عمرو بن العاص ، تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه . . . » .

وعندما رجع الرجل إلى معسكره ببقية أجل سبغت ناجية على ماء حياته ،

سأله هناك صاحبه الشامت وهو لا يكاد يكتم سخريته :

« ما صنعت يا عمرو ؟ . . » .

فلم يردده الخجل عن جوابه :

« لقيني على فصرعي . . » .

وضحك معاوية . ما خفي عنه استخزاء رفيقه ، ولا هذه العلام من الضمة

والهوان ترهق وجهه بغبرة عاره وإن غشاها بنقاب خادع من الجمود . . .

وزجى حديثه له بعد قليل ، رفيقا لينا كوجه اليم في يوم صائف ، الصفاء

على السطح ، والشواثب في القاع . . . قال وظاهر لفظه الفرحة بنجاته ،

وباطن مدلوله السخرية :

« احمد الله ، وعورتك . . . » .

فتار ابن العاص وقد وخزته الغمزة :

« ما أشد تضيقك عليا في أمرى هذا . . . وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه

فصرعه . . . أفترى السماء قاطرة لذلك دماء ؟ . . : »

فكانت الكلمات الوائية التي أرسلها العاهل الساخر ، في تماوت وخبث :

« كلا . . . ولكنها معقبة لك خزيا أبا عبد الله . . » .

على أن هذه المساجلة بالمشالب بين الرجلين ، الحليفين الغريبيين ، لم تكن لتفسد

عليهما الألفة التي خلقتها المصلحة ، ووطنتها عبادة الذات . . . إنها اصطراخ

للموجة والموجة لا يقعد بهما عن التهاوى إلى الشاطئ الوستاني والاعتناق فوق

قراشه الرمل الناعم . . . إنها سباق إلى التفوق بالجنان واللسان ، وبالدهاء

والذكاء ، وبالزهر والحيل . . . إنها رياضة ذهنية مارستها وهما معا على بيئة

من أهدافها ومراميها التي لم تكن قط لتحيد بالعين عن المرمى الأكبر ، والمهدف الأوحى الذي رمقاه . . .

ذلك وحده غرض الشوط وغاية المباراة . . . فما كان عرو جادا حين راح يدفع إلى المبارزة صاحبه وهو يعلم أنها دفعة إلى فسكى الأسد ودعوة سافرة للموت . . . ما كان ليفعل أو يفقد على الأثر هدفه ، ومأرب حياته ، ومنتهى المأمول من دنياه . إنا عمل كمهده ليبدى سواة الضعف في معاوية ، ويضعه حينما يحب أن يكون . وفي الفترة التي انمقد خلالها بينهما الحلف ، كان الرجلان فرسى رهان نحو السكر ، يحاول كل منهما أن يسبق رفيقه ، وأن يغلبه بحيلة . أن يركبه بخدعة تنال من كبريائه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بنصيبه الوفور من الذكاء والدهاء الذي ظن أنه يبوئه مكان الصدارة بين الدهاء والأذكاء . . . ومع ذلك فلم يدخرا الوسع في إيقاع على بشراك من العدر محبوكة ، أملا أن تسد عليه المنافذ أو تزم الفروج لتوهن منه كلا أعيائها أن يلقياه جهرة لقاء أكفاء . . . وهما هنا والوقمة تضطرب ، والحرب تحرب ، وكفتهما في مجال الصيال أثقل : بصف أثبت ، وجند أوفر وأغلب ، ونصر أدنى وأقرب ، يضمان معا أصابعهما المشربين . لتبتدع للإمام المزالق وتحفر الحفر ، وتندسج الأحابيل . . . إنك تشهد لها ظلا ينشر سواده على كل عمل يطوى خدعة وإن غلفاه بالنبل ، وموهاه بالبروءة ، ولقاة لبة القتال بثوب خاتل من السكرم والأريحية بجلد الحية للرقش البراق . . . يرسل عبد الله بن حنش رأس خشم الشام إلى أبي كعب الخثعمي نصير على ، يحاول أن يفسد ولاءه :

« ... لو شئت تواقفنا فلم تقتل . فإن ظهر صاحبك كنا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضا . . . »

لكن هذه المداجاة لم تخدع أبا كعب عن حقيقة الدعوة . فالظل بين . والنبل الياى الذى يقدر وشائج النسب والقراية ويأبى لها أن تتمزق كان يشف من تحته عن تنكر للمهد وخرق للذمة . فما هو بحياد أريد به وجهه ، لسكنه في صميمه تخذيل عن الإمام ، وإغراء لأعوانه لينفضوا عنه . ولن يضير معاوية بحال ، وهو الأعز بالنفر والعتاد ، أن تنجح دعوة ابن حنش ، وتعتمد خشمة السلاح ، بل للفرم محيق حينذاك بعلى على أية حال . . .

وفشلت الخدعة ، أو فشلت خرافة الحياد ، ولم يحول من قلوب خشم العراق عن أمير المؤمنين وقوف زعيم قومهم بالشام يبدى أسفه ، على ملأ من الفريقين ، ويتعدت لطائفته بلسان من ينشد السلام والحرص على صلات الأرحام :

« يا معشر خشم ... قد عرضنا على قومنا من أهل العراق المواعدة صلة لأرحامهم ، وحفظا لحقهم ، فأبوا إلا قتالنا ... فكفوا أيديكم عنهم ما كفوا عنكم ... »

ورد أبو كعب وهو يزحف بفريقه :

« يا معشر خشم ، خدموا ... »

قال ابن حنشل ليثنيه :

« يا أبا كعب ، السكل قومك فأ نصف ... »

فما رد توسله . إنما انطلق وشرعة الحرب ، وواجب الولاء لإمامه ، يخوض المنايا غير نا كل عن قصده ، حتى فرغ دون بقية الصراع أجله ، فحاز الشهادة ..

وعندئذ بكى عليه قاتله ، وضخج جسده الطمين بالدموع والحسرة :

« رحمك الله يا أبا كعب ... لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس في رحما منهم ، وأحب إلى نفسا منهم . ولكن والله ما أدري ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا أرى قريشا إلا قد لعبت بنا ... »

ثم لعبت أيضا الأصابع المشرون لعبة جديدة ، أفدح وأخطر ، وأبعد أثرا في تفويض دولة على وهدم سلطانه ... فما تضععت أركان ميمنته ، وأضعى جيشه فرقة تذهل ، وفرقة تنكل ، وفرقة تؤثر الأجل فتهرب وتبور ، حتى سمى عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي يغميه :

« إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شفتوه ... »

وكان قد وترها حقا الإمام وترها وهي في شركها غارقة ، قد عنت للصبرة الصم وأبت أن تسجد لله . وترها وقد صفت للإسلام ثم ملكتها الفتنة خففت لجاء الحياة الجباء ... في بدر كما في الجبل ، وفي أحد كما بصفين . وبين هذه وتلك كانت الترة بالدم ، والترة بالملم ، والترة بالمحمد الزاكية والمكارم الرفيعة التي حسدت يوما عليها عمدا وهو مستضعف ، فلما ظهر ، وعلت به كله الله ، وآوى

العارد لظله ، وجدت ضغائن القلوب المقروحة معدى عنه إلى صفيه النبيل تناله
بالحد والأذى والسكيدة . . .

وأكل ابن عمر مراودته :

« . . . فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟ . . . »

فصاح الحسن وقد لدغته عقرب الحيانة :

« كلا والله ، لا يكون ذلك ! . . »

ثم تفرس مليا في محدته القرار المورور ، بنظرة تفيض بالترفع ، يقطر منها
ذلك السم الذى خرق أذنيه ، وقال بامتهان وزرارية :

« ... أما إن الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلق ،

ترى نساء أهل الشام موقفك ! . . . يا ابن عمر ، سيصرعك الله ، ويبطحك
لوجهك ، وكأنما أنظر إليك مقتولا في يومك أو غدك . . . »

وتركه بعد ساعاته ! ..

٥

حان العمل بعد الحيلة ..

الآن كفة معاوية ثقيلة . ميمنة على ما تزال فلولا يحاول أن يلم الأثر شعنها
من هنا ومن هناك . يمن قلبه مولية . هضر الميسرة متخلقة عن مواقع القتال . .
جموعه مفرقة ، وخطوطه ممزقة ، وايس يسك المعركة أن تنجلي عن هزيمة
ساحقة إلا جلد الإمام واصطباره .

ونادى ابن عمر في طائفة من الميمنة الأموية ، وهو يوحى لهم إلا ربيعة :

« يا أهل الشام .. إن هزمت هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان ، وهلك

على وأهل العراق . . . »

فشدوا القائمة ، وهزوا الحسام ، وخرجوا معه ، معلمين بالخضرة .

كانوا أعداء حمير ، عليهم ذو الكلاع . قد حرك فيهم معاوية تلك المواجد

القديمة التى انطوت زمنا في قلوب أمثالهم من عرب الجنوب على عرب الشمال .

وكانوا نفرأ وأربعة آلاف ، تعاقدوا معا على الفناء أو النصر . وكان النهار حينذاك

في اعتداله ، الأفق ضياء ، والأرض رماد ، والنسمة لهب . لا تكاد وجوعهم تصانح إلا لفحة ، وأقدامهم تظأ إلا ججرة ، وعيونهم ترى إلا قطر العرق الذي تجمع على أهدابهم ضبابا كثيفا اختلطت به حبات الرمل .

ولم يكن الجهد قد نال منهم وإن تبدى على ملامحهم القاسية بعض رهبة الموقف ، وبعض مشقة الطريق ، وبعض جد القتال لم يضيقوا الخطوة . ولا تهييوا اللقاء . ولا خطر ساعة بأخلاقهم أنهم يزحفون في باطل . حتى ذو الكلاع لم يضطرب بالقلق فؤاده . . قبل نهوضه لهذا المسير ، من ليل ، كان الشك يحزه ، ويدهي ضميره ، وبوشك أن يشد قدمه إلى طناب قسطاطه ، ولكنه اليوم ، إذ زحف ، غسل من الحيرة نفسه ، ومن الريبة قلبه ، وبدد عن خاطره سحائب القلق فطاب . .

وردد الرجل بذهنه حديث ليلة في الليالي أوشك حينها أن يفتنه عن أهل الشام ، وعن معاوية وأهدافه ، ويلوى به ويقومه التنية وراءه إلى مظاهرة على والانحياز لصفوفه . . وكان ذلك ذات أمس قريب . وكان مبعث التردد حينذاك كلمة جرت في القابر يستمع به ، من بضع سنين ، ما كاد الزمن يعكس لفظها على ذاكرته حتى مشيت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدرة ، والألم العاصف النابض في محياه

إن تكن هزيعة فالهزيعة في الله نصر . وإن يكن نصر فالنصر في الخطيئة هزيعة . . . وذو الكلاع لا يجب أن ينام على ريبة أو ينطلق شوطه وهو عن الحق مخدوع . ليس يجعل يقاد بخطامه . ليس أداة صماء . . . ولئن ربطته بمعاوية روابط من الود والولاء والعهد ، فدينه أولى بولائه . . .

وبعث ذلك اليوم إلى ابن عمه ، أبي نوح ، حليف الإمام ، يستقدمه ليثمه همه ، ويلتمس لديه راحة الروح :

« إنى أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه . . .

فلما أقبل عليه ، بعد استئذان ، قال ذو الكلاع له :

« إنا دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص ، قديما ، في إمارة

عمر بن الخطاب . . .

فسأله ابن عمه :

« وما هو ؟ . . . »

« حدثنا عمرو عن رسول الله قال : يلتقى أهل الشام وأهل العراق
وفي إحدى الكتبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار . . . »

قال أبو نوح في ثقة ، وقد توجهت عيناه :

« لعمر الله إنه لفينا . »

« أجادهو في قتالنا ؟ . . »

« نعم . ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم مني . ولوددت أنكم خلق واحد
فذبحتهم وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمي . . . »

عندئذ هتف ذو الكلاع وهو منزع مهموم . قد زلزلته لمجة اللحم
في حديث صاحبه .

« ويلك . . . علام تتعنى ذلك منا ؟ . . والله ما قطعك فيما بيني وبينك .
وإن رحمك القرية ، وما يسرنى أن أقتلك . . . ؟ »

فلم يمطف فزعه ولين خطابه قلب هذا القريب الغريم الذي لا يداجيه .
بل سمعه ثانية يعنف ويلهب وجهه وقلبه بسوط الصراحة :

« إن الله قطع بالإسلام أرحاما قرية ، ووصل به أرحاما متباعدة ، وإني
لقاتلك أنت وأصحابك . . . نحن على حق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة
الكفر ورءوس الأحزاب . . . »

واهتز فزع الخليف الأموي . وغدت قدمه كأن على ماء . . . ما لعيديه
خامتا ؟ . . . ما لبدنه وهن ؟ . . . ما لقلبه خار ؟ . . . إنه حديث عمرو . ذات
ألفاظه . من ذات شفثيه وإن بعد العهد وكرت عليه الأعوام . . . أفلا يؤمن
الآن ، ويبقى إلى جانب الهدى وقد وضعت العالم ؟ . . .

وصاح بابن العاص وهو مستوحش :

« ويحك يا عمرو . . . »

نخله الخاتل الداهية . وأشرق عليه بوجه رائق فيه تألق الشعاع الهادي ،
وصفاء النبع يتفجر من صخرة ، وطهر الوليد . . . وكانت بسمة ناعمة كلمسة
النسيم تمسح شفثيه ، وصوته الخافت الرقيق ينساب :

« إنه سيرجع . . . سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب . »
ولم لا ؟ . . .

بلى ، فهذه سمات يقين ، وعلائم إيمان . والعند القابل القريب سيكشف
الغطاء . . .

وتفكر مليا الرجل الحائر . . . الريبة تقبل عليه مرة ، وتدبر مرة ، تغيب
وتقلع كأنها سحب ليلة ذات ريج . تخف عن قلبه وتثقله . . . فإن يكن كذب
ابن العاص ، فعلى نفسه عقبي كذبه ، ووبال هذه الفرية التي أول بها رأى محمد
فأساء التأويل وخادع وخذل عن قدر الله . وإن يكن صدق فليست هذه أول
مرة يصبأ فيها من هنا رجل ، ويشوب فيها من هناك آخر . . . طوال الليالي التي
عاشتها المحنة الدامية فوق أرض صفيق ، كان الكثيرون على شبهة ، يستبدلون
بالفكرة الفكرة ، وبالمسكر المسكر ، وبمعاوية وعلي معاوية . وقد
يصبح الصباح فيتابعهم عمار . . .

هنا استشر بعض طمأنينة . . . إن هذه الحرب حرباء . . . غير قلب ذات
الوان . أرتة الأضداد والنقائص بدتهه بالغريب والعجيب . الحق فيها حيران
قارب تائه . بلا شراع . وبلا ملاح . الرياح سكانه . والموج ربانه ، وهذا
الشاطئ الداني كذلك الشاطئ البعيد . كلاهما بسط رجاءه ، ومهد رمله
وحصباه ، ونحى وعره وصخره ، وفتح صدره ينتظر أوبة الشريد . . .

ثم نام الليلة في أحضان رجائه . . . وحلم وأصبح . وأضحت الضحوة عليه
وهو مستبشر . فابن ياسر الآن منهم قريب ، على رمية رمح : على قيد النظرة
من الألى حالفهم النصر وفرت أمامهم عوامل الهزيمة فرار الظلمة أمام الشعاع .
فما الباطل بغالب . وما الأمر إلا ساعة أو بمضها ثم ينبج الحق ، وينقأ أهله إلى
ظله ، ويقبل عليهم عمار من هناك ، يدع الظلمة ، ويهني النور . . .

إنها أمانى . رؤيا حالم . آمال غرير مخدوع . ولكنها ليست وحدها ما أراح
باله . فعدة الظفر في يمينه ، والغلبة لها سفراء ورسول يبعث بهم معاوية للمسكر
الآخر ، يبدون الطريق لجيشه ، ويكشفون القلوب لسلاحه ، وينفثون السموم
في الصدور . . .

وكانت الخيانة من رسله .

ثمة رجل في يمينه الآن مفتاح الوقعة ، وغاية الغايات من ذلك الصراع الناشب
الذى تهيأت حمياه تأكل الظلف والقدم ، كما يحرق اللهب الحطب وتذرو
الزواجع المشيم . . .

وثمة آخر توطدت له بين أهل العراق الكلمة ، وتمكنت في يمينها السيادة .
وكان لقومه في الغابر ملك ترنمت العرب بأخباره ، ولهجت بذكره وسيرته حقبة
من الزمان . . .

وكان أولهما من الشمال . من ربيعة التى تثبت اليوم للهول من دون الناس ،
تدفع عن طى بالسيف وبالكف ، بالروح وبالقلب ، بالظفر وبالناص ، وإن تفرق
عن نصره الحماة وتقطعت به عن مناجزة خصمه ، القوى الوفير ، الأسباب . . .
وكان ثانيهما من الجنوب . ما يزال بنفسه بعض الولاء للإمام ، والإقامة على
عهده . ولكنه امرؤ به زهو ، وآثار عزة وكبر تخلفت عن أسلافه الملوك من
كندة الذين راوده ذات يوم شيطانه على امتشاق صولجانهم البالى ، ووضع تاجهم
المحطم الدارس على مفرقيه وإن ارتد وخلع الإسلام . . .

لهذين الكبيرين زحفت الحيانة . . . لحالد بن العمر صاحب اللواء في ربيعة ،
ولالأشعث بن قيس صاحب الأمر في كندة ، وكلا الرجلين كانت لهما يد من بعد
في مصير الصراع . . .

وكانت البذرة الأولى الحبشة ، التى ألقاها معاوية في الأرض الحثة ، يوم دعا
إليه عتبة أخاه فجاجاه :

« اتق الأشعث بن قيس ، فإنه إن رضى رضيت العامة . . . »

فخرج عتبة إلى صاحب الردة يدعوهم ، والناس حينذاك قد أكلتهم الحرب ،
وجنحت أنفوس منهم إلى رخاء السلام .

« أنا عتبة بن أبى سفيان . . . »

فزها الحالم أمسه بتاج الجنوب ، وقال :

« غلام مترف ، ولا بد من لقائه . . . »

واستقبله ، يسأله :

« ما عندك يا عتبة ؟ . . . »

قال باذر الحبة الحبشة وهو يهيم لها من صدر المدل المعرور مغرسها الصالح :

« يا أبا محمد . . . إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير علي للقيك . . . »

« إن لقيني والله لما عظم عني ولا صغرت عنه . »

فتنى عتبة عليه بالمصانعة والنفاق :

« . . . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان

إليك ما سلف من الصهر والعمل . ولست كأصحابك . . . »

ولقد كان

فهو عامله قديما على أذربيجان . وهو صهر له ، ربطهما النسب ، منذ زوج

ابنته عمرو بن عثمان بن عفان . فكادت الصلة : عملا ونسبا تميل به — لولا أن

غيره قومه — إلى مظاهرة الشام وابن هند على العراق والإمام

ورد والنخوة تحرك لسانه :

« . الرأس المنيع والسيد المطاع على بن أبي طالب ! . . . وأما ما سلف

من عثمان إلى فوالله ما زادني صهره شرفا ، ولا عمله عزا . . . وأما عييك أصحابي

فإن هذا لا يقربك مني ، ولا يباعدني عنهم .. »

وعندئذ رفع عتبة بسن محرائه إلى الأرض السبخة :

« يا أبا محمد . . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل

الشام حمية . . . وإنا لاندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك

إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا . . . »

فتفكر الأشعث برهة يزن الأمر وهو تياه إذ انتهى إليه وحده حقن الدم

وإقرار السلام . ثم ما لبث أن أجاب :

« .. سنرى رأينا إن شاء الله . . . »

وقال معاوية لآخيه حينما عاد :

« يا عتبة . الرجل عظيم عند نفسه . . . وقد جنح للسلم . . . »

وما أخطأ الماهل الصواب . فالتربة قلبها المحراث . والبذرة وضعتها الباذر .

والسقياء تمت : ذهانا ورياء ومداجاة ، وعماقيل ، بعد ساعات . في إبان الدعوة

إلى الاحتكام لكتاب الله ، ستكون هذه الثروة تمت ، وفزع عودها وطال .

وغدت دوحة سامقة ذات ثمر مسموم^١

وكانت البذرة الحبيثة الثانية قد استوت منذ ليال في الأرض الحثة ، ساقا مورقة ، لها براعم ، وطلع كأنه رؤوس الشياطين ! ذلك ما رآب الناس ، وعلم على وخاضت الأسن الزارية فيه بالسرحينا وبالجهر آونة عندما حمل ذو الكلاع في حمير ومعهم ابن عمر على ربيعة الباقية وحدها على الخط . الصابرة للخطر . . . فإذا ذاك مال خالد بن العمر السدوس للانسحاب ببعض قومه كأنما لينأى بهم مشفقاً عن المصارع . فلما رأى من عداه من أصحاب الرايات في ربيعة ثبتوا ، انثنى فعاد . . .

وتغامز الناس . . .

وتهامس فريق بشكه القديم :

« إنا لا نرى خالد بن العمر السدوس إلا قد كاتب معاوية . . . »

ولغظ فريق :

« أراد الانصراف فلما رأنا قد ثبتنا رجع إلينا . . . »

ودفع هو التهمة عن نفسه :

« لما رأيت رجالاً قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردم إليكم ، فأقبلت

إليكم عن أطاعني منهم . . . »

ثم لم يخن عنه بلاؤه من بعد في القتال ، وتحريضه القوم على الصبر . والدعوة التي دعاهم للجنة . . . كل هذا الغشاء لم يستر سره . لم يقتلع الدوحة النابتة في ضميره . لم يجث جذرها السام . . وإنها ليلية ويركل النصر — يبيعه سلعة رخيصة في سوق القدر والنكث والغواية ، ثم يعم وجهه شطر الشيطان .

* * *

على أية حال ، كاف ذو الكلاع وابن عمر حين زحما بالكنتية الخضرية الرقطاء قد آمنا أنها تسير للغلبة ، عدوها مهيب أوهنته الفرقة ، وأرضها لينة عبدتها الحيانة . . ولم يكن ثمة أمامها إلا ربيعة ، إن جالدت خمية ، وإن صابرت فساعة . أما بقية جيش على فألى الآن كالقطع الضال . .

لكن ربيعة أبت أن تبور ، لا وهن ولا تخاذل ، ما تنهاوى منها فرقة حتى تقوم فرقة ، كأنما تماقد الرجال فيها أن يتزاحموا على الموت دراكا تزاحم الإبل

هدية الشهيد السيد

السيد عز الدين بدر الطوم

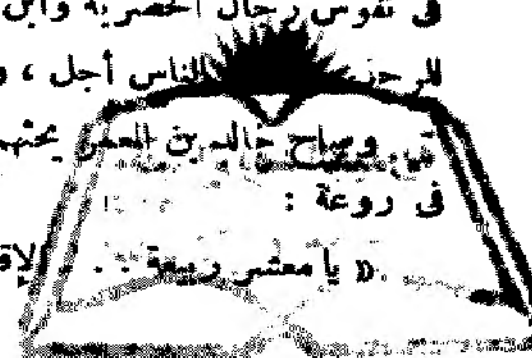
لمكتبة الرواقية الحيدرية

المهم على المورد المذب بعد شقة الرحلة تحت وقدة المعير ١ .. شهد الله كيف صبروا . وكيف ذاقوا المر في الصبر ، وشهد أيضا تل الجماجم الذي استقبل منهم الهامة فوق الهامة ، كأها الركام والحجارة ، تشمخ بها قمة ذلك الكتيب لمسبح السحب ، بهذه البقعة الحمراء بصفين ١ .. حق عندما نال البأس من عزم خالد ، أو نالت الغواية ، فمال بشرفه ورايته إلى نجوة ، لم يغتن الناس عن الجلال ميله ، ولم تستهزم منه هذه الدعوة الصامتة إلى الحياة . . . إنما أنكروا عليه . وشنثوا فعله ، وساطت جسده السن حداد دفعت به ثانية إلى صفهم ، وردت حياته في محياه ٢ ..

من اعتدال النهار لغروبه ظلت الحضرية تهز نصالها في وجه ربيعة ، وربيعة أمامها تناضل ، كانت الصولة تقابل الصولة ، والسكرتة تقابل السكرتة ، وإن همت الكثرة في أحايين كثيرة أن تعصف وتقصف لولا هذه الإشاعة من الإيعان التي كانت تكشف دائما اضعاف العدد عن مغاني الجنة من خلال الدعاء ١ .. ما من رجل واحد بين الفئة التي ناشها سلاح الكتيبة الرقطاء كان يستطيع أن يترك العمرة ليسترخ ، أو يركز رمح ليلقف أنفاسه . . . بل الزفرة التي يلفظها كانت تحز في فؤاده لأنها هنيئة من عمره وات سيفصر بعدها أمد نزاله ١ . بل الصلاة كانت رمزا : التكبير تغني عن الشعيرة . والخشوع يترجم عن السجود والركوع ١ .. وفي خلال النهار كله لم تسر قدم إلا إلى أمام ، ولا يغمد سيف ، فالأغمد على سيوفها حرام ١ ..

وغدت الحياة وليمة شهية للموت طعمها نخوة ، وفي الظهر ، وساعة العصر ، وإبان تلون الأفق بصبغة الأصيل ، وذوبان الشفق في ظلال المشية . . وكانت فكرة الفناء تطوف بأنفس ربيعة الصابرة فلا تفزعها بل ترفعها درجة في مراقي الفداء . . وكانت فكرة الغلبة السريمة والنصر العاجل تذوي رويدا رويدا في نفوس رجال الحضرية وابن عمر وذو الكلاع . . فما عدوهم هؤلاء إلا مرده ، للرحمة الناس أجل ، وللرجل منهم عدة آجال ١ ..

في روعة : « يا معشر ربيعة : . . الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سعية ١ .. »



وأسرع زيادة بن خصفة إلى عبد القيس يلتبس عندها وقودا جديدا يبقى
لظي هذا الكفاح مستعرة :

« لا بكر بعد اليوم إن ذا الكلاع وعبيد الله بن عمر أبدا ربيعة ،
فانهضوا لهم وإلا هلكوا »

وما كانت هذه الطائفة لتبيد ، فالحياة لمن زهد الحياة . والموت يرهب
الشجاع المصابر وإن عزمها ليصلب وإن عنادها ليشدد ، وإنها لتقذف
غير هيابة بأعدادها إلى فم الهلاك فيخدش ولا ينهش ، ويكلم ولا يلتهم ، كان
مذاق لحمها كريه ، أو هو أنخم فغشت نفسه وعاف الطعام ؟



هدية الشهيد السعيد
المسيد عز الدين بقر الخطوم
لمكتبة الروضة العبدرية

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة . ٤٠ جلد.